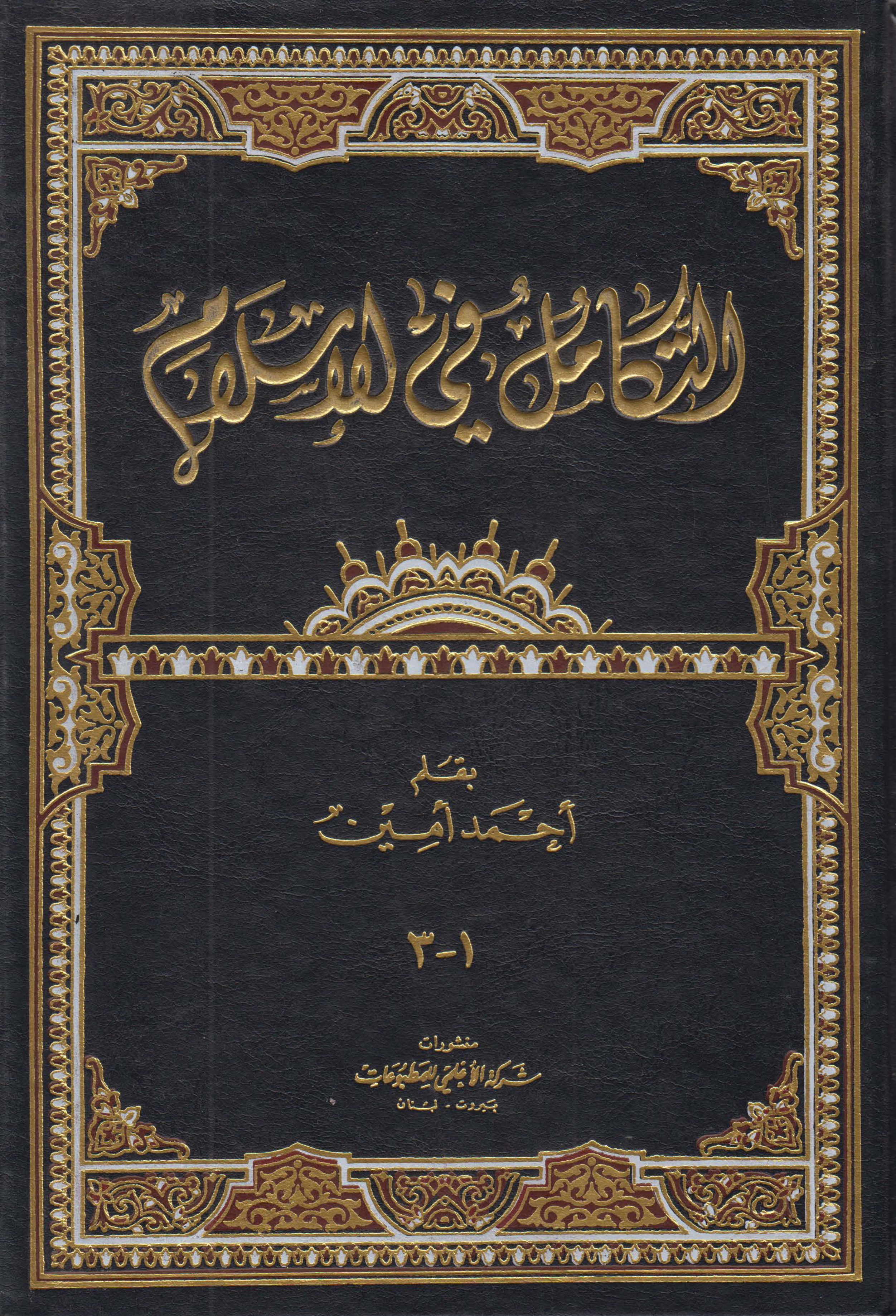
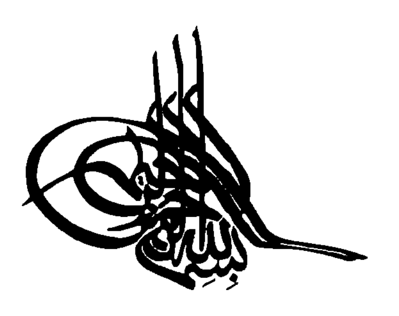

التكامل في الإسلام
بقلم
أحمد أمين
١-٣
منشورات
شركة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

التكامل في الإسلام

١ ـ ٣





التكامل في الإسلام

بقلم

أحمد أمين

خرّج مصادره وصحّحه

علاء الدين الأعلمي

الجزء الأول

شركة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

شركة الأعلمي للمطبوعات

Published by Alaalami co.

بيروت - طريق المطار - مفرق حارة حريك
قرب سنتر زعرور
هاتف: ٠١/٤٥٠٤٢٦ فاكس: ٠١/٤٥٠٤٢٧



Beirut Airport Road
Tel: 01/450426 Fax: 01/450427
E-mail: alaalami@yahoo.com
http://www.alaalami.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام عليٌّ عليه السلام :

عباد الله زِنوا أنفسكم قبل ان توزَنوا، وحاسبوها قبل أن تحاسبوا. وتنفسوا قبل ضيق الخناق، وانقادوا قبل عنف السياق. واعلموا أنه مَن لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا صفت النفس الإنسانية مما علق بها من أدران وأوساخ، ونظر الإنسان نظرة دقيقة فيما جاء في الدين الإسلامي من واجبات ومحرمات ومستحبات ومكروهات ومباحات وسنن وآداب وأوامر ونواه، لرأى أنها برمتها ترمي إلى تكميل النفس الإنسانية وإبلاغها إلى أسمى مراتب الكمال، كمال منَّ الله تعالى به على البشر، يتفاوت حسب جهودهم ومساعيهم، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النّجم: الآيتان ٣٩ / ٤٠]. ولئن كانت التجربة مدار العلم الحديث فنحن ندعو رجال الثقافة والتفكير وأعني بـ: (التفكير في العلوم المادية) للقيام بهذه التجربة الحيوية المنجية وأعنى بها تطبيق القوانين الإسلامية دون أن يستثنوا منها شيئاً كتحليل الربا والنظر إلى ما حرم الله تعالى أو. . . حتى يروا في أنفسهم ذلك التقدم الروحي والتكامل النفسي، فيقيسوا إذ ذاك ما كانوا عليه من البهيمية مع ما بلغوا إليه من حالة قدسية حديثة، فيأسفوا على ما فرطوا معترفين أن الله قد أخرجهم من الظلمات إلى النور. فقد جاء في الحديث: «الناس كلهم بهائم إلا قليلاً من المؤمنين». وإن الله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمّد: الآية ١٢]. ولكن هيهات. لا ينال توفيق هذه التجربة إلا من لم تنقطع صلته بالله وكان له، على الأقل، اتصال ضئيل بربه بعمل صالح كان يأتي به من حين إلى حين. إن الله تعالى يقول: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ

وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: الآيتان ١٠/١١]. فلا يوفق إلى هذه التجربة إلا من خشي الرحمن في خلواته ولو قليلاً: هُيئت له موائد الخمر ولا حرج عليه، فلم يشرب، أو كان وصولاً لأمه وأبيه، أو كان حسن الخلق غير متكبر ولا متجبر، أو كان عطوفاً على جاره ببعض ما يتمكن منه إلى غير ذلك.

ولكن من انقطعت صلته بالله تبارك وتعالى وأصبح جرثومة فساد لا يبدو منه عمل صالح لوجه الله أبداً، فقد انسدت عليه أبواب الهداية وأصبح لا تؤثر فيه الهداية أبداً.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: الآيتان ٢٧/٢٨].

فمثل هذا الشخص لا يوفق للقيام بهذه التجربة التي بها حياة الإنسان وسعادته الأبدية. حتى إنه يستخف هذه التجربة ويرى ما فيها من نصوص خرافية. إنه قد عمي قلبه فأمسى لا يبصر شيئاً. كما في الحديث: «وإن أعمى العمى عمى القلب»(١) إن الله تعالى يقول:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٢]. ومعنى ذلك أن قساوة القلب تؤدي إلى الضلال ولا يقسو القلب إلا بارتكاب الجرائم.

إن الله تعالى يقول: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرّعد: الآية ١٩]. ولا يأتي هذا العمى إلا بسبب الفسوق. ولا يأتي الكفر إلا بسبب الفجور. لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٩].

إن القلب ليصدأ بسبب المعاصي والآثام وأعني بذلك النفس أو الروح، فيكون هذا الصدأ حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق والواقع، لقوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفّفين: الآية ١٤].

وإن هناك تلازماً بين العمل الصالح وتكامل النفس، كما أن هناك تلازماً بين

---

(١) الكافي: ج٨، ص٨٢ باب وصية النبي ﷺ، ح. ٣٩.

المعاصي وتسافل النفس. فلا يجزى الإنسان إلا من نوع عمله، صالحاً أو فاسداً؛ إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطُّور: الآية ١٦].

وفي آية أخرى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يُونس: الآية ٥٢].

أيضاً قال سبحانه: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٤].

وإن هذا هو الحجاب الحاجز عن رؤية الحق فقد يكون كثيفاً إلى درجة يجعل صاحبه يسخر من الذين آمنوا، متهماً إياهم بالخرافة والرجعية، والواقع أن الرجعية هي الرجوع عن الحق إلى الجاهلية الجهلاء. إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [المطفّفين: الآية ٢٩].

ولم يكن ضحكهم هذا واستهزاؤهم إلا لجرائمهم السابقة. ثم يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: الآيات ٣٠/ ٣٣].

وقد يبلغ بهم العمى حتى تحجب عقولهم من أن تفهم أبسط عمل يقوم به المؤمن وهو أداء واجب الشكر تجاه خالقه بصلاة يصليها لربه.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[المَائدة: الآية ٥٨].

نعم، فقد ذهبت عقولهم، ذلك العقل الفطري الذي أودعه الله في الإنسان، فيبصر به الحق ويميزه عن الباطل. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: الآية ٥٧].

فالله جعل على قلوبهم أي عقولهم أكنة، أغطية وأستاراً حتى أمسوا لا يرون الحق ونسوا أنفسهم وذهلوا عن معالجتها وإصلاحها. إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: الآية ١٩] ومعنى ذلك: أن تماديهم في فسوقهم هذا، جعلهم ينسون أنفسهم ويهملوها، وحاش لله أن يكون سبباً لغواية أحد وضلاله وقد أرسل ١٢٤٠٠٠ نبيّاً لتكميل البشر حتى جعل أول من خلق وهو آدم عليه السلام، نبياً. لتسبق الهداية الخلق، إهتماماً بأمر تكامل البشر. ولكنهم لكثرة

ذنوبهم وبغيهم أصبحوا لا يعون ولا يشعرون، فلا يفيد فيهم النصح والهداية. إن الله تعالى يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الرُّوم: الآية ١٠]. أي إن التمادي في الجرائم والموبقات حجبت الأنوار الإلهية عنهم، حتى صاروا لا يفكّرون في مصيرهم، موقنين أن ما هم عليه هو الصواب ونتيجة ذلك الاستهزاء بالحقائق الدينية وبما بعد الموت.

فالله تعالى وسعت رحمته كل شيء. وقد فتح باب التوبة للمذنبين من عباده، حتى جاء في الحديث (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)[١]. فالله تعالى قد أفاض برحمته وألطافه على البشرية بأجمعها. ولكن أكثر الناس أبوا إلا الخروج من طاعته. إنه يقول: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النِّساء: الآية ٧٩]. وإن ما يصيب الإنسان في حياته الدنيوية من فقر وسقم و... إنما هو لتطهيره وتزكيته وتكفير ذنوبه. فهي رحمات وألطاف تزكو بها النفوس وتتطهر عما علق بها من أدران الذنوب. وفي الحديث: «ليس من المؤمن عِرقٌ ولا نكبة حجر ولا عثرة قدم ولا خدش عود إلاَّ بذنب ولما يعفو الله عنه أكثر»[٢] وليس هذا الخدش وذاك الاختلاج إلا أمراً طبيعياً لتطهير النفوس الملوثة. ذلك لأن الكامل وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال. والتطهير هو مقدمة الكمال ولا كمال إلا به. وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله تعالى يقول: «وعزتي وجلالي لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه حتى أستوفي منه كل خطيئة عملها أما بسقم في جسده أو بضيق في رزقه وإما بخوف في دنياه، فإن بقيت عليه بقية شددت عليه عند الموت حتى يأتي ولا ذنب عليه فأدخله الجنة»[٣].

دين الإسلام دين التكامل البشري بكل ما في التكامل من معنى سامٍ رفيع. تكامل في علم النفس والروح لا في عالم المادة فحسب. ذلك لأن الإنسان بنفسه وروحه

---

(١) الكافي، ج٢، ص٤٣٥ باب التوبة.

(٢) مستدرك الوسائل، ج٨، ص٤٠٠ باب.٦١

(٣) بحار الأنوار، ج٩٨، ص٢٩٦، باب ٢٤.

وليست المادة من حقيقة الإنسانية في شيء. لذلك جاء في الحديث (الصلاة معراج المؤمن). والتقوى أساس التكامل النفسي؛ قال رسول الله ﷺ: «ما اتقى الله امرؤ إلا وجعل الله له مخرجاً من الفتن ونوراً من الظلم ورزقه من حيث لا يحتسب»: والتزكية هي نوع من التكامل ولولا التزكية والتطهير لما حصل تكامل أبداً. إن الله تعالى يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجُمُعَة: الآية ٢]. وفي آية أخرى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبَة: الآية ١٠٣].

فالعمل بما أنزل الله يؤدّي إلى التزكية والتطهير. وإعطاء الزكاة يزكّي المال ويزكّي النفوس. والكفارات وردّ المظالم مزكاة للنفوس عن الذنوب وأيضاً الحدود والقصاص كذلك. وكلها مراحل يتدرج فيها الإنسان في ساحات الكمال. ساحات ليس لعقولنا أن تحدّدها. فالكمال الذي منَّ الله به على الإنسان، كمال لا يعلم مداه إلا الله تعالى. حتى يكون مصداق هذا الحديث القدسي: «عبدي أطعني أجعلك مَثَلي، تقول للشيء كن، فيكون»، وذلك بإذنه تعالى؛ كما كان لأنبيائه ﷺ وأوصياء أنبيائه ﷺ بإذنه تعالى. وينحط الإنسان في أودية الضلال والتيه والتسافل إلى حضيض لا يعلم مدى تسافله إلا الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٢]. إن الله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ [التين: الآيتان ٤/٥].

أنظروا إلى هذا الحديث النبوي لتروا مدى اهتمام الدين الإسلامي بنظرية التكامل والكمال البشري. قال رسول الله ﷺ: «من استوى يوماه فهو مغبون. ومن كان غده شراً من يومه فهو ملعون. ومن لم يتفقد النقصان في عمله كان النقصان في عقله. ومن كان النقصان في عمله وعقله فالموت خير له من حياته»[1].

وفي حديث آخر: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً».

لذلك يشعر المؤمن القائم بتطبيق ما جاء به الدين الإسلامي الذي أخذ يجاهد نفسه ويخالفها في مشتهياتها ونزواتها ورغباتها السلبية ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا

(١) ارشاد القلوب: ج١، ص٨٧، باب ٢٢.

رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٣] . كيف يتكامل يوماً بعد يوم وهو يجاهد نفسه الأمارة بالسوء. إن الله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٩] .

وعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله، بعث بسرية، فلما رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر. قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس»[1]. ثم قال: «أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه»[2]. وفي حديث الإمام علي عليه السلام: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»[3].

إن الله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ۝١٧﴾ [محَمَّد: الآية ١٧] كل ذلك يشير إلى أن للهداية والكمال، درجات عديدة لا يمكن للبشر تحديدها: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٣] وفي آية أخرى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾ [الأنفال: الآيات ٢/ ٤].

فالمؤمنون مختلفون في درجاتهم عند ربهم، حسب مراتب تكاملهم النفسي. تكامل ليس للإنسان أن يحيد عنه، فإذا حاد عنه يهوي إلى الأسفل حيث لا أسفل دونه. وهذه هي الرجعية بالمعنى الصحيح دونما مغالطة. وكان من الذين خسروا أنفسهم. يقول الله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف: الآيتان ١٠٣/ ١٠٤]. فمآله جهنم حتى يطهر في لظاها وسعيرها. لأن الله لا يريد أن يبقى شيئاً فاسداً فيما خلق. فكما أن الجراثيم والمكروبات المؤذية تُعقّم بالماء المغلي، فهكذا الجراثيم البشرية تُعقّم بالنار. ونستجير بالله من ذلك.

---

(١) الكافي: ج٥، ص١٢، باب وجوه الجهاد.

(٢) مستدرك الوسائل: ج١١، ص١٣٧، باب ١.

(٣) عدة الداعي: ص. ٣١٤

فأنت أيها القارئ الكريم، ترى في فصول هذا الكتاب بعض ما جاء في الدين الإسلامي من أحكام، وكيفية تكميل هذه الأحكام النفوس البشرية، لو عملت بها لوجه الله دونما رياء ولا رغبة في مال أو سمعة، وترى كيف تنقشع أمامك بعض الشُبُه التي أولدها طغيان المادة وما أعقبت من شهوات ونزوات.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يستفيد الشبّان بعد مطالعة هذه السطور فائدة تحرّك جوارحهم إلى العمل بما أمر الله تعالى، خاشعين خاضعين منيبين مستغفرين نادمين تائبين، فتطهر بذلك نفوسهم وتتكامل أرواحهم، فيروا أنفسهم في عالم من القدسية بعيداً عن حدود الوصف والبيان. وأن يمنَّ عليَّ بتقديم كتب أُخرى على هذا المنوال، تتناول عملية تكامل الدين الإسلامي للنفوس البشرية التائهة، لاسيما في عصر طغت عليه المادة، فبغت وسحقت المقدسات والفضائل والمكرمات. فأصبح الرجل الديني مهيناً ممقوتاً وذنبه أنه يعبد الله تعالى، متمثّلاً بما أمر الله، متجنّباً عما نهى الله؛ والمتجاهر بالفسق موقراً محبوباً. وليعلم الشاب أن الدين الإسلامي دواء الروح وقانون تكامل النفس الإنساني والمجتمع الإنساني، وأن العمل بنصوص الدين الإسلامي يؤدي إلى تكامل في المعارف الإلهية وإلى تكامل اجتماعي. قال الإمام علي عليه السلام: «من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم»[١].

وأختم هذه المقدمة بهذا الحديث النبوي، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا أيها الناس توبوا إلى الله توبة نصوحاً قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وأصلحوا بينكم وبين ربكم تسعدوا، وأكثروا من الصدقة تُرزقوا، وأمروا بالمعروف تحصنوا، وانهوا عن المنكر تنصروا. أيها الناس إن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً وإن أحزمكم أحسنكم استعداداً له. ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والتزود لسكنى القبور والتأهب ليوم النشور»[٢].

ومنه تعالى نستمد المعونة وبه نستعين.

---

(١) الفصول المختارة: ص.١٠٧

(٢) إرشاد القلوب: ج١، ص٤٥، باب.١١

لماذا وجدنا

سؤال يتبادر إلى أذهان كثير من الناس وكل يجيب عنه بشكل يتناسب مع شعوره وما وصلت إليه نفسه من الكمال وحسب شهواته ومشتهياته. فمنهم من يقول وجدنا لكي نأكل ونشرب ونستلذ في هذه الحياة ونفنى.

لذلك يحاول أن يزداد تلذذاً وسروراً. فيسعى ليأكل لذيذاً ويشرب مريئاً وينام هنيئاً. وليست له غاية سوى الأكل والشرب والنوم. ومنهم من يقول وجدنا لكي نخدم الغير فهو يعمل في خدمة الآخرين دون أن يخدم نفسه. وقد يكون هو أحوج الناس إلى الإصلاح لما في نفسه من الدنس والرجس. ومنهم من يقول وجدنا للشقاء. فالحياة كلها شقاء. فهو متشائم معذَّب. ونريد الآن أن نحقق عن السبب الذي وُجدنا لأجله. فإذا علمنا سبب وجودنا والغاية من خلقنا، عملنا وفق تلك الغاية ونلنا السعادة. لأن السعادة إنما تتجلى بالعمل وفق الهدف المقصود والغاية المنشودة.

لننظر إلى ما حولنا من نبات وحيوان وجماد. نرى أنها كلها خلقت لأجلنا. هذه الأزهار الجميلة والفواكه المتنوعة اللذيذة والأشجار المختلفة والعقاقير وأنواع الزروع كلها خلقت لأجلنا للتذوق والتلذذ والتغذي والتداوي إلى ما هنالك. يقول الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النّحل: الآية ١٠][1].

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ

---

(١) أي: ترعون ماشيتكم. ذرا: أي خلق. مواخر: أي جارية في الماء.

يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الرعد: الآيات ١١/ ١٤].

وأما الحيوانات فقد سُخِّرت لنا للأكل والركوب والستر. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: الآيات ٥/ ٧].

وأما الجماد فسُخِّر لنا للبناء والزينة والتداوي وفوائد أخرى لا تعد. يقول الله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحجّ: الآية ٦٥] .

إذا كانت الحيوانات تنام وتأكل وتشرب وقد خُلقت لأجلنا وكذا الجماد والنبات، فلماذا خُلقنا نحن مع علمنا أننا غير مسخَّرين لموجودات أخرى. وكلها مسخَّرة لنا. إذن ما الغاية من وجودنا؟

مع العلم بأن الذي خلق الأكوان بهذا الترتيب الرائع البديع، والذي نظم الأفلاك بقواعد رصينة رياضية متقنة، يحار فيها علماء الفلك العالي، الذي شكَّل الثلج المتساقط من السماء بأشكال هندسية منظمة وأشكال مجسمة منتظمة الوجوه، الذي حرك الشمس بسرعة ٧٢٠٠٠ كيلو متراً في الساعة: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: الآية ٣٨] لا يعمل شيئاً عبثاً ولا يلهو أبداً.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: الآيتان: ١٦/ ١٧]. وفي موضع آخر من القرآن الكريم:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ١١٥/ ١١٦].

فتبيَّن من نظم خارقة رائعة نشاهدها في المخلوقات أن الحكمة متجلية في كل

زاوية من زوايا الكون. ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝﴾[المُلك: الآيتان ٣/ ٤]. فكيف يجوز على الله أن يخلق الإنسان ويخلق لأجله جميع ما حوله ولا يقصد من وراء هذا المخلوق غاية سامية رفيعة تتناسب مع عظمته وكماله.

فظهر مما ذكرنا أن وراء خلق الإنسان، غاية دقيقة وهدفاً عالياً يجب أن نتحراه. نرى أن ما حولنا من الأشياء يكون في غاية الكمال: فالحشرة كاملة في العالم الذي هي فيه. والذرة كاملة في غاية الكمال: الالكترونات تدور حول البروتونات بسرعة هائلة وبكمال ونظام. يتجاذب الجسمان بقوة تساوي حاصل ضرب كتلتيهما، مقسوماً على مربع المسافة بينهما مضروباً في النسبة الثابتة. ولو أردنا سرد أنواع الكمال المودع من قبل الخالق جلَّ جلاله في هذا الكون، لأمكن إملاء كتب عدة بل كتب لا تتناهى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝﴾ [لقمان: الآية ٢٧] . وفي موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ۝﴾ [الكهف: الآية ١٠٩] .

إذن كل شيء في هذا العالم ينادي بكمال الله تبارك وتعالى وينزّهه عن كل نقص وعيب وهذا أحد معاني قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤] .

فكيف يجوز على الإنسان أن يحيد عن سنة الكمال في عالم الكمال وأن يبقى ناقصاً في عالم التكامل.

للإنسان بُعدان: بُعد ماديّ وهو البدن الذي خلقه الله تبارك وتعالى وأتقن صنعه. فيه حركات غير إرادية لا دخل للإنسان فيها. وبُعد روحي وهو حقيقة الإنسان وهو الإنسان حقاً. فالإنسان إنسان بنفسه وروحه لا بعضلاته وأعصابه. نعم، قد بلغ المذهب في أوروبا في القرن التاسع عشر إلى حد قال أحد رجال المادة فيه: إن الإنسان يساوي كذا غراماً من الأزوت وكذا غراماً من الحديد وكذا غراماً من الأوكسيجين وكذا غراماً من الكالسيوم. . . الخ كمعادلة كيمياوية وليس وراء ذلك شيئاً! . .

والفرق بين تكامل الإنسان الروحي وتكامل المادة أن كمال المادة كمال قسري قهري وكمال الإنسان الروحي كمال اختياري.

اتضح مما ذكرنا أن الإنسان خلق ليتكامل. والآن نتساءل بم يحصل هذا الكمال الروحي، وهل هذا الإنسان المملوء من الشهوات، وهل هذا الإنسان الذي يحمل نفساً أمّارة بالسوء يستطيع أن ينظم لنفسه مناهج روحية صحيحة تؤدي به إلى الكمال المنشود، ذلك الكمال الذي خلق الله الإنسان لأجله. وهل لفيلسوف من الفلاسفة أن يضع منهجاً روحياً يؤدي بالإنسان إلى الغاية التي خلق لأجلها ويحقق علة الوجود. إذن فما هذا الاختلاف بين آراء الفلاسفة وما هذا التضارب في أفكارهم؟ وهل الفلاسفة استطاعوا أن يوجدوا إنسانية متكاملة، كما يريده الله تعالى أم هل تمكنوا من إصلاح أنفسهم؟!

إن الكمال النفسي أمر غير مادي، وإن الإنسان كثيراً ما يوفق لإصلاحات مادية واكتشافات مادية كما شاهدنا ذلك، لاسيما في القرن الأخير، ذلك لأن الخواص المادية ثابتة لا تتغير ويصل إليها الإنسان بأسلوب مادي وأعني به الاختبار والتجربة والمشاهدة، ولكنه لا يقوى على وضع مناهج روحية صحيحة تأخذ بالروح الإنساني إلى ذروة الكمال. وقد قال كوستاولوبون: «علمت الفلسفة بعد عناء طويل أن لا سبيل إلى ما وراء الطبيعة». فلابد لنا من أطباء روحيين عالمين بخصائص الروح كي يحملوا على عواتقهم تكامل الإنسان الروحي، وهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين. فهم بمناهجهم المتينة التي تأتي من وراء المادة لإصلاح ما هو وراء المادة (أي النفس) يوصلون الإنسان إلى ذروة الكمال، فيعرفون الله، يبينون الحلال والحرام والمدارج التي لو سلكها الإنسان لبلغ مرتبة الكمال المطلوب، ولتقرب شيئاً من معرفة رب العباد. وقد جاء في الحديث القدسي عن الله تعالى: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرَف، فخلقت الخلق لكي أُعرَف».

أترى أن من لم يتبع مناهج الأنبياء الروحية تكون له نفس قمينة بأن يحل فيها حب الله، وبأن يعرف الله تبارك وتعالى. فإن معرفة الله تتناسب مع الكمال النفسي: «من عرف نفسه فقد عرف ربه. . الحديث» ولا تأتي هذه المعرفة إلا بعبادة الله تبارك وتعالى. فكلما عبد الإنسان ربه بخشوع وخضوع، عبده بصلاة مقبولة وحج مقبول وزكاة مقبولة وصدقات مقبولة وخمس مقبول وجهاد مقبول وأمر بالمعروف ونهى عن

المنكر خالصاً لوجهه الكريم، عبده بأعمال صالحة، كان أقرب إلى معرفة الله تبارك وتعالى، قريباً من الغاية التي وجِد لأجلها. وما قدمناه فهو شرح للآية الشريفة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: الآية ٥٦]. فالعبادة ليست الصلاة والصوم فحسب بل تتجلى العبادة في الصلاة والصوم والزكاة والخمس والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأعمال الصالحة، كقضاء حوائج الناس وصلة الرحم وبر الوالدين والتخلق بالأخلاق الإسلامية والتفقه في الدين والاعتبار بما أودع الله في الطبيعة من قوانين وخواص. نعم، تتجلى العبادة في تطبيق السنن والفرائض التي بها يكون الإنسان إنساناً كاملاً. فتزداد بدرجة تطبيقه وإخلاصه، معرفته بالله تعالى. فإن الله لم يخلقنا إلا لأجله أي لأجل أن نعرفه ونزداد معرفة به يوماً بعد يوم. فقد جاء في حديث قدسي: «خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي».

فطوبى لمن أدرك الغاية وعمل في تحقيقها ولم تخدعه زبارجُ الدنيا ومُغرياتها ومناصبها فخرج من هذه الدنيا طاهراً مطهراً نقياً. فقد «حُفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات».

ماذا يراد من الدين؟

كثيراً ما يدور على ألسنة بعض الشباب المثقفين: إن الدين لم يعلّمنا شيئاً عن الكيمياء والفيزياء، ولم يقدّم للمجتمع اكتشافات كالتلفزيون واللاسلكي وغير ذلك. وإن المكتشفين والمخترعين كنيوتن، وهرتز، وأديسون، ودالامبر قدّموا إلى العالم اكتشافات هامة ومخترعات مفيدة ووسّعوا أفق العلم وفتحوا أذهان الناس وسخروا الطبيعة، فأفادوا العالم بعلومهم وتنقيبهم وفحوصهم. فأي اكتشاف قدّمه أحد من الأنبياء؟ وأية ماكنة اخترعها الأوصياء؟ فيصغّر في أنظارهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين ويصغّر الدين معه، فيرونه فارغاً خالياً من مادة مفيدة، فيعدونه خرافة وزخرفاً من الزخارف، أو بلاءاً مانعاً عن التقدم. فتراهم يأبون من أن يوردوا اسم الله أو يقولوا ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ويعدونها تراجعاً إلى الوراء أو منقصة في لغة الثقافة

الحديثة أو وصمة خرافية يوصم بها قائلها، يعظمون المكتشفين أيما تعظيم ويوقرون الفلاسفة أحسن توقير، فإذا ذكر اسم أحد الأنبياء سخروا منه وتبسموا تبسماً فيه شيء من الازدراء والتوهين. كل ذلك لأنهم ينتظرون من الأنبياء معادلات كيمياوية وقوانين فيزيائية. أو معادلات تفاضلية أو قانون الكسوف في الفلك العالي أو معادلات الحركة في الميكانيك الرياضي! . .

وقد فاتهم أن الإنسان يتكوّن من نفس وبدن، فكما أن للبدن أمراضاً وحاجات، فكذلك للنفس أمراض وحاجات. وأن حاجات البدن ترجع إلى قوانين ثابتة مستقرة يصل إليها الإنسان بالاختبار والتجربة والمشاهدة عاجلاً أو آجلاً. فإن الخاصية المودعة من قبل الله تبارك وتعالى في الأجسام، ثابتة لا تتغير، بل يظفر عليها الإنسان عن طريق الفحص والتتبع والتجربة والصدفة.

(الأجسام تسقط. حجمان من غاز الايدروجين وحجم من غاز الاوكسيجين بعد إمرار تيار كهربائي يتحدان ويشكلان ماءاً. الحرارة تمدد الأجسام. إلى ما هنالك). فالمخترع لا يأتي بشيء جديد بل يفتش عن خواص وقوانين أودعها الله في هذا الكون بتجارب ومحاكمات، وعقل منحه الله إياه، ولولا العقل والمحاكمات والاستنتاج والاستقراء لما استطاع على ذلك. وبالعقل يمتاز الإنسان عن الحيوان. وترد نظرية داروين التكاملية وتفند سفسطة الحلقة المفقودة.

وهل يستطيع مخترع أن يأتي بخاصية غير ما أودعه الله في الأجسام؟ كلا، فالاختراعات أمور مادية ثابتة لا تغيير فيها، يصل إليها الإنسان باختباراته، ولا حاجة إلى نبي يملي على الناس القوانين الفيزياوية والكيمياوية. والدليل على ذلك وصول الإنسان بنفسه إلى كثير منها بنتيجة قوى أودعها الله تعالى فيه ولا يعلم هل تقدم الإنسان بنتيجة هذه الاكتشافات روحياً وأخلاقياً أم تراجع؟ وهل استفادت الإنسانية وقطعت بذلك أشواطاً في الكمال النفسي والسمو الخُلقي أم لا؟ ثم أترى أن لخواص الأشياء وقوانين الفيزياء حداً ونهاية؟ فإن علم الله لا نهاية له، والخواص والقوانين التي أودعها الله في هذا الكون لا نهاية لها، وهذا معنى قوله تعالى:

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف: الآية ١٠٩] .

الأنبياء سلام الله عليهم بُعثوا لإصلاح النفس وتهذيب الروح. لأن الإنسان، إنسان بنفسه وروحه، وإن أمراض الروح أعقد من أمراض البدن، وإن معالجتها أصعب من معالجة أمراض البدن. إن وصفات الأطباء تعالج الأبدان لو صادفت نفس المرض ونفس الشروط وكان التشخيص صحيحاً؛ إلا أن الوصفات الروحية تؤثر في كل نفس حسب قابلية تلك النفس. فهي مشتبكة مرتبكة.

ائتوا بثلاثة أشخاص مصابين بالملاريا، فإنهم يعالجون بوصفة واحدة عاجلاً أو آجلاً. ولكن لو أعطي لهؤلاء الثلاثة قوانين روحية وطبقوها على أنفسهم فلا يصلون إلى نتيجة واحدة. وكل يصل إلى غير ما وصل إليه الآخر حتى لو عورة أمر النفس وصعوبته؛ وعدم دخول النفس تحت قوانين ثابتة مطردة سهلة التناول. وعلى فرض وجود قوانين نفسية ثابتة، ليس للإنسان بما هو إنسان أن يكتشفها، وأنّ ما يكتشفه في هذا الحقل خيالات وأوهام. فإنّه يظنّ أنها حقائق يستلذ بها. ذلك لأن الأساليب المادية لا تقوى على حل غوامض ما وراء الطبيعة. وقد يمكن تشبيه ذلك بالمعادلات العالية في الرياضيات كـ (ع = جا س) التي لا تقبل فيها (س) و (ع) التضعيف والتنصيف في وقت واحد أو بمعادلات الكميات المبهمة أو المحدثة التي نشاهدها في الهندسة التحليلية أو الجبر العالي، وإن بُعد التشبيه. نعم إنا كثيراً ما نشاهد في كتب الفلسفة وعلم النفس استعمال الحساب التكاملي (Integration) عند البحث عن الإحساس والشعور ولكن ذلك غير ثابت ولن يثبت وإنما هو مجرد اقتراح واحتمال. فلا سبيل إلى قياس القضايا الروحية بمقاييس مادية.

الأنبياء ﷺ بُعثوا ليعالجوا ما لم يستطع الإنسان أن يصل إليه بنفسه إلى طريق معالجته. بعثوا ليعالجوا الأمراض النفسية، هذه النفس الأمارة بالسوء التي يرقبها الشيطان في كل آن وهو لها بالمرصاد.

بُعثوا ليقرروا قوانين روحية لكي يتكامل الإنسان بها ويخرج من دور الطفولة

والبهيمية والوحشية فيكون إنساناً كاملاً بل أعلى مرتبة من الملائكة فتكون الملائكة عند ذاك خداماً له.

بُعثوا ليحرروا النفس الإنسانية مما تلوثت به من دنس ورجس وخبث ولؤم. بعثوا ليقرروا الآداب التي لو عمل بها الإنسان كان جديراً بأن يخلد مع الأنبياء والصديقين في جنة ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣] بعثوا ليعلمونا الطرق التي تقرّبنا إلى الله، وكيفية عبادته تعالى وطرق الشكر.

بُعثوا ليعلمونا الحلال والحرام؛ لأن النفس الإنسانية تردى وتتدنس بالحرام وتتزكى وتتطهر بالحلال. بُعثوا ليعرفونا آداب المعاشرة والاجتماع. بعثوا ليعلمونا الأعمال الصالحة التي بها تزكو النفس وتخرج من الظلمات إلى النور؛ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هُود: الآية ١١٤]. بُعثوا ليبينوا للإنسان ماله وما عليه، ليحاسب نفسه كل يوم ولا يتكبر، فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٦].

بُعثوا ليجعلوا الإنسان بين الخوف والرجاء، فهو خير ميزان يحثّ الإنسان على العمل الصالح، ويبعد الإنسان عن الموبقات والمناهي. فقد جاء في الحديث تنويهاً بالعبد الصالح: «لو وُزن خوف العبد ورجاؤه لم يرجح أحدهما. وإذا عظم الخوف كان أدعى إلى السلام». وفي حديث آخر:

«إن الله أنزل في بعض كتبه وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي المؤمن بين خوفين وأمنين. إذا خافني في الدنيا أمنته في الآخرة وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة»[1]، وقوله تعالى إذ يمنّ على إبراهيم وذريته عليهم السلام: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ [ص: الآية ٤٦]. وهي ذكر الآخرة والتهيؤ لها.

بعث الأنبياء ليقووا الرابطة بين العبد وربه، ليزداد تقرباً بالطاعة. فإن الكمال الإنساني يتناسب تناسباً طردياً مع التقرب إلى الله جلّ شأنه، ثم يزداد اطمئناناً كلما زادت هذه الرابطة

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١١، ص٢٣١، باب١٤، مع اختلاف في اللفظ.

فإنه تعالى يقول: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: الآية ٢٨].

بُعث الأنبياء لإبلاغ الإنسان إلى «مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

فالأنبياء يخاطبون النفس، لأن هدفهم تكامل النفس وما جاء في تعاليمهم صلوات الله عليهم مما يتعلق بالبدن والمأكل والمشرب إنما هو من باب اللطف، أو لأن لذلك أثراً حسناً في تكامل النفس. إذ أنه ما من شيء يدخل في جوف الإنسان وما من حركة يقوم بها الإنسان إلا ولها أثر في تكامل النفس. ولعلنا نوفق إلى تفصيل ذلك في كتاب آخر إن شاء الله.

وقد بلغني أن شاباً كان يفاضل بين سياسي، فتح الأمصار وبين نبي، هدى الناس سواء السبيل. في حين أن ذلك السياسي لم يعمل إلا في تعمير المعدة والأمعاء، والنبيﷺ يعمل في تعمير النفوس والأرواح. وما قيمة عمران يُفسد فيه الروح. ولو كان في استطاعة الإنسان أن يصل بعقله إلى القوانين المثلى التي بها كمال النفس ونجاتها وفوزها لما أرسل الله الأنبياء ولوكّل الإنسان إلى عقله. ولكن العقل تغلب عليه الشهوات فينقلب إلى أهواء بصورة عقل ويؤدي بالشخص إلى أسفل درك من الجحيم. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: الآيات ٤/٦]. ولقد توالى عدد غير قليل من الفلاسفة ورجال الأخلاق؛ اختلفت مشاربهم ومآربهم وآراؤهم ولم يتمكنوا إصلاح أنفسهم فكيف بالآخرين.

الأنبياء بعثوا ليملوا على الناس المثل العليا التي بها كمال الروح والسعادة الأبدية ولكي يكونوا قدوة صالحة.

فمن من هؤلاء الذين هم خطباء الأخلاق، وبتعبير أقرب: كتّاب الفضيلة بلغ من الفضيلة مرتبة سامية تؤهله، ليكون قدوة لغيره كما يرتضيه الله تبارك وتعالى. فقد رأيت أستاذ فلسفة الأخلاق في إحدى الجامعات، أبعد شخص عن الأخلاق وأسوأ قدوة للمثل العليا، ما ترك منكراً إلا وارتكبه، فإذا سألته عن سبب ذلك أجاب بجواب خيالي سوفسطائي شعري لا قيمة له.

وإن بعض الأنبياء علموا الناس من باب اللطف من الصنائع والعلوم ما به يدفع الشر ويجلب الخير. فهذا داود عليه السلام، علّم الناس ـ بعد أن علّمه الله تعالى ـ صناعة الدروع وهو قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٨٠] . وإن النبي صلى الله عليه وآله قد سئل عن مسائل عدة في فنون مختلفة لا علاقة لها بالدين، فأجاب عنها بوحي من الله دون أيّ تفكير. وتفصيل ذلك يحتاج إلى مقال خاص. وإن علياً عليه السلام سئل عن مسائل رياضية صعبة ومسائل في الفيزياء والفلك والحيوان والنبات، عجز عنها الناس فحلّها وأجاب عنها بصورة مرتجلة. وإن الصادق عليه السلام أملى على تلميذه جابر بن حيان الكوفي خمسمائة رسالة في ألف ورقة عن الخواص الكيميائية والطبيعية. وكان علماء الكيمياء من قبله كخالد المتوفى سنة ٨٥هـ يروون عن علي عليه السلام موازين الصناعة. فالنبي على ما نعتقد هو أعلم أهل زمانه حتى في علوم لا تمت إلى الدين بصلة، تمييزاً له عن سائر الناس وتفضيلاً له على الآخرين.

فمن أراد الحياة الأبدية، حياة رفيعة متصلة بالكمال الأبدي، حياة ليس فيها خوف ولا حزن، حياة فوق حدود التصور والخيال، فليعمد إلى تطبيق تعاليم الدين الحنيف، ليرى كيف يتجلى يوماً بعد يوم وكيف تترفع نفسه عن حضيض المادة سائراً إلى أوج الملكوت. ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: الآية ٦٢] .

دين العقل

يمتاز الدين الإسلامي عن سائر الأديان بأن كل ما جاء فيه يوافق العقل المجرد عن الوساوس الشيطانية غير الملوث بالمعاصي والآثام. وقد أعطى للعقل قيمة سامية وجعله آلة التمييز. فقد قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: الآيتان ١٧/١٨] . ولا يمكن تشخيص أحسن القول إلا بالعقل المجرد عما يلوث النفس ويوبقها ويرديها. فقد روى محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ولما خلق الله العقل استنطقه ثم قال: أقبل فأقبل. ثم

قال: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليَّ منك ولا أكملتك إلا فيمن أُحب، أما إني إياك آمر وإياك أنهى وإياك أُعاقب وإياك أُثيب»[1].

نستنتج من هذا الحديث بقول الله: «أقبل، فأقبل، ثم قال: أدبر فأدبر»،

إن العقل بصورة فطرية وطبيعية يطيع أوامر الله تعالى. إذ أن أوامر الله منطقية وطبيعية ولا تخالف الفطرة وإن الإطاعة صفة غريزية في العقل. وهذا هو معنى الفطرة. وبهذا أتم الله الحجة على عباده، فلا يغفر الله لمن أشرك ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النِّساء: الآية ٤٨]. يقول الله إتماماً لحججه على الخلق أجمعين: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٧٢/١٧٣]. فالله تبارك وتعالى قد أشهد الناس في عالم الذر على أنفسهم وأخذ منهم الإقرار والاعتراف بربوبيته تعالى. فليس لأحد أن يقول: لو شاء الله لكنت مؤمناً، لأن الله الآمر بالإيمان والغارس روح الطاعة والتمسك بالوحدانية في عقل الإنسان ونفسه لا يريد بالإنسان إلا الإيمان به والإطاعة له. ثم جاء في ذيل الحديث: (ولا أكملتك إلا فيمن أُحب). أي إن الله لا يكمل إلا عقل من يحبه. وكيف تحصل هذه المحبة؟ أليس بالطاعة؟ أي باجتناب كل ما نهى عنه العقل والشرع، وبالقيام بكل ما أمر به العقل والشرع. إذن أقرب الناس إلى الله أكملهم عقلاً. وأبعد الناس منه تعالى أضعفهم عقلاً. فالعقل: «ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان» كما جاء في الحديث عن الإمام علي عليه السلام.

إن الدين الإسلامي دين تفكر وتدبر، دين تمحيص وتعمق، دين المنطق الصحيح والمحاكمات المجردة عن كل عصبية ووسوسة. وهو القائل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمَّد: الآية ٢٤]. إن الله تبارك وتعالى قد عظم أمر العقلاء وخصص التدبر في آياته بهم بقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص١٠، كتاب العقل والجهل.

وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٤] . وبقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر: الآية ٦٧] . وبقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الرُّوم: الآية ٢٤] . فالقرآن يدعوا الناس إلى التعقل ويخاطب العقل في كثير من آياته. ولا يريد بالناس أن يقبلوا شيئاً دونما تعقل ودونما برهان. فدين الإسلام دين البرهان ودين الدليل. يقول الله تعالى في لزوم إتباع البرهان والدليل: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١١١] . نعم، هناك آيات كثيرة في القرآن تأمر بالتعقل، وتحذر العباد من عدم التعقل والتفكر بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يُونس: الآية ٤٢] . ثم إنه يمدح المتفكرون بقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: الآيتان ٦٨/ ٦٩] . فمنهج القرآن في الدعوة إلى الحق هو منهج العلوم الطبيعية الحاضرة. يستند إلى التجربة والمشاهدة والاستقراء والاستنتاج. نعم، إن موضوع الآيات الكريمة المتقدمة وكثير من آيات أخرى هو نفس موضوع العلم الطبيعي بأوسع معانيه ما عرفه الإنسان وما سيعرفه، لأن العلم الطبيعي يبحث عن الأشياء الكونية، طبائعها وخواصها والعلاقات التي بينها ولكنها لا تصل إلى حقيقتها. فالعلم الطبيعي موضوعه آيات الله المودعة في الأشياء كلها. إن القرآن جاء بأصول المشاهدة والطريق البرهاني في وقت كان الغرب فيه جاهلاً هذه الأصول. لأنهم كانوا يعتقدون أن الإنسان يصل إلى ما يشاء بطريق عقلي بحت، دون أن يحتاج إلى التجربة والمشاهدة. كانوا كثيرا ما يكتفون للوصول إلى الحقائق العلمية وأسرار الكون بالجلوس والتفكر.

فكانوا يصلون إلى قضايا كلية يزعمون أنها حقائق دون أن يدعمها دليل. ثم يبنون على هذه القضايا الموهومة قضايا أخرى هي أوهن من بيت العنكبوت. كان يقول فيثاغورث عن الكون: أنه متفرد كامل كروي، لأن الكرة أكمل الأشياء. وإنه حي عاقل، لأن ما هو حي وعاقل خير مما ليس بحي وعاقل. فإن القرآن ينكر مثل هذا النوع من الاستنتاج الخيالي. وقد أدى بالفلاسفة التخيل الباطل في ساحات العلم حتى قالوا: إن للأجرام السماوية في أفلاكها نغمات يطرب لها من يسمعها، وإن لهذه الأجرام أثراً كبيراً فيما يصيب الإنسان من نحس أو سعود. وقد سرت هذه الفلسفة الزائفة إلى الشرق وأدت إلى تبلبل العقائد وإدخال كثير من الخرافات في الدين الإسلامي. وإن فلاسفة الإسلام أخذوا يفسرون الدين الإسلامي على ضوء هذه الخرافات ويؤوّلون القرآن وفق نظريات أفلاطون وأرسطو. ذلك لأن علماء القرون الوسطى وهم تلامذة الفلسفة اليونانية ما كانوا يعتمدون على عقولهم وتجاربهم ومشاهداتهم وإنما كان الدليل هو رأي الفيلسوف. فكل ما وافق رأي الفيلسوف فذاك علم وذاك هو الحق، وما خالف ذلك، فليس بعلم. إلا إذا أمكن إرجاع ذلك بتأويل ما إلى ما يقوله أفلاطون أو أرسطو مثلاً، دون أن ينظروا في حجة أرسطو وأنه منطقي تؤيده التجارب والمشاهدات والمحاكمات الصحيحة أم لا. فابتلى الدين الإسلامي بشتى الخرافات وشتى المذاهب، أتته من الفلسفة اليونانية. وقد عالج ذلك بعض علماء الإسلام ولكنهم لم يستطيعوا قلعها وقمعها. مع أن الدين الإسلامي ينهى عن كل خرافة وكل ما لا يؤيده العقل والمنطق الصحيح والحجة القطعية وينهى عن إتباع الظنون والتخيلات الواهية، بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨]. قد أمر باتباع العلم الصحيح وأثنى على العلماء ومدحهم في كتابه المجيد بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: الآية ٩٧]. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٢].

أنظروا كيف يؤيد القرآن طريقة التجربة والمشاهدة واستعمال الحواس الخمس. يقول

الله تعالى في لزوم استعمال البصر والعقل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٢٠] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [المُلك: الآية ١٩].

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ [الغاشية: الآيتان ١٧/ ١٨]. ويقول تعالى في لزوم استعمال السمع مع العقل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحَجّ: الآية ٤٦]. ويقول جلّ جلاله في لزوم استعمال السمع والبصر مع العقل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النّحل: الآية ٧٨]. ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٦]. ويقول تعالى في لزوم استعمال جميع وسائل المشاهدة مع العقل: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٥]. وهكذا يحث القرآن الكريم على استعمال جميع الحواس والمواهب للوصول على أحسن سبل الهداية بقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: الآيتان ١٧/ ١٨].

فالدين الإسلامي يخاطب العقل ويحث على التمسك بالبرهان والدليل وينهى عن الظن والتخيل والخرافات ويأمر باستعمال طرق المشاهدة والتجربة وحسن الاستنتاج وينهى عن المغالطة والتدليس. ولا أعلم ديناً أو مبدءاً أو مسلكاً أو طريقة عدا الدين الإسلامي جعل البرهان شعاراً وطرق التجربة والمشاهدة معياراً وترك الظن والخيال دثاراً. ذلك لأنهم إن فعلوا ذلك أخفقوا ولم يجدوا من تابعين.

٢ ـ قد بينا في المقال السابق أن الله تعالى قد أودع في الإنسان عقلاً لو لم يلوث بالذنوب والمعاصي ولم يترد ولم يتسافل يهتدي به الإنسان إلى أحسن السبل وأنجعها، ويعترف بربوبيته تعالى وبوحدانيته، وتكون درجة هدايته متناسبة مع درجة طهارة عقله ونفسه. هذا مونتني الفيلسوف المربّي قد وصل بعقله أي بطريق المشاهدة والتفكير إلى وحدانية الله تعالى وأنه خالق كل شيء. إنه كان يقول: ليس للذكر أن يخلق لنفسه أنثى، لأنه عاجز عن أن يتصرف في نفسه، فلا بد أن يكون خالق الذكر هو الذي قد

خلق الأنثى لتداوم النسل البشري. وأن الله تعالى يقول في قرآنه الكريم: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٨٩] . ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الرُّوم: الآية ٢١] . فقد بلغ مونتني بتفكيره الطبيعي إلى مفاد الآية الشريفة المذكورة. ذلك لأن الله تعالى قد أودع قابلية التفكير والتدبر في خلق السموات والأرض في الإنسان بصورة طبيعية: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩٠] . فالإنسان يصل إلى الاعتراف بالله وبوحدانيته تعالى لا محالة إن لم تدنس نفسه بالجرائم والموبقات والانغماس في الشهوات، فتفسد هذه القابلية وتمحى هذه الموهبة. فيكون أعمى لا يبصر الحق في الدنيا ويحشر أعمى في الآخرة. إذ يقول عند الحشر: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: الآيات ١٢٤/ ١٢٧] .

وقد قلنا في مقال سابق أن الفلسفة اليونانية المملوءة بشتى الخرافات قد أثرت في الدين الإسلامي وأدخلت فيه جملة من الخرافات: كالاعتراف بأثر النجوم وحركاتها وأوضاعها في سعادة الإنسان وشقائه. وقد نفى الإسلام ذلك وشدد التنكير عليه وعلى أمثاله وفسر القضاء والقدر تفسيراً هو غاية المنطق وتمام الحكمة ولا مجال هنا لتفصيل ذلك. وإن أمير المؤمنين علياً ﷺ: أظهر لبعض أصحابه عزمه على المسير إلى الخوارج، فقال له أحدهم يا أمير المؤمنين إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم، فأجابه ﷺ: «أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء وتخوّف الساعة التي من سار فيها حاق به الضر. فمن صدق بهذا فقد كذب القرآن واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه. وتبتغي في قولك للعامل بأمرك أن يوليك الحمد دون ربه. لأنك بزعمك، أنت هديته إلى الساعة التي نال فيها النفع وأمن الضر». ثم أقبل ﷺ على الناس فقال: «أيها الناس إياكم وتعلّم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر، فإنها تدعو إلى الكهانة

والمنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار، سيروا على اسم الله»[١]. فبدّد علي عليه السلام شمل الخوارج وكان النصر حليفه، خلافاً لما ادعاه من كان يعترف بتأثير النجوم في الفتح والنصر.

إن الدين الإسلامي يشجع كل علم يؤدي إلى انفتاح البصائر وينير الطريق ويهدي الناس إلى الفلاح والصلاح ويحبذ تعلم الفلك أو الهيئة، ويُدرّس علم الهيئة مع العلوم الدينية في كليات العلوم الدينية على اختلاف مناهجها. وقد أُلفت كتب جمة من قبل علماء المسلمين في علم الفلك لمعرفة القبلة والاستهلال والوقوف على بعض ما أودع الله تعالى من نظم ثابتة متقنة وقوانين رياضية محكمة في سير الأفلاك والأنجم. ولكن الدين الإسلامي يستنكر كل خرافة تؤدي إلى الوسوسة ورخاوة الأعصاب والفتور والقنوط كالإعتقاد بتأثير أوضاع النجوم في نحوسة أو سعود. فعن النبي صلى الله عليه وآله: من صدّق منجماً أو كاهناً فقد كفر بما أُنزل على محمد صلى الله عليه وآله[٢]. وعن الصادق عليه السلام: «إن المنجم ملعون والكاهن ملعون والساحر ملعون»[٣] وفي رواية عبد الملك ابن أعين المروية عن الفقيه: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني قد ابتليت، فأريد الحاجة. فإذا نظرت إلى الطالع ورأيت الطالع الشر جلست ولم أذهب فيها، فإذا رأيت الطالع الخير، ذهبت في الحاجة. فقال لي تقضي؟ قلت نعم، قال: أحرق كتبك»[٤].

إن الدين الإسلامي ينهى عن كل ما يجعل الإنسان خيالياً خاملاً ذليلاً في حياته ويأمره بكل ما يجعل الفرد كاملاً نشيطاً، فعالاً، مقداماً في حياته. إنه ينهى عن السحر والعمل به ويعدّها من المعاصي الكبيرة. يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٣، ص٣٦٢، باب ٢٣.

(٢) وسائل الشيعة: ج١٠، ص٢٩٧، باب ١٥.

(٣) وسائل الشيعة: ج١١، ص٣٧١، باب ١٤.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٢٦٧، ح ٢٤٠٢.

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: الآية ١٠٢] .

إن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ فتعليم السحر كفر بنص هذه الآية الشريفة، والعمل به وإضرار الناس بسببه معصية كبيرة. وكذا يستفاد من قوله تعالى: فلا تكفر، لأن العمل بالسحر على حد الكفر. ثم يقول الله تعالى في الآية الثانية، بأنّ الإيمان والتقوى بابان لنيل مثوبة الله تعالى وطريقان قويمان للسعادة، فلا ينبغي أن يسلك أحد لنيل مآربه المشروعة طرق السحر والخيال، بل ينالها من طريق الإيمان والتقوى والعمل الصالح والفعالية والجد في الطرق المشروعة الموافقة للشرع والعقل. إن الدين الإسلامي ينهى عن إتباع الخيال وكل خرافة مبدؤها الخيال والظنون. لذلك يعبّر عن السحر بالخيال بقوله جلّ من قائل: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: الآية ٦٦] .

إن الدين الإسلامي حرَّم إحضار الأرواح وإحضار الجن والاعتماد على هذه الوسائل الخيالية، على أن هذه الأمور الخيالية التي لا يدعمها دليل قطعي علمي، قد أثرت إلى حدٍ ما في توجيه أوروبا نحو الاعتقاد على ما بعد الموت وخلود الروح توجيهاً ناقصاً لا يرتضيه العقل المجرد عن الوساوس الشيطانية.

أنظروا كيف يعظم الدين الإسلامي التفكر والتعقل والتدبر. يقول رسول الله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه»[1]. وقد جاء في الحديث: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة». وكان علي عليه السلام يقول: «ما عُبد الله بشيء أفضل من العقل، وما تم عقل امرئ حتى تكون فيه خصال شتى: الكفر والشر منه مأمونان، والرشد والخير منه مأمولان، وفضل ماله مبذول وفضل قوله مكفوف ونصيبه من الدنيا القوت، لا يشبع من العلم دهره، والذل أحب إليه مع الله من العز مع غيره. والتواضع أحب إليه من الشرف، يستكثر قليل المعروف من غيره ويستقل كثير المعروف

---

(١) وسائل الشيعة: ج٤، ص٧٤، باب١٧.

من نفسه. ويرى الناس كلهم خيراً منه وأنه شرهم في نفسه، وهو تمام الأمر»[١].

العقل والإيمان

إن العقل الإنساني قد جهّز بقابليات ربانية يتوجه بسببها بصورة طبيعية إلى الحق والواقع ويعترف بربوبية الله تعالى وأنه خالق كل شيء وأن من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى يجزى جزاءً حسناً وأن من أساء من ذكر أو أنثى يجزى حسب عمله، إن لم يمح ذلك بأعمال صالحة أخرى وتوبة واستغفار. ولسائل أن يسأل: فماذا الجحود الذي نشاهده في كثير من الناس، وما هذا الإنكار لعظمة الله تعالى؟ ولماذا يعبد بعض الناس مع مالهم من عقول ما يصنعونه بأيديهم من صنم أو ما يقومون بتربيته وإعاشته من حيوان؟ ألم يمنّ الله عليهم بعقل أم جرّدوا من القابليات الفطرية؟ إذن ما معنى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠]. لماذا نرى بعض الفلاسفة مع ما أوتوا من قابليات عقلية فائقة، ملحدين جاحدين؟ لماذا بعض علماء الطبيعة أو الفلك غير موحدين؟ لماذا نرى نفراً من الشبان مع دراسات سطحية ناقصة ينكرون الخالق الذي خلقهم وقد تأثروا بسخافات المتطرفين، ونرى شباناً آخرين في مستواهم، يعبدون الله تعالى بخشوع وخنوع، يصلّون ويصومون، لا تأخذهم في الله لومة لائم؟ نرى علماء درسوا دراسات عُليا عميقة متمسكين بالدين غاية التمسك عن دليل وبرهان ويقين، ونرى آخرين مثلهم يحسبون الدين من الأمور الكمالية، لا يفكرون في مصيرهم وما سيؤول إليه أمرهم بعد الموت، ولا يكادون يعتقدون بأمور الآخرة والمعاد؟ ماذا التفاوت وماذا الاختلاف؟ ولقد يحار بعضهم بادئ ذي بدء ويظن أن الله تعالى هدى ثلة من الناس دون بعض، فيسند عدم العدالة إلى الله الذي تنزه عن كل نقص. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٤٣]. ولو رجع إلى نفسه، تلك النفس التي تلوثت بأنواع المعاصي وضروب من الآثام، تلك النفس التي لم تطع الله طرفة عين

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص١٧، كتاب العقل والجهل.

أبداً وقد ملئت ظلماً وجوراً، تلك النفس التي خالفت كل ما أملى عليها العقل بشأن الوالدين والأهل والأرحام والأصحاب وكل ما يحوط به، لعلم أن نفسه هي التي أغلقت عليه أبواب الهداية وأنه هو سبب ضلال شخصه. نعم، قد هيأ الله تعالى له أسباب الهداية ووسائل التوبة والإنابة فأبى إلا أن يشرد ويحجم ويثابر في غيه وطيشه حتى اسودت من أوساخ الآثام والإجرام نفسه فأصبحت عمياء لا ترى ولا تبصر الواقع. ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾ [الإسراء: الآية ٧٢]. ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾ [البقرة: الآية ١٨]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة: الآيتان ٦/٧]. فإن الأخلاق المذمومة هي الحجب المانعة عن المعارف الإلهية والنفحات القدسية. إذ هي بمنزلة الغطاء للنفوس، فما لم يرتفع عنها لم تتضح لها جلية الحق اتضاحاً. وكيف والقلوب كالأواني، فإذا كانت مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء. فالقلوب المشغولة بغير الله لا تلج فيها معرفة الله وحبه وأنسه وإلى ذلك أشار النبي ﷺ: «لولا أن الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض»[1]. نعم، إن هذه النفوس تضيء وتتلألأ بدرجة تتطهرها من الخبائث والأرجاس، فتظهر لها الحقائق بصورة جلية واضحة. فإن رسول الله ﷺ يقول: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها»[2]، فإن التعرض للنفحات القدسية الربانية لا يتيسر إلا إذا تجردت هذه النفوس عن الأكدار الناجمة عن الأخلاق المذمومة، فكل إقبال على طاعة وإعراض عن سيئه يؤدي إلى جلاء نور القلب فيصبح مستعداً ليفيض بإذن الله علماً ويقيناً وهو القائل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: الآية ٦٩]. وعن النبي ﷺ: «من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم»[3]. والضمير يعود إلى الله تعالى، حيث لا يبخل بإفاضته وأنواره

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٠، ص٣٣٢، باب٣.

(٢) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٢٢١، باب٦٦.

(٣) الفصول المختارة: ص١٠٧.

القدسية على عبده وقد وسعت رحمته كل شيء. وإنما العبد هو الذي يسد على نفسه أبواب رحمة الله تعالى وأبواب هداية الله وأبواب المعارف الربانية لقيامه بذمائم الأخلاق وارتكابه ما يؤدي بنفسه المسكينة إلى أسفل السافلين. إنه يطيعها في مشتهياتها ويأتمر بأوامرها، فتحجب عنه تلك الفيوض الرحمانية التي يرافقها من السرور المعنوي ما لا يقوى على وصفه إلا من تشرف به، سرور يفوق أنواع الملذات المادية وأعلاها. «فالعلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء». وإليه يشير مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام: مِن أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه»[1]. ويقول صلوات الله عليه في مكان آخر: «قد خلع سرابيل الشهوات، وتخلى من الهموم إلا هماً واحداً انفرد به، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى ومغاليق أبواب الردى، قد أبصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره وقطع غماره واستمسك من العرى بأوثقها ومن الحبال بأمتنها، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس»[2].

انظروا ماذا يقول الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام في هذا المقام لهشام؛ إنه صلوات الله عليه يقول: «يا هشام، من سلط ثلاثاً على ثلاث فكأنما أعان على هدم عقله؛ من أظلم نور تفكره بطول أمله، ومَحى طرائف حكمته بفضول كلامه، وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه فكأنما أعان هواه على هدم عقله. ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه، يا هشام، كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت قلبك عن أمر ربك وأطعت هواك على غلبة عقلك»[3].

فللعقل الإنساني إفاضات وتوجيهات، لو خلى ونفسه ولم يدنس بالموبقات والشهوات بإطاعة النفس الأمارة بالسوء إفاضات توصل الإنسان إلى أعلى عليين، فيكون أعلى منزلة من الملائكة. فماذا ينتظر هذا الغربي المطيع لشهوات نفسه مذ

(١) بحار الأنوار، ج٢، ص٥٦، باب١١.
(٢) بحار الأنوار، ج٢، ص٥٦، باب١١.
(٣) أصول الكافي: ج١، ص١٧، كتاب العقل والجهل.

نهوضه من فراشه إلى حين عودته إليه من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورُسله، فإن الشهوات قد أغلقت عليه أبواب الفيوضات الربانية والأنوار القدسية الإلهية، إنه يعصي الله بنظراته وحركاته وسكناته في كل طرفة عين. حتى أصبح لا يشعر أنه يعصى الله. فقد أمسى الانهماك في الملذات المحرمة والشهوات المنهى عنها عادة ثانية وطبيعة راسخة فيه، لا يتصور طبيعة غيرها. لذلك لا يعد نفسه مجرماً أو عاصياً، فيقول إذا اعترف بالله حيناً، لو شاء الله لاهتديت. والله سبحانه كيف لا يريد هداية عبده؟ فقد أتم الحجة على عباده بتزويدهم بالعقل وبالفطرة التي توجّه الإنسان إلى الاعتراف بالله وجليل قدرته، وبإرساله الرسل مبشرين ومنذرين. وبقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البَلَد: الآية ١٠] وبقوله ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: الآية ٨]. ولكنه خالف عقله وأفسد الفطرة بذمائم الأخلاق ومدنسات النفس فأمست هذه الذمائم وتلك المدنسات حجابا كثيفا يمنع نفوذ نور الهداية إلى نفسه.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ [الرُّوم: الآية ١٠]. ومعنى ذلك: أن الإساءات والأعمال التي تفسد النفس ونفوساً أخرى وكل ما يؤدي إلى الفساد في الأرض لها آثار طبيعية، آثارها التكذيب بآيات الله تعالى وكتبه ورسله والاستهزاء بجميعها. ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٨١]. فقد رأينا أُناساً كانوا يعتقدون بالله وكتبه ورسله، يصلّون ويصومون ولكن غلبت عليهم شقوتهم وأطاعوا شيطانهم ومالوا إلى الدنيا وزبرجها وشهواتها ونزواتها، فدنسوا ولوّثوا أرواحهم فانسلخ منهم نور الإيمان شيئاً فشيئاً، وتركوا الصلاة وودعوا الصيام. فتركهم اليقين وودعهم الصراط المستقيم، فأخذوا يستهزئون بالمؤمنين. ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢﴾ [المطففين: الآيات ٣٠/ ٣٢]. ويختلقون لهم ألفاظاً كالرجعية والدروشة والتصوف، وأمثال ذلك، حين أنه لا رجعية ولا دروشة ولا تصوف في الإسلام، وإنما رجوع إلى الحق الصريح الذي يؤيده العقل المجرد عن مدنسات النفس، المنزّه عن كل خرافة ووسوسة.

منزلة العقل والعلم في الدين الإسلامي

بعث الله تعالى محمداً ﷺ في وقت كان الدين مجموعة تقاليد لا يدعمها برهان ولا يسندها دليل وقد انعزل العقل عن التفكير والتعمق والتدبير والسؤال والاعتراض، في وقت كان شعار قادة الأديان في مشارق الأرض ومغاربها: (أطفئ مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى).

جاء الإسلام وهو ينادي بصوت رفيع: «الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له»؛ وقد نهى عن التقليد الأعمى وعن قبول شيء دونما برهان ودليل. فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٠]. وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المَائدة: الآية ١٠٤].

فأول شيء وجّه الإسلام عنايته إليه هو تحطيم القواعد التي يقوم عليها الدين من قبل؛ وهو التقليد الأعمى وإهمال النظر الشخصي وإغفال التفكير الحر ومنابذة العلم إلا ما كان فيه موافقاً للدين في نظرهم ومؤيداً لسلطان المتحكمين في إرادات الناس وعقولهم. ينادي الإسلام بصوت رفيع أن لا اعتبار إلا للعقل وأن لا سيادة إلا للعلم، ودعا إلى النظر والتفكير وتطلب البرهان بقوله في القرآن الكريم في آيات كثيرة، ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٩]، وبقوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧١]، وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يُونس: الآية ٤٢]. وعظم أمر العلماء حتى جعلهم من الشهود على وحدانيته: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨]. وقد وعدهم درجات رفيعة بقوله: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجَادلة: الآية ١١]. وقد دعا الناس إلى التدبر في أسرار هذا الكون بقوله: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ

وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: الآية ١٠١] . وبقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: الآية ١٠٥] . وبقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩١] .

وقد قرر الأصوليون من علماء الإسلام أن الإيمان التقليدي مردود. وعلى كل مسلم الوقوف على أصول دينه بالبرهان العقلي والدليل المنطقي.

ولا تقليد إلا في الفروع، كأحكام الصلاة والصوم والحج والمتاجر والحدود والديات والقصاص إلى ما هنالك. إن علماء الإسلام يعترفون بمستقلات عقلية. أي أن هناك حسناً عقلياً وقبحاً عقلياً يستقلُّ العقل بإدراكهما ويقولون: كل ما حكم به العقل حكم به الشرع وكل ما حكم به الشرع حكم به العقل إذا كمل العقل وتجرد عما يلوثه ويدنسه. فإن هناك أحكاماً شرعية قد لا يصل العقل إلى معرفة أسرارها وآثارها في تكامل النفس وتزكيتها وتصفيتها حتى تكون قمينة للخلود في جنة ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣] . ولكن العقل سوف يدرك أسرار تلك الأحكام الشرعية مع تكامل الإنسان العلمي والخلقي، فليس من الصواب أن نعترض على بعض الأحكام الإسلامية مَن عليه أن يعترف أنه لم يؤت من العلم إلا قليلاً وأن مجهولاته أضعاف معلوماته، وقد اشتبه في كثير من محاكماته طوال حياته مرات ومرات وقد خطأ نفسه وفنّد رأيه بعقله وهو يرى أن القوانين الوضعية البشرية تصلح وتعدل من حين إلى حين مع أن الظروف نفس الظروف لم تتبدل ولم تتغير. ولا يعلم أن هذا التعديل كان إصلاحاً أو إفساداً. فمن لم يفهم حكمة حكم من أحكام الدين الإسلامي ولم يقف على علة أمر من أوامر الشريعة الإسلامية، فليتهم نفسه وليسأل من هم أكثر منه علماً وإيماناً ويقيناً، كي يزداد بصيرة وإطلاعاً واطمئناناً. فقد قال علي عليه السلام: إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله.

نعم، قد فتح الإسلام البصائر للنظر والعقول للفهم والقلوب للشعور، لذلك يقول المؤرخ الكبير (سديو): «لقد كان المسلمون متفرقين بالعلم في تلك القرون المظلمة، فنشروا العلم حيث وطئت أقدامهم» وقد روى إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله

الصادق عليه السلام: «من كان عاقلاً كان له دين ومن كان له دين دخل الجنة». وعنه عليه السلام: «ليس بين الإيمان والكفر إلا قلة العقل». قيل: وكيف ذاك يا ابن رسول الله؟ قال: «إن العبد يرفع رغبته إلى مخلوق، فلو أخلص نيته لله لآتاه الله الذي يريد في أسرع من ذلك»[1]. وإن هذا لدستور تربوي عظيم يبعث على الاعتماد على النفس بعد الإتكال على الله تعالى ويحذّر عن الطريقة الإتكالية: أي الإتكال على الغير سوى الله تعالى. تلك الطريقة التي بسببها ذلت أمم وتدهورت أخرى.

وقد أعطى الدين الإسلامي للعقل منزلة فوق ما أسلفنا، فقد جعله ميزاناً للثواب والعقاب. فعن أبي جعفر عليه السلام: «إنما يداقُّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا»[2]. وقد ذكر عند أبي عبد الله عليه السلام عبادة رجل ودينه وفضله. فقال عليه السلام: كيف عقله؟ فقيل له: لا ندري، فقال: «إن الثواب على قدر العقل. إن رجلاً من بني إسرائيل كان يعبد الله في جزيرة من جزائر البحر، خضراء نضرة، كثيرة الشجر، ظاهرة الماء وأن ملكاً من الملائكة مرَّ به، فقال: يا رب أرني ثواب عبدك هذا، فأراه الله ذلك، فاستقله الملك، فأوحى الله إليه أن أصحبه، فأتاه الملك في صورة إنسي، فقال له مَن أنت؟ فقال: أنا رجل عابد، بلغني مكانك وعبادتك في هذا المكان، فأتيتك لأعبد الله معك، فكان معه يومه ذلك، فلما أصبح قال له الملك: إن مكانك لنزه وما يصلح إلا للعبادة، فقال له العابد: إن لمكاننا هذا عيباً، فقال له: وما هو؟ قال: ليس لربنا بهيمة، فلو كان له حمار، رعيناه في هذا الموضع، فإن هذا الحشيش يضيع، فقال له (ذلك) الملك: وما لربك حمار؟ فقال: لو كان له حمار ما يضيع مثل هذا الحشيش، فأوحى الله إلى الملك، إنما أُثيبه على قدر عقله»[3]. ثم إن الدين الإسلامي قد حذر عن إتباع الوساوس الشيطانية التي تظهر بمظهر العقل والتفكير وهي وبال. فعن عبد الله بن سنان قال: «ذكرت لأبي عبد

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص٢٨، كتاب العقل والجهل.

(٢) أصول الكافي: ج١، ص١١، كتاب العقل والجهل.

(٣) أصول الكافي: ج١، ص١٢، كتاب العقل والجهل.

الله ﷺ رجلاً مبتلى بالوضوء والصلاة[1] وقلت هو رجل عاقل، فقال ﷺ: أي عقل له وهو يطيع الشيطان، فقلت له: وكيف يطيع الشيطان؟ فقال: سله هذا الذي يأتيه من أي شيء هو، فإنه يقول لك من الشيطان»[2]. وقد جاء في الحديث: «أكمل الناس عقلاً أحسنهم خُلقاً». فترون أن قيمة المرء تتناسب في الدين الإسلامي مع درجة عقله، والعقل حجة الله بينه وبين عباده، فإن رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأيتم الرجل كثير الصلاة كثير الصيام فلا تباهوا به حتى تنظروا كيف عقله»[3].

هذا دين يعلن للناس كافة أن كل ما فيه يوافق آخر ما استطاع أن تصل إليه العقول البشرية، وفيه من القوانين الحكيمة ما هو فوق العقل البشري، يصل العقل إلى بعض محسناته وفوائده ولا يبلغ كنهه. دين لا يريد بمعتنقيه أن يخفوا ما لديهم من سنن وآداب، خشية أن تتحداه بقية الأديان. دين أجدر بعلماء العلوم المادية أن ينكبُّوا على اعتناقه والعمل بنواميسه إن كانوا للعقل والعلم خاضعين، فقد قال رسول الله ﷺ: «ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل، ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل فيه العقل ويكون عقله أفضل من (جميع عقول) أُمته». وما يضمر النبي ﷺ في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين، وما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل، والعقلاء هم أولو الألباب الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٩]».

تأخر العلوم الحديثة عن الدين

إن تقدم العلوم المادية في أوروبا ومعارضة الكنيسة لها أوجدت رد فعل أدى إلى مقت الدين ونبذه ثم إلى معتقدات وظنون بعيدة عن الواقع، ناتجة عن أهواء وشهوات

---

(١) أي كان يعيد وضوءه وصلاته مرات وقد أصيب بمرض الوسوسة فيهما.

(٢) أصول الكافي: ج١، ص١٢، كتاب العقل والجهل.

(٣) أصول الكافي: ج١، ص٢٦، كتاب العقل والجهل.

لا يؤيِّدها أيّ منطق ودليل. فقلّد الشرقُ الغربَ في ذلك، وظن البعض أن دين الإسلام لا يماشي العلوم الحقيقية ويعارضها كما تعارضها الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية اللتين حكمتا على إعدام كل من (سرفيتوس) في ١٥٣٣م و (جورداتلو برونو) في ١٦٠٠م، نعم، إن هذا العداء أوجد هذه الفكرة التي أدت بالفيلسوف (كونت) أن يقول: «ويجب أن يتحول الإخلاص الديني من خدمة إله غير معروف إلى خدمة الإنسانية! وبهذه الطريقة يصبح الدين وسيلة لضمان وحدة الإنسانية وقوتها بدلاً من أن يكون مثاراً للانقسامات والمنازعات». ولم يعلم أنه لم يظفر بدين تطمئن إليه نفسه (وأعني به الدين الإسلامي)، دين يقول لمعتنقيه: (المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه)، (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً). ومتى كانت أوروبا تدين بدين؟ إن أوروبا جبلت على حب المادة وطبعت على حب الشهوات والملاذ من أي وجه حصلت. وقد كان فيها منذ زمن بعيد من مجالس الرقص والمجون والتبرج والفسوق والفجور والخمور والميسر والربا والظلم ما لم يكن في بلاد أخرى. ولا مراءَ أن هذه الموبقات تؤثر في النفس تأثيراً بالغاً وتؤدي بها إلى تسافل مرير، فتظلم النفس ويعمى القلب وتفسد الفطرة وينطفئ ضوء العقل الفطري ويحلّ مكانه: جحود وإنكار واستهزاء بالمقدسات وعبادة المادة بشتى الألوان. ونتيجة ذلك تكذيب لما أنزل الله تعالى وتحريف وتغيير. إن الله تعالى يقول: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفّفين: الآيات ١٠/١٤]. وفي آية أخرى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصّف: الآية ٥].

فكل دين، مهما كان مبالغاً في تزكية النفس وآمراً بالتقوى والورع إلى أقصى حد ممكن، إذا حلَّ في أوروبا أثرت فيه مادية أوروبا فأرجعته إلى مجالس الأنس والملذات والشهوات، تختلف عن مجالس أخرى، بأن فيها مسحة دينية ضئيلة، تنطفئ تحت نير الشهوات وحبائك الشيطان. وهذا أحد أسباب عدم ظهور الأديان الحقة في أوروبا. لأن أوروبا (أو الغرب) بمبادئها وشهواتها ومجونها غالبة مغيرة. والأديان

كسائر العناصر الحية تتغير وتنحرف وتأخذ أشكالاً تطابق المحيط والبيئة (Adaptation) إذا كان قد قدّر لها ذلك، وإلاّ فتموت. ولقد سمعت من أحد الوزراء السابقين (وقد توفّي رحمه الله) ما مفاده: لماذا ظهرت الأديان في الشرق ولم تظهر في الغرب؟ غير مميز بين الأديان الحقة والأديان المختلفة البشرية، غير فارق بين البيئة الملائمة لنشر التعاليم الإلهية الحقة والبيئة التي تؤثر في تلك التعاليم. فتمسي مضطهدة متأثرة، آخذة طوراً يناسب ذلك المحيط وتلك البيئة. وهذا الفرق يظهر بين البلدان المختلفة التي يعتنق أهلها ديناً واحداً.

إن طابع أوروبا طابع مادي منذ عهد الرومانيين وقبلهم والدين يحتم على الإنسان أن يؤمن بما وراء المادة. وأن يعمل حسب التعاليم التي أرسلها الله من وراء المادة على لسان أنبيائه ﷺ، دون أن يغيّر فيها شيئا. ولكن المدنية الغربية لا تخضع إلا لما تحتّمه المقتضيات الاقتصادية والاجتماعية والقومية وكل ما هو مادي يؤدي إلى الراحة والرفاهية. فأوروبا مادية بكل ما في المادية من معنى وتعبد المادة منذ زمن بعيد وقد ألبستها لباس الحضارة. إن مدنية أوروبا اليوم هي نفس المدنية الرومانية القديمة التي لا تعترف لغير المادة الصماء، فهي نفعية بحتة. ولم توفق المسيحية في أوروبا في تخفيف هذا الجشع المادي الموروث بل أثرت مادية أوروبا فيها. فكانت اسماً بلا مسمى وتقاليد بلا روح. يريد الغربي أن يرى شيئاً عن (ما وراء الطبيعة) وعن الروح وعن مصير الإنسان بعد الموت في الطبيعة المادية نفسها أي في مختبراتها. وحيث لا يمكن ذلك، لأنهما من واديين مختلفين وعالمين متباينين، أمسى لا يقر لغير المادة، ولا يعمل إلا في تحقيقها والتزود منها بأوسع مقياس. إن الغربي يريد أن يرى الله تعالى في تحليلاته الكيمياوية وفي أجهزة الاختبارات الفيزيائية! في حين أن الله تعالى مُظهرٌ في ذلك جليل قدرته وعظمة صنعه.

ولا ترتيب إلا بمرتّب ولا تنظيم إلا بمنظّم لاسيما إذا كان هذا الترتيب يحيز العقول ويدهش الألباب.

يقول الله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ

فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الروم: الآيات ٢١/ ٢٤].

فدين الإسلام بهذه الآيات البينات يدعو إلى التفكر والعلم واستماع القول الحق والتعقل. لا إلى خرافات وضعها الاتجاه المادي المتغلغل في أوروبا ولا إلى شهوات من تربّوا تربية مادية حتى أدى بهم إلى روح مادية مدلهمة لا تستنبط من خواص المادة ونظمها وقوانينها عظمة واضعها وخالقها. و «إن أعمى العمى عمى القلب». كما جاء في الحديث. نعم، أخطأ الغربي في التطبيق بسبب ظلمة في النفس. وقاس الأمور الروحية البحتة بمقاييس ومعايير تستعمل في المختبرات كمتشاعر كان يزن شعره بالسانتيمترات! إن الغربي أراد أن يجد قوانين الكمال الإنساني وقوانين الشريعة التي تبلغ بالإنسان ذروة الكمال تحت المجاهر والمخابر. وقلّده الشرقي، فانجرف نحو المادة الصماء وترك معنوياته التي تفوح كمالاً وجمالاً، معنويّات بها يسمو الإنسان فيكون أعلى منزلة من الملائكة. أجل! استقى الشرق من فلسفة أوروبا المادية أكثر من أن يأخذ من رياضياتها وطبيعياتها وصنائعها، بل أخذ من فساد أخلاقها واستهتارها وخلاعتها ومراقصها ومجونها وطيشها وترفها قبل أن يأخذ من مخترعاتها ويتعب ذهنه في حل غوامضها، ذلك لأن النفس الإنسانية تميل إلى التسافل والتدنس، وإن في اقتباس المخترعات والنظريات الدقيقة لتعباً وتفرّ منه النفس الشهوانية الميّالة إلى الراحة. كان يفتش الشرقي عن مسلك يستريح به من القيود فوجدها في المدنية الغربية المادية. وهل الدين إلا قيود تتكامل بها النفس، وهل تكمل النفس إلا بإرادة قوية تقيدها عن المدنسات وهي كل ما حرم الله تعالى على لسان نبيه الكريم ﷺ. إن الله تعالى يقول: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[القلم: الآيتان ٣٥/ ٣٦]. فجعل الإسلام مضاداً للإجرام، ومعنى ذلك أن الإسلام الحقيقي موقوف على عدم الإجرام وعدم التصدي على الموبقات والمدنسات. لأن الإسلام مطهر الفرد عن كل

ما يلوث النفس الإنسانية، موصل إياه إلى أعلى مراتب الكمال. وليس الإسلام تسمية وأسماء فحسب، حتى يعد الشخص مسلماً بمجرد حمله هذا الاسم. نعم، إن النفس البهيمية تفهم الخلاعة والاستهتار والإنغماس في الخمور والفجور قبل النظريات العلمية، فتلبسها لباس المدنية والحضارة، فيكون هذا الاسم الكاذب مبرّراً لشهواتها ونزواتها. لذلك كله دبَّ في الشرق وتبلبل في العقائد والأفكار وأخذ يغالي البعض فيريد قلب البلاد الإسلامية إلى بلاد غربية بجميع مظاهرها وويلاتها. نعم، قلّد الشرقيّ الغربيّ تقليداً أعمى لجهله دينَه وظنّه أن دين الإسلام لا يساير الحياة العلمية وإن لمعطيات القرن العشرين في العلوم، القول الفصل، وأن كل ما جاء في الدين مخالفاً للنظريات العلمية ومردود. ولم يفرق بين العلم الحقيقي الناصع وبين (الفرضيات!) الموضوعة المتحولة من وقت إلى وقت على قدر جهود المخترعين والمكتشفين. وإن نظرة بسيطة إلى تاريخ العلوم والفلسفة ترينا مدى تغير الحقائق العلمية ووضع نظريات جديدة «أو فرضيات!» وإلغاء نظريات قديمة كان البشر يظنها حقائق راهنة ينازع فيها رجال الدين ويسمهم بالخرافة والجهل. ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة: الآية ٢١٢].

كان يرى العلم الحديث إلى عهد قريب أن الشمس ثابتة وكان القرآن ينادي منذ مئات السنين أنها متحركة بقوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: الآية ٣٨]. ثم عدل العلم الحديث عن ما كان يعتقده بعد تقدم العلوم الرياضية وآلات الرصد فقال بحركة الشمس لمستقر لها سائرة نحو نجمة تدعى بالنسر الواقع، على شكل لولبي، وقال بحركة كثير من النجوم الثوابت بعد أن كان يراها ثابتة لا تتحرك. كم مرة عدل العلم عن ما قرره بعد العثور على حقائق جديدة وكم مرة سوف يعدل في المستقبل عما يقروه الآن، لا يعلم ذلك إلا الله. فما جاء في الدين، ثابت لا تغير فيه والعلم متأخر عنه، يصل إليه مع تقدم الوسائل والمخترعات إلا ما كان من أمر النفس فإنه سيبقى مجهولاً أبد الآبدين. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: الآية ٨٥]. ويقول تعالى أيضاً: ﴿مَّا

أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: الآية ٥١] . فما لا يدركه العلم من الدين ويعجز عن تفسيره ليس إلا لقصور فيه وانقباض في سعة مداه الحاضر وقلة الوسائل ووجود الحاجة إلى اكتشافات أخرى ومخترعات جديدة وصفاء في النفس.

تأخر العلوم عن الحقائق الدينية

قد ثبت في العلم الحديث في زمن متأخر ما نطق به القرآن الكريم أن مبدأ الحياة وُجد بالماء. والماء من أهم البواعث في تكوين الحياة وكان يقول الله تعالى قبل مئات السنين في كتابه الذي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فُصِّلت: الآية ٤٢] : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٣٠] . ثم اكتشف العلم الحديث أن الزوجية متأصلة في الأشياء كلها حتى أن الذرة مركبة من (ألكترون وبروتون)؛ كهربائية سالبة وكهربائية موجبة. وكان القرآن الكريم ينطق بذلك قبل أكثر من ألف وثلاثمائة سنة. ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذّاريَات: الآية ٤٩] . أي لعلنا نتذكر أن الوحدانية له تعالى لا يشاركه فيها أحد أنه تعالى يقول في آية أخرى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: الآية ٣٦] .

كان الطب يجهل أدوار الجنين في الرحم إلى زمن غير بعيد، وكان القرآن ينطق قبل أربعة عشر قرناً تقريباً: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ١٣/١٤]. ثم أنه تعالى قد أوضح مراحل تشكل الأمطار في آيات شتى تبهر العقول. يقول جلّ وعلا في سورة فاطر: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ .

إن للرياح أثراً فعالاً في حدوث الأمطار. ذلك لأن الرياح تعمل في تكوين السحاب وتكثيفه مطراً مستعينة بفعل الجبال والكهربائية الجوية.

فإذا حملت الرياح السحاب كانت الجبال مكثفات هائلة تساعد على تكثيف السحاب. إن الرياح تزجي السحاب بأمره تعالى فيقترب السحاب الموجب من

السحاب السالب مقداراً كافياً يؤدي إلى التجاذب وزيادة في كهربائية مجموعة السحاب بالحث. نعم، إن هذا التقارب ليتزايد بصورة تدريجية حتى تتحد كهربائيتهما عن بعد، فيحدث هذا البرق الذي نشاهده. ومن ثم يحدث المطر. وإن دراسة الجو أمر معقّد، لتشعب مسائله ولزوم توحيد جهود الأمم وارتباط الحوادث الجوية بعضها ببعض ارتباطاً قوياً، حتى أن حادثة جوية تقع في شرق العالم لتؤثر في الأوضاع الجوية في غرب العالم. فإذا هبت الرياح على بلدة في العراق مثلاً أو هطلت الأمطار عليها فإن سبب ذلك لا ينحصر في جو هذه البلدة فحسب بل يجب أن نبحث عن السبب خارج هذه البلدة. نعم، قد يكون من السهل القيام بأعمال رصدية قريباً من سطح الأرض ولكن القيام بأعمال رصدية في مناطق عالية عسير جداً. لأن معلوماتنا عن حقيقة الرياح ومصيرها وعن الكهربائية الجوية وكل ما يتعلق بالجو قليلة جداً. ولعل الأقمار الصناعية تزيد في معلومات البشر في هذه النواحي المجهولة. على أن هذه المجهولات تبقى متنوعة وكثيرة أبد الآبدين. وذلك لأننا كلما فُتح لنا نفق من العلم تجلت لنا مجهولات متعددة ومتنوعة لا تحصى. فسبحان الذي نظر هذا العالم بعلم لا يتناهى وقدرة لا تتناهى وحكمة لا تتناهى. وقد علم علماً يقيناً أن الرياح تثير السحاب (كما جاء في القرآن الكريم) أو بخار الماء. أي أنها تظهره بعد أن كان كامناً. يسوق الله تعالى السحاب حيث يشاء، ولم يتكلم العلم الحديث عن كيفية هذا السوق، لتعدد العوامل وتشعبها، ولا رابط بينها إلا الله تعالى.

إن المطر ليحدث بعوامل عدة: منها زيادة تشبع الهواء ببخار الماء، ومنها البرودة في المناطق العالية ومنها قلة الضعف في المناطق العالية ومجيء الرياح الباردة من المناطق القطبية، ومنها الجبال، ومنها نويات التكاثف كدقائق الغبار الخفية أو المرئية، ومنها تأيّن الهواء أي تكوين الأيونات فيه والـ (أيون) هو الذرة المكهربة أو الجزء المكهرب أو الهباءة المكهربة وأن الجو ليتأيّن بعوامل مختلفة، البحث فيها من أصعب المواضيع.

يقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ

﴿أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر: الآية ٢٢] . إن هذه الآية تعلمنا أن للرياح اللواقح أثراً فعالاً في نزول الماء من السماء وإسقائه الناس. فهذه الآية لا تريد أن تشير إلى أن الرياح لواقح للزرع، بل تقول: إن الرياح تلعب دوراً خطيراً في الاتحاد بين كهربائية وكهربائية في سحابتين مختلفتين، أي أن الرياح تعمل في الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة، فتقع الملاقحة بين سحابتين. فهذه الآية معجزة خالدة، لأنها تخبر قبل ١٤٣٠ سنة تقريباً عن شيء هو عصارة العلم الحديث. وهذا دليل واضح على التطابق التام بين العلم والدين في الإسلام وبرهان قطعي على تأخر العلوم عن الحقائق القرآنية.

وهناك آية أخرى أدل من الآيتين المتقدمتين على كيفية حدوث الأمطار، يطابق آخر ما وصلت إليه الاكتشافات الأخيرة. وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾﴾ [النُّور: الآية ٤٣] . ففي هذه الآية خلاصة كثير من الاكتشفات الحديثة في تشكل المطر فخص بالذكر قوله: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾. أي أن الله تعالى يؤلف بين السحاب. وهو يدل بوضوح على الحقيقة الكهربائية التي تقوم عليها الظواهر الجوية. فإن التأليف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية حتى تتجاذب وتتعبأ في الجو حسبما يريده الله فيتكون بأمره تعالى من بين السحاب برق أو صواعق ومطر وبرد. وإن عملية الركام تأتي بعد عملية التأليف. على أن الله جلّ جلاله لا يريد بذكر هذه الآيات تعليم الناس شيئاً من العلوم الكونية لأن كلمات الله وما أودعه في الأجسام من خواص لا تتناهى. ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمَان: الآية ٢٧] . ولكن الله يريد أن يرى العباد جليلَ قدرته وعظيم صنعه إتماماً للحجة. ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعَام: الآيتان ١٤٨/١٤٩] . ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفَال: الآية ٤٢] . نعم، إن الإنسان يصل إلى العلوم الكونية عاجلاً أو آجلاً بفكر أودعه الله فيه، ولثابتية خواص الأجسام وقوانينها. وقد عاش الإنسان

آلاف السنين دون أن يعلم قوانين (لوردكلوين) في الكهرباء وقوانين ليبنيتز (Leibnitz) في التحليل الرياضي أو معادلات (دكارت) في الهندسة التحليلية. ولا أعلم هل تكامل البشر روحياً بعد الوقوف على هذه القوانين، أم رجع القهقرى يأكل بعضهم البعض؟ والمهم بل الغاية الأسمى التي خلق الإنسان لأجلها هي تزكية هذه النفس التي لا تقر على حالة ثابتة خلافاً للجمادات التي لها قوانين ومعادلات ثابتة يظفر بها الإنسان بلطف من الله. وكثيراً ما يظفر بها بطريق الصدفة منّا منه تعالى. والبشر المادي أقل من أن يأتي بنظام يكفل سعادة البشر في الدارين. أما الدين فحقائقه ثابتة ترمى إلى غايات بعيدة قد يفهمها العلم وكثيراً ما يتأخر عن فهمها.

ونسأل الله تعالى نفوساً صافية وآذاناً واعية تعي الحق فتتبعه، ولا تغتر بما يكتشف في هذا العصر مما أودع الله من كنوز ومعادلات في هذا الكون المادي. فإن الغرور يبعّد الإنسان عن رؤية الحق وإتباعه أيما تبعيد. إن الله تعالى يقول: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: الآية ٣٥].

علاقة الدين بالعلم والظن

إن الدين الإسلامي حث على تحصيل العلم إلى حد بعيد، ولم تقع معارضة بين الدين والعلم في العالم الإسلامي تشبه المعارضات التي حدثت بين الكنيسة والعلماء الكونيين في القرون الوسطى فأدت إلى الشنق والنفي والسجن.

فإن الدين الإسلامي يحبّذ العلم الصحيح الذي لا شبهة فيه ويؤيده أيما تأييد. ولكنه يندد بأولئك الذين يتبعون الظن ويعتبرونه علماً ويبنون على هذا العلم الباطل أشياء كثيرة لا أساس لها، تفسد بذلك عقائدهم وأخلاقهم فيكونون من الأخسرين أعمالاً. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨].

فنهى الدين الإسلامي عن إتباع الظنون وهي النظريات التي لا تستند على أسس

رياضية رصينة ولا تؤيدها التجارب بصورة مطردة وإنما هي أهواء ووساوس تنجلي بصورة العلم. يقول الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس: الآية ٣٦]. وفي مكان آخر: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: الآية ٢٨]. وقد قال الله تعالى في سورة الكهف: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾. فنهى عن الظن بقوله: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾. وبقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء: الآية١٥٧]. وبقوله: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: الآية ١١٦] (أي يكذبون).

وقد حث القرآن الكريم على التمسك بالعلم القطعي الصحيح واتخاذه أساساً للمعتقدات والحياة الاجتماعية بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٩]. فخص الله التذكر والوعي الديني والقيام بما فرض الله بأولي الألباب والعقول: أولئك الذين يتبعون العلم الصحيح، لا الظنون والأهواء. وإن الله تعالى أمر نبيه ﷺ مع ما آتاه من العلم والحكمة أن يدعو ربه لازدياد العلم بقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٤]. وهذا يشير إلى عدم انتهاء مدى العلوم. ويقول عزَّ من قائل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾[فاطر: الآيات ١٩/ ٢٢]. ولا مراء أن العلم الصحيح الناصع الذي يوصل الإنسان إلى الاعتقاد بالله والعمل بما يرضيه، فيه النور والحياة والسعادة الأبدية، وهذا هو العلم الذي يهيئ لنا سعادة الدارين.

قال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: «تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وهو عند الله لأهله قربة. لأنه معالم الحلال والحرام، وسالك بطالبه سبيل الجنة، وهو أنيس في الوحشة، وصاحب في الوحدة، وسلاح على الأعداء، وزين الأخلاء، يرفع الله به أقواماً يجعلهم في الخير، أئمة يقتدى بهم ترمق أعمالهم وتقتبس آثارهم، وترغب الملائكة في خلتهم،

يمسحونهم بأجنحتهم في صلواتهم. لأن العلم حياة القلوب، ونور الأبصار من العمى، وقوة الأبدان من الضعف. ينزل الله حامله منازل الأبرار ويمنحه مجالسة الأخيار في الدنيا والآخرة. وبالعلم يطاع الله ويعبد، وبالعلم يعرف الله ويوحّد، وبالعلم توصل الأرحام، وبه يُعرف الحلال والحرام. والعلم إمام العقل والعقل تابعه. يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء»[١].

وقد قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ألا أن الله تعالى يحب بغاة العلم»[٢]. وإن الإسلام عظم منزلة العلماء الحقيقيين أيما تعظيم حتى جعلهم ورثة الأنبياء، وفي حديث: «عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد»[٣].

ما هذا العلم الذي يعطيه الدين الإسلامي هذه المنزلة الرفيعة؟ هو كل علم يوصل الإنسان إلى توحيد الله تعالى والخشوع والخنوع بين يديه، علم يؤثر في النفس الإنسانية فتتقشع عنها الرذائل والخبائث ويزول عنها الرجس والدنس، فيكون هذا الإنسان بشراً على شكل ملك أو ملكاً على صورة إنسان، هذا العلم الذي يتخلله التوحيد والاعتبار بعظمة الله تعالى ثم القيام بتكميل النفس.

ولا شك أن الفيزياء والكيمياء والفلك وعلم النبات والحيوان وطبقات الأرض وغير ذلك من العلوم نوافذ، منها يتمكن العالم أن يبصر عظمة الله وجليل قدرته، فيزداد تسبيحاً وتحميداً لله تعالى.

إذن فما الذي أدى بفريق من الناس حتى أصبحوا من عباد المادة؟ رجعوا وثنيين يعبدون المادة الصماء بعد الاطلاع على كثير من خواصها؟ ذلك لأنهم لم يستنتجوا من هذا العلم المادي استنتاجاً يوافق المنطق وإنما اتبعوا الظنون. أثرت فيهم ضوضاء المعامل والانقلاب الميكانيكي فاغتروا بها واستعملوا ذلك في الترف وإيجاد أسباب الراحة والركون إلى الدنيا وشهواتها وملذاتها، فعميت أبصارهم وتحلت إذ ذاك لهم الظنون علماً، فقالوا: لا شيء وراء المادة.

---

(١) أمالي الصدوق: ص٦١٥، مجلس٩٠.

(٢) أصول الكافي: ج١، ص٣٠، باب فرض العلم.

(٣) أصول الكافي: ج١، ص٣٣، باب صفة العلم.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٧٩] . أي أن هذه الطائفة الضالة غفلت عن إتباع العلم الصحيح واتبعت ظنونها وشهواتها. ذلك لأن النفس الإنسانية إذا انطمست في الموبقات والمنكرات لا تبصر الحق ولا ترى سبيلاً إلى العلم الصحيح. لأن الموبقات والمنكرات والمعاصي تشكل حجاباً كثيفاً مدلهّماً يحجب النفس الإنسانية عن رؤية الحق والواقع، فتظهر لها الظنون بلباس العلم وهي في أسفل درك من الظلمات. يقول الله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [النّجم: الآية ٢٣] .

ظهرت المادية بأجلى مظاهرها في أوروبا في القرن التاسع عشر، وكان من أبشع مظاهرها ظهور المبدأ الشيوعي، حتى أنكروا وجود الخالق: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: الآية ١٠] .

وقد سمعت من أحد كبار المبشرين بالدين الإسلامي: أنه قد أوفد (لينين) مندوبه إلى سمرقند ليهدم المساجد والكنائس، ويفهّم الناس أن لا شيء وراء المادة، وأن هذه العبادات ليست إلا سخافة. فجاء المندوب وطلب إلى الناس أن يجتمعوا في ساحة كبيرة وقد أخبر العالم الديني (العالم بالدين الإسلامي) في سمرقند بما سيكون من أمر هذا المندوب، واجتمع إليه رؤساء الدين من أهل الكتاب، وقالوا إن البلية عامة وفوّضوا إليه أمر الدفاع. حتى كان اليوم الموعود. فقام الشيوعي قائلاً: ماذا تعبدون؟ إن كان هناك إله فلم لا نراه بأبصارنا؟ ولم لا نلمسه بأيدينا؟ ولماذا لا نتذوقه بألسنتنا ونشمُّه بأنوفنا ونسمعه بآذاننا؟ إذن ليس وراء المحسوسات شيء. هدّموا الجوامع والكنائس ودور العبادة.

فقام إليه العالم المسلم، وكان قد أحضر قبلاً كرتين بحجم واحد. إحداهما من خشب والأخرى من حديد ملونتين بنفس اللون، وقد وضعهما على المنضدة. فخاطب الشيوعي قائلاً: قل لي أي الكرتين أثقل، استعمل في ذلك حواسك الخمس كما

استعملتها لمعرفة الخالق. فأبصرهما الشيوعي، ثم شمّهما، ثم لمسهما، ثم ذاقهما، ثم وضع أذنه بالقرب منهما ليسمعهما. فقال: لا أهتدي بالحواس الخمس إلى معرفة أثقلهما، إلا أن عقلي يقول لي: ارفعهما وحرّكهما بيديك كي تعلم أيهما أثقل.

فقال له العالم المسلم: إذن العقل هو المرجع الوحيد عند قصور الحواس الخمس وعجزها وأخطائها، وبالعقل يدرك الخالق الذي جهزك بأعضاء لو تعطل عضو رئيسي منها لما استطاعت المعامل بأجمعها أن تعوض عنه. فكم تخطئ الحواس الخمس ويكون العقل مصححاً لها. هل الشمس بهذا الحجم الذي نشاهده؟ وهل النجوم بهذه الصغر؟ وهل الخطان المتوازيان الممتدان إلى حد بعيد يتلاقيان حقاً؟ وأمثال ذلك من أخطاء الحواس في الهندسة والفيزياء كثيرة. إن الله تعالى يقول: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس: الآية ٦٦]. ويحق لي أن أكرر الآية الآتية لمطابقتها العصر الحاضر: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: الآية ١١٦].

ونسأل الله توفيق إتباع العلم الصحيح وترك الظنون والأهواء. فـ «العقل ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان»(١).

الدين والعلوم الحديثة

عندما يرى الطالب، المعلومات الحديثة في علم النبات والحيوان وطبقات الأرض والفيزياء والكيمياء والتاريخ والجغرافية والرياضيات ويرى مختلف التآليف وشتى المختبرات يندهش أمام العلم الحاضر ويظن بل يقطع أن العلم الحاضر له القول الفصل في كل ناحية من نواحي الكون. وإن ما يقوله حقٌّ لا يشك فيه. هذه العقيدة تكون قوية في المدارس المتوسطة أكثر من الثانويات وفي الثانويات أكثر من المدارس

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص١١، كتاب العقل والجهل.

العالية، إذا كان الطالب ممن لا يسلّم بما يلقى عليه دون تعمق وتدبر. وأما إذا كان من البسطاء الذين لا ينظرون إلى القول، بل القائل أهم منزلة عندهم مما يقول، بقي ثابت العقيدة في أن العلم الحاضر حلاّل المشكلات، وموصل الإنسان إلى أقصى مرتبة من مراتب التحقيق. وما يقال له فلا يناقش فيه. ويزداد تعجباً عندما يرى المعادلات التفاضلية التي تستعمل لحل غوامض القوانين الكهربائية ومباحث الحركة والحرارة الحركية من مباحث الفيزياء العالية.

وقد رأيت ذات يوم وأنا أقوم بتجربة فيزيائية: أن طالباً دُهش لمّا رأى أن التجربة تدلّ على صحة القانون الفيزيائي وقال: هذا هو العلم! معجباً بالتجربة فرحاً مغروراً، وقد فاته أن ذلك ليس إلا ظاهرة من ظواهر العلم، ظاهرة بسيطة لا تدل على حقيقة إلا بعد استنتاج صحيح، وإنك لو سألت من تخصص في الكيمياء: كيف أن الغازين (الأوكسيجين والهيدروجين) يشكّلان بالنسبة المعلومة الماءَ بعد إمرار تيار كهربائي، وما تأثير الكهرباء هنا؟ يبقى حائراً صامتاً لا جواب له. وغاية ما يقول: إن التجربة تدل على ذلك. وما التجربة إلا حادثة أو ظاهرة يجب تفسيرها. وإن المدقق المفكر من علماء الكيمياء الأخصّائيّين يعترف بأن إرادة ربانية تعمل في تركيب هذه العناصر ولولاها لما حصل هذا المعجز. إذ لا مناسبة بين الأوكسيجين الغازي والماء. وقد زعم آينشتاين وكان من كبار الفيزيائيين الرياضيين بل كاد أن يكون أعظمهم بعد كشف النظرية النسبية (Relativite): أن أقصر الخُطوط هو الخط المنحني وأن الضوء يسير على خط منحن غير مستقيم، وكان فيما يقوله يستند على تجاربه واستنتاجاته السابقة، ثم أتيح له أن رصد بآلات أتقن من الآلات السابقة وقام بحسابات أخرى فعدل عن رأيه وقال: إن أقصر الخطوط هو الخط المستقيم، وإن الضوء يسير على خط مستقيم. فالتجارب الثانية والمشاهدات والحسابات التالية قد أصلحت الأخطاء الناتجة عن التجارب والمشاهدات والحسابات الأولى. إذ ليست التجربة كل العلم وإنما حسن الاستفادة وحسن الاستنتاج هو الذي يجب أن يعتمد عليه. ويكون الإنسان معرّضاً للخطأ والزلل وقلَّ أن يسلم منهما أحد إلا من عصمه الله.

كما أن النظريات أو بالأحرى (الفرضيات) التي توضع (لا عن تحقيق علمي وإنما لإمكان تفسير الحوادث أو التجارب) تتغير من حين لآخر. لأن الفيزيائي يضع (فرضية: Hypothese) تدل مثلاً على ماهية الكهرباء ويفسر الحوادث والمشاهدات الكهربائية على ضوء تلك (الفرضية)، حتى إذا رأى حادثة أو ظهرت له ظاهرة عفوية لا قصداً، تخالف (الفرضية) الموضوعة عمد إلى وضع (فرضية) جديدة صالحة لتفسير الحوادث السابقة واللاحقة، فلو كانت (الفرضية) الأولى صحيحة فما هذه الثانية؟ وإن كانت الثانية صحيحة فإذن بقينا في خطأ وضلال طيلة تمسكنا بالفرضية الأولى. ومن يقوى على القول بأن (الفرضية) الثانية صحيحة، ذلك لأنه ستظهر حوادث أخرى لا تفسر بالفرضية الثانية. كما أن (فرضية لا بلاس) في تشكل النظام الشمسي ليس بالشيء الذي يعتمد عليه. على أنها لا تضبط بحسابات وقوانين، وقد جرحت وعدّلت كثيراً. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠]. ويقول الله في مكان آخر: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٤]. على أنه ليس من وظائف الدين تعليم الناس علم طبقات الأرض أو علم الأحياء، بل وظيفته إعطاء القوانين والأحكام المؤدية إلى تزكية النفس وتقريب الفرد إلى الساحة الإلهية القدسيّة وإيجاد سعادة الدارين. وإن ما جاء في القرآن الكريم من الآيات التكوينية إشارة إلى خلاصة ما يمكن أن يصل إليه العلماء المثقفون وتبيان لعظمته وجليل قدرته تبارك وتعالى. يقول جلّ وعلا في سورة نوح عليه السلام: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾[نوح: الآيات ١٥/١٨].

ولا مراء أن مشاهدات محدودة في ناحية خاصة أو ناحيتين أو ثلاث لا توجب حكماً كلياً علمياً. كقولنا: إذا أضيفت أشياء متساوية إلى أخرى متساوية فالنتائج متساوية، أو مجموع زوايا مثلث يساوي قائمتين. وكل من تتبع العلوم العالية يرى ضعف العلماء وعجزهم عن استقصاء حقائق كثيرة لا تعد ولا تحصى، ويرى اعترافهم

بجهلهم أكثر من اعتزازهم بعلمهم. هذا أفلاطون يقول: علمت أني لا أعلم شيئاً. وهذا نيوتون يقول: إن علمي بحقائق هذا الكون أقل بكثير من علم طفل صغير جالس على شاطئ بحر يلعب بالحصى بما في أعماق هذا البحر. كيف لا يكون كذلك وإن الخواص التي أودعها الله في تركيب هذا الكون ونظامه تكاد لا تتناهى لقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: الآية ١٠٩]. وإن كلمات الله هي الخواصُّ والنظم والقوانين المودعة في مطاوي هذا الكون: تلك النظم التي تربط الكون بعضه ببعض: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾[المُلك: الآيتان ٣/ ٤].

نعم، نرى أن كثيراً من قوانين الفيزياء العالية ناقصة وكثيراً من الاتمامات (Integration) تكاد أن تكون لغزاً من الألغاز لا يتاح لأحد أن يحلّها. ونرى أن العالم الفلاني قد وضع قانوناً لمحاسبة سرعة الصوت مثلاً في وسط معلوم وقد خطأه العالم الآخر وأصلح قانونه، ثم أتى آخر وأصلح خطأ الثاني. ثم إن التخمين ضارب أطنابه في قياس الحوادث والتجارب ولا تكاد ترى نتيجة من النتائج بعدد حقيقي خالٍ عن التقريب. ترى يعطيك الفيزيائي قاعدة لاختلاف الضغط بنسبة الارتفاع إلى حد معين ثم يقف ويعطيك معلومات مضطربة تقريبية لارتفاعات أعلى ثم يسكت إذا تجاوز الارتفاع حداً معيناً.

فالعلوم الثابتة التي لا مراء فيها والتي يعتمد عليها هي العلوم الرياضية (Mathematiques pures) كالحساب النظري والهندسة النظرية بأنواعها والهندسة التحليلية والحساب الأعلى والجبر العالي والتحليل الرياضي لأنها مجردة عن المادة. وسنعلم أنه لا تنافي بين القسم الصحيح من العلوم غير الثابتة وما جاء في الدين الإسلامي تبياناً لعظمة الله تبارك وتعالى وجليل قدرته.

لا تنافي بين الدين والعلم الصحيح

إن العلوم الثابتة التي لا مراء فيها هي العلوم الرياضية البحتة كالحساب النظري

والهندسة التحليلية والتحليل الرياضي (Analyse mathematique).

وعندما تتدخل فيها المادة تخرج عن كونها علماً قطعياً لا يشك فيه: كالميكانيك الرياضي والفيزياء والفلك، وكذا الحال في علم النبات والحيوان وطبقات الأرض. لاسيما (الفرضيات): (Hypotheses) أو الموضوعات، فإنها ليست حقائق ناصعة وإنما مقترحات يقترحها العلم ظاناً أنها أقرب إلى الواقع من احتمالات أخرى، والاحتمال ليس من العلم الحقيقي في شيء. ثم إن فساد (الفرضيات، أو العنديات) والتخمين يتجليان للإنسان في العلوم التربوية والاجتماعية والنفسية والفلسفية والقانونية أكثر من بقية العلوم. وحقاً أنها علوم غير ثابتة، لأنها تبتني على (فرضية) واضعها فما رآه حسناً أقرَّه. وإن البيئة تكفي لإثبات ما يدعيه! للسيطرة المادية على النفوس حين أن مدّعاه شيء كل عام، يتجاوز البيئة التي شاهد فيها الحادثة. حتى آل الأمر إلى أن العالم الاجتماعي يقول بالقطع والبت في نظرياته وأفكاره. وهذا ما يعبّر عنه عندهم بـ (Determinisme). وقد يبالغ العالم النفسي فيظن أنه وصل إلى حقائق النفس فيضع منحنيات تقريبية وجداول مشوشة وإحصاءاً ناقصاً تقريبياً. حين أن كل ما يعلمه إنما هو في ظواهر النفس، وذاك بشكل ناقص مبتور. والدليل على ذلك تضارب الآراء في مسألة واحدة في وقت واحد.

والنقطة الرئيسيّة في وضع النظريات: (الفرضيات) أو (العنديات) سواء في التربية والاجتماع وغيرهما هي البلوغ إلى تحقيق غاية قد تكون غير مشروعة وغير صحيحة، فيؤلف العالم أو المتظاهر بالعلم، الكتب الضخام ويفسر جميع الحوادث النفسية والاجتماعية تفسيراً يحقق تلك الغاية أو النظرية. فإن كان مادياً، فإن المادة تتدفق خلال أسطره، حين أن الأصل فاسد منتقض مردود. وإن كان ملحداً يترشح من نظرياته ونتائج تفكراته الإلحاد! والمرجع هنا أيضاً تلك المادية المدلهمة الظلماء بشكل خدَّاع.

إن بعض الشبّان ليندهشون عندما يرون تزاحم الكتب وتراكم المجلات، فلا يكاد مَن يجعل لنفسه بين الآراء رأياً أو يتصور لنفسه بين الأوزان الخيالية وزناً. فيفند كل

رأي يخالف نظريات (كلابارد) مثلاً (بنتهام) أو (شوبنهاور) أو (دوركايم) أو لا سمح الله (بو خنر) المادي المعروف.

وإذا طالع الكتب الدينية ظن أن هناك تضارباً بينها وبين العلم الحقيقي الناصع المجرد عن كل شائبة، فيعمد إلى السخرية والاستهزاء بالمتدينين ويحكم بأنهم خرافيون بعيدون عن العلم. حين أنه لا تضارب ولا منافاة بين القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة وبين العلم الصحيح الثابت، لا النظريات: (الفرضيات) المضطربة والأهواء الباطلة التي ليست من العلم الحقيقي في شيء. كان يقول الفلكي إلى وقت قريب: إن الشمس ثابتة وكان القرآن الكريم ناطقاً قبل مئات السنين بهذه الآية المنيفة: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾ [يس: الآية ٣٨]. وكان الطالب في المدارس المتوسطة يبقى حائراً لا يعلم هل يأخذ بقول الفلكي فيقول بسكون الشمس، أم بقول الله في كتابه الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٢]، فيقول بحركتها. فإن كان مؤمناً حقاً خطّأ نفسه في فهم القرآن الكريم وحاول التأويل. ولكن الحقائق التي بيّنها الله إظهاراً لعظمته وجليل قدرته لا تماشي أهواء العلماء وأخطاءهم، إنها ثابتة لا تغير فيها. نعم، كان هذا التبلبل سائداً إلى زمن قريب حتى تقدمت العلوم الرياضية بفضل ما ألهم الله تعالى المشتغلين في العلوم الرياضية العالية، فتقدم الميكانيك الرياضي والسماوي (Mecanique Celeste) وأثبت الفلكيون أن الشمس متحركة بحركة خاصة بها وتجري لمستقر لها بسرعة (٧٢٠٠٠) كيلو متر في الساعة على شكل حلزوني نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع. ووصلوا إلى الحقيقة التي نطق بها القرآن في دور جاهلي ووسط جاهلي حيث لا فيزياء ولا فلك ولا ميكانيك. يقول الله تبارك وتعالى في سورة فاطر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾ [فاطر: الآية ٤١]. أي ما أمسكهما من أحد من بعده. هذه الآية الشريفة تدل دلالة واضحة على أن النجوم ثوابتها وسياراتها معلقة وسابحة في الفضاء ويجذب بعضها البعض بإرادته تعالى حسب القوانين الرياضيّة الثابتة أودعها الله فيها وهو الذي يمسكها من أن تزول

وتنحرف عن مواضعها ومسيرها. فإن زالت وتخطت ـ لا سمح الله ـ فليس لأحد بعد الله تعالى أن يمسكها عن الاضطراب والتصادم والتدهور. ولولا قدرته وإرادته جلَّ وعلا لما كان للجسم الجامد الصامت أن يتحرك بانتظام وقانون رياضي في مدار خاص محدود. وقد وقف على القليل منها الفلكيون بعد عناء شديد. وقد كشف إسحق نيوتون قانون الجاذبية العامة وكشفت بواسطته سيارة مجهولة من قبل عالمين في وقت واحد ولكنه عجز هو ومن جاء بعده عن فهم حقيقة الجاذبية ولا يزال العلم عاجزاً عن فهم حقيقة الجاذبية وحقيقة الكهرباء والضوء والنفس الإنسانية وكل شيء قُواني (منسوب إلى القوة) وسيبقى عاجزاً إلى الأبد ما دامت هذه النفس مرتبطة بالجسم. فقد جاء في الحديث: (الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا)[1]. ذلك لأنه لا يمكن قياس ما هو غير مادي بمقاييس مادية. كما لا يمكن قياس طول الغرفة بالغرام وإن بعُد التشبيه. وإن العلم الحديث لا يعمل إلا في كشف خواص المادة والتأثرات المتقابلة المادية بين المواد. وليس له أن يتجاوز حدود المادة وأن يتغلغل في ما وراء الطبيعة ما دام يعمل في الطبيعة نفسها وبمقاييس طبيعية مادية: (غرام، سانتيمتر، ثانية) فتكلم العالم المادي في ما وراء الطبيعة سفسطة وهراء.

وغريب أن بعض شبابنا الذين يرون لزوم الاختصاص في كل شعبة من شعب الطب أو الهندسة مثلاً، يفوتهم أن يعترفوا اختصاصاً للعلوم الدينية أو علوم ما وراء الطبيعة. فيتقبلون ما يمليه عليهم أستاذ الكيمياء مثلاً (من العلوم المادية البحتة) في ما يتعلق بتكامل النفس وأمور ما بعد الموت ومنازل الآخرة. إن شبابنا يرون أن أستاذهم يبرهن بمعادلات متقنة على صحة قانون في الفيزياء أو الفلك مثلاً، فتزداد ثقتهم به ويروه حجة في ما يقول حتى في شيء لم يشتغل فيه ولم يتصدَّ له! بل بعكس ذلك أخذ يتسافل فيه ويبتعد عنه كل البعد. إنهم يصدِّقون أستاذهم حين يستهزئ بالمقدسات الدينية وبما أخبر به الأنبياء عليهم السلام عن مراحل الآخرة. ذلك لأنّه معتمدهم، أي أستاذهم

---

(١) خصائص الأئمة عليهم السلام، ص١١٢.

في الكيمياء مثلاً أملى عليهم فكرة خاطئة عن المقدسات وما بعد الموت فصاروا يوافقونه على استهزائه وجحوده. على أننا نعتقد أن كلمات الأستاذ في ما وراء الطبيعة (أي في ما لم يختص فيه) وفي الأمور الدينية لا تؤثر في الطالب كثيراً ما لم تكن نفس هذا الطالب مستعدة لقبول هذه الأفكار الفاسدة الملوثة. ولا تكون النفس مستعدة للقبول ما لم تتلوث بالمعاصي والآثام والإجرام وبما يدخل في جوف الإنسان من مآكل محرمة مغصوبة أو مشتبهة. وتفصيل ذلك يطول.

على أن للمحيط أثراً فعالاً في التوجيه التكاملي أو التسافلي. فالنفوس تؤثر بعضها في بعض، كتأثير المجال الكهربائي في المجال المغناطيسي. يقول الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العَنكبوت: الآية ٥٦]. أي هاجروا إلى أرض تتيسر فيها العبادة. وفي الحديث: «عاشروا من يذكركم الله رؤيته». فلو كانت هيئة المدرسة من مدير ومدرِّسين وكتاب وخدم متدينين عاملين بأوامر الدين، منتهين عما نهى الدين لألفيت الطلاب على غير ما هم عليه الآن.

لا تنافي بين الدين والعلم الحديث

دين الإسلام دين الفطرة، لذلك يتوصل الإنسان إلى التوحيد أي إلى لباب الإسلام وعصارته بالفطرة، دون أن يحتاج إلى معلم أو مرشد، إن لم يدنس الفطرة بما يلوث النفس الإنسانية من معاصي وآثام وظلم وبغي ولؤم ونفاق وغيبة ونميمة وكل ما حرّم الله تعالى على لسان أنبيائه ﷺ وتأباه الفطرة الإنسانية غير المدسوسة منها. وليست الفطرة إلا من مُعطيات العقل، كما أن العلم حديثه وقديمه من مُعطيات العقل أيضاً. إذن وجب أن لا يكون تناف بين العلم الحديث والدين، إذا كان هذا العلم الحديث قد بلغ من الصحة والتأييد ما يجعله علماً حقيقياً لا غبار عليه وقد خرج عن مرحلة الظن والشكوك. فالفرضيات التي توضع لتفسير بعض الحوادث الفيزيائية أو بعض المشاهدات في عالم الطبيعة، ليست من العلم الحقيقي في شيء. لذلك نراها تتغير من حين لآخر وتعدّل. فالفرضيات تعيش مدة من الزمن ما دامت مفسرة لجملة من الحوادث. فإذا ما

شوهدت حادثة لا تتفق والنظرية الموضوعة عدل العالم الطبيعي إلى وضع نظرية أخرى تفسّر الحوادث السابقة واللاحقة. وقد خلط بعض المتعلمين بين الفرضية والعلم الصحيح الثابت الذي لا تبديل له ولا تغيير: كالرياضيات البحتة. فقالوا: إن هناك تنافياً بين ما جاء في الدين ومعطيات العلم الحديث. فاتهموا الدين ووصموه بما هو منه براء. إن الله تعالى يقول: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٩].

فإن الله عدَّ الذين يحيون الليل بالعبادة ساجدين راكعين يحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم (وهم بين الخوف والرجاء) من العلماء وأولي الألباب.

إذن، ما هو ذلك العلم الذي يميز الإنسان عن الجاهل ويجعله في عداد العلماء؟ هو العلم بعظمة الله وجليل قدرته، هو ذلك العلم الذي يؤثر في النفس فتؤثر في الجوارح وتنشطها للعبادة. هو ذلك العلم الذي يحمل النفس على الأعمال الصالحة وكل ما من شأنه التطهير والتزكية. هو ذلك العلم الذي ينمي الفرد ويكمله حتى يكون أعلى منزلة من الملائكة. فالعلم الحديث الذي لا يتجاوز سماء الأرض ولا يبلغ بصاحبه إلى معرفة الله تعالى وتعظيمه وتقديسه لا يطهر النفس ولا يزكيها، إنه علمٌ ضيق ناقص مبتور. علم ماديّ حالك، بل وبال على البشرية جمعاء إن لم يستعمل في صلاح النفس وتكاملها. وإن قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر: الآية ٢٨] لا تفسر إلا على ما ذكر. أي إن العلماء الذين أدى بهم علمهم إلى توحيد الله وطاعته وتقديسه وإتباع شرائعه هم الذين يخشون الله ويخافون عقابه. فالعلم الناقص أي العلم الذي لا يبلغ بالفرق إلى المعارف الإلهية لا يورث الخشية. وكم رأينا من علماء في الطبيعة والرياضيات وغيرها ملحدين جاحدين يرتكبون المعاصي ولا يخشون الله. ذلك لأن علمهم مادي لم يتجاوز حدود المادة. فلم يسمُ بهم إلى ما وراء الطبيعة.

إن الله تعالى لم ينزل القرآن ليعلم الناس الفلك وعلم الحيوان وعلم النبات والرياضيات وغيرها. ذلك لأن العلوم لا تتناهى، وكلما كشف للعالم شيء بفضل الله أو بطريق الصدفة بفضله أيضاً، شاهد وراء ذلك أودية من المجاهيل. إن الله تعالى

يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمَان: الآية ٢٧] وإنما أنزل الله تعالى القرآن ليهدي الناس إلى الطريق المؤدية إلى تكميل النفس والبلوغ إلى معرفة الله بدرجة تكاملها. ذلك لأن الكامل على الإطلاق: وهو الله لا يريد أن يرى في ما خلق شيئاً ناقصاً. وقد سنَّ للإنسان الناقص سنن الكمال على لسان أنبيائه ﷺ. وإن أكملها وأسماها سنة خاتم النبيّين ﷺ. ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزَاب: الآية ٢١]. وما جاء في القرآن الكريم من آيات كونية كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٣٠] إنما هي عصارات العلوم وخلاصاتها، يصل إليها العلم الحاضر كلما نما وتكامل.

كان العلم الحديث إلى زمن قريب يقول: بسكون الشمس وإن السيارات تدور حولها. وكان القرآن الكريم ينادي منذ ألف وأربعمائة سنة تقريباً: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: الآية ٣٨][1]. حتى إذا تكاملت المجاهر وتقدمت الرياضيات العالية بما فيها الميكانيك الرياضي (Mecanique Rationnelle) اعترف العلم الحديث بحركة الشمس وقال: إنها تجري بسرعة (٧٢٠٠٠) كيلو متراً في الساعة على شكل حلزوني نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع. أي أنها تقطع مع سياراتها المنجذبة إليها في الثانية ٢٠ كيلو متراً ولذلك يتغير مدار الأرض من حين لآخر في الفضاء، والمحور هو الخط الواصل بين الشمس والنسر الواقع.

واعترف العلم الحديث أن ليس هناك شيء ساكن وأن الثوابت (من النجوم) بالرغم مما اصطلح عليه، متحركة وتتحرك في الفضاء بسرعة معينة. وأن سرعة البعض منها تبلغ مئات الكيلومترات في الثانية وإن الكواكب لبُعدها عنا، لا نشاهد لها حركة ولكن الشكل الظاهري أو الصورة الظاهرية للسماء تتغير خلال كل مائة سنة. وهذا مما يدل على تأخر العلوم الطبيعية والرياضية عن الحقائق القرآنية.

فلا ينبغي أن يتسرع الشاب المتعلم في حكمه على الدين الإسلامي بقوله: إن بينه

---

(١) إنما كررت هذه الآية لأهميتها في تحقيق الموضوع.

وبين معطيات العلم الحديث تنافياً. ذلك لأن العلم الحديث ما هو إلا خصائص وقوانين أودعها الله في مخلوقاته في هذا العالم. وليس الدين إلا قوانين ونظماً أرسلها الله تعالى رحمة للعالمين. فالمنبع واحد والمبدأ واحد، ولا يعقل التنافي مع وحدة المنبع الفياض. ثم إن شاهدنا بعض الاختلاف بين بعض المظاهر الطبيعية والحقائق الدينية ما علينا إلا أن نتّهم المشتغل في علم الطبيعة في استنتاجه أو قلة عدد التجارب التي قام بها أو عدم الإحاطة بتمام الموضوع. ذلك لأن مشاهدة عدد قليل من النماذج في ظروف خاصة لا تعطي حكماً ثابتاً صحيحاً. فإذا كانت العلوم المستندة على الرياضيات تتغير وتفند من حين لآخر فكيف بالمشاهدات الطبيعية وما يستنتج عنها.

ولنعم ما ناقش به عالم ديني فيلسوفاً كان يخالفه في العقيدة والمبادئ. كان يدعي هذا الفيلسوف: أنه نبي وأن كل ما يقوله وحيٌ يوحى إليه، وأن كل عالم أو فيلسوف نبي أيضاً وما يقوله وحيٌ يوحى إليه!.. فأجابه هذا العالم الديني قائلاً: إن كان كل ما تقوله أنت أيها الفيلسوف وحياً يوحى إليك، وإن كل ما أقوله أنا أيضاً وحي يوحى إليَّ، والمبدأ واحد. إذن فماذا الاختلاف بيني وبينك؟ فلم يحضر الفيلسوف جواباً.

ذلك لأن النفوس مختلفة. منها ما هي ظاهرة، بعيدة عن الخبائث والأدناس ومنها ما هي ملوثة بفسوق سابقة وملذات محرمة، ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس: الآية ٣٣]. ولكن من هذه النفوس رشحات ومظاهر ومعطيات. فلا يترشح من النفس الخبيثة إلا الخبث والإلحاد، ففلسفتها خبيثة مضلة، ولا يترشح من النفس الزكية إلا الخير والصلاح والهدى، ففلسفتها نقية هادية. لذلك أوجب العلماء العصمة للأنبياء عليهم السلام وقالوا بوجوب عصمتهم وطهارتهم عن الذنوب صغائرها وكبائرها.

فالعلم الذي يوصل الإنسان إلى المعارف الإلهية ويؤدّي إلى تكامله إلى حيث لا يعلمه إلا الله هو ذلك العلم الذي يصح أن يقال عنه أنه من الدين ومن كمالات الدين. فلا يرى العالم، الذي لم يدنس عقله بالموبقات والجرائم ولم يلوث الفطرة بالفسوق والكبائر، تنافياً بين العلم الصحيح (ذلك الذي قد خرج من مرحلة الظنون والشكوك)

وبين الدين، بل يراه من الدين. لأنه يذكّر الإنسان بعظمة خالقه. ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩١]. (فالعلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء) ولا يقذف هذا النوع من العلم إلا في قلب أو نفس أخذت تتطهر بعبادات وأعمال صالحة وأخلاق إسلامية رفيعة وخشوع وخضوع لله تعالى وذكر الله بصورة دائمة، حتى صارت قمينة لإفاضات ربانية ونفحات قدسية. وقد جاء في الحديث: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها»[1]. والنفحات هي الإفاضات المعنوية. ونسأل الله تعالى أن يمنَّ علينا بتوفيق العبودية وإفاضات نخرج بها عن حضيض المادة إلى قدسية تجعلنا أهلاً لتقديسه وتسبيحه.

رأس الحكمة مخافة اللّه

قال رسول الله ﷺ: «ما أهدى المسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة حكمة تزيده هدى وترده عن ردى»[2]. أُريد بمقالي هذا أن أزيل بفضل الله بعض الشبهات عن بعض الشبان المثقفة لعلّهم يرجعون إلى تعاليم الدين الإسلامي فيعملون بموجبها حرفياً ولا يكتفون باسم الإسلام، فإن «الاسم» لا يغني من الواقع شيئاً.

عندما كنت في الجامعة اعترض أحد طلاب فرع الفلسفة على هذا الحديث: «رأس الحكمة مخافة الله». فقال: كان الأولى أن يقال: رأس الحكمة محبة الله. ولم يرده أحد. وقد فاته أن الحكمة ومعرفة أسرار الكون لا تتجلى إلا في قلوب قد طهرت وتزكت بترك المعاصي واجتناب المحرمات وبعبادات وأعمال صالحة. ولا تترك المعاصي ولا تجتنب المحرمات إلا بخوف الله تبارك وتعالى. لا تترك المعاصي إلا بوازع نفسي وهو خشية الله. فالنفس الملوثة بالذنوب والآثام، النفس المدلهمة بظلمات المعاصي والإجرام لا ترى إلى الحكمة سبيلاً ولا تفتح لها أبواب أسرار الكون. لقوله

(١) بحار الأنوار، ج٦٨، ص٢٢١، باب٦٦.

(٢) بحار الأنوار، ج٢، ص٢٥، باب٨.

تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: الآية ٥٧].

فترون أن من ذكّر بآيات ربه بعد إرسال الرسل سلام الله عليهم أجمعين، وأعرض عنها ولم يؤمن لما اقترفت يداه من الذنوب، تسدُّ عليه أبواب الهداية وتغلق عليه أبواب الرحمة فيكون بينه وبين الحق حجاب حاجز يمنعه عن رؤية الحق فلا يرى الحق وينسى نفسه، وقد قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: الآية ١٩]. فلا يفكر في مصيرها وتهذيبها وتوجيهها إلى الغاية التي خلقت لأجلها، فيكون من الأخسرين أعمالاً. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: الآيتان ١٠٣/ ١٠٤]. فالله تبارك وتعالى يسد أبواب الحكمة على من أتم عليه الحجة ولم ينتبه وتوغل في الذنوب وتدنس بالموبقات، بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف: الآية ٥٧]. أي إنا جعلنا على قلوب الذين عصوا الله ولم يتذكروا بما ذكرهم به أغطية وأستاراً تمنعهم عن أن يفقهوا الدين ويقفوا على أسرار الكون وحكمة الوجود. فيعترضون ويتذمرون وينكرون ويتفلسفون. وليس هذا الاعتراض والتذمر والإنكار والتفلسف إلا رشحات نفس تلوثت بالذنوب ومظاهر قلب عمى عن رؤية الحق والواقع. فإنه تعالى يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحجّ: الآية ٤٦]. وجاء في الحديث: «إن أعمى العمى عمى القلب». ونستجير بالله من ذلك.

فلا يمكن أن تنجلي الحكمة في النفس الإنسانية إلا إذا طهرت بالعبادة وترك المعاصي والتزكية والتجلية والتحلية. وهذه لا تحصل إلا بعد أن يخاف الإنسان ربه ويخشاه فيؤاخذ نفسه على كل صغيرة وكبيرة، ويلومها ويؤنبها ويستغفر الله منها بأنواع الاستغفار.

إن الله تعالى يقسم بالنفس اللوامة تقديراً لها: بقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة: الآيتان ١/ ٢]. فإذا لام الإنسان نفسه وكفّر عن سيئاته أخذت نفسه تتزكى وتطهّر شيئاً فشيئاً بنتيجة خوفه من الله تبارك وتعالى، فتنفتح عليه أبواب الحكمة وتطمئن نفسه وتحلُّ أمامه كل ما يختلج في نفسه من اعتراضات وتنقشع

عنه الشكوك والريب والأوهام. إن الصادق ﷺ يقول: «ليس العلم في السماء فتستنزلوه أو في الأرض فتستخرجوه، وإنما هو كامن في جبلّتكم، تخلقوا بأخلاق الروحانيين، يكشف لكم». ومن كان في نفسه شك فيما أقول فليعمد إلى التجربة. فإن المريض بأمراض بدنية يطيع الطبيب فيما يقول ويعمل حسب وصفة الطبيب فيبرأ من مرضه. فمن كان يرتاب في ما أقول، فليدرس الدين الإسلامي ليقف على المناهي والمحرمات والمباحات، ليقف على الآداب الإسلامية. ليطلع على العبادات التي بها تزكو النفس، ثم يعمل مستعيناً بالله حسب علمه ليرى بعد زمن قليل كيف تتجلى في نفسه الحكمة وكيف يتقرب يوماً بعد يوم إلى الله تعالى وكيف يدخل في عالم جديد، عالم فرح واطمئنان، عالم كله نور وصفاء.

إن رسول الله ﷺ قرأ على ثلة من الشبان سورة الزمر التي فيها: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ لَا وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾[الزمر: الآيات ٧١/ ٧٤]. . فبكوا خوفاً من الله تبارك وتعالى، فبشرهم رسول الله ﷺ بالجنة.

يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه الكريم: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: الآية ٢٨] . فلماذا نرى علماء لا يخشون الله تبارك وتعالى ويرتكبون أنواع المعاصي. نرى علماء في الرياضيات العالية، في الكيمياء العالية، في الفلك العالي، في الفيزياء العالية، في الفلسفة بأنواعها، في التأريخ والجغرافيا وفي بقية العلوم يعصون الله تبارك وتعالى ولا يبالون فرحين، كأن ليس وراءهم حساب. فليس إذن مراد الله من كلمة (العلماء) هذا العلم المادي الذي يحصل بعملية تفكير تشبه عمل النجار الذي اعتادت يداه فن النجارة بنتيجة الممارسة والتمرين. وإنما مراد الله من هذا العلم: هو العلم

الذي يحصل نتيجة خشية الله ونتيجة خوف الله تبارك وتعالى وأعمال تترتب على هذه الخشية وذاك الخوف. وهذا العلم هو الحكمة التي مدحها الله تعالى في قرآنه الكريم بقوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٩].

وقد عرَّف الله الحكمة بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ﴾ [لقمَان: الآية ١٢]. فأعلى مراتب الحكمة شكر المنعم وهو بابها. وهذا الشكر يتجلى في جميع العبادات والأعمال الصالحة. فكلها مظهر من مظاهر الشكر، ولا يحصل ذلك إلا بعد خوف الباري جلّ جلاله. ومن ثم تتجلى الحكمة وتطمئن النفس إذن: «رأس الحكمة مخافة الله».

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النُّور: الآية ٥٢]. وفي موضع آخر: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾. فعلق التنبه والهداية والاستبصار على الخوف والخشية بقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى: الآية ١٠]. وهل الحكمة غير الهداية والاستبصار!

ويمدح الله في مكان آخر الذين يخشونه ويخافونه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرّعد: الآية ٢١]. ثم يبشرهم تبارك وتعالى بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرّعد: الآيات ٢١/ ٢٤]

وعن إسحاق بن عمار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا إسحاق خف الله كأنك تراه، وإن كنت لا تراه فإنه يراك، وإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين عليك»[1].

وعنه عليه السلام، أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «يا أيها الناس، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم. ألا إن المؤمن يعمل بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه. فليأخذ العبدُ المؤمن من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، وفي الشبيبة قبل الكبر، وفي

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٦٧، باب الخوف والرجاء.

الحياة قبل الممات. فوالذي نفس محمد بيده، ما بعد الدنيا من مستعتب وما بعدها من دار إلا الجنة أو النار»[١].

فمن أراد أن تفتح عليه أبواب الحكمة وأن يتفهم الدين تفهماً يؤدي به إلى تكميل نفسه ليكون بشراً على شكل ملك أو ملكاً بصورة إنسان، فليس عليه إلا أن يخاف الله جلّ جلاله بترك المحرمات جميعاً وأن يكون مسلماً حقاً، عاملاً بكل ما يأمر به الدين المبين، دين العقل والتفكير الصحيح.

أثر الخشية في تكامل النفس

إن خشية الله جلّ وعلا هي خير صفة يتحلى بها الإنسان فتصرفه عن الولوج فيما حرَّم الله تعالى. فهي رادع نفسي يمنع الفرد عن ميول النفس الأمارة بالسوء. وإن هذا الرادع ليكون مع الإنسان في خلواته وحيث لا يعلم بسرائره إلا الله. فهو يمنعه عن الموبقات والمدنسات وكل ما يؤدي إلى تسافل النفس.

إن الله تبارك وتعالى قد أودع هذه الخشية في الإنسان بصورة فطرية بقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البَلَد: الآية ١٠] أي طريقي الخير والشر، وقوله في سورة الشمس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾. أي ألهم الله تعالى الإنسان طرق الفجور وسبل التقوى.

وقد أتم الله تعالى على عباده الحجة بهذا الإلهام وفتح لهم بعد ذلك باب الاستغفار والتوبة والإنابة ليستغفروا ويتوبوا. ألا ترى أن الإنسان عند محاولته أول كذبة أو أول افتراء أو أول سرقة أو أول ظلم أو أول دعّ لليتيم تشمئز روحه ويحتبس طبعه. فوازع باطني يلومه ومؤنّب داخلي يؤنّبه ويوبّخه.

ثم أنه إذا تمادى في الفجور والفسوق والمعاصي خفَّ أثر ذلك الوازع شيئاً فشيئاً حتى ينطفئ ويزول أثره. فيقسو القلب إذ ذاك وأعني به النفس الإنسانية، فتكون

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٧٠، باب الخوف والرجاء.

كالحجارة أو أشد قسوة. ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: الآية ٧٤] . وما قدمناه تفسير لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النّحل: الآية ١١٨] .

قال أنس بن مالك: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله، أشكو إليك قسوة قلبي، فقال له: «اطلع إلى القبور واعتبر بيوم النشور»[١] . لذلك يجب على المربين أن ينبهوا الطلاب منذ نعومة أظفارهم بعواقب المعاصي الوخيمة وأن يحذروهم عنها أيما تحذير.

وأن يبينوا جسامة كل من المعاصي عند الله والحدود التي قررها الله تعالى لكل من المعاصي والجرائم، لئلا يرتكبوا المعاصي أبداً. وأن يتجنبوا المعصية الأولى اجتناباً لا مزيد عليه. فإنها مفتاح المعاصي والسبب الرئيس للولوج في معاصي أخرى. يقول الله تبارك وتعالى في مدح الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٣٩] .

فالخشية صفة الأنبياء ﷺ وبها امتازوا عن سائر الخلق، لأنها طريق الحكمة وطريق الوصول إلى الحق وإلى الكمال المنشود.

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الزمر: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾. فجعل الله تبارك وتعالى الخشية والحذر باب العلم بالحقائق بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾. وأراد بالإنسان أن يكون بين الخوف والرجاء. فهو خير ميزان يبعث على العمل الصالح ويبعد الإنسان عن المناهي والموبقات. فقد جاء في الحديث تنويهاً بالعبد الصالح: «لو وزن خوف العبد ورجاؤه لم يرجح أحدهما وإن عظم الخوف كان أدعى إلى السلام»[٢] .

وفي الحديث: «إن الله أنزل في بعض كتبه: وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي

---

(١) إرشاد القلوب: ج١، ص١٢.

(٢) قد تتكرر الآية أو الحديث لأهمية هناك أو مناسبة. ولا شك أن في هذا التكرار تأثيراً في النفس.

المؤمن بين خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته في الآخرة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة»[1]. وقوله تعالى في امتنانه على إبراهيم وذريته عليهم السلام: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ [ص: الآية ٤٦]. وهي ذكر الآخرة.

وقال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [قٓ: الآيات ٣١/٣٣]. فصفاء القلب وإنابته وتزكيته تتوقف على الخشية. وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النّازعات: الآيتان ٤٠/ ٤١]. فعلّق كمال النفس والفوز بالجنة على مخافته تعالى. وقال سبحانه عن هابيل يروي قوله لأخيه: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٢٨]. وقال تعالى في مدح قوم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: الآية ٥٠]. وقال: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٥]. وقال: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٠]. وقال أيضاً: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٦٠].

وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٦٠]. يعني بذلك: الرجل الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو خائف؟ قال: لا، ولكن الرجل الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو مع ذلك يخاف أن لا يقبل منه. وقد جاء في الحديث: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالباً، وإنها لتجتمع على المرء فتهلكه»[2]. وقال لقمان عليه السلام لابنه: «يا بني، خف الله خوفاً لو أتيته بعمل الثقلين خفت أن يعذبك، وارجه رجاءاً لو أتيته بذنوب الثقلين رجوت أن يغفر لك»[3].

وقال الصادق عليه السلام: «بينما كان رسول الله ذات يوم قاعداً إذ نزل جبرئيل كئيباً حزيناً، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أخي جبرئيل، ما لي أراك كئيباً حزيناً؟ فقال كيف لا أكون كذلك وقد وضعت منافيخ جهنم اليوم. فقال: وما منافيخ جهنم؟ قال: إن الله

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١١، ص٢٣١، باب ١٤.

(٢) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٣١٣، باب ٤٣.

(٣) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٢١٦، باب ١٣ مع اختلاف في اللفظ.

أمر بالنار فأوقد عليها ألف عام حتى أحمرَّت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت. فهي سوداء مظلمة، ظلمات بعضها فوق بعض، فلو أن حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على الجبال لذابت من حرها، ولو أن قطرة من الزقوم والضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها. فبكى رسول الله ﷺ وبكى جبرئيل عليه السلام. فأوحى الله إليهما قد أمنتكما من أن تذنبا ذنباً تستحقان به النار، ولكن هكذا كونا»[١]. وروي أن إبراهيم عليه السلام كان يسمع منه أزيزٌ كأزيز المرجل من خوف الله تعالى في صدره. وكان سيدنا رسول الله ﷺ كذلك. وكان أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام إذا قال: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض» يتغير وجهه ويصفرُّ لونه فيعرف ذلك في وجهه من خيفة الله تعالى. وقد اعتق ألف مملوك من كد يمينه. وكان يغرس النخل ويبيعها ويشتري بثمنها العبيد ويعتقهم، ويعطيهم مع ذلك ما يغنيهم عن الناس.

وأخبره بعض مواليه أنه قد نبع في بستانه عين ينبع منها الماء مثل عنق البعير فقال: «بشر الوارث، بشر الوارث، بشر الوارث. ثم أحضر شهوداً فأشهدهم أنه وقفها في سبيل الله حتى يرث الأرض ومن عليها، وقال: إنما فعلت ذلك ليصرف الله عن وجهي النار»[٢].

وشاهد رجل علياً عليه السلام وهو يناجي ربه؛ وإذا به أضحى كالخشبة اليابسة؛ فجاء مسرعاً إلى بيت فاطمة عليها السلام يخبرها بأن بعلها قد مات؛ فقالت: في أية حالة رأيته؟ قال رأيته: يعبد ربه. قالت: أنه يُغمى عليه كل ليلة مرات من خشية الله تعالى[٣].

وجاء في الحديث: «حرمت النار على عين بكت من خشية الله». وعن أبي لمامة قال، قال النبي ﷺ: «ما يقطر في الأرض قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع في سواد الليل من خشية الله لا يراها أحد إلا الله عزّ وجلّ»[٤]. وعنه ﷺ: «إذا اقشعر قلب

---

(١) إرشاد القلوب: ج١، ص١٠٦، باب ٢٨.

(٢) إرشاد القلوب: ج١، ص١٠٥، باب ٢٨.

(٣) أمالي الصدوق: ص٧٧، مجلس١٨ مع اختلاف في اللفظ.

(٤) مستدرك الوسائل: ج١١، ص٢٣٩، باب ١٥.

المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحاتُّ من الشجر ورقها»[1].

وإن فاطمة سلام الله عليها أوصت بأن تدفن معها قارورة كانت تجمع فيها دموعها من خشية الله جوف الليل. وعن الصادقعليه السلام قال: حدثني أبي عن أبيه: «إن الحسن بن علي بن أبي طالبعليه السلام كان أعبد الناس في زمانه وأزهدهم وأفضلهم. وكان إذا حج حج ماشياً وربما مشى حافياً، وكان إذا ذكر الموت بكى، وإذا ذكر القبر بكى، وإذا ذكر البعث والنشور بكى، وإذا ذكر العرض على الله تعالى ذكره شهق شهقة يغشى عليه منها. وكان إذا قام في صلاته ترتعد فرائصه بين يدي ربه عزّ وجلّ، وكان إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم وسأل الله الجنة وتعوّذ بالله من النار»[2] كل ذلك مع عصمتهم وطهارتهم سلام الله عليهم بنص من الكتاب والسنة. فنسأل الله تعالى توفيق الخشية والخيفة، واجتناب الآثام صغائرها وكبائرها، ونستعيذ به من الركون إلى الشهوات والأماني، فكم من أناس خرجوا من هذه الدنيا وهم يمنُّون أنفسهم بالاستغفار والإنفاق في سبيل الله، فلم تتح لهم الفرص وألهتهم شهواتهم، وأبعدتهم عن معاصيهم وما اجترحت أيديهم توفيق الملاقاة والإنابة، فذهبوا بلا زاد ولا عمل، فخسرت صفقتهم، فخسروا أنفسهم ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٤٧]. إنه تعالى يقول: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: الآيات ١/ ٣].

قيمة البلايا في تكامل النفس

ما من شخص إلا ويصاب في حياته بنوع أو أنواع من البلايا والنوائب. يختلف ذلك باختلاف الأشخاص والأفراد. فمنهم من يبتلي بين آن وآخر بضيق في العيش أو مرض بسيط لا يستغرق زمناً طويلاً، بينما نرى الآخر يبتلي طيلة حياته بمرض مزمن أو عاهة مزمنة أو فقر مدقع مستمر أو علة لا مفر منها. أو نراه مقعداً يتمنى المشي أو

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص١٧٩، باب المصافحة.

(٢) بحار الأنوار: ج٤٣، ص٣٣١، باب ١٦.

مصاباً بمرض في المعدة لا يقوى على الأكل كما يجب، ويتمنى لو أنفق نصف ماله فيأكل كما يأكل أحد عماله الذين لا يملكون إلا قوت يومهم.

نرى أشخاصاً يبتلون بأنواع من الأمراض في أواخر عمرهم وهم مترفون في أوائل حياتهم منعمون مع كمال الصحة.

نرى أشخاصاً بعكس ذلك مصابين بأنواع البلايا من فقر ومرض وغيرهما في أوائل حياتهم، مترفين منعمين في أواخر حياتهم الدنيوية مع صحة كاملة. وقد نسمع كثيراً من الشكاوى من الطبقة المريضة أو المبتلاة بالفقر. يقول بعضهم: لماذا فلان مع عدم قيامه بأمور خيرية وأكله أموال الناس، منعَم مرفه؟ لماذا فلان مع تقواه وورعه مبتلي بأنواع المرض والفقر؟ ما هذا الاختلاف؟ ألا يحب الله الصالحين من عباده فيبتليهم بأنواع الأسقام ومختلف النوائب؟

ونسمع أيضاً بعض الشكاوى من الطبقة المنعمة لخسارة تصيبهم، أو فقدهم ولداً أو لطمعهم في مال أكثر.

وقد سمعت رجلاً متوسط الثقافة وقد علّ، ينسب عدم التدبير إلى مدبر هذا الكون ويتهم العالم بعدم الانتظام والتبلبل!!

وقد ينسب بعضهم الظلم إلى الباري وينفي عنه العدل والرحمة، نستجير بالله من ذلك. لذلك ظهرت مذاهب فلسفية: كمذهب التشاؤم ومذهب التفاؤل. فالفيلسوف المبتلى في حياته بأنواع البلايا والمحن يرى الدنيا كلها محناً ونوائب، والفيلسوف الذي عاش وديع الخاطر، مترفاً منعماً يرى الدنيا كلها مسرات. فالأول متشائم والثاني متفائل. ولم تفسر لنا الفلسفة علل ذلك. إنما تعزو بعض الموفقيات إلى فعالية الإنسان الشخصية لاسيما مذهب (Pragmatisme). وهذا لا يحل لنا مسألة النوائب السماوية والأمراض والأسقام والأضرار غير المنتظرة مهما بذل الإنسان كفاءته وجهوده في دفعها.

ولا شك أن السعي في أمور الدنيا يؤدي إلى نتيجة ملموسة وهذا معنى قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود:

الأيتان ١٥/ ١٦] . وإن السعي في أمور الآخرة، من عبادات وأعمال صالحة نافعة وخدمة الغير قربة إلى الله تعالى يؤدي إلى نتيجة محمودة لقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النجم: الأيتان ٣٩/ ٤٠] .

ولكن كيف تفسر هذه المحن والأمراض والنوائب. أوفي استطاعة الإنسان رفعه أو دفع كل ذلك؟ كلا. ولا مراء أن لا حقيقة بعد حقائق القرآن. وقد فسر لنا ربنا جلّ وعلا كل ما يختلج في صدورنا عن الجهل ويؤدي بنا إلى الاعتراض الواهي: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعَام: الآية ٥٩] . ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعَام: الآية ٣٨] . ولكن لبعدنا عن تفهم القرآن والعمل بما فيه أصبحنا مجموعة شكوك واعتراضات واهية، فنسمّي هذه الاعتراضات فلسفة وهذه الشكوك حكمة. مع أنه لا مجال إلى الشك والريب بعد تفهم القرآن الكريم والأحاديث النبوية.

فهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسَان: الآية ٢] . أي خلق الله الإنسان للامتحان والاختبار؛ وكيف يكون هذا الإختبار؟ فهذه اختبارات تُختبر بها النفس ولا تشبه اختبارات الحوادث الفيزيائية أو الكيميائية، وإنما هي امتحانات تتوجه إلى النفس مباشرة. فإما أن تتوفق فيها النفس فتتقبلها بصدر رحب وتعمل فيها حسب أمر الله تعالى، أو تراها ثقيلة فترفضها وتتبع شهواتها وميولها الجامحة الأمارة بالسوء، أو تكون بين هذا وذاك، فتكتب لها درجة في الكتاب الخاص بها حسب ما تقوم به من أعمال.

يُختبر الغنيُّ بالفقير: يأتي الفقير الغني. فإما يستقبله هذا الغنيُّ استقبالاً شيقاً، استقبالاً فيه من البشر والحنان فيعطيه ما يغنيه، إن أمكن، أو يعطيه حسب وسعه، وإما أن يخفي نفسه في بيته فيقول لخادمه: قل لهذا الفقير العاجز، إني لست في البيت أو مسافرا فيرجع المسكين العاجز خائباً منكسراً يائساً من جود هذا الغني أو بالأحرى من عدم قيام هذا الغني بواجبه، غير يؤوس من رحمة الله تعالى. لذلك يجيب أصحاب الشمال عندما يسألهم أصحاب اليمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المدّثر: الآيات ٤٢/ ٤٤] . فإنهم يذكرون عدم إطعامهم المسكين بعد عدم أدائهم الصلاة

مباشرة. وهذا دليل على ما لإطعام المسكين في الإسلام، من أهمية فائقة. لذلك يقول الله تعالى في مقام آخر: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحَاقَّة: الآية ٣٤] .

إن الله يمتحن الفقير بالصبر فإن لم ييأس من رحمة الله وصبر فقد فاز في هذا الامتحان العالمي. وإن تذمر وتضجر واعترض على حكمة الله وأساء الظن في جعله فقيراً بعّده عن رحمة الله مع فقره ومسكنته. فالله يقول: كما في الحديث القدسي: «إني عند حسن ظن عبدي». وجاء في الحديث القدسي أيضاً: «وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو صرفته إلى غيره لهلك». يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هـود: الآية ٧] . فجعل علة الخلق: الابتلاء. أي إن الله تعالى إنما خلقنا ليبلونا ويمتحننا بمرض وسقم وعاهة وطاعة وغيرها.

يكون الإنسان في تمام الصحة فيأخذه الغرور ويمنّي نفسه طول العمر، فلا يسعى في تزكية نفسه وتطهيرها ويمنّي نفسه: إنه سوف يكون إنساناً صالحاً في أواخر أيام حياته. فالله يمرضه كي ينتبه ويعلم أن ليس هناك وقت معين للموت (كما يخمّن الإنسان)، فإن صبر على ما يصيبه في مرضه وشكر الله على بلائه كان له، كما يقال: (أجر وعافية)، فيكون هذا المرض سبباً لتنبّهه واستبصاره وسقوط شيء من ذنوبه السابقة. فقد جاء في الحديث: إن الله تعالى يقول: «ما من عبد أريد أن أدخله الجنة إلا ابتليته في جسده. فإن كان ذلك كفارة لذنوبه وإلا ضيقت عليه رزقه. فإن كان ذلك كفارة لذنوبه، وإلا شددت عليه الموت حتى يأتيني ولا ذنب له ثم أدخله الجنة، وما من عبد أريد أن أدخله النار إلا صححت جسمه، فإن كان ذلك تماماً لطلبته عندي، وإلا أمنت له من سلطانه. فإن كان ذلك تماماً لطلبته عندي، وإلا أمنت له من سلطانه، فإن كان ذلك تماماً لطلبته وإلا هونت عليه الموت حتى يأتيني ولا حسنة له، ثم أدخله النار»[1].

وحاش لله أن يريد بعبد دخول النار إلا إذا أتم عليه الحجة مرات ومرات وتمادى

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٤٤٦، باب تعجيل عقوبة الذنوب.

في البغي والفجور والضلال وانقطع الاتصال ويئس من رحمة ربه ولم تفد فيه أية هداية وأية رحمة واستحق العقوبة فأصبح لا يطهره إلا النار. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥].

أثر النوائب في تطهير النفس وتكاملها

يشكو كثير من الناس عندما تنتابهم النوائب وتكتنفهم المصائب. يشكون متذمرين غير شاكرين ولا صابرين. ذلك لأن حكمة النوائب والبلايا قد خفيت عليهم ولو أنهم علموا أسباب ذلك، لصبروا بل ولشكروا واستغفروا. فلقد رأينا أحب الخلق إلى الله أنبياءه وأولياءه قد ابتلوا ببلايا جمة ومصائب عدة، لم يبتل بمثلها غيرهم وهم أعزاء الله وخيرة خلقه.

نرى كثيراً ممن أفسدوا في الأرض واستوجبوا سخط الله، مترفين منعمين لا يبتلون في حياتهم بما يبتلى به غيرهم من أصفياء الله وصالحي عباده. ولو تتبعنا القرآن الكريم وتعمقنا فيه لعلمنا أن النوائب والمصائب، وإن شئت فقل، إن الاختبارات والامتحانات تتوجه إلى كل نفس لا محالة لتبدي ما عليها من صبر وشكر واستغفار وعزم وتوكل وإنفاق لجبران ما فات، أو لتظهر ما تحمل من غي وطيش وكبر وتذمر وكفر وجحود أي إما إلى تكامل أو إلى تسافل وتدهور ما بعده انحطاط. إن الله تعالى يقول: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: الآيتان ٢/ ٣].

فإن الإقرار بالإيمان وحده لا يكفي للدخول في سير التكامل النفسي والبلوغ إلى حيث يشاء الله، أي في: «مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، ولابد من اجتياز امتحانات صعبة دقيقة أصعب بكثير من الامتحانات المدرسية مهما كان الموضوع صعباً والنجاح فيها عسيراً. كي يعلم الإنسان حقيقة نفسه، حتى إذا عوقب بعد الموت أو قبل الموت اعترف بأنه إنما عوقب لسوء سريرته واتباع هوى نفسه وسقوطه في الامتحانات الإلهية، تلك الامتحانات التي كان بإمكانه أن ينجح فيها.

هذا رجلاً قد أنعم الله عليه بمال كثير، يأتيه جاره المسكين العاجز، فلا ترقّ له نفسه ولا يعطيه مما فرضه الله عليه، وهذا مريض بائس، قد أشرف على الموت وهو طبيب ذو ثراء، فلا ينهض لمداواة أخيه المسلم ولا يعينه من فضول ماله، ألم يكن ذلك في إمكانه؟ ما الذي منعه عن ذلك؟ أليست نفسه الأمارة بالسوء؟ ولو حكّم عقله في وقت لا يغلب عليه هواه، في وقت أزيح عنه شيطانه، لعلم أنه خان نعماً أنعم الله بها عليه، بل خان نفسه وخسرها. فكان من الذين ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الأنعام: الآية ١٢].

إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: الآيات ١٥٥/١٥٧].

فكما أن الإنسان يُمتحن في حياته بالمال الكثير والعلم الغزير وأنواع الفنون والصنايع وملكات وقابليات ومواهب ونبوغ واستعداد فائق وأمثال ذلك من أنواع الكمال والجمال، يُمتحن أيضاً بكل ما يؤدي إلى الخوف والجوع والفقر وفقد الأولاد والأعزة وقلة الثمرات، ليؤدي امتحانه بالصبر على كل ذلك.

فبالصبر يبرز الإيمان العملي، الإيمان الفعلي، كما أن بالنطق يظهر الإيمان القولي، وهذا تفسير لقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العَنكبوت: الآية ٢]. لأن مجرد القول بالإيمان لا يظهر حقيقة الإيمان، ولكن الصبر وتفويض الأمر إلى الله وتطمين النفس بنعيم الآخرة والرجوع إلى الله هو الذي يظهر إيمان الشخص الفعلي الواقعي. لأن حقيقة الإيمان تتجلى بالاعتقاد بالبعث والحياة الآخرة والثواب والعقاب. فمن زاد إيماناً بالبعث والحياة الآخرة قوي على الصبر. فكأن معيار الإيمان الحقيقي هو الصبر على النوائب والمصائب على أنواعها. لذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾. ثم أعقبه بمنزلتهم العظيمة ويا لها من منزلة، بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البَقَرة: الآيات ١٥٥/١٥٧].

نعم: «إن عظيم الأجر لمن عظيم البلاء، وما أحب الله قوماً إلا ابتلاهم» كما جاء في الحديث.

فالنوائب والمصائب إنما هي بمثابة الأعمال الكيميائية التي تجري على قطعة من المعادن المختلفة لاستخراج الذهب الخالص منها، فإن الإنسان تجري عليه أنواع الامتحانات حسب منزلته ولياقته ليخرج إن كان مؤمناً حقاً من هذه الدنيا بالذهب الخالص. ولنعم ما قال الشاعر «الناشئ الصغير»: عليٌّ الدرّ والذهب المصفّى.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «أربعة لا يخلو منهن المؤمن أو واحدة منهن، مؤمن يحسده، وهو أشدهن عليه، ومنافق يقفو أثره، وعدو يجاهده، وشيطان يغويه»[1].

هذه هي سنة الله في الأولين والآخرين، إن الله تعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية ٢٠].

تتبعوا أحوال الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وأحوال الأئمة الأطهار عليهم السلام وأحوال المؤمنين، تروا أن أقربهم إلى الله كان أشدهم ابتلاء وأكثرهم غرضاً لسهام المنافقين والأعداء. وهم على حسب مراتبهم يختلفون في درجات الصبر، وإن نبينا محمداً صلى الله عليه وآله وهو سيد المرسلين كان أكثر الأنبياء ابتلاءاً. لذلك قال صلوات الله عليه وعلى آله الطاهرين: «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت».

وممن صبر على المصيبة صبراً لا يقوى عليه غيره، صبراً يتجلى فيه الإباء والبطولة الخالدة: الحسين عليه السلام. وهو القائل: «رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين»[2]. ويقول عليه السلام في مكان آخر مخاطباً رب العباد: «إلهي رضًى بقضائك لا معبود سواك». فوليّ الله جُعل دائماً غرضاً لعدو الله، فقد قال أبو عبد الله عليه السلام: «إن الله جعل وليّه في الدنيا غرضاً لعدوّه»[3].

إن البلايا لتختلف شدة وضعفاً، كما أسلفنا، حسب قابلية الممتحن واستعداده. وهذا من عظيم لطف الله وجزيل سيبه. فلا يمتحن المؤمن كما يمتحن النبي أو الوصي. لذلك يقول لنا أبو جعفر محمد الباقر عليه السلام: «أشد الناس بلاءاً، الأنبياء ثم الأوصياء ثم

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٩٤، باب الشكر.

(٢) كشف الغمة: ج٢، ص٢٩.

(٣) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٠.

الأمثل فالأمثل»[١]. ولذلك يقول رسول الله ﷺ لسبطه الحسين عليه السلام: «يا بني، أخرج إلى العراق، شاء الله أن يراك قتيلاً وأهل بيتك سبايا، وإن لك درجة لن تبلغها إلا بالشهادة». نعم، «مثل المؤمن مثل كفتي الميزان، كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه، ليلقى الله عزّ وجلّ ولا خطيئة له»[٢]. كما يحدثنا موسى بن جعفر عليه السلام. وإن درجة الإيمان تتناسب مع تحمل عظيم البلاء، فإن الإنسان قد يعرض عليه المال الكثير من مورد مشكوك أو محرم أو تعرض عليه رئاسة فيها هتك حرمات الله والتصدي إلى أنواع الجور والظلم فقلَّ من ينجح في هذين الامتحانين بترك المال لحرمته والرضا بالفقر والمسكنة، أو رفض الرئاسة والعمل حسب هذه الآية الشريفة: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾ [القصص: الآية ٨٣].

فالتقوى: أن ترى وجه الحيلة ويصدك عن ارتكابها خوف الله. لذلك يقول الحسين عليه السلام في كلمته الخالدة: «الناس عبيدُ الدنيا والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا محّصوا بالبلاء قل الديّانون»[٣].

أثر الصوم في تكامل النفس

الإنسان في طريقه إلى التكامل يحتاج إلى ما يطهر نفسه ويزكيها فيخرجه من ماديته الحالكة إلى معنوية وضاءة تؤدي به إلى التقرب إلى الله تعالى وإلى حلول حب الله، جلّ وعلا، في نفسه. ولا يحلُّ هذا الحب العظيم إلا في نفس لها من الكمال نصيب، ولا كمال إلا بما يبعد الإنسان عن أدران المادة.

فالصوم عدا ما فيه من معنوية ذاتية، لو قصد به التقرب إلى الله تعالى، تقرباً لا شائبة فيه وأُريد به إطاعة الله وابتغاء مرضاته، يذيب المادية التي تعارض معنوية النفس وسير تقدمها نحو الكمال المنشود. لذلك كان من المستحب أن يصوم الإنسان يوماً في

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٩.
(٢) مستدرك الوسائل: ج٢، ص٤٣٦، باب ٦٥.
(٣) تحف العقول: ص٢٤٥.

أول الشهر ويوماً في وسطه ويوماً في آخره، وثواب ذلك ثواب من صام الشهر كله. فهو بعمله هذا يذيب المادية ويدخل في عالم قدسي فيه حب الخالق جلّ شأنه والتفكر في عظمته وعدم الاكتراث بالدنيا وزخرفها وزبرجها.

فإن تكامل الإنسان إنما يتناسب مع درجة تفكره في الآخرة وعدم رغبته في الدنيا. إن الله تعالى يقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هُود: الآيتان ١٥/١٦].

وإن قول رسول الله ﷺ: «صوموا تصحوا» يشمل الصحة في النفس والصحة في البدن، ولا ريب أن صحة النفس هي الغاية القصوى التي يجب على الإنسان أن يسعى لتحقيقها، ولا تصحُّ هذه النفس إلا إذا سلمت من أسر الهوى والشهوات. إذ ذاك يعمل عقله الفطري فيصدق بما أنزل على النبيّ محمد ﷺ. يقول الإمام علي عليه السلام: «يشهد بذلك العقل لو سلم من أسر الهوى»، وإن الصوم خير قامع لهوى النفس والأهواء الفاسدة. لذلك جاء في الحديث: «خِصاء أمتي الصوم». أي أن الصوم خير قامع للشهوات، فلو تعوَّد الشاب في عنفوان شبابه أن يصوم أكثر أيامه، فإنه لا يتصدى إلى ما حرم الله تعالى من أعمال قبيحة وفِعال شنيعة وينتظر حتى يرزقه الله تعالى زوجة صالحة. فيكون ملكاً على شكل إنسان، فيه من الروحانية وصفاء النفس مالا يوصف. ومن كان غير مصدق فليجرب، فالتجربة سند العلوم الحديثة ومدارها.

ومما لامراء فيه أن الإنسان لم يؤت به إلى هذه الدنيا بهذه الصورة التي يولد إلا ليتكامل. ذلك لأنه ناقص حين يولد. والله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال. فوجب على الإنسان أن يتكامل لا محالة، فإن أبى فمصيره النار ليطهر فيها. فإذا تكامل كان أهلاً ليخلد في جنة ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣] ولذلك يقول الله تعالى في كتابه المجيد، حين يتساهل مع من لا يقوى على الصوم إلا بمشقة لا تكاد تطاق بقوله: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٤]. ذلك لأن ما يستفيده هذا البشر (رغم تحمله مشقة كبيرة) من المعنوية الفائقة والفوز بمعرفة الله تعالى

هو أضعاف هذا العناء. فليس للبشر إلا أن يتبع ما سنّه الله لتكميله على لسان أنبيائه ﷺ، إن أراد الفوز والنجاح في دوره التكاملي، وإلا كان من الأخسرين أعمالاً وممن خسروا أنفسهم، على حد قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: الآيتان ١٠٣/ ١٠٤].

ولا ريب أن الشيطان هذا الذي يرانا ولا نراه (وكم من أشياء لا نراها وهي ترانا) هو عدوُّ الإنسان اللدود. يقول الله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: الآية ٦]، ولولا إتباعنا إياه وإطاعتنا له لعرجنا في ساحات القدس. على أن ليس للشيطان أية سلطة علينا أو نفوذ، على حد قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: الآية ٤٢]. وقوله تعالى أيضاً: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النَّحل: الآيات ٩٨/ ١٠٠].

فلا سلطان ولا سيطرة للشيطان على الإنسان، خلافاً لما يقوله بعض من يريد تبرير موقفه عند ارتكاب المعاصي واجتراح السيئات. إنما الشيطان يدعونا فحسب ولا يتعدى أمره: (الدعوة). فما علينا إلا أن لا نلبّي دعوته. وإن الشيطان ليعترف يوم القيامة قائلاً: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: الآية ٢٢]. وقد جاء في الحديث: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم، لنظروا إلى ملكوت السموات».

إن الشيطان يدخل فينا كالأشعة السينية (Rayons x) وقد جاء في الحديث: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش»[1].

إن أول من ظفر بأن في الفضاء أمواجاً كهربائية ـ مغناطيسية تشبه أمواج الضوء المرئي في خواصها وقوانينها هو (جيمز). إنه أثبت بمعادلات رياضية وجود هذه

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٦، ص٢٢٠، باب ٢.

الأمواج في الجو. وما كان ليصدقه أحد لأن غيره ما كان يرى ما يراه (جيمز) بعقله! فإن مالا يرى بالعين المجردة أكثر ما يرى بها وهو موجود. وإن الموجات التي لا ترى بالعين أكثر فعالية وتأثيراً مما يرى بالعين: فالكهرباء أكثر فعالية من الخشبة، والنفس أكثر فعالية من الكهرباء، والعقل أكثر فعالية من النفس وهكذا. فكلما كان الشيء دقيقاً لا تراه العيون (المحدودة في قابلياتها) كان أكثر تأثيراً وهيمنة. وكلما كان إلى المادية والتجسم أقرب، كان محكوماً لما هو أدق منه خلافاً لما يهذي الماديُّ الطائش.

إن الشيطان موجود كوجود النفس والعقل والجن والأمواج الهرتزية، وهو يرانا من حيث لا نراه، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٧] . وفي آية أخرى يقول الشيطان: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٦/ ١٧].

فالشيطان يدخل في جوف الإنسان من طرق شتى ويقوم بمحاكمة مع العقل الإنساني. أرأيت إنك إذا أردت أن تعطي مسكيناً عشرة دنانير وأنت لك حاجة كمالية يمكنك أن تستغني عنها، كيف يحدث بينك وبين ناطق في خلدك محاكمات ونقاش، أنت تريد العطاء وهو يسوّل لك الدنيا ويزينها ويعدُّ لك حاجات عدة. يدعوك إلى أن تعدها من الواجبات، فتنصرف عن هذا العطاء الذي يقربك إلى الله ويزكي بدنك ومالك ونفسك. هذا الناطق هو الشيطان. . .

أرأيت إذا كان وقت السحر (قبل طلوع الفجر) وأردت النهوض إلى صلاة الليل والتهجد بين يدي رب العباد، تأخذ بنفسك لتعرج بها إلى الملكوت الأعلى، كيف يخدعك ناطق في جوفك قائلاً: إنك مُتعب، فنم هُنيهة، النوم عافية، ولابد لك من أن تحافظ على صحة بدنك فإنك إذا قمت إلى صلاة الليل لا تقوى على إنجاز الأعمال التجارية في النهار، فتكون متعباً. . . إلى ما هنالك، حتى جعلك تنام وتندم في آخر ساعة حياتك على ضياع عمرك وعدم زرعك في دنياك ما تحصده: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعراء: الآيتان ٨٨/ ٨٩]. ذلك لأن «الدنيا مزرعة

الآخرة» كما جاء في الحديث. ولا ريب أن القلب لا يكون سليماً إلا بأعمال يتعلمها الإنسان من خاتم النبيين محمد وأهل بيته الأطهار سلام الله عليهم أجمعين ويعمل بها بإخلاص ولوجه الله الكريم.

فلو تمكن الإنسان أن يسيطر على هذا العنصر الذي لا يراه بباصرته (هذه الباصرة التي تبصر على مسافة محدودة وأجساماً معينة في الصغر ولا تتعداها) وأعني به الشيطان، لولج في عالم من المعنوية والقدسية فيه من السرور مالا يوصف، ومن الحبور مالا يُحَدّد. ولا تتحقق له هذه السيطرة إلا بما يخفف وطأة المادة في بدنه ومنه الصوم والصلاة وكل ما يؤدي إلى تخفيف الذنوب وتكفيرها ومحوها. لذلك جاء في الحديث: «الصلاة صابون الخطايا»[١].

وإني أذكر فقرة من دعاء يقرأ كل يوم من أيام شهر رمضان يتعوذ فيه المؤمن بالله من عدوه الشيطان لأهميته: «اللهم صلّ على محمد وآل محمد وأعذني فيه من الشيطان الرجيم وهمزه ولمزه ونفثه ونفخه ووسوسته وتثبيطه وكيده ومكره وحبائله وخدعه وأمانيه وغروره وفتنته وشَركه وأحزابه وأتباعه وأشياعه وأوليائه وشركائه وجميع مكائده»[٢].

تتكامل النفس الإنسانية بمقدار ما تذوب فيها المادية وتقتلع عنها الصفات الرذيلة والأخلاق الذميمة، فمعالجة النفس غير معالجة البدن ولها طرق خاصة ومن أهمها الصوم. فله أثر فعال في تكامل النفس.

أنظروا إلى بعض ما جاء في دعاء اليوم الخامس من شهر رمضان المبارك. إنه معالجة للروح والنفس والقلب. فإن القلوب مريضة ومعالجتها لا تكون إلا بما يناسبها. ولا يعلم طرق هذه المعالجة إلا أطباء الأرواح وهم الأنبياء والأوصياء من بعدهم سلام الله عليهم أجمعين بما أوحى أو ألهم إليهم من جانب الله تعالى.

يقول الصائم وهو خاشع ذليل بين يدي ربه في اليوم الخامس من شهر الغفران: «اللهم صلّ على محمد وآل محمد وأنزع ما في قلبي من حسد أو غل أو غش أو فسق

---

(١) شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد، ج٢٠، ص٣١٣، باب الحكم المنسوبة.
(٢) إقبال الأعمال: ص٢٥.

أو فرح أو مرح أو بطر أو أشر أو خيلاء أو شك أو ريبة أو نفاق أو شقاق أو غفلة أو قطيعة أو جفاء أو ما تكرهه مما هو في قلبي». إلى أن يقول: «اللهم ارزقني سلامة الصدر وانفتاحه إلى ما تحبُّ وترضى، ونور القلب وتفهمه لما تحب وترضى، وضياء القلب وتوقده في ما تحب وترضى، وحسن القلب وإيمانه بما تحب وترضى. يا من بيده صلاح القلب، أصلحه لي. يا من بيده سلامة القلب، فاجعله سالماً لي»[1].

عندما كنت أدرس في الجامعة حاولت أن أحقق أول مادة من هذا الدعاء وهو قلع (الحسد) عن نفسي. فصرت أترجم بعض المسائل الصعبة من كتب مهمة أخرى وأقدمها قبل أن أحلها إلى من كان ينافسني في الصف، وأقدم له الحل إن تعسر عليه، ولا أضنُّ عليه بشيء مما أعلم أو أوفّق إلى حله بلطفه تعالى.

إن الصوم والدعاء (والجوف في معزل عن المادة) وما يقوم به المؤمن في ليالي القدر، خير وسيلة لتعمير القلب وإصلاح النفس حتى تصبح النفس مصداق هذا الحديث: «من سرَّته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن»[2].

فكما أنّ لضغط الجو مقياساً (بارومتر) ولحرارة الجو مقياساً (ترمومتر) كذلك لدرجات سمو النفس وتكاملها مقياس بل مقاييس. من تلك المقاييس: الحديث المتقدم. ومنها مفاد هذه الآية الشريفة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفَال: الآيات ٢/ ٤].

فالوجل والخوف من الله تعالى عند ذكره وانهمال الدموع عند سماع آي الذكر الحكيم من علائم الإيمان. إن الله تعالى يقول عندما يمتدح خواص عباده الأنبياء عليهم السلام: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٥٨].

أتذكر ليلة من ليالي شهر رمضان المبارك، كنت في روضة علي أمير المؤمنين عليه

---

(١) إقبال الأعمال: ص١٢٦، دعاء اليوم الخامس من شهر رمضان.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٢٣٢، باب المؤمن وعلاماته.

أفضل الصلاة والسلام بعد منتصف الليل. وكان بجنبي رجل يقرأ دعاء (أبي حمزة الثمالي) أُم أدعية السحر. رأيته يبكي بكاء الثكلى حتى ابتلت لحيته. وكان يعلوه من الانكسار والخنوع والانقطاع والابتهال مالا يوصف. ولا يعلم قيمة ذلك إلا من علم ما عليه نفسه من ذنوب وآثام ومعاصي وخطايا وهو نادم عليها. ذنوب احتطبها على ظهره، فأثقلت كاهله. والإنسان ليشعر برفع هذا الثقل عن كاهله إذا ناجى ربه وذرفت عيناه بالدموع. لاسيما إذا قرأ دعاء السحر (دعاء أبي حمزة الثمالي) وخشع في دعائه وجرت دموعه على خديه. إنه ليشعر بعد الانتهاء من الدعاء كيف تخفُّ نفسه، كأنه قد وضع حملاً ثقيلاً عن كاهله، وكيف يعلوها سرور وابتهاج بصورة لا شعورية. فإن من علائم الإيمان دمعة الفرح والانجذاب إلى آيات الله، دمعة هي أمارة التسليم والانقطاع. إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: الآية ٨٣].

إن القلب ليصدأ إن لم يبك الشخص على ذنوبه أو حباً لله تعالى. وإن صدأ القلب أمر معنوي، وإزالته لا تكون إلا بشكل معنوي، والبكاء أمارة هذا الانقلاب المعنوي. نعم إن الدمعة على ما ثبت في الطب الحديث تدفع مئات الأمراض عن البدن.

ومما لا ريب فيه أن الله لو أراد أن يهدي عبداً (حين يتوجه إليه العبد مكفّراً عن ذنوبه) وأحب أن يغفر له جعله يبكي على ذنوبه جوف الليل وأوقات العبادة. وهذا من علائم التقرب إليه تعالى.

تلا رسول الله ﷺ على ثلة من الشبان آية من سورة الزمر: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: الآيات ٧١/٧٣]. فبكوا وفاضت عيونهم بالدموع، فبشرهم رسول الله ﷺ بالجنة.

يقول رسول الله ﷺ مخاطباً علياً عليه السلام: «يا علي، كل عين باكية يوم القيامة إلا

ثلاث أعين: عين سهرت في سبيل الله، وعين غضَّت عن محارم الله، وعين فاضت من خشية الله»[١]. ومن جرب القسم الأخير شعر بما يعلوه من سرور وحبور، نزيهين طاهرين لا يضاهيهما أي سرور.

يقول الله تبارك وتعالى في وصف المؤمنين حين تتلى عليهم آياته: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩)﴾ [الإسراء: الآية ١٠٩]. فهذه الدموع في شهر رمضان المبارك عند تلاوة القرآن وقراءة أدعية النهار وأدعية الليل وأدعية السحر وفي صلاة الليل ولاسيما في ركعة الوتر تذيب المادية المتأصلة في النفوس وتزيل الأدران والأرجاس وذمائم الأخلاق فيرى الإنسان نفسه، بعد ذلك، في عالم جديد من القدسية؛ تصفو النفس بهذه الدموع، فإذا صفت رشحت عليها المعارف الإلهية من عالم القدس، فتزداد معرفة بالله تعالى وهي غاية الغايات. فغاية ما يتكامل به الإنسان أن يزداد معرفة بالله تعالى، أي إن تكامل الإنسان يتناسب طردياً مع درجة معرفته بالله تعالى. فكلما كانت معرفته بالله تعالى أكثر كان سائراً في مدارج الكمال أكثر فأكثر. وإن شهر رمضان المبارك يهيئ الوسائل التي تصفو بها النفس لتنال نصيبها من الكمال وعن المعارف الإلهية.

وفي الحديث: «أبغض الناس إلى الله المتخمون الملأى، وما ترك العبد أكلة يشتهيها إلا كانت له درجة في الجنة»[٢]. وفي حديث آخر: «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب. فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء»[٣].

نعم، إن المعارف الإلهية لا تحصل إلا إذا أذيبت المادية في الإنسان كما جاء في الحديث. فإذا ذابت المادية بالصلاة والصيام والحج والزكاة والخمس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإنفاق والإيثار ومجاهدة النفس والأعمال الصالحة ازداد الإنسان معرفة بالله وأفيضت عليه المعارف الإلهية، فإن الإمام الصادق سلام الله

---

(١) تحف العقول: ص٨، باب وصيته لأمير المؤمنين ﷺ.

(٢) تنبيه الخواطر: ج١، ص١٠٢، باب تهذيب الأخلاق.

(٣) مستدرك الوسائل: ج١٦، ص٢٠٩، باب ١.

عليه يقول: «ليس العلم بالتعلم. إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه. فإذا أردت العلم، فاطلب أولاً في نفسك العبودية، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك»(١).

فالعبودية أساس العلم ومقدمة للإفاضات الربانية والمعارف الإلهية. وإن الصوم من أجلى مظاهر العبودية، وخير وسيلة لتكامل النفس الإنسانية.

أثر الحج في تكامل النفس

نرى جميع ما حولنا من حيوان ونبات وجماد في غاية الكمال. أي إن العالم المادي بما أودع الله تعالى فيه من قوانين دقيقة وخواص متعددة وقابليات خطيرة قد بلغ الغاية من الكمال. وإن أجزاءه مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً بقوانين رياضية رصينة، مما يدل على أن الكمال قد بلغ منتهاه فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [المُلك: الآيتان ٣/ ٤].

وإن العلم الحاضر لم يكتشف عشر معشار ما أودعه الله تعالى من قوانين وخواص في هذا الكون المادي. وإنما قلت: (الكون المادي)، ذلك لأن العلم الحاضر علم مادي بجميع شراشره. لا يعمل إلا في المادة ولا يقف إلا على جزء ضئيل مما أودع الله تعالى من خواص ومعادلات لقوانين تربط عوالم المادة بعضها ببعض.

على أن ما ظفر به المتتبعون والمجربون (بفضل الله تعالى) من بعض القوانين والخواص المودعة في هذا الكون بأمره تعالى، لا يزال في حضيض لا يتناهى (الأصغر غير المتناهي). وسيبقى كذلك أبد الآبدين. ذلك لأن علم الله لا يتناهى، ونسبة المحدود إلى غير المحدود صفر: $\frac{\infty}{\infty}$ = صفر.

إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: الآية ٢٧].

---

(١) منية المريد: ص١٤٨.

والعالم الحقيقي، كلما فتح الله له باباً من أبواب معرفة الحقائق المادية اعترف بعظم جهله وأنه في اللانهاية من مراتب الجهل. ولا يأتي الغرور إلا من ناحية الجهل. إن الإنسان مركّب من روح وجسم، فجسمه في غاية الكمال ولكن الإنسان ليس بجسم فحسب، بل ليس من الجسم في شيء. إنه إنسان بروحه ونفسه وهو مخلوق الله الكامل على الإطلاق. والكامل (وهو الله تعالى) لا يصدر منه إلا الكمال. ولذلك تفضل الله على الإنسان بغية تكميل نفسه الناقصة، تكميلاً يناسبها، بأنبياء ﷺ ومن بعدهم بأوصياء ﷺ يهدونه سواء السبيل ويتصدون لتكميل نفوس البشر وإبلاغها إلى حيث يشاء الله تعالى من مراتب الكمال. ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجُمُعَة: الآية ٢] .

فالغاية الحقيقية من خلق الإنسان: هو أن يعرف الله تبارك وتعالى وأن يزداد معرفة به تعالى بتزكية نفسه. ذلك لأن حب الله ومعرفة الله لا يحلان نفوساً مدلهمة حالكة بذنوب وأخلاق ذميمة وفسق وفجور. فوجب تطهيرها وتزكيتها، ولا تزكو إلا بالعبادة والأعمال الصالحة. والأعمال الصالحة هي نوع من أنواع العبادات إذا كانت لوجه الله وطلباً لمرضاة الله.

إننا خُلقنا لمعرفة الله تعالى كما جاء في الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف، فخلقت الخلق لكي أُعرف». والعبادة باب معرفة الله تعالى ولا تحصل هذه الغاية الرئيسية من خلق الإنسان (هي معرفة الله تعالى) إلا بالعبادة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريَات: الآية ٥٦] . فهم إذا عبدوا الله فتحت عليهم أبواب المعارف الإلهية، وازدادوا معرفة بالله تعالى كلما ازدادوا اهتماماً بالعبادة بإخلاص، دونما رياء أو حب لجاه أو طلب للرئاسة.

ومن جملة تلك العبادات المطهرة للنفوس والفاتحة على الإنسان أبواب المعارف الإلهية: الحج. ولامراء أن المال يقسي القلب ويؤدي إلى شيء من الغرور والكبرياء ويبعد الإنسان ـ بما يترشح منه من ذمائم الأخلاق ـ عن الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: الآية ٧/٦]. وقد جاء في الحديث القدسي: «وإن من

عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو صرفته إلى غيره لهلك»[١]. فوجب ملاقاة ذلك، لئلا توصد على الثري أبواب المعرفة. فشرع الشارع الزكاة والخمس والزكاة المندوبة والصدقات، وأوجب أمراً عبادياً فرضه على أولى الاستطاعة تفضلاً منه عليهم. حتى لا يكون هذا المال حجر عثرة في طريق تقدمهم في مجالات المعارف الإلهية الواسعة التي لا تتناهى. فهيأ لهم في بيته الحرام مواقف تذرف فيها دموعهم وتخشع فيها قلوبهم وتلطف بها نفوسهم. يشاهدون المقامات القدسية ويتقربون فيها إلى ربهم مخبتين، فلا يبقى حاجب يحجبهم عن الله تعالى لقدسية تلك المواقف. فيذكرون ذنوبهم ثم يبكون عليها ندماً وحزناً منيبين خاضعين. وإن لكل عمل في الحج أثراً في تكميل النفس الإنسانية والتساوي بين الوضيع والشريف. فليس هناك اعتبارات دنيوية ما أنزل الله بها من سلطان. ذلك لأن الله تعالى قد جعل المفاضلة بين الناس بالتقوى فحسب، أي بحسب سمو نفوسهم في حقول التزكية ومجالات التصفية، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣] ، على أن في الحج فوائد اجتماعية أيضاً لا تعد ولا تحصى لو استفاد منها المسلمون.

وقد جعل الله المقامات التي يتقرب فيها إليه في مثل مكة وجبالها القاحلة الجرداء لينصرف العبد إلى عبادته، لا يلهيه الشيطان بزخارف الدنيا وجمالها الخداع، لذلك يقول علي عليه أفضل الصلاة والسلام:

«ألا ترى أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر. فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقل نتائق الأرض مدراً وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبال خشنة ورمال دمثة وعيون وشلة (أي قليلة الماء) وقرى منقطعة، لا يزكو بها خف ولا حافر ولا ظلف، ثم أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه. فصار مثابة لمنتجع أسفارهم وغاية لملقى رحالهم. تهوى إليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة ومهاوي فجاج عميقة وجزائر بحار منقطعة. حتى يهزوا

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٣٥٢، باب من آذى المسلمين.

مناكبهم ذللاً، يهللون لله حوله، ويرملون على أقدامهم شعثاً غبراً له، قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم، وشوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاءً عظيماً وامتحاناً شديداً واختباراً مبيناً وتمحيصاً بليغاً. جعله الله سبباً لرحمته ووصلة إلى جنته. لو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وأنهار وسهل وقرار، جم الأشجار داني الثمار ملتف النبات، متصل القرى، بين برّة سمراء وروضة خضراء وأرياف محدقة وعراص مغدقة ورياض ناضرة وطرق عامرة لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء ولو كان الأساس المحمول عليها والأشجار المرفوع بها بين زمردة خضراء وياقوتة حمراء ونور وضياء لخفف ذلك مسارعة الشك في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفى معتلج الريب من الناس (أي زال الريب والشك من صدور الناس). ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبدهم بألوان المجاهد ويبتليهم بضروب المكاره إخراجاً للتكبر من قلوبهم وإسكاناً للتذلل في نفوسهم وليجعل ذلك أبواباً فتحاً إلى فضله، وأسباباً ذللاً لعفوه»[1].

فلا بيان بعد هذا البيان، فلقد أوضح صلوات الله عليه علة التكليف وحكمة الحج بأبلغ تبيان. فعباد الله الصالحون كانوا، طمعاً في الثواب الجزيل ومزيداً للخشوع والخضوع، يحجون ماشين على أقدامهم أذلاء صاغرين وأن الإمام الحسن عليه السلام كان يقول: «إني لاستحيي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته». فمشى عشرين مرة من المدينة إلى مكة على رجليه، وإن النجائب لتقاد معه.

فالله تبارك وتعالى قد أوجب الحج على المستطيعين من عباده بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: الآية ٩٧]. فالمتخلف عن الحج مع الاستطاعة كافر، لأنه لم يشكر ربه على ما تفضل عليه من نعم وقد مكّن له أن يحج بيته الحرام ليزداد تقرباً إليه ومعرفة به. فقد جاء في خبر عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: الآية ٧٢] ذاك الذي يسوّف الحجّ أي (حجة الإسلام) حتى يأتيه

---

(١) الكافي: ج٤، ص١٩٨، باب ابتلاء الخلق.

الموت»[1]. وعنه ﷺ: «من مات وهو صحيح موسر لم يحج فهو ممن قال الله تعالى فيه: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: الآية ١٢٤]»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «من مات ولم يحج حجة الإسلام، ولم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق فيه الحج أو سلطان يمنعه، فليمت يهودياً أو نصرانياً»[3]. وقد بني الإسلام على خمس: الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية.

فالحج عظيم فضله، خطير أجره، جزيل ثوابه، جليل جزاؤه. وكفاه ما تضمنه من وفود العبد على سيده ونزوله في بيته ومحل ضيافته وأمنه، وعلى الكريم إكرام ضيفه وإجارة الملتجئ إلى بيته. فعن الإمام الصادق عليه السلام: «الحاج والمعتمر وفد الله، إن سألوه أعطاهم، وإن دعوه أجابهم، وإن شفّعوا شفّعهم، وإن سكتوا بدأهم، ويعوضون بالدرهم ألف ألف درهم»[4] وإن من الذنوب ما لا يكفّره إلا الوقوف بعرفة، كما جاء في الحديث.

وقال النبي ﷺ لرجل فاته الحج والتمس منه مابه ينال أجره: «لو أن أبا قبيس لك زنته ذهبة حمراء فأنفقته في سبيل الله تعالى ما بلغت ما يبلغ الحاج»[5].

وقال: «إن الحاج إذا أخذ في جهازه لم يرفع شيئاً ولم يضعه إلا كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات، وإذا ركب بعيره لم يرفع خفاً ولم يضعه إلا كتب الله له مثل ذلك، فإذا طاف بالبيت خرج من ذنوبه، فإذا سعى بين الصفا والمروة خرج من ذنوبه، فإذا رمى الجمار خرج من ذنوبه، قال: فعدّ رسول الله ﷺ كذا وكذا موقفاً إذا وقفها الحاج خرج من ذنوبه. ثم قال: أنى لك أن تبلغ الحاج»[6]؟.

ويكره ترك الحج للموسر في كل خمس سنين.

فترون: كيف يتكامل الإنسان لما يراه من مواقف قدسية تذهب عنه الذنوب وتطهر

---

(١) الكافي: ج٤، ص٢٦٨، باب من سوف الحج.
(٢) الكافي: ج٤، ص٢٦٩، باب من سوف الحج.
(٣) الكافي: ج٤، ص٢٦٩، باب من سوف الحج.
(٤) الكافي: ج٤، ص٢٥٥، باب فضل الحج.
(٥) الكافي: ج٤، ص٢٥٨، باب فضل الحج.
(٦) تهذيب الأحكام: ج٥، ص١٩، باب ٣.

النفوس عندما يوفَّق إلى حج بيت الله. فإن هذه المواقف وما يقرأ فيها من أدعية وما يقوم به الحاج من أعمال تذيب المادية التي تصيب الثري من جراء المادة. فما على الحاج إلا أن يحتفظ بهذا الصفاء الذي منَّ الله به عليه في بيته، فلا يلوث نفسه بآثام جديدة، ليذهب من هذه الدنيا إلى حيث الخلود نقي الثوب طاهر الضمير.

كل منا ممتحن لا محالة

يقول الله جلّ شأنه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محَمَّد: الآية ٣١]. فاللام في (ولنبلونكم) للقسم والنون المشددة للتوكيد ومعنى ذلك: إن الله تعالى بصورة حتمية وقطعية يختبر كل فرد، على اختلاف الطبقات: بالطاعة والصبر على الفقر والسقم وفقد الأولاد والأرحام وبأنواع البلايا والمنايا والحوادث المحزنة والمفرحة والرخاء والشدة إلى ما هنالك. كي يتضح لدى شخص الإنسان مبلغ جهاده مع نفسه الأمارة بالسوء وعدم إطاعته لها وعدم طغيانها في السراء وعدم الجزع في الضراء.

وهذا الجهاد هو الجهاد الأكبر. وإن هذا الجهاد على ما أرى لأصعب بكثير من حل أصعب مسألة في التحليل الرياضي Analyse Mathematique أو الفيزياء العالية. ذلك لأن الذي أوتي موهبة فائقة قد يتمكن بتلك الموهبة وبتمارين متتابعة وجدّ متواصل من حل تلك المسألة الصعبة، ولكن هذا الشخص نفسه لا يقوى على كبح الشهوات إلا بنفس لها من الجلد والعزم وخوف الله تعالى والتقوى الشيء الكثير. لذلك من السهل جداً أن يبلغ الإنسان مرتبة (الدكتوراه: Doctorat) إذا أتيحت له الفرص (لاسيما في العلوم الاجتماعية) أو يكون عالماً في فرع من الفروع. ومن الصعب جداً أن يكون إنساناً كاملاً.

وكم رأينا من علماء متضلعين فيما اختصوا فيه، مغلوبين تجاه شهواتهم، مستضعفين أمام ميولهم.

قد عرفت أستاذاً (شيخاً للمدرسين: Doyen) في إحدى الجامعات كان يدرس الفيزياء الرياضية العالية. وكان قد ألف ثلاثة مجلدات عن ما دوّنه المسلمون في القرنين الثالث والرابع الهجري في الرياضيات.

فاستأذنت منه الولايات المتحدة (في أمريكا) لتقوم بترجمة ما ألف تجاه مبلغ جسيم. فأذن واستلم المبلغ. فلم يشاهد هذا الأستاذ بعد استلامه المبلغ إلا بعد انتهاء العطلة وهو مبتلى في عقله! فجاء إلى الجامعة ليدرس الفيزياء الرياضية في الصف الذي كان يدرس فيه. وإذا به يقول: أريد أن أدرسكم اليوم (التاريخ)! ويخاطب أحد طلابه فيشتبه فيه ويظنه غيره. وإذا به مجنون! يحمَّل إلى دار المجانين ويموت هناك وهو مجنون. ذلك لأنه بعد استلامه المبلغ إزاء جهوده ذهب مباشرة إلى دور البغاء والعواهر وابتلى بمرض الزهري (syphilis). وأن ميكروب هذا المرض يهجم على أضعف عضو في الشخص، فهجم على مخه وأدى به إلى الجنون. فلو كانت الاتمامات (Integrations) الصعبة التي لا تنطبق على ما دون من نماذج: (Types) تكفي لردعه عن المدنسات وعما حرّم الله تعالى لما ابتلى بالجنون.

فالشيطان لا يخشى شيخ الأساتذة في الجامعة ولا من حمل لقب (الدكتوراه: Doctorat)، سواء كان قد حملها بحق أو بغير حق، وسواء ثابر بعد حمله هذا اللقب على التتبع أو اكتفى باللقب فحسب، وسواء بلغ من التتبع درجة يحق له أن يحمل لقب (الدكتوراه) ولكن الظروف لم تساعده لعرض آثاره على جامعة من الجامعات، أو لم يبلغ.

إن الشيطان ليهجم على النفس الإنسانية مهما كان نوعها. فيدعوها إلى ما يدنسها ويرديها. وأن العلم حديثه وقديمه ليس بالشيء الذي يمنع النفس عن إطاعة الشيطان. ذلك لأن (العلم) عملية فكرية وليس بعملية نفسية.

فالذي يمنع النفس عن إطاعة الشيطان، إنما هو خشية الله وخوف الله إنما هو العبادات وعلى رأسها الصلاة المقبولة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العَنكبوت: الآية ٤٥]. صلاة فيها خشوع وخضوع وتفكر وتدبر.

جاء في الحديث: «أعلمكم بالله أخوفكم له». ويراد بهذا العلم: العلم الإلهي والمعارف الإلهية. أي أن المعارف الإلهية لا تحل إلا في نفس تخاف الله كثيراً وتخشاه كثيراً. فالعلم الكثير في غير طاعة الله ممد الذنوب كما أثر عن علي عليه الصلاة والسلام حيث يقول: «كثرة العلم في غير طاعة الله مادة للذنوب».

ويستفاد من الأحاديث الآتية، أن العالم يؤاخذ على ذنبه أضعاف ما يؤاخذ عليه الجاهل: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يغفر للجاهل أربعين ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنباً واحداً»[١]. وقال أيضاً: «زلة العالم كبيرة». وقال علي عليه السلام: إن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء عليهم السلام: «قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون للناس مسوك الضأن وقلوبهم قلوب الذئب، ألسنتهم أحلى من العسل وأعمالهم أمر من الصبر، إياي يخادعون وبي يغترون وبديني يستهزئون»[٢].

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس، فليتبوأ مقعده من النار، إن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها»[٣].

وفي حديث آخر: «لا طاعة إلا بعلم، ولا علم إلا بتعلم، والتعلم من عالم رباني»[٤].

عرفت أستاذاً في علم التربية وعلم النفس: بلغ مرتبة (الدكتوراه) كان يدرّس في المعاهد العالية، إنه لم يقو على كبح نفسه عن شرب الخمور فكان يشرب بدرجة تؤدي به إلى تشويه سمعته مع علمه أن: «شارب الخمر كعابد وثن»، كما جاء في الحديث.

فقد ذكر لي أحد تلاميذه أنه شاهده ذات ليلة ملقى على قارعة الطريق في الأوحال وهو ثمل لا يشعر. يقول: إني أردت أن أؤدي ما للأستاذ على التلميذ من حقوق، فدعوت سيارة وحملته مع السائق ووضعناه في السيارة ونقلناه إلى فندق كان يسكن فيه. قمت بإسعافه قليلاً حتى صَحا. فقلت: يا أستاذ، أنت تلقي علينا دروساً في ضبط النفس وفي التحلي بالأخلاق الفاضلة ومجاهدة النفس البهيمية. فما هذا الذي أرى بك يا سيدي؟ فأجاب جواباً سوفسطائياً بقوله: إنما أنا أقتل مرارة الحياة بمرارة الخمرة! وقد فاته أنه يقتل نفسه.

فترون أن ليس هناك أية علاقة بين ما تحمله الحافظة من معادلات وقوانين

---

(١) بحار الأنوار: ج٢، ص٢٧، باب٩، وفيه سبعون بدل أربعين.

(٢) إرشاد القلوب: ج١، ص١٤، باب١.

(٣) الكافي: ج١، ص٤٧، باب المستأكل بعلمه.

(٤) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص١٩، باب٣.

وخواص وما يقوى عليه التفكير المجرد من استنتاج واستقراء أو تجريد وتعميم، وبين اتجاه النفس نحو المبدأ الأعلى وإطاعة الله تعالى وردعها الشهوات المميتة وقمعها المرديات، إنهما من واديين مختلفين فالأول من وادي المحافظة والتفكير والذكاء، والثاني من عالم النفس، وبينهما بون شاسع. فلو انطفأ العقل بما يلوث به من موبقات وجرائم حل محله الشيطان والخداع والنكراء ومُنى النفس بما يبعدها عن الله تعالى حتى تبلغ أسفل السافلين.

إن الله تعالى يقول: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: الآية ٣٠] والهداية عند البعض، في يومنا هذا، أن ينال الشخص شهادة عالية فهو مثقف مهدي.

إن الله تعالى يقول: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: الآية ١١] فقدم الله تعالى (الإيمان) على (العلم)، ذلك لأن العلم الحقيقي وأعني به المعارف الإلهية لما يترشح من (الإيمان).. فكلما قوي الإيمان بتطهير النفس، بالعبادة والأعمال الصالحة، ترشح من هذا، الإيمان «العلم الصحيح» الموصل إلى معرفة الله تعالى. وإذا أردنا أن نفسر هذه الآية على غير ما قلنا نقع في مشكلة. ذلك لأنا نرى علماء في بعض ما أودع الله في هذا الكون من خواص وقوانين رياضية، مجردين عن المعارف الإلهية. بل البعض منهم زنادقة ملحدون. فكيف يرفع الله (حسب الآية المتقدمة) هؤلاء الزنادقة والملاحدة درجات؟!

ولا فرق في هذا المقام بين العلوم الدينية من فقه وأصول وفلسفة.. وغيرها وبين العلوم الرياضية والفلكية والكيماوية الخ.. فيجوز أن يكون الشخص قد درس الحكمة الإلهية ولكنه مع ذلك ضعيف الإيمان، يشوبه كثير من الشكوك، أو درس القرآن دراسة متقنة مع مراجعة كثير من التفاسير ولا يؤمن به كما نرى ذلك في المستشرقين.

ذلك لأن الإيمان ليس بالشيء الذي يترشح من الذكاء أو الحافظة بل هو عصارة كف النفس عن المحرمات والقيام بالأعمال الصالحة لوجه الله تعالى. إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم

بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٤٨/ ٤٩]. أي أنه لا يؤمن بآيات الله إلا المتقون الذين يخافون ربهم من فوقهم فلا يعصون الله في السر والعلن.

ويقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [فاطر: الآيات ١٨/ ٢٣]. فالمواعظ والإرشاد والإنذار لا تؤثر إلا في من يخاف الله بالغيب، (أي بينه وبين الله، لا يعلم بذلك أحد) وفي من أقام الصلاة لوجه الله. وهما بابان عظيمان لتزكية النفس.

ومن كان لا يخاف الله ويرتكب المعاصي في السر والعلن، يظلم نفسه ويظلم الناس، فنتيجة ذلك: الجحود وعدم الإيمان عاجلاً أو آجلاً. إن الله تعالى يقول: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ٣٣]. أي إن الظلم لا يترشح منه إلا الجحود بآيات الله تعالى مع تصديقهم بالنبوة أحياناً.

فإذا رأيت شيخاً أو مراهقاً أو شاباً جاحداً مستهزئاً، فكذب بآيات الله تعالى فاعلم أنه مجموعة ظلم وجور وعقوق وخيانة وفجور وفسوق.. سواء أُتيحت له الفرص فحقق ما ذكر أو لم تتح. فإن عقيدة الإنسان خلاصة حالته النفسية سواء أظهرت إلى الوجود أم لم تظهر.

ثم إن معيار الاختبار يجب أن يكون عاماً، يعم أفراد البشر قاطبة بلا تفريق وتمييز، أوتوا بعض المواهب أم حرموا. ولا يمكن ذلك إلا إذا توجه الاختبار إلى النفس التي ألهمت طريقي الخير والشر. بقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: الآية ٨]، كي يشترك في ذلك الوضيع والشريف والغني والفقير والرئيس والمرؤوس. فتكون التقوى إذن معياراً للمفاضلة وأساساً لفوز الشخص بسعادة الآخرة، فقد قال تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣].

الدنيا أشبه شيء بمدرسة يطبق فيها طلابها دروس تكامل النفس. وتعطى لهم عليها درجات. درجات موجبة لأعمال صالحة بما فيها العبادات ودرجات سالبة لأعمال سيئة بما فيها العقائد. ثم تجمع هذه الدرجات، فإن كانت النتيجة موجبة فهو من أصحاب الجنة، وإن كانت سالبة فهو من أصحاب النار، وهذا معنى قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾ [القارعة: الآيات ٦/ ١١]. ويقول الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: الآية ٨].

ليس في هذه الامتحانات الإلهية مجال للإكمال كالامتحانات المدرسية فإما إلى الجنة وإما إلى النار. لأن الإنسان ينقطع عمله بعد موته. فلا عمل ولا تحضير ولا تزوّد بعد الموت. (فالدنيا دار عمل ولا حساب، والآخرة دار حساب ولا عمل).

وقد جاء في الحديث ما مؤداه: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا عن ثلاثة: صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يستغفر له. إن الصدقة الجارية تحتاج إلى مال ونفس سخية وقلّ من يوفق إليها. وأما العلم الذي يأخذ بالفرد إلى ساحات القدس والتقرب منه تعالى فقلّ من يوفق إلى بثه ونشره اليوم، وإن ما يكتب اليوم عن الطبيعة والفلك وغيرهما إنما يكتب بأسلوب مادي، ولا يذكر العبد بعظمة الله وجليل قدرته وحسن إبداعه، وأما الولد الصالح فأصبح نادراً جداً. كم ألفيت آباء يحزنون على سلوك أبنائهم، ورأيت البعض منهم يبكون حزناً على ما عليه أبناؤهم من نهج معوج، واتجاه سقيم، لا يصلون ولا يذكرون الله أداء لواجب الشكر. ورأيت بعض الآباء يقدم مبلغاً يعتد به إلى ولده يريد أن يصلّي فلا يلبّي طلبه! ورأيت آباء آخرين يبغضون أبنائهم غاية البغض لعدم قيامهم بواجباتهم الدينية حتى أنهم لا يريدون أن ينظروا إلى وجوههم. كل ذلك لشدة إيمانهم.

إن الله تعالى يقول: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

وَرَضُوا عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجَادلة: الآية ٢٢] . على أن إطاعة الوالدين أمر واجب بعد توحيد الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾ [الإسرَاء: الآية ٢٣] . وفي الحديث: «نظر الولد إلى والديه حباً لهما عبادة»[1] . وما أقل الأبناء العاملين بهذا الحديث! . .

فالعاقل هو الذي لا يعتمد على ما سيقوم به أرحامه وذووه بعد موته من أجله من مبرات وخيرات، فيبادر بتعمير آخرته قبل حلول أجله.

وقد قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: الآيتان ٩٩/ ١٠٠].

وقد قال رسول الله ﷺ حين جمع الأقربين من قريش: «إن الرائد لا يكذب أهله. والله لو كذبت الناس ما كذبتكم، ولو غررت الناس ما غررتكم. والله الذي لا إله إلا هو، إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة. والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءا، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً»[2] . ولذلك قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٧] .

فتعديل امتحان درجات الله تبارك وتعالى إنما يكون في هذه الدنيا. فمن حصل على درجة (٥ ـ) مثلاً لعدم الصبر على نائبة جزع فيها، يعدله بالصبر على فقر يصاب به، فينال فيه (٦ +) مثلاً، فتكون النتيجة (١ +) وهو فوق الصفر. وعن علي عليه السلام: «إذا صبرت جرى عليك القضاء وأنت مأجور، وإذا جزعت جرى عليك القضاء وأنت مأزور».

ومن بخل في مال أعطاه الله إياه ولم ينفق منه فأمست درجته لعدم الإنفاق الواجب (١٠ ـ) مثلاً، فإنه يعدله بفقر يصاب به، فيعطي من هو أفقر منه من ماله الضئيل أضعاف ما كان يعطي حين كان غنياً، مع مراعاة النسبة، فينال (١٥ +) مثلاً، فتكون النتيجة (٥ +). فيصفي حسابه في دنياه قبل أن يحاسب في الآخرة. ولا أعني بهذه

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٩، ص١٥٢، باب١٤٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ج١، ص٤٦، فصل في مبعث النبي ﷺ.

الأرقام التي جئت بها على سبيل المثال، إن الله يحاسب العباد على طبقها، وإنما تمثيل وتقريب وتفسير.

لا ريب أن حساب الآخرة لدقيق جداً. والدرجات في غاية الدقة أيضاً ولا تقبل الشفاعة فيها إلا إذا كانت الشفاعة مقرونة برضا الله تعالى. لقوله عزّ من قائل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٢٨] . فإن الأنبياء والأوصياء سلام الله عليهم أجمعين لا يشفعون إلا إذا اطلعوا على مرضاة الله تعالى. فإنهم: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٢٦/ ٢٧].

وعن علي عليه السلام: «وإن من شيعتنا لمن لا تدركه من لا تناله شفاعتنا إلا بعد عذاب الله له ثلاثمائة ألف سنة»[1].

قال طاووس: رأيت علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام يطوف من العشاء إلى السحر ويتعبد. فلما لم ير أحداً رمق السماء بطرفه قال: «إلهي غارت نجوم سماواتك وهجعت عيون أنامك وأبوابك مفتحات للسائلين، جئتك لتغفر لي وترحمني وتريني وجه جدي محمد صلى الله عليه وآله في عرصات يوم القيامة». ثم بكى وقال: وعزتك وجلالك، ما أردت بمعصيتي مخالفتك، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاك، ولا بنكالك جاهل، ولا لعقوبتك متعرض، ولكن سوّلت لي نفسي وأعانني على ذلك سترك المرخى علي. فالآن من عذابك من يستنقذني وبحبل من اعتصم إن قطعت حبلك عني، فوا سوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذ قيل للمخفين جوزوا، وللمثقلين حطّوا، أمع المخفين أجوز، أم مع المثقلين أحط، ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن استحيي من ربي» ثم بكى وأنشأ يقول:

أتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي ثم أين محبتي
أتيت بأعمال قباح زرية وما في الورى خلق جنى كجنايتي

ثم بكى وقال: «سبحانك تعصى كأنك لا ترى وتحلم كأنك لم تعص تتودد إلى خلقك بحسن الصنيع كأن بك الحاجة إليهم، وأنت يا سيدي الغني عنهم» ثم خرّ إلى الأرض

---

(١) معاني الأخبار للصدوق: ص٢٨٨، باب معنى الموت.

ساجداً. فدنوت منه وشلت برأسه ووضعته على ركبتي وبكيت حتى جرت دموعي على خده، فاستوى جالساً وقال: «من الذي أشغلني عن ذكر ربي» قلت: أنا طاووس، يا ابن رسول الله ما هذا الجزع والفزع؟ ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا ونحن عاصون جانون، أبوك الحسين بن علي وأمك فاطمة الزهراء وجدك رسول الله ﷺ فالتفت إلي وقال: «هيهات هيهات يا طاووس، دع عني حديث أبي وأمي وجدي. خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً (سيّداً) قرشياً. أما سمعت قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾ [المؤمنون: الآية ١٠١]، والله لا ينفعك غداً إلا تقدمة تقدمها من عمل صالح»[١].

فإذا كان علي بن الحسين عليه السلام يفعل مثل ذلك مع عصمته وطهارته بنص من الكتاب أو السنة، فكيف بنا ونحن ملئنا معاصي وآثاماً. كل ذلك ليعلّمونا سلام الله عليهم آداب التقرب إلى الله، آداب الدعاء والخضوع، آداب التوبة والاستغفار، لكي تطهر هذه النفوس الملوثة بدموع تذرفها جوف الليل نادمة على صنيعها، آسفة على فعالها.

إن الأئمة سلام الله عليهم كانوا يعبدون الله تعالى بهذه الآداب العالية أداء لواجب الشكر، لما ميزهم الله تعالى عن سائر البشر.

يدخل جابر رضوان الله عليه على علي بن الحسين عليه السلام يقول: «يا بن رسول الله أما علمت أن الله خلق الجنة لكم ولمن أحبكم، وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم. فما هذا الجهد الذي كلفته نفسك». ذلك لأن زين العابدين عليه السلام قد انخرم أنفه وثفنت جبهته وركبتاه وراحتاه مما أدأب نفسه في العبادة حتى سمّي بذي الثفنات، فيجيبه الإمام عليه السلام قائلاً: «يا صاحب رسول الله، أما علمت أن جدي رسول الله ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلم يدع الاجتهاد، وتعبد بأبي هو وأمي حتى انتفخ الساق وورم القدم، وقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً»[٢].

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ج٤، ص١٥١، فصل في زهده عليه السلام.

(٢) بحار الأنوار: ج٥١، ص١٠، باب١٤.

إن الله تبارك وتعالى قد امتحن أنبياءه وأوصياء أنبيائه عليهم السلام امتحانات صعبة شاقة لا يقوى عليها البشر العادي، هذا إبراهيم عليه السلام قد امتحنه الله تعالى بأن أُلقي في النار فكان له برداً وسلاماً. وامتحنه بذبح ولده إسماعيل، وامتحنه بأن أرسل له ملكاً على شكل إنسان فقال: سبوح قدوس ربنا ورب الملائكة والروح. فافتتن إبراهيم عليه السلام بهذا النداء اللاهوتي. فطلب إليه أن يعيد ما قال. فأجابه: أنه لا يعيد حتى يعطيه نصف غنمه، فأعطاه. فقالها ثانية: «سبوح قدوس، ربنا ورب الملائكة والروح». ثم إن إبراهيم عليه السلام طلب إليه أيضاً أن يقولها ثالثة. فقال: إلا أن تعطيني بقية غنمك، فأعطاه. وقالها ثالثة: «فهذه مرتبة من مراتب الولاء» لا يصل إليها البشر العادي.

مراتب الامتحان الإلهي

إن الله تبارك وتعالى يختبر عباده حسب عظم نفوسهم وقابلياتهم، فيبوؤهم ما يستحقون من المنازل الدنيوية والأخروية. قال نبينا صلى الله عليه وآله: «ما أُوذي نبي مثل ما أُوذيت». فكان ابتلاؤه أعظم من ابتلاء من سبقه من الأنبياء والمرسلين سلام الله عليهم أجمعين.

وأما علي عليه السلام، فقد امتحن لامتحانات تزيد عن العد والإحصاء منها مبيته على فراش النبي صلى الله عليه وآله وعرضه نفسه للقتل. ومنها برازه إلى عمرو بن عبد ود الذي كان يعد بألف فارس في غزوة الخندق، وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: برز الإيمان كله إلى الشرك كله، وقال فيه أيضاً كما رواه الحاكم في المستدرك: لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ود يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة»[1]. وقد روى الحاكم أيضاً أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «قتل علي لعمرو بن عبد ود أفضل من عبادة الثقلين»[2].

وأما الحسين عليه السلام فقد امتحن بما لم يمتحن به من قبله ولن يمتحن به من بعده. والأئمة كلهم امتحنوا بامتحانات صعبة جداً لا يقوى عليها البشر العادي، ولا مجال لذكر ما امتحن به الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين من امتحانات شاقة جداً يفر منها غيرهم.

---

(١) بحار الأنوار: ج٣١، ص١٦٥، باب٣٩.

(٢) بحار الأنوار: ج٣٩، ص٥، باب٧٠.

وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: إن أشد الناس بلاء النبيون، ثم الوصيون ثم الأمثل فالأمثل وإنما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة، فمن صح دينه وحسن عمله اشتد بلاؤه، ومن سخف دينه وضعف عمله، قل بلاؤه، والبلاء أسرع إلى المؤمن التقي من المطر إلى قرار الأرض، ذلك: أن الله عزّ وجلّ لم يجعل الدنيا ثواب المؤمن ولا عقوبة الكافر[١].

والامتحان أو البلاء إما أن يكون لزيادة الدرجات وبلوغ المنازل الرفيعة وهذا خاص بالأنبياء عليهم السلام والأوصياء عليهم السلام ثم الأمثل فالأمثل، وإما أن يكون لتطهير النفوس مما علق بها من أدران وأوساخ: ذنوب وآثام. فهو تكفير لما اجترحت الأيدي من ظلم وبغي ولما قامت به النفوس من حسد وغيبة ونميمة وكل ما نهى عنه الدين.

فعن أبي جعفر عليه السلام قال: إن الله عزّ وجلّ إذا كان من أمره أن يكرم عبداً وعليه ذنب، ابتلاه بالسقم، فإن لم يفعل ذلك به ابتلاه بالحاجة، فإن لم يفعل ذلك به شدَّد عليه الموت ليكافيه بذلك الذنب، وإن كان من أمره أن يهين عبداً وله عنده حسنة صحح بدنه، وإن لم يفعل ذلك به وسع عليه رزقه، فإن لم يفعل به هون عليه الموت، فيكافيه بتلك الحسنة»[٢].

وعن أبي عبد الله عليه السلام: قال: «إن العبد إذا كثرت ذنوبه ولم يكن عنده من العمل ما يكفرها ابتلاه الله بالحزن ليكفرها»[٣] وقال رسول الله ﷺ: «لا يزال الغم والهم بالمؤمن حتى لا يدع له ذنباً»[٤].

أنظروا كيف يأمرنا الإمام عليه السلام بمحاسبة نفوسنا. فعن أبي الحسن الماضي عليه السلام[٥]: قال: «ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم. فإن عمل حسنة استزاد الله عزّ وجلّ، وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب إليه»[٦].

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٩، باب شدة ابتلاء المؤمن.

(٢)،(٣)،(٤) أصول الكافي: ج٢، ص٤٤٤، باب تعجيل العقوبة.

(٥) إنه الإمام السابع: موسى بن جعفر عليهما السلام.

(٦) أصول الكافي: ج٢، ص٤٥٣، باب محاسبة العمل.

إن العبد ليمتحن في كل يوم من حياته امتحانات عدة حسب قابليته واستعداده. فطوبى لمن وفق في امتحانات الله تعالى بعزم ثابت وإرادة قوية مستمداً التوفيق منه تعالى. فهذه هي الإرادة الحقيقية التي يجب أن تبحث عنها التربية الحديثة: (pedagogie Moderne) وأن تعمل في تتمتها.

يقول أحد رجال التربية في الغرب: كان لي صديق وقد زرنا معاً الهند، فرأيته يغيب بعض الليالي. فسألته السبب قال: إني لأجد في إرادتي ضعفاً وأحب تقويتها. أخرج جوف الليل إلى الغابة أو إلى الصحراء وأبارز الأسد وبعض الحيوانات المفترسة وأهيئ ناراً إن أنا تأخرت عن لقائها عليها ثانية واحدة، كان في ذلك موتي المحتوم، وبهذا أجد أن مقاومتي للشدائد أصبحت أكثر من ذي قبل.

نعم، إن هذا النوع من الأعمال التربوية تقوي الإرادة وإن كتب التربية مشحونة بهذه الأساليب التربوية. ولكن للتوجيه أثراً عظيماً في مستقبل الإنسان الديني وتوجهه نحو خالقه أي في تكامل نفسه. فرُبَّما قوي الإرادة يصرف إرادته في أمور محرمة وأشياء تافهة.

إن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرُف: الآيات ٣٦/٣٨]. أو يصرف إرادته في دنيا محضة أي في تقوية جانب المادة مع إهمال جانب تكامل النفس: الأمر الذي وجد الإنسان على وجه البسيطة لأجله. فلو عنيت التربية بناحية التوجيه كما تهتم بناحية تقوية الإرادة لجمع الشاب بين سعادة الدنيا والآخرة. ولكن تربيتنا الحاضرة تربية مادية بنتائجها. تنظر إلى الحياة المادية كأنها الهدف الأسمى وتربّي الشاب للتزود من هذه الحياة المادية وإن فسدت النفس في أثناء التربية وانحطت الملكات الأخلاقية والدينية.

وليس تكامل النفس بشيء يمكن قياسه بأسئلة امتحانية تلقى على الطلاب في الامتحانات النهائية، لأنها أعمال وملكات أكثر منها نظريات وعبارات أدبية. لذلك انحطت الأخلاق الاجتماعية والأخلاقية الإسلامية الموروثة: أعني الصفات الإنسانية الكاملة التي ورثناها عن آبائنا وأجدادنا فناب منابها مجاملات صورية لا تتجاوز الحنجرة وحركات الوجه.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: الآية ٧] . قد خلق الله جلّ شأنه من النعم والمآكل والمشارب والملابس والمساكن ما يجذب الإنسان ببهجته وروائه فيطمع الإنسان فيها. ولا تتأتى كلها لكل شخص من مورد حلال طيب. فتغلب الشهوة وينقاد إليها الإنسان، فإذا به يُفسد نفسه ويرتكب الظلم والبغي ليتزود من هذه النعم والمآكل ويتزيّن بأنواع الزينة فيرسب في هذا الاختبار النفسي العسير. إن الله لم يحرّم على الناس الاستفادة من نعيم الدنيا وزينتها وزبرجها إذا كان من مورد حلال شرعي واستعمل حسبما عيّنه الشرع: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ٣٢/ ٣٣]. ففي هذه الدنيا يشترك المؤمن مع الكافر في التنعم بالطيبات من الرزق وزينة الدنيا الفانية، أما في الآخرة فيكون ذلك للمؤمنين خالصة خاصة بهم، بمقياس لا يحيط به العقل البشري.

فالدنيا بمظاهرها الخلابة وجمالها الفتان وأشجارها ونباتها ومائها وهوائها مواد للامتحان: (كالفيزياء والهندسة المجسمة وعلم الهيئة وحساب الاحتمالات و....)، ولا يقوى على ردع النفس عن الشهوات المحرمة إلا من أوتي يقيناً صادقاً وتوجهاً خالصاً ولطفاً ربانياً: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمَّد: الآية ١٧] .

قد يصادف الإنسان في عنفوان شبابه مائدة خمر جلس عليها أصحابه فيلحّون عليه بالشرب وهو يمتنع لطهارة أودعها الله تعالى فيه بالفطرة، ثم يلحون عليه ثانية وثالثة والشيطان بالمرصاد. فهنا صراع بين العقل والنفس الأمارة بالسوء أو بالأحرى بين العقل (إن لم يحجب وبقى على فعاليته) وبين الشيطان. فإن غُلب الشاب على أمره فقد سقط في هوة سحيقة. وإن تذكر أمر الله واليوم الآخر وعزم على الرفض واستعان بالله جلّ وعلا في خلاصه ونجاته فإن الله يهيّء له أسباب النجاة. وإن ارتداعه هذا في هذا الاجتماع الفاسد وكبحه شهوته بعزم رصين يفتحان عليه أبواب رحمة الله فيزداد بفضله هدى وتقوى وصلاحاً. فقد جاء في الحديث: «لو مشى العبد نحوي شبراً لمشيت نحوه

ذراعاً». وما من تقي إلا ويُمتحن في حياته بامتحان أو امتحانات نظائر هذا الامتحان.

كثيراً ما تقوى إرادة الإنسان على النجاح في أمور دنيوية ولكن نفس هذه الإرادة تراها مغلوبة تجاه الشهوات والمغريات، ضعيفة أمام محارم الله تعالى. فالإرادة كل الإرادة إذا استطاع المرء أن يكبح شهواته ويجعل رزقه من مورد حلال طيب. فإن الأموال المحرّمة أو المشتبهة لها آثار سلبية في اتجاه الإنسان نحو خالقه وفي قمع الشبهات وحصول اليقين.

أرأيت مرابياً بلغ من الإيمان مرتبة تذكر، أم رأيت سارقاً تخشع نفسه عندما يسمع كلمات الله تعالى. ولا فرق بين السرقة وبين المتاجر المحرمة والمعاملات غير المشروعة والنجاح في مهمة باستعمال المكر والخديعة. فكل عضو من أعضاء الإنسان يمكن استعماله في حلال أو حرام. وهذا هو معنى الاختيار. فالعين يمكن استعمالها في الحرام بالنظر إلى أعراض الآخرين ويمكن صرفها عن الحرام بالتجنب عن النظر إلى المحرمات. فقد جاء في الحديث: «الأولى لك والثانية عليك». أي أن الله يغفر لك النظرة الأولى التي جاءت عفواً وأنت آثم في الثانية مدنس فيها نفسك. واليد يمكن استعمالها في دعّ اليتيم وضربه ويمكن استعمالها في المسح على رأس اليتيم وأعمال صالحة أخرى كالكسب والعمل في المعامل وأمثال ذلك. وكذلك الرِجل يمكن استعمالها في الذهاب للسرقة أو دور البغاء، ويمكن استعمالها في حمل الطعام إلى أرملة بائسة أو السؤال عن حال مريض معوز ومساعدته.

وقد بيّن الله تعالى كل ما من شأنه ارتقاء النفس وكل ما من ورائه انحطاط النفس على لسان نبيّه الأمي ﷺ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النّساء: الآية ١٦٥]. وقد أوصى النبي ﷺ أمير المؤمنين علياً عليه السلام بهذه الوصية:

«سر ميلاً عُد مريضاً، سر ميلين شيّع جنازة، سر ثلاثة أميال أجب دعوة، سر أربعة أميال زر أخاً في الله، سر خمسة أميال أجب دعوة الملهوف، سر ستة أميال أنصر المظلوم وعليك بالاستغفار»[1].

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص٣٥٨.

قال الله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: الآية٤٢]

إنما المؤمنون إخوة

يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه المجيد: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٠] فإنما أداة حصر، أي أن المؤمنين لا يكونون إلا إخوة يتوادُّون ويتحابون. يؤازر بعضهم بعضاً ويعاضد أحدهم الآخر. فالإيمان هو الرابطة القوية فيما بينهم. ذلك لأن الإيمان شعور مشترك يجمع القلوب فيقرّب فيما بينها. فكأن الإيمان سيال كهربائي أو خطوط مغناطيسية تؤثر في الكون فتجذب ما يناسبها وإن بعُد التشبيه.

ذلك لأن الإنسان مجموعة طاقات، والمادة تشع فتتحول إلى طاقة. فكما أن المجال المغناطيسي يتأثر بالمجال الكهربائي فيكون بين الجسمين الحاملين لهذين المجالين تقارب أو تباعد كذلك النفوس تتجاذب بعضها مع بعض لو كانت مؤمنة بنفس الدرجة من الإيمان أو مع تفاوت يسير وتبتعد بعضها عن بعض لو كان الاختلاف كبيراً. ووفقاً لهذه النظرية اختار النبيﷺ علياًﷺ أخاً له في الدنيا والآخرة وآخى بين المهاجرين ثم آخى بين المهاجرين والأنصار. ولذلك كان يقول عليﷺ كما يحدثنا النسائي: «أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصدّيق الأكبر»[1].

لو أمررنا تياراً كهربائياً على سلك وعلقنا بجنبه إبرة مغناطيسية لرأيناها تتحرك يميناً أو يساراً حسب جهة التيار، كما هو ثابت في الفيزياء. أي يتأثر المجال المغناطيسي بالمجال الكهربائي، لأنهما من واد واحد على وجه التقرب. كذلك تؤثر النفوس بعضها في بعض، تتباعد أو تتقارب، لأنها أيضاً من مفاهيم القوى.

فكّر في رجل يمشي أمامك تفكيراً مجرداً عن كل شيء إلا في نفس ذلك الرجل، فتراه يدير بوجهه إليك. ذلك لأن نفسك قد أثرت في نفسه فوجهته إليك. على أن هناك قواعد يجب أن تراعى: من قوة النفس ودرجة هيمنتها على نفس أخرى.

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٧، ص٥، باب٤٩.

قد طرد في أمريكا صاحب معمل أحد عماله، وبقى هذا العامل لا شغل له. وتأثر كثيراً، فعمد إلى عمل لعله يؤذي به صاحب المعمل وكان يعلم شيئاً من آثار النفس، فأحضر تصوير صاحب المعمل وأخذ ينظر إليه بحدة ضارباً بمطرقته على سندان بصورة مستمرة، فصار يحس صاحب المعمل بوجع شديد في رأسه ويشعر بضربات في مخه، راجع الأطباء فلم يتمكنوا من معالجته. يئس من الحياة، فأراد أن يسترضى من ظلمه. قيل له: إنك طردت عاملاً لك دونما مبرر. فتوجه إلى بيت العامل ورأى ما كان يقوم به العامل، فأرجعه إلى محله وشُفي مما ألَّم به.

إن هذه الحادثة تعلمنا أن هناك خطوطاً مغناطيسية أو ما يشابهها تأثرت بهذه الدقات العنيفة على السندان، فأثرت في رأس صاحب المعمل وكادت أن تقضي عليه.

فالتجاذب والتحابب والأخوَّة من آثار الإيمان الحقيقي، فكلما زاد إيمان الشخص أصبح له إخوة مؤمنون بصورة طبيعية وهذا من النظم الروحية التي أودعها الله تعالى في الكون.

وقد روي أنه كان يقاس إيمان الشخص في زمن رسول الله ﷺ بحب علي عليه السلام. فكلما كان حب الشخص لعلي عليه السلام أكثر كان إيمانه أقوى، على أن لا يبلغ هذا الحب مرتبة الغلو والتأليه، فقد قال رسول الله ﷺ: «يا علي، هلك فيك اثنان: محب غال وعدو قال»[1].

إني أعتقد أن هناك سيّالاً إيمانياً (كالسيال الكهربائي) يوصل الفرد المؤمن بعلي عليه السلام وهو شمس الإيمان فيحبه. ففي قلب كل مؤمن شعاع من تلك الشمس حسب درجة إيمانه. فقد قال رسول الله ﷺ حين برز علي عليه السلام إلى عمرو بن عبد ود: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله».

فعلي عليه السلام الإيمان كله على حدّ تعبير رسول الله ﷺ والمؤمنون لهم نصيب من هذا الإيمان بدرجة حبهم لعلي، على أن لا يبلغ هذا الحب درجة الغلو، فبعد أن كان موجباً يصبح سالباً، مثال ذلك: (ع = ظاس[2]. وعندما تكون س = ٩٠° -، أو

---

(١) خصائص الأئمة: ص١٢٤ وفيه: مبغض قال.

(٢) لا يخفى أن هذا المثال الرياضي لا ينطبق على الموضوع. وإنما ذكر للتقريب والتوضيح. ولم =

٢٧٠°، ينتقل الظل من ٨+ إلى ٨-) فيكون المغالي مخلداً في النار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النّساء: الآية ٤٨].

ويؤيد ما قلنا ما روي عن النبيﷺ: في حديث قدسي: «إن الله عهد لي في علي عهداً. قلت يا رب بيّنه لي. قال: إن علياً راية الهدى وإمام أوليائي ونور من أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمها المتقين، من أحبني أحبه ومن أطاعني أطاعه»[1].

وعن حلية الأولياء عن النبيﷺ: «قسمت الحكمة عشرة أجزاء. فأُعطي علي تسعة أجزاء والناس جزء واحداً منها»[2].

ترى شخصاً لا تعرفه من ذي قبل، فتحبه حباً جماً وتود أن تجالسه وتعاشره. كلما تفتش عن السبب لا تهتدي إليه. السبب: هو انجذاب الأرواح المؤمنة بعضها إلى بعض بصورة طبيعية.

رآني يوماً مؤمن من أهل الفضل. فقال: إني كنت أحبك عن بعد. وإن حبي إياك يزداد يوماً فيوماً. فلم أقو على الكتمان. وأظن أنا قد تحاببنا في عالم الذر. فأرجو أن تجعل فطورك غداً عند الصباح في بيتي، وقرأ لي هذا الحديث: «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[3]. فالله تعالى ينص الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٠] (الآية) أراد بالمؤمنين أن يكونوا إخواناً يساعد بعضهم البعض.

يحدثنا سعيد بن الحسن عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «أيجيء أحدكم إلى أخيه فيدخل يده في كيسه فيأخذ حاجته فلا يدفعه، فقلت لا، فقال: ليس هؤلاء شيعة... إلى آخر الحديث»[4]... وهذا غاية الكمال في الأخوة، أو ليس ديننا دين الكمال. أو

= نبلغ من العلم درجة تمكننا من وضع قوانين رياضية لقضايا نفسية. ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٨٥﴾ [الإسراء: الآية ٨٥].

(١) بحار الأنوار: ج٢٧، ص٢٠٨، باب٩.

(٢) بحار الأنوار: ج٤٠، ص١٤٩، باب٩٣.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص٣٨٠.

(٤) وسائل الشيعة: ج٥، ص١٢٠، باب٣.

ليس هذا الدين قد جاء به الرسول الأمين ليخرج الناس ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: الآية ١] . وليس النور إلا ما يبلغ إليه الشخص من الكمالات النفسية من توحيد الله والقيام بما أمر به الله.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريَم: الآية ٩٦] . ومعنى ذلك أن الله يحدث في قلوب المؤمنين حباً ووداً للذين آمنوا به تعالى وقاموا بأعمال صالحة. فإن الإيمان والأعمال الصالحة لها آثار طبيعية ذاتية، وهي حدوث مودة طبيعية في قلوب المؤمنين. فقد جاء في الحديث: «من أراد عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فليخرج من ذل معصية الله إلى عزّ طاعته»[1] .

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٣] . النعمة هي نعمة الإسلام ونعمة الإيمان. فالمؤمنون متآخون فيما بينهم بنص القرآن الكريم. لا تباغض بينهم ولا تشاحن بل هم «كالبنيان المرصوص يشدّ بعضهم بعضاً». هذه أخوة المؤمنين في الدنيا. وهناك أخوة أبدية بعد الموت في عالم الخلود في جنة ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣] . وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحِجْر: الآيات ٤٥/٤٧]. فمن لم يدخل في الأخوة الإسلامية، فليس من الإيمان في شيء، وأن الإيمان لم يلج في قلبه.

وعن المفضل بن عمر. قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنما المؤمنون إخوة بنو أب وأم. فإذا ضرب على رجل منهم عِرقٌ سهر له الآخرون»[2] . ومعنى ذلك بأن المؤمنين يتألم بعضهم لبعض وأنهم يعملون ساهرين، لأجل دفع المكروه عن إخوانهم وإسعافهم وإزاحة الكربة عنهم.

نعم، إن المؤمنين يتألم بعضهم لألم الآخر بصورة غير إرادية: (لا عن شعور).

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٤، ص١٣٨، باب٢٢.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص١٦٥، باب أخوة المؤمنين.

ذلك لأن أشعة الإيمان توصل بعضهم ببعض، فيشعر هذا بحزن ذاك، فيحزن، ويشعر بسروره فيسر.

هذا جابر الجعفي يقول: «تقبضت بين يدي أبي جعفر عليه السلام فقلت جعلت فداك: ربما حزنت من غير مصيبة أو أمر ينزل بي حتى يعرف ذلك أهلي في وجهي وصديقي. فقال: نعم يا جابر، إن الله عزّ وجلّ خلق المؤمنين من طينة الجنان وأجرى فيهم من ريح روحه، فلذلك: المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه. فإذا أصاب روحاً من تلك الأرواح في بلد من البلدان حزن حزنت هذه لأنها منه»[1]. وفي حديث آخر: «المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله، لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشه ولا يعده عدة فيخلفه»[2].

إن للإيمان حيوية تربط نفوس المؤمنين بعضها ببعض وتجعلهم كنفس واحدة. وإن هذه الرابطة لا يضاهيها أية رابطة أخرى، هي رابطة معنوية رفيعة أودعها الله الصلحاء من خلقه. وهو قول أبي عبد الله عليه السلام: «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد، إن اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده، وأرواحهما واحدة، وإن روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها»[3]. وهذا حفص بن البحتري يقول: «كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام فدخل عليه رجل. فقال لي: تحبه: فقلت: نعم، فقال لي: ولم لا تحبه وهو أخوك وشريكك في دينك وعونك على عدوك ورزقه على غيرك»[4]. نعم، المؤمنون يخدم بعضهم بعضاً ويفيد بعضهم بعضاً كما هو مضمون الحديث.

إن الدين الإسلامي قد فرض حقوقاً على كل من المؤمنين، عليهم أن يؤدوها وهو قول محمد الباقر عليه السلام: «من حق المؤمن على أخيه أن يشبع جوعته ويواري عورته ويفرج كربته ويقضي دينه، فإذا مات خلفه في أهله وولده»[5].

وهل يتصور البشر أخوَّة أعلى من هذه الأخوة، وهل يتصور سلام في الكون أرفع شأناً من سلام يتأتي من تطبيق الدستور المذكور. نعم، يصل الإنسان إلى تطبيق هذا

---

(١)،(٢) أصول الكافي: ج٢، ص١٦٥، باب أخوة المؤمنين.

(٣)،(٤) أصول الكافي: ج٢، ص١٦٦، باب أخوة المؤمنين.

(٥) أصول الكافي: ج٢، ص١٦٩، باب حق المؤمن.

الدستور حرفياً لو قوي إيمانه وزاد يقينه وصار مظهراً للتقوى والورع. فالكمال: فرع الإيمان ورشحات التقوى وآثار الورع. فمن فتش عن الكمال الإنساني في واد آخر فقد تاه وضل. ولا تطمئن نفس امرئ ولا تعترف بفعالية آثار الإيمان والتقوى فيها إلا إذا كان ممن جرّب وسار في مجالات تكميل النفس بتزكيتها وتحليتها.

هذا معلى بن خنيس يروي عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: «قلت له: ما حق المسلم على المسلم، قال له سبعة حقوق واجبات، ما منهن حق إلا وهو عليه واجب، إن ضيّع منها شيئاً خرج من ولاية الله وطاعته ولم يكن له فيه نصيب. قلت له: جعلت فداك وما هي؟ قال: يا معلى، إني عليك شفيق، أخاف أن تضيع ولا تحفظ وتعلم ولا تعمل. قال قلت له: لا قوة إلا بالله، قال: أيسر حق منها أن تحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك. والحق الثاني: أن تجتنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره. والحق الثالث: أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك. والحق الرابع: أن تكون عينه ودليله ومرآته. والحق الخامس: لا تشبع ويجوع ولا تروى ويظمأ ولا تلبس ويعرى. والحق السادس: أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم، فواجب أن تبعث خادمك فيغسل ثيابه ويصنع طعامه ويمهد فراشه والحق السابع: أن تبر قسمه وتجيب دعوته وتعود مريضه وتشهد جنازته، وإذا علمت أن له حاجة تبادر إلى قضائها ولا تلجئه أن يسألكها ولكن تبادرها مبادرة، فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايته بولايتنا»[1].

هذه درر من درر هذا الدين القويم ولآلئ من لآلئ هذا الناموس العظيم تلألأ بكل وضوح وجلاء. لآلئ لا يصل إلى عمقها فيلسوف تربى في أحضان المادة الدكناء ولا تعيها إلا قلوب زكية وأرواح نقية. ونسأل الله تزكية قلوبنا وتطهير أرواحنا وأن يجعلنا مؤمنين متآخين.

التراحم في الإسلام

يصف الله تبارك وتعالى المؤمنين بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص١٦٩، باب حق المؤمن.

رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: الآية ٢٩] . فالمؤمنون متراحمون فيما بينهم متاعطفون، يرحم بعضهم بعضاً ويعطف كل منهم على الآخر، فإنهم راكعون ساجدون ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ . وأن الركوع والسجود بإخلاص وإقبال ليؤثران في توجيه النفس إلى الله تعالى فتشع منهما أنوار من أنوار الله القدسية فتلطف النفوس وتتدرج في مجالات الكمال فتكتسب الفضائل والمكارم ومنها التراحم والتعاطف. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: الآية ٧١] .

فوصف الله المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض، يتوادون ويتحابون ويتراحمون فيما بينهم. فلا ترى فيهم محتاجاً ولا بائساً ولا مسكيناً. لأن المستطيع منهم يبادر إلى مدّ يد المعونة إلى الضعيف، يفتش عن الفقراء والمساكين ويجهد نفسه في سد حاجاتهم ورفع الكرب عنهم. لماذا؟ لأن المؤمن المتخلق بهذه الأخلاق الكريمة القائم بهذه الأعمال الواجبة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله وإطاعة رسوله ﷺ لا يكون إلا ولي المؤمن الآخر، يساعده ويؤازره ويضحي بنفسه ونفيسه في سبيل إنقاذه مما أصابه، حتى يكون موضع رحمته تعالى. لقوله تعالى: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: الآية ٧١] فإن الحياة الاجتماعية السعيدة لا تتحقق إلا إذا توادت القلوب وتراحمت وتعاطفت. وإن التراحم لا يحصل إلا إذا تمركز الإيمان في قلوب الناس وكانوا مؤمنين حقاً.

إن القوانين المدنية الحاضرة أو التربية الاجتماعية الخالية من الأسس الروحية ومن التوجيهات النفسية الدينية لا تقوى على ربط أفراد المجتمع ربطاً عميقاً يؤدي إلى سعادة الدارين. ذلك لأن هذه القوانين قيود ميكانيكية لا تلج النفوس ولا تربيها تربية تجعلها متآزرة متحابة متراحمة فيما بينها. ولا شك أن أقل حظ للأمة من الأخلاق ما أمرت به القوانين المدنية وقامت الشرطة بحراسته. فخير رابطة تربط البشر بعضهم ببعض هي رابطة الإيمان. يقول (گوستاو لوبون): «من الخطأ الضار محاولة بناء الأخلاق على المعقول وحده كما ذهب إليه كثير من الفلاسفة، لأنه إذا لم يكن للأخلاق سند من المشاعر والروح الديني، فلا بقاء لها ولا قوة». وقد فاته أن ما جاء

في الدين الإسلامي من الأسس الأخلاقية، منطقي معقول يتفهمه المؤمن بنور الإيمان ويعمل به بتساند عقلي. إذ أن دين الإسلام دين العقل. وكل ما أمر به الدين أمر به العقل المتكامل. فإذا كان العقل لا يدرك حكمة بعض الأوامر الدينية فذلك لنقص فيه. وكم من الأوامر الدينية قد ظهرت حكمها بعد تقدم العلوم والفنون وكان يحار الإنسان في تعليلها قبل ذلك. نعم، إن حضارة الأمة في المقياس الصحيح تتناسب مع مقدار تمكنها من ضبط نفسها وقيامها بواجباتها الأخلاقية. تلك الأخلاق التي أقرها الدين الإسلامي، تلك الأخلاق التي لا يصل البشر إلى تأسيسها مهما تكاملت نفسه، تلك الأخلاق التي تجعل الإنسان أعلى منزلة من الملائكة.

قال الصادق عليه السلام: «إن أشد ما فرض الله على خلقه ثلاثة: إنصاف المرء من نفسه حتى لا يرضى لأخيه من نفسه إلا بما يرضى لنفسه منه، ومواساة الأخ في المال، وذكر الله على كل حال. . ليس سبحان الله والحمد لله ولكن عندما حرم الله عليه فيدعه»[1]. يريد الإمام الباقر عليه السلام بذلك أنه لا ينبغي للمؤمن أن يكتفي بقوله: سبحان الله والحمد لله، بل عليه أن يذكر الله عند كل ما حرمه الله عليه: من استعمال الحيل في الربا، والكذب ومخادعة المؤمن في المعاملة ومطالبة أخيه المؤمن ما ليس له. إن المؤمن يواسي أخاه المؤمن في المال، ويساعده ويقرضه. فلماذا نرى أناساً يحملون اسم الإسلام، فإذا أتتهم امرأة بائسة بذهب لها يسير، تريد أن ترهنه لديه كي تستقرض مبلغاً لأداء كراء دار حقيرة، فيجيب بخشونة: ليس عندي شيء ولكن إن كنت ترجعين المبلغ وزيادة فإني مستعد لذلك، مع أن لهذا الرجل كسباً يكتسب به أو صنعة يعيش من ورائها، وإن لم يكن هذان متوفرين لديه فإن أبواب الكسب مفتوحة له. ماذا تصنع هذه المسكينة؟ تأخذ من هذا المرابي[2] (١٢) ديناراً مثلاً وترجع إليه بعد ٣ أشهر (١٥) ديناراً فتكون قد دفعت ربحاً قدره مائة في المائة بحساب السنة. أهذه هي المواساة في المال؟ ألم ينه الله عن الربا وتوعد عليه العذاب الشديد. ألم يقل (جلَّ من قائل): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص١٧٠، باب حق المؤمن.

(٢) المرابي: آكل الربا.

ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ [آل عِمران: الآيتان ١٣٠/ ١٣١]. ألم يبلغه هذا الحديث: «درهم ربا عند الله أعظم من سبعين زنية بذات محرم في بيت الله الحرام»[١].

نعم، إن للمؤمن على المؤمن حقوقاً يجب عليه أن يؤديها حتى يستحق لقب الإيمان. وليست العبادة الصلاة والصوم والحج... فحسب، بل تتجلى العبادة في كل عمل اجتماعي أمر الله به، فيه التحابب والتوادد والتراحم والتعاطف وإيجاد حياة اجتماعية سعيدة. وهو قول أبي عبد الله عليه الصلاة والسلام: «ما عبد الله بشيء أفضل من أداء حق المؤمن».

هذا دين جعل القيام بأداء حقوق المؤمن أفضل العبادات وأجلها. أفلا يجدر بالعالم أن يتخذ هذا الدين ديناً عالمياً وتربية عالمية لإنقاذ هذا البشر مما ينتابه من شرور وويلات؟ أفلا يليق بفلاسفة الأخلاق وعلمائها أن يجتمعوا أياماً وأشهراً وأن يتتبعوا هذا الدين بإمعان وإنعام وأن يتفقهوه بتبصر وأرواح مجردة عن العصبية والحمية الجاهلية فيقرؤا «الإسلام» كدين عالمي ويجبروا الحكومات على تقبله وتطبيقه.

نعم، من نواميس هذا الدين ما يقول جعفر الصادق عليه السلام: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يخونه، ويحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض، حتى تكونوا كما أمركم الله عزّ وجلّ رحماء بينكم متراحمين، مغتمين لما غاب عنكم من أمرهم.. على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله»[٢].

هذا دين اجتماعي يجمع بين سعادة الفرد وسعادة المجتمع وسعادة الإنسان بعد الموت تلك السعادة التي تستغرق ملايين السنين، لا نفاد لها ولا انتهاء. تلك السعادة التي هي فوق حدود التصور ودائرة التفكير. نعم، لا يمكن الوصول إلى هذه السعادة إلا إذا طُبق دستور أبي عبد الله عليه السلام وهو القائل: «اتقوا الله وكونوا أخوة بررة متحابين في الله، متواصلين، متراحمين، تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا أمرنا وأحيوه»[٣].

ونسأل الله التوفيق للإيمان الصادق والأخوة الكاملة والتحابب والتواصل

---

(١) الكافي: ج٥، ص١٤٤، باب الربا.

(٢)،(٣) أصول الكافي: ج٢، ص١٧٤، باب حق المؤمن.

والتراحم والتزاور والتلاقي وإحياء أمر الأئمة الأطهار عليهم الصلاة والسلام.

التآلف في الإسلام

الإسلام دين الألفة والتوادد والتحابب في الله، دين الاجتماع والتعاون والتعاضد، دين لو عمل بنواميسه وطبقت قوانينه ونظمه لرأيت الأرض جنة من الجنان وفردوساً، كان يحلم به أفلاطون، بل فوق ما كان يتصوره أفلاطون وغير أفلاطون من الفلاسفة بدرجات. ذلك لأن ما كان منبعه فياضاً، منبعه الإفاضات الربانية لا ينضب ولا يغور بل يزداد بصورة لا تتناهى نحو الكمال إذ أن المنبع الفياض لا نهاية له ولا أمد. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعرَاف: الآية ٩٦]. ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤].

إن الله تعالى يقول في مقام الإمتنان على المؤمنين بنعمة الألفة معظماً شأن الائتلاف: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفَال: الآية ٦٣]. وهو القائل: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ أي بنعمة الألفة. ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٣]. إن هذا لدستور هام للأمم الإسلامية يأمرهم بوجوب الاتحاد والاتفاق متمسكين بحبل الله المتين جميعاً وهو دينه القويم، عاملين به، غير منحرفين عنه قيد شعرة. وقد قدم التمسك بحبل الله والتدين بدينه القويم على عدم الفرقة، مشيراً إلى أن التمسك بالدين تمسكاً صحيحاً يؤدي إلى عدم الفرقة وتمام الألفة، لأن الإيمان يلقي في النفس الإنسانية نوراً يتجاذب مع بقية الأنوار الإيمانية التي تماثله، فألفة المؤمنين أمر طبيعي وخاصية طبيعية كخواص الأجسام المادية.

انظروا ماذا يقول سيد البشر المربّي الأعظم خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ في هذا المقام: إنه صلوات الله عليه يقول: «المؤمن ألف مألوف ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف»(١). وهذا هو السر في أن الدين الإسلامي يرغب الناس كثيراً في التسليم والمصافحة والمعانقة.

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٢، ص١٥٨، باب١٠٥.

قال رسول الله ﷺ: «أولى الناس بالله تعالى وبرسوله من بدأ بالسلام». فإن رسول الله ﷺ والأئمة الأطهار ﵈ كانوا يبدأون الناس بالسلام مع مقاماتهم الرفيعة التي انحصرت فيهم، فإن البدء بالسلام يكسر كبرياء النفس وغرورها. ولا يبعد العبد عن الإفاضات الربانية شيء كالكبرياء والتبختر. وقال علي ﵇: «لا تَغضبوا ولا تُغضِبوا، أفشوا السلام وأطيبوا الكلام. وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[1] وقد جاء في الحديث: «مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين يغسل أحدهما الأخرى».

«ما تلاقى المؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيراً».

إن علياً ﵇ صاحب ذات ليلة مسيحياً في الكوفة، وهو خليفة المسلمين، حتى كانا في مفترق الطريق، فلم يفارقه عليٌّ ﵇ بل صاحبه ماشياً نحو بيت المسيحي على مسافة ما، ثم ودّعه وأمَّ الرجوع، فقال له المسيحي: ظننت أن لك في هذه الحارة شغلاً، فقال ﵇ ما مؤداه: كلا، بل من شأن المصاحب أن يشايع صاحبه إلى مسافة ما. هذه أخلاق خليفة المسلمين مع مسيحي وهو قانون رائع يجب أن يقتدى به. فإن الإسلام إنما جاء لإتمام مكارم الأخلاق.

ثم إن الدين الإسلامي قد نص على أن تكون الألفة مع مؤمن يذكر الله ويذكّر الله. لأن الألفة كثيراً ما تؤدي إلى الفساد والإفساد. فكم من أناس بسطاء اكتسبوا صفات ذميمة وأخلاقاً سيئة بنتيجة الألفة والمصاحبة، لأنهم لم يفكروا في ديانة المصاحب وأخلاقه ونبله، وإن هذه النقطة الدقيقة يجب أن تلاحظ في عنفوان الشباب ودور المراهقة حيث تتهيج في الشباب أحاسيس شتى وميول عدة. فإن صادق أصدقاء طيبين أتقياء سلم واجتاز هذه المرحلة العصيبة بسلام وإلا وقع في أشراك شياطين الإنس حيث الهوة السحيقة والتسافل المرير. فخير لشاب لا يجد صديقاً تقياً نجيباً أصيلاً أن يبقى وحيداً فريداً لا يعاشر أحداً. فإن العزلة خير من الوقوع فيما يدنس النفس الإنسانية ويلوثها ويبعدها عن الساحة القدسية الإلهية. لذلك يقول رسول الله ﷺ: «عاشروا من يذكّركم الله». وفي حديث آخر «لا تجالس شرّاب الخمر فإن اللعنة إذا نزلت عمّت من في

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٦٤٥، باب التسليم.

المجلس»[١]. وفي حديث آخر: «الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله».

فترون أن الألفة مقيدة بذكر الله وطاعة الله وإقامة حدود الله، وقد قال الصادق عليه السلام: «إن المسلم إذا رأى أخاه كان حياة لدينه إذا ذكر الله»[٢]. وقال عليه السلام لأبي خديجة: «كم بينك وبين البصرة؟ قال: في الماء خمس، إذا طابت الريح، وعلى الظهر ثمان أو نحو ذلك. فقال ما أقرب هذا، تزاوروا ويتعاهد بعضكم بعضاً، فإنه لابد يوم القيامة من أن يأتي كل إنسان بشاهد يشهد له على دينه»[٣].

وقد نهى الدين الإسلامي عن التباغض والتدابر وهو القائل: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣]. وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث، والسابق إلى كلام أخيه أسبقه إلى الجنة»[٤]. ويراد من الأخ هنا: الأخ المسلم. وكم رأينا إخواناً من أبوين هجر أحدهم الآخر لأمر تافه. ولو رجعوا إلى عقولهم لعلموا أن الشيطان هو الذي ألقى بينهم العداوة والبغضاء وأرادهم متفرقين، متباغضين.

جاء في أعمال ليلة القدر أن أول عمل وأفضل عمل يقوم به المؤمنون هو قلع الضغائن والأحقاد من القلوب. قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث». وقال أيضاً: «أيما مسلَمين تهاجرا فمكثا ثلاثاً لا يصطلحان إلا كانا خارجَين من الإسلام ولم يكن بينهما ولاية، فأيهما سبق إلى كلام أخيه كان السابق إلى الجنة يوم الحساب». فحريّ بكل مسلم حدث بينه وبين مسلم آخر أحنة أو سوء تفاهم أن يسبق إلى منزله، يسلم عليه ويتفاهم معه ويقلع الإحنة والبغضاء بكلمات طيبة، لا تأخذه في الله لومة لائم، فيكون هو السباق إلى الجنة.

أنظروا ماذا يقول الصادق عليه السلام في هذا المقام: «لا يفترق رجلان على الهجران إلا استحق أحدهما البراءة واللعنة، وربما استوجب ذلك كلاهما. فقال له، معتب. جعلني

(١) مستدرك الوسائل: ج٨، ص٣٥١، باب ٢٧.

(٢) روضة الكافي: ج٨، ص٣١٥.

(٣) روضة الكافي: ج٨، ص٣١٥.

(٤) وسائل الشيعة: ج١٢، ص٢٦٣، باب ١٤٤.

الله فداك، هذا الظالم، فما بال المظلوم؟ قال: لأنه لا يدعو أخاه إلى صلته ولا يتعامس[١] له عن كلامه. سمعت أبي عليه السلام يقول: إذا تنازع اثنان فعازّ أحدهما الآخر، فليرجع المظلوم إلى صاحبه حتى يقول لصاحبه: أي أخي، أنا الظالم، حتى يقطع الهجران بينه وبين صاحبه، فإن الله تعالى حكم عدل يأخذ للمظلوم من الظالم»[٢].

هل يتصور إنسان أن هناك دستوراً يولف بين الناس أعظم من هذا الدستور الإلهي، يأتي الصديق المظلوم إلى صديقه الظالم فيتهم نفسه ويقول أنا الظالم، ليرفع ما بينهما من تشاحن وتباغض، فيحزن الشيطان إذ ذاك. إذ أنه لتباغض المسلمين بالمرصاد. فقال أبو عبد الله عليه السلام: «لا يزال إبليس فرحاً ما اهتجر المسلمان، فإذا التقيا اصطكت ركبتاه وتخلعت أوصاله، ونادى يا ويله، لما لقي من الثبور»[٣].

قال الباقر عليه السلام: «إن الشيطان يغري بين المؤمنين ما لم يرجع أحدهم عن دينه، فإذا فعلوا ذلك استلقى على قفاه وتمدد وقال: فزت. فرحم الله إمرءً ألف بين وليين لنا، يا معاشر المؤمنين تآلفوا وتعاطفوا»[٤].

ومن أفضل أنواع التآلف، إصلاح ذات البين وإدامة المودة والمحبة بين الأرحام. فإن علياً عليه السلام يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام وإن البغضة حالقة الدين، وفساد ذات البين ولا قوة إلا بالله، أنظروا ذوي أرحامكم، فصلوهم، يهون الله عليكم الحساب»[٥].

وقال عليه السلام: «عليكم بالتواصل والتباذل والتبارّ وإياكم والتقاطع والتدابر والتفرق، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب»[٦]. يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟

---

(١) لا يتعامس ـ لا يتفاضل ولا يتجاهل.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٣٤٤، باب الهجرة.

(٣)،(٤) أصول الكافي: ج٢، ص٣٤٦، باب الهجرة.

(٥) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص١٨٩، باب رسم الوصية.

(٦) الكافي: ج٧، ص٥١، باب صدقات النبي صلى الله عليه وآله.

وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة: الآيتان ٢٢٤/ ٢٢٥].

التزاور في الإسلام

الإسلام دين جامع لجميع الكمالات التي تؤدي إلى كمال الفرد وكمال المجتمع، وليس ديناً يأمر بالعبادة فحسب. فالمؤمن مستجمع لجميع الكمالات الفردية والاجتماعية وما به يكون الإنسان إنساناً كاملاً.

وقد زعم بعض من أخذ طرفاً من مدينة الغرب وآدابها الاجتماعية أن الإسلام: دين زهد وانزواء وجمود وخمول، وأنه لا يصلح لتحقيق مدنية فاضلة تؤدي إلى تكامل الأمة وسيرها في ساحات الرقى والتقدم، وأخذ يلتمس الرقي في تقليد الغرب ـ تقليداً أعمى ـ في حياته الاجتماعية الخالية من أسس الكمال، تلك الحياة العارية عن الأسس الروحية والفضائل العليا التي يبلغ بها الإنسان ذروة الكمال. كل ذلك لجهله نواميس الإسلام وآداب الإسلام وأوامره ونواهيه. ذلك لأن المدارس لم تهتم بهذه الناحية وأهملتها إهمالاً أدى إلى مقت الشاب، الدين الإسلامي وطلبه السعادة والنور في أحضان الغرب.

نعم، إن طالبنا ليعلم عن جبال استراليا وجزر الفليبين أكثر مما يعلمه عن دينه: ذلك الدين الذي منَّ الله تبارك وتعالى به عليه من بين سائر الأمم، وبعث نبيه ﷺ في خير بقاع الأرض وهي مكة المكرمة. ولا تزال مدارسنا لا تدرس الدين الإسلامي تدريساً يشبع الطالب بحقائقه وجلائل سننه وتعاليمه وكم مدرساً تجدون في العراق قد أحاط بفلسفة الدين الإسلامي وعمل به عملاً يستوجب الاقتداء والاتعاظ.

ولم يحصل هذا التبلبل في العقائد وهذه الاتجاهات الباطلة الفاسدة والمبادئ الهدامة إلا من جراء عدم وجود مدرسين أكفاء يدرسون الدين الإسلامي في المدارس بعقيدة راسخة وإيمان رصين مع تطبيق حقيقي. وعدم تخصيص حصص كافية تتناسب وسعة هذا الموضوع الحيوي.

بديهي أن الإنسان لا يخلو من اتجاه، كما لا يخلو مكان على وجه الأرض من

هواء بصورة اعتيادية. فإن لم يتجه الفرد إلى الحق والصواب، فهو متجه لا محالة إلى الباطل والفساد: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٣] .

أنظروا إلى ما يقوله هذا الدين القويم في حسن التعارف وإيجاد حياة سعيدة اجتماعية. قال رسول الله ﷺ: «ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجراً وأحبهما إلى الله عزّ وجلّ أرفقهما بصاحبه»(١) . . هذا دين يوفق بين سعادة المجتمع وسعادة الفرد بربط أعمال الفرد إلى الله وتقريبه إليه.

ويقوّي رابطة العبد والمعبود إلى حد بعيد. لأن الكمال الإنساني يتناسب مع قوة هذه الرابطة. ومن أين يستقي هذا الإنسان المخلوق من نطفة مذرة الفضائل والكمالات؟ أليس من خالقه العظيم المنعم المتفضل المنان، وهو القائل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسَان: الآية ٢] .

الغربي لا يدخل ضمن روابطه الاجتماعية مفهوم التقرب إلى الله والقيام بالأعمال الصالحة لوجه الله، بل روابطه نفعية مادية حالكة، لا يرجو من ورائها إلا المنافع الخسيسة، فهي مظلمة، قاتمة دكناء. ألا ترى أن الغربي إذا فكر في مصيره بعد الموت تختلج أعصابه وترتبك أفكاره، فيزيحها بخمرة أو مجلس قمار أو رقص، فيدنس بها نفسه أكثر مما هي عليه كي لا يشعر بمصيرها: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحَشر: الآية ١٩] .

وعن أنس قال: «كان الرسول ﷺ إذا افتقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له وإن كان شاهداً زاره وإن كان مريضاً عاده»(٢) .

وعن أبي حمزة عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «من زار أخاه لله لا لغيره التماس موعد الله وتنجز ما عند الله، وكل الله به سبعين ألف ملك ينادونه ألا طبت وطابت لك الجنة»(٣) .

هذا خيثمة يقول: دخلت على أبي جعفر «وهو الإمام الباقر عليه السلام» أودعه فقال: يا خيثمة، أبلغ من ترى من موالينا السلام، وأوصهم بتقوى الله العظيم، وأن يعود غنيهم على فقيرهم، وقويهم على ضعيفهم، وأن يشهد حيّهم جنازة ميّتهم، وأن يتلاقوا في

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص١٢٠، باب الرفق.

(٢)،(٣) أصول الكافي: ج٢، ص١٧٥، باب زيارة الإخوان.

بيوتهم، فإن في لقيا بعضهم بعضاً حياة لأمرنا، رحم الله عبداً أحيا أمرنا، يا خيثمة أبلغ موالينا: إنا لا نغني عنهم من الله شيئاً إلا بعمل، وأنهم لن ينالوا ولايتنا إلا بالورع. وأن أشد الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره»[١].

هذا دين جعل زيارة الإخوان في الله بمثابة زيارة الله على سبيل المجاز تعظيماً لشأن المؤمن واهتماماً بالتربية الاجتماعية. فقد قال جعفر الصادق عليه السلام: «من زار أخاه في الله، قال الله عزّ وجلّ: إياي زرت وثوابك علي ولست أرضى لك ثواباً دون الجنة»[٢].

فهذه الزيارة لله وفي الله وابتغاء لوجه الله الكريم. لا يرجى من ورائها تثبيت في وظيفة حكومية أو مقدمة لنيل درجة أو مقام من المقامات أو جلب نفع مادي، بل يؤتى بها أداء لحقوق المؤمن فحسب وتعظيماً لشأنه.

هذه زيارة لا يتخللها غيبة ولا اتهام ولا افتراء. هذه زيارة لا ترى فيها محلاً للقمار والميسر ولا أثراً للخمرة ونظرات السوء. هذه مجالس لا ترى فيها التلذذ بأعراض الآخرين من رقص وغرام وتغزل بالباطل. هذه مجالس يذكر فيها اسم الله تعالى ويتخللها تسبيح وتحميد والتحدث في ما بهم المسلمين وقضاء حوائجهم. هذه مجالس تذكر الآخرة وتوجه الإنسان إلى محاسبة نفسه فقد جاء في الحديث: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا. وزنوها قبل أن توزنوا»[٣]. هذه ليس تكفر عن الذنوب بما يتخللها من إنابة واستغفار فقد جاء في الحديث: «عاشروا من يذكركم الله رؤيته». هذه مجالس ينظر إليها الله بنظر الرحمة ويتغمدها بعظيم ألطافه.

نعم، في هذه المجالس تزاور يصفه أبو عبد الله عليه السلام بقوله: «من زار أخاه في الله في مرض أو صحة لا يأتيه خداعاً ولا استبدالاً، وكّل الله به سبعين ألف ملك ينادون في قفاه أن طبت، وطابت لك الجنة. فأنتم زوار الله وأنتم وفد الرحمن حتى يأتي منزله. فقال له بشير (وهو أحد أصحابه) جعلت فداك. فإن كان المكان بعيداً؟

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص١٧٥، باب زيارة الإخوان.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص١٧٦، باب زيارة الإخوان.

(٣) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٩٩، باب ٩٦.

فقال عليه السلام: نعم يا بشير، وإن كان المكان مسيرة سنة، فإن الله جواد، والملائكة كثيرة يشيّعونه حتى يرجع إلى منزله»[١].

أنظروا إلى أثر وزيارة الإخوان في حسن العاقبة فإن الإمام محمداً الباقر عليه السلام يقول: «إن لله عزّ وجلّ جنة لا يدخلها إلا ثلاثة: رجل حكم على نفسه بالحق، ورجل زار أخاه المؤمن في الله، ورجل آثر أخاه المؤمن في الله»[٢]. فإن «لقاء الإخوان مغنم جسيم وإن قلُّوا»[٣] كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

لا أعلم نظاماً اجتماعياً أعلى من هذا النظام يكفل سعادة النشأتين ويبلغ بالإنسان إلى أقصى حد من مراتب الكمال، ولا أرى تحاباً فوق التحابب في الله ولله، ولا أرى فضيلة أسمى مما نصت إليه التعاليم الإسلامية الرفيعة. ونسأل الله تطهير القلوب وتوفيق التحابب والتراحم والتزاور في الله... وما أحوج العالم الإسلامي إلى التفاهم والتآزر وصرف هذه الطاقات التي تتجلى فيها الإيمان لدعوة شاملة ورفع لواء الإسلام في أصقاع الأرض عالياً، حتى لا تكاد تسمع في أية بقعة من بقاع الأرض إلا: قائلاً يقول: لا إله إلا الله. محمد رسول الله...

التعاطف في الإسلام

إذا تداعت أخلاق أمة عاجلها الفناء. لذلك اهتم الدين الإسلامي بتقويم الأخلاق اهتماماً بالغاً فوق حدود التصور والخيال وجاء بقوانين متينة مثالية لا يضاهيها أي دستور بشري. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». فإنما أداة حصر، أي إن علة بعث الرسل وإرسال نبينا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله إنما هي تكميل مكارم الأخلاق وإبلاغ الإنسان إلى آخر حد ممكن من الكمالات الأخلاقية، لكي يخرج من هذه الدنيا زكياً تقياً طاهراً حرياً ليحشر مع: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النّساء: الآية ٦٩].

---

(١)،(٢) أصول الكافي: ج٢، ص١٧٧، باب زيارة الإخوان.

(٣) أصول الكافي: ج٢، ص١٧٩، باب زيارة الإخوان.

فمن جملة تلك الأخلاق المثالية الفاضلة ما يرويه محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن محمد بن سنان عن كليب الصيداوي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «تواصلوا وتباروا وتراحموا وكونوا إخوة بررة كما أمركم الله عزّ وجلّ»[1].

هذا دستور اجتماعي قويم لو عمل به المسلمون لأضاؤا العالم بأنوارهم ولكانوا خير وسيلة لإخراج البشر من دياجير المادية الدكناء.

فعلى المسلمين أن يربوا أولادهم منذ نعومة أظفارهم على التراحم والتعاطف والتوادد والتحابب بصورة عملية: يرسل الوالد ولده لمساعدة جاره العاجز في شؤونه البيتية، أو يرسل معه ثيابه التي لا يحتاجها إلى أناس فقراء، أو يرسل معه ما فضل من طعامهم إلى بيت مسكين من المساكين أو يعطيه مبلغاً فيقدمه إلى مقعد أو ذي عاهة لا يطيق عملاً. وليعلم ولده أن يجعل عمله هذا لوجه الله الكريم وأن يرجو بذلك رضا الله تبارك وتعالى. فإن كثيراً من الناس يقومون بأعمال صالحة ولكنهم لجهلهم أو ظلمة نفوسهم لا يقومون بها ابتغاء مرضاة الله تعالى بل خدمة للإنسان. فإن هؤلاء قد يجازون إزاء خدمتهم هذه جزاءاً حسناً في الدنيا من عزّ دنيوي ورفاهية وصحة وطول في العمر ولكن ليست لهم مكافأة أخروية بعد الموت، ولا يفيدهم عملهم الصالح ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعراء: الآيتان ٨٨/ ٨٩]. في يوم ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [المعارج: الآيات ١١/ ١٨]. في ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [يس: الآيات ٣٤/ ٣٧]. ذلك لأن كمال النفس الإنسانية إنما يحصل بتوجهها إلى الله تعالى وشكرها لله وخضوعها لله وربط الأعمال كلها إلى الله. وكلما قويت هذه الرابطة ـ أي الرابطة بين العبد والمعبود ـ سطعت من الأنوار الإلهية على العبد أنوار قدسية وسار العبد في ساحات الكمال بسرعة متناهية وخرج من عالم الناسوت وتخلص من براثن المادة العمياء، وما بينها تفسير لقوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص١٧٥، باب التراحم.

تَجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [اللّيل: الآيات ١٩/ ٢١]. فإن رضا الله تبارك وتعالى منوط بأن تكون الأعمال الصالحة ابتغاء لوجهه الكريم وتقرباً إليه، ولا تفيد الخدمات الإنسانية المجردة عن روح الشكر والتقرب إلى الله تعالى.

ويا حبذا لو قامت المدارس بتأسيس جمعيات إسلامية أو لجان للإرشاد الديني لتطبيق ما جاء في الدين الإسلامي من أحكام التراحم والتعاطف بصورة عملية؛ تجمع هذه الجمعية أو لجنة الإرشاد الديني من الطلاب الأغنياء بعض المبالغ اليسيرة وما خلق (بلى) من ثياب وحذاء فتذهب بها إلى بيوت الأرامل والأيتام، فتقدمها بكل احترام وبآداب إسلامية وتعمل في إقامة الصلاة داخل المدرسة وفي المساجد وإلقاء خطب دينية، إلى ما هنالك...

قال أبو عبد الله عليه السلام: «إن من حق المؤمن على المؤمن المودة له في صدره والمواساة له في ماله والخلف له في أهله والنصرة له على من ظلمه، وإن كان نافلة في المسلمين وكان غائباً أخذ له بنصيبه، وإذا مات، فالزيارة إلى قبره، وأن لا يظلمه وأن لا يغشه وأن لا يخونه وأن لا يخذله وأن لا يكذبه وأن لا يقول له أف، وإن قال له: أف، فليس بينهما ولاية، وإن قال له. أنت عدوي فقد كفر أحدهما، وإذا اتهمه انماث الإيمان في قلبه كما ينماث[1] الملح في الماء»[2].

فترون أن الإيمان يتناسب مع القيام بالواجبات الأخلاقية، فكلما قام الإنسان بالواجبات الأخلاقية لوجه الله الكريم وطلباً لمرضاته تعالى قوي إيمانه وزاد يقينه وكلما تماهل وتكاسل في تطبيق الأوامر الأخلاقية الإسلامية ضعف إيمانه وتضعضع يقينه.

هذا أبان بن تغلب كان يطوف مع أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام حول البيت والطواف أمر واجب لا يتم الحج إلا به. فعرض له رجل يسأله حاجة يريد به الذهاب معه، فكره أن يدع أبا عبد الله عليه السلام ويذهب لقضاء حاجة أخيه المؤمن، وقد أشار إليه صاحب الحاجة مرة ثانية. وإذا بأبي عبد الله عليه السلام يراه، فأمر أبان بن تغلب بقطع

---

(١) إنماث: ذاب.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص١٧١، باب حق المؤمن.

الطواف والذهاب إلى قضاء حاجة الأخ المؤمن، ولو كان هذا الطواف الفريضة. ثم يسأل أبان الإمام عليه السلام عن حق المسلم، فيجيب عليه السلام: حق المؤمن أن تقاسمه شطر مالك. ثم نظر على أبان إمارات التعجب. فيقول الإمام عليه السلام: يا أبان، أما تعلم أن الله عزّ وجلّ ذكر المؤثرين على أنفسهم. فيقول أبان: بلى، جعلت فداك، فيقول الإمام عليه السلام: «أما إذا أنت قاسمته فلم تؤثره بعد، إنما أنت وهو سواء إنما تؤثره إذا أنت أعطيته من النصف الآخر»[1]. وقد جاء في حلية الأولياء: أن زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام قاسم الله ماله مرتين، يقول محمد بن عجلان: كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام فدخل رجل فسلم. فسأله كيف من خلفت من إخوانك. قال: فأحسن الثناء وزكى وأطرى فقال له عليه السلام: «كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم. فقال: قليلة. قال: فكيف مساعدة أغنيائهم لفقرائهم. قال: قليلة قال: فكيف صلة أغنيائهم لفقرائهم في ذات أيديهم. فقال: إنك لتذكر أخلاقاً قلَّ ما هي في من عندنا. قال: فقال عليه السلام: فكيف يزعم هؤلاء أنهم شيعة»[2].

يقول أبو إسماعيل: قلت لأبي جعفر ـ وهو الإمام محمد الباقر عليه السلام جعلت فداك: أن الشيعة عندنا كثير فقال: «هل يعطف الغني على الفقير ويتجاوز المحسن عن المسيء ويتواسون. فقلت: لا فقال: ليس هؤلاء شيعة. إنما الشيعة من يفعل هذا»[3].

وقد سأل مُعلى بن خنيس الصادق عليه السلام عن حق المؤمن فقال: سبعون حقاً. لا أخبرك إلا بسبعة، فإني عليك مشفق، أخشى أن لا تحتمل فقلت بلى، إن شاء الله تعالى. فقال عليه السلام: «لا تشبع ويجوع ولا تكتسي ويعرى وتكون دليله وقميصه الذي يلبسه ولسانه الذي يتكلم به وتحب له ما تحب لنفسك وإن كانت لك جارية بعثتها لتمهد فراشه وتسعى في حوائجه بالليل والنهار. فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايتنا وولايتنا بولاية الله عزّ وجلّ»[4].

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص١٧١، باب حق المؤمن.
(٢)،(٣) أصول الكافي: ج٢، ص١٧٣، باب حق المؤمن.
(٤) أصول الكافي: ج٢، ص١٧٤، باب حق المؤمن.

هذا دين يهتم بشؤون الفرد والمجتمع وإيجاد حياة سعيدة للجميع إلى حد بعيد حتى جعل ذلك من صلب الدين وواقعه، وعدّ ذلك من أفضل العبادات. فإن علياً عليه السلام يقول: «إن لله عباداً يختصهم الله بالنعم لمنافع العباد فيقرها في أيديهم ما بذلوها. فإذا منعوها نزعها منهم ثم حولها إلى غيرهم»[1].

ليست السعادة الحقيقية في جمع المال فحسب، بل في بذله وإنفاقه لوجه الله الكريم. فبذلك تتكامل النفس وتتخلص من براثن المادة وتتصل بالملكوت الأعلى وتكون إنساناً كما يرتضيه الله تبارك وتعالى، ونسأل الله أن يوفقنا إلى إتباع سنة الرسول وآله الأطهار عليهم الصلاة والسلام، فنكون متعاطفين، متراحمين، مؤمنين.

آداب السلام في الإسلام

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النّساء: الآية ٨٦] ومعنى ذلك: لو أن أحداً سلم عليك بقوله: السلام عليك. فيجب عليك إما أن تقول: (السلام عليك ورحمة الله) أو (وعليك السلام ورحمة الله). أو تقول: (وعليك السلام). فإن قلت: (وعليك) ولم تزد فقد عصيت. كل ذلك لأن الدين الإسلامي يحافظ على حقوق الأفراد غاية المحافظة ويريد بالناس ليكونوا شاكرين مقدرين بعضهم حقوق البعض. فالذي يسلم أولاً هو ذو حق وفضل فينبغي أن يجازي بأحسن مما أتى به. وهذا ما يقره العقل ويأمر به الدين الإسلامي. وهل لأحد أن يجد في الدين الإسلامي أمراً أو نهياً أو تكليفاً يخالف العقل المتكامل. وعن ابن عباس في تفسير الآية المتقدمة: «إذا قال المسلم: السلام عليكم، فقلت: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. فقد حيّيته بأحسن منها وهذا منتهى السلام»[2]. وروي: «أن رجلاً دخل على النبي صلى الله عليه وآله، فقال: السلام عليك. فقال النبي صلى الله عليه وآله: وعليك السلام ورحمة الله. فجاءه آخر فقال: السلام عليك ورحمة الله. فقال النبي صلى الله عليه وآله: وعليك السلام

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٣٢٥، باب ١٤.

(٢) بحار الأنوار: ج٨١، ص٢٧٣، باب ١٧.

ورحمة الله وبركاته. فجاءه آخر فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال النبيﷺ: وعليك، فقيل يا رسول الله: زدت للأول والثاني في التحية ولم تزد للثالث فقال: إنه لم يبق لي من التحية شيئاً. فرددت عليه مثله»[١].

روى الواحدي بإسناده عن أبي أمامة عن مالك بن التيهان. قال: «قال رسول اللهﷺ: من قال: السلام عليكم، كتب له عشر حسنات ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله، كتب له عشرون حسنة. ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كتب له ثلاثون حسنة». وقال رسول اللهﷺ: «السلام تطوع والرد فرض»[٢]. ثم الرد ربما يكون من فروض الكفاية ومعنى ذلك: لو أن رجلاً دخل مجلساً وسلم لا على شخص معيّن. فإن رد عليه (السلام) شخص من الجالسين أو أشخاص عدة، سقط التكليف عن الآخرين. وإن خص بالسلام أحداً من الحاضرين فقد تعين عليه الرد. وقال أيضاً: القليل يبدأون الكثير بالسلام والراكب يبدأ الماشي وأصحاب البغال يبدأون أصحاب الحمير. وأصحاب الخيل يبدأون أصحاب البغال. كل ذلك لتعليم الغني التواضع للفقير بما أنعم الله عليه. وقد دلت الأخبار أن رسول اللهﷺ: كان يسلم على النساء ويرددن عليه. وإن السلام على الشابة مكروه تخوفاً من استحسان صوتها. فيدخل على المسلم من الإثم أكثر مما يطلبه من الأجر.

وقد مر رسول اللهﷺ على صبيان فسلم عليهم. وإن الشارع قد أوجب رد السلام وإن كان المخاطب بالسلام في حالة الصلاة الواجبة أو المستحبة. فإن كنت في صلاة وسلّم عليك رجل أو امرأة بأن قال أحدهما: سلام عليكم، وجب أن تقول في الجواب: سلام عليكم. وأن تسمعه. ففي الصلاة تضارب بين حق الله وحق العبد وهو المسَّلم، فالله تعالى لعظيم لطفه آثر حق العبد على حقه وأمر بأن يرد المصلّي السلام وأن يستمر في صلاته من حيث انتهى إليه. وهذا شأن الدين الإسلامي في جميع أحكامه.

وعن أبي عبد الله‌عليه السلام: إذا مرت الجماعة بقوم أجزأهم أن يسلم واحد منهم وإذا

---

(١) بحار الأنوار: ج٨١، ص٢٧٤، باب ١٧.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٦٤٤، باب التسليم.

سلم على القوم وهم جماعة أجزأهم أن يرد واحد منهم. وقد قال رسول الله ﷺ: ابدأوا بالسلام قبل الكلام. فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه. وقال أيضاً: «أولى الناس بالله ورسوله من بدأ بالسلام»[١]. وقال: أبو جعفر الإمام الباقر عليه السلام: «إن الله يحب إفشاء السلام». وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «من التواضع أن تسلم على من لقيت»[٢]. وقال أيضاً: يسلم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير[٣].

هذه آداب يقرها الدين الإسلامي احتراماً لحقوق الأفراد مهما كانت مراتبهم. ومع الأسف نرى بعض المسلمين يغفلون عن تطبيق هذا الدستور الإسلامي الرفيع. نرى أناساً يردون السلام مع شيء من الكبرياء والتبختر أو لا يردونه رداً تاماً، فيكونون آثمين. نرى قسماً من الناس يردون السلام بصوت خشن قائلين: (عليك). أو (عليكم). تكبراً على من تفضل فسلم عليهم. ولا شيء أبغض عند الله من الكبر. فإن الله تعالى يسلب إيمان المتكبر لكبره. فالكبرياء خاصة به تعالى. إن الله تعالى يقول: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦]. وإن الكبر من أصول الكفر ويؤدي إلى ضعف الإيمان بل سلبه. ففي الحديث، أصول الكفر ثلاثة: الحسد والبخل والكبر. ثم يستحسن رد السلام مع البشر والابتسام. فإن المؤمن هشٌ بشٌ. وإن رسول الله ﷺ كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب فلا يحسن بالمسلم أن يرد السلام بامتعاض وخشونة بل يستحب له أن يجازي المحسن مع زيادة لسابق فضله.

قرأت للأستاذ محمد علي الحوماني مقالاً قبل حوالي خمسة عشر عاماً: يقول فيه ما مؤداه: بينما كنت أسير في طرقات لندن، عند الزوال وإذا بي أشاهد رجلاً كبير السن واقفاً على عتبة داره يؤذن لصلاة الظهر، فانتظرت حتى أنهى الأذان. فسلمت عليه قائلاً: السلام عليكم، فأجاب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. عملاً بالآية المباركة: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النّساء: الآية ٨٦]. ثم تعارف معي وطلب إليّ الدخول إلى البيت. فدخلت، فرأيت أنه قام مع عقيلته فصليا صلاة

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٦٤٤، باب التسليم.

(٢)، (٣) أصول الكافي: ج٢، ص٦٤٦، باب التسليم.

الظهر، ثم جلسا على مائدة الطعام وألحا عليَّ أن أتناول معهما الطعام وقد لفت نظري أنهما لم يبدءا بالأكل حتى قالا : (بسم الله الرحمن الرحيم) ولما انتهيا من الطعام، قالا : (الحمد لله رب العالمين). إن الشيخ كان أحد كبار الأساتذة في جامعة لندن، قد اعتنق الدين الإسلامي عن تتبع وتنقيب وبحث عميق. وكم من رجال في الغرب: أولئك الذين لم يلوثوا أنفسهم بالخمور والفجور والمراقص والمجون والربا وأكل لحم الخنزير، اعتنقوا الدين الإسلامي وخرجوا من الظلمات إلى النور. ذلك لأنه لا مجال للضوء والنور (وأعني به الإيمان) من يدخل نفوساً مدلهمة حالكة بالمعاصي والآثام: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: الآيتان ٤٢/٤٣]، لاسيما إذا بلغت النفوس مرتبة من التسافل حتى صارت ترى الحق باطلاً والباطل حقاً، أي بلغت درجة من الانحطاط حتى انطفأت آثار الفطرة، فأمست لا تبصر الحق، بل الحق لديها ما هي عليه من تساهل مرير: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦].

ونرى بعض المسلمين إذا دخلوا مجلساً عند الصباح قالوا: صباح الخير. وقالوا عند المساء: مساء الخير. أو رفعوا أيديهم كعلامة للتحية. فلا يحيون الحاضرين بتحية الإسلام، اقتباساً عما جاءنا من الغرب. ما أثر رفع اليد في جلب الخير للمخاطب. وما معنى صباح الخير؟ أي أرجو أن يكون صباحك خيراً. وما قيمة هذا الرجاء إن لم يقترن بمشيئة الله تعالى. وما قيمة الرغبات الشخصية، والأمر كله لله. فقول المسلم: السلام عليكم ورحمة الله، وتعقيب ذلك بـ (صبحكما الله بالخير) هو إرجاع الصحة والسلامة والخير إلى الله تعالى وطلب ذلك كله للشخص المخاطب، من الله تعالى.

وقد سمعت في لبنان: يقول أحدهم لآخر عند ملاقاته ليلاً: (سعيدة). أي لتكن ليلتك سعيدة. ما أثر هذا الأمل في جعل الليل سعيداً، لو لم يرد الله تعالى ذلك. فالأمور كلها بيده تعالى. فطوبى لمن توكل عليه وعمل بما أمر به، ليفوز بسعادة حقيقية أبدية. إن

المدنية الحاضرة في تحياتها تمثل الدور الجاهلي، فلا تجد لذكر الله فيها أثراً. وإن تقليد الغرب في الآداب الاجتماعية هو الارتجاع (أي الرجعية) بالمعنى الصحيح.

نعم، إنا قد تأثرنا بمدنية الغرب المادية في آدابنا الاجتماعية وأصبحنا مقلدين حتى في ما تعودنا عليه منذ ثلاثة عشر قرناً. إذا دخل الرجل منا قال: مرحباً. عوضاً عن أن يقول: السلام عليكم ورحمة الله. لأنه يرى ذلك أقرب إلى القبول وأطيب إلى القلوب. مع أن الله يريد بنا أن نذكره دائماً كي تتصل أعمالنا وأرواحنا به تعالى ونستقي من ينبوعه الفياض جميع الكمالات التي بها يكون الإنسان إنساناً. فإن «ذكر الله حسن على كل حال». ولم يستثن الشارع موضعاً لا يذكر فيه اسم الله.

ولا ريب أن لذكر الله تعالى أثراً عظيماً في ردع النفس عن غلواتها وشهواتها ونزواتها. فقد جاء في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وجوب التسبيح والتحميد وذكر الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ٤١/ ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الشُّعَراء: الآية ٢٢٧]. وقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٢].

كثيراً ما نجد أناساً تغلغلوا في المدنية الغربية لا يذكرون اسم الله في كل يوم وليلة ولا مرة واحدة. إنهم قد يحترمون آباءهم ويقدسون أمهاتهم وهو ما أمر الله تعالى به: ولكنهم لا يذكرون ولا يعظمون من تفضل عليهم بالآباء والأمهات. وقد جاء في حديث: «لا يزال ينقص من هذا الدين حتى لا يقال: الله».

إن العلامة الفارقة بين المدنية الإسلامية والمدنية الغربية: أن شعار الثانية رفع مفهوم الله عن الحياة الاجتماعية وربط الأمور بحبول مادية مقتضبة خسيسة والاعتماد على الوسائل المادية. ولذلك تتحجز النفس في هذه المدنية فلا تشعر بما وراء الطبيعة ولا تعترف به. ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٤]. وأن هذا البشر لميال إلى رفع القيود والتدهور والتسافل. فيتقبل ما يؤدي إلى التسافل وينطبع عليه أسرع مما يؤدي إلى التعالي والتكامل. وإن المادية بآثارها ومظاهرها

ونتائجها وخلاعتها ومجونها وصحافتها ومسارحها ومراقصها وإعلاناتها تدهور وتسافل. لذلك تجد قبولاً بسائق الغريزة من أناس غلبوا على أمرهم فخالفوا ما تمليه عليهم عقولهم، فتراءت لهم الشهوات بلباس العقل والفكر والثقافة فاتبعوها حتى صاروا لا يشعرون إلى أين هم سائرون. فطوبى لمن حكم عقله ولم تغره المظاهر الخلابة والمناظر الخداعة، المبعدة عن ذكر الله والآخذة بهذا الإنسان المسكين (المغرور بلفظ الثقافة) إلى أسفل سافلين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: الآية ١١٨].

آداب التلاقي في الإسلام

إن الدين الإسلامي قد استوعب كل ما من شأنه إبلاغ البشر إلى أعلى مراتب الكمال. فأعطى حكمه في كل أمر اجتماعي أو خلقي أو حقوقي أو عبادي. حكماً هو غاية الأحكام، حكماً يؤيده العقل السليم، ذلك العقل الذي لم يتلوث بالمدنسات والجرائم، حكماً يصل الإنسان إلى كنهه وحقيقته كلما تكاملت معارفه وسمت نفسه. ومن جملة تلك الأحكام وتلك الآداب ما يقوم به الإنسان الاجتماعي عندما يلاقي إنساناً آخر.

فيستحب أن يلاقي المرء أخاه المسلم بالبشر وأن يبدأه بالسلام وأن يظهر إليه أنه يودّه ويحبه. فعن أبي عبد الله عليه السلام: «مجاملة الناس ثلث العقل»[(١)]. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ثلاث يصفين ود المرء لأخيه المسلم: يلقاه بالبشر إذا لقيه، ويوسع له في المجلس إذا جلس إليه، ويدعوه بأحب الأسماء إليه»[(٢)]. وإن من التواضع: أن يبدأ المسلم أخاه المسلم بالسلام لينال الأجر والزلفى. فـ«البادئ بالسلام أولى بالله وبرسوله» و«من أخلاق المؤمن الإنفاق على قدر الإقتار والتوسع على قدر الوسع وإنصاف الناس وابتداؤه إياهم بالسلام عليهم»[(٣)]. كما جاء في الحديث. وقد نهى الدين الإسلامي عن الكلام قبل السلام، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ابدأوا بالسلام قبل الكلام فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه»[(٤)].

---

(١)،(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٦٤٣، باب التحبب إلى الناس.

(٣) أصول الكافي: ج٢، ص٢٤١، باب المؤمن وعلاماته.

(٤) أصول الكافي: ج٢، ص٦٤٤، باب التسليم.

ومن جملة تلك الآداب: المصافحة. فيستحب أن يصافح المسلم أخاه المسلم، فإن الذنوب تتساقط عنهما، لأن الله يريد بالمسلمين أن يكونوا متحابين متوادين، متآزرين متعاضدين، وهو القائل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٠]. وقد بالغ الدين الإسلامي في ذلك فعد المتباغضين من المؤمنين خارجين عن الإسلام حتى يصطلحا. روى أبو عبيدة الحذاء، قال: كنت زميل أبي جعفر عليه السلام وكنت أبدأ بالركوب ثم يركب هو، فإذا استوينا سلم وساءل مسائلة من لا عهد له بصاحبه وصافح، قال: وكان إذا نزل نزل قبلي، فإذا استويت أنا وهو على الأرض سلم وساءل مسائلة من لا عهد له بصاحبه، فقلت له يا بن رسول الله، إنك لتفعل شيئاً ما يفعله أحد من قبلنا وإن فعل مرة فكثير، فقال: «أما علمت ما في المصافحة، إن المؤمنَيْن يلتقيان فيصافح أحدهما صاحبه، فما تزال الذنوب تتحاتُّ عنهما كما يتحات الورق عن الشجر والله ينظر إليهما حتى يفترقا»[1] وفي حديث آخر: «إن المؤمنين إذا التقيا فتصافحا أدخل الله عزّ وجلّ يده بين أيديهما وأقبل بوجهه على أشدهما حباً لصاحبه، فإذا أقبل الله عزّ وجلّ عليهما بوجهه تحاتت عنهما الذنوب كما يتحاتُّ الورق عن الشجر»[2]. ومعنى أدخل الله عزّ وجلّ يده بين أيديهما. أي أنزل عليهما عظيم رحماته وجزيل بركاته. على حد قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفَتْح: الآية ١٠]. فإن الله تعالى لا يشبه مخلوقاته في شيء: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشّورى: الآية ١١].

فيستحب للمسلم أن يلاقي أخاه المسلم بالتسليم والتصافح وأن يفارقه بالاستغفار، وأن من يلزم التصافح أعظم أجراً من الذي يدع. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا لقيه الرجل فصافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها. وقد عظم الله تعالى أجر المؤمن حتى جعله أعلى منزلة من الملائكة، فقد جاء في الحديث: «مصافحة المؤمن أفضل من مصافحة الملائكة»[3].

كل هذه الآداب، ليستكمل المؤمن مكارم الأخلاق ويتكامل في عالم الوجود. وأهم أدب يتأدب به المؤمن ويقربه إلى الله بل يجعله أهلاً ليكون من المقربين هو

---

(١)، (٢)، (٣) أصول الكافي: ج٢، ص١٧٩، باب المصافحة.

التواضع وقطع الكبرياء عن نفسه، فإن في كثير من النفوس شيئاً من الزهو والكبر والتبختر والتعجرف، ولا تخضع هذه النفس لله الذي خلقها ولا تسجد له ولا تطيعه في عالم التكامل ما لم تقلع داء الكبرياء عنها، فالبدء بالسلام والمصافحة وتعظيم أمر الأخ المؤمن ممهدات لقلع صفة الكبر وقمعها. وإن طرد إبليس عن الساحة القدسية الإلهية لم يكن إلا لتكبره وخيلائه. فـ «أكثر أهل النار المتكبرون»[١] كما جاء في الحديث.

وفي تحف العقول: أن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مرّ برجل من أهل السواد دميم المنظر، فسلم عليه ونزل عنده وحادثه طويلاً، ثم عرض عليه السلام عليه نفسه في القيام بحاجة إن عرضت له. فقيل يا ابن رسول الله أتنزل إلى هذا ثم تسأله عن حوائجك وهو إليك أحوج؟ فقال عليه السلام: «عبد من عبيد الله وأخ في كتاب الله وجار في بلاد الله، يجمعنا وإياه خير الآباء آدم عليه السلام وأفضل الأديان الإسلام ولعل الدهر يرد من حاجتنا إليه فيرانا ـ بعد الزهو عليه ـ متواضعين بين يديه»، ثم قال عليه السلام:

نواصل من لا يستحق وصالنا ... مخافة أن نبقى بغير صديق[٢]

وكان علي بن موسى الرضا عليه السلام إذا خلا ونصبت الموائد أجلس على مائدته مماليكه ومواليه حتى البواب والسائس[٣]. وقد روى الكليني في الكافي أن الرضا عليه السلام دعا يوماً في سفره إلى خراسان بمائدة له، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم، فقال له بعض أصحابه، جعلت فداك، لو عزلت لهؤلاء مائدة، فقال عليه السلام: «مه، إن الرب تبارك وتعالى واحد والأم واحدة والأب واحد والجزاء بالأعمال»[٤].

لنتعلم مكارم الأخلاق من أئمة نوّروا الأرض بنور كمالهم وكانوا مثلاً علياً للفضائل وكمال الصفات، لا في إعطاء الأحكام والتشريع فحسب، بل كانوا في حياتهم العملية فوق ما يملونه من أحكام. فقد روى إبراهيم بن العباس: أن الرضا عليه السلام

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٣٧٨، باب٥٨.
(٢) تحف العقول: ص٤١٣.
(٣) عيوان أخبار الرضا: ج٢، ص١٨٤، باب ٤٤.
(٤) الكافي: ج٨، ص٢٣٠، حديث يأجوج ومأجوج.

ما جفا أحداً بكلام قط ولا قطع على أحد كلامه حتى يفرغ منه، وما رد أحداً عن حاجة قدر عليها، ولا مد رجليه ولا اتكأ بين يدي جليس له قط، ولا شتم أحداً من مواليه ومماليكه ولا تفل قط ولا تقهقه في ضحكه، بل كان يتبسم[١].

نعم، هذه صفات يحق للإنسان أن يدعي بها خليفة الله في أرضه. فقد جعل الله للإنسان مثلاً أعلى لا يعقل أن يتصور مثلاً أسمى منه مهما حلقنا في جو الخيال واستلهمنا العلم والحكمة، ذلك المثل الأعلى هو إنسان قد بلغ مراتب من الكمال، يحق له أن يدعي خليفة الله في أرضه على حد قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البَقَرَة: الآيات ٣٠/٣٣]. فالأئمة الأطهار عليهم السلام هم المثل العليا وخلفاء الله في أرضه.

إن هذه الآيات الشريفة تصرّح بأن أنواع العلوم والمعاني التي لم تصل إليها الملائكة مغروسة في جبلة الإنسان، وإذا كان الإنسان من سمو الفطرة وشرف التكوين في درجة تسجد له الملائكة فأي وازع أقوى من هذا، يزعه عن مقارنة الرذائل ومقارنة الخسائس. وأي دافع أشد منه يدفعه لطلب الغايات البعيدة وبلوغ النهايات القصوى وذلك بالتمسك بالكتاب والعترة الطاهرة عليهم السلام.

لو تتبعتم الدين الإسلامي لرأيتم أنه يهدف في جميع شرايعه ونظمه وتعاليمه إلى تكميل النفس الإنسانية وإبلاغها أعلى مراتب الكمال.

أنظروا كيف يعرف علي عليه السلام الإيمان ويحصره في مقدسات أخلاقية فيها الكمال الإنساني. إنه عليه السلام يقول: «علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك، وأن لا يكون في حديثك فضل عن علمك، وأن تتقي الله في حديث

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٢، ص٢٠٩، باب ١٢٢.

غيرك»[1]. ولا يخفى أن الإنسان لا يبلغ هذه الدرجة من الكمال الأخلاقي إلا بالتقوى ولا تعلم مراتب التقوى ولا تدرك إلا بأداء واجب الشكر لله تعالى، ولا يمكن أداء واجب الشكر إلا بعبادات يتخللها خشوع وخضوع وإقبال نفسي حقيقي. فمن ظن أنه يبلغ مراتب أخلاقية دون أن يعبد الله حق عبادته فهو كـ ﴿أَمْ مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التوبة: الآية ١٠٩].

نعم، إن العبادات واجباتها ومستحباتها، والمدنسات، محرماتها ومكروهاتها وما قرّره الشرع من زكاة وخمس وصدقات واجبة ومستحبة وحج وجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى غير ذلك، توصل الإنسان إلى الغاية العظمى التي خلق من أجلها الإنسان وهي الكمال النفسي، إن الفيلسوف قد يعين بصورة ناقصة المثل الأعلى ولكنه لا يقوى أبداً على عرض الوسائل الناجعة التي يبلغ بها الإنسان إلى تلك المثل العليا. والدليل على ذلك هو نفس الفيلسوف الناقصة، تلك النفس التي لم تخط في مساحات الكمال: في مجالات تزكية النفس وتطهيرها شبراً. فكيف يريد أن يكون مربياً للعالم وهو أحوج الناس إلى التربية النظرية والعملية في حقل الكمال النفسي.

فطوبى لمن وعى الحق والحقيقة وأقبل على نفسه فأصلحها ولم تأخذه في الله لومة لائم، وارتحل من هذه الدنيا بنفس زكية إلى خلود كله سرور وحبور وجله سعادة وهناء لا يتخلله كدر ولا شقاء.

﴿وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٤].

التربية الاجتماعية في الإسلام

الإنسان اجتماعي بالطبع، فلا يمكن أن يعيش بصورة منفردة. ولا بد له من الاجتماع والتعاون. ولكن إن لم يبنَ هذا الاجتماع على أسس مشروعة صحيحة أدى إلى

---

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج٢٠، ص١٧٥.

الفساد والإفساد كما نشاهد اليوم. وقد يشذ الإنسان عن الاجتماع المرضي عند الله تعالى أو لا يؤدي واجبه نحو المجتمع. أو لا يعلم كيف يقوم بواجبه الاجتماعي في كثير من الأحيان. لذلك عنيت الأديان السماوية بالتربية الاجتماعية والأخوة والتراحم والتعاطف والتوادد وصلة الرحم والرفق وإطعام البؤساء والمساكين واكسائهم. وأكملها وخاتمها الدين الإسلامي. فقد اهتم بالتربية الاجتماعية وشؤون المجتمع إلى حد بعيد.

ففي الحديث: «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم». وقال رسول الله ﷺ: «أنسك الناس نسكاً: أنصحهم جيباً وأسلمهم قلباً لجميع المسلمين»[1].

إن المربين لشعورهم بحاجة المجتمع الإنساني وحيوية قوة الاجتماع، فقد أدخلوا التربية الاجتماعية في مناهجهم وخصصوا لها أبحاثاً وفصولاً وكتباً خاصة. إن التربية الفردية أو الاستقلالية كانت قد تغلغلت في المدارس منذ زمن غير بعيد؛ ومن مظاهرها تخصيص رحلة خاصة لكل طالب وخزانة خاصة ومختبر خاص ومجموعة خاصة من نماذج النبات والحيوان والأحجار أو قطعة أرض يزرعها الطالب بيده إلى ما هنالك.

لم يكن هنالك اهتمام خاص بالتربية الاجتماعية. ولكن (فروبل) مؤسس جنينات الأطفال قد تنبه إلى هذا النقص، فقال: «إن المجتمع الحاضر يختلف عن الجمعيات القديمة بأن روحاً تسمى بالروح الاجتماعي. فعلى الأفراد أن يوحدوا المعنوية لينجحوا ويحصلوا على نتيجة محسوسة كما هم فاعلون في الحياة المادية وعلينا تقوية التشبث الفردي في التلاميذ بالألعاب على أن تعقب غاية مشتركة اجتماعية فيكون سرور اللعب مخلوطاً بعمل اجتماعي».

إن الله تبارك وتعالى قد أودع في الطفل جميع القابليات التي من جرائها يكون الطفل فمرداً كاملاً مفيداً لنفسه ولمجتمعه. إلا أن الإنسان لعدم تفهمه الحياة قد يضغط على هذه القابليات فلا يدعها أن تبرز وتنمو. فالوالدان أو المدرسة كثيراً ما يمنعون الأطفال من الألعاب الاجتماعية أو الفعاليات المشتركة الاجتماعية، ساهين إنّ ما من طبيعة أو غريزة أودعها الله تبارك وتعالى في الطفل إلا ولها فائدة تعود عليه وعلى المجتمع بالخير

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص١٦٣، باب الاهتمام بأمور المسلمين.

لو استعملت واستخدمت حسب قوانين يقرها العقل والشرع. كان علماء التربية إلى زمن غير بعيد يعترفون بمبادئ ثلاثة للطفل: بدنية وعقلية وخلقية وقد فاتهم أن يضيفوا عليها المبدأ الاجتماعي الذي أوشك اليوم أن يسود على المبادئ الأخرى.

يقول (جون دوي): الفيلسوف المربي الأمريكي في مقاله: (المدرسة والرقي الاجتماعي): «الجمعية مؤسسة من أفراد يسعون بفكرة واحدة وشعور واحد معقبين غاية مشتركة. فإن اشتراك الآمال والحاجات في الجمعيات مما يزيد في تصادم الأفكار ويؤدي إلى تجاذب متقابل. وإن ما يمنع مدارسنا عن الرقي الاجتماعي خلوها عن الوحدة الاجتماعية في الألعاب والنزه. فالأطفال حين شروعهم بلعب يقسمون الأعمال فيما بينهم ويعينون وظيفة لكل واحد منهم. وإن أفدح نقص في مدارسنا اليوم اهتمامها بتربية الطلاب في بيئة غير جامعة لمزايا اجتماعية». نعم، إن المدارس الحديثة قد أخذت تربي الطلاب تربية اجتماعية بتوزيع مقدمات الدرس ووسائل الإيضاح على ثلة من الطلاب وحملهم على التتبعات المشتركة بشكل اجتماعي. وتشكيل جمعيات مختلفة إلى ما هنالك.

وقد يظن أن التربية الاجتماعية من مكتشفات القرن العشرين، مع أن الدين الإسلامي قد أيد الناحية الاجتماعية إلى حد بعيد. بل إن الدين الإسلامي دين اجتماعي بجميع مظاهره وتعاليمه وذلك بشكل يتناسب مع التكامل الروحي، يتناسب مع الغرض الأسمى الذي خلق الإنسان لأجله. وأي اجتماع خير من اجتماع المسلمين عدة مرات في صلاة الجماعة في جو تعلوه الطمأنينة وتغشاه رحمة رب العالمين.

يعيش الإنسان في حياته اليومية في عالم من عدم المساواة وعالم من منازعات وعداء وبغضاء. وإن حياة الأخوة الإلهية التي تتجلى في صلاة الجماعة تعدل نواقص الحياة الاجتماعية وتلقي دروساً قيمة عن الود والمحبة والمساواة وتدعم قواعد الوحدة ورفاهية الجنس البشري.

إن صلاة الجماعة درس عملي لتطبيق قواعد الإخاء والمودة الإلهية وإيجاد مجتمع متآزر متعاضد على أساس الإيمان الصحيح. وهكذا تتجلى الأخوة الإسلامية في صلاة العيد وصلاة الجمعة والحج وتشييع الجنائز والتزاور والتلاقي والمصافحة والمعانقة.

والفرق الأساسي بين التربية الاجتماعية الإسلامية والتربية الاجتماعية الغربية هو أن التربية الاجتماعية الإسلامية ترمي إلى تربية النفس والبدن معاً، فتزكو النفس وتسير إذ ذاك في ساحات الكمال حيث لا حد ولا انتهاء. وهو التقدم في عالم الصناعة وإيجاد وسائل الراحة فحسب، فلا تنفذ إلى الروح الإنسانية ولا تعمل في تكميلها وتهذيبها وتطهيرها من الدنس والرجس ومن آثارها: هذه الحروب التي لا تبقي ولا تذر.

فجدير بالمسلم أن لا ينخدع بمظاهر الغرب، فإن النفوس غير المؤمنة لا يُرتجى منها الخير، وأن يعلم أن تراثه في عالم التربية وتكامل النفس غنيٌ وغنيٌ جداً ولا يحتاج أن يأخذ شيئاً من الغربي في التربية الاجتماعية والأخلاقية والمدنية ففي شريعة الإسلام الغراء يجد الإنسان الكمال الأخلاقي بأوسع معانيه الفلسفية السامية. ومما يؤسف له أن ثلة من شبابنا يذهبون إلى الغرب لتعلم بعض العلوم الاجتماعية والتخصص فيها! فيحسبون أن ما يمليه الأستاذ أو الدكتور حقائق ثابتة لا شبهة فيها، ويزعمون أن الدين الإسلامي لم يعالج القضايا الاجتماعية ولم يقل فيها قوله الفصل المؤدي إلى الكمال البشري، فيسخرون من الدين ويستهزءون بعلماء الدين ويعبرون عنها بكتب صفراء شأن الجاهل الذي يعادي ما جهله. ولو أن هؤلاء تخصصوا في الفلسفة الإسلامية وآدابها أو درسوا الدين الإسلامي وعملوا به قبل التخصص في فرع آخر، وورعوا واتقوا وجانبوا المعاصي والآثام، لعدّوا هفوات دكاترة الاجتماع وأساتذة الأخلاق، وخرجوا من حدود التقليد الأعمى إلى التفكير الصحيح والجرح والتعديل. ولكن هيهات!.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٢].

ومن هؤلاء الذين يتخصصون في الدراسات الاجتماعية من يركبه الغرور إلى درجة يستهزئ في كتاباته بعبارات المتدينين التي مفادها: التوكل على الله تعالى في الأمور، وتفويض الأمر إليه مع عمل متواصل وجد واجتهاد. فيقول دونما مناسبة: (معاذ الله) وأمثال ذلك. فكأنه غنيٌ عن التعوذ بالله تعالى من مكائد الشيطان. وقد فاته أن الدراسات الاجتماعية من أسهل المواضيع تخصصاً، وأسرعها تناولاً، ولو أدخل هذا المتخصص في فرع من فروع علم الاجتماع، جبراً، في فرع من العلوم الرياضية أو الفلكية أو الفيزيائية لرسب حتماً ولما نال هذا اللقب المُغري (دكتوراه: Doctorat) ولما تكبر وتجبر

ولا اعترف بالجهل، والاعتراف بالجهل يفتح على الإنسان أبواب الهداية.

إن العلوم الاجتماعية لا تضبط بضابط من حيث الصحة والسقم كالعلوم الرياضية والكيميائية والفيزيائية. فليس هناك كما يدعي (Determinisme) لتضارب الآراء فيها وتغير هذه الآراء من حين لآخر، حتى أنك ترى أن الفيلسوف يغير رأيه في موضوع واحد طيلة حياته مرات مع اتحاد الظروف.

فإذا كان العالم الاجتماعي غير عامل بالدين ومستهتراً بالمقدسات، فلا يترشح من كتاباته في موضوع الدين إلا ما يناسب نفسيته التي أخذت تتسافل بالمعاصي والآثام. لأنه أمسى بذلك لا يبصر الحق ويظن (الشهادة قد نالها) أنه قد بلغ الغاية من التتبع والتحقيق. إن الله تعالى يقول:

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٨١].

فلو أحاطت الخطايا بفرد من الأفراد فلا يترشح منه إلا ما يناسب تلك الخطايا والسيئات. «وكل إناء ناضح بالذي فيه». وبديهي أن الإنسان لو حاد بسوء اختياره عن الصراط السوي فإن الله تعالى يبعده عن ساحة القدس، وهذه سنة الله في خلقه ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ [غافر: الآية ٨٥]. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصَّف: الآية ٥].

ولو كان يشك هذا العامل الاجتماعي في ما أقول فليعمد إلى تجربة منجية: فليقم بتطبيق جميع ما أمر به الدين وليتنَّه عما نهى عنه الدين ثم ليأت بشيء من المستحبات، فإنه سوف لا يقول بما كان يقول به قبلاً متبختراً مغروراً. بل يندم على مقالاته المضلة ويبرأ إلى الله تعالى منها، مستغفراً، منيباً.

ولنختم هذا المقال بذكر درر من الأحاديث في التساند الاجتماعي.

تساند يأمر به الدين الإسلامي ولا يعمل به (مع الأسف) المسلمون إلا أفراداً قلائل.

يقول أبو عبد الله ﷺ: «عليك بالنصح لله في خلقه. فلن تلقاه بعمل أفضل منه»[1].

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص١٦٤، باب الاهتمام بأمور المسلمين.

وقوله سلام الله عليه أيضاً: «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»[(١)].

وعن النبي ﷺ: «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم. ومن سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه، فليس بمسلم»[(٢)].

وعن رسول الله ﷺ: «الخلق عيال الله. فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله وأدخل على أهل بيتٍ سروراً»[(٣)].

وقال ﷺ أيضاً: «من ردعن قوم من المسلمين عادية ماءاً أو ناراً، وجبت له الجنة»[(٤)].

وقال الصادق عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريَم: الآية ٣١]. قال: نفاعاً[(٥)].

فيجدر بالمسلم أن يطلع على هذه الكنوز الثمينة من آداب دينه وأن يمليها بلسان فلسفي وتحليل علمي والهام رباني (يأتيه من ناحية التقوى والورع) على أساتذة الغرب وفلاسفتها، فيكون معلماً قبل أن يكون متعلماً. ومؤثراً قبل أن يكون متأثراً. ومن الله التوفيق ولا توفيق إلا بعمل صالح.

الإنفاق في الإسلام

إن الأديان السماوية برمتها تأمر بالرحمة والشفقة والرفق والإحسان. وخاتمها وأكملها الدين الإسلامي الذي جاء به خاتم النبيين محمد ﷺ رحمة للعالمين لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧]. فكل أمة تعمل بنصوص هذا الدين تكون في سلام ودعة وطمأنينة، لا ترى فيها فقيراً ولا مسكيناً ولا بائساً ولا جائعاً ولا عارياً. فالناس كلهم، إذ ذاك، في دعة ورغد ورفاهية تامة كل بحسبه. وهذا شأن الدين الكامل، فإنه يؤسس مدنية فاضلة لا ترى في أية ناحية منها خللاً يحتاج إلى إصلاح بشري.

وقد شاهدنا النظم البشرية والقوانين الموضوعة، تتبدل من وقت إلى وقت ومن حين إلى حين. يشعر الواضعون فيها بالنقص، فيصلحون ما أعوج منها وإذا بهم أمام

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤)، (٥) أصول الكافي: ج٢، ص١٦٤، باب الاهتمام بأمور المسلمين.

نقص آخر أو عيب آخر. فالواضعون يضعون القوانين والمصلحون يصلحون والبشر في تعب وعناء وفي خسر ووبال.

أنّى لهذا البشر الذي قد حُدد عقله أن يأتي بشيء كاملاً لا نقص فيه، إما أن ياتي بشيء خيالي لا مجال لتطبيقه، وإما أن يأتي بشيء يصلح ناحية ويفسد نواحي عدة، ذلك لأن النفس التي تضع هذا القانون مهما أوتيت من عقل وتفكير محكومة تجاه شهواتها وميولها ورغباتها وشعورها وانطباعاتها السابقة والظروف التي تحيط بها والبيئة التي تعيش فيها.

يقولون: يجب أن يتناسب النظام مع البيئة. أو يجب أن يؤخذ القانون من روح المحيط. فنجيبهم ما قولكم في بيئة فاسدة، في بيئة متفسخة؟ أو هل يصلحها نظام يضعه من هو حامل جراثيم تلك البيئة؟

يقولون: إن الحاجات تتجدد من وقت إلى وقت، فيجب أن تتغير التعاليم الدينية حسب الحاجات الحادثة. فنقول: إن الله تبارك وتعالى أعلم بحاجات البشر الحقيقية التي تضمن سعادة الدارين من هذا البشر الناقص.

وإن الحاجات الجديدة تعالج، وتسن لها قوانين على ضوء المبادئ الإسلامية العامة والأصول المقررة في علم أصول الفقه. نعم، إن النظام يجب أن يكون مجرداً عن الأهواء والتأثيرات الخارجية والداخلية آتياً من منبع فياض زكي نقي لا كدر فيه.

النظام هو نظام الأنبياء، والقانون هو ما سنّوه ودوّنوه. فلا سعادة للبشر ولا هناء إلا إذا اتبعت النظم السماوية. وإن أكملها وأسماها هي النظم الإسلامية الخالدة التي تكفل سعادة الإنسان في جميع مرافق الحياة الدنيوية فضلاً عن الحياة الأخروية الخالدة. فإن الدين الإسلامي ليس مجموعة عبادات فحسب بل هو مجموعة قوانين رصينة وتعاليم خالدة تعيّن وظيفة الإنسان في معاملاته ومتاجره وفي حياته الشخصية والاجتماعية والمدنية. إلا أن الأهواء البشرية قد طغت عليها، فمنعت تعميمها في أرجاء العالم وبذلك بغت على البشرية المسكينة، فتاه الناس في دياجير الظلمات وكانت نتيجة ذلك ظهور مبادئ هدامة. وإن أشنع هذه المبادئ الهدامة وأفسدها لهو المبدأ الشيوعي، وهذا المبدأ هو عصارة المذهب المادي الذي انتشر في أوروبا باسم

العلم والعلم منه بريء. هو نتيجة شيوع الفحشاء والمنكرات في الغرب، فرجع بثلة من البشرية المسكينة إلى جاهلية جهلاء.

وما أثر العلم إن لم يقترن بالدين، أي يتّحد بنفس زكية طاهرة تعمل حسبما أمر به الدين وإن ظهور مثل هذا المبدأ المميت لأمر طبيعي إذا ما درسنا طيش أوروبا وانغمارها في الشهوات والمنكرات طيلة قرون. «فكل إناء بالذي فيه ينضح».

لو أردنا أن نعلم صحة مسلك من المسالك، فلننظر إلى واضعيه، فإن كانوا أُناساً صلحاء في حياتهم الشخصية والعائلية والاجتماعية، يخافون الله ويؤمنون باليوم الآخر لا تجرفهم أطماع الدنيا وزينتها وحب الرئاسة جاز لنا أن نفكر في تحقيق هذا المسلك وأن نعرضه على النصوص القرآنية والسنة النبوية والنظم الإسلامية الخالدة فإن وافق فذاك، وإلا ضربنا به عرض الجدار.

إن الدين الإسلامي حث على الإنفاق والبذل والكرم واقراء الضيف والتصدق وإيتاء الزكاة والخمس ضمن آيات عديدة في القرآن الكريم وأحاديث جمة عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام. وقد عمل بذلك النبي الكريم ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام بمقياس مثالي واسع. فلنقتف آثارهم ليسود السلام في العالم ويهنأ البشر قاطبة.

إن الإنفاق في الدين الإسلامي على نوعين: مستحب مؤكد، يكاد يكون واجباً، وواجب مفروض.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٦١] . ماذا يريد الإنسان؟ أجَزاء أعظم من هذا الجزاء، وهذا هو الإنفاق المستحب إستحباباً مؤكداً، لو عمل به لأصبح الناس كلهم في رفاهية تامة ولزال الفقر، وهو غير الزكاة الواجبة.

إن الزكاة الواجبة نفسها تكفي الفقراء والمعوزين والمحتاجين. ذلك لأن الإمام أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن الله فرض الزكاة كما فرض الصلاة، فلو أن رجلاً حمل الزكاة وأعطاها علانية لم يكن عليه في ذلك عيب وذلك أن الله فرض في أموال الأغنياء للفقراء ما يكتفون به ولو علم أن الذي فرض لا يكفيهم لزادهم، وإنما يؤتى

الفقراء[1] فيما أتوا من منع من منعهم حقوقهم لا من الفريضة»[2]. يقول الله جلّ وعــلا: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٢]. هذا، الإمام الحسين عليه السلام يفد عليه أعرابي وهو في المسجد فيراه مصلياً يقف بإزائه وينشئ قائلاً:

لـم يـخـب الآن مـن رجـاك ومـن حـرّك مـن دون بـابـك الـحـلـقـة
أنـت جـواد وأنـت مـعـتـمـد أبـوك قـد كـان قـاتـل الـفـسـقـة
لـولا الـذي كـان مـن أوائـلـكـم كـانـت عـلـيـنـا الـجـحـيـم مـنـطـبـقـة

فسلم الحسين عليه السلام من صلاته وقال: «يا قنبر، هل بقي من مال الحجاز شيء»؟ قال: «نعم أربعة آلاف دينار». فقال: «هاتها، قد جاء من هو أحق بها منا». ثم نزع بردته ولف الدنانير بها وأخرج يده من شق الباب حياءاً من الأعرابي وأنشأ يقول:

خـذهـا فـإنـي إلـيـك مـعـتـذر واعـلـم بـأنـي عـلـيـك ذو شـفـقـة
لـو كـان فـي سـيـرنـا الـغـداة عـصـا أمـسـت سـمـانـاً عـلـيـك مـنـدفـقـة
لـكـن ريـب الـزمـان ذو غـيـر والـكـف مـنـا قـلـيـلـة الـنـفـقـة

فأخذها الأعرابي وبكى، فقال الحسين عليه السلام: «لعلك استقللت ما أعطيناك» قال: «لا، ولكن كيف يأكل التراب جودك»[3].

هذا نموذج من الكمال الإنساني في الإنفاق، لا يقوى عليه البشر العادي.

المثل العليا في الإنفاق

إن الدين الإسلامي حث كثيراً على الإنفاق المستحب وهو غير ما فرض الله تعالى من زكاة وخمس. يقول الله جلّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ

---

(١) معنى: يؤتى الفقراء فيما أتوا: أي يبتلون بما يبتلون به.
(٢) الكافي: ج٣، ص٤٩٨، باب فرض الزكاة.
(٣) مناقب آل أبي طالب: ج٤، ص٦٥.

وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٧] . قال أبو عبد الله عليه السلام : «إن الزكاة ليس يحمد بها صاحبها وإنما هو شيء ظاهر، إنما حقن بها دمه وسمي بها مسلماً». فقلت: «أصلحك الله، وما علينا في أموالنا غير الزكاة»؟. فقال: «سبحان الله، أما تسمع الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾». ثمّ «قلت: ماذا الحق المعلوم الذي علينا»؟ فقال: «هو والله، الشيء الذي يعلمه الرجل في ماله، يعطيه في اليوم أو في الجمعة أو في الشهر، قل أو كثر. غير أنه يدوم عليه». قال: «وقلت: قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [المَاعون: الآية ٧] فقال: «هو القرضُ يقرضه، والمعروف يصطنعه ومتاع البيت يعيره وليس منه الزكاة». فقلت له: «إن لنا جيراناً، إذا أعرناهم متاعاً كسروه وأفسدوه، أفعلينا جناح أن نمنعهم»؟ قال: «لا، ليس عليكم جناح أن تمنعوهم إذا كانوا كذلك». قال قلت له: «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً»؟ قال: «ليس من الزكاة». قال: فقلت له: قوله عزّ وجلّ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧١] ؟ قال: «ليس من الزكاة. وصلتك قرابتك ليس من الزكاة»[1].

وقد ذكر الزمخشري في تفسيره ما لفظه: «إن الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله في ناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن، لو نذرت على ولديك. فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما إن بَرِءَا مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام. فشفيا وما معهم شيء، فاستقرض علي عليه السلام من شمعون الخيبري اليهودي ثلاثة أصوع من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم. فوضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم سائل. فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني، أطعمكم الله من موائد الجنة. فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً. فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقفل عليهم يتيم فآثروه. ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك، فلما أصبحوا أخذ علي عليه السلام بيد

---

(١) الكافي: ج٣، ص٤٩٨، باب فرض الزكاة.

الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله ﷺ فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشد ما يسوؤني مما أرى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها فساءه ذلك. فنزل جبرائيل عليه السلام وقال: خذها يا محمد، هنأك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة وهي سورة الدهر ومنها: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان: الآيات ٥/٨][1].

وأما علي عليه السلام فقد روى المفسرون أنه كان لا يملك إلا أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً وبدرهم علانية فأنزل الله فيه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٤]، وكان يستقي بيده لنخل قوم من يهود المدينة حتى مجلت يداه ويتصدق بالأجرة ويشد على بطنه حجراً[2].

قال الشعبي: «كان علي أسخى الناس، كان على الخُلق الذي يحبه الله: السخاء والجود، وما قال: لا، لسائل قط». وقد قال فيه معاوية: «لو ملك عليٌّ بيتاً من تبر وبيتاً من تبن لأنفق تبره قبل تبنه». وهو الذي كان يكنس بيوت الأموال ويصلي فيها وهو القائل: «يا صفراء ويا بيضاء غري غيري»[3]. ولم يخلف ميراثاً وكانت الدنيا كلها بيده إلا ما كان من الشام. وهو الذي عمل بآية النجوى وتصدق دون غيره.

وأما الحسن بن علي عليه السلام، فكما روى أبو نعيم في الحلية، قاسم الله ماله ثلاث مرات. وقد روى في المناقب أن رجلاً سأله فأعطاه خمسين ألف درهماً وخمسمائة ديناراً. وقال: ائت بحمال يحمل لك. فأتى بحمال فأعطاه طيلسانه وقال هذا كراء الحمال. وجاءه أعرابي، فقال الحسن عليه السلام: أعطوه ما في الخزانة. فوجد فيها عشرون ألف درهماً. فدفعها إليه. فقال الأعرابي يا مولاي ألا تركتني أبوح بحاجتي وأنشر مدحتي، فأنشأ الحسن عليه السلام يقول:

---

(١) سعد السعود: ص١٤١.

(٢)،(٣) بحار الأنوار: ج٤١، ص١٤٣، باب ١٠٧.

نحن أناس نوالنا خضل ... يرفع فيه الرجاء والأمل
تجود قبل السؤال أنفسنا ... خوفاً على ماء وجه من يسأل[١]

وروى المدائني قال: خرج الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله ابن جعفر، حجاجاً ففاتهم أثقالهم، فجاعوا وعطشوا فرأوا عجوزاً في خباء، فاستسقوها فقالت: هذه الشويهة، احلبوها وامتذقوا لبنها، ففعلوا. واستطعموها فقالت: ليس عندي إلا هذه الشاة، فليذبحها أحدكم. فذبحها أحدهم وكشطها ثم شوت لهم من لحمها فأكلوا وقالوا عندها. فلما نهضوا قالوا: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه. فإذا عدنا فألمي بنا فإنا صانعون بك خيراً. ثم رحلوا. فلما جاء زوجها أخبرته. فقال: ويحك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم ثم تقولين نفر من قريش.

ثم مضت الأيام فأضرت بها الحال. فرحلت حتى اجتازت بالمدينة، فرآها الحسن عليه السلام فعرفها. فقال لها: «أتعرفينني». قالت: «لا» قال: «أنا ضيفك يوم كذا وكذا». فأمر لها بألف شاة وألف دينار وبعث معها رسولاً إلى الحسين عليه السلام فأعطاها مثل ذلك ثم بعثها على عبد الله بن جعفر فأعطاها مثل ذلك[٢].

والحسن صلوات الله عليه كان مع هذا الجود المثالي في غاية التواضع. يمر على فقراء وقد وضعوا كسيرات على الأرض وهم قعود يلتقطونها. فقالوا هلمَّ يا ابن رسول الله إلى الغذاء. فنزل وقال: إن الله لا يحب المتكبرين. وجعل يأكل معهم حتى اكتفوا والزاد على حاله ببركته. ثم دعاهم إلى ضيافته وأطعمهم وكساهم. فهذا نموذج من الأخلاق الإسلامية المثالية.

وفي المناقب عن يعقوب بن إسحاق النوبختي، قال: «مرّ رجل بأبي الحسن الرضا عليه السلام فقال له: أعطني على قدر مروءتك، قال: لا يسعني ذلك، فقال: على قدر مروءتي. قال: أما هذا فنعم. ثم قال: يا غلام، أعطه مائتي دينار». قال: «وفرق عليه السلام بخراسان ماله كله في يوم عرفة». فقال له الفضل بن سهل: «إن هذا لمغرم». فقال:

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ج٤، ص١٦.
(٢) بحار الأنوار: ج٤٣، ص٣٤٨، باب ١٦.

«بل هو المغنم. لا تعدن مغرماً ما ابتعت به أجراً وكرماً»[1].

وروى الكليني في الكافي بسنده عن اليسع بن حمزة قال: كنت في مجلس أبي الحسن الرضا عليه السلام وقد اجتمع إليه خلق كثير يسألونه عن الحلال والحرام، إذ دخل عليه رجل طوال آدم. فقال: «السلام عليك يا ابن رسول الله. رجل من محبيك ومحبي آبائك وأجدادك. مصدري من الحج وقد فقدت نفقتي وما معي ما أبلغ به مرحلة. فإن رأيت أن تنهضني إلى بلدي. ولله عليَّ نعمة، فإذا بلغت بلدي تصدقت بالذي توليني عنك. فلست موضع صدقة»: فقال له: «اجلس رحمك الله». وأقبل على الناس يحدثهم حتى تفرقوا وبقي هو وسليمان الجعفري وخيثمة وأنا. فقال: «أتأذنون لي في الدخول». فقال له سليمان: «قوَّم الله أمرك». فقام فدخل الحجرة وبقي ساعة، ثم خرج وردَّ الباب وأخرج يده من أعلى الباب وقال «أين الخراساني»؟ فقال: «ها أناذا». فقال: «خذ هذه المائتي دينار واستعن بها في مؤونتك ونفقتك وتبرك بها ولا تتصدق بها عني وأخرج فلا أراك ولا تراني». ثم خرج فقال سليمان: جعلت فداك، لقد أجزلت ورحمت. لماذا سترت وجهك عنه؟ فقال: «مخافة أن أرى ذل السؤال في وجهه لقضائي حاجته. أما سمعت حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: المستتر بالحسنة تعدل سبعين حجة والمذيع بالسيئة مخذول والمستتر بها مغفور له». أما سمعت قول الأول:

متى آته يوماً لأطلب حاجة ... رجعت إلى أهلي ووجهي بمائة[2]

الصدقات في الإسلام

إن الدين الإسلامي قد حثّ الناس على الإنفاق حثاً لا مزيد عليه، لو عملوا به لسادت الطمأنينة في العالم ولما وجد على وجه الأرض فقير. وهذا قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٩، ص١٠٠، باب ٧.

(٢) الكافي: ج٤، ص٢٣، باب من أعطى بعد المسألة.

[المَاعون: الآية ٧]. فجعل الله مآل دعِّ اليتيم وعدم الإهتمام بطعام المسكين: التكذيب بآياته تعالى ورسله وكتبه. فكأن من دع اليتيم ولم يرفه عنه من فضول ماله ولم يحض على طعام المسكين تنسلخ عنه العقيدة الدينية شيئاً فشيئاً، تتوارد عليه الشكوك والأوهام وهو لا يعلم من أين أتاه هذا الانقلاب، وكيف أمسى مظلماً لا يرى شيئاً وراء المادة الزائلة، فلا تتسلى نفسه إلا باتخاذ مبادئ فاسدة تتناسب ونفسه المريضة الطائشة، ويزعم أنه بلغ من التفكير مرتبة أو وجد طريقاً جديداً يحل به مشاكل الحياة. وهذا عقاب لمانع اليتيم حقه والمسكين طعامه، وابتعاد عن رحمة الله وانطماس في ظلمات ما فوقها ظلمات. ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفّفِين: الآية ١٤].

فتشوا عن أناس سخت نفوسهم فاهتموا بأمر اليتيم وحضوا على طعام المسكين، تروا نفوسهم منيرة وضاءة تحب الله وتحب الحق، تميل إلى الخشوع وتتوجه نحو صانعها وتعبده على قدر ما قامت بالأعمال الصالحة لوجه الله الكريم.

فالإيمان إذن عصارة الأعمال الصالحة، والتصديق بالدين مآل الاهتمام بأمر اليتيم والحض على طعام المسكين. لذلك كله قد حث الدين الإسلامي على الاهتمام بأمر الفقراء والمساكين وندب إلى التعطف على الضعفاء والأيتام بإعطاء زكاة واجبة ونفقات مندوبة وصلة الرحم وصدقات مستحبة. وقد يراد بالصدقات الزكاة الواجبة، ولسنا بصدد بيانها الآن.

ولقد قال أبو عبد الله عليه السلام: «لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه أربعة خصال: يحسن خلقه، وتسخو نفسه، ويمسك الفضل من قوله، ويخرج الفضل من ماله»[1]. ولقد كان في وصية رسول الله صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام: أوصيك في نفسك بخصال، إحفظها عني، ثم قال: اللهم أعنه... إلى أن قال: «وأما الصدقة فجهدك جهدك، حتى تقول قد أسرفت ولم تُسرف»[2] لذلك يبيع علي عليه السلام بستاناً له. فيعلم بذلك فقراء المدينة، فيرجع إلى بيته وليس معه شيء. ويستأجر دار للسكنى في الكوفة وهو خليفة

---

(١) وسائل الشيعة: ج٩، ص٣٧٢.

(٢) الكافي: ج٤، ص٥، باب فضل الصدقة.

المسلمين. ويحمل الطعام إلى فقراء الكوفة جوف الليل. حتى أن الحسن عليه السلام بعد رجوعه ليلاً من دفن والده سمع أنين مسكين عاجز في إحدى خرائب الكوفة، فجاءه يسأله عن حاله، فقال: كان لي رجل يأتيني كل ليلة بما أحتاجه من طعام وشراب وقد مضت ثلاث ليال لا أراه يأتيني، فقال الحسن عليه السلام ذاك أبي، قد قتل في محرابه.

وقد جعل الدين الإسلامي التصدق بالليل أفضل من التصدق بالنهار لأن صدقة السر تطفي غضب الرب، كما جاء في الحديث. كان أبو عبد الله جعفر الصادق عليه السلام إذا أعتم وذهب من الليل شطره أخذ جراباً فيه خبز ولحم ودراهم فحمله على عنقه ثم طاف به على أهل الحاجة من أهل المدينة فيقسمه فيهم وهم لا يعرفونه، فلما مضى جعفر الصادق فقدوا ذلك فعلموا أنه كان أبا عبد الله، أي الصادق عليه السلام[1]. نعم، هذا دين يقول: «إصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس من أهله فإن لم يكن هو أهله فكن أنت من أهله»[2].

هذا دين يقول: «إن الصدقة بالليل تدفع ميتة السوء وتدفع سبعين نوعاً من البلاء وإنها تطفئ غضب الرب»[3].

هذا دين يقول: «يستحب للمسلم أن يعول أهل بيت المسلمين ويختار ذلك على الحج وعلى العتق».

هذا دين يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة».

هذا دين يقول: «داووا مرضاكم بالصدقة» اهتماماً بأمر الفقراء.

هذا دين يقول: «يستحب لمعطي الصدقة أن يقبل يده بعد العطاء»، ذلك لأن يده قد تبركت وتيمنت ببركة عطفه على الفقير، وفي الخبر: إذا أعطيته فأغنه. وقال علي عليه السلام: «إذا ناولتم السائل فليرد الذي ناوله يده إلى فيه، فيقبلها، فإن الله عزّ وجلّ يأخذها»[4].

---

(١) الكافي: ج٤، ص٨، باب صدقة الليل.
(٢) الكافي: ج٤، ص٢٧، باب فضل المعروف.
(٣) وسائل الشيعة: ج٩، ص٣٩٨، باب ١٣.
(٤) بحار الأنوار: ج١٠، ص٩٨، باب ٧.

هذا دين يقول: «إذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة». لذلك يقول الصادقﷺ لابنه محمد: «يا بني كم فضل معك من تلك النفقة، قال: أربعون ديناراً، قال: اخرج فتصدق بها. قال: إنه لم يبق معي غيرها قال: تصدق بها فإن الله يخلفها، أما علمت أن لكل شيء مفتاحاً ومفتاح الرزق الصدقة، فتصدق بها؛ ففعل. فما لبث أبو عبد الله إلا عشرة أيام حتى جاءه من موضع أربعة آلاف ديناراً. قال يا بني: أعطينا لله أربعين ديناراً فأعطانا أربعة آلاف ديناراً»[1].

يأتي شيخ من مهاجرة العرب رسول اللهﷺ وهو في المسجد والناس حوله وعلى الشيخ سمل قد تهلهل وأخلق وهو لا يكاد يتمالك ضعفاً وكبراً فيقول: يا رسول الله، أنا جائع الكبد، فأطعمني وعاري الجسد، فاكسني وفقير، فأثرني. فيقول له رسول اللهﷺ: ما أجد لك شيئاً، ولكن الدال على الخير كفاعله. انطلق إلى ابنتي فاطمة. وأمر بلالاً فوقف به على منزل فاطمة ﷺ فنادى بأعلى صوته: السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ومختلف الملائكة... يا بنت محمد، أقبلت على أبيك سيد البشر مهاجراً من شقة، عاري الجسد، جائع الكبد، فارحميني، يرحمك الله. وكان علي وفاطمةﷺ ثلاثاً ما طعموا طعاماً.

فعمدت فاطمة إلى جلد كبش مدبوغ بالقرظ كان ينام عليه الحسن والحسين ﷺ وتعطيه الشيخ قائلة: عسى الله أن يتيح لك ما هو خير منه فيقول الشيخ أنا شكوت إليك الجوع، فناولتيني جلد كبش فما أنا صانع به مع ما أجد من السغب؟

فعمدت فاطمة ﷺ إلى عقد في عنقها، أهدته إليها فاطمة بنت عمها حمزة، فتقطعه من عنقها وتنبذه إلى الأعرابي، وتقول: خذ وبعه. فعسى الله أن يعوضك بما هو خير لك منه. فيأتي الشيخ إلى المسجد ويبيع العقد، فيشتريه عمار بعشرين ديناراً ومائتي درهم وبردة يمانية وراحلة تبلغ الشيخ إلى أهله، فيقول رسول اللهﷺ: «لو اشترك في شراء هذا العقد الثقلان ما عذبهم الله بالنار».

فينطلق عمار بالأعرابي ويفي بما ضمن له، عاد الأعرابي إلى النبيﷺ فقال له:

---

(١) الكافي: ج٤، ص٩، باب في أن الصدقة تزيد في المال.

أشبعت واكتسيت؟ قال: نعم، واستغنيت بأبي أنت وأمي. فيقول رسول الله ﷺ: فاجز فاطمة في صنعها معك خيراً. فيقول: «اللهم أنت إله ما استحدثناك، ولا إله لنا نعبده سواك، أنت رازقنا، فأعط فاطمة مالا عين رأت ولا أذن سمعت».

فأمّن رسول الله على دعائه وأقبل النبي ﷺ على أصحابه وقال: «إن الله قد أعطى فاطمة ذلك وأنا أبوها وما في العالمين مثلي، وعلي بعلها، ولولا علي ما كان لها كفؤ أبداً. أعطاها الحسن والحسين وما في العالمين مثلهما سيدا أسباط الأنبياء، وسيدا شباب أهل الجنة: وقال: أزيدكم». قالوا: نعم يا رسول الله، قال أتاني الروح يعني جبرئيل عليه السلام أنها إذا هي قبضت ودفنت يسألها الملكان في قبرها: من ربك؟ فتقول الله ربي؛ من نبيك؟ أبي؛ من وليك؟ فتقول: «هذا القائم على قبري علي بن أبي طالب».

«ألا وأزيدكم من فضلها» فيقولون زدنا.

فيقول رسول الله ﷺ: «إن الله وكل بها رعيلاً من الملائكة يحفظونها من بين يديها ومن خلفها وعن يمينها وعن شمالها وهم معها في حفرتها يكثرون من الصلاة عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها» يقول جابر بن عبد الله: أن عماراً بعد ذلك طيب العقد بالمسك ولفه في بردة يمانية وبعث به مع عبده (سهم) إلى رسول الله وقال: «أنت لرسول الله مع العقد» ورسول الله يرسل العبد مع العقد إلى فاطمة قائلاً: «أنت لها مع العقد» فتأخذ فاطمة عليها السلام العقد وتقول للعبد: «اذهب أنت حر لوجه الله». يضحك العبد ويقول: «ما أكثر بركة هذا العقد، أشبع جائعاً وكسى عرياناً وأغنى فقيراً وأعتق مملوكاً ورجع إلى أهله»[1].

هذا نموذج من الكمال الإنساني في التصدق والإنفاق من فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين عليها السلام، وإن حياتها كلها لنماذج رفيعة من الكمالات المثالية التي هي فوق متناول الفيلسوف وفوق مستوى التفكير البشري. فطوبى لمن تأسى بها وتخلق بأخلاقها فإن «قيمة كل امرئ ما يحسنه» على ما جاء في كلام علي عليه السلام.

* * *

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٣، ص٥٦، باب ٣.

ويمكن تشبيه محصلة القوى الموجبة والسالبة المؤثرة في نقطة ما (في جسم) بقيمة المرء. ذلك لأن القوى المؤثرة في نقطة (م) على امتداد محور (س سَ) والمتوجهة إلى اليمين تعتبر (كما في علم الميكانيك) موجبة، فحاصلها موجبة أيضاً. والقوى المؤثرة في نفس النقطة (م) والمتوجهة إلى اليسار على نفس الامتداد تعتبر سالبة، فحاصلها سالبة أيضاً. ثم تركب هاتان النتيجتان أو تطرح إحداهما من الأخرى (إن كانت على استقامة واحدة، حسب الفرض) فتكون النتيجة النهائية إما متوجهة إلى اليمين، فصاحبها إذن من أصحاب اليمين، فمصيره الجنة، أو متوجهة نحو اليسار (أو الشمال حسب ما جاء في القرآن الكريم) فصاحبها إذن من أصحاب اليسار، فمصيره النار.

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الواقعة: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: الآيات ٢٧/ ٥٠][(١)].

فكل عمل صالح يقوم به الإنسان لوجه الله تعالى، له أثر فعال في معتقده وسيره التكاملي، وكل عمل سيء يأتي به الإنسان له أثر فعال في تسافله وولوج الشكوك والريب في نفسه. فالإيمان نتيجة الأعمال الصالحة والأعمال السيئة. فالأعمال الصالحة تشكل القوى الموجبة المؤثرة في نقطة (م) والأعمال السيئة تشكل القوى السالبة المؤثرة في نقطة (م) أيضاً فالنتيجة إذن إما أن تكون موجبة أو تكون سالبة. إن الله تعالى يقول في سورة القارعة: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾

---

(١) في سدر مخضود: لا شوك له؛ وطلح: شجر الموز؛ وماء مسكوب: جار أبداً؛ أبكاراً عرباً: متحببات إلى أزواجهن؛ أتراباً: مستويات في السن أو مثل أزواجهن في السن؛ يحموم: دخان أسود؛ مترفين: منعمين لا هين عن الطاعة؛ الحنث: الذنب.

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ [القارعة: الآيات ٦/ ١١] .[١].

إن الأعمال الصالحة لها الأثر الكلي في اتجاه الإنسان الديني. فمن أعطى الحقوق المترتبة على أمواله (مثلاً) يرى أن نفسه تميل إلى العبادة ومعرفة الخالق جلّ جلاله ومجالس الوعظ والإرشاد. ذلك لأنه بإعطائه الحقوق يجعل ما يدخل في جوفه طاهراً شبهة فيه. وإن هذا المأكل الطاهر له أثره الفعال في توجيه النفس، فقد جاء في الحديث: «إن الحجر المغصوب في الدار رهن على خرابها». وفي حديث آخر عن النبي ﷺ: «ترك لقمة حرام أحب إلى الله من صلاة ألفي ركعة تطوعاً، ورد دانق حرام يعدل عند الله سبعين حجة مبرورة». وفي حديث آخر: «من أراد أن يستجاب دعاؤه فليطب مطعمه ومكسبه»[٢].

نعم، لو كان بعض ما يتجر به الشخص شيئاً محرماً فإن الأموال التي تجنى بهذه الوسيلة مخلوطة بالحرام، فتؤثر في سير الإنسان الديني والتكاملي.

ولقد جربت ذلك في أشخاص. فعندما كان يتجر به أحدهم حلالاً طيباً، يوافق ما جاء في الشرع المحمدي. كان هذا الشخص مصلياً، صائماً يذهب إلى دور العبادة وإلى ﴿بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾[النور: الآية ٣٦]. وبعد أن أدخل في ما يتجر به ما حرم الله، أخذت نفسه تتسافل شيئاً فشيئاً، فصار يصلي صلاة الصبح. ولكنه إذا اعترته حاجة شديدة، نذر نذراً، فسافر لأداء نذره ويصلي في اليوم الذي يفي بنذره فقط. ثم يترك صلاته غير مبال بما سيصيبه من جراء هذا العصيان مع تقادم عمره.

فإذا جاءت ليلة القدر هرع إلى محال العبادة لانطباع سابق، فإذا أذهبت ليالي القدر ترك صلاته وهكذا. إلا أنه مع ذلك يعتقد بأصول الدين. وهكذا لو ثابر هذا الشخص على عدم إخراج الحقوق المترتبة على أمواله[٣] ضعف يقينه بأصول الدين

---

(١) ثقلت موازينه: بأن رجحت حسناته؛ خفت موازينه: بأن رجحت سيئاته؛ فأمه هاوية: مأواه النار.

(٢) جامع الأخبار: ص١٥٧، الفصل ١٨.

(٣) إنما ذكرت (إخراج الحقوق كالخمس والزكاة) على سبيل المثال. فكل معصية صغيرة أو كبيرة،=

بصورة تدريجية فيزول اعتقاده بوجود الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه وأنه حي يرزق، ثم يشك في المعاد، ثم في النبوة ثم في العدالة الإلهية. وقد يبلغ به الأمر (لو بالغ في ارتكاب كبائر المعاصي والظلم والبغي) إلى الإلحاد. ثم يزعم، فيوقن أنه كان في واد من الخرافة وقد دخل اليوم في عالم جديد من الثقافة، وواد من نور، وتخلص من براثن الجاهلية الجهلاء.

فإذا صادف أناساً يحبذون الدين ويؤيدونه إلى حد ما، أخذ يفسر الدين كما تشاء له نفسه المتسافلة ظاناً أنه جاء بفلسفة جديدة! ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: الآيتان ٤/ ٥].

وقد يكون السير سيراً تكاملياً بعكس ما قلنا، يأتي الإنسان بعمل صالح هام في محله، فيؤثر هذا العمل الطيب في نفسه، ففي معتقده، ثم يقوم بعمل صالح آخر فآخر، فتمحو هذه الأعمال الصالحة بعض السيئات ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هُود: الآية ١١٤] فيتنور قلبه شيئاً فشيئاً، فتتبدد عنه غياهب الشكوك ويسير في طريق الهداية رويداً رويداً.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محمَّد: الآية ١٧] فيدخل في عالم من الصلاح والفلاح الحقيقي سائراً نحو تزكية النفس فمعرفة الخالق وهي غاية الغايات من تكامل هذا الإنسان على وجه الأرض.

هذا التحليل له اليوم مصداق في ثلة من الناس. فليعقب من شاء سير بعض الأفراد العقائدي والديني خلال ٢٠ عاماً مثلاً، رابطاً هذا السير بما بدأ منه من أخلاق وأعمال وكسب وتجارة وأمور تطابق الشرع أو تخالفه ليرى صدق ما ذهبت إليه. ومن الله التوفيق. ولابد من عمل صالح في حدود الاختيار لجلب توفيقه تعالى.

= تؤثر تأثيراً مباشراً في سير الإنسان التسافلي، لو لم يعقبها حالاً بتوبة عملية وقلبية. أنصتوا إلى ما يقوله زين العابدين علي ابن الحسين عليه السلام. كيف أن الذنوب تميت القلوب وكيف أن التوبة تحييها. أنه صلوات الله عليه يقول معلماً إيانا: «إلهي ألبستني الخطايا ثوب مذلتي، وجللني التباعد عنك لباس مسكنتي، وأمات قلبي عظيم جنايتي، فأحيه بتوبة منك يا أملي وبغيتي ويا سؤلي ومنيتي». الجفان، جمع جفنة: قصعة.

الزكاة وأثرها في تكامل النفس

إن الدين الإسلامي قد استهدف في جميع نظمه وسننه تهذيب النفس الإنسانية وإبلاغها أقصى مرتبة من مراتب الكمال، بل إن الغرض الأسمى من شريعة محمد ﷺ هو تكوين نفس طاهرة زكية خالية من الأدران والأوساخ متحلية بالكمال.

فالنفس الإنسانية أشبه شيء بقطعة حجر فيها معادن خسيسة لا قيمة لها وفيها الذهب الثمين. فإن الكيماوي يجري على هذه القطعة أنواع العمليات والصناعات ويضعها في أنواع المحاليل كي يظفر بالذهب الخالص. كذلك الدين الإسلامي: فإنه بقوانينه وأحكامه يجري على النفس الإنسانية أنواع الامتحانات والرياضات النفسية كي تصغو رويداً رويداً عما علق بها من ردئ الصفات وذمائم الأخلاق، فتتوجه نحو مكارم الصفات وفضائل الأخلاق، وتتمرن عليها لتكون لها طبيعة ثانية: طبيعة فيها من المكارم والفضائل ما يجعل الإنسان قميناً ليتنعم ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النِّساء: الآية ٦٩]، جديراً بالخلود في جنة ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣].

فحري بالإنسان أن يجاهد نفسه ليخرج من هذه الدنيا بالذهب الخالص ولنعم ما قال الشاعر (الناشئ الصغير): «عليٌّ الدر والذهب المصفى».

فإن الإنسان ناقص عندما يولد، وفيه من ذمائم الصفات مالا يوصف. ولابد له من أن يدخل في هذا السير التكاملي بتطبيق ما جاء في الدين المحمدي وأن يتمسك بالكتاب والعترة الطاهرة ﷺ. فلا كمال ولا نجاة إلا بالتمسك بهما والعمل بما أمرا به، لوجه الله الكريم. ومن وفق إلى هذه التجربة المنجية فقد شعر بتلك التجليات القدسية والكمال النفسي نادماً على ما فرط في جنب الله، متأسفاً على ما سوَّف من توبة واستغفار وتلافي ما فات.

إذا تتبعتم العبادات بأنواعها وما أمر به الدين الإسلامي من زكاة وخمس وإيتاء ذي القربى واليتامى والمساكين وما نهى عنه من خمر وميسر وأنصاب وأزلام وزنا

وكذب وغيبة ونميمة وبهتان وافتراء وسرقة وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم وبغي وظلم إلى ما هنالك لرأيتم أنها برمتها تستهدف تنزيه النفس الإنسانية مما علق بها من أدران المادة والصفات الرذيلة واللؤم والخبث وحب المال والركون إلى المادة وتحليتها بالفضائل والمكرمات والصفات الإنسانية الكاملة كي تكون لائقة للقاء الله تعالى حرية بالخلود في نعيم أبدي سرمدي.

ولا مراء أن الله تعالى جلّ شأنه عن أن يلاقي، وإنما يكون العبد بقطعه مراحل التكامل موضع عطفه ورفده، فيكون مقرباً إليه. إنه تعالى يقول: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: الآيتان ٢٢/ ٢٣]. أي تنال هذه الوجوه من مراتب الزلفى بحيث تكون كأنها ناظرة إلى ربها. ويقول الله في آية أخرى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطفّفين: الآية ١٥] أي مبعدون معذبون منسيون.

إن الله تبارك وتعالى وهو معطي الكمالات قد خلق الموجودات المادية كلها في أكمل وجه، وأراد بالإنسان أن لا يشذ عن سنة الكمال، ونبّه على ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التّين: الآية ٤]. فأرسل أنبياء ورسلاً يملون على الإنسان طرق الكمال النفسي. وجهز الإنسان بعقل يأمره بإتباع سنة الكمال (بصورة فطرية) لو لم يدنس الإنسان نفسه بإتباع الشهوات ويلوثها بارتكاب الموبقات. فالدين الإسلامي دين صناعة النفس، دين تكوين النفس وإبلاغها الكمال المنشود.

ومن جملة تلك الصناعات الخطيرة التي لا يمكن أن يتوصل إليها العقل البشري بذاته، هو الزكاة. فالزكاة ـ كما يقول الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التّوبَة: الآية ١٠٣] ـ وسيلة لتطهير النفس عن رذيلة البخل والشح. لأن النفس الإنسانية مجبولة على البخل بالمال، مادية مظلمة. فتتنوّر بتقديمها من فضول ما أنعم الله عليها، فتصفو شيئاً فشيئاً وتتخلّق بالكرم والجود وترتاض في هذا الحقل فتؤدي الأمانات إلى أصحابها وتوصل الحقوق إلى مستحقيها.

فالفرق بين المدنية الإسلامية والمدنية الغربية، أن المدنية الإسلامية تنظر إلى النفس وتستهدفها وتعمل ضمن تحقيق الحياة المادية السعيدة من أجل تكامل النفس

وارتقائها. لذلك يستحب للشخص أن يعطي الزكاة المندوبة سراً دون أن يعلم أحداً بذلك. كي لا يخالط عملية التزكية العجب وحب الثناء وحب الجاه وأمثال ذلك. فلا يسري أثر الزكاة والعطاء إلى نفس المعطي مع العجب وحب الثناء وحب الشهرة. فلو لم يتوخ في عطائه هذا وجه الله لن تزكو نفسه ولن تسير في مجالات الكمال خطوة واحدة.

وهكذا يمزج الإسلام بين المدنية الروحية والمادية. بل الهدف الأسمى من الدين الإسلامي هو المدنية الروحية. وإنما يحقق الإسلام المدنية المادية للبلوغ إلى مدنية روحية رفيعة. إذ «الدنيا مزرعة الآخرة». والآخرة هي الحياة الحقيقية التي يحق أن يطلق عليها لفظ (الحياة). ذلك لأن السبب الرئيسي من وجودنا في هذه الدنيا: بلوغنا إلى أسمى مدنية روحية فيها كمال الملكات أي كمال النفس الإنسانية، وهذا الكمال ينتهي إلى معرفة الله تعالى. لا يفهم حقيقتها ومدارها إلا من تذوق الكمال النفسي. وإن طريقة هذه المعرفة السامية: (معرفة الله تعالى) هي العبادات والأعمال الصالحات. إنه تعالى يقول: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٤]. لننظر إلى بعض حِكَم الزكاة وآثارها المادية: نرى بعض الأغنياء يشكون البطنة من كثرة الأكل، ونرى فقراء يشكون الجوع. فلو أعطى الأغنياء ما فضل عن حاجتهم من الطعام لهؤلاء الفقراء، لما شكى واحد منهم سقماً ولا ألماً. فجدير بالغني أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته ويطفي غلته. ولكن لحبه لنفسه ومغالاته بها يضم إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير، فيعاقبه الله في الدنيا بالبطنة حتى لا يهنئ للظالم ظلمه ولا يطيب له عيشه وفي الآخرة عذاب أليم! وإن أصحاب النار ليعترفون (بعد دخول النار) بعدم إطعامهم المسكين بعد اعترافهم بتركهم (الصلاة) وذلك بقولهم: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدّثر: الآيتان ٤٣/ ٤٤]. وإن الله جلّ وعلا جعل أحد عوامل التكذيب بدينه: عدم حث النفس أو حث الغير على تهيئة طعام المسكين بقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [المَاعون: الآيات ١/ ٣].

لذلك يعلمنا المثل الكامل علي عليه السلام عندما يخاطب سهل بن حنيف عامله على البصرة بقوله: «أما بعد يا ابن حنيف، فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة، فأسرعت إليها، تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان! وما ظننتُ أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم[١] مجفو[٢] وغنيهم مدعو فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم[٣]. فما اشتبه عليك علمه فالفظه[٤] وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه. ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه. ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه[٥] ومن طعمه بقرصيه. ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك. ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد. فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً[٦] ولا أدخرت من غنائمها وفراً. ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً[٧] ولا حزت من أرضها شبراً ولا أخذت منه إلا كقوت أتان دبرة[٨] ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصة[٩] مقرة[١٠] بلى، كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء، فشحت عليها نفوس قوم، وسخت عناء نفوس قوم آخرين. ونعم الحكم الله. وما أصنع بفدك وغير فدك. والنفس مظانها في غد جدث[١١] تنقطع في ظلمته آثارها، وتغيب أخبارها. وحفرة لو زيد في فسحتها، وأوسعت يدا حافرها لأضغطها الحجر والمدر. وسد فرجها التراب المتراكم. وإنما هي نفسي، أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق. ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز. ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخيير الأطعمة. ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع! أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى!! أو أكون كما قال القائل:

---

(١) العائل: المحتاج.
(٢) مجفو: مطرود.
(٣) المقضم: المأكل.
(٤) فالفظه: فاطرحه.
(٥) الطمر ـ بالكسر ـ الثوب البالي.
(٦) فتات الذهب والفضة قبل أن يصاغ.
(٧) ثوباً.
(٨) أتان دبرة: حمارة أصيبت بقرحة تحدث من الرحل ونحوه.
(٩) عفصة: نتوء يكون على شجرة البلوط.
(١٠) مقر: نبات مر.
(١١) الجدث: القبر.

وحسبك داء أن تبيت ببطنة   وحولك أكباد تحن إلى القد[١]

أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر؟! أو أكون أسوة لهم في جشوبة[٢] العيش؟! فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها، أو المرسلة شغلها تقممها[٣]، تكترش[٤] من أعلافها وتلهو عما يراد بها، أو أترك سدى وأهمل عابثاً، أو أجرَّ حبل الضلالة أو اعتسف طريق المتاهة... إلى أن قال: وأيم الله ـ يميناً استثنى فيها بمشيئة الله ـ لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً. ولأدعن مقلتي كعين ماء نضب معينها مستفرغة دموعها. إلى أن قال: طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها، وعركت بجنبها بؤسها[٥]، وهجرت في الليل غمضها، حتى إذا غلب الكرى[٦] عليها افترشت أرضها، وتوسدت كفها، في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجافت[٧] عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم، وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢].

فاتق الله يا ابن حنيف. ولتكفك أقراصك، ليكون من النار خلاصك»[٨]. ولا أظن أن هناك موعظة تؤثر في النفوس كهذه الموعظة. فإن علياً عليه السلام يضع لنا منهاجاً قويماً لو عملنا به لأوصلنا إلى «مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». فطوبى للعاملين على ضوئه والناهجين وفق دستوره.

الزكاة الباطنة

عن المفضل بن عمر قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فسأله رجل: في كم تجب الزكاة من المال؟ فقال له: الزكاة الظاهرة أو الباطنة تريد؟ فقال: أريدهما جميعاً.

---

(١) جلد السخلة كان يؤكل في الجدب.
(٢) خشونة.
(٣) التقاطها القمامة أي الكناسة.
(٤) تملأ كرشها.
(٥) عركه بالجنب: الصبر ليه كأنه شوك فيسحقه بجنبه.
(٦) النعاس أو النوم.
(٧) تنحت.
(٨) نهج البلاغة: ص٤١٦، كتاب رقم٤٥.

فقال: «أما الظاهرة: ففي كل ألف، خمسة وعشرون. وأما الباطنة: فلا تستأثر على أخيك بما هو أحوج إليك منك»[١].

ولسنا الآن بصدد بيان الزكاة الظاهرة، لظهورها. ونريد أن نتكلم عن الزكاة الباطنة. وقد حث الدين الإسلامي على هذا النوع من الزكاة: صلة الرحم والتصدق والإنفاق، بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سَبَإ: الآية ٣٩].

فلماذا يبخل هذا الإنسان وقد وعده الله تعالى أنه يخلف له ما أنفقه وهو أصدق الصادقين. أليس ذلك لضعف في الإيمان وخلل في التقوى وانحطاط في النفس وتسافل نحو المادة وركون إلى الأرض الفانية وشح مميت؟! وقد جاء في الحديث: «إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم (أي الشح) بالكذب فكذبوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»[٢].

قال علي عليه السلام: «تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها».. إلى أن قال «ثم إن الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام، فمن أعطاها طيب النفس بها فإنها تجعل له كفارة، ومن النار حجاباً ووقاية. فلا يتبعنها أحد نفسه ولا يكثر عليها لهفة. وإن من أعطاها غير طيب النفس بها يرجو بها ما هو أفضل منها، فهو جاهل بالسّنّة مغبون بالأجر، ضال العمر طويل الندم»[٣]. وقال: «سوسوا إيمانكم بالصدقة وحصنوا أموالكم بالزكاة، وادفعوا أمواج البلاء بالدعاء»[٤]، فبالصدقة يساس الإيمان ويصان، ومع عدم أدائها يضعف الإيمان ويزول.

سئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: الآيتان ٢٤/ ٢٥]. أهو سوى الزكاة؟ فقال: «الرجل يؤتيه الله الثروة من المال فيخرج منه الألف والألفين والثلاثة آلاف والأقل والأكثر، فيصل به رحمه ويحمل به الكل عن قومه»[٥]. وقد قال أيضاً: «المعروف شيء سوى الزكاة، فتقربوا

---

(١) الكافي: ج٣، ص٥٠٠، باب فرض الزكاة.
(٢) وسائل الشيعة: ج٩، ص٤٢، باب ٥.
(٣) الكافي: ج٥، ص٣٦.
(٤) نهج البلاغة: ص٤٩٥.
(٥) الكافي: ج٣، ص٤٩٩، باب فرض الزكاة.

إلى الله بالبر وصلة الرحم»[١]. حقاً: ليس هناك شيء يقرب العبد إلى الله في السر والعلن ويشوقه إلى المناجاة والاستغفار والإنابة والشكر والتسبيح والرضا والتسليم كالبر وصلة الرحم. نعم، إن البر والصدقة ينفيان الفقر ويزيدان في العمر ويدفعان سبعين ميتة سوء، كما جاء في الحديث.

ولقد قال رسول الله ﷺ: «من منع الماعون من جاره إذا احتاج إليه، منعه الله فضله يوم القيامة ووكله إلى نفسه، ومن وكله الله إلى نفسه هلك ولا يقبل الله تعالى له عذراً»[٢].

وهذا علي الرضا عليه السلام يقول: «سئل رسول الله ﷺ هل في المال حق سوى الزكاة؟ قال نعم، بر الرحم إذا أدبرت وصلة الجار المسلم، فما آمن بي من بات شبعان وجاره المسلم جائع»[٣]. ثم قال: «وما زال جبرائيل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه يورثه»[٤]. وهو القائل: «أتدرون ما حق الجار؟ إذا استعان بك أعنته، وإن استنصرك نصرته، وإن استقرضك أقرضته وإن مرض عدته، وإن مات شيعت جنازته، وإن أصابه خير هنأته وإن أصابته مصيبة عزّيته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذه، وإذا اشتريت فاكهة فاهدها له، وإن لم تفعل فادخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذه بقتار[٥] قدرك إلا أن تغرف له منها. ثم قال: أتدرون ما حق الجار؟ والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله»[٦].

وهذا علي الهادي عليه السلام يدخل عليه أبو عمر وعثمان بن سعيد وأحمد بن إسحاق الأشعري وعلي بن جعفر الهمداني. فيشكو إليه أحمد بن إسحاق ديناً عليه، فيقول الإمام عليه السلام يا أبا عمرو ـ وكان وكيله ـ إدفع إليه ثلاثين ألف ديناراً، وإلى علي بن جعفر

---

(١) الكافي: ج٤، ص٥٩٠، باب دعوات موجزات.

(٢) وسائل الشيعة: ج٥، ص٣٤٠، باب ٢٧.

(٣) وسائل الشيعة: ج٩، ص٥٢، باب الحقوق.

(٤) بحار الأنوار: ج٧٩، ص٩٣، باب ١٦.

(٥) القتار: رائحة الطعام.

(٦) بحار الأنوار: ج٧٩، ص٩٣، باب ١٦.

ثلاثين ألف ديناراً، وخذ أنت ثلاثين ألف ديناراً، وقد اشترى له إسحاق الجلائب غنماً كثيرة يوم التروية فقسمها في أقاريه.

وهذا علي بن الحسين عليه السلام يدخل على محمد بن أمامة بن زيد في مرضه فجعل يبكي. فيقول له الإمام: ما شأنك؟ يقول: عليَّ دين: خمسة عشر ألف دينار. فيقول الإمام عليه السلام «فهو عليَّ».

وعن الزمخشري في ربيع الأبرار: إنه لما أرسل يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة لقتال أهل المدينة واستباحتها، كفل زين العابدين عليه السلام أربعمائة امرأة مع أولادهن وحشمهن وضمهن إلى عياله بنفقتهن وإطعامهن، إلى أن خرج ابن عقبة من المدينة. فأقسمت واحدة منهن: إنها ما رأت في دار أبيها وأمها من الراحة والعيش الهنيء ما رأته في دار علي بن الحسين عليه السلام. وما كان يأكل الطعام حتى يبدأ فيتصدق بملثه (بثلثه).

وروى أحمد بن حنبل أن علي بن الحسين عليه السلام كان يعول مائة أهل بيت من فقراء المدينة، في كل بيت جماعة. وروى في الحلية أنه حين مات وجدوا بظهره آثاراً مما كان يحمل بالليل الجراب إلى المساكين[١].

وفي الحلية بسنده عن ابن عائشة عن أبيه: سمعت أهل المدينة يقولون: ما فقدنا صدقة السر حتى مات علي بن الحسين عليه السلام.

وقد روى الصدوق في العلل بسنده عن سفيان بن عيينة: رأى الزهري علي بن الحسين عليه السلام في ليلة باردة ممطرة وعلى ظهره دقيق وهو يمشي فقال: يا ابن رسول الله ما هذا؟ قال: «أريد سفراً أعد له زاداً أحمله إلى موضع حريز». قال: فهذا غلامي يحمله عنك. فأبى. فقال: أنا أحمله عنك فإني أرفعك عن حمله... قال الإمام عليه السلام: «لكني لا أرفع نفسي عما ينجيني في سفري ويحسن ورودي على ما أرد عليه. أسألك بحق الله لما مضيت لحاجتك وتركتني». فلما كان بعد أيام قال له: يا بن رسول الله، لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً. قال: «بلى يا زهري، لست ما ظننت ولكنه الموت وله أستعد. إنما الاستعداد للموت تجنب الحرام وبذل الندى في الخير»[٢].

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٦، ص٦٦، باب ٥.

(٢) وسائل الشيعة: ج٩، ص٤٠١، باب ١٤.

وكان ذلك الدقيق قد حمله ليتصدق به ويعده زاداً لسفر الآخرة.

كيف لا يكون كذلك، وهو خريج مدرسة علي عليه السلام. فعليٌّ كان يأكل أكلة العبد؟ ويجلس جلسة العبد، وإن كان ليشتري القميصين السنبلانيين فيخير غلامه خيرهما ثم يلبس هو الآخر. فإذا جاز أصابعه قطعه، وإذا جاز كعبه حذفه، ولقد ولي إمرة المسلمين خمس سنين ما وضع آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة، ولا أقطع قطعية، ولا أورث بيضاء ولا حمراء، وإن كان ليطعم الناس خبز البر واللحم وينصرف إلى منزله ويأكل خبز الشعير بالزيت والخل، وما ورد عليه أمران كلاهما لله رضى إلا أخذ بأشدهما على بدنه.

ولقد أعتق عليه السلام ألف مملوك من كدّ يده، تربت فيه يداه وعرق فيه وجهه، وما أطاق عمله من الناس أحد. وإن كان ليصلي في اليوم والليلة ألف ركعة.

نستنتج من كل ذلك أن دواء البشر الوحيد هو الدين، ففيه علاج الفقر وعلاج الشقاء وعلاج المفاسد الاجتماعية والأخلاقية والمدنية، وفيه صفاء القلوب واطمئنان النفوس وراحة الوجدان والضمير.

الزكاة الواجبة

إن الدين الإسلامي قد عالج كل نقص في الحياة الروحية والاجتماعية والمادية، فأوجد التوازن بين الروح والبدن ولم يهمل ناحية دون ناحية. فبينما يأمر بالصلاة لتزكو بها النفس الإنسانية، فتؤدي بها واجب الشكر وتتطهر مما علق بها من صفات خبيثة وخصال مميتة لتسمو فتبلغ ذروة الكمال، يأمر الفرد في الوقت نفسه بإعطاء الزكاة، وتقديم شيء يسير من فضول المال إلى إخوانه المسلمين الذين حرموا من المال لحكمة يعلمها الله تعالى وهي في صالح الإنسان لو تعمق وتدبر. لذلك ترون أن الله تعالى يكرر في قرآنه الكريم الصلاة والزكاة متعاقبتين ويصف المتقين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البَقَرَة: الآية ٣].

فعن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام: «فرض الله الزكاة مع الصلاة» أي إن الزكاة قرينة الصلاة وفي مرتبتها.

وقد روى عبد الله بن سنان في حديث له، أنه نادى منادي رسول الله ﷺ في المسلمين: «زكّوا أموالكم تقبل صلاتكم»(١).

وقد منع رسول الله ﷺ جماعة كانوا يصلون في المسجد عن الصلاة، ذلك لأنهم ما كانوا يزكون أموالهم. فليعلم مانعوا الزكاة أن صلاتهم لا تقبل ولا يموتون على الإسلام. فعن أبي عبد الله عليه السلام: «من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»(٢). وقد روى أبو بصير، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «من منع قيراطاً من الزكاة فليس بمؤمن ولا مسلم، ولا تقبل له صلاة»(٣). وهو قوله تعالى: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ ذلك لأن مانع الزكاة يسأل الرجعة عند الموت.

إن الله تعالى بالغ في الاهتمام بأمر الفقراء والمساكين حتى قال جل من قائل: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٣٤/ ٣٥].

وقد سئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٠]. فقال: «ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب»(٤).

ثم الله تعالى هو معطي المال وهو المهيئ أسباباً ينال بها الشخص المال الكثير، وقد وعد جلّ جلاله: أنه سيعوض المزكي أضعاف ما يزكي من ماله، بقوله: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: الآية ٣٩]. وبقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٧٢]. وبقوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: الآية ٣٩].

والزكاة منمية للمال حافظة لها من التلف والغرق (وهناك حوادث كثيرة تبرهن

---

(١) الكافي: ج٣، ص٤٩٧، باب فرض الزكاة.

(٢)،(٣)،(٤) الكافي: ج٣، ص٥٠٥، باب منع الزكاة.

على صدق ما قلنا لا مجال لذكرها). كما أن عدم دفع حق الفقراء والمساكين يؤدي إلى إنفاق ذلك في الباطل. فقد قال الصادق عليه السلام: «من منع حقاً لله أنفق في الباطل مثليه»[١].

ولقائل أن يقول: فلماذا ترى أُناساً لا يؤدون حق الله ولا يزكون أموالهم وهم يزدادون يوماً فيوماً غنى وثراء؟ جواب ذلك: ان الله تعالى يهيئ وسائل الهداية والرشاد لكل عبد من عباده، فيتم عليهم الحجة، فإن تمادوا في غيهم وثابروا على هتك حرمات الله واستهتروا بما سنّه الله وقرره، تركهم وأنفسهم وأملى لهم بإعطائهم من الأموال والأولاد الشيء الكثير وفي الآخرة عذاب أليم. وقد قال جلّ من قائل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٨]. وفي موضع آخر: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ١٩٦/ ١٩٧].

وبالزكاة تحصن الأموال وتحفظ، فقد قال موسى بن جعفر عليه السلام: «حصنوا أموالكم بالزكاة». وإنّ من لم يزك ماله عد في لسان الشرع سارقاً. و«السراق ثلاثة: مانع الزكاة، ومستحل مهور النساء، وكذلك من استدان ديناً ولم ينو قضاءه»[٢]... الحديث.

إن العقل ليحكم بصورة طبيعية فطرية أنّ شكر المحسن أمر واجب. وشكر كل شيء زكاته. فإن منَّ الله على عبد بعظيم نعمه فليس لهذا العبد إلا أن يقوم بواجب الشكر تجاه خالقه لما ميزه عن بعض مخلوقاته وخصه بلطفه ورفده. ويلزم أن يتناسب الشكر مع النعمة التي أولانا الله بها. فقد قال علي عليه السلام: «زكاة السلطان: إغاثة الملهوف، وزكاة الجمال: العفاف، وزكاة القدرة: الإنصاف، وزكاة الشجاعة: الجهاد في سبيل الله»[٣].

---

(١) الكافي: ج٣، ص٥٠٥، باب منع الزكاة.

(٢) تهذيب الأحكام: ج١٠، ص١٥٣، باب ١٠.

(٣) غرر الحكم في قصار الحكم للإمام علي عليه السلام.

فيكون إذن زكاة المال أن تعطي شيئاً ضئيلاً من مالك إلى من فضلت عليهم بمنه تعالى. هذا أمر طبيعي يحكم به كل ذي وجدان سليم: لم تدنسه الذنوب والآثام ولم تخرجه عن حالته الفطرية الطبيعية الموبقات والإجرام. ولذلك شدد الله النكير على ما نعي الزكاة وأبعدهم عن ساحته وتوعدهم بالعذاب الأليم. وقد قال الصادقﷺ: «ما فرض الله على هذه الأمة شيئاً أشد عليهم من الزكاة وفيها تهلك عامتهم»[1].

ما أقل ما فرض الله على عباده! فلقد فرض في النقدين: الفضة والذهب، ٢,٥٪: (اثنان ونصف في المائة). أي من كانت له ١٠٠ دينار وبقيت على حالها ومضى عليها حول كامل، عليه أن يزكيها بإعطاء: دينارين ونصف دينار منها.

ولا فرق، على رأي بعض العلماء، بين النقود الفضية والذهبية، وما يقوم مقامها من الأوراق النقدية. ذلك لأن الأوراق النقدية بمثابة أسناد و (صكوك) تعطى بيد الناس تنوب عن النقود الذهبية والفضية المودعة في المصارف (البنوك). وقد توضع في البنوك إزاء هذه الأوراق النقدية، سبائك ذهبية وأحجار ثمينة تبدل إلى نقود أيضاً. فالشخص إنما يرجح أخذ الأوراق وحفظها لسهولتها. وليس معنى ذلك أنه يحتفظ بأوراق لا قيمة لها، حتى تعتبر أوراقها لا علاقة لها بالنقود. ذلك لأن الشخص الذي يستلم هذه الأوراق لو علم أنها لا تستبدل بنقود ذهبية وفضية لما حفظها لديه ولما خاصم خصمه عليها ولما راجع المحاكم. وإن دين الله لا يقبل الالتواء. إذن، الأوراق النقدية تقوم مقام النقود الذهبية والفضة دونما ريب، لإمكان تحويلها إليها متى شاء الشخص ذلك ولأنها مدار العيش وتتوقف عليها حياة الفقير.

ولامراء أن الغرض الرئيس من فرض الزكاة هو تزكية الأموال المتكدسة وإيجاد راحة الفقير العاجز المسكين. فلو جمدنا على الألفاظ ولم تتطرق إلى حكمة التشريع فقد ألغينا الغرض الذي وضعت لأجله الزكاة وكأنها لم توضع، وأبطلنا أعظم حكم من أحكام الإسلام وحرمنا الفقراء والمساكين حقوقهم مع ما هنالك من تأكيد لا مزيد عليه في الكتاب والسنة.

---

(١) الكافي: ج٣، ص٤٩٧، باب فرض الزكاة.

إن عامة الناس تطلق على الأوراق النقدية: النقود، فتقول: إن فلاناً يملك نقوداً كثيرة مع علمها أنه لا يملك غير الأوراق النقدية. وليس من المعقول أن يقال: إن المعاملات قد تقع على الأوراق النقدية مجردة عن قيمتها الحقيقية النقدية. ذلك لأن الذي يتعامل بها لو علم أن الحكومة قد أعلنت سقوط هذه الأوراق عن درجة الاعتبار يلغي المعاملة حالاً ويراها لا قيمة لها.

ففي الأوراق النقدية زكاة كما في النقدين إذا بلغ كل منهما حد النصاب حفظاً لحق الفقير وعملاً بالتأكيدات الواردة في الشرع، تأكيداً لا يقل عن الصلاة!

وتستحب الزكاة في الحبوب مما يكال أو يوزن، وفي الثمار والبقول وفي مال التجارة والخيل والأملاك والعقارات.

يقول أحد كبار علماء الاقتصاد في الغرب: ما أحسن ما سنه الدين الإسلامي من زكاة الأموال، فهو العلاج الوحيد لرفع البحران الاقتصادي والتضخم المالي.

أنظروا إلى هذه النسبة الضئيلة التي فرضها الله في زكاة الأنعام الثلاثة: الإبل والبقر والغنم، فهو لا يتجاوز ٢,٥٪. ففي خمس من الإبل شاة، وفي ست وعشرين، بنت مخاض؛ وهي الداخلة في السنة الثانية، وفي ست وسبعين، بنتاً لبون. وشرح ذلك مسطور في كتب الفقه المختصرة والمفصلة.

وأما زكاة الغلاة: فالعشر إذا كان السقي بالماء الجاري أو المطر أي بلا واسطة ميكانيكية. فإن كان السقي بواسطة ميكانيكية فنصف العشر أي ٥٪ وذلك بعد إخراج الضرائب والمؤونة من أجرة الحارث والساقي وأجرة الأرض إن كانت مستأجرة وأجرة الحفظ والحصاد إلى غير ذلك.

نعم، إن الله قد علم أن هذا المقدار الضئيل من الزكاة كاف لسد حاجات المحتاجين وإيجاد حياة سعيدة في هذه الأرض، ومانع عن تذمر المتذمرين وإفساد المفسدين، وقد قال الصادق عليه السلام:

«إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء ومعونة للفقراء ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً، ولاستغنى بما فرض الله. وإن الناس ما افتقروا

ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء. وحقيق على الله أن يمنع رحمته من منع حق الله في ماله. وأقسم بالذي خلق الخلق وبسط الرزق أنه ما ضاع مال في بر ولا بحر إلا بترك الزكاة. وما صيدَ صيدٌ في بر ولا بحر إلا بتركه التسبيح في ذلك اليوم، وإن أحب الناس إلى الله أسخاهم كفاً، وأسخى الناس من أدى زكاة ماله ولم يبخل على المؤمنين بما فرض الله لهم في ماله»[1].

نعم، إن الدين الإسلامي يربي الفرد بصورة عملية على الصفات الحميدة والخصال المجيدة للبلوغ إلى الكمال الإنساني، ومنها السخاء ومفتاحه الزكاة. فإن رسول الله ﷺ قال لرجل من المشركين: «لولا أن جبرئيل أخبرني عن الله عزّ وجلّ أنك سخي، تطعم الطعام لشردت بك وجعلتك حديثاً لمن خلفك. فقال له الرجل: وإن ربك ليحب السخاء؟ فقال نعم، قال: (المشرك إذ ذاك): أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله»[2].

ولجباية الزكاة آداب سامية، يعلمنا علي عليه السلام، فإنه كان يقيم عماد الحق ويشرع أمثلة العدل في صغير الأمور وكبيرها، دقيقها وجليلها. ومن جملة وصاياه لمن كان يستعمله على الصدقات:

«انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروعنّ مسلماً ولا تجتازن عليه كارهاً ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله. فإذا قدمت على الحي، فأنزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم. ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم. فتسلم عليهم ولا تخدج (أي لا تبخل) بالتحية لهم. ثم تقول: عباد الله، أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم. فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟ فإن قال قائل لا، فلا تراجعه... الخ»[3].

ويقول عليه السلام في مكان آخر مخاطباً عامله على الصدقات: «وإن لك في الصدقة نصيباً مفروضاً وحقاً معلوماً وشركاء أهل مسكنة وضعفاء ذوي فاقة، وإنا موفوك

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٧.

(٢) الكافي: ج٤، ص٣٩، باب معرفة الجود.

(٣) نهج البلاغة: ص٣٨٠، خ٢٥.

حقك، فوفهم حقوقهم، وإلا فإنك من أكثر الناس خصوماً يوم القيامة، وبؤساً لمن خصمه عند الله الفقراء والمساكين والسائلون والمدفوعون والغارمون وابن السبيل. ومن استهان بالأمانة ورتع في الخيانة ولم ينزه نفسه ودينه عنها فقد أحل بنفسه في الدنيا الذل والخزي وهو في الآخرة أذل وأخزى. وإن أعظم الخيانة خيانة الأمة وأفظع الغش غش الأئمة»[1].

كيف يجب أن نكون

سؤال يجيب عنه كثير من علماء الأخلاق والفلاسفة في الغرب بطرق عدة، كل حسب ما توصل إليه من المعتقدات. ولا يتوصل الشخص إلى معتقدات إلا بدرجة تكامل نفسه وتجردها من الرجس والأدناس. «وكل إناء بالذي فيه ينضح».

فالمعتقدات مرآة النفس، فإذا شئت أن تحكم على أخلاق شخص ودرجة تكامله النفسي عليك أن تبحث عن معتقداته ودرجة عمله في تحقيق مصاديق تلك المعتقدات مع نفسه ومع غيره. فهذا البحث يهديك إلى تقدير درجة نفسية أو درجة كمالية لذلك الشخص.

إني لا أريد أن أبين هنا شيئاً عن آراء شتى الفلاسفة وعدد من الأخلاقيين في الغرب، لتضارب آرائهم وجرح بعضهم البعض. ذلك لأن آراءهم خرجت عن التفكير الفطري المجرد عن كل شائبة خارجية أو داخلية وإنما أريد أن أستنبط جواب هذا السؤال ببحث علمي بحت.

يرى المطالع في أحوال الكون: أن الأنجم تسير في أفلاك معينة لا تحيد عنها، وكل هذه الأفلاك أو المدارات التي تضبط بمعادلات رياضية متقنة تشير إلى النظام الرائع والانتظام البديع الذي أودعه الله في هذا الكون. يرى أن للخسوف أو الكسوف حسابات خاصة وقوانين معينة على وجه يمكن حساب زمان وقوعهما قبلاً ومدة دوامهما.

يرى أنه لولا ميلان مدار الأرض عن دائرة الكسوف ٢٣ درجة و ٢٧ دقيقة لما حدث اختلاف الليل والنهار الذي ينتج منه الحر والبرد واختلاف الفصول وفوائد لا

---

(١) نهج البلاغة: ص٣٨٢، خ٢٦.

تعد ولا تحصى. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ [الحج: الآية ٦١].

يرى لولا حركة الأرض الوضعية لكان النصف من الكرة الأرضية في ظلام دائم والنصف الآخر في ضياء دائم واحتراق شديد. ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾ [النمل: الآية ٨٨] ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: الآيتان ٧١/ ٧٢].

يرى أن الحكمة البالغة جعلت السيارات (الكواكب) تدور على مسير اهليلجي (قطع ناقص) حول الشمس على أن تكون الشمس أحد محراقيه (بؤرتيه).

يرى أن الشعاع الحامل الذي يوصل الشمس بإحدى السيارات (الكواكب) يقطع في أزمنة متساوية سطوحاً متساوية. وفي ذلك من الحكمة الفائقة.

يرى أن مربعات أزمنة الدور النجومي للسيارات (الكواكب) تتناسب مع مكعبات نصف المحور الأطول لمداراتها، وفي ذلك الحكمة العالية.

يرى أن نظرية (لابلاس) في تشكل المنظومة الشمسية موجودة بشكل صحيح لا يقبل الجرح والتعديل في القرآن الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٣٠/ ٣١].

يرى أن تشكل المطر أو الودق قد جاء ذكره في القرآن لتوجيه الناس إلى عظيم صنع الله بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور: الآية ٤٣][١]. والجبال التي فيها من برد هي الثلاجات (Clacier) أو (Iceberg) تتوجه من النروج إلى خليج مكزيك في المحيط الأطلسي.

---

(١) يزجي سحاباً: أي يسوق السحاب أو البخار.

يرى أن قوة خارقة تسير السيارات (الأنجم) بانتظام خاص وتمنعها عن الميدان والانحراف والاضطراب. وهذا ما يعبر عنه: بالجاذبية العامة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[فَاطِر: الآية ٤١] .

يرى أن الأجسام تمتد بالحرارة وتتقلص بالبرودة أي عند تقليل درجة الحرارة، إلا الماء. ففي الدرجة الرابعة من الحرارة المئوية يكتسب الماء الكثافة العظمى، فإذا قللنا درجة الحرارة عن (ـ ٤°م) تقل كثافة الماء ويزداد حجمه، فيكون (١) ستيمتر المكعب من الماء في درجة الصفر المئوي أقل وزناً عن نفس الكميّة من الماء في٣°م، بخلاف بقية الأجسام، لذلك يكون الجليد أخف من الماء مع اتحاد الحجم، فيطفو على سطح الماء. وقد وجد أن حجم الغرام الواحد من الجمد أو الجليد في درجة الصفر المئوي = ٠٩١/١سم٣، فإذا ساح إلى الماء في درجة الصفر أيضاً أصبح حجمه = ١,٠٠٠١٢سم٣. فالجليد أو الجمد أخف من الماء حتى في درجة الصفر.

ولولا هذا الشذوذ بأمره تعالى في تغير الكثافة أي لو كانت كثافة الماء العظمى في درجة الصفر (لا في ٤°م) كبقية السوائل، لغاص كل ما تجمد من سطح الماء ورسب في القعر. وتجمد ما يزيحه الجليد الراسب الساقط في قعر الماء إلى الأعلى وعلى هذا المنوال كان يتجمد البحر أو البحيرة من الأعلى إلى الأسفل ولأصبحت البحيرة قطعة ثلج! فلا ترى حيواناً يتنعم بالحياة في أعماق البحار والبحيرات. ولا نقلب البحر برمته إلى ثلاجة ما كان يكفي لذوبانها حرارات الفصول، لاسيما في المناطق الباردة، ولانتفى عند ذلك انتفاع الإنسان بالبحر.

وبما أن الله تعالى قد جعل كثافة الماء العظمى في (٤°م) فإذا برد الجو وصارت درجة حرارة الماء للسطح العلوي (+٤°م) نزل هذا الماء إلى القعر لثقله بالنظر إلى وزن الماء في الطبقات السفلى وهكذا حتى تصبح درجة حرارة الماء في القعر (+٤°م). ثم إذا نقصت درجة الحرارة إنجمد السطح الأعلى فقط من البحيرة عن قشرة غير سميكة، ولما أمكن نزول هذه القشرة إلى القعر لخفته وبقي القسم الأسفل من البحيرة سالماً من الانجماد تعيش فيه الحيوانات بهناء وسرور.

فيرى أنه لو أطرد انقباض الماء بالبرودة وتمدده بالحرارة كبقية الأجسام (أي لولا هذا الشذوذ رأفة بالحيوانات البحرية لتبقى حية) لانقلب البحر كله إلى جليد في فصل الشتاء ولتلفت الحيوانات كلها بتجمده ولامتنعت التجارة البحرية ولانقلب الجو بارداً بتأثير الثلوج البحرية ولتعسرت الحياة البشرية. فيستنتج من ذلك كله أن ليس للطبيعة العمياء أن تفكر في حياة الحيوانات البحرية والتجارة البشرية فتجعل كثافة الماء (+٤°م) في النهاية العظمى خلافاً لبقية الأجسام!.

يرى قوانين رياضية دقيقة منظمة لا تعد ولا تحصى في ربط الحوادث الفيزيائية بعضها ببعض كلها تحت أغراض حكيمة ومصالح دقيقة.

يرى مثلاً أن التيار المتناوب يفسر بالكميات المبهمة أو المحدثة في معادلاتها في الفيزياء العالية.

يرى أن أشعة روتكن لها من الخواص ما يبهر العقول، وأن أشعة: أورانيوم وتوريوم وراديوم تنقسم حسب نفوذها في المادة إلى أشعة: آلفا وبتا. لكل منهما خواصها.

يرى أن أشعة (إس) كيف يحصل عليها من أشعة (اكس) ويحار في انتظاماتها وقوانينها.

يرى أن الأشعة الكونية لها من الآثار والقوانين ما يعجز عن استقصائها العلماء وإن اشتغلوا مئات السنين، حتى يقول الفيزيائي نحن في ساحل بحرٍ من المجهولات لا تُدرك نهايته: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحِجر: الآية ٢١].

يرى أن الأجزاء الصغيرة من الماء المعلقة في الهواء أو الأبخرة عند انقلابها إلى الثلج (الصقيع) تأخذ أشكالاً هندسية منظمة بديعة يعجز عن نحتها المهندسون.

يرى ويندهش من النظام المودع في مختلف أجزاء بدنه ووظائف كل من أعضائه وكذا في بقية الحيوانات: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النُّور: الآية ٤٥].

يرى أنه لو كتب عشرات الكتب في ما أودع الله من خواص وقوانين في عين الإنسان لكان هنالك أيضاً حقائق لا تعد ولا تحصى يجب أن تدون.

يرى أن الحيوانات قد جهزت بوسائل للدفاع عن نفسها إلى درجة معينة لغرض خاص

وأنها أقل من أن تفكر لنفسها في ما يسد رمقها ولكنها ترزق وتعيش على الرغم منها: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٠].

يرى أن في الأرض أدوية متنوعة لأمراض الإنسان، فلا يدري هل وجد الداء قبلاً أم الدواء وما المناسبة بينهما وفي أي محل عقدا مؤتمر حفظ النسل الإنساني من الأمراض الفتاكة؟ ومن أين أتت الحيوية (الحياة) إلى هذه الجراثيم الحية المولدة لشتى الأمراض؟

يرى عجائب لا تعد ولا تحصى في عالم النبات من بري وبحري والأمراض التي تعتريها وطرق معالجتها، وإن الرياح تلعب دوراً في تحقيق مهمة اللقاح ولم يكن هناك توافق نظر بين الرياح والنباتات!

يرى الخوارق في حياة النملة وكذا في كثير من الحيوانات وتلك النقوش البديعة على أجنحة الطيور والحشرات يستوحي منها كبار المصورين ويعجز عن ابتداعها الفنانون!

يرى في الكيمياء النظام الرائع في تركيب العناصر وتشكل أجسام جديدة شتى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرّعد: الآية ٨].

يرى ويحار من توزع الالكترونات حول البروتونات في بطن الذرة بطرز هندسي عجيب ويرى أن الإلكترون يسير بإرادة عالية حكيمة من الخارج ولا يتبع المصادفات بوجه من الوجوه.

يرى أنه لو كتب آلاف الكتب في تحقيق خواص الذرة ومعادلاتها لبقيت هنالك أيضاً حقائق مجهولة يجب الاعتراف بجهله لها: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ﴾ [لقمَان: الآية ٢٧].

يرى المطالع في أحوال الكون أن الاختلاف ضارب أطنابه في كل شيء على وجه يؤدي إلى كمال الأشياء وانتظامها في سير متكامل لا يشوبه نقص. وهو دليل على إرادة الله تعالى في تنظيم الأجزاء المختلفة من هذا الكون. ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾[الروم: الآيتان ٢١/ ٢٢].

يرى المتتبع أن الجنين في رحم أمه لا يحتاج إلى عين أو أذن إلا بعد الولادة، وليس للطبيعة العمياء أن تفكر في المستقبل، بل من الخطأ أن تنسب الحكمة والتدبير إلى الطبيعة (وهي مخلوقة). فيستنبط من هنا أن الكمال شيء مطرد في الممكنات مستدام في جميع أدوارها.

يرى المفكر في أحوال الكون أن كل شيء قد أخذ قسطاً من الكمال بقدر استعداده وقابليته: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرّعد: الآية ١٧]، وإن الكمال سائد في كل شيء ولا يشذ عنه شيء. فالذرة كاملة والبروتون كامل والنيوترون كامل والايونات كاملة والوردة كاملة وشعاع روتنكن كامل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: الآية ٤٤]. أي إن كل شيء في تمام كماله وكمال تكامله، وأنه يشير إلى تنزه الباري جل جلاله من كل نقص وإلى حسن إبداعه وجليل إتقانه الخلق: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: الآية ١٨]. ولكننا لا نفقه درجة هذا الكمال وحقيقة هذا التنزيه إلا بقدر ما توصلت إليه معلوماتنا ومعارفنا، ولم تصل معلوماتنا إلى حد نفقه بها تسبيح الأشياء والكمال المودع فيها إلا ظواهر ومعلومات ضئيلة نسلّي بها أنفسنا، يغتر بها المغرور فيتردى إلى أسفل السافلين.

ولا ريب أن عدم تفقهنا تسبيح الأشياء إنما هو ناشئ عن الذنوب التي نرتكبها، فترين على قلوبنا (نفوسنا) فتكون حجاباً حاجزاً عن مشاهدة الحق والواقع. على أن الكثيرين ممن تطبعوا على المدنية الغربية لا يقيمون للذنب وزناً ولا يعتبرونه. ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفّفين: الآية ١٤]. إلا أن الله جلّ جلاله كما يرى في نهاية الآية المتقدمة حليم غفور ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٤٤]، فلا يترك عبده يتخبط في دياجير الظلمات بل يهيئ له (تفضلاً منه) دواعي التنبه ويقيض له وسائل الهداية والرشاد في أهله ونفسه وصحبه ومجتمعه وبيئته، إتماماً للحجة وقطعاً لدابر العذر: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩].

ثم يرى المدقق أن الله تبارك وتعالى قد خلق كل هذه الأشياء الكاملة في صنعها

لهذا الإنسان، فهل يجوز أن يكون الإنسان: (هذا الذي قد خلق لأجله جميع الأشياء في غاية الكمال) ناقصاً يفسد في الأرض، يظلم ويبغي، يزني ويفسق. ينهب أموال الناس ويرابي. ثم يرى ـ بحصر عقلي ـ أن الكامل وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال. فكيف يجوز على الله أن يرى بين هذه المخلوقات المتكاملة مخلوقاً ناقصاً وأعني به الإنسان؟ فلابد وأن الله تعالى يقيض لهذا (الإنسان) الذي خلق لأجله كثيراً من الموجودات وسائل عدة بغية تكميله وإيصاله إلى الغاية التي خلق لأجلها.

إذن بطريق عقلي بحت، يصل المتتبع في أحوال الكون إلى وجوب بعث الرسل وعدم خلو الأرض من حجة بالغة من قبل الله تعالى عملاً بسنة الكمال.

على أن الله تعالى قد أودع في النفس الإنسانية بذور التكامل والهداية بصورة فطرية. فإنه تعالى يقول: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: الآيتان ٧/ ١٠]. ويقول في موضع آخر: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البَلَد: الآية ١٠]. أي طريقي الخير والشر. ألا ترى أن من لم يطلع على العلوم الطبيعية وغير الطبيعية قد تكون له عقيدة راسخة في الدين، تفوق عقيدة من توغل في كثير من العلوم، لأن كثرة العلم لا توجب الهداية بصورة مطردة. ولا تناسب درجة الهداية مع كثرة العلم، وإن الهداية شعاع يشع من نفس تعمل بالفطرة فلا تفسد في الأرض ولا تبغي ولا تجور، من نفس كلها عاطفة وإيثار وأخلاق فاضلة حميدة.

نعم، إن ما تقوم به الأيدي من أعمال وما تكسبه هذه النفس من درجات، هو الذي يسلك بالإنسان طريق الفلاح والصلاح. إن الأمي يكفيه نمو النبات وهبوط الأمطار ليعترف بوجود الخالق ويزداد يقيناً به تعالى ويعلم أنه إنما خلق لغاية سامية وغرض رفيع وأنه سائر نحو تحقيق تلك الغاية وذلك الغرض. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق: الآية ٦].

إن الله تعالى يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠].

وفي الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه يهوّدانه وينصّرانه

ويمجّسانه»[١]. فالمولود يولد موحداً معترفاً بخالقه، لكنه لذنوب يرتكبها ومآكل محرمة يتناولها، يتغلب عليه شيطانه، فيجعله متبعاً طريق والديه المعوج. وإنه لو لم يدنس نفسه بالمعاصي والآثام، أو تمكن من غسلها بأعمال صالحة وتوبة واستغفار، لتوجهت نفسه إلى حيث النور، إلى حيث الكمال المنشود، ألا وهو الدين الإسلامي؛ دين الفطرة. فكم رأينا أفراداً ولدوا من آباء وأمهات غير مسلمين ولكنهم وفقوا إلى اعتناق الدين الإسلامي لأهلية في نفوسهم وصفاء في أرواحهم.

إن الفيلسوف حسب وظيفته يبحث كثيراً عن المثل الأعلى (Superman) للإنسان، ولكن أنى لهذا الفيلسوف أن يصل إلى ما يريده الله تعالى وهو بعيد عن الله وملوث بشتى الجرائيم التي تهلك النفس وتفسد السرور. أبعد القرآن يحق للفيلسوف أو لغير الفيلسوف أن يبدي نظرية في الكمال النفسي؟ أو يخط للبشر خطة تؤدي إلى سعادته في النشأتين؟ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٧]. ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٠﴾ [الأعراف: الآية ٣٠].

إن من يرى ليالي باريس وما هنالك من مخازي ومفاسد يحكم بأن الإنسان هناك مسرف متجاوز الحد الذي عين لتكامله وهو في سيره السلبي يتدهور إلى أسفل السافلين.

ومن يرى التقوى والورع والخشوع لله لدى المؤمنين واجتنابهم المعاصي من كبائرها وصغائرها خوفاً من الله تعالى، واهتمامهم في قضاء حوائج الناس وقيامهم بأعمال صالحة وما هم عليه من فضائل الأخلاق يحكم بأن هذا الإنسان قمين بأن يخلق له كثير من الموجودات وهو سائر في سير تكاملي يريده الله لعباده في الأرض.

فالإنسان إذا اتبع سنة محمد وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين وجعل التقوى نصب عينيه، لا تأخذه في الله لومة لائم ولا تزحزحه عن طريق الحق مخالفة أهل زمانه، ثم ابتهل إلى الله جلَّ وعلا بخشوع وخضوع وتذلل في إزاحة كيد الشيطان

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٥، ص١٢٥، باب ٤٨.

ووساوسه عن نفسه الشريرة الجموحة العادلة عن الصراط المستقيم ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٣] وقام جوف الليل محاسباً نفسه مستغفراً منيباً، فصلّى وانقطع إلى الله بإخلاص تام، تنفتح بصائر قلبه، فيهتدي إلى الحق، يمقت الملاهي المفسدة للنفس، وتشمئز نفسه من الأغاني المحرمة وإن لم يكن قد بلغه حرمة ذلك، (وذلك لصفاء في نفسه)، فيترك مجالسة أهل الفسق والفجور ويمتعض من معاشرة أهل البغي والسوء، ثم يبحث عن أشخاص هم أقرب إلى التقوى وقمع الشهوات فيرتاح إلى مجالستهم ويستفيد منه غرر كلماتهم وجميل بياناتهم. ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٩] . فإذا رأيت رجلاً يستبيح ما حرّم الله وهو يدعي الإيمان، اعلموا أن إيمانه ناقص مبتور وإن في نفسه من الأمراض المعنوية أمراضاً منعته أن يرى الحق فينطبع عليه.

تولستوي الفيلسوف الروسي المعروف، بسبب عطفه على الفقراء والمساكين والبؤساء وبذله أموالاً طائلة في سبيل خدمة الآخرين، قد رأى بصيصاً من الحق. ولكن نفسه ـ أو قل ـ نتائج أعماله السابقة كانت أقل من أن تدعه ليرى الحق كله جلياً أو يهتدي إلى صراط الله القويم (ألا وهو دين الإسلام). فكان تولستوي يبحث عن الحق وبينه وبين الحق حجاب. وكان الحجاب نفسه. حتى كان مآل أمره أن خرج من مزرعته هائماً على وجهه في برد قارس كان فيه هلاكه.

إن من ينظر إلى ولد لم يبلغ الحلم وهو يصلي بخضوع وخشوع، يركع ويسجد للمنعم المنان، يعلم بل يقطع أنه عامل حسب ما لأجله خلق. لأن من شأن العبد والمنعَّم بنعم المولى أن يشكر مولاه. وذلك أمر فطري لا ينكره كل من كان له مسحة من العقل. إلا إذا كان من الذين رانت ذنوبهم على قلوبهم فأصيبوا بعمى القلب؛ وهو أشد عمى يصاب به الإنسان المسكين بما كسبت يداه. ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحَجّ: الآية ٤٦] . فيستهزئ بالمصلي ويرى الصلاة شيئاً زائداً أو (لا سمح الله) عملاً خرافياً، ولكنه يفرح ويبتهج لو رأى امرأة مسكينة في مقطع أحد الشوارع تنظم سير السيارات تحت الثلوج، حين أن زوجها وأخاها لا شغل لهما ويفتشان عن عمل فلا يلتفت إليهما. وهذا هو التبلبل الاجتماعي بعينه.

نعم، لو زاغت النفس عن الفطرة يرى الفرد، الحق باطلاً والباطل حقاً، فتتردى هذه النفس للذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها. إن الله تعالى يقول: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: الآية ٤٤].

نعم، إن الغربي ليقدر وفاء الكلب إذا وفى لصاحبه وحرسه بكل نشاط وإخلاص ويكتب في إطرائه والثناء عليه كتابات قيمة كثيرة. وإنك لا ترى كتاباً للمطالعة إلا وفيه وصف لوفاء الكلب وأنه يقابل الإحسان بالإحسان ويشكر بأعماله ووفائه. أجدير بالإنسان وهو أشرف المخلوقات أن يكون أحط من الكلب في تقدير نعم الخالق التي لا تعد ولا تحصى والقيام بواجب الشكر بصلاة وزكاة... ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤].

يتعجب الإنسان ويندهش عندما يرى رجالاً من الغرب يتقلبون في نعم الباري جلَّ جلاله في قصور مشيدة وأبنية فخمة ومناظر جذابة مع خدم مطيعين في خفض عيش ودعة وسرور وحبور مع ذلك كله لا يخطر ببالهم أن يفكروا في من أولاهم هذه النعم ومن أين أتتهم، فيقوموا تجاهه بواجب الشكر.

وقد يكون أحد هؤلاء ذلك الفيلسوف الذي يريد أن يضع قوانين لسعادة البشر! متبختراً بفلسفته الواهية الحالكة، مغروراً ببياناته السخيفة، يريد أن يسن للبشر سنن الرقي والتكامل وهو في آخر درك من النقصان. هذا (بنتهام) فيلسوف من فلاسفة الغرب يقول: «إن الأخلاق يجب أن تقوم على المنافع المقابلة». وهل هذه أخلاق أم تجارة بأخس معانيها أم بهيمية أو شيء أحط من البهيمية؟ ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: الآيتان ٤/٥].

قد يقول الشخص أمثال (روكفلر) و (فورد): إنا قد حصلنا عليه بجد واجتهاد وغيرنا لم يتمكن من ذلك. وقد فاته أن الله هو الذي قد هيأ له أسباب هذه الثروة الطائلة وأوجد له إمكانيات، هيأ له ظروفاً خاصة ولولا توفيق الباري جلَّ وعلا لكان حاله حال أحد عماله. وقد يكون أحد عماله أقرب إلى الله. وكم بين عماله من هم أشد منه قوة وذكاءاً واجتهاداً وسهراً على المصالح الدنيوية!!

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الإنسان: الآيات ٧٦/٧٨].

ذكر لي أحدهم وكان من الذين درسوا الفلسفة الغربية: أنه استقال من وظيفة هامة وعمد إلى تجارة الأفرشة والسجادات وكان يملك شيئاً من المال. فكانت تتوارد عليه الأرباح مع جهله بنوعية الأفرشة. وبعد ثلاث سنوات وقف على أنواع الأفرشة جيدها ورديئها وصار يميز بينها تمييزاً صحيحاً. فقدر لنفسه أنه سوف يكون مع هذا الاطلاع أحد كبار الأثرياء بعد قليل. ولكن انعكس الأمر، فتراكمت عليه الخسارة وحوادث مؤلمة تباعاً، وأفلس قسم من التجار الذين كانوا يتعاطون معه، فكان عاقبة أمره الإفلاس أيضاً. وصار يحتاج إلى قوت يومه. وقد رأيته ذات يوم وهو في هذه الحالة، فدنا مني قائلاً: أمسيت في حالة أخشى أن تضع الناس في يدي فلساً زاعمين أني سائل مسكين! ثم سكت وقال: إني علمت الآن: إن الله هو مدبّر الأمور وهو الموفق وليس الفن كل شيء، وإن هناك يداً خفية لها أثرها في تسيير الأمور. فمهما كان الإنسان موهوباً، لابد من يد خفية تساعده في النجاح وتهيء له الفرص على أن المواهب كلها منه تعالى ثم قال: إن ما درسته من الفلسفة الغربية هواء في شبك، وعلمت بعد التجارب أنها تفكير بشري لا توافق الواقع وأيقنت أن نصيحة أمي ـ وأنا طفل صغير ـ هي كل الحقيقة وتمام الحقيقة. إنها كانت تقول لي: «ولدي، كل شيء بيد الله تعالى».

* * *

وصادف رجلاً آخر كان قد ترك الصلاة واندمج في زمرة من لا يخشى الله. ففصل عن وظيفته وبقي لا عمل له، فباع كل ما لديه ليقتات بثمنه، فنفد ما لديه. وبقي حائراً يعالج الجوع. والجوع خير مرب في كثير من الأحيان. ففكر في نفسه وفي الغاية التي خلق لأجلها مدة سنتين وهو في حالة يرثى لها. حتى أيقن أنه محتاج، وأن الحاجة لا

تعرض إلا على أغنى الأغنياء ومعطي الغنى وهو الله. فابتهل إليه جلّ وعلا وخشع وتذلل وبدأ يصلي ويصوم ويقدس المقدسات. فحسنت أخلاقه وتحسنت سريرته وطابت نفسه ثم إني أحببت أن أستقصي سبب هذا الانقلاب التكاملي. فكنت ذات يوم في بيته عند الغروب، رأيته حاملاً أمه العرجاء وقصد بها إلى السطح، وكان يأتي بها هكذا عند الصباح إلى ساحة الدار، يقدسها أيما تقديس. رأيته عطوفاً على أخيه المسكين الذي كان عالة عليه، وصولاً أرحامه. رأيته يساعد الفقراء والمساكين. فعلمت أنه لم يقطع صلته بالله تعالى في زمن كان قد ترك الصلاة فيه. فصرت أنصحه. فوجدته يوم الجمعة في روضة الإمامين موسى والجواد ﷺ يصلي. فهنأته على رجوعه إلى صلاته وهديه.

ثم انه دعاني يوماً إلى طعام. فجيء بالمائدة وانتظرته قليلاً حتى حضر. سألته عن سبب التأخير. قال: آليت أن لا أتناول ما منَّ الله به عليَّ من عظيم الرزق حتى أشكره بصلاة قبلاً. وأصبح رجلاً ديناً يشار إليه بالبنان.

نعم، هكذا تعمل النوائب في تكميل بعض النفوس. فإن إخراجه من الوظيفة وتجرعه آلام الجوع والفقر فتحا عليه أبواب الهداية. لأن المعدة المملوءة قد تكون حجاباً حاجزاً عن الوصول إلى الحق، وإن أبخرتها الكثيفة تغشي الحقائق فلا يشعر الإنسان إلا بشهوة نفسه. وهذا أحد الأسباب التي سنَّ الله تعالى من أجلها الصوم. وأحد أسباب استحباب الزهادة في الدنيا. ولا بأس بذكر هذا الحديث في المقام: قال سعد لسلمان المحمدي، في مرضه: كيف تجد نفسك؟.. فبكى، فقال: ما يبكيك؟ قال: «والله ما أبكي حزناً على الدنيا كزاد الراكب؛ فأخاف أن أكون قد تجاوزت ذلك. وليس حوله في بيته غير مطهرة وإجانة وقصعة».

وقد يتعجب البعض من ذكري هذا الحديث في عصر قد بلغت فيه الكماليات أقصى الحدود حتى لم تبق وقتاً للعبادة. كأنه نسي قول الله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ

إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: الآية ٢٠] . إن الدين يعطينا المثل الأعلى في الكمال النفسي لأفراد (Superman) هم أوتاد الأرض. وكل يأخذ من هذا الدين حسب اختياره بمقدار ما يشاء.

* * *

إن الله تبارك وتعالى يتم الحجة على العباد بغية تنبيههم وإرشادهم إلى سبل الرشاد بمرض أو ضنك في عيش أو غرق أو عواصف وزلازل وبلايا أخرى. لعل العبد يفكر في عاقبة أمره فيعالج نفسه المريضة. إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: الآية ١٩] . وفي آية أخرى: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٤٨] . وفي أخرى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٨] .

* * *

يتجلى الكمال النفسي في الدرجة الأولى في (الشكر). فمن كان شكره أكثر كانت نفسه أسمى وأكمل. فلا يجب أن ينخدع الشخص بعلم الأستاذ لأنه أستاذ ورب أستاذ لنعم الله جاحد! . إذ لا رابطة بين العلم والكمال النفسي.

يقول زين العابدين عليه السلام مخاطباً رب العباد: «فكيف لي بتحصيل الشكر، وشكري إياك يفتقر إلى شكر. فكلما قلت: لك الحمد، وجب عليَّ لذلك أن أقول: لك الحمد»[1] .

وإنما كان الأنبياء عليهم السلام أنبياء، لعظيم شكرهم وكمال إخلاصهم. فقد فدى إبراهيم عليه السلام بجميع غنمه عندما سمع من ينادي: «سبوح قدوس ربنا ورب الملائكة والروح». ويقول الله جواباً لأولئك الرؤساء الذين تعجبوا من إيمان من آمن من الضعفاء: إنهم إنما آمنوا لشكرهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ٥٣] .

إن الصلاة المفروضة نوع شكر. وقد ورد في الأخبار: يستحب للعبد أن يقول كل

---

(١) بحار الأنوار: ج٩١، ص١٤٦، باب ٣٢.

يوم ٣٦٠ مرة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾. وهذا قليل مما ينبغي أن يقوم به العبد من واجب الشكر تجاه خالقه وبارئه.

وقد يقول الجاهل المغرور: ليس لنا من الوقت ما يكفي لإقامة الفرائض فضلاً عن المستحبات. ولكنه يقضي ساعات عدة في المقاهي، يتعاطى فيها الميسر، يغتاب فيها الناس ويقوم بالنميمة، فيصرف أوقاتاً غير قليلة في اللهو واللعب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٩٠].

إن الله تعالى أكد في تحريم الخمر والميسر وعظم أمرهما بجعلهما من الرجس وقرنهما بالأصنام والأزلام وجعلهما من عمل الشيطان. فمن تعاطى الخمر أو القمار كأنه عبد الأصنام وقدسها. والحق، أن من كان محبوبه الخمر أو القمار كأنه عبد الأصنام وقدسها. والحق، إن من كان محبوبه الخمر والميسر لم يكن له طريق إلى المقامات القدسية وتدهور إلى أسفل السافلين، فيكون مآله ومثواه ما يناسب نفسيته المتسافلة ألا وهو الجحيم. فعلى الآباء أن يمنعوا أولادهم من ارتياد المقاهي ومجالس القمار واللهو والرقص.. إلى ما هنالك، وأن يحظروهم مجالسة الأوغاد والسفلة من الناس وأن يجبروهم على أداء الصلاة والقيام بالفرائض الدينية ويعرفوهم كبائر الذنوب وصغائرها، وأن يعوّدوهم مساعدة الفقراء والمساكين والأعمال الصالحة وحسن المعاملة وصلة الرحم ومراعاة الجيران، وأن يحذروهم عواقب الخيانة على حساب الآخرين. فإن ذلك أوجب وأهم من الطعام والثياب. ذلك لأن عاقبة مروق الولد من الدين نار مُسعرة: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧﴾ [المعارج: الآيات ١٥/١٧].

إن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: الآية ٦].

وكم نرى في زماننا هذا آباءً يعظون أبنائهم، يرشدونهم ويهدونهم سواء السبيل، ولكن أبناءهم يسخرون منهم في قلوبهم ويصمونهم بالخرافة والرجعية! فإذا رأوهم صلوا، وإذا غابوا عنهم رجعوا إلى غيهم. ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ

أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة: الآيات ٩/١٦].

إن كثيراً من الأبناء اليوم لعوامل شتى هم مصداق هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأحقاف: الآية ١٧].

من تلك العوامل: خلو التعليم عن دراسة دينية صحيحة وتربية أخلاقية متينة وعدم إدخال دروس الدين في المدارس العالية، وعدم إعداد مدرسين أكفاء لتدريس الدين وعدم تعيين مفتشين للدين بصورة خاصة للمدارس الابتدائية والثانوية والعالية وإعطائهم صلاحيات واسعة، وتقليد الغرب في فلسفتها المادية وأخلاقها النفعية.

عندما يدرس الإنسان الدين الإسلامي ويتتبع أوامره ونواهيه في المأكل والمشرب ومعاملة الجار والأرحام وفي جيمع مرافق الحياة الاجتماعية والاقتصادية وينظر في ما أمر به من عبادات بدنية ومالية وما نهى عنه من معاملات في المتاجر والمكاسب يقطع أنه هو دين الله في أرضه، هو دين يأخذ بهذا الإنسان الناقص إلى حيث الكمال المنشود.

الترتيب لا يولد الحياة

جاء في مقال: (الحياة في علم الحياة) في العدد السادس من مجلة الاعتدال الغراء نقلاً عن مذهب الماديين: «أن العلماء الحديثين قد ذهبوا مذهباً آخر في تعليل كيفية حلول الحياة في مادة (البروتوبلازم) (protoplasm) وذلك بأن المقدرة على القيام بالأعمال الحياتية ناتجة عن ترتيب خاص واندماج أو تآلف معلوم بين العناصر التي تكوِّن مادة البروتوبلازم الحية».

وبما أن هذه النظرية عارية عن الصحة لا يعترف بها الفلاسفة المحيطون بمبادئ كافة العلوم وأكثر العلماء الحديثين، أحببت أن أرد هذا الرأي، مع علمي أنه ليس من رأي كاتب المقال ولا معتقده، دفعاً للشبهات ودرءاً لزلة الشبان، وانجذابهم إلى المذهب المادي الفاسد (Materialisme).

إن الدليل الذي يقيمه الماديون على أن الترتيب هو الباعث لحلول الحياة في مادة البروتوبلازم، كما جاء في المقال، هو أن: (ترتيب ذرات الهيدروجين والأوكسجين والكاربون، حسب نظريات الكيمياء العضوية الثابتة، ينتج مواد عضوية كالسكر والخشب والنشأ وما أشبه).

وليت شعري هل السكر بعد قطع علاقته من النبات شيء حي له أعمال حياتية كالتنفس والإفراغ والتغذي والنمو والتوالد وهكذا الخشبة والنشأ. فمن شاهد تنفساً وتغذياً ونمواً للخشبة الموضوعة فوق منضدة الكتابة طوال السنين له أن يدعي بأن فيها حياة تشبه ما عرفناه آنفاً. وهكذا الحياة للحوامض الحاصلة عن ترتيب خاص لذرات الأوكسجين والهيدروجين مع عنصر الكبريت أو الكلور على ما هو معلوم في الكيمياء.

نعم، إن الحوامض تمتاز بخاصيات مختصة بها، ولكن هذه الخاصيات عوارض مادية فاقدة الحياة. ولا شك أن ترتيب الذرات بنهج خاص يسبب خواص جديدة، ولكن الخواص هي آثار مادية غير حياتية، ولا تشبه آثار النبات والحيوان من حيث التغذي والتمثل والتنفس إلى غير ذلك.

وبما أن عملية الترتيب عملية مادية، فالمعلول يكون أمراً مادياً أيضاً ولا يتجاوز حدود المادة، لأن الحيوية مفهوم غير مادي وليس للمادة أن توجد ما ليس فيها. ومعلوم، أنا إذا رتبنا آلات مضخة الماء الرافعة (مثلاً) حسب ما يجب، فهل تتحرك بنفسها دون أن تحركها قوة خارجة عنها مسيطرة عليها مؤثرة في آلاتها وأدواتها؟ كلا، ولا مراءَ أن روح تلك القوة بما هي قوة ليست من جنس المادة من حيث هي مادة وبينهما بون عظيم. وإذا استطاع العالم بعلوم الحياة أو (Biologiste) (Biologue) أن يقتل حشرة ويأخذ المواد المشكلة لها كالأوكسيجين والهيدروجين والكاربون

والآزوت (نيتروجين: Nitrogene) إلى غير ذلك بمقدار ما هو موجود فيها، ويرتب هذه العناصر على الترتيب الذي يراه فيشكل منها تلك الحشرة الحية، له أن يعترف أن الباعث للحياة هو الترتيب والتأليف؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحجّ: الآية ٧٣].

فالترتيب عملية موجودة في جميع العناصر غير الحية. ولولا الترتيب لما أمكن وجود العناصر المختلفة بصرف النظر عن وجود الحياة. فإن النظريات الحديثة التي لا تزال في تزلزل وسقوط، تدعي اليوم: أن كل آتوم (ذرة) مركب من بروتون: (الكهربائية الموجبة) المجتمعة في الوسط والمحاطة بالالكترون: (الكهربائية السالبة) المحدودة وعدد آخر من الالكترونات بحيث يساوي زيادة عدد البروتونات على الالكترونات المحيطة المحددة. وبذلك يتساوى عدد الالكترونات وعدد البروتونات في كل ذرة، إلا أن البروتونات كلها مندمجة في الوسط. فمثلاً: ذرة الليثيوم مركبة من (٧) بروتونات و(٤) الكترونات محددة.

وإذا رسمنا مكعبات حول المركز (البروتون) في إمكاننا أن نضع (٣) الكترونات في رؤوس المكعب ليكون عدد الالكترونات مساوياً لعدد البروتونات. وإن العدد الذي لكل عنصر يعادل عدد البروتونات أو عدد الالكترونات الموجودة في ذلك العنصر. وإن هذه النظرية المسماة. بنظرية (أو كنت) أبديت من قبل (لويس) و (لانكمو) الأمريكيين. إلا أن هناك نظرية أخرى، تدل على أن الالكترونات، التي توضع في رؤوس المكعب كما رأينا في ذرة الليثيوم والتي نسميها أقماراً، تدور حول البروتونات المندمجة في المركز، كالكواكب السيارة التي تدور حول الشمس.

وإذا سلمنا بالنظرية الأولى نرى أن العناصر كلها من كلور، حديد، ليثيوم (Lithium) كالسيوم، هيدروجين هليوم... الخ. مركبة من (بروتون) و (الكترون). ومع اختلاف خواصها فإنها مركبة من شيئين متساويين في العدد، مجهولين من حيث الماهية ومرتبين بترتيب خاص. ولولا هذا الترتيب والاختلاف في العدد لما وجد

عناصر مختلفة ولما حصل اختلاف في الخواص المادية. فالترتيب واختلاف العدد يوجبان تبدل الخواص الكيميائية فحسب، لا الحياة!

على أن الترتيب لابد له من مرتب. فلا يأتي الترتيب المؤدي إلى وجود عناصر مختلفة وإلى وجود ارتباط بين أجزاء العالم ارتباطاً وثيقاً، عفوياً. ومحال أن يعترف العقل الإنساني بأن الترتيب المؤدي إلى وجود مالا يعد ولا يحصى من الموجودات ـ وهي في غاية النظام وتمام الإتقان ـ يأتي جزافاً دون ترّو وحكمة.

* * *

يقول أحد علماء الطبيعة رداً على نظرية الترتيب والصدقة: إننا لو وضعنا في كيس عشر قطع متماثلة من المعدن وقد كتب عليها الأرقام من (١) إلى (١٠) بالترتيب، فالاحتمال في أن نعثر على رقم (١) هو واحد من عشرة. ولو أردنا أن نظفر بالرقمين (١ ـ ٢) بصورة متتالية فالاحتمال يكون: واحداً من مائة، وإذا أردنا أن نظفر بثلاثة أرقام متتالية، فمرتبة الاحتمال تكون واحداً من ألف، وإذا أردنا أن نوفق إلى سحب الأرقام من ١ إلى ١٠ بصورة متتالية فمرتبة الاحتمال تكون واحداً من عشرة آلاف مليون. وإذا علمنا أن الأجزاء التي ترتب هذا الكون مختلفة، ومتعددة جداً، وإن ما خلق الله من الموجودات تكاد لا تتناهى، وإن الترتيب في هذه الموجودات يختلف بعضه عن بعض، إذن ستكون مرتبة الاحتمال:

$$\frac{١}{١٠^{ن}}$$

فإذا كانت، ن = ∞ (أي (ن) تساوي اللانهاية)

إذن : $\underset{ن \to \infty}{غـــا} \frac{١}{١٠^{ن}} = ٠$ (صفر)

أي أنّ : غاية $\frac{١}{\infty} = ٠$ (صفر) لا محالة

يستنتج مما سبق أن قيمة الاحتمال أو الصدفة تساوي الصفر. أي ليس هناك صدفة أبداً[١].

فليس في الإمكان: أن أجزاء لا تتناهى من هذا الوجود من مادية وغير مادية تترتب ترتيباً بديعاً محيراً للعقول، يودي إلى انتظام رائع نشاهده في هذا الكون، لاسيما وجود هذه الحيوية في النبات والحيوان ووجود هذا العقل الإنساني! ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرّعد: الآية ٢]. وفي آية أخرى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الرُّوم: الآية ٤٨][٢].

* * *

تقول نظرية لابلاس: إن الأرض كانت في الابتداء قطعة نارية في درجات عالية من الحرارة. فما كان يمكن أن تعيش على سطحها آن ذاك لا حيوان ولا نبات ولا مكروب. فمن أين إذن جاءت هذه الحيوية (أو الروح) للحيوان والنبات والميكروبات لولا خلق الله إياها؟: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [النُّور: الآية ٤٥].

أنى للصدفة أن تضع معادلات دقيقة وقوانين محكمة تربط أجزاء العالم بعضها ببعض وأنى لها أن تخلق الروح والعقل. ثم كيف وجدت هذه الأجزاء المترتبة؟ هل وجدت في آن واحد؟ (وهذا مالا يوافق عليه العقل لما يشاهد من موجودات جديدة)، أم وجدت تباعاً؟

---

(١) على أن ما فكر فيه هذا العالم من نظرية الاحتمال لا تنطبق تماماً على هذا الكون لأن الأشياء لم تكن موجودة كلها قبلاً وإنما وجدت بأمر الله تباعاً ويترتب بديع وتحت نظم ودساتير. ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [غافر: الآية ٦٧]. ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: الآية ٨]. ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: الآية ١].

(٢) الودق: المطر.

فمن الذي أوجدها تباعاً ووضع دستور التتابع والتسلسل في أجزاء لا تتناهى بحكمة فائقة ونظام رائع. ثم أن الجزء الأول هل وجد من تلقاء نفسه وهو في غاية الحاجة والافتقار ومؤلف من عناصر عدة، في فضاء لابد له من خالق؟ ومن رتب هذه العناصر ترتيباً حكيماً محيراً للألباب؟!

ثم من الذي وهب له روحاً تحركه وتعطيه قابلية الإيجاد والخلق والتنظيم بقوانين وقواعد رياضية رصينة. أم ماذا؟ ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: الآيتان ٣٢/ ٣٣].

* * *

يتألف محرك الصاروخ من (٣٠٠,٠٠٠) قطعة. فإن كان صنع إحدى هذه القطع يخالف الهندسة التي يجب أن تصنع بحسبها مخالفة بسيطة ولم تبذل الدقة المتناهية في إنتاج كل قطعة أخفق الصاروخ عند إطلاقه وفشل. فكيف بهذا العالم المؤلف مما لا يتناهى من قطع في عالم الجماد والنبات والحيوان، ثم ارتباط هذه العوالم بعضها ببعض عدا عوالم الأرواح والعقول.

كما أن للمفكر أن يفكر من الذي هندس القطع التي تتألف منها محرك الصاروخ أم وجدت من تلقاء نفسها، حتى يأتي دور الصدفة! على أن درجة الاحتمال في هذا الترتيب هي الصفر لاسيما إذا كانت الأجزاء لا تتناهى.

إذن وجب بحصر عقلي أن يعترف العقل أن هناك خالقاً قديراً وقد أعلى الوجود، وأوجد الأشياء بقدرته ورتبها بحكمته. ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: الآية ٣٦].

وفي خلق الله تعالى جميع ما في الكون من حيوان ونبات وجماد[1] بصورة زوجية حكمة بالغة، كي يوقن هذا الإنسان أن الوحدة خاصة بالله تعالى، لا يشاركه فيها

(١) الذرة تتألف من الكترون (كهربائية سالبة) وبروتون (كهربائية موجبة). وتدور الالكترونات حول البروتونات كما في المنظومة الشمسية. وإن كل نجمة نراها في مسافات شاسعة هي في الواقع نجمتان، تدور إحداهما حول الأخرى. تحقيقاً للزوجية في عالم التكوين.

أحد، وأن كل شيء من المخلوقات لابد له من شريك ومزاوج: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١] .

وإذا سلمنا بالنظرية الثانية: (وهي أن الالكترونات في الذرة تدور حول البروتونات المندمجة في المركز، كالمنظومة الشمسية)، نرى أن الحركات حول المركز كلها متماثلة، إذن لزم أن يكون كل ما في الكون متحركاً من الابتداء! فما هو إذن هذا التفاوت في الموجودات يا ترى؟ ثم من أين أتت هذه الحركة: حركة الأقمار أو الاكترونات حول البروتونات. ومن المحرك لها؟ ومن جاء بهذا الترتيب وهذا النظام حتى وجدت هذه العناصر؟

وسواء سلمنا بالنظرية الأولى أو الثانية فإن الالكترون (الذي هو القوة بعينها) موجود في ذرات الأجسام، إذن ليست الذرة بشيء مادي بحت. فكيف إذن: انقلبت الطاقة أو القوة إلى مادة؟ وقد ثبت حديثاً أن المادة تتحول إلى طاقة وقوة: إما بالإشعاع أو بطرق أخرى. وأول من عثر على هذه النظرية (مادام كوري) مدرسة الفيزياء في جامعة (السوربون) حينما وضعت في جيبها قطعة من الراديوم أدت إلى خدشه في صدرها بنتيجة الإشعاع وقد خف وزنها بعد مدة.

ولسائل أن يسأل: من أين جاءت هذه الطاقات الهائلة التي تكاد لا تتناهى حتى شكلت هذا العالم المادي. وقد وضح الله تعالى ذلك في القرآن الكريم بقوله: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: الآية ٣٥].

وقد صرح الدكتور (كرستاولبون) في آرائه الفلسفية: أن تحول المادة إلى القوة مما أوجب إفلاس الماديين (Materialistes) وتقهقرهم. فوجب إذن أن نعترف بأن قوة خفية مدبرة عظيمة تسيطر على المادة (التي مخلوقة لها)، فتعطيها الحياة وتجعلها نباتاً، فحيواناً، فإنساناً وهو الله تبارك وتعالى، وأن جوهر الحياة ليس بمادي. كما أنا نرى أن للإنسان نفساً مجردة عن البدن حاكمة عليه. (يعترف بذلك العلم الحديث بعد انكشاف بعض حقائق الذرة).

إن الإنسان يرى في منامه أنه يسافر إلى بلاد شاسعة ويقوم بأعمال غريبة وقد تستمر أعماله ليالي وأياماً، وبدنه المادي ملقى على فراشه. أليس الذاهب إلى البلاد النائية والقائم بأعمال مختلفة هو نفسه التي بين جنبيه؟ مع أن النوم لم يستمر إلا سويعات ولكن الأعمال قد تستمر أكثر من ذلك.

وقد اكتشف حديثاً: أن الماء ليس مركباً من الأوكسجين والهيدروجين فحسب بالنسبة المعلومة، بل فيه ما لا يدخل تحت المجهر (ميكروسكوب) والأدوات والمواد والمؤثرات التحليلية الموجودة في المختبرات، وهو قوة حيوية مفيدة. فإذا كان في الماء شيء غير مادي، موجب للحياة، فكيف لا يوجد في (البروتوبلازم) وقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠].

يقول (بركسون) الفيلسوف الفرنسي: «إن ما حدا بالإنسان إلى النزعة المادية في تفكيره، هو ارتباطه بالمكان ارتباطاً وثيقاً». وإن من يقف على أفكار هذا الفيلسوف الدقيق لا يلبث أن يستهزئ بمبادئ الماديين السخيفة الذين أخذوا في هبوط مستمر بعد تقدم علم النفس وتسخير الأرواح أو تحضيرها في الغرب. (على أن إحضار الأرواح عمل حرّمه الدين الإسلامي. وعدّه من كبائر الذنوب كالسحر والتنجيم).

* * *

أرى أنه من واجب كل مسلم أن يعلم: أن ليس للغرب مع اندماجه في حياة مادية مدلهمة أن يمد يداً إلى ما وراء الطبيعة على حد قول (كوستاولوبون)، فإنه كان يقول: «لقد علمت الفلسفة بعد عناء طويل أن لا سبيل إلى ما وراء الطبيعة».

ولكنه لو تمسك بدين محمد ﷺ وعبد الله وأطاعه وقام بأعمال صالحة لوجهه تعالى وجرد نفسه مما علق بها من غرور ودنس ورجس وأوساخ مادية وترك عبادة المادة والزخارف الدنيوية حتى يبلغ مرتبة المخبتين وتكون نفسه مطمئنة بعد أن كانت أمارة بالسوء، فلولَّمة لآمن بما جاء في الدين مما يتعلق بما وراء الطبيعة، وكان من الذين: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣] ولدخل في زمرة أولئك الذين يقول علي عليه السلام فيهم: «وهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون. قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة، أجسادهم نحيفة وحاجاتهم خفيفة.

وأنفسهم عفيفة. صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة. تجارة مربحة يسرها لهم ربهم. أرادتهم الدنيا فلم يريدوها. وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها. أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن. يرتلونه ترتيلاً. يحزنون به أنفسهم ويستثيرون دواء دائهم. الخ...»[١].

ذلك لأن ليس للإنسان أن يدرك المجرد ويوقن به قبل أن يتجرد مع كونه في عالم الشهود. فإن الذنوب والآثام والشهوات والنزوات ظلمات بعضها فوق بعض، تحجب النفس الإنسانية عن رؤية الحق والواقع وتمنعه من أن يمد يداً إلى ما وراء الطبيعة فيكون من الذين لا يؤمنون بالآخرة وتزين له أعماله ويظن بل يوقن أنه سائر سيراً حسناً وأنه من المهتدين!: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾. فليجرب من كان يرتاب في ما أقول. فلقد شاهدت أناساً كانوا منحرفين وقد وفقوا بفضل من الله أن يخطوا في ساحات الكمال بعزم رصين، فصاروا ممن يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وذلك بترك المعاصي والآثام. وكم شاهدت من أطباء وغير أطباء يحضرون مجالس الوعظ والإرشاد ومجالس تفسير القرآن الكريم بخشوع ورغبة، ورأيت من بين هؤلاء متهجدين متعبدين، يقومون بأعمال صالحة.

* * *

وإني أكرر هنا دستور تكامل النفس بصورة بسيطة: كل ردع لهذه النفس عن مشتهياتها المحرمة يفتح على الإنسان باباً من أبواب الهداية، فقد جاء في الحديث: **«النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنه الله، فمن تركها خوفاً من الله آتاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه»**[٢]. ويراد بالنظر: النظر إلى من حرم الله من النساء. وكل ذنب يقترفه الإنسان يسد عليه باباً من أبواب العقل الفطري الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، فيسد عليه باباً من أبواب الهداية. فيلج إذ ذاك شيئاً فشيئاً في أودية من الضلال

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٤، ص٣١٥، باب ١٤. نهج البلاغة، خطبة المتقين.

(٢) مستدرك الوسائل: ج١٤، ص٢٦٨، باب ٨١.

والظلمات. دليل ذلك: ما قاله عليّ ﷺ: «من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً».

إن التركيب والتحليل وما في المختبرات من أجهزة دقيقة فنية للقيام بتجارب في الفيزياء (physique generale) و (Biologie) (Bacteriologie) لا تكفي للاطلاع على حقيقة الحياة أو الحيوية الموجودة في النبات أو الحيوان. على أن التجربة وحدها لا تفيد علماً يقيناً إذا لم تكن مستجمعة للشروط اللازمة من الوضع والمكان ومختلف الحالات. كما أن أخذ النتيجة من التجربة على فرض صحتها ليس داخلاً في التجربة نفسها. فالتجربة شيء والاستنتاج أو الاستقرار شيء آخر. أي أن التعليل وربط المشاهدات والنتائج ليس بأمر مادي.

إن مظاهر التجربة أمور مادية والاستنتاج أمر عقلي. وقد يقوم الشخص بتجربة فيستنبط منها نتيجة مغلوطة لنقص في المحاكمة أو لاستيلاء الميول الخاصة على القوة المفكرة، فتصبح النتيجة غير صحيحة. فينساق إلى قبول هذه النتيجة المغلوطة أناس عقولهم بعين الدرجة من ضعف المحاكمة، لظلمات في النفس، ونفسياتهم متفقة مع نفسية هذا المجرب المنحرف أو قريبة منها[1]. فتصبح النتيجة المغلوطة برهة من الزمن كحقيقة راهنة ثابتة! : ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾ [الرُّوم: الآية ١٠] حتى يقيض الله من يقوم بتجارب أخرى مع استنتاج صحيح فيردُّها ويجرحها. وقد وقع ذلك في أوروبا مراراً. فقد أخفق المادي مرة بعد أخرى! ولكن آثامه حجبت عليه طريق الهداية وأخذ يتشدق باسم العلم! وبينه وبين العلم مسافات لا تحد. ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [المطفِّفين: الآية ١٤].

فالنظريات تتبدل من حين إلى حين ولا ينبغي أن يعتمد عليها وتتخذ كحقيقة يستحيل عليها التزلزل، ذلك ليست كالرياضيات البحتة، حقائق ثابتة.

* * *

(١) ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦]. فلا يفيد السير في الأرض في سلوك النفس التكاملي مع قلوب متحجرة ونفوس مدلهمة مظلمة بذنوبها وآثامها.

إن الفلاسفة الواقعيين يعترفون أن علمنا ومعرفتنا بالنسبة إلى الأجسام (المادة) ناقصة وستبقى ناقصة إلى الأبد. ويقولون: «إننا لا نعرف إلا أفكارنا الخاصة»، فأنى لهم بعد اعترافهم هذا أن يتوصلوا إلى حقيقة الحياة وحقيقة الروح.

يقول دكارت: «فإذا سلمنا أننا لا نستطيع معرفة الواقع مباشرة امتنعت علينا معرفة الواقع على الإطلاق».

أنى للمحاط (الإنسان) أن يحيط بالمحيط (وهو الله). لذلك يقول علي عليه السلام: «تكلموا في خلق الله ولا تتكلموا في الله. فإن الكلام في الله لا يزداد صاحبه إلا تحيراً»[1]. وقال عليه السلام أيضاً: «كيف أصفه بالكيف وهو الذي كيّف الكيف حتى صار كيفاً. فعرفت الكيف بما كيف، كيف لنا من الكيف»[2].

* * *

أنى لهذا الإنسان أن يحيط بالله تعالى وقد كان في ابتداء أمره جرثومة (نطفة) ولم يكن له أدنى تصرف في توجيه هذه الجرثومة وتحولاتها في الرحم وبعد الخروج من الرحم. وكان ولا يزال مسيراً إلا ما كان من إرادته[3] في إتباع طريق الخير وطريق الشر. فـ «لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين الأمرين». ويؤيده قول علي عليه السلام: «عرفت ربي بفسخ العزائم ونقض الهمم. لما أن هممت فحيل بيني وبين همي، وعزمت فخالف القضاء والقدر عزمي علمت أن المدبر غيري»[4].

وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: الآية ٤٤]. وفي آية أخرى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: الآية ٧٩]. وفي آية أخرى أيضاً: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: الآية ٣٠]. وفي آية أخرى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٨].

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص٩٢، باب النهي عن الكلام.
(٢) يريد به الله تعالى.
(٣) أي من إرادة الإنسان نفسه.
(٤) بحار الأنوار: ج٣، ص٤٢، باب ٣.

كل هذه الآيات تدل دلالة واضحة على أننا نحن المسؤولون عن سلوكنا واتجاهاتنا وعن أعمالنا السيئة. والله قادر على تغيير سلوكنا وهدايتنا لو جعلنا نفوسنا لائقة إلى قبول فيوضاته القدسية بالمداومة على أعمال صالحة. وفي استطاعته تعالى أن يسد علينا أبواب رحمته وهدايته وأن يبعدنا عن ساحات القدس، إن لوّثنا أنفسنا بالذنوب وذمائم الأخلاق.

* * *

أنظروا كيف يصف الله تعالى مراتب تكامل الجنين في رحم أمه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المُؤمنون: الآيات ١٢/ ١٤]. وقد جاء في تفسير: «أنشأناه خلقاً آخر» أي إن الله تعالى أنشأه خلقاً آخر بنفخ الروح فيه.

ما معنى نفخ الروح في جسم مشكل من عظام ولحم. ذلك لأن الروح ليس من المادة في شيء. ولعل الروح هي مشيئة الله تعالى وإرادته سبحانه. فهذه المشيئة أو الإرادة بقوله تعالى: ﴿كُن﴾ تنقلب إلى طاقة وقوة. والقوة لها مظاهر وأنواع حسب مشيئته تعالى. فتارة تكون هذه الطاقة أو القوة: (أي الإرادة الإلهية المتحولة إلى الطاقة بأمره تعالى) عقلاً وتارة تكون روحاً ونفساً إنسانية أو نفساً حيوانية، وتارة تكون هذه الحيوية التي نلمسها في (البروتوبلازم) وتارة تكون مادة. أي أن هذه الطاقة تنقلب إلى مادة بأمره تعالى على ما ثبت في العلم الحديث، وذلك بعد التعرف إلى فلق الذرة (تحطيمها) أو: دمج الذرات أو نواها. فإنهما يتيحان لنا من القوة العظيمة ما يجل عن الفهم والتقدير. فالطاقة التي تخرج من رطل واحد من اليورانيوم تعدل طاقة الحرارة التي تخرج من مئات الأطنان من الفحم أومن ألوفها والطاقة التي تخرج من دمج نوى ذرات الهيدروجين أعظم.

وقد ذهب (آينشتاين) أن الطاقة الكامنة في الذرة تساوي الكتلة، مضروبة في مربع سرعة الضوء. أي: $ط = ك \times س^{٢}$ وبما أن سرعة الضوء = ٣٠٠٠٠٠ كيلومتراً في

الثانية، فإنّ الطاقة في ذرّة ما تشكل مقداراً هائلاً أي: ط = ٩٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ك = ٩ × ١٠^١٠ × ك. فإذا ما فلقت (حطمت) أي أخرجت الطاقة الكامنة فيها إلى الخارج جاءت بالتدمير والتحطيم.

ويمكن احتساب الطاقة المتحررة من تفاعل نووي، من معرفة النقص الحاصل في الكتلة. ذلك لأن العلم لم يتوصل بعد إلى إخراج جميع ما في الذرة من طاقة إلى الخارج. ففي انفلاق نواة اليورانيوم يتحول نحو عشر الواحد في المائة إلى طاقة. وهكذا لتكوين ذرة هليوم عند انصهار أربع نوى من الهيدروجين يتحول سبعة أعشار الواحد في المائة إلى طاقة. وهكذا..

إن مشيئة الله بالنسبة إلى إيجاد الشيء جليلة ودقيقة على حد سواء. إن الله تعالى يقول: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: الآية ٢٨]. ولقد قال جل من قائل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: الآية ٨٢]. فالمشيئة الربانية هي الموجدة للأشياء بقوله تعالى: ﴿كُن﴾ أي الإرادة وحدها أو الطاقة المنبعثة من هذه الإرادة هي الموجدة لهذه العوالم من: عقلية ونفسية وحيوانية (وحيوية) ومادية.

إن ظني القاصر قد بلغ إلى هذه المرتبة من التحليل. ولعل الله تعالى يقيض من يوصلنا إلى حقائق أخرى إبداءاً لعظمته تعالى وإظهاراً لجليل قدرته. ولقد جاء في حديث قدسي: «والذين عملوا بما علموا لنهدينهم إلى ما لا يعلمون».

* * *

على أن الإيمان بالله وبما وراء الطبيعة وبالأنبياء والمرسلين وأوصيائهم عليهم السلام ليس أمراً صعباً يستدعي الاطلاع على شتى العلوم والمعارف الكونية. وإنما الإيمان أمر معنوي قلبي يترشح من نفس طاهرة وقلب زكي. وإن لهذا الإيمان درجات، تتناسب مع درجة طهارة النفس. كما أن الإيمان بأن الروح والحيوية وأن كل شيء في هذا الوجود أوجده واجب الوجود ـ وهو الله تعالى ـ ليس متوقفاً على معرفة حقائق عالم الكيمياء وعلم الحياة (Biologie). فقد يصل الأمي إلى إيمان رصين لا يبلغه من بلغ مرتبة

(الدكتوراه) في أصعب الفروع. والفرق بينهما ناشئ عن درجة طهارة النفس.

إن هذه الحقيقة (أو النظرية) لا تستدعي الشك والارتياب. والتجربة تبرهن على صدق ما ذهبت إليه. فليجرب من شاء. فإن الطُّرق واضحة جلية لا غبار عليها. وكُتب الدين كثيرة والمراجع متوفرة. وإن الذنوب تحجب القلب (النفس) عن رؤية الواقع. لذلك جاء في حديث عن النبي ﷺ: «إن مثل الصلاة كمثل نهر جارٍ يمر بباب أحدكم. فيغتسل به في اليوم والليلة خمس مرات، فلا يبقى عليه شيء من الأدران. وكذلك الصلاة لا تبقى على الإنسان شيئاً من الذنوب».

وغير خاف أن النبي ﷺ إنما عني بهذه الصلاة، الصلاة المقبولة؛ وهي التي تمحو الذنوب فتطهر النفس بقوله ﷺ: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً». وعن الإمام الصادق عليه السلام: «من أحب أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل؟ فلينظر هل منعته عن الفحشاء والمنكر؟ فبقدر ما منعته قبلت منه».

وأهم ما يجب أن يقوم به هذا المجرب أن يرد إلى الناس حقوقهم ويطهر مأكله ومشربه عن الحرام والمشتبهات، وأن يترك ما كان يقوم به من موبقات ومدنسات. وأن يعاشر أهل التقوى والورع ويترك معاشرة تاركي الصلاة ومانعي الزكاة... الخ، ليرى كيف تتجلى له الحقائق وتنقشع عنه سحائب الشكوك والأوهام...

* * *

ولقد ذكر لي من أثق به: أن رجلاً قروياً كان يسكن في قرية قريبة من مدينة (رشت) وكان يعيش من كد يمينه، لم يخالط مأكله ومشربه شيءٌ من الحرام أبداً. وكان يهيئ ما يحتاجه من مأكل ومشرب وملبس في بيته ومزرعته. وكان مع ذلك متقرباً إلى الله بأعمال صالحة، يتعبد ويشكر الله تعالى على ما أولاه من نعم، يعطي فضول ماله إلى الفقراء والمعوزين ويطبق ما كان يعلم من الآداب الإسلامية؛ فأشكلت عليه مسألة شرعية. جاء إلى عالم ديني في مدينة (رشت) ليتبصر فيها. فدخل المدينة عند الظهر. وسمع المؤذن يؤذن، فبادر إلى صلاة الظهر في أفضل أوقاتها وأخذ طريقه إلى بيت العالم الديني. فدخل عليه قائلاً: إني أرى شيئاً غريباً في هذه البلدة. فسأله العالم وما

الذي تراه؟ قال: لم أر في شوارع المدينة إلا بهائم: حميراً وبغالاً . . ولم أصادف في طريقي إلا شخصين على شكل إنسان. أين ذهب الناس؟!

أدرك العالم الديني، لطهارة نفسه وتضلعه في شتى العلوم، السبب في هذه الرؤية الباطنية. وأن الرجل لطهارة مأكله ومشربه وحسن سريرته وتطبيقه أوامر الشرع تطبيقاً صحيحاً أخذ ينظر بنور الله، وتتمثل له بعض الخلائق حسب حالتهم النفسية الصحيحة وما بلغوا من التسافل والتكامل من جراء أعمالهم وما اجترحت أيديهم. ثم أن العالم الديني خاطب القروي قائلاً: هل تناولت طعام الظهر؟

قال: كلا، فدعا العالم خادمه وقال له: اذهب إلى السوق وائت بطعام إلى هذا المؤمن، (مع وجود طعام في البيت). أطاع الخادم أمر سيده وجاء بطعام من السوق وقدمه إلى القروي فأكل القروي وجلس في مجلس العالم وأخذ يسأله عن مسائل شتى، حتى مضى شطر من الوقت، ثم أمر خادمه بأن يأخذ هذا القروي إلى الشوارع ويعود به إلى البيت. قاد الخادم القرويَّ وصار يسير معه في الشوارع ورجع به إلى البيت فسأله العالم: ماذا رأيت؟ قال: «رأيت الشوارع مملوءة بالناس». فقال العالم: «إن الطعام الذي تناولته قبل ساعات مشتبه فيه، فيه الطاهر والخبيث. وإن طعاماً مخلوطاً بالحرام أو النجس ليؤثر في النفس تأثيراً سيئاً وإن كانت النفس لا تعلم ذلك. فيخرج هذا الطعام، الإنسان عن الحالة الملكوتية أو العالم القدسي، فلا تتجلى له الحقائق كما كانت تتجلى قبلاً. إلا أنك سترجع إلى حالتك السابقة بعد رجوعك إلى قريتك إن شاء الله».

* * *

نعم، لقد جاء في حديث: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا». ذلك لأن علاقته المادية: (هذه العلاقة التي تكون حجاباً دون رؤية الحق والواقع) ترتفع مع الموت، فتتجلّى للروح المجردة عن المادة، الحقائق. ويقال عن أحد المؤمنين أنه اشترى مقداراً من التمر من تمّارٍ. فلم ترقه تمرة واحدة، فاستبدلها بغيرها عند الانصراف دون أن يستأذن التمار. فلم يتوفق تلك الليلة إلى صلاة الليل ونام حتى الصباح. وقد رأى في ما

يرى النائم أن رجلاً يقول له: إن تلك التمرة أثرت في نفسك فحرمت مناجاة ربك. إن ظلمات بعض النفوس اليوم تعزى في الدرجة الأولى إلى تلوث المآكل والمشارب بكثير من المحرمات، سواء باختلاط يحصل من جراء المعاملات الربوية في المصارف والبنوك أو بشراء بضاعة بصكوك يعلم معطيها أنها تنزل في البنوك حتماً بحساب الربح البسيط أو المركب، أو بكذب في المعاملات والعقود، حتى عند الزواج، أو خديعة عند عرض السلعة التجارية أو الجهل بما أمر الله في المعاملات، وعدم الحضور في مجالس العلماء للتفقه في المكاسب والمتاجر المحرمة إلى غير ذلك.

ومما لا شك فيه، أن كل خديعة أو تموية أو كذب في مقدمات النكاح أو في الأوصاف التي يقع عليها الرضا بالزواج لتؤثر في اتجاه النسل نحو اليمين أو اليسار.

يقول علي عليه السلام: «يا كميل أنظر فيم تصلي وعلام تصلّي، فإن لم يكن من وجهه وحله فلا قبول. يا كميل، القلب واللسان يقومان بالغداة، فإن لم يكن ذلك من وجهه وحله لم يتقبل الله لك تسبيحاً ولا شكراً»[1]. فالانجذاب إلى ما وراء الطبيعة والإيمان بالغيب والاعتراف بوجود الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله أمر قلبي. سواء اعترف بهذه الحقيقة من سلك مسالك مادية أو لم يعترف. فلابد من تعمير القلب (النفس) وتزكيته وتطهيره ليكون حرياً للاعتراف بما وراء المادة العمياء.

إن الله تعالى يقول: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٤].

* * *

أنظروا إلى ما يقوله علي عليه السلام حيث يسأله ذعلب اليمائي قائلاً: «هل رأيت ربك يا علي»؟ فيقول عليه السلام: «أفأعبد ما لا أرى» فقال: «وكيف تراه»؟ .فقال: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان. قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد عنها غير مباين، متكلم بلا روية، مريد لا بهمة، صانع لا بجارحة، لطيف لا يوصف بالخفاء، كبير لا يوصف بالجفاء، بصير لا يوصف بالحاسة، رحيم لا يوصف

(١) مستدرك الوسائل: ج٣، ص٣٣١، باب ٢.

بالرقة تعنو (تذل) الوجوه لعظمته، وتجب (تضطرب) القلوب من مخافته[١].

يقول الحسين بن علي عليه السلام مخاطباً رب العباد: «سبحانك متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك. ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً»[٢]. فالعالم مهما بلغ من العلم بأحوال الكون لا يمكن أن يؤمن إلا إذا ظهرت نفسه وصلحت أعماله وطاب مأكله ومشربه، فيكون علمه إذ ذاك مؤيداً لعقيدته يستدل به على خصمه. فقد جاء في الحديث «البلاهة أدنى إلى الإخلاص من فطانة بتراء».

على أني لا أنكر أن كثرة الاطلاع في أحوال الكون والوقوف على أسراره وغوامضه وما أودع الله فيه من دقائق يزيد المؤمن إيماناً وتثبتاً ويمنحه خشوعاً وتقديساً لله تعالى. ولا يخفى أن لا بد هناك من نفس بلغت مرتبة ولو ضئيلة من الطهارة ومن إيمان يترشح من تلك النفس فيرسخ هذا الإيمان بكل ما يرى الإنسان من مظاهر عظمة الله تعالى في ما خلق من أشياء مادية ونفسية، وقوى وطاقات ومعاجز وكرامات إلى ما هنالك.

فقد كان في جامعة بيروت الأمريكية أستاذ للفلك العالي، كان إذا تكلّم عما أودع الله من معادلات وقوانين مدهشة في نظام الكواكب والأنجم، فاضت عيناه بالدموع، فيُسأل عن السبب، فيجيب: لو رأيتم ما أرى لذبتم خضوعاً وخشوعاً لمن أقام هذا السماء بهذا الترتيب البديع الذي يحار في استقصائه أولوا الألباب!

* * *

قلت: عن العلم بأحوال الكون لا يولد العقيدة بل يؤيدها. إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: الآيتان ١٢٤/ ١٢٥].

فحال العالم بالعلوم الحديثة والجاهل بها في مقام الإيمان على حدّ سواء، لأن القضية قضية استعداد في القلب وصفاء في النفس وخلوها من الكِبر.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ج١٠، ص٦٤. (٢) بحار الأنوار: ج٦٤، ص١٤٢.

إن الله تعالى يقول: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: الآية ٣٥]. وإن الكبرياء وحده يجر الإنسان إلى إنكار المعاد، على حد قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر: الآية ٢٧]. فإذا أدلهم القلب وتلوث، فلا قبول ولا إيمان، بل جحود وكفر. لذلك جاء في حديث قدسي: «من أخلص لله أربعين صباحاً جرت من قلبه على لسانه ينابيع الحكمة»[١]. فترون أن ينابيع الحكمة والمعارف الإلهية إنما تفيض على الإنسان من جراء الإخلاص والخشوع والخضوع والتذلل بين يدي رب العباد.

دواءك فيك وما تبصر ... وداؤك منك وما تشعر

أتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

إن معرفة النفس طريق لمعرفة الخالق. فقد جاء في الحديث: «أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه». وعن علي عليه السلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربه». وقال المسيح عليه السلام: «إعرف نفسك تعرف ربك». ونسأل الله تعالى أن يطهر نفوسنا حتى نتعرف إليها فنزداد معرفة بالله تعالى. وأني أختم هذا المقال بهذا الحديث ففيه الحكمة البالغة. فقد قال علي عليه السلام: «إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى في قلبه... إلى أن قال: قد خلع سرابيل الشهوات. وتخلى من الهموم إلا هما واحداً إنفرد به. فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى. وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق أبواب الردى. قد أبصر طريقه وسلك سبيله، وعرف مناره، وقطع عماره واستمسك من العرى بأوثقها، ومن الحبال بأمتنها، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس»[٢].

فمفاد هذا الحديث حقيقة ما بعدها حقيقة. يعلم ذلك من وفق إلى تحقيقه، فسار في عوالم الكمال.

ولا تكامل لهذا الإنسان إلا بالإسلام.

(انتهى، ولله الحمد، الجزء الأول. وسيليه الجزء الثاني، إن شاء الله تعالى).

---

(١) جامع الأخبار: ص٩٤، فصل ٥٢.   (٢) بحار الأنوار: ج٢، ص٥٦، باب ١١.

التكامل في الإسلام

بقلم

أحمد أمين

خرّج مصادره وصحّحه

علاء الدين الأعلمي

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

لا مالَ أعودُ من العقل، ولا وحدةَ أوحشُ من العُجب، ولا عقلَ كالتدبير، ولا كرَمَ كالتقو ، ولا قرينَ كحسن الخلق، ولا ميراثَ كالأدب، ولا قائدَ كالتوفيق، ولا تجارةَ كالعمل الصالح، ولا ربحَ كالثواب، ولا وَرَعَ كالوقوف عند الشبهة، ولا زهدَ كالزهد في الحرام، ولا علمَ كالتفكُّر، ولا عبادةَ كأداء الفرائض، ولا إيمان كالحياء والصبر، ولا حَسب كالتواضع، ولا شرفَ كالعلم، (ولا عزَّ كالحلم)، ولا مظاهرةَ أوثق من المشاورة.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد نفذت، والحمد لله، نسخ الطبعة الأولى للجزء الأول من هذا الكتاب في مدة وجيزة، مما يدل على أن الرغبة الدينية وحب الاطلاع على حقائق الإسلام متأصلان في النفوس، وأن الدين حاجة ملحّة للمجتمع لا يمكن أن ينفك عنه بحال من الأحوال وبأية قوة من القوى. وإن تساهل البعض في تطبيق الأحكام الشرعية وتعاليمها، إنما هو أمر عارض يزول بإصلاح المجتمع من حيث التمسك بالفضائل والمكرمات ومراتب التقوى.

نعم، إن الدين أمر طبيعي ارتكازي فطري في روح البشر، لا ينفك عنه أحد إلا إذا غيّر الفطرة بالفسوق والعصيان. ولذلك عمدت كنيسة روما إلى إدخال الخمور والفجور في الأندلس العربية المسلمة بشتى الوسائل ليفر الدين من جراء تلويث النفوس. فيمكن الاستيلاء على البلاد المفتوحة من قبل المسلمين. وقد نجحوا في ذلك وأصابوا الهدف.

فالرجل مهما أراد انتزاع نفسه عن الدين، لا يمكنه ذلك، إلا إذا سعى بشتى الوسائل في إذهاب أو إضعاف العقل الفطري، المرتكز فيه التوجيه الديني على حدّ قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠].

استمعوا لما يقوله الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، عن كيفية هدوء العقل وانسحابه لهشام أحد أصحابه:

«يا هشام، من سلطّ ثلاثاً على ثلاث فكأنما أعان على هدم عقله: من أظلم نور تفكره بطول أمله، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه، وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه، فكأنما أعان هواه على هدم عقله، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه».

«يا هشام، كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت قلبك عن أمر ربك، وأطعت هواك على غلبة عقلك»[١].

أنظروا كيف يصف الله تعالى العقلاء وأولي الألباب. فليعرض من يشاء نفسه على مفاد هذه الآيات البينات، فإن وجد أن أعماله مصداق هذه الآيات فليحكم: إن عقله يعمل عمله وهو غير منسحب عن فعاليته، وإن لم توافق نفسه وأعماله منطوق هذه الآيات، فليعلم أن عقله الفطري قد فارقه وانسحب عنه، وأن الشيطان تمركز فيه وحلَّ محل العقل.

إن الله تعالى يقول: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرّعْد: الآيات ١٩/ ٢٤].

فالعقل الطبيعي غير الملوث بالذنوب هو العقل الذي يعمل بكل ما جاء في الآيات الكريمة المتقدمة من صفات وأعمال والذي يخالف بعض ما جاء في الآيات المتقدمة إنما هو ناقص العقل، والذي يخالف جميع ما جاء فيها إنما هو مسلوب العقل، يهدم عقله بسوء اختياره وفساد أعماله[٢].

ومن المؤسف أنّ أوروبا لم تتشرف بالديانة الإسلامية؛ دين الحياة ودين تصفية النفوس استعداداً لجنّة ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣] وقد

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص١٧، كتاب العقل والجهل.

(٢) وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المَائدة: الآية ٥٨].

توجهت إليها المسيحية المحرّفة التي لا قواعد فيها لتأسيس دولة عادلة؛ فعارضت العلم واستبدت وضغطت على الحرمات بأساليب لا تبررها المسيحية والروحية البحتة، فأدّى ذلك إلى عداء بين العلماء المحدّثين ورجال الكنيسة وأخذ يستفحل هذا العداء حتى أدّى إلى تبلبل في العقائد وفصل الدولة عن الكنيسة وبالتالي معاداة الكنيسة ونموّ الإلحاد والزندقة وظهور مذاهب مادية شتّى، فأنجبت فلاسفة ماديين أمثال: (فورباخ، بوخنز، نيتشه، شوبنهاور....).

ولو أن الفلاسفة! الماديين استطلعوا تعاليم الإسلام وفلسفته العادلة التي تطابق المنطق الطبيعي ولا تقر نظرية الكبت في المسيحية، وجانبوا إلى حدٍ ما الطيش والشهوات المميتة للنفوس والمفسدة للمجتمع لتغيرت فلسفتهم ولأخذت تؤيد الإسلام كدين عالمي خالد.

وكم رأينا من الفلاسفة تغيرت وجهات نظرهم في مقتبل العمر وفي نهايته، فبعد أن كان أحدهم موحداً بالفطرة أصبح ملحداً، أو اهتدى من جديد فغدا موحداً.

فحين يقول أحد هؤلاء الفلاسفة!: «إن الأخلاق الدينية تعارض ميول الإنسان الطبيعية»، إنما يعني الأخلاق الدينية التي تعلمها عن المسيحية المحرّفة. ولو تتبع الدين الإسلامي لعلم أن دواء الروح، وأنه دين يستجيب لكل الغرائز وجميع الميول بشكل لا يؤدي إلى فساد الدنيا والآخرة. وليس في الإسلام كما في المسيحية المحرّفة: طبقة سيدة وأخرى مسودة. ولا يقر الإسلام الظلم والاضطهاد. بل جاء لرفعهما بقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣]. وبقوله كما في الحديث: «أنتم بنو آدم، وآدم من تراب»، «ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ولا أسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى». وأقر القصاص والديات بين جميع الطبقات.

ولو أن كنيسة روما كانت قد ساعدت على دخول الإسلام إلى أوروبا وتابعت الواقع والحق، لرأيت بلاد أوروبا من أحسن بلاد الله تطبيقاً لتعاليم الإسلام في السياسة والعلم والاقتصاد والحياة الاجتماعية وما وجد الإلحاد طريقه إلى مدارس الغرب.

وعسى أن يستيقظ العالم في يوم من الأيام من رقدته وينتبه من سباته تاركاً العصبية العمياء وراء الظهور، فيعتنق الدين الإسلامي ديناً علمياً كما تنبأ بذلك (برنارد شو) مطبقاً إياه في جميع شؤون الحياة حتى يصل إلى طمأنينة وحياة وادعة، لا في الدنيا فحسب، بل بعد الموت أيضاً في عالم خالد يستمر ملايين السنين.

وليس الاستدلال الفلسفي أو على حد تعبير البعض: (العلمي)!، إلا رشحات النفس الإنسانية، سواء أكانت متكاملة أم متسافلة. فالنفس المتسافلة فلسفتها رجعية أي هي فلسفة تعاكس الفطرة، تعاكس ما أودع الله تعالى في نفس الإنسان من توحيده والاعتراف بعظمته، وترك الظلم والجور والبغي. والتعاطف والتراحم[1]... الخ. وهي تبرهن، على ما تزعم بطرق علمية!؟ على أنها في طريق الحق وعلى صراط مستقيم وما عداه ضياع وكبت!؟...

والنفس المتكاملة، أو بالأحرى: النفس السائرة نحو الكمال، فلسفتها فلسفة بناءة، متكاملة، وبراهينها براهين توافق الفطرة وتطابق الواقع والعقل الفطري غير الملوث بالإجرام والفسوق.

فحالة النفس من حيث التكامل والتسافل تسبق موضوع الدليل والاستدلال مهما سمي علمياً! أو فلسفياً... فيجب قبل أن ينظر في الدليل أو سير الاستدلال، أن ينظر في حالة الفيلسوف النفسية وأخلاقه الشخصية مع ذويه وأصدقائه، وصفاته الكمالية في صغره وبعد كبره، كما يُفعل مع الأنبياء والأوصياء سلام الله عليهم أجمعين.

ذلك لأن الفلسفة ليست بشيء ثابت مثل ثبوت الرياضيات البحتة، حتى لا تقبل التحريف والانحراف. فطريق الحق والواقع واحد لا يتعداه، والفيلسوف الحقيقي المتكامل، هو الواجد لهذا الطريق المستقيم الذي لو انحرف الإنسان عنه قيد شعرة لما أصاب الواقع في الصميم.

---

(١) عن أبي عبد الله عليه السلام: «من كانت له دار، فاحتاج مؤمن إلى سكناها فمنعه إياها»، قال الله عزّ وجلّ: «ملائكتي بخل عبدي على عبدي بسكنى الدنيا، وعزّتي فلا يسكن جناني أبداً» [الكافي: ج٢، ص٣٦٧].

وإن التجارب تدل على أن الشخص إنما يصل إلى عقيدة فلسفية خاصة حسب درجة صفاء نفسه وأخلاقه وسلوكه في سره وعلنه وفي ظروف مختلفة. ففلسفة الفرد هي رشحات نفسه من حيث النعمة والكمال. والعقيدة هي عصارة السلوك الشخصي وغايته. وإن هذه الحقيقة من أهم المواضيع الفلسفية التي يجب أن يعتني بها المفكرون من فلاسفة وعلماء، كي لا ينخدعوا بفلسفة المتفلسفين وهراء المتطفلين، دون تمحيص للنفسيات والصفات المتغلغلة في النفوس في ظروف مختلفة وما تجترح الأيدي من ذنوب وآثام. وهذا هو السر في تحتيم طائفة من المسلمين: (العصمة) في الأنبياء والأوصياء ﷺ من بعدهم. فبالعصمة يعلم أن ما يترشح من المعصوم صافٍ نقي لا كدر فيه. على أنا نعترف أن الفلسفة المادية لا تقيم وزناً للغذاء الروحي ولا ترى قيمة للنفس الإنسانية وحاجاتها الطبيعية من سمو وكمال، فالنفس الإنسانية في نظرها كالخشبة الجامدة لا تحتاج إلا إلى صبغ وتدهين!..

والحقيقة الثانية التي يجب أن يعتني بها الفلاسفة والمفكرون، أن النفوس تتصل بعضها ببعض وتتصادق وتقترب اقتراباً طبيعياً. (لا لأغراض خاصة مؤقتة) حسب درجاتها من الكمال أو التسافل. فالنفس الشريرة تميل إلى مثلها والنفس الطاهرة تميل إلى مثلها أيضاً مع حفظ الدرجات في التكامل والتسافل. وقد قالوا قديماً:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

ولقد جربت ذلك في حياتي وتتبعت الموضوع بشتى جوانبه عند كثيرين، فوقفت على صدق ما أذهب إليه. ولعل للنفوس خطوطاً مغناطيسية أو مجالات كهربائية من نوع خاص غير مادي. تختلف من حيث نوع الخطوط أو المنحنيات حسب الصفات والخصال، أو حسب درجات التكامل أو التسافل فتميل بعضها إلى بعض أو بعضها عن بعض، كالإبرة المغناطيسية بالقرب من إبرة مغناطيسية أخرى. ذلك لأن العالم حسب آخر ما توصل إليه العلم المادي مجموعة من قوى جاذبية ومغناطيسية وكهربائية، سواء كانت ظاهرة أو باطنة. وقد خلق الله تعالى أيضاً عدا هذه القوى المادية، أنواراً مختلفة وقوى متنوعة لا تمت بالمادية في شيء ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النُّور: الآية

٣٥] . وإن لكل نفس فلسفة (على ما قدمنا) تتناسب مع درجة تكاملها أو تسافلها، وهي تصر على صحة فلسفة تتبناها وتبرهن عليها بشتى البراهين. وتظهر لها أن هذه البراهين صحيحة، لأنها توافق ما عليه نفسه من ضعة أو كمال. وليست هذه البراهين بقوانين رياضية كي يرى الخطأ واضحاً فيها أو في تطبيقها. فيلفق هذا الفيلسوف في البرهان ويأتي بمقدمات باطلة ويبني عليها بناءً أوهن من بيت العنكبوت. إنها هي نفسه والبراهين هي من نوعها. بل هي هي. . .

فلسائل أن يسأل: إذن، كيف يتجلى الحق والواقع؟ يتجلى الحق والواقع بعد الاطمئنان بكمال نفس الفيلسوف (أو معطي النظرية) أو سيرها في عوالم التكامل وتحليتها بالفضائل والمكرمات المتفق عليها عند العقلاء والأفاضل: كالصدق والوفاء وعدم الغيبة أو النميمة، وحب الخير والقيام بحاجات الناس لوجه الله، وعدم الانحراف عن الفطرة: أي الإيمان بالله الخالق المتعال. . .

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: الآيتان ٧/٨]. فالفضيلة والرذيلة أمور ارتكازية راسخة في النفوس، مهما كانت هذه النفوس بدائية، يشعر بها فاعلها عند القيام بها من ارتياح أو انكماش، ولكنه لو ثابر على الرذيلة تصبح هذه طبيعة ثانية، ووجداناً ثانوياً (Conscience) بانسحاب العقل، فلا يشعر فاعلها إذ ذاك بعتاب وجداني أو وخزة الضمير كقاطع الطريق. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التّين: الآية ٥] . وحاشا لله أن يريد لعبده التسافل. إنما ينسب هذا الرد إليه، لأنه تعالى هو الذي سنّ هذا القانون العام، على حد قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصَّف: الآية ٥][1] .

وإن علم النفس الحديث أو بالأحرى علم آثار النفس يقول بانحراف الوجدان أو الضمير (Conscience) من وقت إلى آخر، حسب البيئة والأعمال التي يقوم بها الإنسان، فبعد أن كان يرى الوجدان السرقة، رذيلة؛ كان الحاكم هو العقل الطبيعي

---

(١) زاغوا: عدلوا عن الحق ومالوا عنه. أزاغ: تركهم وسوء اختيارهم.

وبعد ممارسته السرقة طويلاً انسحب العقل وحلَّ محله الشيطان والنفس المطيعة له، فصار يرى الرذيلة مكسباً وفضيلة.

وأنت أيها القارئ الكريم، سترى في فصول هذا الكتاب بعض حقائق الإسلام، دين الحق والفطرة. فتتجلى لك عظمة الإسلام فتشكر الله إذ ذاك على ما منَّ عليك وعلى البشر أجمع بهذا الدين الحنيف والشريعة السمحاء، دين الكمال البشري الخالد.

وأختم هذه المقدمة بخطبة لسيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومقتدانا محمد بن عبد الله ﷺ. فقد خطب ذات يوم، فقال: «أيها الناس، إن لكم معالم، فانتهوا إلى معالمكم. وإن لكم نهاية، فانتهوا إلى نهايتكم. ألا إن المؤمن يعمل بين مخافتين: بين أجل قد مضى، لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي، لا يدري ما الله قاض فيه. فليأخذ العبد المؤمن من نفسه، ومن دنياه لآخرته، وفي الشبيبة قبل الكبر، وفي الحياة قبل الممات. فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعتب وما بعدها من دار إلا الجنة والنار»[(١)].

وأورد أيضاً هذين الحديثين، ليعلم أن الإسلام، (وإن لم يعمل به المسلمون)!، قد عالج القضايا الاقتصادية، بشكل يؤدي إلى تكامل النفس والسير في عوالم الكمال والتقرب منه تعالى. لا ضغط فيه ولا إجبار، ليربي النفس الإنسانية تربية تكاملية واقعية ويحقق لها (الاختيار). ليستند الثواب والعقاب على اختيار الفرد.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم»[(٢)].

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «أيما مؤمن حبس مؤمناً عن ماله وهو محتاج إليه، لم يذقه الله من طعام الجنة ولا يشرب من الرحيق المختوم»[(٣)].

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٧٠، باب الخوف والرجاء.

(٢) دعائم الإسلام: ج١، ص٢٤٥.

(٣) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٣٨٩، باب ٣٩.

أفي اللّه شك فاطر السماوات والأرض

إن كان هناك شيء من أوضح الواضحات وأجلى البديهات فهو وجود الله تعالى، الموجد لهذه النفوس والمعطي لها هذه القابليات الخارقة البديعة. فالطفل يشعر بهذا الشعور وهو وجود موجد له وصانع، لما يرى حوله. ذلك، لأن الله تعالى قد أوجد فيه قابلية التفكير. فهو إذا بلغ السنة الرابعة أو الخامسة، يبدأ، فيسأل: لماذا؟ ولأي سبب؟ من صنع هذا؟ من أوجد هذا؟ ومِن أين وُجد ذاك؟

إن الله تعالى قد أتم الحجة على عباده بأن غرس فيهم قابلية التفكير وإرجاع الأشياء (المسببات) إلى أسبابها. فالطفل على سذاجته وطبيعته الفطرية يعترف بوجود خالق له. كيف لا، وهو يرى أن ليس له أن يتصرف في نفسه وهو في غاية العجز وأنه لم يصنع عضواً من أعضاء بدنه. ثم أن الله قد جهز عقله بإرجاع كل معلول إلى علة. وكل مسبب إلى سبب. وهو القائل ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠] أي أن الإنسان بالفطرة وبصورة طبيعية يعترف بوجود خالقه وموجده. ولذلك، سُمِّي دين الإسلام بدين الفطرة، أي إن كل ما فيه فطري وضروري، يعترف به العقل بصورة طبيعية إرتكازية. وإن هذا الاعتراف بوجود الخالق شيء مرتكز من قبل الله تعالى في عقل الإنسان منذ نعومة أظفاره. وعدا ذلك، فإن الله بقوله جلَّ من قائل:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٧٢/ ١٧٣] قد تم الحجة على عباده، فحسب مفاد هذه الآية المنيفة: إن الله تعالى قد أحضر في عالم الذر كل

إنسان ذكراً أو أنثى وجعلهم شهوداً على أنفسهم وأخذ منهم الاعتراف على وجوده ووحدانيته. بقوله ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾.

أي: أخرجهم الله من أصلابهم على نحو توالدهم نسلاً بعد نسل إلى يوم القيامة، فخرجوا كالذر، فعرّفهم نفسه وأراهم صنعه كما جاء في بعض التفاسير. وإنما فعل ربنا جلّ جلاله ذلك كي لا يقول قائل: إنا كنا عن الاعتراف بوجود الله ووحدانيته غافلين، أو يعتذر المعتذر عند الإشراك أو الكفر بالله وبما أنزل قائلاً: إنما أشرك آباؤنا، وأما نحن فـ(كنا ذريةً من بعدهم)، فلا ينبغي أن نعاقب ونهلك. قالوا ذلك اعتراضاً على الله وختموا مقالهم بقولهم: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٣]. أي إن آباءنا قد أشركوا وذهبوا مذهباً باطلاً، فما ذنبنا حتى نهلك؟

وقد قال بعض المحققين: أن في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢]. إشارة لطيفة: فإنه سبحانه استفهم الإقرار منهم بربوبيته لا بوجوده، تنبيهاً على أنهم كانوا مقرين بوجوده في بداية عقولهم وفطرة نفوسهم.

نعم، ليس لأحد أن يعتذر بهذا العذر. وأن يقول: إني اتبعتُ دين أبي وأمي، فصرت أدين بما دانوا أو أشركت «والعياذ بالله»، لأن أبي كان مشركاً. وأنكرت وجود الله، لأن أبي كان منكراً لوجود الله. فإن مخالفة الفطرة أمر يأتيه الفرد من تلقاء نفسه وسوء اختياره. بل لإفساده سريرته وطبيعته الفطرية المتوجهة إلى الحق والواقع بالفطرة.

أنظروا، ماذا يقول علي عليه السلام، إنه صلوات الله عليه يقول: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله ومعه وبعده». هذا غاية ما يبلغ الإنسان من معرفة ربه، إذا كان قد بلغ من طهارة النفس مرتبة من مراتب الكمال. ومن مثل علي عليه السلام في ترويض النفس وتكميلها. فقد كان يغمى عليه مرات في الليل من خوف الله تعالى.

إن الإنسان ليعصي ربه باختياره وإرادته، دون أن يجبره على ذلك أحد. إنه يفسق ويظلم ويبغي وينهب أموال الآخرين ويهتك أعراضهم. إنه يكذب، ويغتاب، فيفسد في الأرض، ثم لا يرتدع ولا يتوب ولا يندم. وقد يكون ما يدخل في جوفه ليس من مورد حلال طيب لسوء اختياره. كل هذه تريّن على نفسه وقلبه وعقله ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطفّفين: الآية ١٤]، فتفسد لوحة نفسه الصافية البيضاء. فتصبح مظلمة

حالكة دكناء. لا تبصر الحق ولا تعي. فهذه الذنوب وتلكم المعاصي تمسي حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق والواقع، ثم أن الشيطان له بالمرصاد، فيمنّيه حسن العاقبة وأنه على صواب من أمره. إنه تعالى يقول: ﴿وَمَن يَعْشُ[1] عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ[2] لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرُف: الآيات ٣٦/ ٣٨].

فالله تعالى يجعل لأولئك الذين تمادوا في غيهم وبغيهم وظلمهم وفجورهم وفسوقهم ولم يعقبوها بتوبة وعمل صالح، قرناء من الشياطين يصدونهم عن السبيل، لأنهم بلغوا مرتبة من التسافل لا يجدي معها أي توجيه وإرشاد. ثم إنه يطمئن إلى ما هو عليه من مذهب أو مسلك جديد. فيزعم أنه قد بلغ مرتبة سامية من الهداية. وأنه كان قبل هذا في ضلال وخرافة، يحمل عقائد سخيفة، أولدتها جهالة القرون الأولى وسذاجة عقولهم، وها هو في عصر الذرة. حين أن بركسون (Bergson) الفيلسوف الفرنسي الموحد الذي أتعب نفسه في العلوم الرياضية برهة من الزمن، عندما ينظر إلى تلك المعادلات والخوارق في الذرة، يقول: إن الله موجود في الذرة، يبدعها إبداعاً، وينظمها تنظيماً.

فـ(بركسون) عندما يرى في الذرة حركات في غاية الحكمة لا ربط لها بالصدفة. يذعن أن يداً ربانية موجودة في الذرة نفسها، تعمل في هذا الترتيب الحكيم.

نعم، إن الأخلاق المذمومة، الكذب والإفك والآثام، على اختلاف أنواعها، تجعل للشيطان مجالاً للولوج في نفس هذا الإنسان الذي سلك طريق الغواية والضلالة بأعماله. فتجعله منكراً للبديهيات وأولها: وجود الخالق جلَّ جلاله.

إنه تعالى يقول: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشُّعراء: الآيات ٢٢١/ ٢٢٣].

فإذا استولى عليه شيطانه يكون إلهه هواه على حد قوله تعالى:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفُرقان: الآية ٤٣].

نعم، إنّ التمادي في الظلم يؤدي إلى الظلمات، فيزيح عن الإنسان الاعتراف

---

(١) أي ومن يعم. (٢) نقدر ونتح.

بأوضح البديهيات وهو وجود الله تعالى. ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الرُّوم: الآية ٢٩]، إنه ينسى أن أبيقور (Epicure) وهو الفيلسوف! اليوناني، كان ينكر وجود الخالق ولا يعترف بما وراء الطبيعة وذلك قبل الميلاد بـ(٣٠٠) سنة.

أسفاً على الفلسفة حين يُدعى منكر أوضح البديهيات فيلسوفاً! نعم، كان لهذا الملحد: (أبيقور) أتباع ملاحدة منحرفون. كل ذلك لتبديلهم الفطرة (لوحة نفسهم البيضاء) بآثام وأجرام وفسوق وفجور وشهوات ونزوات، إلى نفسية جاحدة جامحة، لا ترى الحق ولا تبصره.

هذه حقيقة من أوضح الحقائق. فليجرب علماء النفس وليتتبعوا أحوال الناس، كي يروا صدق ما أقول. فالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ومراعاة حقوق الآباء والأمهات والأرحام تؤدي إلى الاعتراف بوجود الخالق والتوجه إلى الدين الصحيح، ذلك الدين الذي يدعمه العقل ولا يختلف معه في شيء، ذلك الدين الذي لا يحيد عن المنطق الصحيح قيد شعرة. فإن المسلك الذي يختاره الإنسان أو الدين الذي يكون عليه إنما يتناسب مع درجة طهارة نفسه وكمالها. إن الله تعالى يقول: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النِّساء: الآيتان ١٢٣/ ١٢٤][١].

إن المنطق الإنساني يبقى ثابتاً في حل المعادلات الرياضية أو الفيزيائية أو المحاكمات الهندسية... الخ أي في كل ما يتعلق بالأمور المادية الحسية. ولكن هذا المنطق يحيد عن الطريق السوي والاعتراف بالله عند الزيغ والانحراف عن السبل القويمة واجتراح السيئات، أي أن العقل الفطري يكون محجوباً عند اسوداد النفس وادلهمامها. فيقوم مقامه عقل شيطاني، يملي على هذا المسكين المنحرف ما يشاء من إنكار الخالق وعدم بعث الأنبياء وعدم الاهتمام بأمر الصلاة والصوم والزكاة

---

(١) النقير هي النقرة التي في ظهر النواة ويضرب به المثل في الشيء الطفيف.

والخمس؛ إلى ما هنالك. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً[1] أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا[2] يَتَكَوْنَ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: الآية ٥٧].

إن الله تعالى يتم الحجة على عباده بتذكيرهم بآياته وما يجب عليهم أن يقوموا به يُعرضون منكرين. فيفسقون ويفسدون، فتظلم نفوسهم وتدلهم قلوبهم فتكون إذ ذاك محجوبة عن رؤية الحق والواقع كأن عليها أغطية وكأن في آذانهم وقراً وصمماً، فلا يفقهون الحق ولا يرون الواقع البديهي. فلا تفيد فيهم الهداية مهما دعوا. فيأتي إذ ذاك، دور الاستهزاء بالمقدسات، وما أنزل الله من أوامر ونواهٍ. فقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الرُّوم: الآية ١٠].

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾﴾ [الزّخرُف: الآية ٧].

قلنا إن الإنسان ليتسافل لسوء سريرته وفساد أعماله وعقوقه وشروره. الخ... إلى مرتبة يختم الله معها على سمعه وقلبه ويجعل على بصره غشاوة كي لا يبصر الحق. وذلك، لأنه أمسى جرثومة فساد لا تطهره إلا نار جهنم. فإذا تدهور الإنسان إلى هذا الحضيض كان من المنكرين لوجود الخالق، على أن له تعالى في كل شيء آية تدل على أنه واحد لا شريك له. لذلك يقول الله تعالى في سورة الجاثية

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجَاثيَة: الآية ٢٣].

نستجير بالله من هذه المرحلة أو الهوة السحيقة. نعم، إن الله تعالى لا يضل فرداً من الأفراد إلا بعد إتمام الحجة عليه بأنواع الهداية والإرشاد بعقله الفطري أولاً وبأنبياء ومرسلين وكتب سماوية ومرشدين ثانياً، فإن أبى وكفر واتبع الطرق الشيطانية من فساد وإفساد، يسد إذ ذاك على نفسه أبواب الهداية على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبَة: الآية ١١٥].

أجل إن الإفك والإثم وارتكاب كل ما نهى الله تعالى عنه يؤدي إلى الكبرياء ومن

---

(١) أكنة: أغطية. (٢) وقراً: صمما.

ثم إلى الاستهزاء بالمقدسات على حد قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾ [الجَاثية: الآيات ٧/ ٩].

وقد يؤدي ذلك إلى الاستكشاف من سماع ذكر الله وآياته على حد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾ [الصَّافات: الآية ٣٥].

فقد لاقيت شخصاً في إحدى العواصم الإسلامية قبل حوالي ثلاثين عاماً كان يشكو أذان الصبح عند الفجر. كان يقول أن هذا المؤذن في هذا الجامع يوقظني بأذانه عند الفجر من نومي. أليس هناك رادع أو مانع! نعم، إن من يقضي ليله في سفاسف الأمور ويسهر في أمور باطلة إلى بعد منتصف الليل، في أمور تذهب بدينه ودنياه، يريد أن ينام عند الفجر إلى بعد طلوع الشمس بساعات. وقد يأتي إلى فراشه ثملاً، لا يعي ولا يشعر، قد تلوثت نفسه بهذا المسكر الذي أقل ما يفعله بالشخص أنه يزيل إيمانه بالمقدسات ويجعله يستهزئ بها، ففي الحديث: «شارب الخمر كعابد وثن»[1]. أي، أن المثابرة على استعمال المسكرات تؤدي إلى إنكار المقدسات، فيترك شيئاً فشيئاً عبادة الخالق جلّ جلاله ويؤول أمره إلى عبادة المادة وحب الدنيا الفانية، فيكون كمن عبد الأوثان. أي يرجع بمدمن الخمر إلى جاهلية جهلاء. ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨﴾ [السَّجدَة: الآية ١٨]. نعم، قد يؤدي بهؤلاء الأشخاص الحال، أنهم يمتعضون من سماع ذكر الله وآياته، فيكونون مصداق هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٥﴾ [الزُّمَر: الآية ٤٥].

إن الله تعالى كما في الآية الآتية يحصر الاعتبار بالآيات والاتعاظ بعصارات العلوم الطبيعية وما خلق الله في هذا الكون من عجائب وما وضع من أحكام وقوانين، في من كان متصفاً بالصبر والشكر. إنه يقول:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣١﴾ [لقمَان: الآية ٣١].

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص٣٥٢، باب النوادر.

وقد جاء في الحديث: «الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر». ولا يعلم معنى هذا الحديث وأثره في تكامل النفس إلا من جرب ذلك وأخذ يسير في ميادين تطهير النفس وتزكيتها. ولكن من تسافلت نفسه وتلوثت بأنواع المظالم والموبقات يرى الحق باطلاً والباطل حقاً. فيتذرع تبريراً لموقفه بالمنطق الحديث! ظناً منه أن الأحكام الأخلاقية تتغير حسب ميول الناس وشهواتهم. فإذا تسافلوا، فما هم عليه من التسافل في الأخلاق فهو المنطق! لكنه حديث وجديد! لزعمهم أن لكل زمان منطقاً! إن هذا النوع من الاعتقاد ناشئ عن الاعتقاد بأن الله تعالى لم يرسل نبياً لتكامل الإنسان ورفع نواقصه، وإن البشر يسير حسبما يحب ويريد فلا تسافل ولا تكامل! بل التكامل ما عليه الناس في كل وقت من عادات مهما كانت متسافلة في متن الواقع.

هناك فرق بين المنطق (Logique) وما عليه الناس من عادات وأفكار مملوءة بالشهوات: (Mentalite) أو الذهبية. فإن المنطق يجري في حل المسائل الهندسية والفيزيائية والكيميائية، وقد أودعه الله تعالى في الإنسان تفضلاً منه ورحمة ولا تبديل يعتريه. ولكن العادات والذهنية الحاكمة وما عليه الناس من أخلاق تتسافل وتتكامل وتتغير، فلا يجوز أن يعبر عنها بالمنطق الحديث والمنطق منه براء.

ولقد سمعت وأنا أدرس في الجامعة من أحد المهوسين المدافعين عن أخلاق الغرب مدحاً كثيراً، لاسيما عن الحرية التي شاهدها في حياتهم. وذكر لي شاهداً على صحة قوله، أن رجلاً من رجال الغرب كان يفسق في غرفته، فاستأذن عليه صديق له، فأذن له بالدخول. ودخل، فلم يكترث ولم يرتبك كأنه يقوم بعمل طبيعي، ذلك لأن الفسق في نظره عمل طبيعي، أهذه حرية أم سلوك بهيمي؟!

إن سنن الكمال ثابتة لا تغير فيها حسب الزمان والمكان. سواء ارتضى الغربي أو لم يرتضِ. فليس هناك مجال للقول بالمنطق الحديث والمنطق القديم. فلا قديم ولا حديث. والحق ثابت على لسان الأنبياء ﷺ.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۝٢٦﴾ [الأعراف: الآية ٢٦].

فطوبى لنفوس تقيدت بالفضيلة وسارت بإرادة وعزم رصينين في ساحات الكمال

لتصل إلى الغاية التي قد خلقت لأجلها ولم تتأثر بزخارف الغرب ومدنيتها المادية الشهوانية، فزادت إيماناً بخالقها وبارئها.

* * *

وكم قرأنا في تاريخ الإسلام أن أناساً أسلموا بمجرد سماع آيات الله البينات، القرآن الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٢]، فقالوا ما هذا بكلام الآدميين، وإنما هو كلام سماوي أنزله رب العالمين. كل ذلك لصفاء في نفوسهم وفطرة لم تتلوث بالظلم والموبقات.

وهذا خير دليل على أن الإنسان لو خلي ونفسه ولم يلوث نفسه بالجرائم والموبقات يعترف بخالقه وبكل ما انزل الله، بصورة فطرية. ويرى ذلك من أوضح الواضحات ومن البديهيات، ولا يشك في ذلك قيد شعرة، على حد قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: الآية ١٠]. إلا أن الذنوب وعلى رأسها الخمور تؤدي به إلى هذا الجحود أي مخالفة الفطرة. فقد جاء في الحديث القدسي: «وكل عبادي خلقتهم حنفاء، فاحتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروا بأن يشركوا بي غيري».

وقد جاء في بعض ما نشر عن أسباب استيلاء الغربيين على الأندلس: أن كنيسة روما كانت مضطربة أيما اضطراب من جراء دخول المسلمين الأندلس وانتشار الإسلام في تلك الأصقاع. فكانت تعقد الجلسات والاجتماعات لمعاجلة هذا الأمر. حتى استقر رأيهم على أن يرسلوا كميات وافرة من الخمور بصورة سرية إلى الأندلس وأن يؤسسوا تحت الأرض معامل سرية لاستحصال الخمر، فيقدموا للمسلمين ولاسيما رجال الحكم، الخمرة بثمن بخس أو متبرعين. فانتشرت الخمرة بين المسلمين، لاسيما أصحاب النفوذ والثراء، وانتشر نتيجة لذلك، الترف والفساد بأنواعه، فضعفت العقيدة وذهبت الغيرة والتضحية في صيانة الدين وصيانة وطن المسلمين. وكانت نتيجة ذلك أن ارتحل الدين الإسلامي من إسبانيا وأصبح في خبر كان.

نعم، إن الاعتراف بوجود الخالق هو من أوضح الواضحات وهو من أشكل المشاكل وأوعرها لو تدنست النفس بفجورها وخمورها، بغيها وظلمها.

* * *

أنظروا إلى دكارت (Rene Descartes) وهو الفيلسوف الفرنسي الرياضي (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠م) كيف توصل إلى وجود الخالق جلَّ جلاله، لعدم تلويثه نفسه بما يبعدها عن الاعتراف بأوضح الواضحات.

إنه شك أولاً في وجود نفسه، فقال: «أنا أفكر، إذن أنا موجود». ثم قال: «إن لديَّ فكرة الكمال وأنا غير كامل، فلو كنت مخلوقاً من قبل ذاتي لكنت خلقت ذاتي كاملاً، لأنني أمتلك فكرة الكمال، ولأن أعطاني لذاتي ضروب الكمال، سيكون ولا ريب، أقل صعوبة من أن أجذب نفسي من العدم، وبما أني غير كامل، فأنا إذن، لم أخلق نفسي بنفسي».

يقول الإمام علي عليه السلام عن الله تعالى: «شيء لا كالأشياء» ومعنى ذلك أن الله تعالى لا يشبه ما نراه من الأشياء أو نتصورها.

يستنتج من كلام علي عليه السلام ما يلي: أنا محدود، فعليه يجب أن يكون الله تعالى غير محدود. ذلك لأن المحدودية قيد ولابد أن يكون هناك من يقوم بهذا التحديد. والله جلَّ من أن يحده أحدٌ أو يحده شيء وهو خالق الأشياء عليها[1]. ثم إن علمي محدود. وعلمي من الله تعالى، ولولا إعطاء الله إياي القوى العقلية والفكرية لما علمت. فيجب أن يكون علم الله تعالى غير محدود. لأنه الكمال المطلق. ولا يشبهه شيء. وهكذا نقول في قدرة الله تعالى، أن قدرتي محدودة، إذن قدرة الله تعالى غير محدودة ولا تتناهى. أنا أبصر بعين والله تعالى هو معطي العين وهو لا يشبهني في شيء ولا يحتاج إلى آلة لأنه هو خالق الآلات، إذن، لا يحتاج الله تعالى في الإبصار إلى عين (أي إلى آلة). وقد جاء في الأدعية الرجبية: «يا من لا ينعت بتمثيل، ولا يمثل بنظير، ولا يُغلب بظهير».

ويستحيل على العقل أن يعترف للخالق بخالق آخر؛ إذ لابد من خالق أزلي لم يُخلق،

---

(١) وقد جاء في دعاء يقرأ في كل يوم من أيام رجب: «يا موصوفاً بغير كنه، ومعروفاً بغير شبه، حاد كل محدود، وشاهد كل مشهود، وموجد كل موجود، ومحصي كل معدود، وفاقد كل مفقود، ليس دونك من معبود. أهل الكبرياء والجود، يا من لا يكيف بكيف، ولا يؤين بأين. يا محتجباً عن كل عين، يا ديموم يا قيوم وعالم كل معلوم». مفاتيح الجنان، أعمال شهر رجب.

لا يحده زمان وهو خالق الزمان والمكان وموجدها، كان قبل أن يكون شيء غيره.

قيل لعلي بن موسى الرضا عليه السلام وهو الإمام الثامن من الأئمة الاثنى عشر، المعصومين عليهم السلام؛ يا ابن رسول الله، ما الدليل على حدوث العالم؟ قال: «أنت لم تكن ثم كنت، وقد علمت أنك لم تكوِّن نفسك، ولا كوّنك من هو مثلك»[1]. وقال عليه السلام «إني لما نظرت إلى جسدي ولم يمكني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه وجر المنفعة إليه، علمت أن لهذا البنيان بانياً بناه، فأقررت به مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته وإنشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المبينات، علمت أن لهذا مقدراً ومنشئاً»[2].

إن هذا المادي المتطفل على العلم، والعلم منه براء، يريد أن يحيط بالله الذي لا يحده شيء، يريد من شخصيته المحدودة في كل قابلية وفي كل ملكة، المحدودة في الجسم والنفس. يريد منها أن تحيط بخالقها الذي لا تتناهى كل صفة من صفاته التي هي نفس ذاته.

ما أعظم هذه الفقرات من دعاء يقرأ في كل يوم من أيام رجب: «يا من سما في العز ففات خواطر الأبصار، ودنا في اللطف فجاز هواجس الأفكار، يا من توحّد بالملك فلا ند[3] له في ملكوت سلطانه، وتفرد بالآلاء والكبرياء فلا ضد له في جبروت شأنه. يا من حارت في كبرياء هيبته دقائق لطائف الأوهام، وانحسرت دون إدراك عظمته خطائف أبصار الأنام»[4].

أترى أن ذرات التباشير على السبورة (اللوحة) تشعر بتشكيلات أعضاء من رسمها على السبورة، تشعر بعقل الراسم ونفسه ومحاكماته، هل لهذه الذرات (ذرات التباشير) أن تحيط براسمها ومصورها. كلا... على أن الراسم على السبورة لم يكن

---

(١) بحار الأنوار: ج٣، ص٣٦، باب ٣.

(٢) أصول الكافي: ج١، ص٧٨، باب حدوث العالم.

(٣) الند: المثل، جمعه: أنداد.

(٤) بحار الأنوار: ج٤٩، ص٨٢، باب ٥.

قد أوجد ذرات التباشير من العدم والموجد لها غيره وهو الله تعالى، بل رتب الذرات أو الأجزاء بشكل آخر. (مع عدم جواز التشبيه). فكيف بهذا الإنسان المغرور، يريد أن يحيط بخالقه الذي أوجده من العدم. كان نطفة، فعلقة، فمضغة. . . الخ. وقد سار في أدوار التكامل التكويني مراحل عديدة جداً رسمها الله، وقف على بعضها العلم الحديث.

إن الاعتقاد بوجود الخالق أمر ارتكازي في الإنسان. ولكن هذا الإنسان بارتكابه المعاصي وباتباعه أوامر الشيطان، يحيد عن الفطرة، فينكر خالقه ويتخذ لنفسه مما صنع بيده آلهة، فيعبد الأوثان والحيوانات إلى ما هنالك.

لذا يسأل أتباع موسى عليه السلام نبيهم موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً!

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ[1] عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ[2] مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٨/ ١٣٩].

سئل أعرابي عن الدليل على وجود الصانع (الله)، فقال: «البعرة تدل على البعير، وآثار الأقدام تدل على المسير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا تدلان على الصانع الخبير»[3].

وسُئلت عجوز عن الدليل على وجود الصانع، فقالت دولابي هذا، إن حركته تحرك وإن لم أحرّكه سكن.

كل ذلك لأن فكرة الاعتراف بوجود الخالق مرتكزة في النفس الإنسانية من القديم. أي أن الله تعالى ودع هذه الفكرة في النفس الإنسانية عند خلقه إياها. فهي إن لم تتلوث تعترف لا محالة بخالقها بالفطرة. وإن هذا الاعتراف أمر فطري خارج عن إرجاع المعلول إلى العلة. على أن الطرق لمعرفة الخالق كثيرة جداً وأهمها إرجاع المعلول إلى العلة. فالإنسان المفكر (غير الملوّث فطرته) لابد وأنه يؤمن بموجد أزلي

---

(١) يعكفون: يقيمون ويلازمون.

(٢) متبّر: مُهْلَك، مُدَمَّر.

(٣) بحار الأنوار: ج٦٦، ص١٣٣.

لم يوجده شيء وهو الله الكامل على الإطلاق. لا يشابه ما خلق في شيء من الأشياء.

ولولا إيداع الله تعالى في العقل الإنساني ملكة البحث عن علة الأشياء لصعب علينا السير في ساحات العلم. ولكن هذا البشر العادي عندما يلوث نفسه بالمعاصي والموبقات، يحجب عقله الفطري الذي يعترف بعظمة خالقه وكمال صنعه بصورة طبيعية، فلا تفيده الأدلة ولا ربط المعلولات بعللها. على حد قوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾ [التوبة: الآية ٦٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: الآية ٢٨].

وقد يسأل بعضهم: لماذا يسد الله تعالى على بعض عباده أبواب الهداية. ذلك، لأن نفوس هؤلاء تبلغ من التسافل والانحطاط مرتبة لا ينفعه معها أي إرشاد ووعظ. فتستحق الخذلان، فتسد عليهم أبواب الهداية. إن الله تعالى يقول: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝٢٨﴾ [الأنعام: الآية ٢٨].

ومع الأسف، إن طبقة الضالين والمنحرفين هم أكثر عدداً على وجه البسيطة من المؤمنين بالله تعالى. فإنه تعالى يقول: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝١١٦﴾ [الأنعام: الآية ١١٦]. ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف: الآية ١٠٣].

أسفاً لبعض هؤلاء الذين قد بلغوا مرتبة مرموقة من ثقافة العصر، ثم هم ينكرون أوضح ما في الوجود، ألا وهو الله تعالى، لادلهمام في النفس وظلمات بعضها فوق بعض. ولأنهم (مع مزيد الأسف) قد بلغوا مرتبة من تسافل النفس بسبب ما ارتكبوا من موبقات حتى صاروا لا يشعرون بما هم فيه من انحطاط نفسي مرير. ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِى لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعرف: الآيتان ١٨٢/ ١٨٣].

* * *

يقال عن بعض الفضلاء[1] أنه أراد أن يكتب رسالة في إثبات وجود الخالق (واجب الوجود)، قالت له زوجته: ماذا تريد أن تكتب؟ فقال: أريد أن أكتب رسالة

---

(١) ألا وهو السيد المرتضى، علم الهُدى، شقيق السيد الرضي مدوّن نهج البلاغة.

في إثبات الخالق. فقالت له: «أفي الله شك فاطر السموات والأرض»[1].

نعم، إن نفس هذه الامرأة كانت صافية نقية، لم تلوث بكثير من المعاصي والآثام. ومن أين كانت تأتي الذنوب إلى بنات كن يتربين تربية دينية في البيوت ثم يتقلن إلى بيوت أزواجهن دون أن يشاهدن رجالاً آخرين. فهل كان يأتيهن الذنوب بسبب التبرج ومخالطة الشبان أم بسبب الحضور في مجالس القبول مع ما هنالك من ميسر ورقص واستماع إلى الأغاني المحرمة و. . . أم بسبب الحضور في مجالس اللهو واللعب. أم بسبب الاتصال بالرجال في حدائق عامة حتى الصباح حيث تطفأ المصابيح! لذلك كانت تبقى النفس صافية لا يتخللها رجس يزيح الإنسان عن الاعتراف بهذا الأمر البديهي وهو وجود الخالق جلَّ جلاله. ولا شيء ككبائر الذنوب يزيح الفطرة عن عملها، ويبعد العقل عن الاعتراف بأوضح الواضحات وهو الله تعالى.

أجل لو تلوثت النفس الإنسانية ومرضت بالذنوب، أخذت تشك في أوضح الواضحات وتريد دليلاً على وجود الخالق وقد لا يفيدها أي دليل وذلك لظلمات في النفس وذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها. إن الله تعالى يقول: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [يونس: الآية ٤٠]. وقد سد المفسد على نفسه باب الإيمان بالله ورسله. ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: الآيتان ١٢٤/١٢٥]. ويؤيد الآية المتقدمة قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة: الآية ١٢٦].

وإنما سُمّي الخالق تعالى بواجب الوجود، إذ لا يمكن تصور وجود هذه المخلوقات بهذه الخواص العجيبة والأنظمة المدهشة والقوانين المتقنة والمعادلات الرصينة والدقة المتناهية وارتباط بعضها ببعض إلا بتدبير خالق واجب وجوده، أزلي سرمدي لم يوجده غيره، وهو واجب الوجود جلَّ جلاله وإلا لما وجد كل شيء.

* * *

---

(١) فانصرف عن تأليف ما أراد.

يقال: إن ملكاً من الملوك كان يشك في وجود الصانع وهو الله تعالى. وكان قد تنبه إلى ذلك وزيره. فأراد أن يزيل عن الملك ما يختلج في صدره من شك. فأمر بصورة سرية ببناء قصور عالية وإجراء مياه جارية وإحداث بساتين عامرة وحدائق غناء في مفازة من الأرض. ولم يُعلم الملك بذلك. ثم ذهب الوزير بالملك إلى تلك المفازة على سبيل المرور ببلدة ما، فلما رأى الملك ذلك سأل الوزير قائلاً: من الذي بنى هذه القصور ومن هو الذي نظم هذه الحدائق؟ فأجاب الوزير قائلاً: قد حدث كل ذلك من تلقاء نفسه! وليس لها بانٍ ولا صانع!

غضب الملك وقال بامتعاض: أفيمكن ذلك؟ أفيجوز أن تنظم هذه الحدائق بهذا النظام البديع وتبنى هذه الغرف بهذا الترتيب الجميل دون أن يكون هناك منظم ومرتب؟. ما هذا الجواب السخيف؟ فأجابه الوزير، قائلاً: فكيف يصحّ وجود هذه المخلوقات المتنوعة مع ما فيها من جمال وكمال وترتيب، وهذه السموات والأرض بهذا النظام البديع والدقة المتناهية دونما صانع وخالق قدير متعالٍ؟ فتنبه الملك وأيقن بالحق والواقع وزال شكه.

إن التصديق بوجود الخالق أمر فطري. ولا يعتريه الشك أو لا يزيحه إلا الكبائر من الآثام والذنوب وقد قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾. فقد ورد في تفسيرها: أنهم فطروا على المعرفة أي على معرفة الخالق جلّ جلاله. وقال رسول الله ﷺ: كل مولود يولد على الفطرة. ولذلك ترى الناس عند اشتداد الأمور وتعسُّر الأحوال وفي الأهوال يتوجهون إلى مَن خلقهم، يرجون منه كشف ما توجه إليهم من النوائب والبلايا بصورة فطرية. لأنهم مجبولون على ذلك.

كم رأينا من الطيارين عند حدوث عطل في طياراتهم وعلمهم بالسقوط لا محالة، تضرعوا إلى الله تعالى وتوسلوا به بإخلاص لا مزيد عليه. فنجوا بشكل خارق لم يكن بالحسبان. نقرأ ذلك في كثير من المجلات. ويشهد لذلك قوله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٨] وفي آية

أخرى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ[1] إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٤٠/ ٤١].

وفي آية أخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ[2] وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ[3] فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: الآيتان: ٢٢/ ٢٣].

وكم رأينا مصداق هذه الآية في الحرب العالمية الثانية. حتى الملحدين الذين كانوا يتجاهرون بالإلحاد والزندقة والمسلك المادي ويدعون إليه، كانوا يطلبون إلى الناس وإلى رجال الدين، أن يتوسلوا بالله تبارك وتعالى في المعابد والكنائس، ليمنَّ الله عليهم بالنصر والتفريج. وقد فعل سبحانه. ولكنهم رجعوا بعد ذلك إلى طيشهم وخمورهم وفجورهم وبغيهم! ونشر الإلحاد والزندقة بشتى الطرق والأساليب. وأخذوا يتذرَّعون بما وجدوا (على زعمهم)! من قوانين غير ثابتة في حياة النبات والحيوان في سيرهما التكاملي! مطبقين إياها خطأ على الحياة الاجتماعية للإنسان، ظناً منهم أنهم قد توصلوا إلى فلسفة الحياة!

لهذا آمنت بالله[4]

يقول الدكتور: ا.ج. كرونين «كنت ملحداً عندما كنت أدرس الطب في جامعة لندن، وعندما كنت أقف أمام جسم إنساني في غرفة التشريح، أحس بأنني أمام جهاز شديد التعقيد، وفي الوقت نفسه، كنت أفكر في الروح الخالدة في الله وكانت ابتسامة الاستخفاف والسخرية ترتسم على وجهي، وكنت أرى في ذلك كله أسطورة قديمة بالية. وكان يشاركني في هذا الشعور أكثر طلاب الجامعة؛ بقيت هكذا إلى أن أصبحت طبيباً

---

(١) أرأيتم: أي أخبروني.

(٢) الفلك: السفن.

(٣) يبغون: يظلمون.

(٤) نقل هذا المقال من مجلة المختار لشهر كانون الثاني ١٩٥٦ لأهميته.

وسافرت إلى منطقة المناجم بجنوب (ويلز)، وصرت أجد أني أنفذ في مملكة الروح الإنسانية. لقد شاهدت معجزة ميلاد الإنسان وجلست إلى الموتى واستمعت في الظلام إلى رفرفة أجنحة الموت فتخلَّى عني غروري، فصرت أؤمن بالله».

ورأيت العمال كلهم يؤمنون بالله. ولا يمضي أسبوع واحد دون أن يقع هناك ما يؤيد إيمانهم بالله وتوكلهم عليه.

لن أنسى ذلك اليوم ما حييت. فقد حدث انفجار مروع أدى إلى سقوط المنجم على ١٤ عاملاً، وبقي هؤلاء العمال مدفونين تحت التراب خمسة أيام كاملة. وظلت القرية تصلي لله لأجلهم، وأخيراً استطاع رجال الإسعاف أن يشقوا طريقهم إلى المنكوبين واستمعوا إلى دعاء خافت ينبعث من الأنقاض إنه صوت العمال، يترنمون بأنشودة: «يا أرحم الراحمين».

أخرجوا أحياءً من تحت الأنقاض وهم منهوكو القوى، والتفَّ حولهم ألوف من العمال وراحوا يرددون: «يا أرحم الراحمين في كل حين».

وعندما وقفت إلى جوار هؤلاء المنكوبين، اجتاحتني هذه الموجة من الدعاء والصلوات. إنها دليل آخر على أن إيمان الإنسان، قد تجاوز كل كلام وكل تعبير.

«وبعد سنة انتقلت للعمل في منطقة أُخرى، والتقيت بممرضة كانت تشتغل ليلَ نهار في التمريض والإسعاف مدة عشرين عاماً وهي تدور مسافة طولها عشرة أميال يومياً بلا توقف للقيام بما هو فوق واجبها. فقلت لماذا لا تطلبين زيادة لراتبك؟ فإنك تستحقين أكثر مما يعطى لك! فقالت بعد صمت يسير: إذا كان الله يعلم أنني أستحق هذه الزيادة فهذا كل ما أطمع فيه.

حادث المنجم وإيمان هذه الممرضة الساذجة. كل ذلك قد أخرجني من عذاب الشك والقلق وأوقفني على أرض ثابتة عالية من الإيمان.

نحن لا نستطيع أن نبرهن على وجود الله كما نبرهن على المعادلات الرياضية. ولكن إذا تأملنا الكون وأسراره وعجائبه ونظامه ودقته وضخامته وروعته فلابد أن نفكر في إله خالق. مَن ذا الذي يتطلع إلى السماء في ليلة صيف صافية ويرى النجوم

اللانهائية وهي تتألق بعيداً، ثم لا يؤمن بأن هذا الكون كله، لا يمكن أن يكون وليد الصدفة العمياء.

وعالمنا هذا هو يدور في الفضاء في حركة دقيقة وفي فصول متتابعة، هذا العالم لا يمكن أن يكون مجرد كرة من المادة خالية من الدلالة، قد نزعت من الشمس وألقيت في الفضاء، بلا معنى ولا سبب.

أطرح عن رأسك، إن شئت، كل ما أشارت إليه الكتب المقدسة عن الله وعن العالم، وإن الله قد سوّى العالم بيده في ستة أيام، وأقبل، إن شئت، نظرية التطور كاملة، وتتبَّع الخلقة منقوشة على الحفريات، وتتبع سير الأنواع، وترقيها حتى بلغت صورة الإنسان، وأقبل ـ إن شئت ـ كل النظريات العلمية التي قامت عليها، فإنك ستواجه لغزاً غامضاً وسراً عميقاً، لا يمكن أن تقول أن هذا كله قد صدر من العدم، فلا شيء يخرج من لا شيء.

ومن بضع سنوات، عندما كنت في لندن نظمت نادياً للشبان ودعوت إليه أحد المشتغلين بعلم الحياة، ليلقي محاضرة للأعضاء. وقد اختار هذا الباحث الممتاز موضوع محاضرته عن «بداية عالمنا» وتحدث بأسلوب العالِم الملحِد! وجعل يصف عصور «الآيون» السابقة على التاريخ. وكيف تحولت الأرض على مرِّ هذه العصور من الغازية إلى السيولة، إلى الصلابة، وكيف أن الأرض كانت مطمورة في مياه المحيطات، وكيف أن الأمواج تعلو وتهبط على القشرة الأرضية، وكيف أن القشرة الأرضية قد تكونت نتيجة تفاعلات طبيعية كيميائية. وكيف أن هذا التفاعل مع الزبد قد أدى إلى تكوين سطح الأرض التي نعيش عليها، ومن هذه الأرض ظهرت الحياة الأولى على هيئة بروتوبلازم.

وعندما فرغ المتحدث من محاضرته، صفق له الحاضرون تصفيقاً مهذباً، ولكن تلميذاً وقف في صورة عصبية وسأله: لا تؤاخذني يا سيدي، لقد حدثتنا عن الأمواج الهائلة التي كانت تضرب الشواطئ، ولكن كيف وجدت هذه المياه كلها أول الأمر؟.

وساد صمت كله حرج واحمر وجه الأستاذ المحاضر، وقبل أن يجيب بكلمة واحدة، أغرق الموجودون في الضحك. لقد انهار منطقه الحديدي بسؤال من تلميذ صغير.

والحقيقة هي أنه لا يوجد في كل هذه الأبحاث العلمية عن الطبيعة والحكمة منها والعمليات المروعة الرائعة التي تجري فيها. أساس واحد سليم لإنكار وجود الله بل إن الإنسان ليجد نفسه مضطراً إلى القول بأن هناك عقلاً كبيراً وراء هذا الخلق والحياة وقوانين الطبيعة.

والعقبة الكبرى التي تقف في وجه الإيمان، أمام أناس كثيرين، هي وجود الشر والألم بين الناس. كيف يمكن الإيمان بالله مع وجود العواصف المهلكة والفيضانات المغرقة، والمجاعات والأوبئة والزلازل والبرق المحرق، والرعد الصاعق والموت في أقسى صورة. .؟ إن هذه الأشياء لا تدلّ على وجود إله كامل خيرٍ»[1].

«ومما يؤسف له حقاً: إننا في هذا العصر المادي لا يشغلنا إلا البحث عن اللذة. وننسى أن اللذة ليست هي كل شيء، وليست نهاية كل شيء في هذا الوجود. فإذا نحن آمنا بالله وآمنا بخلود الروح الإنسانية، فإننا ندرك أن حياتنا ليست تفاهة عابرة، وإنما هي تجربة واستعداد وتهيؤ. وإن حياتنا ليست إلا لحظة من اللحظات الأبدية. وامتحاناً لصبرنا، عندما يجيء ذلك اليوم الذي نقف فيه على أعتاب الآخرة.

---

(١) لم يبلغ (كرونين) ما قاله سيد المرسلين محمد ﷺ: «إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه» وفي هذا تصفية للنفوس الملوثة وتزكية للأرواح المدنسة. فالدنيا مدرسة تكامل وتطهير وما يبتلى به الإنسان من فقر ومرض وفقد الأولاد وزلازل وحريق ورعد وصواعق إنما هي مواد وضعت من جانب الله ليمارسها الإنسان في هذه المدرسة الكونية، يطهر بها نفسه فيكفر عن ذنوبه وينال بها درجات في البصر والرضاء والتسليم. ويقول الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: الآيات ١٥٥/١٥٧]. الدنيا دار تكامل وتصفية. ولا يتكامل الإنسان إلا بعبادة ربه، وبالعبادة يزداد معرفة بالله. وإن الأعمال الصالحات من أهم مراتب العبادة. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: الآية ٥٦]. والعبودية. (كما جاء في الحديث) تتجلى في خمسة أشياء:

١ ـ خلاء البطن. ٢ ـ تلاوة القرآن. ٣ ـ صلاة الليل ٤ ـ التضرع عند الصباح. ٥ ـ البكاء من خشية الله. فمن أراد أن يزداد إيمانه وتصفو نفسه، فتنكشف له حقيقة الحياة وفلسفة النوائب فليطبق ما يتحقق به العبودية. ليرى كيف تنقشع عنه الشبهات ويدخل في عالم من الطمأنينة جديد ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: الآية ٢٨]

وحين نرضى عن الشقاء والألم واليأس والأسف، فإننا نخضع لإرادة الله، وهذا الرضاء والإيمان المُشرق، هو الذي يرينا الله. فإن العقل مهما تبلغ قدرته، لا يبلغ إلا قشرة واهنة من الأبدية. والله يتجلّى للقلب لا للعقل».

حدث، بعد أن زرت معبداً في إيطاليا ورأيت فيه لوحات فنية رائعة تمجّد الله. وبعد أن تجولت في حديقة الدير، أن رأيت عجوزاً قد أقعده الروماتيزم عمل في هذه الأرض منذ ثلاثين عاماً، ورحت أسأله عن حياته، فقال وهو يشير إلى الحديقة: «إنني أرى أشجار الكرز وهي براعم، ثم أرى أزهارها وبعد ذلك ثمارها، فيزداد إيماني بالله».

وقابلت ذات مرة رجلاً في شمال انجلترا، كان يفخر طول حياته بأنه رجل ملحد وحرم ابنته الوحيدة من الميراث. لأنها تزوجت مدرساً شديد الإيمان بالله. وفي نهاية حياته أصيب بمرض عضال. فحاول جهده أن يبرر موقفه بالنسبة لصهره... وكان صهره يستدرجه بين الحين والحين إلى مناقشة تنتهي عادة بقوله: «لا تخدع نفسك، إنني لست نادماً على شيء، فما زلت أكفر بالله».

وفي يوم ردت عليه ابنته قائلة:

ولكن الله يا أبي يؤمن بك!.

وأمام هذه العبارة سقطت آخر مقاومة لهذا الرجل الملحد.

فمهما نفكر ونفعل، فنحن من صنع الله، وكلمة واحدة تكفي لشكره وحمده.

وإنا لنلمح خلال القرون التي لا تحصى، عدداً لا نهائياً؛ من الناس قد عاشوا حياتهم نبيلة طيبة، وكان الله مثلهم الأعلى. لقد أعطى الخائف شجاعة ومنح الضعيف قوة، وأنزل السكينة على قلوب الحائرين، وملأ بالأمل قلوب البائسين، إنه في كل واحد منا، إذا نحن بحثنا عنه».

رُبَّ قائل أن يقول: لماذا كان (ا.ج. كرونين) يسخر من الاعتقاد بالله عندما كان في الجامعة. وما هي العوامل التي جعلته يؤمن بالله إيماناً رصيناً بعد تعيينه في منطقة المناجم. فإن ما شاهده من مناظر وحوادث تُشاهد من قبل كثيرين من الملاحدة ولا تؤثر إلا في القليل منهم جداً.

إن للإيمان بالله عوامل شتى. منها طهارة المأكل والمشرب، برّ الوالدين، صلة الرحم،

العمل الصالح لوجه الله، اجتناب الفسوق والخيانة، والإنفاق وأظنه أهمها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٦٠/ ٦١].

لا شك أن الشاب ينهمك في ملذات غير مشروعة في شبابه إلا من عصم الله. وإن حياة الجامعة واختلاط الجنسين حافزان قويان للولوج في ما نهى عنه، ثم إن الغرور الذي يصيب الطالب الجامعي لثقافة ينالها، يجعله لا يبالي بوالديه وأرحامه، وهذه وغيرها أسباب حقيقية تؤدي إلى اسوداد القلب وظلمة النفس وتكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق. إنه تعالى يقول: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ[1] ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القَلَم: الآيات ٨/ ١٥].

ولا ريب أن النفس الإنسانية في عنفوان الشباب طاغية باغية. منقادة للشيطان الذي يزين له عمله، أمارة بالسوء أكثر من وقت آخر إلا من عصم الله تعالى، وإن النفس كثيراً ما تميل عن الطاعة لما هنالك من مشقة وهكذا شأن الدواء. وتميل إلى المعصية، لما هنالك من لذة ورغبة، كمريض يتناول ما يضره لما فيه من لذة. لذلك جاء في الحديث عن الإمام علي عليه السلام: «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[2]. وقول علي عليه السلام: «واعلموا أنه ما من طاعة الله شيء إلا ويأتي في كره. وما من معصية لله شيء إلا ويأتي في شهوة. فرحم الله رجلاً نزع شهوته وقمع هوى نفسه»[3]. ولا مراء أن الفسق يؤدي إلى ظلمات في النفس، فشكوك، فجحود، فالحاد! على حد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٩].

لكن الدكتور عندما انتقل إلى معالجة المرضى في منطقة المناجم صار بعيداً عن تلك الحوافز التي تسوّد القلب، وأخذ يقوم بمعالجة المرضى وأعمال أخرى صالحات، مما جعل تلك النقاط السوداء التي تلبَّدت على قلبه تزول رويداً رويداً،

---

(١) أساطير: خرافات.

(٢) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٧٢، باب ٦٢.

(٣) بحار الأنوار: ج٦٧، ص٧٨، باب ٤٦.

فصار مؤمن بالله تعالى. ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يُونس: الآية ٢٦] .

لذلك يعمل الدين الإسلامي في إبعاد وسائل اللعب وكل ما يؤدي إلى الفساد وتسافل النفس في كل بلدة، وذلك يجعل ثلة من الناس (وهم المحتسبون) يقومون لوجه الله بالوعظ والإرشاد مطبقين أحكام الحِسبَة، متجولين في الأسواق والشوارع، يمنعون الناس من النقص في المكيال والميزان والغش ومزاحمة المارة وبيع السلع المضرة والمحرمة والتجاوز على حقوق الآخرين وما يضر بالأخلاق العامة[1]، وبذلك يكون المحيط (البيئة) محيطاً صالحاً لا يتأثر فيه الشاب تأثراً سلبياً يؤدي به إلى التسافل.

وإن ما جاء في الدين الإسلامي من أحكام وقوانين كلها تعمل في دفع الظلم عن هذا الإنسان. فالكذب ظلم، والزنا ظلم، وقتل النفس المحترمة ظلم، وعقوق الوالدين ظلم، وشرب الخمر ظلم، والبخل ظلم، والحسد ظلم، والكبر ظلم، وعدم إعطاء حقوق الفقراء والمساكين ظلم؛ ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعَارج: الآيتان ٢٤/ ٢٥]. وعن الصادق عليه السلام، «اتقوا الظلم، فإنه ظلمات يوم القيامة». وفي حديث آخر: «اجتنبوا دعوات المظلوم ولو كان كافراً، فإنها ليس دونها حجاب». فبالظلم يُسوَدُّ القلب وتدلهمُّ النفس، فيأتي دور الجحود والإلحادا. على حد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤] .

وإن الآية الآتية تشرح لنا بوضوح كيف أن الذنوب تؤثر في النفس، فتبعدها عن رؤية الحق والواقع: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعرَاف: الآية ١٠٠] . كما أن الآية الآتية تدل دلالة واضحة: أن الفسق مزيل للإيمان: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعرَاف: الآيتان ١٠١/ ١٠٢].

وقد يكون الإنسان مجموعة ظلم وطيش وفسق وفجور. فلا يفيده أي وعظ وإرشاد، فلا شيء يجعله موقناً بالله إلا نار جهنم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾

---

(١) ويراقبون السراق ويجمعون اللقطة وهو كل ما يرى مطروحاً لا صاحب له.

ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطُّور: الآيتان ١٥/ ١٦]. فيكون إذ ذاك مصداق الآية: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: الآية ٢٣] . ونستجير بالله من هذه المرحلة المتسافلة.

فلا ينبغي للمؤمن أن يبهره ما لهؤلاء الجاحدين من مال وبنين وحياة طيبة وادعة (Confort). ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٥٥/ ٥٦]. فإن الله قد زيَّن لهم أعمالهم في الدنيا وتركهم وما هم عليه من ظلمات، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ [النَّمل: الآية ٤] [1] . وقربهم إلى الهلاك مستدرجاً إياهم بتواتر النعم عليهم على حد قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٨٢/ ١٨٣].

أدلة أُخرى في إثبات الصانع

سُئل الإمام الصادقعليه السلام وهو الإمام السادس، عن الله تعالى، فقال للسائل: يا عبد الله، هل ركبت سفينة قط؟ قال: بلى، فقال: فهل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال بلى. قال: فهل تعلَّق قلبك هناك أن شيئاً من الأشياء قادر أن يخلصك من ورطتك. قال: بلى. قال الصادقعليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر على الانجاء حين لا منجي، وعلى الإغاثة حين لا مغيث[2] .

فلو لم تكن فكرة التوجه إلى الخالق متمركزة لدى الإنسان لما توجه إلى خالقه عند نزول كارثة من الكوارث.

إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ[3] أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يُونس: الآية ١٢] .

---

(١) يعمهون: يتحيرون ويترددون في ضلالهم.

(٢) بحار الأنوار: ج٣، ص٤١، باب ٣.

(٣) لجنبه: مضطجعاً.

فالمسرف، أي الشخص الذي خرج بأعماله عن حد الاعتدال فاتخذ الربا مكسباً عوضاً عن أرباح المكاسب المحللة واتخذ الزنا أو اللواط ديدناً بدلاً من زوجة شرعية صالحة. . . إلى غير ذلك، ينسى خالقه بعد كشف الضر عنه. فينسى أن تمادى في النسيان. إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: الآية ١٩].

وقد ذكر لي أحدهم وكان أُمياً، أن سخلة له جاءها المخاض، فعسر عليها الأمر وشق كثيراً وطال معها الوجع مدة غير قليلة من الزمن. ثم أنها رمقت ببصرها نحو السماء مستنجدة مستغيثة مما ألم بها وإذا بها تضع حملها صحيحة سالمة. فإذا كانت الحيوانات تتوجه إلى خالقها بصورة فطرية، فما بال هذا الإنسان! وهو أشرف المخلوقات، ! هذا الإنسان الذي يتسافل بعض أفراده بسبب نفوسهم الملوثة وما اجترحت أيديهم فيكون أحط من الحيوان على حد قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: الآية ٤٤]. ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: الآيتان ٢٢/٢٣]. وهذا معنى قوله تعالى في سورة التين: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: الآية ٥] وحاشَ لله أن يظلم أحداً أو أن يردَّ أحداً، دونما ذنب، إلى أسفل السافلين. وإنما الإنسان نفسه، يأخذ بنفسه المسكينة لسوء اختياره وكثرة فحشائه إلى أسفل الدركات ولكن الله ينسب، إرجاع العبد إلى أسفل السافلين إليه بقوله: (رددناه)، لأنه هو الذي سن هذا القانون ووضع هذا النظام العادل ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٦٢].

قال الإمام الباقر عليه السلام، وهو الإمام الخامس، في تفسير قوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: الآية ٣١]: هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: الآية ٣٠] أي فطرهم الله على المعرفة. وقد جاء في روايات كثيرة: «أن الفطرة هي التوحيد». ولذلك يسأل أحدهم عن الدليل على وجود الصانع، فيجيب: أغنى الصباح عن المصباح[1].

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٢، باب فطرة الخلق.

وحكى الفخر الرازي عن رجل: أنه اتفق في بعض الأزمنة جدب وقحط شديد. فخرج الناس إلى الصحراء للاستسقاء ودعوا فلم يستجب لهم. قال الرجل: فصعدت إلى الجبال. فرأيت ظبياً يسرع إلى المياه من شدة العطش، فلما انتهى إلى الغدير، رآه جافاً من الماء، فتحير وجعل يكرر النظر إلى السماء ويحرك رأسه مراراً، فظهرت سحابة وارتفعت وأمطرت، حتى امتلأ ذلك الغدير. فشرب الظبي ورجع.

وروي عن سليمان بن داود ﷺ: أنه خرج يستسقي. فمر بنملة ملقاة على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء. وهي تقول: «اللهم إنّا خلقٌ من خلقك، ولا غنى بنا عن رزقك، فلا تهلكنا بذنوب غيرنا». فقال: سليمان ﷺ: «ارجعوا فقد سُقيتم بغيركم»[1].

ونقل عن صياد: أنه رأى ظبية ترضع ولدها. قال: فلما قصدتُ أن أصيدها فرّت مني وتركت ولدها. فأخذته. فلما رأته في يدي رفعت رأسها إلى السماء وكأنها تستغيث وتستعين بالله تعالى، فإذا بحفرة في طريقي، فوقعت فيها، وانفلت ولدها من يدي... فأخذته أمه وذهبت به.

ولسائل أن يسأل: لماذا ترفع الأيدي إلى السماء حين يريد الإنسان أن يسأل الله تعالى قضاء حاجة ملحة وحين يتضرع ويستغيث. ويمكن أن يقال في جواب ذلك: لا شك أن الله تعالى منزه عن المكان وهو خالق المكان وما كرة الأرض في هذا الفضاء اللانهائي إلا جرم صغير جداً من ملايين ملايين ملايين بل من عدد لا يتناهى من الأجرام التي خلقها الله في هذا الكون، فلا أسفل ولا أعلى لصغرها بالنسبة إلى عظمة الكون. ولكن لما كانت السماء منشأ الخيرات وتوحي رفعتها وعظمتها وعلوها (حسب ظن الإنسان الخاطئ)، عظمة الله القادر الجليل (والله هو الذي خلقها وكوّنها من العدم، وهو الذي يوحي ويعرِّف الإنسان عظمتَه)، وحيث لا شيء أكبر من الله وأن الله لا يحدُّه شيء وهو غير متناه في جميع الملكات لذلك كله، فطرت طبيعة الخلائق تعظيماً لله تعالى على التوجه إلى السماء، لعلوها، عند طلب الرزق وسائر الخيرات وعند الالتجاء في الشدائد والملمات. مع العلم بأن الله لا يوجد في جهة دون جهة.

(١) من لا يحضره الفقيه: ج١، ص٥٢٤، باب صلاة الاستسقاء.

وهو في كل مكان ولا يخلو منه مكان. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: الآية ٤] .

وقد قال بعض الأبدال في إثبات الخالق جلَّ جلاله: «إنك لم تخلق جسدك ولا روحك ولا حياتك ولا عقلك ولا ما خرج من اختيارك من الآمال والأحوال والآجال ولا خلق ذلك أبوك ولا أمك ولا من تقلبت بينهم من الآباء والأمهات. لأنك تعلم يقيناً أنهم كانوا عاجزين عن هذه المقامات ولو كانت لهم قدرة على تلك الماهيات ما كان قد حيل بينهم وبين مرادهم فصاروا من الأموات. فلم تبق مندوحة أبداً عن وجود صانع واحد منزه عن إمكان الحادثات، خلق هذه الموجودات التي قد كانت معدومات، فصارت موجودات».

إذا نظر الإنسان إلى هذا الكمال الرائع الذي أودعه الله في تمام مخلوقاته من (آميبا Ameoba)[1] إلى الإنسان: في الجماد والنبات والحيوان، ثم إلى ربط التنظيمات الأرضية، بالتنظيمات السماوية ربطاً لا ينفك بعضها عن بعض ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [المُلك: الآية ٣] . ثم إلى هذه القوانين التي تربط الحوادث الكونية من فلكية وفيزيائية وكيميائية بعضها ببعض، ثم إلى المعادلات التي يراها في ما يشكل الذرة من الإلكترون وبروتون ونيوترون وغيرها، ثم ما يعترف به من عجز في تفهم حقائق لا تتناهى في هذا الكون: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: الآية ٢٧] يقطع بأن المنظم لهذا الكون حكيم قادر متعال. ليس للإنسان إلا أن يخضع له إجلالاً وتعظيماً، خشوعاً وخنوعاً.

لذلك كله، فإن الطريقة في إثبات وجود الخالق جلَّ جلاله هي طريقة نظر وتدبر واعتبار وتفكر. انظروا إلى هذه الآية المنيفة وتدبروا فيها، كيف توضح عظمة الخالق بأوضح بيان وأجلى تبيان. إنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ

---

(١) الكائن الحي، ذي الخلية الواحدة.

بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٤] [1].

حقاً إن اختلاف الليل والنهار وما ينتج من ذلك من فوائد جمة لأمر عجيب. فليرجع من شاء إلى كتب الفلك وعلم الأحياء والجغرافية الطبيعية ليدرك إلى حدٍّ ما كيف ربط الله تعالى أجزاء العالم بعضها ببعض لحدوث الحياة على وجه الأرض. ثم ليدع ربه ليجعله من قوم يعقلون. فيقول: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ[2] فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩١]. إن الله قد عظم أمر (اختلاف الليل والنهار) بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٨٠]. فعقبه بعد الإحياء والإماتة لأهميته الفائقة. فلا عقلَ لأولئك الذين لا يوحّدون الله في آياته.

وها نحن نذكر نبذة يسيرة عما ينتج من دوران الأرض حول نفسها كمثال لما أودع الله من نظم خارقة لاستمرار الحياة على وجه الأرض وارتباط هذه الأنظمة بعضها ببعض بحيث لا يدع مجالاً للقول بالصدفة، وأنى للصدفة أن توجد من الجماد نباتاً وحيواناً (حيوية) وإنساناً فعقلاً الخ. ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يس: الآية ٣٣].

لولا دوران الأرض حول نفسها بهذا النظام البديع لاستحالت الحياة على وجه الأرض. ذلك لأن للأرض جاذبية تجذب المياه نحو مركزها. وتحدث من دوران الأرض حول نفسها قوة طاردة تطرد الأجسام عن سطح الأرض إلى خارجها (قوة عن مركزية). ولكن الدوران تختلف في نقاط الأرض المختلفة، لكروية الأرض. فالمدينة التي على خط الاستواء تقطع بنتيجة دوران الأرض حول نفسها في الساعة الواحدة، ألف ميل وتزيد قليلاً. ولكن مدينة مدريد عاصمة أسبانيا (التي هي على عرض ٤٠°) لا تقطع في ٢٤ ساعة محيط الأرض كله. فسرعة دورانها نحو ٨٠٠ ميل في الساعة. وكلما صعدنا إلى الشمال (نحو القطب) تكون سرعة المدن أقل فأقل من جراء حركة

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها».

(٢) سبحانك: تنزيهاً لك، وسبّح الله، أي نزهه وقدسه.

الأرض حول نفسها. فإن الله جعل الأرض في القطبين متفرطحة، أي ليست الأرض كرة تماماً. لذلك، فالقطب أقرب إلى مركز الأرض من مدينة واقعة على خط الاستواء. فتكون الجاذبية على القطبين أكثر.

وإن زيادة الجاذبية عند القطبين عن الجاذبية عند خط الاستواء تؤدي إلى دفع المياه من خط الاستواء إلى القطبين. ولكن زيادة قوة الدافعة (القوة الطاردة) عند خط الاستواء منها عند القطبين تدفع بالمياه من القطبين إلى خط الاستواء. وقد تعادلت القوتان: (قوة الجاذبية والقوة الطاردة الناتجة من حركة الأرض حول محورها)، من حيث زحلقة البحار والمحيطات إلى القطبين أو إلى خط الاستواء، بحيث توزعت مياه هذه المحيطات توزعاً عادلاً كما نرى. ولولا هذا التعادل لغرق ما على أواسط الأرض من أشياء وأحياء. وهذا تقدير قدّره الله تعالى بقدرته. ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحِجر: الآية ٢١].

ولو دارت الأرض حول نفسها أسرع مما تدور الآن لتناثرت المنازل وتفككت الأرض وتناثرت الأرض نفسها في الفضاء. وذلك بتأثير القوة الطاردة الحاصلة من حركة الأرض حول نفسها بصورة سريعة، كما ينقطع خيط المقلاع في يد الطفل إذا أداره بسرعة كبيرة القوة (عن مركزية) الطاردة.

$$\text{قم} = \frac{\text{ك س}^{2}}{\text{نق}} \quad \text{(بالوحدات المطلقة)}$$

ولو تباطأت الأرض في دورانها حول نفسها أي أخذت تكمل دورتها حول نفسها في (١٠٠) ساعة مثلاً بدلاً من ٢٤ ساعة، لمات ما على الأرض من حيوان ونبات. ذلك لأن نصف الأرض يصبح معروضاً للشمس مدة طويلة مما يؤدي إلى إماتة ما على الأرض من جراثيم وحيوان ونبات بتأثير حرارة الشمس المهلكة. وإذا أراد المتتبع أن يستعرض ما هنالك من حكم فائقة في دوران الأرض حول نفسها بهذه السرعة الحالية وربط الحياة به لاحتاج إلى تأليف كتاب خاص بل كتب عدة. ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النّمل: الآية ٨٨].

وقد قال تعالى أيضاً: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: الآية ٤٠] فلا سكون في هذا العالم على حد قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الرّعد: الآية ٢] .

* * *

ثم لولا كثافة الماء بمقدار يعتد به (١غم/ سم٣ في ٤°م) لما أمكن أن تسير السفن والفلك في البحار والأنهار. ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يس: الآيات ٤١/ ٤٣].

وإن نزول الأمطار أمر عجيب يعزى إلى تأيّن الجو وأسباب أخرى عدة قد رتبها الله تعالى ليس هنا موضع ذكرها وقد بينا شيئاً يسيراً منها في الجزء الأول من هذا الكتاب. ثم أمر الرياح والعواصف يستدعي بحثاً عميقاً، ولدوران الأرض من الغرب إلى الشرق أثر خطير في ذلك. وفي كل ذلك: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٤] .

فما بال الملحدين والماديين ينكرون وجود الخالق؟ أليست لهم عقول؟ نعم، كانت لهم عقول، عقل فطري معترف بوجود الخالق وجليل عظمته قبل أن يولدوا، ولكن انسحب وأسدل عليه ستار من الظلمات بسبب الفسوق والفجور، فانكمش واختفى وقام مقامه الشيطان، يملي عليه ما شاء من زندقة والحاد. والدليل على ذلك أن هذا الملحد، لو تمكن من توبة، ورجوع إلى الله تعالى وأعمال صالحة يكفّر بها عن سيئاته ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هُود: الآية ١١٤] ، لرأى أن عقله يرجع إليه. معتبراً بما خلق الله، من سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، خاشعاً تجاه عظمته وجلاله.

ولقد كنت أفكر في أمر هؤلاء الماديين، فصرت أعتبرهم أناساً شذوا عن الطرق العلمية الصحيحة وأساليب البحث، واعتمدوا في ادعاءاتهم على السفسطة والخيال و«من عنديات» لا يدعمها العلم الصحيح، فلا ربط في ما يستندون إليه من أدلة واهية، وأرى أن علاج هؤلاء أن يجبروا على دراسة الرياضيات العالية، ونظريات آينشتاين ونظريات السطوح (القسم المجسَّم من الهندسة التحليلية) فالفيزياء الرياضية العالية فنظرية الأعداد فحساب الاحتمالات فالفلك العالي. فإنهم ولا شك يتخبطون خبط عشواء عند حل تلك المعادلات التي بقيت لا تحل وأمست لغزاً من الألغاز، فيعترفون

إذ ذاك بجهلهم. لأنه لابد للمعادلة التفاضلية (Equation differentielle) من حل صحيح لا يتعداه، وليست القضية هاهنا، قضية: (أرى، وأظن، ولعلَّ وسوف يكشف لنا العلم)!، هذه الكلمات التي يرددها المادي. فإذا شاهد عجزه وتصاغره تجاه عظمة العلم بل عظمة ما أودع الله من قوانين وأحكام في ربط أجزاء هذا العالم، عند ذلك يعترف بجهله، وإن هذا الجهل يدفع عنه الغرور، فيجعله معترفاً بمن أودع هذه المعادلات والقوانين الرياضية الصعبة في هذا الكون، إن أزاح عن نفسه الخمور والفجور ولو بصورة موقتة.

ما من دابة إلا أمة

نتقل هنا فقرات مما جاء في مقال كتبه الدكتور عبد المحسن محمد صالح، المدرس بكلية العلوم في جامعة القاهرة عن النمل الأبيض وما أودع الله تعالى فيها من غرائز تفسيراً لهذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا[1] فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٣٨/ ٣٩].

«النمل الأبيض حشرة تعيش في جماعات على مستوى عالٍ من الحياة الجماعية، ولكنه مع هذا الرقي وباء مدمر. وتخريبه في الإقليم الجنوبي يعتبر هيناً إذا ما قورن بما يحدث في المناطق الاستوائية الحارة حيث يبني مستعمرات ضخمة تضم الواحدة منها عدة ملايين، يعيش في سراديب أرضية دون أن يرى، ويخرب دون أن يحس به أحد. فهو يقوم بعمل سراديب أو أنفاق كثيرة مختفية في الشبابيك والأبواب وسقوف المنازل. فهو يأكل الخشب والتبن الذي يدخل في (اللبن) أي في الجدار المصنوع من الطين».

منذ أيام استيقظ أهل قرية من قرى مركز «أبو حمص» بمديرية البحيرة «عزبة شلبي»

---

(١) ما فرطنا: ما تركنا.

ليجدوا أنفسهم بلا قرية وبلا مساكن سلط عليهم العدو «النمل الأبيض» أسلحته الفتاكة وتركهم بلا مأوى.

والآن تعالَ معي لزيارة مستعمرة من تلك المستعمرات الضخمة التي بناها النمل الأبيض في أواسط أفريقيا.

ستجد برجاً شامخاً في الهواء، يبلغ ارتفاعه عن سطح الأرض حوالي ستة أمتار. ومحيط قاعدته قد تصل إلى خمسة عشر متراً.

إنها كحصن من حصون العصور الوسطى، مصمَّمة بطريقة خاصة. فهي على هيأة أعمدة مخروطية متصلة عند قواعدها بالمستعمرة الأصلية. ومادة البناء مكونة من الطين الذي يخلطه النمل بلعابه فتصير متينة قوية كأنها الخرسانة المسلحة. وهذا المبنى الضخم مقفل كأنه القبر، ساكن سكون الموتى. . لكنه يموج من الداخل بملايين الأفراد، هذه واحدة من المستعمرات، وتجد في جهة أخرى حصناً صمم بطريقة خاصة. إذا سألت عنه أحد الأهلين فسيخبرك بأنه «البوصلة».

وبواسطة هذا المبنى يستطيع الأهالي معرفة الجهات الأصلية في الصحاري والجبال! ذلك لأن لها سطحين عريضين. أحدهما يشير إلى الشرق والآخر يشير إلى الغرب، وسطحين ضيقين متجهين إلى الجنوب وإلى الشمال!؟

ولا يمكن أن تشذ عن هذه القاعدة أي مستعمرة من مستعمرات هذا النوع من النمل. ولهذا يثق الأهالي في ذكائه الغريب. ولم يستطع أحد أن يعرف الحكمة التي تكمن وراء هذا النظام.

وإذا سرت في مكان ثالث. فستجد المستعمرات المعلقة. وهي التي يبنيها بعض أنواع النمل ويثبتها على أفرع الأشجار وغصونها.

وقد بلغ الذكاء حداً بعيداً عند بعض الأنواع التي تقطن في المناطق التي تكثر فيها الأمطار. فيبنون ستائر أو حواجز تتدلى من أعلى المستعمرة تماماً، كما تبنى أسقف المنازل في البلاد المطيرة مثل انكلترا أو غيرها. فإذا ما هطلت الأمطار، انحدرت على الستائر لتسقط بعيداً، فلا يبتل البناء.

وهناك أنواع تسكن المناطق الجافة ذات الحرارة الشديدة، فيبني النمل فيها أنفاقه، وعندما يجد الجفاف قد حل بالمستعمرة، تنفتق عند حيلة أو غريزة[1] للتغلب على مثل هذا الأمر، فيقوم بعمل أنفاق أرضية تمتد إلى عدة أمتار تحت سطح الأرض حتى تصل إلى مستوى الماء الجوفي بالتقريب. وعندئذ يخرج منه بخار الماء لينتشر في أنحاء المستعمرة. فيخلق جواً رطباً كأنه جهاز صمم لتكييف الهواء.

والآن تعالَ بنا لنزور إحدى هذه المستعمرات المبنية فوق سطح الأرض من الداخل.

ستجدها مدينة منظمة يسكنها عدة ملايين من الأفراد يحكمها ملكة وملك، ورعية تتكون من العساكر والشغالة. لكل وظيفة معينة لا يتعداها. ولكل مبنى نظام خاص. يحتفظ به الجنس على مدى الأجيال. ليتناقله الخلق عن السلف كأنه سر لا يبوح به لأحد سواه.

سآخذك الآن إلى القاعة الكبرى التي تتوسط المستعمرة، إنها حجرة فسيحة نظيفة جهزت لعودة الملكة من حفلة زفافها في الهواء.

وعندما يتم التلقيح تعود ومعها الملك ليدخلا الحجرة الملكية ولا يتركانها بعد ذلك أبداً لعدة سنوات قد تصل إلى الثلاثين أو الخمسين عاماً.

ويفقد الملك والملكة أجنحتهما. ثم تأتي الرعية أو الشغالة لتتمسح بملكتها كما يتمسح السذج بأضرحة الأولياء[2] ويحيط بالملك والملكة حرس خاص من جنود أقوياء لا يغفلون عن الحراسة أبداً.

---

(١) وهي ما أودعه الله تعالى فيه.

(٢) لا نوافق الكاتب فيما ذهب إليه. فإن استلام الحجر الأسود بمكة، واستلام أضرحة الأولياء أو التمسح بها، إنما هو لإظهار الولاء والحب، مع العلم أن ليس للعادة أثر في تقرب العبد إلى الله تعالى، وإنما يتقرب العبد إلى ربه بحب أوليائه، لأنهم عباد الله المخلصون، وبتقوية العلاقة بينه وبينهم بهذا الاستلام. لأنهم كانوا أذلاء لله مطيعين، وإنما يتقرب العبد إلى الله بالقيام بما قرب أولياء الله إلى الله من أعمال ليكون: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: الآية ٦٩]. على أن هذا الحب (حب الأولياء) من رشحات الإيمان. يعترف بذلك من جرب تكامله الإيماني طيلة حياته. =

وتأتي الشغالة ليقدموا للملك والملكة غذاءً خاصاً. . . وتظهر على الملكة أعراض الحمل. فتنتفخ بطنها حتى تصل إلى مائة مرة من حجمها الأصلي. فلا تستطيع أن تنتقل من مكان لآخر. وتتحول بعد هذا إلى آلة سريعة لوضع البيض، فهناك نوع يضع حوالي ٣٦ ألف بيضة في يوم واحد أو ١٣ مليون بيضة في كل سنة.

أما أعظم الملكات نشاطاً فهو جنس (ماكروتيرمس). ففي كل ثانية تمر، تكون قد وضعت بيضة. وتستمر هذه العملية دون توقف لمدة ثلاثين عاماً تكون قد وضعت فيها ما يقرب من ٩٤٦ مليون بيضة.

ووراء الملكة يقف نفر من الشغالة لا تهدأ حركتهم. فعندما تضع الملكة البيض يحمله هؤلاء إلى حجرات خاصة تشبه حجرات التمريض حتى يتم فقسه.

فإذا ما تركت الحجرة الملكية من أي باب من أبوابها العديدة، لوجدت أمامك ما يشبه الشوارع والحارات التي تتصل بآلاف الحجرات.

فهناك ركن خاص للخدم يقومون بتنظيف المستعمرة، وركن خاص بالتمريض وفيه يربى الأفراد الجدد، ويقدم لهم طعام خاص، حتى يصيروا أفراداً جدداً ينضمون إلى رعية الملكة.

وتوجد عدة حجرات مغلقة، وهي سجن المستعمرة التي يساق إليه الأسرى من الحشرات الأخرى حية. ثم تزج داخل هذه السجون تحت حراسة قوية، وبعدها يهجم عليها النمل الأبيض ليأكلها كما تفعل قبائل نيام مع الجنس البشري.

وقد تجد في بعض المستعمرات مخزن لمواد التموين التي يحتاجها النمل من وقت لآخر. فإذا ما توجهت إلى أعلى المستعمرة وجدت صالة كبيرة تتصل بعدد وفير من الحجرات، وقد شيدت هذه القبوة الكبيرة لتجديد الهواء في المستعمرة.

= فها هنا إضافة تشريفية كجلد المصحف، فيقبل الجلد لاحتوائه المصحف، وكتقبيل الحجر الأسود، لقضية تاريخية لا مجال لذكرها. ونذكر الكاتب بقول الشاعر:

أمر على الديار ديار ليلى ... أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

وإن هذا التمسح ليدل أيضاً على احترام الأفراخ للأمهات. فليتعلم الإنسان هذا الأدب الرفيع من هذه الحشرة: فـ «الجنة تحت أقدام الأمهات».

إذا ثقبت عدة ثقوب في المستعمرة، لوجدت عدة فكوك قوية قد ظهرت أمامك، إنهم حرس المستعمرة الذين يسهرون على حراستها بالليل والنهار وهم يقفون على هذه الفتحات كأنهم يتأهبون لأي هجوم.

ثم تأتي الشغالة فيفسح الحرس لها مكاناً تنتقل فيه، لتقوم بعملية ترميم في هذه الثقوب، حتى تعود إلى ما كانت عليه من قبل.

وللحراس وظيفة أخرى عامة. فهم يصحبون شغّالتهم إذا ما تركوا مستعمراتهم سعياً وراء الرزق. فتراهم يحيطون بهم من كل جانب ليدفعوا عنهم أي مكروه قد يصيبهم من أعدائهم.

وعندما تعود الشغالة إلى بيوتهم يقف حرس خاص على الأبواب ليمنع أي حشرة دخيلة قد تندس بين أفراد المستعمرة.

والمستعمرات تختلف في تعميرها على حسب النوع الذي يسكنها. فهي قد تعمر سنوات قليلة، وقد يصل عمرها إلى ثلاثين عاماً أو أكثر وقد يصل إلى ١٠٠ عاماً.

فقد جاء أحد التقارير أنه في عام ١٨٧٢م كانت هناك مستعمرة ضخمة قائمة، عاقت الفنيين عند مدهم لأسلاك التليفون في بعض جهات استراليا. وكان لابد من تحطيمها حتى يمكن أن يتمموا عملهم فحطموها بالديناميت. وكان عمر المستعمرة في ذلك الوقت لا يقل عن ٣٥ عاماً. وبالرغم من هدم المستعمرة في عام ١٨٧٢، فقد وجدوها تزخر بالحياة حتى عام ١٩٣٥م أي عاشت حوالي مائة عام».

* * *

وقد فات الكاتب أن يكتب شيئاً عن منطق النملة وطرق محادثتها. وأخلاقها ونفسياتها. فإن العلم الحديث لا يزال بعيداً عن التوغل في مثل هذه الأمور التي لا تدخل في صميم المادة. إن الله تعالى يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ

وَجُنُودُهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: الآيات ١٦/١٩].

وقد كشف أخيراً شيء عن منطق النحل بحركات تقوم بها. فإن النحلة تذهب للكشف عن أزهار. فإن كانت هذه الأزهار قريبة، رجعت ترقص رقصاً خفيفاً، تريد أن تفهم قرب الأزهار. وإن كانت الأزهار بعيدة، رجعت ترقص رقصاً متواصلاً سريعاً. ولعل هذه الحركات ترافق منطقها الذي لم يقف عليه العلم الحديث. بل وقف على الحركات فنظنها منطقاً.

من الذي أودع تلك الحياة الاجتماعية الرائعة في حياة النملة وهذا المنطق والحركات في النحلة. كل ذلك دليل واضح على وجود الله القادر المتعال الذي أودع في كل زاوية من هذا الكون من وسائل الاعتبار والتدبر ما يبهر العقول. ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فُصّلت: الآية ٥٣] ولكن الله حصر الاعتبار، فالتوجه إلى الحق في الخاشعين المنيبين الطائعين بقوله: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: الآية ٨]. فلا يعتبر من اسود قلبه بالإجرام ولا يسلم إسلاماً حقيقياً، على حد قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القَلَم: الآيتان ٣٥/٣٦]. فلا يلتقي الإسلام مع الإجرام. فإذا جاء الإجرام انسحب الإسلام. وكان المجرم منسياً يلهو ويلعب كما يشاء، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التّوبَة: الآية ٦٧]. ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ [الزّخرُف: الآية ٨٣]. فيكون شيئاً فشيئاً مصداق هذه الآية، ونستجير بالله من ذلك: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرّعد: الآية ٣٣].

كيف يتسرب الشك إلى النفوس

كيف يتسرب الشك إلى النفوس وتندك الفطرة فلا تعمل عملها. راقبوا أشخاصاً عندما كانوا فقراء بائسين وما كانوا عليه من اعتقاد بالله وصلاة وصوم وإحسان إلى آخرين. ثم راقبوهم وهم قد خرجوا من مرحلة الفقر إلى غنى وثراء لا يعطون حقوق

الله، يتجبرون ويتكبرون[١] ويتكلمون فوق ما هم مدركون. ظناً منهم أنهم قد بلغوا غاية الفهم ووصلوا إلى الحقيقة! حين أنه لا تناسب بين كثرة المال والمعرفة والكمال. فتراهم يتكلمون كثيراً ولا يريدون أن يصغوا إلى ما يفيدهم وينجيهم من عذاب أليم. راقبوهم في حالاتهم الخاصة تجدوهم لا يخضعون إلا لمادة أضخم وأرقى وأعظم. ولو أن هؤلاء أنفقوا مما منَّ الله عليهم من مال وجاه، وقاموا بحوائج الناس ولم يتكبروا وعاملوا الناس بأخلاق فاضلة، حضروا الجماعة وتفقدوا أحوال الفقراء وأوجدوا لهم عملاً يقتاتون من ورائه، لم يتسرب الشك إلى نفوسهم بل ازدادوا إيماناً ويقيناً بالله وأصبحوا ملائكة تتنور الأرض بنور إحسانهم وتضيء ببركات أعمالهم ولنالوا سعادة الدارين.

ولعلك تقول إني أجد شباناً في مقتبل العمر، لم يملكوا شيئاً من الثروة، ولم يركنوا إلى ركن وثيق، ولكنهم مع ذلك منحرفون غير عاملين بما أمر به الدين. نفوسهم مدلهمة، مظلمة، لا يصلّون ولا يخشعون، ولكن إذا اعترتهم كارثة عظيمة توشك أن تودي بحياتهم تمسكوا بالخالق العظيم. فما سبب انحراف هؤلاء؟

وقد حققت عن سلوك هؤلاء وحالاتهم النفسية وأخلاقهم الشخصية فألفيتهم ضواري وحيوانات مفترسة عند الاستطاعة وسنوح الفرصة، لا يبالون بارتكاب المعاصي وأنواع الفسق إذا ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. غير وصولين آباءهم وأمهاتهم وأرحامهم. هتاكين للحرمات. فهم في خلواتهم غير ما هم في محاضرهم.

وإنما الإيمان رشحات الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والقيام بأداء الحقوق الواجبة (بل المستحبة).

لذلك ترى الإيمان عند هؤلاء ضعيفاً بل قد تجده عند البعض منهم معدوماً فهم لا يصلون ولا يقدسون المقدسات. بل ملء صدورهم الشكوك والريب، يستهزئون بالمقدسات إذا خلوا بمن يوافقهم في طيشهم ومروقهم.

فلا يفيد في هؤلاء النصح والوعظ والإرشاد بل إصلاح هؤلاء يكون، إما بنظام

---

(١) إن الله تعالى يقول: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[الأعراف: الآية ١٤٦]. وفي الحديث: «أكثر أهل النار المتكبرون».

صارم يبعدهم عن ارتكاب الموبقات ويفرض عليهم القيام بما أمر به الدين، فتلين قلوبهم شيئاً فشيئاً. (لأن الرياء، كما يقال، قنطرة الحقيقة).

وإما بترك ما هم عليه من مدنسات وآثام وعقوق وكذب وأخلاق فاسدة ومعاملات غير مشروعة «الدين المعاملة» بصورة تدريجية. فإن نفوساً مدلهمة مظلمة لا تستطيع تقديس الله تعالى وتعظيمه، وإن حب الله تعالى لا يحلُّ إلا في نفوس فيها شيء من الصفاء.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ[1] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ[2] عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ[3] قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا[4] قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٧٥/٧٩].

إن هذه الآية تعلمنا الطريقة التي يجب أن نسير عليها لإرجاع المنحرفين إلى الفطرة. فإن إبراهيم عليه السلام يفرض أن ربه وخالقه كوكب رآه في الليل، ثم رآه آفلاً غائباً عن الأنظار فعلم أنه متغير ومتحول من مكانه. والمتحول لابد له من محوِّل، فهو إذن محتاج إلى غيره مُسَيَّر بإرادته. وإن شيئاً كهذا غير قائم بنفسه لا يكون رباً بل هو مربوب: والرب هو المحرِّك لهذا الكوكب والمنظم لحركاته، لأفوله وشروقه وحركاته الأخرى..

يستنتج من كل ذلك أن لابد للمحدَث من محدِث ولابد للنظام من منظِم، لاسيما إذا كان هذا النظام بالغاً أسمى مراتب الدقة، فيه من المعادلات والأحكام ما لا يحيط به البشر مهما تسامى في عالم التفكير. «ومن أين جاءه هذا التفكير»؟.

إذن وجب أن يكون هناك خالق قدير عليم، خلق هذا الكون بقدرته، وجعل فيه من النظم والقوانين، ما لا يصل إليه البشر، بعلمه. خالق لم يخلقه غيره، خالق أزلي قديم، لم يسبقه شيء من الأشياء، وهو خالق كل شيء، معطي الوجود، ولم يعطه الوجود غيرهُ.

---

(١) ملكوت: أي عجائبها وبدائعها.
(٢) جنَّ: أي ستره الليل.
(٣) أفل: غرب.
(٤) بازغاً: طالعاً.

إن العقل المجرد عن الشوائب والمدنسات ليحكم بصورة فطرية أن لا بد من إله موجود من تلقاء نفسه، أزلي ليس بحادث، قديم لم يسبقه شيء، هو موجد جميع ما في الكون المادي والمعنوي بهذا النظام البديع. كان ولم يكن معه شيء.

فطوبى لأولئك الذين لم يحجبوا الفطرة بتلويث نفوسهم ولم يحجبوا العقل السليم بسوء فعالهم. «صبروا أياماً قليلة أعقبتهم راحة طويلة». فصاروا إلى جنات الخلد مهنَّئين فرحين مستبشرين.

* * *

فمن أحسَّ بشك أو شكوك في نفسه. فما عليه إلا أن يبدأ حالاً، معالجة نفسه؛ بأن يترك ما نهى الله عنه من موبقات لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس: الآية ٣٣]. وأن ينتهي عما كان عليه من إجرام وظلم لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الشُّعراء: الآيتان ٢٠٠/ ٢٠١]. وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٥١].

وأن يطهر مأكله ومشربه ويجعلها من مورد حلال طيب، وأن يجانب الترف لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سَبَإ: الآية ٣٤]. وقد قال رسول الله: «لا تجالسوا الموتى، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: كل غني مترف»[1].

وأن يساعد الفقراء والجيران ويتفقد أحوالهم فقد قال رسول الله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائعاً»[2]. وفي حديث آخر: «أيما أهل عرضة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله».

«وأن يبذل من فضول ماله»، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحَشر: الآية ٩]. أي ومن يحفظ من شح نفسه. والشح أشد البخل.

وأن يترك الكذب. فقد جاء في الحديث: «الكذب يجانب الإيمان». وفي حديث

---

(١) بحار الأنوار: ج٢، ص١٢٨، باب ١٧.
(٢) الكافي: ج٦، ص٣٠٥، باب الأسوقة.

آخر: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار»[١]. وفي حديث آخر: «إياكم والكذب، فإنه جمَّاع الآثام»[٢]. وقد قال أحد الفلاسفة: «بترك الكذب يوقن الإنسان بخالق معبود عظيم».

وأن يترك الغيبة والنميمة والافتراء والخيانة. فقد جاء في الحديث: «الغيبة أشد من الزنا». وفي حديث آخر عن الرسول ﷺ: «يؤتى بأحدكم يوم القيامة فيوقف بين يديَّ الله تعالى ويدفع إليه كتابه، فلا يرى حسناته. فيقول: إلهي، ليس هذا كتابي. فإنه لا أرى فيه طاعتي. فيقول الله تعالى له: «إن ربك لا يضل ولا ينسى، ذهب عملك باغتياب الناس. ثم يؤتى بآخر ويدفع إليه كتابه، فيرى فيه طاعات كثيرة، فيقول: إلهي، ما هذا كتابي، ما عملت هذه الطاعات. فيقول الله سبحانه: إن فلاناً، اغتابك فدفعت حسناته إليك»[٣].

وأن يبرَّ والديه ويصل أرحامه. فقد جاء في الحديث: «ووالديك فبرَّهما وأطعِمهما حيَّين وميِّتين، فإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل، فإن ذلك من الإيمان»[٤]. وفي حديث آخر، «لا صدقة وذو رحم محتاج»[٥].

وأن يترك مجالسة الأوغاد ويترك مجالس اللهو وسماع الأغاني المحرمة. فقد جاء في الحديث: «مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار». إلا إذا كان بغية الإرشاد والهداية. وفي حديث آخر: «الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله». وقال علي عليه السلام: «جالس أهل الخير تكن منهم، وباين أهل الشر ومن يصدُّك عن ذكر الله، تبِن منهم»[٦].

وأن يجالس الفقراء والمساكين ويسير في حوائجهم. فقد جاء في الحديث: «إن الفقراء هم صفوة الخلق، وإن من أراد الله فليطلبه عند الفقراء». وقد قال محمد الباقر عليه السلام وهو الإمام الخامس: «إياكم ومجالسة الأغنياء، فإن الإنسان يجالسهم وهو يرى أن لله عليه نعمة، فما يقوم حتى يرى أن ليس لله عليه نعمة»[٧].

---

(١)،(٢) وسائل الشيعة: ج١٢، ص٢٥٠، باب١٤٠.
(٣) مستدرك الوسائل: ج٩، ص١٢١، باب ١٣٢.
(٤) وسائل الشيعة: ج٢١، ص٤٨٩، باب ٩٢.
(٥) من لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٦٨.
(٦) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص٣٨٤.
(٧) وسائل الشيعة: ج١٢، ص٣٥، باب ١٨.

إن الشك لا يأتي إلا بسبب ذهاب العقل ولا ينسحب العقل إلا بسبب رجس في النفس والرجس أساسه الذنوب وعدم القيام بما أمر الله من عبادة وأخلاق فاضلة وتراحم وتعاطف على حد قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس: الآيتان ٩٩/ ١٠٠].

وإن كل عمل صالح يؤدي إلى قليل من الهداية، فقليل من الإيمان، ثم إن الله تعالى يزيد في إيمان الشخص تفضلاً منه ورحمة. فيزداد العبد إيماناً ويقيناً على حد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: الآية ١٣] . فالناس مجزيون بأعمالهم ومؤاخذون حسب أفعالهم. فقد قال نبينا محمد ﷺ: «إنما أعمالكم تَرد إليكم». فطوبى لأولئك الذين قاموا بإصلاح نفوسهم بعزم رصين وأزالوا عنها الشكوك والأوهام، فازدادوا إيماناً ويقيناً وخرجوا من الظلمات إلى النور؛ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢] .

إن العقل لو لم يلوث بالمعاصي والآثام وبقي على فطرته لا يصيبه أي شك فيعترف بصحة كل ما جاء في الدين الإسلامي الحنيف، على حد ما قاله سيد الوصيين علي عليه السلام: «يشهد بذلك العقل، لو سلم من أسر الهوى». فلا شيء ترتاح إليه الإنسان نفسه، كدين الإسلام، إن بقى العقل على فعاليته. ولا شيء كالضلال ترتاح إليه النفس إن انسحب العقل عن فعاليته: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨٣] .

تفنيد أقوال الماديين

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام: الآية ٩٥] .

فالله تبارك وتعالى بعظيم قدرته: تلك القدرة التي ليس للبشر أن يصل إلى شيء من

حقيقتها، يفلق الحب والنوى، فيكون نباتاً وشجرة ذات جذور وساق وأغصان وأوراق وأزهار. ولو كتب في هذا السير التكاملي للنبات مئات الصفحات، للزم أن تدون أيضاً آلاف الصفحات. أفيكون كل هذا من تلقاء نفسه، هذا ما لا يقره حيوان فكيف بإنسان. ولكن، مع الأسف يعلق هذا الإنسان على نفسه الاعتراف بوجود الله، بما كسبت يداه، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يُونس: الآيتان ٩٦/٩٧]. ولا تحق كلمة الله عليهم إلا لما اجترحت أيديهم من معاصي وآثام تقشعر منها الجلود وتستكّ منها الآذان.

فهل عَلم العلم الحديث كيف يخرج الله الحي من الميت ويخرج الميت من الحي وما هي حقيقة الحيوية؟ وكيف تتولد هذه الحيوية ومن المعطي لها؟ إن ما يقوله الماديون لا يستند على تفكر علمي مركّز خال من الهذيان. إنما هو تخيُّلات يرافقها خبث وظلمات وتصورات باطلة لا يدعمها دليل علمي أو تأييد تجربي. بل هو إتباع للهوى ولما يمليه عليهم شيطان سيطر على عقولهم، ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفُرقان: الآية ٤٣].

إن الماديين يتذرعون بما قاله داروين عن تكامل الأنواع. وهو ليس ممن أنكر الخالق. وقد قال: إني لا أعلم كيف جهز هذا الإنسان بالعقل والمنطق. وقال أيضاً: إن الأنواع مشتقة كلها من أصل واحد، أو أصول متعددة، نفخ فيها الخالق روح الحياة.

فـ (داروين) يعتقد بأن الأنواع استمدت الحياة من خالق أوجدها ثم أخذت بالتنوع على مقتضى نظرية الانتخاب الطبيعي. وقد ردت نظرية الانتخاب الطبيعي من علماء آخرين جاؤوا من بعده.

قال العلامة المشهور (روسل دلاس) مندّد (داروين) في كتابه: (عالم الحياة): «إن الظواهر القائمة بالكائنات الحية هي من العجب وخصائصها من التفوق على جميع الصور المادية الخاضعة للنواميس الآلية، طبيعية وكيمائية، بحيث أنه من العبث المحض أن يحاول علماء الأحياء الوقوف على سر مظاهرها العجيبة وتحديد ماهية الحياة بوضوح تام وبعبارات علمية».

وقال: أرنست هيكل الألماني:

«إن كل خلية لها روح، تدبرها ولكنها لا تشعر بوجودها».

وقال: توماس هكسلي:

«الحياة هي علة الأجسام، لا أنها نتيجة لها. لأنه لا يصادف الباحث في الأميبا: (الكائن الحي ذي الخلية الواحدة) مهما توسل بالآلات الدقيقة التي نملكها اليوم أي أثر للتركيب الجثماني فيها. فإن هذه الأحياء لا شكل لها ومجردة عن الأعضاء ومن الأجزاء المحدودة ومع ذلك فإنها تملك الخصائص والمميزات الأصلية للحياة. حتى أنها تستطيع أن تبني لنفسها مواقع ذات تراكيب معقدة أحياناً وعلى غاية ما يمكن من الجمال».

نعم، إن (داروين)، كما قلنا لم يكن منكراً لمبدع هذا الكون إلا أن الماديين المتهوسين، هؤلاء الذين طغت نفوسهم، فبغت، فلفقت هذه الأفكار الزائفة التي لا يرافقها المنطق بحال، نسبوا إليه نظرية النشوء بشكل يعطل تصرف الله تعالى في هذا الكون. كمدمن الأفيون يعزو كل كمال وصحة إلى الأفيون!

قال بعض العلماء المحدثين: إن كل كائن حي غير مولود ولا متكاملٍ عن حي آخر. وإن كل حي قد خلق بصورة مستقلة وإن كان هناك تشابه في بعض الأصناف.

وقال القسم الآخر من علماء العصر الحاضر: «إن الله خلق عدداً معيناً من الكائنات الحية وأودع في قسم منها قابلية التكامل، فتكامل البعض منها بإذن الله وبما أودع الله فيها من قابليات وإمكانيات، فوجدت أصناف مختلفة وفصائل متعددة والأمر كله لله».

وقد ثبت أخيراً أن البيئة لا تؤثر في خلق عضو أو إيجاد كائن حي أكمل وأرقى. وإن أثر البيئة ضئيل جداً وأثرها ينحصر في العوارض الخارجية كاللون. حتى أن الطول يعزى إلى عامل وراثي ولولاه لما اختلفت الأطوال.

ثم زاد هؤلاء الماديون فقالوا: «إن الاستعمال مولد للعضو وموجد إياه». (Fonction fait organe) وقالوا: «إن الحاجة تولد العضو». حين أنه قد ثبت: أن عضو من الأعضاء، مهما استعمل في ناحية من النواحي ومهما دعت الحاجة لا يأتي بعضو جديد. فمن ولد مثلاً مقطوع الكفّ، مهما استعمل يده، لا يولد له هذا الاستعمال كفاً وإن توالت الدهور.

إن المادي ليعترف أن لا حد لقدرة الطبيعة، وإن هذه الطبيعة تخلق كل شيء ولها منطق وعقل وتدبير، تنظم الأشياء وترتبها خيرَ ترتيب، وتربط بينها بقوانين رياضية متقنة، تؤدي إلى دوام واستمرار. إذن، فليقل لنا المادي، دونما مغالطة، ما هي على وجه التحديد هذه الطبيعة التي تخلق كل شيء ولا حدود لقدرتها على حد تعبير داروين؟

فإن لم تكن الطبيعة شيئاً معيناً، له حدود معلومة وماهية مفهومة، فما المبرر المنطقي أو العلمي لترك فكرة الإله والاستعاضة عنها بفكرة الطبيعة. أليست القضية، قضية عاطفة متحجِّرة وقلب أعمى، يبصر الحق فينكره. وقد جاء في الحديث: «ما ضرب ابن آدم بعقوبة أعظم من عمى القلب».

ولعل المادي يريد أن يرى إلهاً يشبهه من حيث الأعضاء، أي إلهاً محتاجاً إلى أعضاء ومركباً من أجزاء. ولكن المحتاج مصنوع بيد مَن يرفع حاجته، والرافع للحاجات لا يشبه خلقه في شيء، وهو غير محتاج إلى غيره وهو الله سبحانه. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء: الآية ٤٣].

غريب أمر هؤلاء الماديين. يرون حادثة أو حادثتين فيفسرونها تفسيراً خاطئاً، حسب ميولهم، لأنهم ملحدون قبل العثور على مكتشفات العلماء: تلك التي إن دلت على شيء، فإنما تدل على عظمة الخالق جلَّ جلاله. فيستنتجون من هذه الحادثة أو الحادثتين استنتاجاً باطلاً يوافق أهواءهم. نعم، إنهم قبل العثور على هذه الحادثة أو الحادثتين كانوا ماديين منحرفين عن الصراط السوي. ورأوا أن هذا الظرف من الزمان هو ظرف العلوم والمكتشفات، ومن لا يسند ادعاءه، بل هوى نفسه! إلى العلم ولا يكرر كلمة (Science) يعد جاهلاً وتُردُّ نظريته!، فأخذوا ينسبون أفكارهم الزائفة التي هي من رشحات أهوائهم وانعكاسات نفوسهم إلى العلم، والعلم منها براء. وقد يبلغ ببعضهم الطيش درجة قاصية، فيسمى هذيانه (من عندِّياته) فلسفة. حين أن مرحلة الفلسفة متأخرة عن العلم، الفلسفة: هي الربط بين عصارات العلوم وحقائقها. فما لم يثبت علمياً كيف يجوز أن تُحاك منه فلسفة في عصر الذرة!

وقد برهنّا في الجزء الأول من هذا الكتاب (صفحة ١٧١): عدم إمكان القول

بالصدفة، مع ما نرى من أجزاء لا تتناهى قد ترتبت بعضها إثر بعض بطريق منطقي. وهل رأيت سيارة توجد مرتبة أجزاؤها ترتيباً محكماً بالصدفة؟ أو صاروخاً يحدث صدفة، وأيهما أعقد؟ المكروب مع ما فيه من حياة، أم القمر الصناعي المسير بقوة الصاروخ أولاً، ثم حسب ما أودع الله في الكون من قوة جاذبية ثانياً؟ وما قيمة القمر الصناعي تجاه قدرة الله تعالى؟ على أن الإنسان لو لم يجهز بعقل فعَّال.. ولم يكن قد خلق الله قبلاً ما يصنع منه الصاروخ من عناصر ومواد وقوى. فهل كان من الممكن الوصول إلى القمر الصناعي؟ فماذا الجحود؟ ثم مَن هو الذي أوجد المادة الأولى وأوجد فيها تلك القابلية الهائلة، حتى تنبثق منها هذه القوى الهائلة المدبرة المرتبة. ومن جهزها بعقل حتى تودع هذا السير التكاملي في النبات والحيوان وتعطي الحياة للكائنات الحية وتجهز الإنسان بعقل مرتب منظم، فإن فاقد الشيء لا يعطيه! فلابد وأن العاقل الأزلي، العاقل الذي لا يدرك مدى عقله وحكمته هو الذي خلق العقل وهو الله سبحانه. ﴿تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النَّمل: الآية ٦٣].

كان يقول (لاوازيه) الكيميائي المعروف: ببقاء المادة:

(Rien ne se perd, rien ne se cree)

أي أن المادة لا تفنى ولا تستحدث. إنه اعترف بقوله: إن المادة لا تخلق من تلقاء نفسها: Rien ne se crée وأن لابد من وجود خالق أزلي حكيم، هو خالق الأشياء كافة، أودع فيها نظماً وقوانين عميقة، وأن المخلوقات تتأثر بعوامل شتى وليس الله بمتأثر بشيء وهو المؤثر وحده. وهو خالق الزمان والمكان، ولا يمكن أن يتصور وقت لم يكن الله فيه موجوداً، فهو أزلي أبدي سرمدي.

قد فُند قانون (لاوازيه) بعد اكتشاف بعض حقائق الذرة، فيجب أن يسمى الروم بقانون تبادل الإلكترونات. فإن قانون (لاوازيه) المذكور لا ينطبق في الانفعالات النووية وفعالياتها، بل ينطبق على فعالية الألكترونات وتغيراتها الخارجية ولمدة موقتة أي بمقدار عمر الأرض.

إن نظرية (دالتون ـ لاوازيه) تدرس منذ ٢٠٠ سنة في الجامعات، وقد أدت إلى تحريف أفكار بعض الشبان لتفسير البعض إياها تفسيراً خاطئاً يوافق ميول الملحدين مع

ما فيه من خطأ فاحش. ذلك لأن نفوساً ضالة جعلتهم يظنون أن المادة (الصماء)! شيء أزلي وأبدي وهي باقية دائمة لا نفاد لها ولا زوال. فاستنتجوا خطأ قِدم العالم المادي وعدم وجود خالق له.

لقد تحطم قانون لاووازيه مع تحطيم الذرة وفلقها ومعرفة الإلكترون والبروتون المشكّلين للذرة. وثبت أن هذا العالم المادي مجموعة طاقات تكدست على شكل لا يعلمه إلا الله تعالى حتى صارت مادة بأنواع مختلفة وترتيب يؤدي إلى وجود هذا العالم بهذا النظام البديع. ولا يمكن حدوث هذه المراحل اللانهائية الدقيقة المترتبة والمؤدية إلى هذه الحياة إلا بالاعتراف بعاقل جبار لا نهائي وهو الله تعالى. ففي ملعقة من الزئبق طاقة تتمكن من تسيير قطار كبير سبع مرات حول محيط الأرض. وإن الجهد الكهربائي الذي يمكن الحصول عليه عند انفلاق الذرة يعادل ستة ملايين ڤولت حين أن جهداً كهربائياً مقداره ٢٢٠ ڤولتاً يؤدي إلى هلاك الإنسان. وإن قانون أينشتاين: $E = MC^2$ الطاقة الكامنة في الذرة تساوي الكتلة، مضروبة في مربع سرعة الضوء؛ يجعلنا نعلم مقدار ما كدَّس الله تعالى من طاقات لإيجاد هذه العوالم.

وقد أثبت العلم الحاضر أن جميع ما في الكون من مواد وعناصر ستتلاشى فلا يبقى إلا وجه الله الكريم ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القَصَص: الآية ٨٨] وذلك لأنهم رأوا أن الإلكترون الموجب يتصادم مع الإلكترون السالب في بعض الأحيان فينعدم كلا الإلكترونين ويفنيان وهذا ما يدعى (Annihilation de la matiere) أي إنعدام المادة أو موت المادة. إن الله تعالى يقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾.

ما أعظم القرآن حين يقدم لهذا البشر خلاصة ما يمكن أن يتوصل إليه العلماء بعد جهد جهيد.

أين (بخنر) هذا المادي المعروف حتى يرى ما توصل إليه العلم، حيث جعل أساس الموجودات القوى (أو الطاقات) وأثبت أن الموجودات كلما ابتعدت عن المادية، كانت كثيرة التأثير وكثيرة الفعالية، كالكهرباء والنفس والعقل والملائكة. . . إلى ما هنالك.

أين (بخنر) حتى يرى أن مئات الأطنان من مواد وعناصر تنعدم في كل ثانية في الفضاء وتتحول إلى أشعة وأمواج وينقص بصورة تدريجية من وزن الأرض ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرّعد: الآية ٤١] .

أولم يفكر هذا المادي من أين جاء لهذا الإنسان هذا المنطق والاستنتاج والاستقراء والتعميم والتجريد. وكيف تمكّن من النطق وربط ما في الدماغ بالناطقة. أفيحدث كل ذلك بأعمال انعكاسية!؟ وما معنى الانعكاس في حل المسائل المجردة وما تأثيره؟ إن هذا لهذيان!

وهل التفكير عمل ميكانيكي وهل هو نتيجة الفيتامينات التي تأتينا مما نأكل ونشرب. فلماذا لا يمكن معالجة الغباوة والبلاهة وإيجاد نبغاء بالفيتامينات، فإن كان ذلك ممكناً لأمكن أن يكون الناس كلهم علماء الرياضيات العالية! وفهموا جميعاً «نظرية النسبية» بقوانينها .

ولقد جرحت نظرية «العقل السليم في الجسم السليم». فقد شاهدت في الجامعة شاباً نحيفاً ضعيف المزاج، كان بارعاً في الفيزياء الرياضية العالية .

وما قولك في الرياضيين برياضات بدنية (Athletes)، فلقد وجدتهم أبعد الناس عن التفكير المجرد. وهل علم العلم المادي كيف يحدث النبوغ وما هو سببه؟ هل هو مادي بحت، أم ماذا؟

ثم من أين جاء لهذا الإنسان الحدس (Intuition) وما علاقة (الحدس) بالأعمال الإنعكاسية؟ . إن الرياضي ليعترف أن (الحدس) يلعب دوراً هاماً في حل المسائل الهندسية والحسابية وكشف النظريات، وقد يصل الإنسان إلى حل مسألة بإلهام خاص.

ثم إن الصدفة (المصادفات) تلعب دوراً هاماً في المكتشفات الحديثة، فبينما يعمل المكتشف في تجربة ما، ليعلم ماذا سيحدث بنتيجة هذه التجربة وإذا به يسهو فيربط الأسلاك على غير ما يريد، فتحدث حوادث جديدة وخواص غريبة فتفتح على المكتشف أبواباً جديدة من العلم. وهكذا كشف ربط الأسلاك بصورة متوازية في الأعمدة (بحث الكهرباء) وكشفت الأشعة السينية (rayon x) وكثير من مخترعات

أخرى لا مجال إلى ذكرها. ذلك لأن الاكتشاف هو الظفر بما أودع الله من خواص وقواعد في الكون. وهل للمادة الصماء أن تضع قوانين؟

ذكر لنا مدرس الهندسة التحليلية في الجامعة، أنه قد أشكلت عليه مسألة، فكلما فكر فيها لم يقوَ على حلها. وذات ليلة رأى في ما يرى النائم أنه يحل المسألة بصورة صحيحة. فانتبه من نومه فزعاً وقال لزوجته اتيني بالسراج حالاً لأدوِّن الحل، فأتت له بالسراج ودوَّن الحل وكان الحل صحيحاً.

يقال: إن العقل الباطن كان يعمل طيلة ليلته في حل المسألة. ما حقيقة العقل الباطن؟ وما الذي جعل العقل الظاهر مع ما بذل من جهد جهيد طيلة أيام أن يتقاعس أو يعجز عن الحل، حتى يصل الدور إلى العقل الباطن؟ وما النسبة بينهما؟ أللإنسان عقلان؟ ثم ما حقيقة الحدس؟ وكيف يلهمنا حلولاً عجيبة لم تكن بالحسبان. وما علاقة العقل الباطن أو الحدس بالإلهام؟ وما مبلغ علم البشر بهذه الحالات النفسية، فإنه لا يتجاوز عن بعض الظواهر بصورة ناقصة! ونظريات تجرح وتعدَّل من وقت إلى وقت.

* * *

قد قطع قسم كبير من ظفر (أديسون) أثناء قيامه بتجربة في مختبره. فزاره صديقه المهندس. وتأسف لما حدث. فقال له (أديسون): سأعرض ظفري هذا على طبيب حاذق، وسيعيده على ما كان عليه بعد مرور ٤٠ يوماً. فقال المهندس متعجباً: «ومن هذا الطبيب الحاذق»؟ فقال أديسون: هو الله.

غريب أمر هؤلاء الماديين. فإنهم مع جهلهم وإخفاقهم في فهم العلوم المادية. كنظرية (أينشتاين) النسبية، يعطون أحكاماً سخيفة لا تتفق والواقع في شيء. هل كان أحد هؤلاء الماديين يقوى على حل ما صعب من معادلات تفاضلية (Equations difierentielles) وهل كان أحدهم يقوى على حل غوامض نظرية السطوح في الهندسة التحليلية؟

غريب أمر هذا المادي. إنه يرى أن المكتشف يصرف سنين من الوقت للعثور على قانون أو نظرية مع ما أوتي من قوة في التفكير والمحاكمة والحافظة وتفوق على

الأقران. ثم يقول بعد ذلك كله: إن المادة (الصماء) هي التي صنعت بنفسها هذا القانون وشقت طريقها لتنال كمالاً أو لتتكامل! أو أن تكامل هذا الكائن الحي كان نتيجة طفرة! Mutation أو طفرات عجيبة! (Mutation teratologiques). ولا يفكر أن إرادة الله هي التي مكنت لهذا الكائن الحي أن يأخذ بهذه الطفرة المرادة من جانب الله شكلاً خاصاً. وأن إرادة الله تعالى ومشيئته هي التي أوجدت الإمكانيات.

أنى لهذا الكائن الحي وهو في غاية الضعف وتمام الاحتياج (كالإنسان) أن يجد لنفسه من العدم شيئاً ويؤسس لنفسه طريق التكامل. فما بال الإنسان لا يقوى على ذلك. ليجعل نفسه غير محتاج إلى كثير من الأشياء. مكنهم في النفوس تضل وترتدّ بسوء اختيارها ومجونها وطيشها.

إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: الآيات ٩٩/١٠١].

ويقول الله تعالى في مكان آخر: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: الآية ١١١].

وفي آية أخرى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: الآيات ١١/ ١٥][1].

كانت فرضية (Hypothese) التطور (Evolution) وأعني بها فرضية: (لامارك ـ داروين). قد أثرت في نفوس كثير من الناس، ففسروها تفسيراً خاطئاً حسب ميولهم النفسية، مما أدى إلى الاعتقاد بأن الكائن الحي في تغير مستمر من تلقاء نفسه وليس له حالة ثبات ولا استقرار، وأن هذا الكائن الحي يتلاءم (Adaptation) في نموه مع

---

(١) يعرجون: يصعدون.

البيئة، فيتغير بحسبها. وإن البيئة هي المؤثرة في تغير وتطور هذا الكائن الحي بما فيها من مؤثرات وعوامل! حتى أنهم أرادوا تفسير ما يدرس في علم طبقات الأرض من مواضيع حسب هذه النظرية المغلوطة. حتى أن البعض منهم فسروا أخلاق الأمم ومعتقداتها حسب هذه النظرية وعزوها إلى اختلاف البيئة أو المحيط!.

ولكن سرعان ما وجِد علماء آخرون شكُّوا في صحة تطبيق نظرية (داروين) وفحصوا الكائنات الحية على اختلاف أنواعها فحصاً دقيقاً وجربوا واختبروا كثيراً فلم يظفروا بما قاله (داروين) من حلقات رابطة بين الكائنات الحية جميعها. وعلموا أن الكائنات الحية قد خلقت كل حسب فصيلتها ونوعها بصورة مستقلة دون أن يتكامل عن (آميبا) هذا الكائن الحي ذي الخلية الواحدة.

وعلموا أيضاً أن التركيب الوراثي (Genotype) والتركيب الحيوي (Biotype) هما أساساً للأنواع. وهما يبديان مقاومة دائمة عنيفة تجاه الحوادث الخارجية أي لا أثر للبيئة عليهما أبداً. ولقد ثبت أيضاً أن ما هنالك من استعداد وقابليات التكامل والنمو في الدواب والكائنات الحية، موجود ومعبأ في العامل الوراثي (Gene) أي في ذرات النطفة بصورة ثابتة ولا تأثير للبيئة في حصول هذه التطورات والتغييرات.

كما أنه لا تأثير للبيئة في حدوث الطفرات (Mutations) التي نشاهدها في ذرات النطفة أي في (Gene) وأخفقت النظرية القائلة: «إن تغيرات البيئة التدريجية هي السبب الرئيسي في حدوث الطفرات».

يقول إميل كوينو (Emil Guynot): «إن الطفرات تحدث دونما علة أو سبب، بل بالصدفة». وهذا دليل على أن هنالك خالقاً قد أمر بهذه الطفرة وكوَّنها. وهذا ما أدى إلى هانري بركسون (Henri Bergson) الفيلسوف الفرنسي أن يكون موحداً.

«وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد».

عبثاً يحاول هذا المادي أن يبرهن ويثبت، وإن سمّى المادية ماديةً نظرية أو جدلية. ذلك أنه يعترف في كتاباته حين يعجز عن الاستدلال أن العلم لا يؤيد ما يقول. وإنما العلم سيكشف له في المستقبل صحة ما يدعيه الآن، وصحة ما يعجز عن

فهمه وتطبيقه وفق معطيات العلم في الوقت الحاضر! وهل يجوز التمسك بقواعد نظرية تخالف العلم، رجاء أن يأتي زمان يكشف فيه العلم صحة النظرية!

فأنت أيها المادي، جئت، مع جهلك بحقائق الكون، جهلاً غير متناه، بنظرية ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ[1] ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [مريم: الآية ٩٠] .

* * *

ولنعد إلى ما يقوله المادي (Materialiste)، إنه يقول: الوجود قديم، وإن المادة قديمة، وهي مصدر كل ما وجد في العالم، تلازمها خصائص لا تنفك عنها وهي ترقى من الجماد إلى أكبر عالِم ألمعي! والمادة مقودة بنواميس غير متزلزلة، ولا عقل للمادة ولا شعور. ولكنها تعمل في خلق أشياء في غاية الإتقان وكمال النظام! لا تنفك عن حكمة وعقل جبار. وإن ما يُرى من آثار التدبر والتعقل في سير الحوادث! وارتباطها ينتهي بالتحليل العلمي! إلى المادة الأولية وما فيها من خصائص ذاتية. ولا شيء وراء المادة. وما يقال عن ما وراء الطبيعة ونزول كتب سماوية وإرسال أنبياء إنما هو كظلمات فارغة تمسَّك بها الجهال وبعض الناس لأغراض خاصة ومصالح معينة، وسوف لا يمضي قرن أو قرنان حتى نرى العالم أجمع يدينون بالمبدأ المادي ويسيرون على المحجة المادية البيضاء! ويخرجون من دياجير الظلمات والخرافات إلى حيث الحق والواقع! .

هكذا يتخبط المادي في ادعاءاته ومن عندياته ومتناقضاته. إنه يقول: الوجود قديم ويريد به المادة. ويقول المادة قديمة. هل من الطريق العلمي أن ندعي شيئاً دونما دليل. فإذا كان المادي يتبنى فلسفة حسية. فكيف يجوز له أن يدعي شيئاً لم يحسه ولم يره. وأن يقول بقدم المادة وأنها غير مخلوقة، مع اعترافه أنه يجهل أصول الكائنات ومصائرها. وهل يتمكن المادي أن يتسلسل بصورة غير خيالية، بصورة غير ظنية ولا حدسية من المادة الأولى إلى وجود العقل الإنساني، فيوضح لنا بصورة متقنة وأدلة متينة مراحل هذا التسلسل وعللها. هل له أن يقول مثلاً عن علة حدوث الماء بنتيجة

---

(١) تخر: تسقط.

اتحاد الأوكسجين والهايدروجين بنسبة معينة بعد إمرار تيار كهربائي. ما أثر هذا التيار وما حقيقته؟ هل تمكن المادي من أن يفسر لنا حقيقة الجاذبية ومن أين أتت وكيف صارت وهكذا يفسر لنا حقيقة الكهرباء وحقيقة (الأبصار)، وحقيقة السماع، وحقيقة العقل، (ولعله لا يعترف بالعقل)! ألم يتوغل هذا المادي في أعماق العلوم كي يرى هنالك من مجاهيل لا تتناهى عدداً وإحصاءاً، ألم يعلم عندما اكتشفت (الأشعة الكونية) نادى العلماء بصوت رفيع: إننا أصبحنا أمام أودية من المجاهيل. . . ماذا يقول المادي، لو سألناه: هل مجهولاتنا بالنسبة إلى ما في هذا العالم من خصائص ومعادلات وحقائق أكثر من معلوماتنا الناقصة التي تصحح وتعدّل يوماً بعد يوم.

أليس الأفضل أن يتمسك المادي بآخر ما توصل إليه العلم الحديث من حقائق الذرة، فيعترف بأن المادة مخلوقة. وأنها طاقات تكدست فأصبحت مادة بمقدار معين على ما ثبت أخيراً في علم الذرة. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القَمَر: الآية ٤٩] . ذلك لأن الشيء غير مؤثر في نفسه وغير قادر أن يغير شيئاً من ذاته. فالتمسك بما أثبته العلم بعد جهد أولي من التمسك بأمر خيالي لا يدعمه دليل. فإذا كان الأصل هو الطاقة (لا المادة) وأن الطاقات تكدست فكانت عناصر مختلفة كالحديد والأورانيوم والألمنيوم و. . . وأشياء أخرى لا نعلمها بنسب معينة وبنظام خارق ومعادلات متقنة؛ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرّعد: الآيتان ٨/٩]، إذن وجب أن نعترف للطاقة بعقل جبار وفعالية غير متناهية وإدراك وشعور. وهذا ينافي ما يدعيه المادي. وبما أن الشيء حسب قانون القصور الذاتي الثابت في علم الفيزياء، غير مؤثر في نفسه، فلابد من مؤثر خارجي قد أثر في هذه الطاقات بحكمة فائقة وتدبير خارق، وهو لا يشبهها في شيء، حتى كان هذا العالم الذي نراه.

ثم نسأل المادي: أليست المعادلات ووضعها نتيجة عقل مفكر جبار، لاسيما إذا كانت متعددة تكاد لا تحد، أليس تنظيم أجزاء وأعضاء الحشرة أو الحيوان دليلاً على عقل فعال، لاسيما إذا كانت هذه التنظيمات في الجماد والنبات والحيوان متعددة إلى حد تكاد لا تتناهى وبأشكال مختلفة ونظم حكيمة متباينة، هذا عدا ولوج الروح فيها.

ثم هل الترتيب بين الأجزاء يولد الحياة وما العلاقة بين الترتيب والحياة؟ وليس هناك إلا دعوى وخيال وهوى نفس ضلت عن الطريق بآثامها وقساوتها. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦]. إن المادي يقول بنظرية لابلاس: إن الشمس والكواكب التابعة لها كانت في البداية قطعة من السديم، ثم انتزعت منها هذه الكواكب وإلى مسافات معينة وصارت تدور حول الشمس بحكم الجاذبية، وإن الأرض كانت ابتداء قطعة من نار (معادن مذابة) كما يظهر لنا ذلك عندما ننزل إلى باطن الأرض مسافة يعتد بها. فإن درجة الحرارة تزيد (٣٠) درجة مئوية لكل كيلومتر من العمق. وهكذا تبلغ نحو عمق (٥٠) كيلومتراً من سطح الأرض درجة انصهار الصخر. وهي تقع ما بين ١٢٠٠ درجة مئوية و١٨٠٠°م. والبراكين وما يخرج منها من صخر منصهر خير دليل على ذلك. فالكرة الأرضية، بناء على هذا، تتألف من قشرة كروية جامدة سمكها نحو ٥٠ كيلومتراً، تلتف حول قلب الأرض التي هي نار حامية، من صخر مصهور ومعنى هذا أن لب الأرض سائل ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠].

فإذا كانت الأرض عند انتزاعها عن الشمس ناراً حامية فلا يبقى فيها كائن حي ولا أساس للحيوية. فكيف يفسر لنا المادي وجود الكائن الحي على وجه الأرض وكذا النبات وما فيه من نظم وجمال.

وكيف بالتحليل العلمي يمكن إرجاع عقل الإنسان إلى المادة الأولى الأزلية، لاسيما بعد الاعتراف بأن الأرض كانت قطعة نار سيالة حامية. ومن أودع في المادة الأولى هذا العقل الجبار لتضع قواعد رياضية رصينة في هذا الكون، وتتسلسل هذه المادة وتتدرج مراحل تكاد لا تتناهى، مراحل معقولة حكيمة، ثم تنظر في حاجة ما سيوجد في المستقبل، فتهيئها قبلاً، وهل للمادة الصماء غير العاقلة (على ما يقوله المادي) أن تفكر في مستقبل الأشياء وحاجاتها وتعين مثلاً أوقاتاً لخروج السن والشعر في الإنسان والحيوان... الخ.

حقاً إن التفكير المادي تفكير عامي لا يمت إلى الأسلوب العلمي بصلة: ﴿إِنْ هِيَ

﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النّجم: الآية ٢٣].

يقول (روبينيه) في كتاب «الفلسفة الحسية».

«إن الفلاسفة الحسيين يريدون الابتعاد عن كل وهم وخيال وبناء فلسفتهم على المشاهدة الحسّية. ولكنهم بعيدون عما يدعون كل البعد. وهل من الفلسفة الحسية أن يقال جزافاً بقدم المادة وأبديتها، وهل من الفلسفة الحسية الحكم بعدم وجود عالم أرفع منها وهل منها الاعتماد على افتراضات علمية غير ثابتة ومتزلزلة وبناء مذهب إلحادي عليها».

وهل يصدّق الحس في ما يعطى من معطيات، وما المصحح له، أليس العقل؟ فكيف يجوز الاعتماد على فلسفة حسية، أساسها الحواس. وكيف يجوز الاعتماد على نظريات علمية لا ثبات لها ولا استقرار. وكيف يجوز أن تبنى فلسفة الحياة الاجتماعية، من اقتصادية وأخلاقية وإدارية على نظريات تتبدل من حين إلى حين. ألم يدرس المادي تاريخ العلوم. ألم يتتبع تغير النظريات وتحولها. وهل الفرضية: (Hypothese) دستور رياضي مجرد لا يقبل الشك والارتياب. وهل وجود أتباع كثيرين لنظرية ما يدل على صحتها. ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعَام: الآية ١١٦].

إن المادي يقول: إن المادة مقودة بنواميس ثابتة غير متزلزلة. من الذي قاد هذه المادة حتى أمست مقودة تبعاً لهذه النواميس؟ هل المادة نفسها فكرت، فوضعت هذه النواميس والقوانين؟... فما بال الإنسان وهو ذو عقل، لم يعلم لحد الآن إلا شيئاً جسيراً جداً عن حقائق حياة النبات والحيوان والدساتير الرياضية المودعة في هذا الكون؛ إذن، عقل المادة في الأزل أعظم بكثير من عقل هذا الإنسان المتكامل علمياً يوماً بعد يوم. ومع ذلك يشكو جهلاً مريراً لا نهاية له.

ثم إن القوانين والمعادلات الرياضية التي تعمل في تنظيم هذا الكون وربط الأرض بالسماء وربط أجزاء السماء بعضها ببعض بمعادلات لا تُعد ولا تحصى، (وقد وجدت تباعاً)، كيف كانت موجودة في الأزل في المادة؟ والمادة كانت مشكلة من ماذا؟ ومن الذي شكّلها؟

إن العلم الحديث يقول، بعدم وجود مادة في الأزل. وإنما طاقات أوجدها الله تعالى. تكدست بإرادته، فصارت مواد كما يشاء سبحانه. وتتلاشى هذه المواد فتكون طاقات وهذه بدورها تتلاشى فلا يبقى إلا وجه الله ذو الجلال والإكرام.

ثم كيف قطعت الطاقات هذه المراحل الحكيمة التي هي في غاية الإتقان وتمام الدقة وتكاد لا تتناهى. ذلك لأن الكون على حد تعبير (أينشتاين) مجموعة من قوانين رياضية.

وأين الدستور والعقل من المادة. وإن المادي ينفي العقل عن المادة خشية أن يقال: إن العاقل الفعال والميسِّر للمادة هو الله تعالى. وهكذا يستدل الفيلسوف الفرنسي (بركسون) على وجود الله جلَّ جلاله. ثم ليقل لنا المادي، إذا كانت المادة فاقدة العقل، فكيف تحدث هذه العوالم المعقولة المتقنة بأوامر من مادة بلا عقل.

كيف يجوز الاعتماد على ما يقوله المادي: وهو ادعاء لم تثبت أركانه، ادعاء أوهن من بيت العنكبوت، ذلك لأنه حيث لا يجد جواباً مقنعاً يتذرع بكبريائه وغروره، أي بهذا العلم الذي لم يقطع فيه البشر إلا مراحل ضئيلة وضئيلة جداً، يعترف بذلك كبار العلماء الباحثين، لا أولئك الذين انحصرت دراستهم في مدارس بسيطة أياماً فعلية، وتركوا البحث والتنقيب وصاروا يكتبون دونما تدقيق وتحقيق. يتذرع المادي بالعلم تذرعاً واهي الأركان، متفكك العرى والأوصال، بعيداً عن المنطق الطبيعي والفطري، ذلك لأن العلم مهما كان ناقصاً يدل على موجد قادر متعال. وخلاصة القول، أن المادي ينسب (من عندياته) واقتراحاته وادعاءاته بل هذيانه إلى العلم اعتباطاً، ويسمى هوى نفسه ومدعياته نظريات علمية! وبينها وبين العلم الواقعي الصحيح مسافات. وإن قضية تاريخية أو قضيتين، كافية لتجعل للمادي دليلاً وبرهاناً دون ملاحظة ما هنالك من عوامل.

إن المادي كلما عجز عن جواب مسألة تعرض عليه، قال: «إن كنا نجهل السبب الآن، فإن العلم سيكشف لنا ذلك». إذن كيف يجوز أن تملي على الناس نظرية إلحادية واهية الأركان، ويعوّل في إثباتها على ما سيكشف العلم في المستقبل من مكتشفات.

ثم من الذي ألهم الحيوانات، لاسيما الدنيئة منها، ما به قوام حياتها قبل أن ينتقل بطريق وراثي؟ وما حقيقة الانتقال الوراثي على الوجه الصحيح؟

إن المادي يقنع بالتعريف فحسب، فيقول: جاذبية، وراثة، دون أن يتوغل فيقول لنا عن الماهية والواقع. وإن الوصف اللغوي أو الاصطلاح لا يغني عن الحق والواقع شيئاً.

حقاً، أن المادي قد حجب نفسه عن المنطق الصحيح، (هذا المنطق الذي يستعمله في حل المسائل الكيميائية أو الفيزيائية)، حين يأتي دور إرجاع المخلوقات المترتبة غاية الترتيب إلى مرتب حكيم عليم. ذلك لأن قضية الاعتراف بالخالق ليست بقضية منطقية فحسب، بل هي رشحات النفس الزكية. فالقضية قضية نفسية بحتة، لا أثر للمنطق في ذلك، ومعنى ذلك، أن منطق هذا المادي منطق صحيح في العلوم المادية، ولكنه ينسحب عندما يأتي دور الاعتراف بالله تعالى لظلمات في النفس ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: الآية ٥٧].

إن المنطق الإنساني، منطق طبيعي ثابت الأركان، لا تبدّله الأهواء والنفوس مهما اصطلح عليه من اصطلاحات وعبّر عنه بتعابير مختلفة، فالإنسان إنما يعترف بخالقه بنور منه. والمنطق الطبيعي، إذ ذاك، يؤيد ذلك. ولولا هذا النور لما أمكن الاعتراف وإن قوي الشخص على حل أصعب المسائل الرياضية. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: الآية ٤٠].

ولا يحل هذا النور القدسي إلا في نفوس فيها شيء من الصفاء. وقد اعتادت إلى حد ما على عمل صالح وأخلاق فاضلة، بعيدة عن الخمور والفجور..

نعم، قد يصبح الإنسان بفجوره وفسوقه، وبعد ذلك بظلمات نفسه أحط من الطير والجماد. فهما يسبّحان الله ويقدّسانه، على حدّ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النُّور: الآية ٤١].

فنحن نقترح على المادي أن يرتب لنفسه منهاجاً للقيام بأعمال صالحة لا لنيل مقام دنيوي أو طلب شهرة أو صيت، ثم ليترك ما هو عليه من ارتكاب المحرمات، لاسيما الكذب، ليرى كيف تزكو نفسه شيئاً فشيئاً، فتحل فيها معرفة الخالق، فخشوع، فطمأنينة ما بعدها طمأنينة، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: الآية ٢٨].

ليعلم المادي أن هذه النظريات الفلسفية! التي اخترعها والتي يعتمد عليها الآن هي نظريات متحولة، متبدلة، سيظهر له فسادها بعد حين، كما ظهر فساد كثير من النظريات العلمية والفلسفية منذ العهد اليوناني إلى يومنا هذا، وسيأتي يوم يكون فيه أكبر عالم في يومنا هذا تلميذاً لأولئك الذين سيظهرون بفضله تعالى بعد أعوام أو قرون.

ثم إن النفس الإنسانية ليست من المادة في شيء. فلا يجوز تطبيق خواص المادة وقوانينها في تكميل النفس الإنسانية وسير الإنسان التكاملي، وجعل الاقتصاد أساساً لكل فضيلة. ولا يعلم حقيقة النفس وطرق تكاملها إلا خالق النفس وهو الله تعالى. فوجب إذن، أن يبعث الله أنبياء ومرسلين حاملين قوانين نفسية من عنده تعالى لإكمال البشر.

إن كل ما يسنُّه البشر لإكمال نفسه ملوَّث، مبتور، آت من رشحات نفس ملوثة ناقصة. إذن ما يترنم به المادي لظلمات نفسه، من عدة إنزال كتب سماوية وإرسال أنبياء، إنما هو كلام فارغ لا يدعمه دليل. ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠].

فجدير بالمادي أن يتنازل عن غروره وأن يقطع بأن خالق الكون يريد بهذا الإنسان الكمالَ، ذلك لأن سنَّة الكمال ضاربة بأطنابها في هذا العالم، فلا ينبغي أن يستثنى منها هذا الإنسان، وما يسنُّه الناقص، ناقصاً. والله أعلم بما خلق، وأعلم بطرق تكامل نفس خلقها، وهي النفس الإنسانية. وأن يقطع بأن الله أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين بغرض إكمال هذا الإنسان، ومعهم جميع ما يحتاجه الإنسان في شتى الحقول، من نفسية وعبادية، واجتماعية وقضائية وإدارية واقتصادية، وإن دين الإسلام وهو خاتمة الأديان مستجمع لجميع ما يؤدي إلى تكامل هذا البشر ولم تمسه يد التحريف، فجدير به أن يتخلى عن غروره، وطيشه وغلوائه، وفجوره وخموره. وأن يتمسك بدين محمد خاتم النبيين ﷺ، لكي يعلم بعد قليل ما كان عليه من خطأ فاحش وظلمات بعضها فوق بعض.

* * *

إن الفلاسفة الواقعيين يعتقدون أن علمنا ومعرفتنا بالنسبة إلى الأجسام تبقى ناقصة إلى الأبد وإننا لا نعرف إلا أفكارنا الخاصة.

إن القرن التاسع عشر كان قرناً مُتَّسماً بالمادية، فقد ساد الاعتقاد في الأوساط المادية أن المادة هي كل شيء وأن الإنسان يساوي كذا غراماً من الآزوت وكذا غراماً من الحديد وكذا غراماً من الكالسيوم وكذا غراماً من الماء (بما فيه من أوكسجين وهايدروجين). . . الخ. . وليس وراء ذلك شيء! ولم يُحسب للروح أو النفس والعقل أيّ حساب. وصاروا يدعون أن العقل وليد المادة والمادة هي التي تخلق النفس والعقل! (ولا تنس قول علي عليه السلام: كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب).

حتى إذا تقدمت العلوم المادية بما فيها الفيزياء الرياضية وعلم الذرة وتقدمت الرياضيات العالية بما فيها الميكانيك الرياضي والميكانيك السماوي، وتطورت الفلسفة على ضوء هذه المكتشفات التي هي مفخرة القرن العشرين، أخذت تقول الفلاسفة الواقعيون والعلماء الحقيقيون «أولئك الذين لم تلوث نفوسهم» أن العقل هو الكل في الكل، والعقل هو يسيّر المادة، وصاروا يعتقدون أن هناك عالماً آخر وراء العالم الذي تنحصر فيه الفيزياء، وأن هذا العالم وحدة روحية أو عقلية وأن العقل وحده هو الشيء الحقيقي، وأن المادة هي من مخلوقات العقل، بخلاف ما كان يقال قبل ٥٠ سنة حين طغيان المسلك المادي. والنفس هي الأساس والمادة خادمة لها وأن الروح أو النفس لا تفنى بعد موت الإنسان.

كل ذلك لما رأوا من عجائب ما أودع الله تعالى في الكون تحت قوانين رياضية رصينة، وحقائق لمسوها في بنية الذرة لا يمكن أن تفسر إلا مع الاعتراف بخلاّق عظيم وعقل فعال[١].

وهكذا يتكامل الفيلسوف في معتقداته وفي فلسفة يتبنّاها لو تكامل نفسياً. والدكتور جود (Dr. C. M. Joad) خير مثال في ما نذهب إليه. إنه يقول، عندما تخرجت من الجامعة كنت لا أعي ولا أفهم شيئاً عن حقيقة الكون وكنت أعتقد: أن المادة الحياة والقيمة (Matter, Life and value) هي أمور مختلفة، مستقلة بعضها عن بعض،

---

(١) وكان لإحضار الأرواح (على ما يعبرون)! هيبنوتيزم (Hypnotism) (Spiritism) أثر في التوجه الروحي.

اجتمعت لتتفاعل بعضها مع الآخر. ثم عدلت عن هذه العقيدة، وعلمت أن هذه الأشياء الثلاثة هي على الأرجح وجهات لوحدة واحدة أو مظاهر لفعل إله خالق.

لو سألت أحد هؤلاء الماديين لماذا يجذب المغناطيس الحديد ولا يجذب الرصاص، يعجز عن الجواب وغاية ما يقول، أن هناك خاصية في هذا الجسم دون غيره. ونحن نسأل كيف اكتسب هذا الجسم هذه الخاصية دون غيره. وما حقيقة هذه الخاصية وما حقيقة الجذب؟ ومن هو الواهب لهذه الخاصية؟ هذه أسئلة يجيب عنها المادي بكلمة واحدة، «لا أعلم»؛ أو «سوف يكشف لنا العلم ذلك». وهل يجوز لمن يدعي العلم أن يتكهن بقوله «إن العلم سيكشف لنا» ويبني نظريات خاطئة على أساس واهن. ثم يقول نفسه «قد انصرم دور الكهانة ونحن نعيش في عهد الحقيقة والواقع، عهد العلم والحقائق وقد خرجنا عن دور الاحتمال»!

إن الله تعالى يقول ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: الآية ١٥٧].

أنظروا كيف يفصل الله جلّ جلاله ما خلق من أنواع النبات والإبداع الكامن فيها. إنه تعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ[1] وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ[2] ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: الآية ٩٩]. وإن ما دوّن في كتب النبات هو تفسير لبعض ما جاء في هذه الآية الكريمة. وسوف تدون كلما تفضل الباري جلّ جلاله على هذا البشر بالكشف والتنقيب، آلاف الصفحات. ولكن لا يعتبر بكل ما دوّن في الموسوعات الخاصة بالنبات وما سيدون إلا المؤمنون، على حد قوله تعالى في الآية: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: الآية ٧٩]. ويؤيد ذلك قوله تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس: الآية ٦].

نعم، لابد للمعتبر بهذه الآيات البينات من قليل من التقوى، فقليل من الإيمان.

---

(١) قنوان: جمع قنو: عنقود التمر؛ دانية: قريبة التناول.

(٢) وينعه: حينما ينضج.

ولا يعطى الشخص قسطاً من الإيمان إلا إذا كان له عمل صالح يقوم به من وقت لآخر، بصلة رحمه ولو بمقدار ضئيل، أو مساعدته بعض الفقراء والمعوزين ولو كانت هذه المساعدة قليلة جداً، أو تفقده حال المساكين والبؤساء، ولو بين فترات متباعدة إلى ما هنالك. فإن هذا العمل الصالح على قلته وضآلته مصباح ضعيف الضوء ينير القلب، فلا يطفأ العقل. فالعقل، إذ ذاك، يقوم بواجباته الطبيعية في حدود معينة وهو توجيه صاحبه إلى الخالق المعبود؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢٩﴾ [الأنفال: الآية ٢٩]. إن التقوى. (اجتناب المعاصي) والمأكل الحلال الطيب يفتحان على الإنسان أبواب الهداية، فيفرق بين الحق والباطل ويؤدي ذلك أيضاً إلى القيام بتكفير الذنوب وجلب غفران الله تعالى. تدبروا مفاد هذا الحديث لتروا كيف أن الله تعالى وسعت رحمته كل شيء وأراد بالناس جميعاً الاهتداء. فقد قال رسول الله ﷺ: «أبى الله أن يجعل الباطل في قلب الكافر حقاً وأبى أن يجعل الحق في قلب المؤمن باطلاً»[1].

أنظروا كيف يوضح الله تعالى أن العمل الصالح مقدمة لنيل الفيوضات الربانية ودرك أنوار الهداية الإلهية. إنه تعالى يقول: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٦﴾ [المائدة: الآيتان ١٥/١٦] ومعنى ذلك إن الله يهدي الفرد إلى سبيل الهداية والسلام وإلى طريق يؤدي على روح وريحان، إن اتبع هذا الفرد رضوان الله تعالى بالاجتناب عما حرم الله والعمل بما أمر الله. نعم، إنه لينطفئ العقل انطفاءً تاماً أو ينسحب انسحاباً كاملاً إذا غدا الفرد جرثومة فساد وقسوة وقوة. ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ [غافر: الآية ٣٤]. فليست الآيات البينات والمعجزات الباهرات هي الكل في توجيه الشخص نحو خالقه. بل لابد من نفس بقي فيها شيء من الصفاء والنور، لتبصر به الحق. إنه تعالى يقول: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القصص: الآية ٥٦]. وهو

---

(١) بحار الأنوار: ج٥، ص٣٠٣، باب ١٤.

القائل أيضاً: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المَائدة: الآية ١٠٨] . وفي آية أُخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٥١] . وفي أخرى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ٣٣] . وقد سد طريق الهداية على أولئك الذين خسروا أنفسهم بالمعاصي. ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ١٢] .

فانحصر توفيق الاهتداء في أناس لم يبلغوا من الفسق والظلم مرتبة تسد عليهم أبواب الهداية، فتنطفئ بذلك عقولهم. فيخرجون من زمرة أولي الألباب. إنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩٠] . فالذي لا يعتبر بما خلق الله وبما أودع من نظام في اختلاف الليل والنهار لا يعد من أولي الألباب. وما على من وجد في اتجاهه الروحي زيغاً وانحرافاً إلا أن يفتش عما قام به وما يقوم به الآن من ظلم وجور فيقلع عما هو فيه من اعتداء وتجاوز، كي يسير في سيره التكاملي، وتتجلى له الحقائق وينكشف له الواقع. فلا يمكن مد الأيدي إلى ما وراء الطبيعة إلا من زاوية تزكية النفس وتطهيرها من الأرجاس والأدران. وقد نصَّ على ذلك كثير من الفلاسفة الواقعيين.

أنظروا كيف يصف الله تعالى ما أودع من نظام رصين في سير الشمس والقمر، لا يعلم مدى ذلك إلا من درس الرياضيات العالية ومعادلات الحركة في الميكانيك الرياضي والميكانيك السماوي. على أن وراء ما توصل إليه الفلك العالي، معادلات وقوانين كثيرة جداً بل قوانين لا تتناهى سوف يمنُّ الله تعالى على المتتبعين من علماء الفلك بالكشف والعثور عليها. إنه تعالى يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يُونس: الآية ٥] .

حقاً، إن المنغمرين في علم الفلك العالي على ضوء ما توصل إليه العلم الحديث قلَّ أن ينحرفوا عن الاعتراف بعظمة الله الذي وضع هذه النظم الدقيقة والقوانين الرياضية. ورأيت منهم من تفيض عيناه بالدموع فرحاً وخشوعاً لله تعالى، ولكنك ترى كثيراً من الملحدين، ممن لا يستطيعون فهم معادلات الفلك العالي وقوانينه مهما حاولوا، منحرفين عن الصراط السوي لكبر في النفس وقساوة في القلب. فقد جاء في

الحديث «إن أعمى العمى عمى القلب». وقد أوضح لنا ربنا تعالى فلسفة الإيمان بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ۝٣٥﴾ [غافر: الآية ٣٥]. أمثال بوخنر، فورباخ، كارل ماركس اليهودي، أنكلز، شوبهاور وغيرهم. إن الله يصف هؤلاء بقوله: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ [الكهف: الآية ٥٦]. ويصفهم بالجدل، جدل إن دل على شيء فإنما يدل على فساد فلسفتهم وفساد ما بني عليها من قوانين. ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ۝٥٤﴾ [الكهف: الآية ٥٤] وبقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج: الآيتان ٣/ ٤].

إلا أن هذا المادي سوف يعترف بالواقع لا محالة حين لا يفيده الندم على ما فرط في جنب الله: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٤].

أنظروا كيف يتم الله تعالى الحجة على عباده بدليل قاطع على وجوده بقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الرُّوم: الآية ٢١].

أنى للذكر أن يخلق لنفسه أنثى، ومن أين جاءت هذه الحاجة وكيف فكر هذا الذكر أن يجعل الأنثى بشكل يؤدي إلى استدامة النسل مع تعقد المراحل في تشكل الجنين. هذا ما يقوله الفيلسوف (مونتني). حقاً، إن إنكار الله تعالى ضرب من الجنون. فهؤلاء المنكرون هم مجانين جنوا على أنفسهم وعلى من هم على شاكلتهم ببغيهم وظلمهم ونسقهم، فذهبت عقولهم. ومن ليس له عقل يدرك به خالقه فهو مجنون لا محالة.

في عهد الرسالة، صادف رسول الله ﷺ في طريقه رجلاً خولط في عقله، فقال له أحد أصحابه أنه مجنون، فأجابه رسول الله ﷺ ما مؤداه: أنه مريض، والمجنون من لا يفكر في آخرته.

هل توصل هذا المادي إلى فلسفة اختلاف الألسنة والألوان بصورة صحيحة عميقة، دون الاكتفاء بالظواهر. وهل درى عوامل اختلاف الألسنة، وكيف تكلم الإنسان وكيف ارتبط اللسان بالفكر، حتى أمسى معبراً عما يختلج في نفسه. وإن الله تعالى يقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النُّور: الآيات ٢٢/ ٢٤].

فحصر سبحانه وتعالى الاعتبار بالآيات الكونية وما أودع من حالات مختلفة تضبط بقوانين رياضية متقنة بالعقلاء دون غيرهم. أي أن العقلاء هم وحدهم يعترفون بعظمة الخالق ويتدبرون في أحوال الكون والحوادث الكونية ولذلك يقول تعالى في سورة الحشر ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحَشر: الآية ٢] . ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٩] . فلا بصيرة ولا لب لغير المؤمنين. وجلُّ ما عند هؤلاء الملاحدة ذكاء أو تفكير يقوم بلطفه تعالى في إدارة شؤونهم والهام العلاقات الموجودة بين الحوادث (سواء أكانت النفس ملوثة أم لم تكن)، كل ذلك تفضلاً منه تعالى، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عَبَسَ: الآية ١٧] . ولكن الاستبصار والتوجه إلى مقامات القدس لا يتم إلا في نفس زكية طاهرة. فهؤلاء هم أولوا الألباب حقاً، لخروجهم من حضيض المادة إلى تفهم ما وراء الطبيعة والعروج إلى حيث الطمأنينة والخلود، إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

هل من حاجة
إلى الدور والتسلسل في إثبات الصانع

جاء في بعض الكتب الكلامية بشأن إثبات وجود الخالق: إننا لو فرضنا أن ب مثلاً خلق أ، وحـ خلق ب، ود خلق حـ، وهكذا... ينتهي بالفرض إلى ما لا نهاية له من الموجودات، خلق المتقدم منها المتأخر. وهذا، تسلسل، والتسلسل باطل. لأنه لابد

من خالق لم يخلقه آخر. حتى ينتهي الأمر إلى خالق هو في الحقيقة خالق جميع الأشياء.

ومما لا شك فيه، أن المخلوق ليس فيه قابلية الخلق. لأنه إن كان فيه قابلية الخلق لأوجد شيئاً من العدم. أو تصرف في نفسه فحقق ما يريد. والمصنوع ليس بصانع شيء من العدم. أما صانع التلفزيون مثلاً فهو قد جمع أجزاءه مما وجده قبلاً. ووجد أن له عقلاً يعقل ويستنتج وهو لا يعلم كيف أتاه. يرى نفسه يأكل وتخرج فضلاته وتقوم أجهزته بأعمال دقيقة مختلفة وهو لا يحيط بكل ما هنالك من أسباب وعلل. ولا يعلم كيف كان كل ذلك. فليس للمخلوق أن يخلق شيئاً من العدم. ومن أين يأتي لهذا المخلوق قابلية الخلق من العدم، وهو عاجز عن التصرف في نفسه. فإذا قلنا باستحالة خلق المخلوق شيئاً من العدم، لم يبقَ مجال للقول بهذا التسلسل من المخلوقات أو من الخلاقين وجعلِ المتقدم خالقاً للمتأخر. د، ح، ب، أ. فلا ضرورة لهذا الفرض الباطل: (التسلسل)، بل لا يبقى مجال لتصوره.

وأما الدور: فهو أن يكون وجوداً متوقفاً على وجود ب ووجود ب متوقفاً على وجود أ، فأصبح وجود أ متوقفاً على وجود أ. أي وجود أ متوقف على نفسه. ويقولون إن هذا (دور)، والدور باطل، أي توقف وجود شيء من الممكنات على نفسه باطل. لأن الممكن لكونه ممكناً أي مصنوعاً ومخلوقاً من قبل غيره ليس له أن يوجد نفسه بنفسه حتى يكون وجوده متوقفاً على نفسه. والله تعالى هو الذي متوقف وجوده على نفسه لم يسبق بعدم وهو واجب الوجود، أي لابدَّ من وجوده لوجود هذه المخلوقات بهذا النظام البديع.

لا أظن أن رجلاً قبل أن يدرس علم الكلام يفكر في الدور كما يفكر في ذلك المشتغل في علم الكلام. ذلك، لأنه يرى أن كل ما في الكون من نبات وحيوان وجماد مفتقر غاية الافتقار، وذو حاجات شتى ونواقص عدة ومحل للحوادث، ومضطهد تحت نير الحوادث والكوارث. وليس له أدنى تصرف بل ليس له أن يغير شيئاً من تركيبه الأساسي من تلقاء نفسه. فلا يفكر أن هناك خالقين يتوقف وجود كل منهما على الآخر. حتى يأتي دور توقف وجود الشيء على نفسه. بل يقطع أنه لابد من خالق لا يشبه خلقه في شيء. لما يرى من عجز وافتقار في من سواه. خالق لا تؤثر فيه

المؤثرات ولا الحوادث بل هو خالق المؤثرات والحوادث وموجدها. هو الذي خلق الأشياء برمتها ونظمها ورتبها ووضع فيها قوانين ليس للعلم أن يقف إلا على جزء ضئيل منها. وذلك أيضاً بمشيئة الله وإلهامه المكتشفين تفضلاً منه ورحمة. فلا أرى كثير فائدة من تمسك علماء الكلام بالدور والتسلسل في إثبات الصانع جلَّ جلاله. لأن هذا النوع من التفكير ليس بطبيعي ولا فطري، وليس بمعقول. ولا تؤيده الحوادث. وأن الإنسان قد زُوّد بفضله تعالى بعقل يحكم بوجود خالقه بصورة طبيعية دون اللجوء إلى تعلّم مناقشات أصحاب الكلام والحكماء. بل قد يكون العامي أقوى اعتقاداً من الكلامي بوجود الصانع لنورانية في نفسه حصل عليها بسبب ما قام به من أعمال صالحة لوجه الله تعالى وعبادات خالصة دونما رياء. ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٩].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٢].

استحالة معرفة اللّه معرفة تامة

إذا كان الإنسان لا يقوى على معرفة نفسه ولا يتمكن من أن يتعرف إلى حقيقة النفس أو الروح ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٥]. فأنى له أن يعرف خالق الروح معرفة تامة. إذا كان الإنسان لا يقوى على معرفة حقيقة الجاذبية الأرضية أو حقيقة القوة الكهربائية أو حقيقة الإلكترون فأنى له أن يعرف حقيقة خالق الجاذبية وخالق الإنسان، في مقدوره أن يحيط باللامتناهي وهو الله تعالى.

وما من شك أن ما خلق الله تعالى من عوالم، تكاد لا تُعد ولا تحصى. وقد عُلم أنه تتشكل في الكون كرات جديدة وتبيد أخرى. وإن العلم الحديث ليعترف بالعجز عن الإحاطة بما أودع الله من خواص وقوانين رياضية ومعادلات رصينة تربط حوادث الكون وأجزاءه بعضها ببعض. وإن علم البشر بالنسبة لهذا العلم اللانهائي (الخواص

والقوانين الكونية) شيء ضئيل وضئيل جداً: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: الآية ١٠٩] وأن علم الله تعالى الذي وضع هذه الخواص والقوانين لا يتناهى ولا يحاط به. إذن نتج من هذه المحاكمة أن علمنا (علم البشر كله)، بالنسبة إلى العلم المودع في هذا الكون يكون صفراً؛ بل هو صفر. ذلك لأن نسبة المحدود إلى غير المحدود تكون صفراً. فلو فرضنا علم البشر = ب. والخواص والقوانين التي أودعها الله تعالى في هذا الكون (أو الأكوان) = لا نهاية = ∞.

$$\therefore \quad \frac{ب}{\infty} = ٠ \text{ (صفر)}$$

إذن وجب أن نقول (بطريق أولى) إن علم البشر بالنسبة إلى علم الله تعالى، ذلك العلم الذي لا يدرك غوره، صفر أيضاً.

فلنفرض علم الله = ∞

أي لا نهاية = ∞ مرفوعة إلى قوة ∞.

$$\therefore \quad \frac{ب}{\infty^{\infty}} = ٠ \text{ (صفر) دون أي ريب}$$

فكيف يرجو هذا البشر أن يعرف الله تعالى معرفة تامة وأن يحيط به إحاطة كاملة وهو في الحضيض، (لكنه مغرور لما منَّ الله عليه بمعرفة بعض القوانين وبعض المكتشفات)!.

إن الماديين تذرعوا بسخافات عجيبة، وأرادوا أن يروا الخالق في تحاليلهم الكيميائية أو تجاربهم الفيزيائية أو بعين مجردة، أو مجهزة بمكبرة وغيرها. حين أن الله، وهو الذي لا يحدُّه مكان ولا زمان، هو خالق كل هذه الآلات وهو خالق العقل الذي قام بترتيب هذه الآلات Telescope.

أنى للحواس الخمس أن ترى الله تبارك وتعالى وهي محدودة القوى والقابليات وكثيرة الأخطاء! والعقل هو المصحح لهذه الأخطاء. أو ما رأيت في بعض كتب الفيزياء خطوطاً مستقيمة مقطوعة بخطوط أخرى، ونظرت إليها لألفيتها تتقاطع ولكن لو اختبرتها وجدتها متوازية. وترى أيضاً خطين مستقيمين أحدهما أطول من الآخر،

ولكن لو دققت لوجدتهما متساويين في الطول وهذا دليل على خطأ العين. والعقل وأعني به الذكاء أو التفكير هو المصحح له.

أو ما رأيت كيف يعوج القضيب حين يوضع قسم منه في الماء. وذلك لانكسار الضوء واختلاف سرعة الضوء في وسطين مختلفي الكثافة (الهواء والماء). ما الذي يصحح خطأ العين ويريك أن ليس هناك اعوجاج حقيقي إنما هو العقل.

وهكذا السراب فإنك ترى أن هنالك ماءً وأشجاراً فإذا وصلت إلى ذلك المكان، لم تجد شيئاً، كل ذلك بتأثير انكسار الضوء لاختلاف كثافة طبقات الهواء وترى النجمة في غير موقعها الحقيقي لنفس السبب.

هل رأيت كيف: أن الدرهم الملقى في قعر إناء فيه ماءٌ كيف يُرى في مستوى أعلى من القعر حسب قوانين الانكسار (Refraction) وكيف يحلل الضوء بهذا أو بالمنشور. هل العين حين تشاهد هذه الألوان تعتقد أن هناك تكاسراً أو تعتقد أن ألواناً مختلفة وجدت في (رغوة) الصابون. ما الذي يصحح هذا الخطأ.

إن الأذن لا تقوى أن تسمع صوتاً، تردده[١] في الثانية أقل من (٢٠) أو أكثر من (٢٠٠٠٠) ذبذبة وأن الاهتزاز وجميع ما يؤدي إلى حدوث الصوت موجود لكن الأذن لا تسمع ولا تحس. لأن قابليتها محدودة.

إذن لا يمكن الاعتماد على الحواس الخمس في إثبات وجود الخالق وذلك لأن الحواس كثيراً ما تخطئ ولا يصحح هذا الخطأ إلا العقل. فالعقل هو الذي يعتمد عليه في التعرف إلى الأشياء. وبالعقل يعرف الله ويوحَّد.

هل للحواس الخمس أن تشعر بتيار ضعيف على سلك. كلا. بل الـ (كلفانو متر) هو الذي يعرفنا وجود هذا التيار الضعيف. إن الأخطاء البصرية كثيرة، فلا يعتمد على البصر فحسب، أي دون مداخلة العقل والتجربة لمعرفة الأشياء. أو ما ترى أن الأرقام

---

(١) التردد هو عدد اهتزاز الجسم المهتز في الثانية. أو عدد تذبذب الشوكة الرنانة ذبذبات كاملة في الثانية.

البيضاء تبدو أكبر من الأرقام السوداء. ولا يمكن الاعتماد على حاسة اللمس دائماً. فإذا أمررنا كرة بين السبابة والإبهام وهما متقاطعان فإننا نحس أن المار كرتان لا كرة واحدة. وعضو السمع لا يعطي الأثر نفسه في جميع الناس. فالموسيقيون يستطيعون تمييز النغمة الموسيقية الخاطئة فوراً. إذن لا يمكن أن نجزم أن الملاحظة السطحية المباشرة تطابق الحقيقة بصورة دائمة.

أنظروا إلى ما يقوله عليٌّ عليه السلام في هذا المقام: «الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد، ولا تحويه المشاهد، ولا تراه النواظر، ولا تحجبه السواتر. الدال على قِدمه بحدوث خلقه وبحدوث خلقه على وجوده وباشتباههم أن لا شبه له»[1].

فما هو الذي يجعل هؤلاء الماديين مع دراستهم للفيزياء وكثير من علوم الطبيعة أن ينكروا الخالق. نعم، إن المؤثر الحقيقي في ذلك، إنما هو شهواتهم ونزواتهم وبغيهم وظلمهم حتى منعوا بذلك الفطرة أو العقل من القيام بعمله الطبيعي، وحجبوه من أن يؤثر أثره. ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يُونس: الآية ٣٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ[2] سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحِجر: الآيات ١٠/ ١٥].

ويتصور البعض بأنهم لا يمكنهم أن يعترفوا بوجود الله تعالى لأنهم عاجزون عن إدراكه فالإنسان السوي الذي لم يلوث الفطرة بما كسبت يداه والذي يتمتع بغريزة حب الاستطلاع العلمي لا يحتاج إلى رؤية الله أكثر من حاجة الفيزيائي إلى رؤية الإلكترون. وكل محاولة في كلتا الحالتين باطلة ولا قيمة لها. فالإلكترون لا يمكن إدراكه مادياً ومع ذلك فهو معروف تماماً بآثاره أكثر من قطعة من الخشب. ثم إن العلم يعترف بوجود فراغ غير مدرك تسبح فيه الإلكترونات. فراغ ذي ثلاثة أبعاد، لكل إلكترون، وثلاثون بعداً لكل عشرة إلكترونات. ويعترف أن هذا الإلكترون ما هو إلا موجة

---

(١) الاحتجاج للطبرسي: ج١، ص٢٠٤.   (٢) خلت: مضت.

احتمال، ويعترف بوجود جزيئات كالنيوترونات (الكهارج) والاتينيوترونات التي افترض وجودها لأسباب تناظرية رياضية بحتة. ويتقبل بدون تردد وجود تلك الكيانات المتناقضة ظاهرياً ولكنه يرفض ومع الأسف (بإصرار) أن يتقبل وجود ذي قوة خارقة خلاقة، كوّن هذه الأشياء التي يعترف بها مع عدم إمكان رؤيتها بأية واسطة من الوسائط. ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطفّفين: الآية ١٤] .

دخل رجل من الزنادقة على أبي الحسن، علي بن موسى الرضا عليه السلام وهو الإمام الثامن وعنده جماعة، فقال أبو الحسن عليه السلام: «أيها الرجل، أرأيت إن كان القول قولكم، وليس هو كما تقولون، ألسنا وإياكم شرعاً سواء لا يضرنا ما صلينا وصمنا وزكينا وأقررنا. فسكت الرجل. ثم قال أبو الحسن عليه السلام: وإن كان القول قولنا، وهو قولنا، ألستم قد هلكتم ونجونا. فقال: رحمك الله. أوجدني كيف هو؟ وأين هو؟ فقال: ويلك، إن الذي ذهبت إليه غلط. هو أيّن الأين بلا أين وكيّف الكيف بلا كيف، فلا يعرف بالكيفوفية ولا بأينونية، ولا يدرك بحاسة ولا يقاس بشيء. فقال الرجل: فإذن، إنه لا شيء، إذا لم يدرك بحاسة من الحواس. فقال أبو الحسن عليه السلام: ويلك، لما عجزت حواسك عن إدراكه أنكرت ربوبيته، ونحن إذا عجزت حواسنا عن إدراكه أيقنا أنه ربنا بخلاف شيء من الأشياء. قال الرجل فأخبرني متى كان. قال أبو الحسن عليه السلام: «أخبرني متى لم يكن، فأخبرك متى كان». قال الرجل: فما الدليل عليه؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: «إني لما نظرت إلى جسدي ولم يمكني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه وجرَّ المنفعة إليه، علمت أن لهذا البنيان بانياً فأقررت به، مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته وإنشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المبينات، علمت أن لهذا مقدراً ومنشئاً»[(١)] .

ومن الواضح أنه لا يعرف الله تعالى أحد حق معرفته إلا هو. فقد جاء في الحديث: «سبحان من لا يعلم كيف هو إلا هو». إنه تعالى يقول: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: الآية ٥١] . فليس للبشر أن يعرف كيف خلق

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص٧٨، باب حدوث العالم وإثبات المحدث، ح٣.

الله السموات والأرض وكيف خلق هذه النفوس. وبطريق أولى يستحيل عليه أن يعرف الله تعالى معرفة كاملة. لذلك يقول رسول الله ﷺ: «سبحانك ما عرفناك حق معرفتك». ومعنى سبحانك: أي ننزهك ربَّنا عن كل نقص ومن كل عيب، فأنت الكامل الذي لا نقص فيه.

إذن كيف يجوز للناقص وهو هذا الإنسان أن يعرف ربه معرفة تامة. إلا أن هذا الإنسان الناقص، لو تكامل بتزكية نفسه وتطهير خلده وإتباع أوامر مولاه (وهو الله تعالى)، واجتناب ما نهى عنه، يتكامل شيئاً فشيئاً تكاملاً عيّن الله تعالى له حدود. فقد جاء في الحديث:

«أعلمكم بالله أخوفكم له».

فيزداد هذا الإنسان معرفة بالله تعالى حتى يكون مصداق هذا الحديث، حيث قال رسول الله ﷺ يوماً لعلي عليه السلام: «يا علي، لم يعرف الله إلا أنا وأنت، ولم يعرفني إلا الله وأنت، ولم يعرفك إلا الله وأنا». كيف لا يكون كذلك، وإن علياً عليه السلام كان يغمى عليه من خوف الله تعالى كل ليلة مرات. ولا شك أنه يراد من هذه المعرفة، أسمى مرتبة من معرفة يتمكن البشر من الوصول إليها بإذن الله تعالى. وأما المعرفة الحقيقية فمستحيلة. لقول علي عليه السلام: «لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن»[١]. ولقوله عليه السلام: «لا تناله الأوهام فتقدره، ولا تتوهمه الفطن فتتصوره»[٢] وقوله عليه السلام: «فلسنا نعلم كنه عظمتك إلا إنا نعلم أنك حي قيوم»[٣]. وقوله عليه السلام: «عظم من أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر»[٤].

قال رسول الله ﷺ: «إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار. وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم»[٥].

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص١٣٤، باب جوامع التوحيد.

(٢) بحار الأنوار: ج٤، ص٢٥٤، باب ٤.

(٣) نهج البلاغة: ص٢٢٤.

(٤) نهج البلاغة: ص٣٩٤.

(٥) بحار الأنوار: ج٦٦، ص٢٩١، باب ٣٧.

وقال موسى بن جعفر عليه السلام: وهو الإمام السابع من الأئمة الاثني عشر عليهم السلام: «إن الله أعلى وأجل وأعظم من أن يبلغ كنه صفته، فصِفوه بما وصف به نفسَه وكفُّوا عما سوى ذلك»[١].

وقال علي عليه السلام: «لم يطلع العقول على تحديد صفته، ولم يحجبها عن واجب معرفته»[٢]. لذلك نعرف الله ونوحّده بالفطرة، معرفة تتناسب مع إمكانياتنا.

وقال عليه السلام أيضاً: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه بحقائق الإيمان»[٣]. وقال عليه السلام: «فلا عين من لم يره، تنكره ولا قلب من أثبته يبصره»[٤].

أنى لهذا البشر العادي أن يعلم كيف هو خالقه، فإذا كان علي عليه السلام وهو أكمل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «كيف أصفه[٥] بالكيف وهو الذي كيَّف الكيف حتى صار كيفاً، فعرفت الكيف بما كيّف لنا من الكيف»[٦] فكيف بالآخرين. لاسيما أولئك الذين قيدوا أنفسهم بقيود من شهوات وبخل وحسد وكبر. فقد جاء في الحديث: «أصول الكفر ثلاثة: البخل والحسد والكبر».

فمهما أوتي الإنسان من علم وحكمة ليس له أن يصف الله تعالى حق الوصف، لأنه محدود في كل ما يفكر والمحدود لا يحيط بغير المحدود. والمحاط لا يحيط بمن يحيط به «سبحانه وتعالى عما يصفون». ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا أُحصي ثناءاً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

وقد قال علي عليه السلام: «وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة»[٧]. وقال عليه السلام أيضاً: «لا تقع

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص١٠٢، باب النهي عن الصفة.
(٢) نهج البلاغة: ص٨٧، خ٤٩.
(٣) بحار الأنوار: ج٤، ص٥٤، باب ٥.
(٤) بحار الأنوار: ج٤، ص٣٠٨، باب ٤.
(٥) أي كيف اصف الله تعالى.
(٦) أصول الكافي: ج١، ص١٠٣، باب النهي عن الصفة.
(٧) بحار الأنوار: ج٤، ص٢٤٧، باب ٤.

الأوهام على صفته»[1].

فمخلوقات الله خير دليل على وجود الله تعالى وهو القائل: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[فُصّلت: الآية ٥٣].

قال بعض العلماء: «المتفرد بالوجود هو الله سبحانه إذ ليس موجود معه سواه. فإن ما سواه أثر من آثار قدرته، لا قوام له بذاته، بل هو قائم به فلم يكن موجود معه. لأن المعية توجب المساواة في المرتبة والمساواة في المرتبة نقصان في الكمال. بل الكمال لمن لا نظير له في رتبته وكما أن إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصاً في الشمس بل هو من جملة كماله وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أُخرى تساويها في المرتبة، كذلك وجود العالم كله يرجع إلى إشراق أنوار القدرة فيكون تابعاً. إذن معنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال».

على أن في هذا التشبيه نظراً، يجب أن لا يفوت القارئ اللبيب، ذلك لأن الشمس بإشعاعها وإشراق ضوئها (أو نورها) تفقد طاقة، وليس الله تعالى كذلك، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١].

إن الله تعالى يقول: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٢٢]. ذلك لأن كل إله يريد ما لا يريده الآخر. وهذا مما يؤدي إلى الاختلاف والفساد فالنظم التي تربط الأرض بالسماء. وإن توافق الإلهان، فإن تأثير أحدهما كافٍ لإيجاد ووجود هذا الكون. فيمنع تأثير الآخر فيه مرة أخرى. مع ما هنالك من اتصال وثيق بين ما نراه من قوانين فيزيائية وفلكية في السماء والأرض تربط البعض بالآخر ربطاً وثيقاً لا يجعل مجالاً للشك بأن المرتب واحد لا شريك له؛

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النَّمل: الآيتان ٦٠/٦١]

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص١٢٤، باب تأويل الصمد.

وقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام في وصاياه: «واعلم يا بني، أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنّه إله واحد كما وصف نفسه، لا يضاده في ملكه أحد ولا يزول أبداً»[١].

وإن الله وهو الكامل على الإطلاق قد أخبر عن نفسه أنه واحد لا شريك له. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النّساء: الآية ١٢٢].

وقد ذكر الصدوق قدس سره في كتاب التوحيد أن «أعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، أتقول إن الله واحد؟ فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابي، أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسيم القلب؟ فقال أمير المؤمنين، دعوه، فإن الذي يريده هو الذي نريده من القوم».

ثم قال: يا أعرابي، إن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام: فوجهان منها لا يجوزان على الله عزَّ وجلَّ، ووجهان يثبتان فيه. فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد، يقصد به بابَ الأعداد. [فهذا لا يجوز. لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد،][٢] ألا ترى كفرَ من قال «ثالث ثلاثة».

وقول القائل: هو واحد الناس، يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لا يجوز عليه. لأنه تشبيهٌ، جلَّ ربنا عن ذلك وتعالى.

وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه: فقول القائل: «إنه واحد ليس له في الأشياء شبيه، كذلك ربنا... وقول القائل: إنه عزَّ وجلَّ أحديُّ المعنى، يعني به أنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهمٍ، كذلك ربنا عزَّ وجلَّ»[٣].

غريب أمر هذا الإنسان، كان فاقداً جميع ما عليه الآن من ملكات وقوى. ولولا أن الله تعالى منَّ عليه بهذا الفكر لكان حيواناً أو جماداً. فهو يفكر ويدبر بقدر ما أوتي من جانب الله تعالى من قوى.

---

(١) بحار الأنوار: ج٤، ص٣١٧، باب ٤.

(٢) ما بين المعقوفتين ليس في المصدر.

(٣) روضة الواعظين: ص٣٦.

فمن السخافة إن أراد الإنسان أن يعلم كيف أعطاه الله هذا المقدار من الفكر، وكيف هو علم الله، وكيف قدرته، وكيف يقول للشيء كن، فيكون... وهو لا يحمل إلا هذا الشيء القليل المحدود من الفكر بفضله تعالى. وإذا سلط الله على عقله جرثومة ضئيلة لأمسى مجنوناً ومهزلة للناس أجمعين. ألا إن الله يمهل ويؤخر هؤلاء المغرورين من الماديين المتحجِّرة عقولهم: (تلك العقول التي كانت مضيئة بالفطرة)، لظلمات في النفس، جاءتهم بسبب المعاصي الكثيرة، يؤخرهم: ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ[1] فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ[2] مُقْنِعِي[3] رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ[4] وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: الآيتان ٤٢/٤٣].

وهو القائل: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ[5] سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ[6] ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعَارج: الآيات ٤٢/٤٤].

يقول الإمام محمد الباقر، الإمام الخامس عليه السلام: «ما سمى (يعني الله تعالى) عالماً قادراً إلا لأنه وهب العلم للعلماء والقدرة للقادرين. وكلما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم»[7]. ومعنى ذلك أن هذا الإنسان الناقص يتصور تبارك وتعالى كمالاً يتناسب مع نقصه. لأن الناقص لا يترشح منه إلا شيء ناقص. كما أن الكامل وهو الله تعالى لا يترشح منه إلا الكمال. فكلما فكر الإنسان في الله تعالى لا يتجاوز تفكيره حدوداً معينة محدودة نقل عن الواقع مسافات لا تحدُّ. فأفكارنا بشأن عظمة الخالق، أفكار ناقصة مخلوقة من قِبلنا مردودة إلينا، لا توافق الواقع في شيء.

---

(١) تشخص: تفتح فيه الأبصار فلا تغمض هولاً وفزعاً.

(٢) مهطعين: مسرعين.

(٣) مقنعي: رافعيها إلى السماء.

(٤) طرفهم: أي لا تطرف أعينهم بل تبقى شاخصة.

(٥) الأجداث: القبور.

(٦) إلى نصب: إلى كل ما ينصب للعبادة. يوفضون: يسرعون.

(٧) بحار الأنوار: ج٦٦، ص٢٩٢، باب ٣٧.

وقال بعضهم: لعل النمل الصغار تتوهم أن الله تعالى زبانيين، لأنهما كمالها، وتتصور أن عدمهما نقصان. هكذا حال بعض الناس في وصف خالقهم!.

* * *

قد اختلف جماعة من اللاهوتيين والأخلاقيين والعقليين والماديين في ما هم عليه من عقائد ونزعات. فأحبوا أن يتحاكموا إلى (أينشتاين) ليروا رأيه في الله جلَّ جلاله. فأجاز لهم أن يمكثوا عنده ١٥ دقيقة لكثرة أشغاله. فعرضوا عليه سؤالهم قائلين: ما رأيك في الله؟

فأجاب قائلاً: «لو وفقت أن أكتشف آلة تمكنني من التكلم مع الميكروبات، فتكلمت مع ميكروب صغير واقف على رأس شعرة من شعرات رأس إنسان وسألته أين تجد نفسك؟ لقال لي: إني أرى نفسي على رأس شجرة شاهقة، أصلها ثابت وفرعها في السماء. عند ذلك أقول له: إن هذه الشعرة التي أنت على رأسها إنما هي شعرة من شعرات رأس إنسان، وإن الرأس عضو من أعضاء هذا الإنسان. ماذا تنظرون؟ هل لهذا الميكروب المتناهي في الصغر أن يتصور جسامة الإنسان وكبره؟ كلا، إني بالنسبة إلى الله تعالى لأقل وأحط من ذلك الميكروب بمقدار لا يتناهى. فأنى لي أن أحيط بالله الذي أحاط بكل شيء بقوى لا تتناهى وعظمة لا تحدّ».

فقام هؤلاء المتشاجرون من عند (أينشتاين) وعلموا أن الحق مع جماعة اللاهوتيين. إنه تعالى يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٣] . وفي آية أخرى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ [النساء: الآية ١٢٦] .

إن المادي هو مصداق هذه الآية المباركة: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ[1] ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات: الآيات ٦/٨].

* * *

ما أعظم ما يقوله الإمام علي ﷺ حين يصف عظمة الله تعالى بقوله: «الحمد لله

(١) كنود: كفور، يجحد نعمة الله.

الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعماءه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون. الذي لا يدركه بُعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس لصفته حدٌّ محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود»[1].

مالبرانش: (Malobranche) (١٦٣٨ ـ ١٧١٥) فيلسوف فرنسي موحّد. له نظريات في التوحيد، لا بأس بذكر البعض منها:

إنه يقول: نحن ننتقل من فكر إلى فكر، ومن تصور إلى آخر، ومن ممكن إلى ممكن، حتى ننتهي بوجود عظيم، ممتنع إدراكه تماماً لعظمته ويستحيل معرفته معرفة تامة لعدم تناهيه. ذلك لأن كل موجود من الموجودات (سواه) قائم به. أما هو، فمستغن عن أي مقوِّم. وهو قائم بذاته منذ الأزل. وهذا الوجود (أي الله تعالى) وجودٌ لا نهاية له.

إنه يقول: بما أني باستطاعتي أن أتصور وجوداً لانهائياً، إذن وجب أن يكون هذا الوجود موجوداً، لأنه لا يمكن تصور شيء معدوم[2]. إذن، ربنا غير متناه ولا يحدُّه شيء. ذلك لأني أستطيع أن أتصور اللانهائي بقدرته. فالله هو واجب الوجود.

إنه يقول: لا يمكن رؤية الله تعالى ولا فهمه حق الفهم ولا تفهيمه حق التفهيم. ويكفي في يقيننا أننا نؤمن بوجوده بآثاره.

إنه يقول: «نحن ندرك وجود الله بلا واسطة، حين أن الأشياء كلها (ما عدا الله تعالى) إنما تدرك به تعالى وبما أودعه الله من وسائط وأدوات. فلا حاجة لتجلِّي مفهوم الله تعالى في أذهاننا إلى واسطة أو أدوات. نحن لا نعرف الله بفكر وسيط. فإنه هو الفكر! وهو فكر الأفكار ومعطي الأفكار».

هذا ما يقوله مالبرانش: ولكن، انظروا إلى ما يقوله سيد الأوصياء أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذا المقام في دعاء الصباح حين يخاطب ربَّ العباد. إنه صلوات الله عليه يقول:

---

(١) نهج البلاغة: ص٣٩، خ١.

(٢) خلافاً لما يقوله (فورباخ) المادي، حيث جعل ما هو دليل وجود الله دليلاً على عدمه، لظلمات في نفسه. وقد سئل صديق لي عن الدليل على وجود الباري. فقال: «سؤالك هذا خير دليل على وجود الله».

«يا من دلَّ على ذاته وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته وجلَّ عن ملائمة كيفياته»[١].

على أن لـ (مالبرانش) في القضاء والقدر ومسائل أخرى نظريات لا تتفق مع الواقع وما جاء في الدين الإسلامي. وأنّى لفيلسوف لم يستق الحقائق من خزائن آل الرسول سلام الله عليهم أجمعين أن يصل إلى حقائق ثابتة غير متزلزلة.

إن (مالبرانش) يوافق صدر المتألِّهين صاحب الأسفار بقوله: «الوجود خير محض والشر أمر عدمي».

فطوبى لنفوس لازمت التقوى وجانبت الآثام وسفاسف الأمور حتى المكروهات فتجلت فيها الحقائق بفضل منه تعالى واضحة جلية، لا غبار عليها ولا شكوك، فعرجت إلى عوالم القدس والحقيقة الأبدية...

فقد قال علي عليه السلام: «إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه»[٢].

وطوبى لنفوس تطلعت إلى رحمات الله تعالى بإخلاص وخشوع وأعمال صالحة، فقد جاء في الحديث القدسي: «إن لربكم في أيام دهركم لنفحات، ألا فتعرَّضوا لها»[٣].

لا تقاس الناس بالمال ولا بالجاه ولا بعلم لا يعمل به. بل تقاس بدرجة معرفتها خالقها أو بدرجة تزكيتها نفوسها. ولا تزكو النفوس إلا بالتقوى. فتتعرف إلى الخالق سبحانه بدرجة ما تقوم به من تزكية. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣]. وفي الحديث: «رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به، لو أقسم على الله لأبرَّه».

* * *

إن مقياس الكمال عند الماديين هو: المادة!.. فمن كانت مادته من حيث المال والجاه أعظم، كان إلى الكمال أقرب. لذلك يخاطب (فرعون) قومه، هؤلاء الذين

---

(١) دعاء الصباح لأمير المؤمنين مفاتيح الجنان وباقي كتب الأدعية.

(٢) بحار الأنوار: ج٢، ص٥٦، باب ١١.

(٣) يُروى هذا الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله.

ما أثّرت فيهم دعوة موسى عليه السلام لفسقهم وفجورهم كما تخبرنا الآية الآتية: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: الآيات ٥١/٥٤].

حين أنه لا قيمة للدنيا ولا للمادة عند الله تعالى، في مجالات التكامل. فإن النفس غير المادة بل تضاد المادة. «الدنيا والآخرة ضرتان». إلا أن المادة تؤثر في الكمال النفسي إذا وقعت وسيلة خير وعطف ورفع حاجة الآخرين لوجه الله. وفي الحديث: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة لما سقى الكافر منها شربة ماء»(١). والكافر هو الجاحد لنعم الله، الذي لا يقوم بما أوجب الله عليه من واجب الشكر، من عبادات وأعمال صالحة. وهل هناك دين يعلّم البشر كيفية القيام بواجب الشكر كدين الإسلام. ولذلك عُدَّ غير المعتنق لدين الإسلام وغير العامل به كافراً. ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨٥].

يرى الأستاذ جب: «أن الإسلام ليس ديناً بالمعنى المجرد الخالص الذي نفهمه اليوم من هذه الكلمة. بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على أساس ديني ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية».

ويقرر الأستاذ (برج): أن فلسفة الإسلام الاجتماعية تقوم دائماً على وضع المصلحة العامة فوق المصلحة الفردية. وذلك على عكس أوروبا التي تزعم أنها مسيحية. ويقرر في موضع آخر أن مبدأ الإخاء الإنساني هو أساس فلسفة الأخلاق الاجتماعية في الإسلام. ولذلك يؤكد الأستاذ أن ليس هناك مجتمع آخر سجل له التاريخ من النجاح كما سجل للإسلام في توحيد الأجناس الإنسانية المختلفة مع التسوية بينهم في المكانة والعمل وتهيئة الفرص للنجاح في هذه الحياة. ويرى الأستاذ أن لابد لأوروبا أن تتعاون مع الإسلام في سبيل تقدمها الروحي والثقافي.

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٢٤٦، باب الرضا.

هل هناك تولد ذاتي

قد برهنت العلوم الطبيعية على أن ليس للبيئة أو الطبيعة أدنى أثر أو تأثير في خلق البشر أو الكائنات الحية، وإن الكائنات الحية برمّتها قد وجدت بالقدرة الإلهية المتجلية في فعالية النطفة والعوامل الوراثية (جينات Genes) والكروموزومات.

إن ثلة من الناس (ومع الأسف) كانوا يظنون أن البيئة هي الخلاقة لبعض الحشرات أو الحيوانات. وكانوا يعتقدون أنه لو وضعت لبنتان نديتان إحداهما فوق الأخرى، تتولد بعد مدة يسيرة عقارب كثيرة بينهما.

إن هذه العقيدة كانت سائدة من لدن عهد (أرسطو) إلى القرن السابع عشر. وإن بعض الناس لا يزالون يعتقدون أن الديدان والضفادع والعلق تولد من تلقاء أنفسها في اللحوم الفاسدة العفنة أو في المياه النتنة الآسنة. ويظن البعض أن البيئة هي الخالقة لهذه الكائنات الحية، وهذا ما يسمى بنظرية التولد الذاتي: (Generation spontanee).

كما أن البعض يظنون أن (الآميبات) أو الكائنات الحية ذات الخلية الواحدة والأسماك والقواقع وغيرها إنما تتولد في المياه بتأثير حرارة الشمس وضوئها ومواد أخرى موجودة في الماء. ودليلهم على ذلك أن السمكة لو أخرجت من الماء، فإنها تموت حالاً.

ولقد برهن العلم الحديث على أن البيئة ليست بخلاقة للحياة وإنما هي عامل مساعد للنمو واستمرار الحياة. فقد أثبت (ردي Redi) سنة ١٦٨٨م، بعد إجراء تجارب عدة عميقة. أن الديدان التي تتولد في اللحوم العفنة إنما تتولد من بويضات الذباب الموجودة في اللحوم، ولولا هذه البويضات لما وجد كائن حي.

كان يقول الطبيب البلجيكي (وان هلمونت van Helmont) قبل (٣٥٠) سنة: أنه لو ملئ كوز بالدقيق وسد فوهة الكوز بقماش بالٍ ملوث عتيق، فإن الفأرة تتولد في وسط ذلك الدقيق. وأن هذه الفأرة تأخذ بالتوالد بعد ذلك شيئاً فشيئاً.

إلا أن (ردي) فنَّد هذه النظرية: بأن جاء بدورق زجاجي ذي عنق ملتوٍ طويل، بعد أن

وضع فيه قطعة لحم، فعقم داخل الدورق وسد فوهته سداً محكماً. وجاء أيضاً بدورق آخر وضع فيه قطعة لحم ولم يسد فوهته، فرأى أن الديدان تتولد في اللحم الذي وضع في الدورق المفتوح فقط بسبب ما تضعه الذباب من بويضات على اللحم. وقد أجرى هذه التجربة مع لحوم مختلفة ومتنوعة فرأى أنه يتولد نوع واحد من الذباب مهما اختلفت اللحوم وتنوعت، وفي نوع واحد من اللحم تتولد أنواع مختلفة من الذباب لاختلاف البويضات التي تقع على ذلك اللحم من الخارج. فأثبت بهذه التجربة أن التوالد الذاتي فكرة سخيفة وأن التولد لا يكون إلا عن بويضة سابقة أو تلقيح سابق: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: الآية ٧٣] .

ثم إن (ليون هوك Leewen Hoek) اكتشف المجهر (Micro-scope) واكتشف بذلك الميكروبات (الجراثيم الحية) التي لا ترى بالعين المجردة. وضع (ليون هوك) قطرة ماء تحت مجهره فرأى أن الأحياء المجهرية (الابتدائيات ذات الخلية الواحدة) تسير في هذه القطرة يميناً ويساراً. فأدى ذلك إلى تنازل الماديين عن رأيهم السابق بالنسبة إلى تكوُّن الحيوانات والحشرات من البيئة أو بتأثير البيئة والمحيط. ولكنهم أخذوا يقولون بعد ذلك أن المكروبات والكائنات الحية تتولد من تلقاء أنفسها في المياه العفنة. ولقد حدث شجار عنيف بين الموحدين والماديين (Materialistes) منذ سنة ١٦٧٦م. وهي السنة التي أثبت فيها (ليون هوك) أن ليس في المطر (حين تحول البخار إلى سائل) كائنات حية، وإنما تدخل فيه كائنات حية حين هطوله وملاقاته (أي المطر) الأرض واختلاطه بالغبار والتراب. واستمرت إلى سنة١٨٧٦م وهي السنة التي أيد فيها تندال (Tyndall) نظرية هوك. حتى جاء (باستور) وبرهن بصورة قطعية، أن لا تولد ولا توالد إلا من كائنات حية سابقة وأن الكائنات الحية هي موجودات مستقلة تدخل في المطر من الخارج عند هطوله أو بعد سقوطه على الأرض وليس للبيئة أن تولد شيئاً حياً. ففنّدت نظرية التولد الذاتي تفنيداً قطعياً. مع ذلك، جاء (برتلو Berthelot) فادّعى أن الكائنات الحية (Bacteris) التي تحصل نتيجة تخمير العنب إنما هو أمر مادي وليس

هناك موجودات حية سابقة كانت سبباً لوجود هذه الكائنات الحية. وقال بالتكوّن الذاتي (Auto dynamisme) أو الحركة الذاتية. ولكن (باستور) قام بتجربة على أشجار العنب تشبه تجربته السابقة من حيث التعقيم ومنع تسرب كائنات حية من الخارج. فرأى أنه لا تحصل (باكتري) أو جراثيم للتخمير. وأن (الخلايا Cellules) التي توجب التخمير إنما تقع على حبات العنب من الخارج قبل النضج والحلوان بأيام وليس للبيئة أن تولد شيئاً حياً أبداً.

لكن الماديين مابرحوا ينتهزون الفرص لإثبات نظريتهم السقيمة. حتى إذا اكتشف المجهر الإلكتروني (Microscope Electroniqe) وتمكن العلماء من معاينة الجراثيم ما بعد الذرية (UItravirousses) التي كل واحدة منها أصغر من حبة الدخن (٧٠٠٠٠) أو مائة ألف مرة، أخذوا يقولون: «إن هذه الجراثيم إنما تتولد من المادة الميتة نفسها وليس هناك عامل حيوي أو موجود حي سابق تولدت منه وأن الأحياء المرشحة وما بعد المترشحة (Virous UItra virous) «إنما هي مواد كيميائية سامة وليست هناك حيوية سابقة». وتنازلوا عن القول بأن الفأرة تتولد من مادة ميتة! ولكنهم بقوا مصرّين على أن الحيوية إنما تأتي من الشمس على وجه الأرض وأن الأحياء المترشحة وما بعد المترشحة (الجراثيم ما بعد الذرية) هي مولودة المحيط والبيئة وأن البيئة (الجامدة الصماء) هي المولدة لها»!

إلا أن علماء الأحياء برهنوا على فساد هذه النظرية أيضاً بتجارب دقيقة أخرى، وأخفق الماديون إخفاقاً نهائياً، وعُلم أن كل كائن حي إنما يتولد من كائن حي آخر أو بانتقال النطفة بالتلقيح.

إذا كانت نظرية التولد الذاتي صحيحة وأن التفاعل الكيميائي وأشعة الشمس وذرات آلفا وكاما وأمواج كاسميك وما فوق البنفسجي وآزوت وبخار الماء وغيرها تكفي لحدوث الحياة على وجه الأرض دون خالق للحياة والحيوية لزم أن نرى رأس قرد مثلاً يتشكل في القفار والصحارى بصورة تدريجية، ثم تتشكل له ساق فأطراف وهكذا...

فعلم من كل ذلك أن ليس للبيئة أن تخلق كائناً حياً وأن الحيوية شيء قد جاء من

الخارج وليس بأمر مادي بحت. وأن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق الكائنات الحية وأعطاها نفساً وروحاً بقدرته ولا يمكن إدخال النفس والروح في المعادلات الكيميائية أو التحليلات الرياضية. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٥] .

وزيادة في التوضيح نقول: إنا لو ملأنا حوضاً كبيراً بالماء واتخذنا الاحتياطات اللازمة لعدم دخول بويضات السمك أو الضفدع فيه، فلا نشاهد، مهما نظرنا، سمكة أو ضفدعاً في ذلك الحوض وإن طالت الأعوام. مع أن الشمس على ما يعتقده الماديون. (إنها أساس الحياة وموجدها) تعمل عملها وترسل أشعتها. ولكنها غير خالقة للحياة، بل الشمس عامل من عوامل النمو واستمرار الحياة على هذا الترتيب الذي نراه.

إن الماديين، هذه الطبقة الجاحدة وجودَ الخالق! يحاولون أن يجعلوا العوامل الطبيعية المادية مبدءاً وسبباً للحيوية والحياة. إلا أن العلم يخالفهم في طيشهم وهذيانهم وضلالهم وهم ينسبون (مع الأسف) نظرياتهم الفاسدة! إلى العلم. والعلم من ذلك براء.

وكم من أشياء ينسبها هؤلاء إلى العلم ويدعون أنها نتيجة درس وتمحيص علمي والعلم بعيد عنها كل البعد. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحَجّ: الآية ٤٦] ويراد بها النفوس.

وما يقال عن تبديل الطاقة بالمادة (Materialisation) إنما هو في النواحي المادية فحسب. إن الطاقات المادية، الكهربائية أو الحرارية أو الحركية. وغيرها تتكدس فتشكل مادة، وهذا لا يعني أن هذه الطاقات المشعة مثلاً من الأورانيوم أو الراديوم تتكدس فتولد حيوية وروحاً ونفساً. وقد ثبت في الفسلجة أن الخلية (Cellule) إنما تتولد من خلية حية أخرى إذن ثبت أن الروح من أمره تعالى. ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٥] .

يستنتج مما تقدم أن المادة لا عقل لها كي ترتب وتنظم ولا منطق لها لتفكر في مستقبل الأشياء وما تحتاجه. وما أعظم قوله تعالى حين يقول:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النّحل: الآيتان ٧٨/ ٧٩].

وما القمر الصناعي إلا نتيجة فكر أودعه الله في بعض عباده ومواد وعناصر أودعها الله في أرضه وتوالي أيادي كثيرة من العلماء منذ ٤٠٠ سنة قبل الميلاد إلى يومنا هذا. وهل قوبل هذا الفوز والاكتشاف بالشكر؟ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سَبَإ: الآية ١٣].

ولقد قالوا: إن المثل العليا تابعة إلى ما يحدث من نظم اقتصادية وكذا الحياة الاجتماعية نتيجة من نتائج الوضع الاقتصادي!، وهكذا تسافلت البشرية نفسياً بسبب تركها ما أمر الله به على لسان أنبيائه ﷺ حتى صارت لا تؤمن إلا بالمادة وما يحقق شهواتها. فأمست فلسفتها فلسفة بهيمية، فلسفتها أن تقول: «لا تهمني أخلاق فلان وإنما تهمني أعماله». حتى أمست تعتقد أن هنالك تنافياً بين ركوب الطائرة أو الاستماع إلى المذياع أو النظر إلى التلفزيون[1]، وبين السمو بالنفس إلى أعلى مراتب الكمال حسب ما رسمه الله لنا في قرآنه الكريم.

حتى أمست أمريكا بلد الحرية الشخصية المطلقة! والبلد الذي نادت بفصل الفضائل والأخلاق عن الحياة العملية تفصل ٣٣ موظفاً في وزارة خارجيتها لإصابتهم بالشذوذ الجنسي! لأن هؤلاء لا يمكن ائتمانهم على أسرار الدولة!

حتى أمسى الولد الثري لا ينفق على أبويه العاجزين!

حتى أن جلسة من جلسات الكونكرس (Congress) الأمريكي تتعطل، لأن امرأة كانت تسكن في عمارة مواجهة للمجلس وقفت في شرفتها عارية تماماً، لا يستر جسدها شيء، فينشغل الأعضاء بفتنتها الشيطانية وتتعطل أعمال الدولة، ريثما يبعث رئيس المجلس يرجو، السيدة الفاضلة! تدخل غرفتها أو تكتسي شيئاً، ليتسنى للمجلس أن ينظر في سياسة العالم. حتى تأتي فتاة أمريكية إلى باريس فتنزع ثيابها كاملة وتضعها في حقيبة لها يدوية وتمشي وهي عارية في شوارع باريس لتُري الناس الدرجة التي وصلت إليها أمريكا في الحرية والتقدم الخلقي!

---

(١) في ما لا يثير الشهوات ويؤدي إلى تسافل النفس وترك ذكر الله تعالى من أغاني ومناظر.

كل ذلك بسبب هذا الاختلاط البريء! والانتهاء إلى فساد وإفساد في الأرض.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٧١].

فطوبى لنفوس اتبعت الحق والواقع وترفعت عن أدران المادة العمياء والملذات المميتة للنفوس واستجابت لله وللرسول لما فيه حياتها وسعادتها في الدارين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: الآية ٢٤].

* * *

تكاد لا تجد فيلسوفاً، درس الرياضيات العالية أو الفيزياء الرياضية العالية أو الفلك العالي وتوغل فيها، ملحداً ينكر وجود الخالق. فـ (بركسون) و (أينشتين) و (كاميل فلا مريون) وأمثالهم موحدون. ذلك لأنه عندما يرى أحدهم أن جميع أجزاء الكون مرتبطة بعضها ببعض بقوانين رياضية متقنة، وأن الرياضيات مفتاح فهم ظواهر الطبيعة، عند ذلك يعلم أنه لابد من عاقل قد ربط أجزاء هذا الكون بعضها ببعض. وأن هذا العاقل الجبار هو الله تعالى واهب الوجود ومرتب أجزاء هذا الوجود ترتيباً محكماً بقوانين رياضية رصينة لم يصل العلم الحديث إلا إلى جزء ضئيل وضئيل منها جداً.

لذلك كان يحاول (أينشتين) أن يستنبط من معادلة المجال المتواصل وحدها عموم الفيزياء بما فيها عالم الذرات والخصائص الكونية (Quantiques).

وكان يقول: «لولا الاعتقاد الجازم بالنظام الباطن الذي يسود عالمنا، لما قامت للعلم قائمة. فهذا الاعتقاد هو الدافع الرئيسي لكل اكتشاف علمي وسيبقى كذلك إلى الأبد».

وهو القائل: «ما من شك، أن كل بحث علمي عميق يقوم على عقيدة تشبه الشعور الديني، مؤداه أن العالم مبتنياً على العقل ومن الممكن تفهمه».

لكن الفلاسفة! الذين رسبوا كثيراً في الرياضيات في تحصيلهم الابتدائي والثانوي وفروا من الرياضيات العالية لعدم فهمهم لها، وإنما صاروا يذكرون اصطلاحات منها في كتبهم!، أخذوا يصدرون أحكاماً جزافاً عن الكون دون إرجاعها إلى أصول ثابتة

رياضية ومبادئ عقلية عميقة وسموا اعتباطاً نظرياتهم الفاسدة بل أهواءهم فلسفة؟ وجاؤا باصطلاحات جديدة لا يؤيدها العلم، فخدعوا العوام والسذج من الناس.

إن هؤلاء الذين لا يقبلون نقاشاً لهذيانهم، صاروا يأخذون الفلسفة من وسطها وبيد واحدة؛ إن هؤلاء، بنفوسهم الملوثة وصفاتهم المذمومة وما يترشح من هاتين، شوشوا على الناس الحقائق الفطرية الحقة وأفسدوا على ثلة من عباد الله عقائدهم بالمبدأ الأعلى. إنهم أخفقوا في النمو وكسب الشهرة والصيت في الأوساط العلمية، فعمدوا إلى ترويج الزيغ والإلحاد وما يترشح من نفوسهم المتسافلة: «وكل إناء بالذي فيه ينضح».

ـ القصور الذاتي ـ

القصور الذاتي أو الاستمرارية: (Inertie) موضوع معروف في الفيزياء، يعترف به الفيزيائيون، وهو أن الجسم لو كان ساكناً لبقي ساكناً على حالته الأصلية، فلا يتحرك من تلقاء نفسه إلا بمحرك آخر، ومع ذلك يحاول أن يبقى على حالته السابقة. لذلك لو كنت جالساً في قطار ساكناً، والقطار ساكن وتحرك القطار بسرعة، تأخر القسم الأعلى من بدنك في متابعة حركة القطار عن القسم الملتصق بسطح القطار. كل ذلك ليحافظ على سكونه أي على حالته السابقة. فإذا استمر القطار في حركته أخذ بدنك يتحرك مع القطار. فإن وقف القطار فجأة، فإن القسم الأعلى من بدنك ليحافظ على حالته السابقة (أي الحركة)، فيتحرك قليلاً إلى الأمام عند وقوف القطار فجأة.

مثال آخر إنا لو وضعنا فوق إناء (كأس) قطعة من المقوى (الورق السميك) ووضعنا على المقوى درهماً مثلاً، وسحبنا المقوى بسرعة نرى أن الدرهم لا يتابع الحركة الفجائية بل يحاول أن يحافظ على حالته السابقة أي على سكونه فيسقط في الإناء.

كان الأتراك يسمون القصور الذاتي بـ (العطالة). ذلك لأن كل جسم في ذاته عاطل لا يقوى على تغيير في ذاته، فالساكن ساكن إلى أن يحركه غيره والمتحرك يبقى على تحركه وعلى نفس السرعة التي يتحرك بها إلى أن تتدخل قوة، فتزيد من سرعته أو تنقصها. فالشيء بذاته عاطل لا يؤثر في نفسه كرجل عاطل لا خير فيه. ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ

ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٦] .

يقول زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في دعاء علّمه أبا حمزة الثمالي، «ومن أين لي الخير يا رب ولا يوجد إلا من عندك، ومن أين لي النجاة ولا تستطاع إلا بك، لا الذي أحسن استغنى عن عونك ورحمتك، ولا الذي أساء واجترأ عليك خرج عن قدرتك»[1] .

فالأشياء جميعها فيها قصور ذاتي، فلا تتمكن من أن تؤثر في نفسها. بل تبقى عاطلة أو محافظة على ما هي عليه من حالة سابقة، سكون أو حركة. فإذا كان علم الفيزياء يعترف بذلك، فما بال من يتصور للنبات والحيوان حركة تكاملية ذاتية من تلقاء نفسها! وأنها هي التي تكمل أعضاءها بنفسها أو تتكامل من آميبا حتى يكون قرداً! مثلاً مع اعترافه عند دراسته الفيزياء بالقصور الذاتي. ثم إذا كان الآميبا قد تكامل (ولا مؤثر ولا مكمل إلا الله) فصار دجاجة فما بال الآميبا نراه موجوداً ليومنا هذا مع اتحاد الظروف. ومن الذي أوجد الظروف وكيف وجدت، ومن جاء باختلاف الظروف. ومن الموجد لهذا الاختلاف؟

وإذا كان الإنسان (مع اعترافهم أن فيه عقلاً لا يدري كيف جهز به) هو نتيجة تكامل القرد، فما بال القرد موجود ليومنا هذا مع اتحاد الظروف، على أنهم يقولون: إن هناك حلقة مفقودة بين القرد والإنسان يجهلها العلم. فكيف تبنى النظرية على الجهل! وقد ثبت أن لا أثر للمحيط في إيجاد عضو ما.

وغني عن البيان أن محو الذنب عمل جبار لا يقوى عليه الإنسان العبقري، فكيف بهذا القرد الذي لا يتمكن من دفع أقل مكروه عن نفسه. ولما لم يجهز القرد نفسه بوسائل من الدفاع إذا كان يستطيع أن يخلق أعضاء ويغير أعضاء ويحذف أعضاء. ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفُرقان: الآية ٤٣] .

وأما ما يقال عن الطفرة (Mutation)، فإن مؤهلاتها وموجباتها وإمكانياتها إنما جاءت من الخارج. ثم إن كانت هذه الطفرة هي من تلقاء الكائن الحي، فلمَ لا يغير

---

(١) دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام زين العابدين عليه السلام يراجع كتب الأدعية.

هذا الكائن الحي في جسمه ما يزيل به عنه حاجاته، ولِمَ لا يجهز نفسه بأعضاء يقوى بواسطتها على النظر والسماع... الخ، أكثر مما هي عليه الآن كي لا يحتاج إلى صنع آلات يستعين بها في إبصار ما لا يبصر بعينه المجردة، كالتلسكوب والميكروسكوب... الخ. إن الله تعالى يقول: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النَّحل: الآيتان ٦٨/ ٦٩].

ولكن الإجرام والمظالم تسد على الإنسان أبواب الاعتبار بآيات الله والتدبر والتفكر، فيعزو الخوارق إلى الطبيعة العمياء الصماء: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: الآية ٢١] .

فالظالم هو الذي سد على هذا البشر المجرم الباغي آفاق الاهتداء، فصار يفتري على الله الكذب ويكذب بآياته وكتبه ورسله. فلينته عن إجرامه مَن يشك، أن ترك الإجرام وأن الإنابة والاستغفار والأعمال الصالحة تفتح على الإنسان أبواب الهداية، ليرى كيف تتقشع عنه الشكوك، فيعود الإيمان الفطري إليه وتطمئن نفسه بما أنزل الله من آيات. ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: الآية ٢٨] .

* * *

عرفت رجلاً قد لوث نفسه في صباه وفي شبابه وفي شيخوخته، ولم يوفق إلى التكفير عن الذنوب ولا إلى توبة ما. إنه لم يدع منكراً إلا وقد ارتكبه.

كان مجموعة ظلم وبغي وجشع، فصرت أتبّع حياته، وإذا به أمسى جرثومة فساد، ينكر وجود الباري جلَّ جلاله، ويستدل على ذلك بأدلته الواهية! ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الرُّوم: الآية ١٠] . ولكن الله أراد أن يعذبه في الدنيا (ولعذاب الآخرة أشد). فحكم عليه بالإعدام، فطلب وهو في السجن مصحفاً يتبرك به ويجعله شفيعاً لينجو من العقاب، ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: الآية ٩١] ، ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ

ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النِّساء: الآيتان ١٧/١٨].

أعدم هذا الطاغي وقد شوهد وجهه على المغتسل مسوداً كريهاً بعد أن كان أبيض نــاصــعــاً. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٠].

وكم شوهد من أشخاص حالة الاحتضار اسودت وجوههم بسبب أعمالهم في الدنيا وما يحملونه من عقائد فاسدة، وكم شوهد أشخاص ابيضّت وجوههم حالة الاحتضار، ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم﴾ [الحَديد: الآية ١٢]. وفي الحديث: «الناس قيام فإذا ماتوا انتبهوا».

فالفيلسوف أو المتتبع هو ذلك الذي يعقب بدقة حالات بعض الناس وأعمالهم من خير وشر دونما تجسس، يتتبع ذلك في أدوار الحياة المختلفة ليرى كيف أن الجرائم والموبقات والنزوات تؤدي إلى انسحاب الفطرة وزوال العقيدة فالإلحاد، فالزندقة.

ولقائل أن يقول: لو بلغ هذا الفيلسوف مرتبة من التسافل وضَعة في النفس حتى أمسى في نظره المنكر معروفاً والمعروف منكراً، لا يستطيع إذ ذاك، القيام بهذه التجربة كي يوفَق بين عقيدة الإنسان وسلوكه!. لأنه قد بلغ حداً من التردي حتى ضاعت لديه الموازين، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [التين: الآيتان ٥/ ٦].

نعم، قد يبلغ بالشخص التسافل مرتبة لا يشعر معها بما هو فيه من تردٍّ مرير. فيأتي دور الاستهزاء بمن لا يوافقه في سلوكه وهذيانه! فيصمه بالخرافة والرجعية والجهل!.

أسفاً على بعض أفراد هذا البشر حين يسمى أحدهم المعارف الإلهية والتدبر في آيات الله الكونية جهلاً وخرافة!!

إنها لعمري فلسفة شيطانية! فلسفة رجعية! ترجع بالفرد إلى جاهلية الجهلاء. فيظن، بل يوقن قد بلغ من التفكير والوصول إلى الواقع مرتبة لا تقبل الرد والنقاش! ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢].

معالجة الشكوك

لا يخلو شخص من شك في حياته عدا الأنبياء والمعصومين ﷺ. وما جاء في القرآن من آيات بهذا الشأن ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: الآية ٩٤] إنما هو إزدياد اليقين وتنبيه الآخرين. ذلك لأنه ليس هناك أحد عدا المعصومين ﷺ إلا وقد أذنب في حياته ذنوباً، من غيبة أو نميمة أو كذب أو بهتان أو افتراء أو ازدراء لأخيه المؤمن أو كبر أو حسد أو بخل أو لهو أو فسق أو أكل مال الغير أو الربا أو غير ذلك. وإن هذه الذنوب لها أثرها الفعال في تحريف النفس الإنسانية عن الفطرة. وإن الشيطان أيضاً لعامل مهم في هذا المضمار. يملي على الإنسان، إن سيطر عليه بسبب ذنوب اقترفها، أنواع الريب والشكوك. وقد قال الله تعالى عنه، ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء: الآية ١١٩]. وفي موضع آخر، ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: الآيتان ٣٩/ ٤٠]. فمن خالف الشيطان في إغواءاته اهتدى ومن وافقه هلك، ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٠]. إلا أن المادي لا يعترف بوجود الشيطان مع اعترافه بأشياء كثيرة لا ترى بالحواس كالأمواج الهرتزية والإلكترون على ما هنالك. وكذلك لا يعترف المادي بوجود الجن وما هو غير مادي، مع اعترافه بقوة الجاذبية والكهربائية والعقل الإنساني!.

لقد قال لي صديق وكان ممن يحرص على الدين ويتوجه إلى الحق «إن من الأدلة القطعية على أحقية ما أنا فيه من عقيدة إسلامية ومبدأ صحيح، ما يعتريني من شكوك من حين لآخر». كان يقول، «إني أشك في معتقداتي في وجود الحجة القائم المهدي عجل الله فرجه، أشك في النبوّات إلى ما هنالك، فيصيبني حزن وانقباض عميقين وأشعر بكآبة لا أستطيع وصفها. وأعلم إذ ذاك أن شيطاناً يريد أن يغويني ويزيل عني ما أنا فيه من حسن العقيدة والمبدأ. فأستغفر الله من ذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها، أدعو الله بفنون الدعوات، أتصدّق وأصلي وأصل رحمي وأقوم ببعض الأعمال

الصالحة وإذا بالشكوك تنكشف وتزول ويصيبني بعد ذلك فرح وابتهاج عميق. . كان يقول هل رأيت أحداً من أهل الباطل أصابه شك في ما يعتقد. ذلك لأن الشيطان يرتضي له ذلك ويؤيد له ما هو فيه. كان يقول: إني عاشرت أصحاب عقائد فاسدة، وسبرت أعمالهم فعلمت أن أعمالهم تلك، هي التي أوصلتهم إلى هذه العقائد المنحرفة عن الحق، وكنت أرى أنه لا يصيبهم شك في ما يعتقدون من عقائد منحرفة عن الحق، ما داموا لم يزكُّوا أنفسهم وما داموا ملوثين. وقد ترى شخصاً يحمل عقيدة صحيحة وعمله عمل لا يتفق وما أمر به الشرع، فهذا لا يخلو من حالتين. إما له أعمال صالحة سرية لا نعلمها تربو على عمله الفاسد، ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: الآية ١٠٢] . وإما هو سائر نحو الظلمات بعد قليل ومآله الخسران. على أن هناك أيضاً عوامل أخرى ضمن رحمة الله وعدالته وعظيم فضله، لا نعلمها».

لا أعلم، هل قام علماء (آثار) النفس بهذه التجربة الروحية الخطيرة؟ كل فرد من أفراد الإنسان يصيبه في حياته شك أو شكوك، ذلك لأنه لا يبقى على حالة واحدة من التقوى والورع واجتناب المعاصي. فهو في شبابه غير ما هو عليه في وقت آخر. وقد يكون في شيخوخته منحرفاً عن الحق وفي شبابه متوجهاً إلى الحق. ولكن قلَّ من يفكر في الأسباب فيعالج نفسه معالجة تؤدي به إلى النجاة والزلفى.

نعم، لا منجى لأحد من شك أو شكوك، قليلة أو كثيرة. تتوارد هذه الشكوك برهة ثم تختفي إذا عقب هذه الشكوك استغفار وعبادات وأعمال صالحة. فإذا طهرت هذه النفس بما يطهرها من مأكل حلال طيب وأداء للحقوق من زكاة وخمس وإنفاق، وصلاة مقبولة والتجهد جوف الليل والتضرع والبكاء ندماً على الذنوب، وبرِّ الوالدين وصلة الرحم وقضاء حوائج المؤمنين والإستغفار والتسبيح وذكر الله تعالى في كل حال، يقوى عند ذلك الإيمان، فلا يزحزحه شيء ويبلغ من اليقين مرتبة لا تؤثر فيه تسويلات الشياطين من الجن والإنس ووساوسهم. لذلك، يقول الإمام علي عليه السلام «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً»[١].

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٠، ص١٥٣، باب ٩٣

فلا ينبغي أن يرتبك الشخص عندما يختلج في نفسه بعض الشكوك. بل عليه أن يبادر حالاً إلى تطهير نفسه والتكفير عن ذنوبه. عليه أن يفتش عن نفسه وعن أعماله في ذلك اليوم أو في ذلك الأسبوع أو الشهر، أو السنة. هل كان ظالماً لأحد؟ هل اغتاب أحداً. هل كان عاقاً[١] لوالديه. عليه أن يعالج ما أعوج من سلوكه الديني. فإذا فعل ذلك يرى جلياً أن ما اعتراه من شكوك ينقشع رويداً رويداً.

إن طريق الحق واحد وطرق الباطل متعددة، وقد أراد رسول الله ﷺ ذات يوم أن يفهم أصحابه ذلك. فخطَّ لأصحابه خطاً وقال: «هذا سبيل الله». ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله. فقال: «هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه». ثم تلا قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٣].

ولما كانت النفس ميالة إلى الشهوات وإلى الباطل، لذلك كانت طرق الشيطان موافقة لميول النفس ومتعددة ومفتوحة. فما على الإنسان إلا أن يعرض ما يختلج في ذهنه على كتاب الله وسنة نبيه وأقوال الأئمة المعصومين ﷺ، ويتذكر عظيم حق الله وجزيل ثوابه وشديد عقابه. ويتذكر أن الصبر على هذه الوساوس أسهل من الصبر على نار جهنم. ويتضرع إلى الله تبارك وتعالى في أن ينجيه من هذه الوساوس بأعمال صالحة ويوفقه إلى إنجازها ويكثر الذهاب إلى بيوت الله (المساجد) ومراقد أهل البيت ﷺ، ويكثر من ذكر الله، لأن ترك الذكر يؤدي إلى وسوسة الشيطان على حدّ قوله تعالى ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: الآية ٣٦].

وقد جاء في حديث عن الرسول ﷺ: «إن الله ليبغض العبد الفارغ»[٢]. ذلك لأن الشاب إذا فرغ من عمل مفيد تسلّط عليه شيطانه، فأوقعه في المهالك. وما أكثر ذلك:

إن الشباب والفراغ والجدة   مفسدة للمرء أي مفسدة

فلو اجتمع شبان كل حيّ في محل كل ليلة أو ليلة واحدة في الأسبوع على الأقل واستمعوا إلى مواعظ وإرشادات دينية تثلج الصدور وتبعث الإطمئنان إلى النفوس لرأوا

---

(١) عق الولد والده: عصاه وترك الشفقة عليه والإحسان إليه واستخف به.

(٢) عوالي اللآلي: ج٣، ص٢٠١.

أنفسهم في عالم قدسي جديد. وقد شاهدت أمثال هذه الاجتماعات في بعض المدن الإسلامية، فيها تهذيب النفوس وتطهيرها من براثن الضلال. ورأيت المداومين فيها يزدادون نوراً وإيماناً يوماً بعد يوم. كما أنه يجب تأسيس نوادٍ دينية، يداوم فيها الشبان. يتلقون فيها دروساً دينية، يصلُّون فيها أوقات الصلاة ويطالعون فيها صحفاً دينية، ويقومون في نفس الوقت بخدمات دينية ويكونون دعاة لبثّ حقائق الإسلام.

كيف تزول الوساوس

أولاً: بسدّ الأبواب العظيمة للشيطان في القلب وهي الشهوة والغضب والحرص والحسد والعداوة والعُجب والحقد والكبر والطمع والبخل والجبن وحب الدنيا وحطامها الزائل وحب التزيُّن بالثياب الفاخرة وخوف الفقر والتعصب لغير الحق وسوء الظن بالله وبالناس. فإذا سدَّت هذه الأبواب لم يجد الشيطان باباً منه إلى النفس الإنسانية.

ثانياً: تحلية النفس بأضداد ما ذكر، أي بكرائم الأخلاق وفضائل الصفات وملازمة التقوى والورع والاشتغال بالعبادة والمواظبة عليها.

ثالثاً: كثرة ذكر الله بالقلب واللسان فإن الذكر اللساني وحده لا يكفي في إزالة وساوس العدو الأكبر وهو الشيطان. ألا ترى أن الشيطان يهجم على الإنسان حين اشتغاله بصلاة يصليها لربه، فإن الشيطان يعمل بجد ونشاط كبير لإغواء الإنسان وصرفه عن مناجاة ربه بقلبه. ولكن إذا طهر القلب من الأخلاق المذمومة أي إذا تخلى القلب عن الرذائل وتحلى بالفضائل ووافق الذكر القلبي الذكر اللساني وطرد الشيطان إذ ذاك. فلا مدخل له ولا مجال. ولا مؤاخذة على مجرد ما يخطر في قلب الإنسان من وساوس، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله هلكتُ. فقال له: هل أتاك الخبيث، فقال لك: من خلَقك، فقلتَ: الله تعالى. فقال لك: الله من خَلقه؟»... فقال له الرجل: «إي والذي بعثك بالحق، لكان كذا». فقال: رسول الله ﷺ: «ذاك والله محض الإيمان»[1].

وفي حديث آخر! أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، نافقت، فقال

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٤٢٥، باب الوسوسة.

رسول الله: «والله ما نافقت! ولو نافقت ما أتيتني تُعلمني ما الذي رابك؟... أظن أن العدو الحاضر أتاك، فقال لك: مَن خلقك!... فقلت: الله تعالى خلقني... فقال لك: مَن خلق الله؟

فقال[1]: إي والذي بعثك بالحق، لكان كذا.. فقال إن الشيطان أتاكم من قبل الأعمال، فلم يقوَ عليكم، فأتاكم من هذا الوجه لكي يستزلكم. فإذا كان كذلك، فليذكر أحدكم الله وحدَه»[2].

وسئل الإمام الصادق عليه السلام عن الوسوسة وإن كثرت، فقال: «لا شيء فيها. تقول: لا إله إلا الله». وعن جميل بن دراج، قال قلت للصادق عليه السلام: أنه يقع في قلبي أمر عظيم... فقال: «قل لا إله إلا الله» قال جميل: فكلما وقع في قلبي، قلت لا إله إلا الله... فيذهب عني[3].

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «وضع عن أمتي تسع خصال، الخطأ والنسيان وما لا يعلمونه وما لا يطيقونه، وما اضطروا إليه وما استكرهوا عليه والطيرة والوسوسة في التفكر في الخلق، والحسد مالم يظهر بلسان أو يد»[4].

وإن الإنسان ليؤاخذ حتماً على أعمال القلوب من كبر وعُجب ورياء ونفاق. لما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنما يحشر الناس على نياتهم». وقد روي عن الإمام محمد ابن علي الباقر عليه السلام: «إن الله تعالى جعل لآدم في ذريته من همَّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة. ومن همَّ بحسنة وعملها كتبت له عشر (حسنات)، ومن همَّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه سيئة ومن همَّ بها وعملها كتبت عليه سيئة»[5].

وهكذا يتجلّى فضل الله ورحمته مع عباده المحسنين والمسيئين. وما أعظم قوله تعالى حين يقول: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠﴾ [الذاريات: الآية ٥٠].

---

(١) أي الرجل.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٤٢٥، باب الوسوسة.

(٣) أصول الكافي: ج٢، ص٤٢٥، باب الوسوسة.

(٤) أصول الكافي: ج٢، ص٤٦٣، باب ما رفع عن الأمة.

(٥) أصول الكافي، ج٢، ص٤٢٨، باب من يهم بالحسنة.

ويفيد في إزالة الشكوك عدا القيام بملاقاة ما اجترحت الأيدي من معاصٍ وآثام لاسيما إرجاع حقوق الناس إليهم، ما يلي:

(١) قراءة سورة الناس (قل أعوذ برب الناس)، كثيراً. حتى في الطريق حال المشي.

(٢) أن يقول لآ إله إلا الله كثيراً، حتى محل عمله حين يفرغ من مراجعة الناس أو الكتابة.

(٣) تلاوة سورة الإخلاص: (قل هو الله أحد) كثيراً. فإن الملائكة قد شيعت جنازة سعد بن معاذ (رضوان الله عليه) ومشى رسول الله خلف جنازته حافياً وأدخله قبره بيده المباركة، لأنه كان يواظب على تلاوة سورة الإخلاص ليل نهار.

(٤) أن يقرأ كثيراً لاسيما في القنوت: «يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا مقلّب القلوب، ثبت قلبي على دينك».

(٥) أن يقول عند عروض الشك: «هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم».

(٦) وقد روي عن الصادق عليه السلام: يمسح الشخص بيده على صدره، ثم يقول: «بسم الله وبالله، محمد رسول الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اللهم امحُ عني ما أجده» ثم تمسح بيدك على بطنك وتقول ذلك ثلاث مرات[١].

(٧) ويفيد في إزالة الشكوك والوساوس الشيطانية أيضاً: غسل الرأس بماء السدر وشرب ماء نيسان والصوم ثلاثة أيام من كل شهر، أول خميس من الشهر وأخر خميس منه ويوم الأربعاء المصادف أواسط الشهر.

(٨) المواظبة على صلاة الليل (التهجد).

هذه تعاليم روحية ليس لمن لم يمارسها أن يشك في صحتها ويرتاب. وما عليه إلا أن يقوم بالتجربة حتى يرى اثر ذلك جلياً ولا توفيق إلا بالله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: الآية ١٢٨].

أثر الذنوب في اتجاه النفس

ما من شيء يبعّد الإنسان عن الاعتقاد بالله وكتبه ورسله ويجعله يمقت الدين

(١) بحار الأنوار: ج٩٢، ص٩٨، باب ٨٢.

والمتدينين ويزدريهم كالكبائر من الذنوب! . . فإن هناك علاقة متينة بين اتجاه النفس نحو الحق والواقع وبين طهارتها وخلوها عن المعاصي والآثام كما أن هناك رابطة قوية بين توجه النفس نحو العقائد السخيفة والإلحاد والزندقة، وتوغلها في كبائر الذنوب والآثام.

وإن هذا الموضوع من أهم المواضيع التي يجب على علماء النفس أو بالأحرى علماء آثار النفس أن يبحثوا عنها ويرسموا لها خطوطاً بيانية ومنحنيات تقريبية! فإن الإيمان يتغير حسب كثرة الآثام. وقلتها بنسب لا يعلمها إلا الله.

إن الفيزيائي يرى علاقة متينة بين التعجيل الأرضي وزمن السقوط والمسافة التي يقطعها الجسم الساقط في زمن ما:

$$م = \frac{١}{٢} \text{حـ} \; ٢٠$$

وهكذا هناك علاقة متينة بين طول الرقاص والتعجيل الأرضي وزمن الذبذبة الواحدة للرقاص (في الفيزياء):

$$ن = ٢ \; ط \sqrt{\frac{ل}{\text{حـ}}}$$

ولكن العلاقة بين توجه نفس الإنسان نحو خالقها وبين ما تقوم به هذه النفس من جرائم وموبقات لهي أقوى من العلاقات الفيزيائية أو الكيميائية بدرجة لا تقاس. قال الإمام علي عليه السلام: «من اقترف ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً». فإذا انسحب العقل الطبيعي تدخّل الشيطان فسوّل لصاحبه ما يريد من موبقات وعقائد باطلة. فقد جاء في الحديث: «العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان»[(١)]. ويقصد العقل الفطري، ذلك العقل الذي لم ينسحب بسبب الذنوب والآثام.

وجاء في ما قال الصادق عليه السلام بهذا الشأن: «إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل وإن العمل السيّء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم»[(٢)].

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص١١، كتاب العقل والجهل.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٢٧٢، باب الذنوب.

وقال الباقرعليه السلام: «ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة. إن القلب ليواقع الخطيئة. فما تزال به حتى تغلب عليه، فصير أعلاه أسفله»(١). ويراد بالقلب هنا: نفس الإنسان. فالذنب حجاب بين العبد والمعبود.

وبسبب ذلك كله، يقوم المستعمرون وأعداء الإسلام بإدخال وسائل الفجور والفسوق ونشر الخمور والربا والفواحش والميسر ومجالس اللهو واللعب والرقص وغيرها في البلدان الإسلامية بأي ثمن كان، بالصحافة والإذاعة ودور السينما والملاهي والتلفزيون إلى ما هنالك... فينكب الشباب وغيرهم باسم الحرية على ارتكاب هذه الموبقات والمدنَّسات، فتتدنس نفوسهم وتظلم قلوبهم. فينسحب منها الإيمان الفطري رويداً رويداً ويأتي دور الاستخفاف والازدراء تحت عنوان الثقافة! والثقافة من كل ذلك بعيدة غاية البعد.

ولذلك يعمل علماء الدين أيدهم الله تعالى في إبعاد وسائل اللهو واللعب وما من شأنه تلويث النفس من موبقات وملهيات عن المساجد والمشاهد، حفظاً للنفوس من أن تتدهور إلى أسفل سافلين، فإن للبيئة أثرها الفعال في توجيه النفس. لذلك يقول الله تعالى:

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ١٠] فعلى المؤمن أن يهاجر إلى حيث يتمكن من إقامة شعائر دينه ويصبر على العناء لينال أجراً بغير حساب. ذلك لأن الإنسان إنما خلق ليتكامل. ولا تكامل إلا بتطهير النفس ولا تطهر النفس إلا بالعبادة (بما فيها من أعمال صالحة والقيام بالإحسان إلى الغير) وبإقامة الشعائر الدينية. فوجب إذن أن يبذل المؤمن النفس والنفيس حتى يجد محلاً يتمكن فيه من إقامة شعائر دينه. ومن هنا وجب حفظ الأوطان وصيانة الثغور ما دامت هذه الأوطان تقام فيها الشعائر الدينية. فإن لم يتمكن من إقامة الشعائر الدينيّة فما عليه إلا أن يهاجر إلى حيث يتمكن فيه من إقامة الشعائر كما هاجر النبيﷺ من مكة إلى المدينة. وهاجر قسم من المسلمين من مكة إلى الحبشة.

ونحن نذكر هاهنا بعض كبائر الذنوب وبعض الحدود ليكون المسلم على علم

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٢٦٨، باب الذنوب.

منها فيتجنّبها، ويتوب من أغواه الشيطان فارتكب البعض منها. فقد جاء في الحديث: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

ويحسن بالمسلم إذا أراد النوم أن يقول ثلاث مرات: «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه». ويواظب عليه، فإنه يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

ومن الكبائر ما يلي:

(١) الكفر بالله. وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٧].

(٢) اليأس من رحمة الله وروحه.. قد قال تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: الآية ٨٧].

(٣) الكذب على الله أو على رسوله أو على أوصيائه ﷺ: وقد قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: الآية ٦٠].

(٤) قتل النفس التي حرمها الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: الآية ٩٣].

(٥) عقوق الوالدين[1]: إذ قال تعالى في كتابه المجيد عن عيسى عليه السلام ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: الآية ٣٢]. فالعاق هو الجبار الشقي. وقد قال تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ [إبراهيم: الآيتان ١٥/ ١٦][2].

(٦) أكل الربا: «درهم ربا عند الله أشد من سبعين زنية كلها بذات محرم» كما جاء في الحديث. وقد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٧٥].

---

(١) الإساءة إليهما وعدم الإحسان إليهما.

(٢) هو الصديد الذي ينزل من جلود أهل النار.

(٧) ترك الصلاة. إذ قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدّثر: الآيتان ٤٢/ ٤٣].

(٨) الزنى وحدُّه مائة جلدة للمرة الأولى، وكذا مئة جلدة للمرة الثانية وفي المرة الثالثة: القتل. هذا في غير المحصَن (غير المتزوِّج). إذ قال تعالى: ﴿وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا[(١)] ﴿٦٩﴾﴾ [الفُرْقان: الآيتان ١٦/ ١٧]. وأما في المحصن فحدُّه الرجم للمرة الأولى.

(٩) اللواط: وحدُّه أحد أمور يتخير ولي الأمر (الحاكم) فيها. وهي إما القتل أو الرجم أو إلقاؤه من شاهق تنكسر عظامه أو إحراقه بالنار. وهكذا يعاقب المفعول به أيضاً إن كان بالغاً مختاراً، وإن كان صغيراً عُزّر.

وقد جاء عن النبي ﷺ: «إن من قبَّل غلاماً بشهوة لعنته ملائكة السماء وملائكة الأرض وملائكة الرحمة وملائكة الغضب وأعدَّ له جهنم وساءت مصيراً»[(٢)].

(١٠) شرب الخمر والفقاع وكل ما كان مسكراً؛ إذ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: الآية ٩٠]. وحدُّه ثمانون جلدة عارياً على ظهره وكتفه ولو تكرر الحد ولم يرتدع قتل في الرابعة. ولو شربها مستحلاً فهو مرتدٌّ يجب قتله. ويستتاب بائع الخمر، فإن تاب، وإلا قتل.

(١١) إنكار ما أنزل الله تعالى.

(١٢) الأمن من مكر الله وبطشه.

(١٣) محاربة أولياء الله.

(١٤) معونة الظالمين والركون إليهم، إذ قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هُود: الآية ١١٣].

---

(١) إذا تاب بينه وبين ربه فقد تاب الله عليه. مع العزم على عدم العود أبداً والندم العميق على ما كان منه. ويجلد (القواد) خمساً وسبعين جلدة ويحلق رأسه ويشهر وينفى ويثبت بشاهدين عدلين أو بالإقرار مرتين. وأما السحق أو المساحقة فتجلد كل من الفاعلة والمفعولة مائة جلدة ولا يبعد الرجم مع الإحصان (أي بأن تكون ذات بعل).

(٢) مستدرك الوسائل: ج١٤، ص٣٥١، باب ١٨.

(١٥) قطيعة الرحم، إذ قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمَّد: الآية ٢٢].

(١٦) الفرار من الزحف في الجهاد أو الدفاع الواجب. والزحف هو السير نحو العدو. إذ قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال: الآية ١٦].

(١٧) شهادة الزور.

(١٨) كتمان الشهادة، إذ قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٣]

(١٩) السحر ويليه تسخير الجنّ والأرواح والكواكب، إذ قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ[1] ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: الآيتان ١٠٢/ ١٠٣].

(٢٠) اليمين كذباً. إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٧٧].

(٢١) نقض العهد والنذر واليمين. وكفارة اليمين إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة. مخيَّراً بين الثلاثة. فإن عجز فصيام ثلاثة أيام متتابعة. وكفارة النذر أو العهد هي كفارة إفطار شهر رمضان. فإن عجز لجأ إلى الاستغفار.

(٢٢) أكل مال اليتيم. إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النِّساء: الآية ١٠].

(٢٣) أكل الميتة. إذ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ

---

(١) من خلاق: من نصيب.

لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البَقَرة: الآية ١٧٣] .

(٢٤) أكل الدم. للآية المتقدمة.

(٢٥) أكل لحم الخنزير. للآية المتقدمة.

(٢٦) أكل السحت. (المال الحرام).

(٢٧) الخيانة.

(٢٨) السرقة.

(٢٩) تنقيص المكيال والميزان. إذ قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطفّفين: الآيات ١/٦].

(٣٠) حبس الحقوق، كالخمس والدين وغيرهما.

(٣١) ترك الصوم مع القدرة.

(٣٢) الإضلال عن سبيل الله. إذ قال تعالى: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [الحَجّ: الآية ٩][1].

(٣٣) التخلف عن الدفاع الواجب أو الجهاد. إذ قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ[2] بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبَة: الآية ٨١] .

(٣٤) الإسراف والتبذير، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٢٧] .

(٣٥) اللهو، (الاشتغال بالملاهي).

(٣٦) الغناء، إذ قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾ [لقمَان: الآية ٦] .

وقد جاء في الحديث: «الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله»[3].

---

(١) ثاني: أي متكبراً.

(٢) المخلفون: الذين تخلفوا عن الذهاب مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك.

(٣) الكافي: ج٦، ص٤٣٣، باب الغناء.

حقاً، إن استماع الأغاني وما تلقنه من اتجاهات سلبية تأخذ بالنفس إلى التسافل. وإن الدوام على ذلك ينسي ذكر الله. فلا ترتاح النفس إلا إلى سفاسف الأمور ومعان رخيصة متسافلة. تزول مع الغناء صفة الخشوع والخضوع تجاه القادر المتعال ويحرم الشخص نفسه بذلك من لذيذ مناجاة الله تعالى جوف الليل حيث لا واسطة بين العبد والمعبود. مناجاة فيها من العروج إلى معالم القدس وسرور فائق مما لا يشعر به إلا عباد الله الفائزون. إنها دموع ساخنات، تثلج الصدور وتبعث على الاطمئنان واليقين.

(٣٧) الميسر (القمار). ولو كان دون أخذ شيء من المغلوب.

(٣٨) القذف؛ ويراد به الاتهام بالزنا وما شابه. وحدُّه ثمانون جلدة. إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النُّور: الآية ٢٣]. وفي آية أخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النُّور: الآية ٤].

(٣٩) منع الزكاة؛ إذ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٣٤/ ٣٥].

(٤٠) ترك الحج مع الاستطاعة؛ إذ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: الآية ٩٧]. وعن أبي عبد الله عليه السلام. قال: «من مات ولم يحج حجة الإسلام، لم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق فيه الحج أو سلطان يمنعه. فليمت يهودياً أو نصرانياً»[١].

(٤١) الغيبة؛ إذ قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٢].

(٤٢) القيادة: وهو الجمع بين أهل الفجور.

(٤٣) إساءة الخلق. وقد جاء في الحديث: «إن سوء الخلق ليفسد الإيمان والعمل كما يفسد الخل العسل»[٢] و «إن لكل ذنب توبة إلا سوء الخلق».

---

(١) الكافي: ج٤، ص٢٦٨، باب من سوف الحج.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٣٢١، باب سوء الخلق.

(٤٤) النميمة، فعن الباقر عليه السلام: «محرمة الجنة على القتاتين[1] المشائين بالنميمة»[2].

(٤٥) إضرار المسلم بغير حق.

(٤٦) السعاية إلى الظالم.

(٤٧) قطع الطريق؛ إذ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ[3] أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣﴾ [المَائدة: الآية ٣٣].

(٤٨) الظلم؛ إذ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ[4] وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ[5] يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف: الآية ٢٩].

(٤٩) الكبر؛ إذ قال تعالى: ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النّحل: الآية ٢٩].

(٥٠) كتمان ما أنزل الله من الأحكام الشرعية وغيرها؛ إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٤﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٤].

(٥١) المنع من المساجد؛ إذ قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١١٤﴾ [البَقَرَة: الآية ١١٤].

(٥٢) الاستهزاء بالمؤمنين.

(٥٣) إشاعة الفاحشة؛ إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النُّور: الآية ١٩].

---

(١) القتات: النمّام.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٣٦٩، باب النميمة.

(٣) أي تقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى.

(٤) فسطاطها، خيمتها.

(٥) القيح أو صديد الميت خاصة أو ما ذاب من صفر أو حديد أو زيت.

(٥٤) الحكم بغير ما أنزل الله؛ إذ قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: الآية ٤٤] .

(٥٥) لبس الرجل الحرير.

(٥٦) لبس الرجل ألبسة منسوجة بالذهب أو خاتماً من ذهب.

(٥٧) الأكل والشرب في الأواني المصنوعة من الفضة أو الذهب.

(٥٨) ترك الزوج حقوق الزوجة أو بالعكس.

(٥٩) الرياء في العبادة؛ فعن الصادق عليه السلام أنه قال: «كل رياء شرك، إنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس ومن عمل لله كان ثوابه على الله»[١] .

(٦٠) المراء؛ وهو الجدل في المباحثات بالباطل، لقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: الآية ١٢٥] .

(٦١) أن يلبس الرجال ألبسة النساء وبالعكس.

(٦٢) الرشوة والارتشاء: (إعطاء الرشوة وأخذها).

(٦٣) نحت المجسمات وصنعها على شكل إنسان أو حيوان. فقد جاء في الحديث: «إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورين».

(٦٤) التعرض للذل؛ وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] .

(٦٥) الشعوذة؛ وهي ما يُرى الناس بها ما ليس له حقيقة بسبب حركات سريعة توجب الالتباس وهي محرمة كأجرتها وتعلّمها وتعليمها إلا أن يكون التعلم لغرض صحيح كردّ من ادعى النبوة ونحوها بها.

(٦٦) طالب الرياسة مع عدم الأمن من العدل وقد ورد عنهم عليهم السلام؛ «ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك»[٢] . «وإن من طلب الرياسة هلك». «وأنه ملعون من ترأس، ملعون من همَّ بها، ملعون من حدّث نفسه بها»[٣] .

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٢٩٣، باب الرياء.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٢٩٧، باب طلب الرئاسة.

(٣) أصول الكافي: ج٢، ص٢٩٧، باب طلب الرئاسة.

(٦٧) ظن السوء بالمؤمن؛ فقد قال الله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحُجرات: الآية ١٢].

(٦٨) العُجب؛ وقد ورد عن الأئمة عليهم السلام: «من دخله العجب هلك». وأنّ «إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله»[١].

(٦٩) الغش؛ فقد ورد عن الأئمة عليهم السلام أنه: «ليس منّا من غش مسلماً»[٢].

(٧٠) الكذب؛ وقد عدَّه الصادق والرضا عليهما السلام من الكبائر. وقد ورد، «أن الله عزَّ وجلَّ، جعل للشر أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الخمر والكذب، والكذب شر من الخمر»[٣].

(٧١) مجالسة أهل المعاصي والبدع. لما ورد من النواهي الأكيدة عن ذلك. قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: الآية ٦٨].

(٧٢) إتيان البهائم.

(٧٣) منع المؤمن أخاه المؤمن شيئاً يقوى عليه من عنده أو من عند غيره وحبس الحقوق من غير عُسر[٤]. فعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «أيما مؤمن منع مؤمناً مما يحتاج إليه وهو يقدر عليه من عنده أو من عند غيره أقامه الله يوم القيامة مسودّاً وجهه، مزرقة عيناه، مغلولة يداه إلى عنقه. فيقال: هذا الخائن الذي خان الله ورسوله، ثم يؤمر به إلى النار»[٥].

وعن ابن سنان عن يونس بن ظبيان، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا يونس، من حبس حق المؤمن، أقامه الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة خمسمائة عام على رجليه حتى يسيل عرقه أودية، وينادي مناد من عند الله عزَّ وجلَّ: هذا الظالم الذي حبس عن الله حقه.

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٣١٣، باب العجب.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج٣، ص٢٧١، باب البيع في الظلال.

(٣) أصول الكافي: ج٢، ص٣٣٨، باب الكذب.

(٤) كنا ذكرنا حبس الحقوق في موضع آخر. ولا بأس بتكراره هنا مع حديث في هذا المقام الخطير.

(٥) أصول الكافي: ج٢، ص٣٦٧، باب من منع مؤمناً شيئاً.

قال فيوبخ أربعين يوماً، ثم يؤمر به إلى النار[١]. وهناك كبائر أخرى نرجئ ذكرها إلى محل آخر. ونختم هذا البحث بما جاء عن الإمام علي عليه السلام:

«من كفارات الذنوب العظام، إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب». وقال عليه السلام مخاطباً كميلاً: «يا كميل، مر أهلك أن يروحوا في كسب المكارم ويدلجوا في حاجة من هو نائم. فوالذي وسع سمعه الأصوات، ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا وجعل الله له من ذلك السرور لطفاً، فإذا أصابته نائبة جرى إليها كالماء بانحداره حتى يطردها كما تطرد غريبة الإبل»[٢].

وقال سلام الله عليه: «أدنى الإنكار أن تلقى أهل المعاصي بوجوه مكفرة»[٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من رأى منكراً فاستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[٤].

* * *

كيف نتوب

يجدر بنا أن نذكر بعض ما ينبغي أن يقوم به الشخص عند إرادته التوبة. فإنه ما من عبد (عدا المعصومين سلام الله عليهم) إلا وقد أذنب، وما عليه إلا أن يتوب من ذنبه عاجلاً كي لا تتراكم عليه ذنوبه فيسودّ قلبه، فيعمى إذ ذاك عن رؤية الحق والواقع. ولا شك أن الاستغفار على نوعين، عملي وعبادي. فالاستغفار العملي هو إرجاع ما للناس على الفرد من حقوق إلى أصحابها، والاجتهاد في جلب رضاهم، وقضاء ما فاته من عبادات. وأما العبادي:

(١) فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما من عبد أذنب ذنباً فقام فتطهر وصلى ركعتين

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٢، ص٢١٠، باب ١٢٢.

(٢) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٣٥٤، باب ٢٤.

(٣) تهذيب الأحكام: ج٦، ص١٧٦، باب ٨٠.

(٤) مستدرك الوسائل: ج١٢، ص١٩٢، باب ٣.

واستغفر الله إلا غفر له وكان حقيقاً على الله أن يقبله. لأنه سبحانه قال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النِّساء: الآية ١١٠].

(٢) وفي الإقبال أنه: خرج رسول الله في اليوم الثاني من شهر ذي القعدة فخاطب الناس قائلاً: «أيها الناس من منكم يروم التوبة»؟ فقالوا: كلنا نروم التوبة. فقال: «اغتسلوا وتوضأوا وصلوا أربع ركعات واقرأوا في كل ركعة سورة الفاتحة مرة واحدة وسورة التوحيد (الإخلاص) ثلاث مرات والمعوذتين (قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الناس) مرة واحدة، واستغفروا بعد الانتهاء من الصلاة سبعين مرة وقولوا: (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) سبع مرات». ثم قولوا: «يا عزيز يا غفار. إغفر لي ذنوبي وذنوب جميع المؤمنين والمؤمنات، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

ثم قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد من أُمتي يأتي بهذا العمل إلا ومناد يناديه من السماء عن الله تعالى: عبدي، استأنف العمل، فقد غفرت لك. وإن ملكاً آخر ينادي من تحت العرش: بوركت أنت ومن يلوذ بك وذراريك. وينادي ملك آخر يقول: سوف يرضى عنك خصماؤك يوم القيامة. وآخر يقول: يا عبد الله، ستموت على الإيمان ولا تعدم الإيمان ويفرَّج لك في قبرك وينوَّر قبرك. وآخر ينادي: سوف نغفر لأبويك وذريتك ويوسع لك في رزقك. وإن عزرائيل يخاطبه، فيقول: سوف أرفق بك عند قبضي روحك».

ثم سأل سائل رسول الله. لو أن رجلاً جاء بهذا العمل في غير ذي القعدة ما نتيجة ذلك؟ فقال ﷺ: عين ما كان له من النتيجة في شهر ذي القعدة، ثم قال: إن جبريل قد علّمني هذا العمل عند معراجي إلى السماء[1].

(٣) أن يقول بعد كل فريضة قبل أن يثني رجليه ثلاث مرات: «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ذو الجلال والإكرام وأتوب إليه»[2].

(٤) المواظبة على صلاة الليل وهي ١١ ركعة، ٨ ركعات منها نافلة الليل تصلي

---

(١) إقبال الأعمال: ص٦١٤، بتفاوت يسير.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٥٢١، باب من قال أستغفر الله.

ركعتين، ركعتين كصلاة الصبح تؤتى بنية نافلة الليل. وركعتان تسميان: بـ (الشفع) وركعة واحدة تسمى بـ (الوتر). ووقتها بعد انتصاف الليل إلى الفجر. وكلما كان قرب الفجر كان أفضل. ويُستحب أن يقال في قنوت (الوتر)، الركعة الأخيرة سبعين مرة: أستغفر الله ربي وأتوب إليه. وهناك مستحبات أخرى لا مجال لذكرها.

إن الله تعالى يمتدح المستغفرين بالأسحار بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: الآيات ١٥/ ١٩].

فطوبى لنفوس فكرت في عقباها. فلازمت التقوى وما يؤدي إلى الزلفى ووفقت إلى أنواع الاستغفار. فطهرت من أدرانها وتزكت مما علق بها من دنس ورجس. فذهبت إلى نعيم خالد وحياة كلها سرور وحبور. ﴿وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٦٤]. أي إن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية الأبدية. ليس فيها حزن أو قلق أو خوف. ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: الآية ٦٢].

حقاً، إن الحياة الدنيا بما فيها من مشاكل وأعمال كثيرة لا طائل تحتها وملهيات أخرى لا تفيد في تكامل النفس فهي لهو ولعب. فالإنسان في دنياه وإن كان في دوره بالتكاملي، إلا أن حياته فيها أشبه شيء بحياة الطفل بالنسبة إلى حياة الرجل المتكامل. وسيعلم ذلك، (إن وفق إلى تطهير نفسه)، في جنة ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: الآية ٢١].

الإجابة على شبهات الماديين

نورد هنا ما عثرنا عليه من شبهات الماديين التي لم تتوارد في أذهانهم إلا لأنهم أزاحوا الفطرة بأعمالهم عن فعاليتها وتأثيرها الطبيعي. فأملى عليهم الشيطان شكوكاً

---

(١) ينامون قليلاً من الليل أو نوماً قليلاً.

وشبهات هي في غاية السخافة في نظر من كان محافظاً على فطرته الطبيعية ولم تدنسه الموبقات. ولو أنهم وقفوا حين جهلوا لم يكفروا، على ما جاء في كلام علي عليه السلام حيث يقول: «ولو أن العباد إذا جهلوا وقفوا ولم يجحدوا لم يكفروا»[1]. ولكن هيهات، فإن المدنسات لم تدع لهم مجالاً للتوقف أو التردد وأزاحتهم عن التفكير الطبيعي وهو الاعتراف بالخالق المبدع الرؤوف الرحيم.

على أني موقن أن هذه الردود التي نوردها جواباً على الشبهات لا تفيد المادي الذي أعمى الله قلبه لظلمات في نفسه، فاكتسبها بسبب ذنوبه. لأن المنطق ليس هو الشيء الوحيد الذي يردع هذا الإنسان (الكنود) عن غوايته ويهديه إلى النور وإلى صراط مستقيم. فقد جاء في الحديث: «ما ضرب ابن آدم بعقوبة أعظم من عمى القلب»[2]. فإن عمي القلب فلا منطق ولا هداية ولا قبول. إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة: الآيتان ٦/٧]. ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٥].

وإنما نورد في ما يلي بعض الردود، ليزداد الذين آمنوا إيماناً ولكي يتمكنوا عند المجادلة مع الملاحدة من الرد والإجابة ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: الآية ٥٤]. ولعل الله يمن على من لم تنقطع صلته به تعالى بعمل صالح كان يأتي به من حين لآخر، بعد الاطلاع على هذه الأجوبة، بتوفيق الهداية والرشاد والرجوع إلى الفطرة بفضله تعالى.

الشبهة الأولى: إن لم يكن العالم المادي أزلياً وقلنا أنه حادث مخلوق لزم من ذلك القول بأن العالم قد وجد من العدم وأن الله قد خلق الأشياء من عدم وهذا أمر محال لا يتفق مع معطيات العلم الحديث.

الجواب: إن العلوم الحديثة تؤكد لنا أنه لا يمكن وجود شيء من العدم وهذا

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٣٨٨، باب الكفر.

(٢) مستدرك الوسائل: ج١٢، ص٩٣، باب ٧٦.

دليل على وجود الله تعالى. إلا أن بعض الأعراض قد تحصل من انفصال شيء عن شيء آخر. كما أن اتصال شيء بشيء يؤدي إلى وجود أعراض جديدة. ولكن العرض ليس بجوهر ولابد لوجودها من وجود أشياء أخرى من قبل.

ولا شك أن الله تعالى قد أبدع الأشياء بقدرته ولولا قدرته والطاقات التي أوجدها بقوله ﴿كُن﴾ لما وجد شيء أبداً. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ[1] ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ[2] كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: الآيتان ٨٢/ ٨٣].

ولكن، كيف قول الله تعالى (كن) يؤدي إلى إبداع السموات والأرض ووجود هذه الطاقات الهائلة التي قد اكتشف أخيراً أنها هي الأساس في تكوّن هذا الكون. هذا مما لم يجعل الله تعالى للبشر مجالاً إلى معرفته. ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: الآية ٥١] إنه تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القَمَر: الآية ٥٠] ويقول أيضاً: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ فحقيق بالكيماوي المؤمن، ذلك الذي لم يلوث الفطرة بموبقات ومهلكات أن تفيض عيناه بالدموع عند تلاوة هذه الآية المباركة: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القَمَر: الآية ٤٩] لما يشاهد تلك التفاعلات بين العناصر بمقادير معينة واتجاهات ثابتة تؤدي إلى وجود هذا العالم المملوء بالعجائب والغرائب. ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[3] [المُلك: الآية ٣] .

إن الطاقات التي أوجدها الله بقوله (كن) أي إن الطاقات والقوى التي أوجدها الله تعالى بإرادته ومشيئته تكدست حسب النظريات الأخيرة في علم الفيزياء فكانت مادة. وإن هذه المواد شكلت كما يشاء الله هذه العوالم. إذ علم أن: $E = M C^2$، الطاقة الكامنة في كتلة ما تساوي مربع سرعة الضوء مضروباً في تلك الكتلة. فسبحان من منح هذه الطاقات هذه العوالم بعظيم قدرته ورتبها خير ترتيب. وليس لهذا الإنسان مع عقله المحدود وقابلياته المحدودة أن يعرف كيف أن الله بقوله: (كن) يوجد هذه

---

(١) فتنزيهاً لله عن النقص، سبح الله أي نزهه عن النقص.

(٢) الملكوت، مصدر ملك، مختص بملك الله تعالى.

(٣) فطور: صدوع وخلل.

الطاقات. فإن نسبة قابلية الإنسان المحدودة في جميع الحقول إلى قدرة الله تعالى كنسبة: $\frac{ب}{\infty}$.

ومآل هذه النسبة هو الصفر. فأنى للصفر أن يفهم اللانهاية فهماً تاماً ويقف على كيفية خلق الله الخلقَ وانقلاب إرادته تعالى إلى طاقات هائلة. وأن هذه الشبهة إن دلت على شيء فإنما تدل على نفس متحجرة وكبر وغرور وطيش وانسحاب للعقل الفطري.

الشبهة الثانية: إن كل موجود لابد له من مكان يستقر فيه ولابد له من زمان يقع فيه. وإن العلوم الطبيعية الحاضرة تقول: بأن المادة موجودة في الزمان والمكان. إذن ليس في الأماكن أن نتصور وجود الخالق الأزلي خارجاً عن الزمان والمكان.

الجواب: إن الله تعالى غني عن الزمان والمكان، لأنه ليس بمادة وقد كان موجوداً من الأزل دون أن يكون له ابتداء. وهو الذي أوجد وأبدع الزمان والمكان. ولامراء أن المكان والزمان مفهومان يتفرعان عن المادة. ولولا خلق الله تعالى السموات والأرض والقمر لما كان هنالك زمان ولا مكان. وإن الله تعالى موجود في كل مكان وزمان. وعند ما نقول، إن الله لا زماني ولا مكاني، نقصد بذلك أنه لا يشبه سائر ما خلق من الموجودات، بسبب احتياج هذه الموجودات جميعاً إلى زمان وإلى مكان. أي أن المكان لا يحيط به وأن الزمان لا يحويه ولا يكون له ظرفاً، لأنه تعالى هو خالق هذين الظرفين (الزمان والمكان). على أن تطبيق ما يقال عن المحدود على غير المحدود (اللانهائي) وهو الله تعالى من الغباوة والقساوة بمكان. وهو هراء لا فلسفة! وقد قال الإمام علي عليه السلام: «ومَن قال فيمَ؟ فقد ضمَّنه ومن قال علام فقد أخلى منه. كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة»[1]..

الشبهة الثالثة: إن العلم الحديث يقول: أنه لابد للمادة من زمان ومكان. وأن المادة لا توجد إلا في زمان. وبما أنكم أيها اللاهوتيون تقولون إن الله هو خالق

---

(١) بحار الأنوار: ج٤، ص٢٤٧، باب ٤. نهج البلاغة، خ١.

العالم. وحيث لم يكن عندما خلق الله العالم زمان، إذن ليس الله هو الذي خلق العالم، لعدم وجود زمان إذ ذاك ليخلق المادة فيه. إذ لا يمكن خلق المادة دون وجود زمان لخلقها فيه.

جواب ذلك: إن الزمان والمكان إنما حدثا مع وجود المادة وهما من عوارضها. وليس لنا أن نحكم بما كان قبل خلق المادة وكيف كان. الزمان من عوارض المادة ووجوده، ولم يسبق أحدهما الآخر. أي إن الزمان إنما وُجد مع خلق الله تعالى الشمس أو الأرض وحركتيهما أو حركة أحدهما وأن الزمان مفهوم استمراري لوجود المادة وهكذا المكان.

وإن الله تعالى حين خلق المادة الأولى سواء كان (أثر) على ما يقول بعضهم أو غير ذلك وجد مفهوم الزمان والمكان مع تلك المادة. فلا زمان ولا مكان بالمعنى الذي نفهمه قبل أن يخلق الله شيئاً.

الشبهة الرابعة: يقول بعض الماديين: لو كان لهذا العالم خالق لكان له هدف وغاية من هذا الخلق. ولكنا لا نفهم القصد والغاية من هذا الخلق. ومنهم: (هودسن توفل) الأمريكي، حيث يقول: «إن القمر يدور حول نفسه مرة حين يكمل حركته الانتقالية حول الأرض. وهو يوجه جهة واحدة منه نحو الأرض؛ ألسنا محقين لو سألنا عن السبب؟ فلا قصد ولا غاية من ذلك. إذ لو كان هناك قصد لظهر لنا وبان»!. ويقول (بوخنر) الألماني المادي المعروف: «لو كان لهذا العالم خالق لعلمنا الغاية من وجود هذا الفضاء الوسيع (السماوات) والغرض من سبح الأنجم والسيارات فيه ولاستفادت أرضنا من الأنجم السيارة في المنظومة الشمسية وحيث لا نستفيد ولا نعلم الغاية من ذلك، إذن ليس هنالك خالق خلق الأشياء تحت غاية معينة»!.

جواب ذلك: إن جهل المادي للغايات والخواص لا يكون دليلاً على عدم وجود غايات حكيمة وخواص في غاية الإتقان. وإن العلم البشري لا يزال في مراحله الأولى. أوَما ترى كيف أن الاكتشافات الحديثة توضح وتعلل كثيراً ما كان يجهله البشر سابقاً ويقف على كثير من المقاصد والغايات السامية التي أودعها الله تعالى في

مخلوقاته. راجع تاريخ العلوم لتعلم كيف أن البشر كان يجهل ثم علم. وأن موقع الشمس من الأرض وموقع القمر من الشمس والأرض والمسافات التي رتبها الله بين الكواكب وما هنالك من حركات تشير إلى حكم سامية لا يعلمها إلا علماء رياضيون فلكيون. فلو تغير موضع الشمس عما هو عليه الآن لاستحالت الحياة، وهكذا بالنسبة إلى موضع القمر وبقية الأنجم، ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ[1] ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ[2] ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرَّحمن: الآيات ٥/٧].

فإذا بلغ المادي من السخافة والجهل وعدم الاطلاع والطغيان مرتبة ينكر معها الحقائق فإنما الذنب ذنبه، لنقص متأصل فيه. وإن أمثال هودسن وبخنر أقل من أن يدركوا المعادلات التفاضلية المعقدة والمعادلات العالية الصعبة الحل وقوانين الفلك العالي المستندة على عصارة الرياضيات العالية.

فطوبى لمن طهرت نفسه، فإذا نظر إلى السموات العلى، قال: خاشعاً خاضعاً وعيناه تفيضان بالدموع: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩١]. إنما هذه الدموع رشحات نفس زكية.

الشبهة الخامسة: يقول المادي بما أنا لم نشاهد حدوث المادة ولم نشعر به، إذن فالمادة شيء أزلي وغني عن خالق يخلقها ويوجدها.

جواب ذلك: هل أحس هذا المادي بأزلية المادة وعلم بها علماً يقينياً. ومن المخزي أن يأخذ المادي بالحظ من منزلة الفلسفة فيحصرها بالحس والمشاهدة دون ربط عقلي ومحاكمات دقيقة. هل الحكم بأزلية المادة نتيجة لمحاكمات منطقية دقيقة وتعقلات سديدة أم هوى وجحود. ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجَاثيَة: الآية ٢٤][3]. وفي آية أخرى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النّجم: الآية ٢٨]. وفي أخرى: ﴿قُلْ هَلْ

---

(١) بحسبان: أي يجريان بحساب مقدر.

(٢) يسجدان: أي أنها جميعاً تسجد لله مطيعة حسب ما أودع الله فيها من قوانين وخواص.

(٣) إن هم: ما هم.

عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] .

إن الله تعالى يقول: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: الآية ٥١] . فالله تبارك وتعالى لم يُرنا كيف خلق السموات والأرض ولم يرنا كيف خلق نفوسنا، لاستحالة ذلك. فكيف يجوز لنا أن نعلم كيفية خلقنا ونحن لم نوجد بعد. فالمعدوم لا يشعر ولا يحيط بشيء.

أوَ لا يفكر هذا المادي أن المادة شيء مركب وفيها من القوانين والأحكام على ما ثبت في علم الذرة ما يدهش العقول ويحيّر الألباب. من الذي وضع هذا النظام الخارق وتلك القوانين والمعادلات في الذرة؟. وكيف كان هناك الإلكترونات والبروتونات والنيوترونات. حتى كان العدد الذري لكل عنصر يعادل عدد البروتونات أو الإلكترونات الموجودة في ذلك العصر.

من أوجد هذا التعادل؟ ومن حرك الإلكترونات حول البروتونات؟ ومن الذي وزعها توزيعاً علمياً، حتى كانت هذه العناصر من ذهب وفضة وهيدروجين وأوكسيجين إلى ما هنالك. ومن الذي بنى بناء الذرة الرصين، هذا البناء الذي هو أدق من أعظم الأبراج والبنايات! إنه مهندس عالمي، هو الله جلت قدرته، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦] .

الشبهة السادسة: يقول المادي، إن الإلهيين يؤمنون بخالق لا يُدرك بحواسنا، وما لا يدرك بحواسنا معدوم.

الجواب: قد أسهبنا في الفصول السابقة أن هناك كثيراً من الأشياء موجودة ولا تدرك بحواسنا ولكن العقل يحكم بوجودها كالإلكترون. يقول الله تعالى في سورة الحاقة، ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: الآيات ٣٨/ ٤١] . وإن الإنسان الذي جهز بحب الاستطلاع، إن لم يلوث الفطرة بخموره وفجوره، يعترف بصورة طبيعية بالله تعالى كما يعترف الفيزيائي بوجود الإلكترون، ومعلوم أن الإلكترون لا يمكن إدراكه مادياً ومع ذلك فهو معروف بآثاره أكثر من قطعة من الخشب. إن المادي ينكر وجود الجن والخوارق. ذلك لأنه

يريد أن يرى الجن بحواسه الخمس، فتلمسه يده. (ولكن الجن ليس بمادة). وتسمعه أذنه ولكن ليس للجن حركات في الهواء تؤدي إلى حدوث أمواج هوائية تصطدم بالأذن فبعظمها فالأعصاب، فالمخ حتى تسمعه. وخلاصة القول هو أن ليس الجن من هذه المادة التي تدرك بالحواس الخمس. ولكنه موجود يعترف به من اعترف بمعاجز الأنبياء، فالقرآن؛ ويعترف به من قام برياضات خاصة، فأعطي قابلية خاصة لمشاهدة الجن وشرح ذلك يطول.

وهكذا الاعتراف بالخوارق، اعتراف بقدرة الله تعالى وبما وراء المادة. وعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود. واعتراف المادي بروحه وعقله وهما لا يُريان كافٍ لإثبات ما نذهب إليه. ووجود هذا المادي بهذه الملكات في هذا الكون من أكبر المعاجز والخوارق. فليعترف بنفسه إن كان يصعب عليه الاعتراف بخوارق أخرى. ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريَات: الآية ٢١].

الشبهة السابعة:

(١) قد أخذت العلوم الحديثة في الأيام الأخيرة توضح ما في هذا الكون من ظواهر وحوادث دون اللجوء إلى وجود الله!.

(٢) وأن الإنسان قد وقف بعد هذه المكتشفات العلمية على علل الحوادث الكونية وعلم أن الكون سائر حسب قوانين ودساتير عدة، فليس هناك من حاجة إلى الاعتراف بوجود صانع أزلي وقوة مطلقة عالية.

جواب ذلك أولاً أن علماء الفيزياء وغيرهم من الذين يعملون في كشف القواعد والقوانين التي تربط الحوادث الفيزيائية بعضها ببعض مترفون بجهلهم سر الجاذبية الأرضية وحقيقتها وحقيقة الكهرباء والمغناطيس إلى ما هنالك. ويقولون: إنما نعمل في كشف القوانين التي تربط الحوادث بعضها ببعض إما بإلهام أو حدس أو تجربة أو صدفة ولا نعلم السبب الحقيقي لهذه القوانين ونعجز عن تفهم حقيقة هذه المعادلات الفيزيائية وأسبابها. إنهم يعترفون بجهلهم العلل والأسباب ويقولون: إنما نرى تعاقب الحوادث بعضها إثر بعض ونظن أنها معللة، حين أنه ليس هناك تعليل وإنما مشاهدة لتسلسل الظاهرات والحوادث.

وهكذا علماء الكيمياء يعملون في وضع الروابط والعلاقات التي تربط العناصر بعضها ببعض حين التركيب والتحليل وكذا علماء النبات يعملون في التعرف على شرائط نمو النبات وتصنيفها وقُل مثل ذلك في بقية العلوم، معترفين بأنهم لا يستطيعون تغيير شيء مما يشاهدونه ويجهلهم الأسباب والعلل الحقيقية. وهم في معزل عن البحث عن خالق وضع هذه القواعد وجهز العناصر بخواص التركيب والتحليل، إلا المؤمن التّقي منهم. ذلك لأن البحث عن الخالق موضوع نفسي يترشح عن تكامل النفس وعن صفات يتصف بها الشخص من ورع وتقوى وأخلاق فاضلة. والتقوى كما جاء في الحديث: «أن لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك». وأين علماء أوروبا من العمل بهذا الحديث. فإن معرفة الله لا تحلُّ نفوساً مدلهمة حالكة، وإن التفكير في الفيزياء أو الكيمياء تفكير مادي واستعمال للقوى المنطقية Logique التي منَّ الله بها هذا الإنسان. وإن التفكير في ما وراء المادة تفكير فلسفي لا ربط بينه وبين هذا التفكير الميكانيكي. مثال ذلك: لو أضيفت مقادير متساوية إلى أخرى متساوية فالنتائج متساوية... إلى ما هنالك. وإن عملية الضرب ٣٧٥ × ٤٣ مثلاً يقوم به المؤمن والملحد على السواء ولا أثر للاعتقاد بالله في صحة عملية الضرب. إنما هو تفكير مادي يقوم به المحافظة والذكاء (مع جهل الإنسان كيفية ذلك) وهو في معزل عن رشحات النفس الزكية وتوجهها إلى الحق.

فقضية البحث عن الخالق وعزو جميع ما في الكون من قوانين وخواص إليه تعالى، قضية نفسية بحتة تترشح من نفس زكية. هي رشحات الأعمال الصالحة والتقوى. فإن حب الله تعالى أو العشق الإلهي لا يحلُّ إلا في نفس مطهرة من الدنس والرين. ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾. وأين القلب من معادلة تفاضلية في التحليل الرياضي أو حكم الرقاص في الفيزياء.

إن قطّع النجار الخشبة إلى أقسام (مثلاً)، يحتاج إلى قابلية يدوية وبدنية وليستا من تكامل النفس في شيء. النفس أمر من ما وراء الطبيعة (Metaphysique) وتقسيم الخشبة وقطعها إلى أقسام، عمل ميكانيكي بحت لا أثر للعقيدة في حصوله. فإن

المكائن التي لا روح فيها تقوم بهذه العملية أيضاً كالإنسان من ناحية الميكانيكية. فهذا خلط بين النفس والمادة واعتبارهما شيئاً واحداً. وهذا شأن من خسر نفسه وكان من الأخسرين أعمالاً. على حد قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢]. وفي آية أُخرى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ٥٣].

كان يقول (كوستالوبون): «حسب الماديون أن مذهبهم يحل محل الدين، غير أن المادة أصبحت سراً من الأسرار»!.

ثانياً: وأما من يقول بالمقال الثاني: (وهو أن العالم يسير حسب قواعد معينة وقوانين منظمة، فلا حاجة إلى الاعتراف بصانع أزلي)، فهو مجنون، ليس له نصيب من التفكير والمنطق الصحيح. أو مغفل لا يعد في زمرة العقلاء. ذلك لأنه يجعل ما هو دليل واضح على وجود الصانع دليلاً على عدمه. كمن يرى أشعة الشمس بجميع ما هنالك من وسائل تحقيقية وتجريبية ثم ينكر وجود الشمس. إنه ممن ختم الله على قلبه لكثرة ذنوبه، فأمسى جرثومة فساد لا تفيد معه الهداية والإصلاح. ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٧]. نعم، ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النِّساء: الآية ١٥٥] وجحودهم وعدم قيامهم بواجب الشكر تجاه نعم الله التي لا تعد ولا تحصى.

أليست القوانين نتيجة تدبُّر وتفكر وتعقل؟ وهل يجوز أن يوجد الترتيب والتنظيم دون مرتِّب ومنظم. وهل من الممكن أن توجد عوالم الجماد والحيوان والنبات وما في السموات والأرض وحركة الكواكب والليل والنهار والأمطار والأنهار، وأن ترتبط هذه الأشياء بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ودقيقاً دون مدبِّر حكيم. وقد برهنّا في الجزء الأول من هذا الكتاب على انتفاء الصدفة. وأنه لا يحصل انتظام وترتيب في ما لا يحصى من أشياء متسلسلة مستندة بعضها على بعض، ومع ذلك فلابد من موجد لهذه الأجزاء

المرتبطة بعضها ببعض، والتي تكاد لا تحصى، بقوانين تحير العقول حتى يأتي دور الصدفة. كيف حصل العقل من المادة! (على ما يقوله الماديون)؟ وكيف وجد الروح؟ هل القوة كانت قبلاً أم المادة؟ وكيف انقلبت القوة إلى مادة؟ فلو قلنا أن هناك يداً خفية[1] تعمل في حدوث شيء من شيء آخر وتكامل بعض النباتات والحيوانات، فذاك هو الله تعالى.

إن العلم الحديث لا يزال في عنفوان اكتشافاته للقواعد الرياضية التي أودعها الله في هذا الكون، رابطاً بها أجزاء العالم بعضها ببعض. والعلماء يعترفون أنهم كلما اكتشفوا شيئاً كالأشعة الكونية مثلاً رأوا أنفسهم أمام أودية من الجهل. ولكن المتطفلين على العلم الحديث، هؤلاء الذين لم يكتشفوا نظرية رياضية ولا آلة كهربائية، يظهرون خباثة بواطنهم الملوثة فيهذرون ويخرصون ويشوّهون سمعة العلماء، والعلم مما يقولون براء.

يقول جان جاك روسو (Jean Jacques Rousseau) ليس لنا أن نعتقد أن مادة ميتة تقدر على إيجاد هذه الكائنات الحية الكثيرة، وإن الضرورة العمياء تتمكن من خلق الموجودات العاقلة! وإن شيئاً عديم العقل يستطيع أن يوجد أشياء مدركة، (عقلاً). ومن البديهي أن الحركة ليست بأمر ذاتي في الجسم. فلابد من محرِّك ومتصرف. وأن سلسلة الحركات الكونية كلها تنتهي إلى المحرك الأول وهو الله تعالى.

وأما هرشل فيقول: «كلما توسع أفق العلم، كلما ازددنا معرفة بالله. ذلك لأن العلم يزودنا ببراهين قطعية على وجود الخالق الأزلي القدير الذي لا حدَّ لقدرته».

وأما لينة (Linne) العالم الطبيعي المعروف، فإنه يقول: «يمر أمام عيني ربي الذي خلق كل شيء، إني لا أراه ببصري ولكن نفسي تراه حين تشع عليها آثار عظمته وجلاله وترى ما أودع في هذا الكون من جلائل الأعمال وخوارق لا تعد. يكفيني أن أرى الكائنات الحية الصغيرة جداً التي لا ترى بالعين المجردة كيف جهزها الله بجوارح وأعضاء تحير العقول».

---

(١) ولابد منها.

يقول ڤولتر (Voltair): «إن الموجودات برمتها تنادي برفيع صوتها أن لها بارئاً قد برأها وصانعاً قد أتقن صنعها». وقد أخرج رواية تتكلم فيها الطبيعة مع فيلسوف، قائلة: «يا بني، إن حيرتك هذه قد جاءتك من أن الناس قد سمتني خطأ (الطبيعة)؛ حين أني صانع عظيم، متقن الصنع غاية الإتقان، هل هذه العوالم من حيث الصنع والنظام والترتيب أقل من ماكنة ساعة تدق الدقائق. فكما أنه لا يمكن أن يتصور وجود ساعة دون صانع قد صنعها، هكذا لا يمكن أن يتصور هذه العوالم دون صانع قد صنعها وأتقن صنعها».

ويقول (جان لاك): «إن العقل هو الذي يرشدنا إلى وجود الخالق، ذلك، لأنا نوقن بوجودنا ونوقن بأن وجودنا حادث ولم نكن موجودين قديماً. ونرى أن العقل يحكم أن ليس للمعدم أن يوجد شيئاً، إذن نجزم يقيناً أن ذاتاً أخرى قد أوجدتنا وكونتنا. وهذه الذات، وهي ذات الباري، كانت موجودة بصورة دائمية، أي أن الخالق، أزلي سرمدي. وبما أننا مخلوقون من قبل الغير فكل ما فينا من قابليات وإمكانيات فهي منه. إذن وجب أن يكون الموجد في كمال القدرة. وبما أن لنا عقلاً ندرك به الأشياء فوجب أن يكون لموجدنا عقل أيضاً.

ويأتي هذا الفيلسوف بدليل آخر، فيقول: «بما أن جميع ما في هذا الكون حادث ولم تكن موجوداً قبلاً، فلابد من وجود قديم أزلي أوجد هذه الأشياء ولم يوجده شيء أخر».

* * *

لقائل أن يقول: لماذا (جان لاك) يعترف بوجود الخالق جلَّ جلاله في محيط غربي مفعم بالشهوات والمعاصي، وقد لا يعترف بذلك من وجد في محيط خير من محيطه، وكيف يترشح من نفسية (جان لاك)، هذه الأفكار التي هي مرآة العقل السليم والفطرة التي فطر الله الناس عليها وقد لا تترشح من غيره.

إن هذا الموضوع يسترعي الانتباه والتفكير. وقد أوضح الله لنا ذلك في قرآنه الكريم بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال: الآية ٢٩] .

فبالتقوى يفرق الإنسان بين الحق والباطل وبالتقوى يكفِّر الله عنه سيئاته ويغفر له ذنوبه، فما من فرد، عدا المعصومين إلا ويحمل ذنوباً: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجَادلة: الآية ٦] لا سبيل إلى تكفيرها ومحوها إلا بالتوبة والتقوى، فتتجلى لهذا الفرد الحقائق بدرجة تطهير نفسه من الذنوب والأرجاس ومن كل ما دنَّس به نفسه وجعلها متسافلة. فالإيمان رشحات النفس التقية الزكية. ولا بأس أن أكرر كلمة أحد الفلاسفة المعاصرين حين يقول: «بترك الكذب يعترف الإنسان بمعبود هو الله القادر المتعال».

وأما: «التقوى: أن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك». كما جاء في الحديث[1].

ولابد لمثل (جان لاك) نصيب من التقوى حتى صار يعترف بوحدانية الله تعالى ويقدسه. وأن درجة هذا التقديس لتتناسب مع درجة التقوى. يقول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٩].

وإن أعظم الجهاد هو الجهاد مع هذه النفس الأمارة بالسوء وردعها عن شهواتها ونزواتها وأطماعها[2]. وكلما نجح الفرد في هذه المجاهدة الثمينة: المجاهدة مع النفس، كلما زاد يقينه حتى عد من الراسخين، أولئك الذين يصفهم الإمام علي عليه السلام بقوله:

«هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روحَ اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى»[3]!..

ولامراء، أن اليقين الحقيقي، يلزمه نور وبهجة وسرور وعدم الالتفات إلى ما سوى الله والاستغراق في أبحر عظمة الله والمثول بين يدي الله صاغراً ذليلاً، يلزمه القيام بالأعمال الصالحة وبر الوالدين وصلة الأرحام وقضاء حوائج الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواضع واحترام الكبير والرفق بالصغير ومعاملة الأهل معاملة ملؤها

---

(١) قد أكرر الحديث لأهميته ولكن يرسخ في الذهن وهكذا بعض الآيات.

(٢) يراد بالأطماع: غير المشروعة منها.

(٣) بحار الأنوار: ج٦٧، ص١٦١، باب ٥٢.

الشفقة والحنان. «خيركم أبركم بأهله». يلزمه بذل كثير وإنفاق دائم وتصدق مستمر حتى يقال: أنه أسرف، وخدمة الجار وإيجاد عمل للعاطلين في حدود الإمكان، (وما أكثر إمكانيات هذا الإنسان لو لطفت نفسه ورقت روحه)، يلزمه: الاهتمام بأمور المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، يلزمه التهجد والمناجاة والبكاء والاعتراف بالذنوب والتذلّل والخشوع، يلزمه استغفار عملي واستغفار عبادي.

والاستغفار، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معانٍ».

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.

والرابع: أن تعمِد إلى كل فريضة عليك ضيَّعتها فتؤدِّي حقها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السُّحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

والسادس: أن تُذيق الجسمَ ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك، تقول: استغفر الله[1].

وقد يستشمُّ مني البعض التقشُّفَ عند ذكري بعضَ الأحاديث التي بَعُدَ الناس عن مصاديقها وتطبيقها ولكن الإسلام يجب أن يعرض كما هو، فيستقي من ينبوعه الفياض كل بحسب قابليته وجده وجهده: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النّجم: الآيات ٣٩/ ٤١].

* * *

يقول أحد علماء الألمان: «الإسلام جوهرة وغطاؤها المسلمون».

ويقول أحد فلاسفة الغرب: «إن المسلمين بعدم مباشرتهم هذه القواعد يقترفون جرماً عظيماً، لأنها هي الغايات التي تتمناها الفلاسفة».

---

(١) بحار الأنوار: ج٦، ص٣٦، باب ٢٠.

ويقول، ليوبولدفايس[1]، في كتابه: الإسلام على مفترق الطرق: «إن تقليد المسلمين، سواء أكان فردياً أم إجماعياً، لطريقة الحياة الغربية لهوَ بلا ريب أعظم الأخطار التي تستهدف لها الحضارة الإسلامية». ويقول أيضاً: «إننا نحلم بنور الإسلام يتشر على البلاد المترامية، بينما الشباب المسلم في جوارنا القريب يقعدون عن قضيتنا ويفرُّون عن آمالنا»!.

علة بعث الأنبياء عليهم السلام

إن هذا العالم بأسره بما فيه من نظم ثابتة وقوانين محكمة تدل دلالة صريحة على أن صانعها مدرك حكيم عليم. فإن السيارات تدور في أفلاك ومنحنيات لا يمكن لأكبر رياضي فلكي أن يعين حدودها ويضبطها بقوانين دقيقة إلا القسم اليسير منها جداً. وإن ما ندرسه في علم النبات والحيوان وطبقات الأرض أكبر شاهد على أن صانعها عالم حكيم خبير قد أتقن الصنع إلى حد بعيد. وإن آلاف الكتب في العلوم المادية تدل دلالة واضحة على سعة علم الصانع وإتقانه الخلق إلى أبعد الحدود. ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: الآية ١٠٩]. ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: الآية ٢٧].

فلا يعقل بعد هذه المقدمة أن الله تبارك وتعالى يخلق شيئاً عبثاً؛ ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١٧]. وفي آية أُخرى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾. [الدخان: الآيتان ٣٨/ ٣٩]

فالإنسان لم يخلق عبثاً، وإنما خلق للتكامل والاختبار والابتلاء. ليرى نتيجة عمله، فإن أصبح من الفائزين دخل الجنة ونعم الثواب، وإن أمسى من الهالكين دخل النار وبئس المصير.

---

(١) أنه نمساوي الأصل. اعتنق الدين الإسلامي سنة ١٩٢٦م، وتسمى باسم (محمد أسد). فحسن إسلامه وأصبح من دعاة الإسلام.

يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه المجيد: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: الآية ٣١]. ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ[1] نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: الآيتان ٢/ ٣]. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: الآية ٧].

يدخل في هذا الاختبار الفقير والغني، يدخل فيه الوزير والعامل والموظف والكاسب. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزّلزلة: الآيتان ٧/ ٨].

فالدنيا مدرسة يديرها الله وتعطي درجات لطلابها، فالراسب فيها مصيره جهنم والناجح فيها مصيره الجنة. فلا أسف لمن سقط في امتحان المدارس. فمجالات الحياة متنوِّعة، ولعل كثيرين نجحوا في امتحان المدارس ورسبوا في الامتحان الإلهي وكانوا من الخاسرين مدى الدهور.

وكان من عدل الله ولطفه أن يلهم البشر طريقي الخير والشر. وقد فعل ذلك. وألهم البشر عندما خلقه، طريقي الخير والشر: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشّمس: الآيات ٧/ ١٠]. ويقول الله في محل آخر من القرآن المجيد: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البَلَد: الآية ١٠]. أي طريقي الخير والشر.

فالإنسان عالم بالخير والشر بصورة فطرية ولكنه ظلوم كفار! ميال إلى الشهوات. فأرسل الله تعالى الأنبياء ﷺ لا ليقوِّموا اعوجاجه فحسب، بل ليدربوه على اتباع الطريق الذي يؤدي به إلى التقرب إلى الله عزَّ وجلَّ ليكون أعلى منزلة من الملائكة. ففتح الله للبشر الطريق، على لسان أنبيائه، للتقدم في الدرجات العلى، درجات لا يستطيع تصورها من لم يمارس تزكية النفس وتطهير القلب من الدنس والرجس.

فالإنسان في هذه الدنيا أشبه شيء بخليطة من المعادن، فيها معادن خسيسة ورديئة وفيها معدن نفيس وثمين، فعليه أن يطهر نفسه من الأوساخ أي من المعادن الخسيسة

---

(١) أمشاج: أخلاط، لأنه من مجموع ماء الزوجين.

بعبادات يتخللها الخشوع والخضوع والبكاء وبأعمال صالحة لوجه الله تعالى دونما رياء، ليذهب من هذه الدنيا بمعدن نفيس ثمين وليكون أهلاً للقاء الله تعالى أي ليكون قميناً للتقرب من الساحة القدسية الإلهية.

نرى أن الخلق على نوعين: خلق تكويني، كخلق الكواكب والأنجم والمعادن والنباتات والحيوانات، وخلق أمري: كخلق الأنفس والأرواح: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٥].

فالمخلوقات الكونية لا اختيار لها. إنها مطيعة منقادة لقوانين أوجدها الله فيها. فالجاذبية الأرضية تجذب والبخار يتصاعد وأن حجمه يتناسب تناسباً عكسياً مع الضغط وطردياً مع الجرارة. هذا شيء ثابت لا تغير فيه في العالم الدنيوي. كما أن زمن الذبذبة الواحدة للرقاص (باندول) يتناسب تناسباً طردياً مع الجذر التربيعي لطول الرقاص وعكسياً مع الجذر التربيعي للتعجيل الأرضي لمحل وضع فيه الرقاص. وكذا تركيب الماء، أسيد آزوتيك، أسيد سولفوريك، ثابت لا يتغير. ونرى عين هذه الحالة في عالم الزراعة والالقاح والعضويات. فمن درس الكيمياء وكتاب الطبيعة علم أن البشر لا يخترع بل يكتشف خواص موجودة قبلاً وقابليات مخلوقة سابقاً. فالله يساعد الإنسان بما أودع فيه من قابليات فكرية، من حدس والهام واستقراء واستنتاج وتجريد وتعميم لكشف هذه الخواص.

لكن النفوس والأرواح مختارة... في إمكانها أن تسرق وأن لا تسرق. وفي إمكانها أن تزني وأن لا تزني، أن تشرب الخمر وأن لا تشرب. فهي إذن بحاجة إلى مرشد يرشدها وهادٍ يهديها إلى الطريق السوي.

حين أنه ليس هناك من الضرورة إلى مرشد ليجعل حجم البخار يتناسب تناسباً عكسياً مع الضغط.

فالبشر بحاجة إلى معدّل يعدّله ومقوّم يقومه. فالأنبياء ﷺ والأوصياء من بعدهم معدّلون ومقوّمون.

ونظرة بسيطة إلى الاختلاف الحاصل في القوانين البشرية وأنظار الفلاسفة أو

تناقضها وتغيرها في كثير من الأحيان مع اتحاد الظروف والأوساط تجعلنا نعترف بأن البشر ناقص ليس من شأنه أن يسن قانوناً لا نقص فيه يؤدي به إلى سعادة النشأتين.

البشر يريد أن يعامل بالربا ويريد أن يظلم ويريد أن يزني ويريد أن يشرب الخمر ويريد أن يقوم بكل ما يفسد النفس، هذه النفس الأمارة بالسوء ولكن الله لا يريد أن يرى ناقصاً في ما خلق ويريد تكميل هذا الإنسان.

ذلك لأنه لا يترشح من الكامل على الإطلاق، وهو الله تعالى، إلا الكمال. ولأن كل ما في هذا الكون في غاية الكمال. وأن المعادلات الرياضية التي تربط أجزاء العالم بعضها ببعض لأكبر شاهد على وجود هذا الكمال.

وأن ما نرى من خواص وجمال وتناسق في الأزهار والأوراق وما نرى من أشكال هندسية دقيقة في الثلج المتساقط من السماء وما نرى في الذرة وغير الذرة من كمال خارق وقوانين رصينة تنزه الله تعالى عن كل نقص وتقدّسه. وتسبِّح الله بأنواع التسبيح: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي تنادي بصوت رفيع، أن الذي خلقها قد خلقها في غاية الإتقان ويستحيل عليه النقص. على أن هناك تسبيحاً آخر لا نفقهه، على حد قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسرَاء: الآية ٤٤]. وقوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سَبَإ: الآية ١٠]. وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحَشر: الآية ٢١]. فلا يجوز لهذا الإنسان أن يحيد عن سُنَّة الكمال التي أودعها الله تعالى في كل ما خلق، وما عليه إلا أن يتكامل ويستنير نحو ما قرِّر له من كمال منشود. فإن حاد وزاغ فقد خسر نفسه ومأواه النار. فجهنم آخر محل لتطهير من تلوث وفسد أو تعذيبه.

وإنما أرسل الله الأنبياء مبشرين ومنذرين تحقيقاً لسنة الكمال في هذا العالم. ولولا الأنبياء لما عرفنا الله ولما تكاملنا ولما تمكنا من أن نتقرب إليه تعالى. فالأنبياء ومن بعدهم الأوصياء سلام الله عليهم أجمعين أنوار نستضيء بهم ونهتدي بهداهم.

فالله الذي خلق ما لا يعد من الأنجم وجعلها لا تصطدم بعضها ببعض ورتبها ترتيباً مُتقناً ما بعده ترتيب: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فَاطِر: الآية ٤١] حتى

أصبحت لا تصطدم بعضها ببعض، لا يخلق ما خلق عبثاً، لا يخلق هذا الإنسان ليسعى في الأرض فساداً، فلا كمالَ ولا حساب! : ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٥] .

وقد حسب «جيمس جينز» أن اصطدام نجم معين بنجم آخر يحتمل مرة واحدة في كل (٦٠,٠٠٠) مليون مليون سنة أي في (٦ × ١٠^١٦) سنة. وباعتبار ما للنجوم من أعمار وهي على الأرجح أكثر من ١٠٠٠٠٠ مليون عام أي (١٠^١١) سنة. ينتج أن الذي يكون قد تصادم من بين الكواكب لا يزيد عدده عن نجم واحد في كل خمسين مليون نجم.

كان يظن الفلكي في القرون الماضية أن هناك نجوماً ثابتة لا تتحرك وأن هناك نجوماً سيارة سُميت بالكواكب وهي التي تدور حول الشمس كالأرض والمريخ. وقد عُلم أخيراً أن كل ما في الكون متحرك، فالنجوم كلها تتحرك وتجري تحت قوانين معينة ثابتة وهي تدور أيضاً حول نفسها. وعلم أن النجوم الزرقاء أسرع دوراناً حول نفسها من الصفراء.

ولأجل أن نعلم سعة هذا الفضاء الذي خلقه الله تعالى نقول: إن أقرب نجم إلى الشمس يبعد عن الشمس ٢٦ مليون مليون ميل. وهذا مما يدل على المسافات الشاسعة والفراغ الكبير بين الأنجم. وما أشد وحشة النجم الواحد في هذا الفراغ الهائل. ولا نعلم، أفمن أجل هذا كثر التزاوج بين النجوم استيحاشاً واستئناساً. إن رابطة الجاذبية تربط النجمين، فلا يستطيعان فكاكاً. وحيثما وجّهنا المنظار إلى السماء وجدنا أزواجاً، إنها ألوف ألوف، إنها الثنائيات النجمية، ومداراتها إهليليجية، ذات تفرطح عظيم وقد وجب أن تكون هكذا وهذه هي الزوجية التي يقول عنها القرآن الكريم. ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ [الذّاريَات: الآية ٤٩] . فالوحدانية له تعالى وحدَه والزوجية متجلية في الذرة: (الإلكترون والبروتون)، وفي السماء، وفي النبات والحيوان. فالله الذي جاء بهذا الكمال العالمي، لا يريد بهذا الإنسان إلا الكمال والتكامل. لذلك كان طبيعياً أن يرسل أنبياء هادين مهديين.

نظرة واحدة إلى هذا الكون الذي فيه ملايين من المجموعات الشمسية ومجرات تبعد عنا (٧٥٠,٠٠٠) سنة ضوئية ومجرات تبعد عنا مئات الملايين من السنين

الضوئية[١] تكفي ليتصاغر الإنسان أمام عظمة الله تعالى، فيفكر في نفسه وعلة وجوده، فلا يركبه الغرور على ما منَّ الله عليه من مخترعات، بل يزداد يقيناً بخالقه وخالق المخترعات. فتقوده فطرته إلى هذه النتيجة: أن الله الذي أتقن خلق العوالم جميعاً جلَّ أن يلهو فيريد بالإنسان اللهو واللعب! بل أن غايته وأهدافه تتناسب مع عظمته، فلابد للإنسان من تكامل، ولابد من إرسال من يقدمون لهذا البشر قوانين هذا التكامل وطرق هذا السير التكاملي وهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين.

الله الذي جعل لبنات ثلاثاً في بناء الذرة (١) الإلكترون (٢) البروتون، (٣) النيوترون. وأودع فيها من نظام ثابت بديع مثل ما تندرج نغمات الموسيقى الثمان في مفاتيح البيان (Octave) حتى تمكن العلماء بذلك النظام من إيجاد عناصر جديدة، استخدموا بعضها في القنبلة الذرية، وتمكنوا من هدم العناصر وبنائها من جديد وإحالة الراديوم إلى هليوم وإلى رصاص، وإحالة النتروجين إلى أوكسجين وإلى كاربون وإمالة النحاس إلى زنك ثم إلى نيكل الخ، لحقيق بأن يودع الكمال في كل جزء من أجزاء هذا العالم. ومن أهم هذه الأجزاء هو هذا الإنسان الذي يظنه البعض لظلمات في نفوسهم إنه حرٌّ في الإفساد وإيجاد الفساد! فلا حسابَ ولا كتاب! ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القَصَص: الآية ٧٧].

إن الإنسان قد عمل لحد اليوم إلى حدٍّ ما كي يجيب عن (كيف)؟ في فهم أسرار الكون. ولكنه لا زال بعيداً جداً من أن يجيب عن (لماذا)؟.

يقول: أينشتين: «إن أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها، تلك التي تستشعرها النفس عند الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني والإظلام. إن الذي لا تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته حيٌّ كميّت. إنه خفاء لا نستطيع أن نشقَّ حجبه. وإظلام لا نستطيع أن نطلع فجره. ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة، أحكم ما تكون، ونحسُّ أن وراءه شيئاً هو الجمال أجمل ما يكون، وهي حكمة، وهو

---

(١) سرعة الضوء ٣٠٠٠٠٠ كيلو متراً في الثانية وبما أن السنة ٣١٥٣٦٠٠٠ بالية. فالسنة الضوئية ٩٤٦٠٨٠٠٠٠٠٠٠ كيلو متراً.

جمال لا نستطيع أن تدركهما عقولنا القاصرة إلا في صور لهما بدائية أولية. وهذا الإدراك للحكمة، وهذا الإحساس بالجمال في روعة، هو جوهر التعبد عند الخلائق».

إنه يقول: «إن ديني هو إعجابي، في تواضع، بتلك الروح السامية التي لا حد لها! تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة القليلة التي تستطيع إدراكها عقولنا الضعيفة العاجزة، وهو إيماني العاطفي العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا في الكون المعجز للإفهام، وأن هذا الإيمان يؤلف عندي معنى الله»!.

فالله الذي يعترف به «أينشتين»، (وهو أعلم علماء الأرض في الكون وظواهره، وأحقهم بالكفر إن كان علم يدعو إلى كفر، وأولاهم بإتباع ما اعتاد بعض علماء الغرب ومقلدوهم من أهل الشرق، من إغفالهم ذكر الله)، أعلى وأجلّ من أن يلهو وأن يريد بهذا الإنسان فوق البسيطة، النقص نقصاً في الخلق، نقصاً في المعاملات والحياة الاجتماعية، نقصاً في العفاف والعفة، نقصاً في البذل، نقصاً في التوجه إلى خالقه ومعبوده، نقصاً في النفس. وقد ظهرت بأمره وقدرته روائع الكمال في جميع أجزاء هذا الكون. فكان حقيقاً على الله أن يتصدى إلى تكميل الإنسان بإرسال الرسل ويجعلهم في الأرض أئمة أدلاء على مرضاته لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعلمون: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٧٣] .

* * *

إن الله قد وهب الإنسان من الفكر والذكاء حتى تمكن، بما أودع من نظم وقوانين متقنة عند خلق هذا الكون، من أن يعلم أن كوكب (السماك الرامح) تبعد عنا ٣٨ سنة ضوئية ويعلم أنه إذا أريد الاتصال به (بالسماك الرامح) بالراديو الآن لوصلت إليه رسالتنا بعد ٣٨ سنة ويجب أن ننتظر ٣٨ سنة أخرى كي يأتينا الجواب من الكوكب المذكور. ويعلم أن سرعة أمواج الراديو كسرعة الضوء: (٣٠٠٠٠٠كم/ ثانية)، ويعلم أننا نرى اليوم سنة ١٣٧٩هـ أو ١٩٥٩م طيفاً وخيالاً نقله إلى أعصابنا البصرية شعاع انطلق من مصدره سنة ١٣٤٠هـ أو ١٩٢١م فقبل حلول سنة ١٤١٨هـ أو ١٩٩٧م وهو

موعد وصول جوابنا إلى الكوكب المذكور لا نستطيع أن نقطع فيما إذا كان (السماك الرامح) موجوداً حقاً. على أنا يجب أن ننتظر ٣٨ سنة أخرى لوصول الجواب إلينا. عند ذلك نعلم أن الكوكب المذكور كان موجوداً سنة ١٤١٨هـ أو ١٩٩٧م. ذلك لأن كواكب تتشكل من جديد وأخرى تفنى وتبيد.

كل ذلك كافٍ بأن يحمل هذا الإنسان، قبل أن يلوث نفسه، على التفكير في عظمة خالق هذا الكون وموجد هذا الإنسان، ويستنتج من كل ذلك أن أهداف الخالق يجب أن تتناسب مع عظمته وكماله. وهذا يؤدي إلى القول بأن الله المنظم لهذه الكائنات تنظيماً لا يتخلله أي نقص لجدير بأن يأخذ بهذا الإنسان إلى التكامل والتقدّم الروحي والخلقي فيرسل أنبياءَ ومرسلين لتطهير الناس مما علق بهم من أدران ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٢]، ينيرون لهم ما أدلهم عليهم من سبيل ويضيئون لهم الطريق، فيأخذون بنفوسهم إلى حيث الكمال والخلود. فقد قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارمَ الأخلاق». وقد خاطبه الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم: الآية ٤].

* * *

الله الذي سخر لهذا الإنسان ما في السموات[١] وما في الأرض[٢] والشمسَ والقمر[٣] والليل والنهار[٤] والبحر[٥] والفلك[٦] والأنهار[٧] جل أن يريد بهذا الإنسان أن يكون آلة فساد في هذه الدنيا يتسافل يوماً بعد يوم بظلمه وطيشه وغروره حتى يقول المتطفل على العلم الحديث متبختراً، أن العلم ينتزع الفضاء وأن العلم يسخر من الطبيعة وأن العلم هو حلال المشاكل، فيجعله معبوداً له، دون أن يتوجه إلى معطي العلم وواضع العلم في هذا الكون، بخشوع وخضوع.

---

(١) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.
(٢) ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾..
(٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾.
(٤) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.
(٥) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾.
(٦) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾.
(٧) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾.

فالله تبارك وتعالى إنما سخر لهذا الإنسان ما سخر وهيأ له أسباب التعرف إلى بعض ما أودع في هذا الكون من خواص وقوانين لكي يتكامل نفسياً فتتحقق إنسانيته ولكي يتطهر مما علق به من رجس ودنس. وبما أن الوصول إلى هذه الغاية العظمى التي هي غاية الغايات غير حاصل إلا على أيدي الأنبياء الطاهرين وبما جاؤوا به من سنن تكامل النفس من جانب الله تعالى، لذلك أرسل الله عدداً كبيراً من الرسل يهدون البشر سواء السبيل.

ولا مراء أن الله أعرف بطرق تكامل النفس من هذا البشر الملوث، لأن هو خالق النفس ومبدعها. فلا تفيد متابعة رأي الفيلسوف أو علماء النفس في سير الإنسان التكاملي لأنه بشري غير سماوي، ولأنه يحمل من نفس الفيلسوف غير المتكامل ما يناسب نفسيته وهو غير ما أمر الله به على لسان أنبيائه عليهم السلام. فلا تكامل ولا نجاة إلا بإتباع سنن الأنبياء عليهم السلام وتعاليمهم تلك التي لم تمسها يد التحريف.

* * *

كان نبينا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله خاتم النبيين وأكملهم خَلقاً وخُلقاً، جاء بشريعة سمحاء، لا تتغير ولا تتبدل، من لدن رب العالمين، «حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة»، وقد هدى البشرية إلى طريق الحق وإلى صراط مستقيم بتعاليمه وأعماله. وقد قال الله تعالى فيه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٢١].

فلا أخلاق أعلى من أخلاق الرسول وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين. عبادتهم فوق العبادات وخشوعهم لا يقاس بخشوع غيرهم من البشر. فمن أراد أن يتطهر ويتزكى، فعليه أن يقتفي آثارهم ويسلك مسالكهم.

فاقرأوا الأدعية الواردة عنهم، لتروا كيف يجب أن يقبل العبد مولاه. نعم، إن الديانة الإسلامية لا تقتصر على العمران الدنيوي فحسب وقد أدت حقه بنظمها المتينة وقوانينها العادلة، ولكن للديانة الإسلامية غاية أعلى وأرفع وهي إيصال الفرد إلى الدرجات العالية من التقرب إلى الله تعالى والدنو من الساحة القدسية.

فكلما طهر الإنسان من الرجس وكلما عمل عملاً صالحاً يرتضيه الله ولوجه الله، تقرب إلى الله وأحبه الله وقرَّبه منه، حتى يصبح مصداق هذا الحديث: «عبدي أطعني، أجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون». وفي الحديث القدسي يخاطب الله الإنسان بقوله: «خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي». وفي القرآن الكريم: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٩].

قال رجل للإمام الصادقعليه السلام: ما علامة المؤمن؟ فقال عليه السلام: «أن يقول للشجرة تأتي، فتأتي». فشقَّت الشجرة الأرض وتوجهت نحو الإمام الصادقعليه السلام.

فإنّ للإنسان قابلية سامية تعلو جميع القابليات؛ قابلية الخلق والإبداع بإذن الله تعالى وذلك بعد تزكية النفس، ولكن لا على ما يتصوره الغربي، ذلك لأن الغربي يعلم شيئاً من ظواهر الطبيعة فحسب وذلك بصورة ناقصة، كما يعترف بذلك كبار علمائهم. كان يقول (كوستاولوبون): «قد علمت الفلسفة بعد عناء طويل أن لا سبيل إلى ما وراء الطبيعة». فهذا مبلغ علماء أوروبا من العلم بما وراء الطبيعة.

قام في الغرب، مهد الفجور والفسوق، ثلة من الناس أرادوا أن يسنوا سنن تزكية النفوس وأسموها تطهير العقل أو غاسل الدماغ (Brainwashing) وأخذوا يوصون أتباعهم بالنوم على الأرض والأكل القليل والتقشف والتخشن والصمت، ظناً منهم أن هذه التعاليم البشرية توصل الفرد إلى كمال ما[1]، أو إلى الحقيقة الواقعية، وظنوا على أنفسهم بأن يستقوا من تعاليم محمد وآل بيته الأطهار سلام الله عليهم أجمعين، تلك التعاليم التي قد جاءت من جانب الله تعالى من وراء الطبيعة، لإصلاح نفوس ليست من المادة في شيء وتهيئتها لسعادة الدارين.

وما معنى تطهير العقل أو غسله. إن التزكية أمر نفسي تتصل بأفعال النفس مباشرة. والعقل الفطري لا يحتاج إلى غسل أو تطهير. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا

(١) إن ما ذكر من الأعمال قد توصل الفرد نتيجة رياضات خاصة إلى ما يميزه عن أقرانه من ملكات وقابليات جزاء منه تعالى في الدنيا. ولكنها أرضية بشرية لا تصفي النفوس ولا تزكيها ولا تجعلها مستعدة لآخرة سعيدة. وشرح ذلك يطول.

وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ [الشَّمس: الآيتان ٧/٨]. وقول الإمام علي عليه السلام: «يشهد بذلك العقل لو سلم من أسر الهوى» بل العقل يعمل عمله ما دامت النفس طاهرة غير ملوثة بالذنوب. فإذا تلوثت انسحب العقل ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: الآية ٢٥] وقام مقامه الشيطان ونفس مطيعة لهواها ولما يملي عليها شيطانها. فقد قال علي عليه السلام: «من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً». إلا أن التوبة وملاقاة ما فات ترجعان إلى الإنسان عقلَه الطبيعي الفطري، ذلك العقل الذي يُعبد به الرحمن ويكتسب به الجنان.

إن هذا النوع من الخلق والإبداع خلق فجائي بإذن الله تعالى دون مقدمات. وهي معاجز قد أظهرها الله تعالى على أيدي الصفوة من عباده. فمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ليس مصلحاً فحسب، بل هادٍ وموصل بعض الأفراد إلى الدرجات العلى، درجات لا يعلمها ولا يدركها إلا من قطع هذا الطريق. موصل إلى مقامات لا تدخل تحت مخبر الكيميائي ومجهر العالم الطبيعي.

مقامات قد ينكرها بادئ ذي بدء كل من مارس الحياة المادية وعلومها وقوانينها المادية ولم يمد يداً إلى عوالم تطهير النفس ولم يشم رائحة من روائح ما وراء الطبيعة الفواحة.

إنما بعث الله الأنبياء لتكميل البشر بصورة تدريجية في عوالم النفس، ذلك لأن الإنسان إنسان بنفسه وروحه لا بعظامه وعضلاته وبزَّته وأثاثه. وليس من وظائف الأنبياء عليهم السلام تعليم الناس الفيزياء والرياضيات والكيمياء. ذلك لأن قوانين الفيزياء والقوانين الرياضية لا تمتُّ إلى النفس الإنسانية بصلة ولا علاقة بينها وبين مراحل النفس الإنسانية. فالمهندس يعمل حسب ذكاء أودعه الله فيه ويضع التصاميم الهندسية سواء كان مؤمناً أو كافراً أو وثنياً. ثم أن قوانين العلوم الحديثة تكاد لا تتناهى، لعدم تناهي علم الله تعالى، لذلك أوكل الله تعلّم هذه القوانين إلى ذكاء الإنسان نفسه، وعلَّمه طرق الملاحظة والتجربة والاستنتاج والاستقراء، فكانت هذه القوانين التي نراها في طيات الكتب وهذه العلوم والمكتشفات.

ولقد سمعت أحدهم، كان يفاضل بين أديسون «هذا الذي كان يؤمن بالله وبالنبي

عيسى ﷺ» وأحد الأنبياء ظناً منه أن الحياة لا تستقيم إلا بالكهرباء. والناس كانوا موتى قبل ذلك! . .

لم يؤتَ بهذا الإنسان إلى هذه الدنيا لكي يتنعم بالكهرباء فحسب، (مع قلق لا مزيد عليه)، بل الغاية الأسمى من وجوده في هذه المرحلة الدنيوية، التكامل؛ التكامل في عالم النفس، في عالم الأخلاق، في عالم الروح، والتطهر من كل رجس ودنس. ولا يقدِّر بل لا يفهم ما أقول من كان بعيداً عن هذا العالم القدسي، منغمراً في أحضان المادة العمياء ولا ينظر إلى هذا العالم إلا من الناحية المادية أو الاقتصادية فحسب. فقد جاء في الحديث: «الدنيا مزرعة الآخرة». وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣] . فالنبي ﷺ يعلم البشر سنن التقوى، سنن التكامل، سنناً بها يكون الإنسان ملكاً من الملائكة.

فهنا حرثان (Culture) حرث دنيوي وحرث أخروي، فلو اقتصر الفرد على الحرث الدنيوي تسافل إلى حضيض المادة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفُرقان: الآية ٤٤] ولكن لو أخذ نصيبه من الحرثين، بل أثر حرث الآخرة على حرث الدنيا كان من الفائزين المقربين: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: الآية ٢٠] . ولذلك يذكر الله تعالى عباده بالحياة الآخرة ولزوم الاستعداد لها حين يأمر بالعمل في هذه الدنيا من تجارة وصناعة وزراعة وغيرها بقوله: وإليه النشور، ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [المُلك: الآية ١٥] . إن الله تعالى أرسل الأنبياء لتزكية الناس وتطهيرهم مما علق بهم من أدران وأوساخ على حد قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجُمُعَة: الآية ٢] .

بعثهم ليعلموا الناس الحلال والحرام، لأن النفس الإنسانية تتردى وتتدنَّس بالحرام وتتزكى وتتطهر بالحلال.

بعثهم ليعلِّموا الناس آداب المعاشرة والاجتماع ليعيش الناس في دعة وسلام مؤمنين مُخبتين.

بعثهم ليعلِّموا الناس الأعمال الصالحة التي بها تزكو النفس فتخرج من الظلمات إلى النور، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هُود: الآية ١١٤] .

بعثهم ليجعلوا هذا الإنسان (لو اتبع الحق وأطاع) إنساناً كاملاً بالمعنى الصحيح ولتأسيس الإنسانية الكاملة في هذا العالم. لا في تلك المرتبة التي يفهمها من كلمة (إنسانية humanite) الفيلسوف الغربي.

وليس للبشر أن يعدِّل ما سنَّه الله على لسان أنبيائه، مع اختلاف الظروف والأوساط والأزمنة. ذلك لأن الله تعالى أعرف بحاجات البشر وطرق تكامله، ولا تنظر هذه السنن الإلهية إلى حاجات بهيمية موقتة أو أمور دنيوية عاجلة فحسب، بل تهدف إلى تكميل النفس الإنسانية وجعلها قمينة بالخلود في «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

على أن الفقهاء يستنبطون أحكام ما جدَّ من أمور وحوادث على ضوء النصوص والقواعد العامة ولا يخرجون عن فحواها وحقيقتها.

إن البشرية مغرورة في يومنا هذا في أفكارها مع كثرة جهلها النواحي الروحية وانغمارها في كثير من الملاهي والمفاسد. وإن الإصلاح الحقيقي ينحصر في الرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه الأمين وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين. لا إدخال ما جاء من أوروبا المضطربة من المدنية الغاشمة الفاسدة في دين محمد ﷺ الطاهر. فتحليل الربا وتجويز البغاء ومجالس اللهو والطرب ليس من الإصلاح الحقيقي في شيء.

إن الله يريد أن يطهر النفوس الإنسانية ويقربها إليه، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: الآية ١٠٣] . ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: الآية ١٥١] . فلا إمكان لنيل هذه الغاية الشريفة إلا أن يكون الإنسان مصداق كلام الإمام علي عليه السلام حيث يقول: «صبروا أياماً قليلة فأعقبتهم راحة طويلة». ولا أعني بالصبر، الصبر على الضيم والأذى. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: الآية ٨] . والمؤمن يعمل حسب هذه الآية الشريفة: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: الآية ٥١] . بل يراد بهذا

الصبر، الصبر عن الشهوات والنزوات والجَلد تجاه النوائب والكوارث.

إن دين الإسلام وهو خاتمة الأديان دين تزكية وتطهير، بنواميسه وقوانينه وواجباته ومستحباته: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ [اللَيْل: الآية ١٨]. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾. ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ [فَاطِر: الآية ١٨].

إن تقهقر المسلمين ليس إلا لأنهم تركوا العمل بما أمر به الله ورسوله ﷺ وقلدوا الغرب في كثير من شؤونهم الاجتماعية والاقتصادية. فليس الشرق بمحتاج إلى الغرب إلا في العلوم المادية، من صناعية وزراعية وميكانيكية وهندسية... الخ. ولكن الشرق (ومع الأسف) قد تأثر بكتب الغرب الأخلاقية والاجتماعية والفلسفية والمادية والإلحادية أكثر من صنائعها واكتشافاتها في عوالم المادة. فصار الشاب (إلا من عصم الله) يزدري بعض ما كان يعتقد سابقاً من عقائد دينية وهو لم يبلغ من العلم المادي مبلغاً يذكر وهو حين يزدري يظن بل يوقن أنه قد انفتح عليه باب من أبواب العلم الحقيقي وقد بلغ مرتبة مرموقة من ثقافة العصر! وقد تبلغ به الحالة إلى الإلحاد!. ومع الأسف. فقد باع بعض الأمم الإسلامية تلك المدنية الإسلامية القويمة لاقتناء هذه المدنية المادية الحالكة ظناً منهم أنهم بلغوا مرتبة مرموقة من التقدم والتطور. حين أنهم أضاعوا المقدسات واندكوا في القومية الغربية. على أن هنالك إمارات تبعث على الاعتقاد بأنهم سوف يرجعون إلى تطبيق قواعد الإسلام عن قريب إن شاء الله، معترفين بأن الكمال النفسي ليس من المادية في شيء.

إن التطور ذو جنبتين: تكامل إلى العلى، وتدهور إلى أسفل السافلين. لكن العصري المتجدد، يزعم أن الحياة في تقدم مستمر وكل شيء في تقدم. فلا تردي ولا تدهور. فذهاب العصمة والعفة مثلاً ليس إلا نوعاً من التطور. ويجب أن تتابع القوانين الموضوعة (الوضعية) هذا التطور وإلا فالحياة غير ممكنة! كلا. لا تطورَ للإسلام. الإسلام دين ثابت وأوامر الله ثابتة لا تتغير، وهو أعرف بطرق تكامل مَن خلق من العباد. فإذا رأينا أن التيار اللاديني (لا سمح الله) أخذ في وقت من الأوقات في ازدياد، علينا أن نسلِّم لهذا الحديث: «لا يزال ينقص من هذا الدين حتى لا يقال: الله».

فيكون، إذ ذاك واجب المسلم الغيور على دينه، من حيث الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر، أعظم. ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٤] وقد فسّرت كلمة (الخير) في الآية، بالإسلام.

ففي هذا اليوم، في كل بقعة من بقاع الأرض، شرقها وغربها عدد غير قليل من المسلمين، يؤدُّون الفرائض، يصلُّون ويصومون، وقد جاء في مجلة العرفان، عن طالب كان يدرس في الغرب: أنه بينما كان يسير في شوارع إحدى العواصم الغربية وإذا به يرى رجلاً شيخاً واقفاً على عتبة داره يؤذن للظهر بصوت رفيع، يقول هذا الطالب: تريثت حتى أتم الشيخ أذانه، سلمت عليه فرد عليَّ السلام وزيادة، قائلاً: «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته». عملاً بهذه الآية الشريفة: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النِّساء: الآية ٨٦] . ثم دعاني وأدخلني داره. فقام هو وزوجته يصليان صلاة الظهر ثم طلبا منّي أن أتناول طعام الظهر معهما فلم يبدئا بالأكل حتى قالا: «بسم الله الرحمن الرحيم». وبعد الانتهاء من الطعام، قالا: «الحمد لله رب العالمين»، فسألت عن وظيفة يقوم بها الشيخ المؤذن المسلم. فقال: إنه أستاذ في الجامعة. وبلغ مرتبة (Doyen): شيخ الأساتذة.

فدين الإسلام، دين يعتنقه كبار المفكرين من الذين صلحت أعمالهم وطابت نفوسهم. وهذا (برناردشو)، يقول: «لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولاً لدى أوروبا غداً». وكان يقول كارليل: «بإتباع التعاليم الإسلامية يصبح الإنسان إماماً كبيراً لهذا المعبد: (الكون)». وقال أيضاً: «كان العرب يضربون في الصحراء لا يؤبه لهم عدة قرون. فلما جاء النبي العربي أصبحوا قبلة الأنظار في العلوم والعرفان. وكثروا بعد القلة وعزُّوا بعد الذلة ولم يمضِ قرن حتى استضاءت أطراف الأرضين بعقولهم وعلومهم».

ولو قام المسلمون بتأسيس جمعيات للنشر والتبشير في أصقاع الغرب لأسلم ملايين من الناس ولأصبح الإسلام ديناً عالمياً.

كان جابر الجعفي من كبار المجاهدين في الكوفة وكان ينشر أخبار محمد وآل

محمدﷺ، وكان قد حفظ سبعين ألف حديثاً سمعها من الإمام محمد الباقرعليه السلام. فما راق الحاكم ما كان يقوم به جابر، لأن أهل البيت عليهم السلام كانوا مضطهدين في العصر الأموي. وأحس جابر بأن الحاكم قد أمر بالقبض عليه، فلم يرَ بداً من أن يضع على رأسه قلنسوة من خوص ويتخذ عصا كحصان له ويركض في الطرق والشوارع كالمجانين، فحسبه الحاكم مجنوناً وتركه، ثم إن جابراً رجع إلى جهاده ونشر أخبار أهل بيت العصمة عليهم السلام بعد سنتين وبلغ مراده.

فلنقتفِ آثارَ أولئك الأبطال الذين بذلوا النفس والنفيس في سبيل نشر هذا الدين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: الآية ٣٠].

كيف يختار اللّه أنبياءه عليهم السلام

إن الله تبارك وتعالى هو معطي الكمالات، فلا ترى أيَّ خلل في ما خلق، وإن جميع المخلوقات من مادية وروحية مرتبطة بعضها ببعض، تشير إلى أن خالقها واحد لا شريك له: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [المُلك: الآيتان ٣/ ٤].

وإن من توغل في فلسفة العلوم التي تربط عصارات العلوم ونتائجها بعضها ببعض يرى ذلك جلياً ويقوى إلى حد ما على تفسير الآية المتقدمة التي يجب أن تدون في تفسيرها كتب عدة.

النبوة ليست إلا سفارة ربانية يودعها الله أكملَ عباده خَلقاً وخُلقاً، أي أكملهم في البدن والروح أو في الحسب والنسب وطهارة النسل والمولد والأخلاق المثالية الكاملة وخلاصة ذلك أن الله يودع النبوة شخصاً مستجمعاً لصفات العصمة والكمال.

إن الله وهو الكامل على الإطلاق لا يرجح أحداً على أحد دونما سبب وحكمة، وهو معطي الحكمة وحاشا أن يلهو وهو القائل: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧﴾ [الأنبياء: الآية ١٧]. فلا يسند أمر السفارة بينه وبين خلقه إلا إلى أكمل عباده.

والله تعالى عادل، إذ العدل صفة ملازمة للكمال، وأن الكامل غير محتاج، ولا يحيد عن العدل إلا من كان محتاجاً إلى الجور والظلم، والكامل غني عن ذلك كله، لعدم وجود حاجة لديه إلى شيء. إذن وجب أن نبحث عن الصفات التي توفرت في ثلة من الناس حتى أسند إليهم منصب السفارة الإلهية كي يقوموا بتكميل البشر وإيصاله إلى الكمال المنشود.

الصفة الأولى: هي طهارة المولد. ذلك لأن لهذا النوع من الطهارة أثراً فعالاً في الاتجاهات النفسية كما تؤيده التجارب. فالأنبياء كلهم وأكملهم نبينا محمد ﷺ كانوا يتقلبون في أصلاب طاهرة وأرحام مطهرة «طابت وطهرت بعضها من بعض». «فأسرة محمد ﷺ خير أسرة[1]، وشجرته خير شجرة، أغصانها معتدلة، وثمارها متهدلة، كلما قسم الله الخلق فرقتين جعله في خيرهما. لم يسهم فيه عاهر ولا ضرب فيه فاجر».

وفي إثبات الوصية للمسعودي شرح وافٍ في كيفية انتقال النبوة والسفارة الإلهية والوصية من لدن آدم من بطن إلى بطن حتى انتهت إلى محمد ﷺ. فنور محمد ﷺ توارثته الأنبياء حتى انتهى إلى عبد الله بن عبد المطلب.

* * *

ثم إن الله تعالى لا يجتبي أحداً ولا يرجح بين عباده إلا بالتقوى. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: الآية ١٣]. فالأنبياء ﷺ هم أتقى الناس وأورعهم وأزهدهم. وإن محمداً ﷺ كان منذ صغره وطفولته مثلاً رفيعاً للتقوى والكمال. لم يتأثر ببيئة كانت تعبد الأصنام وتأتي بأنواع الفجور والفسوق والبغي والظلم خلافاً لما يقرره علماء التربية وعلم النفس في عصرنا، «إن الطفل يتأثر من بيئته إلى حد كبير». فلم يسجد لصنم ولم يحضر مع قومه في أي عيد من أعياد الأصنام. ولم يأكل قط مما كان يذبح قرباناً للأصنام. فكان منذ صغره حسن الخلق، طاهر العقيدة، لم يتلوث تفكيره بعقائد الجاهلية ولم يحاطِ أترابه في لهوهم وسمرهم. ولما صار زوجاً لخديجة كان على درجة من رغد العيش تمكنه من أن يعيش عيشة هنيئة كما يعيش عظماء مكة وأغنياؤها، لكنه مع

---

(١) من نهج البلاغة، الجزء: ٢ ص: ٧٧.

ذلك كان زاهداً في الحياة الدنيا ولذاتها، متقشفاً مؤثراً بساطة العيش. فحببت إليه العزلة. لقد اختار غار (حراء)، في جبل يبعد عن مكة ثلاثة أميال. كان يخلو فيه بنفسه أياماً وليالِيَ متتابعة، فيفكر فيه في عظمة الخالق جلَّ جلاله وما أودع في هذا الكون من خواص وأنظمة ما يحير الألباب ويتعبد فيه لربه. إنه صلوات الله عليه لم يشرب الخمرة في شبابه خلافاً لمن هم في سنه من الشبان. وكان متحلياً بمكارم الأخلاق من صدق وأمانة وعفة ووفاء إلى حد بعيد. إن عزلة محمدﷺ كانت للتفكر والتأمل وذلك بإلهام منه تعالى كي يزداد صفاءاً وتقرباً إلى الله جلت عظمته، حتى تصبح نفسه الزكية على أتم استعداد لتلقي أعباء الرسالة العظيمة التي اختاره الله لها.

كل ما ذكرنا مؤهلات لأن تجعل محمداًﷺ فوق من على البسيطة في ذلك الوقت بل وفي كل وقت وزمان فتنحصر فيه الرسالة بجدارة لا يضاهيه فيها أحد أبد الآبدين.

* * *

إن عصارة التقوى تتجلى في الشكر، ولا صفة تقرِّب العبد إلى الله تعالى كالشكر. يأتي النبيﷺ إلى بيت إحدى زوجاته، ينهض من فراشه ولا ينام. يتوضأ بماء قليل، يستقبل القبلة ويصلي. وكلما تستيقظ زوجته تراه مصلياً، وشاكراً ربه. فتقول: «ألا تنام، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر»، فيقول صلوات الله عليه: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

إن الشكر على ضربين. شكر لساني وقلبي، وشكر عملي. فأما اللساني: أن يذكر العبد مولاه في كل لحظة ويحمده على عظيم نعمائه وحسن بلائه، وأن لا يفتر عن ذلك. وأما الشكر العملي، فيتجلى في الأعمال الصالحة والقيام بمبرَّات وأعمال خيرية والإيثار والجهاد في سبيل الله والقيام بأداء الحقوق من مادية ومعنوية وأمثال ذلك. وإن رسالة الحقوق لمولانا الإمام زين العابدينعليه السلام توضح ذلك. فهنيئاً للعاملين «وقليل ما هم». نفس النبي فوق النفوس المتعارفة وما تجمعت فيه من الأخلاق المثالية فوق الأخلاق العادية. ولا تودع السفارة الإلهية نفوساً لها من الثراء والمال والجاه والمكانة شيء مرموق، لأن هذه الأمور لا تمتُّ إلى النفس بصلة. وإنما النبوة

قضية نفسية بحتة، كما أن الإيمان لا يلج نفوساً لها شيء من المكانة والاعتبارات الدنيوية فحسب، بل تدخل نفوساً شاكرة لله، نفوساً لها من الصفاء والجلاء ما يجعلها لائقة لقبول الحق، فلا تتكبر عن الإذعان بما هو حق ولا تحسد ولا تبخل. فإن أصول الكفر ثلاثة: «البخل والحسد والكبر» كما جاء في الحديث.

كان محمدﷺ مشهوراً بين قومه بأمانته وطهارة نفسه وعفته، وكان متحلياً بمكارم الأخلاق على عكس غيره من شبان زمانه. والمعروف أن فترة الشباب من عمر الإنسان هي الفترة التي يندفع فيها الشبان إلى الشهوات. ولكن حياة محمدﷺ في هذه الفترة كانت حياة مثالية نموذجية حتى لقبه قومه بالأمين. ولذلك لم يجد قومه عند ما اشتد الخصام بينهم وبينه، شيئاً يمس شرفه أو يطعن في عفته، مع أنهم كانوا حريصين على النيل منه في هذه الناحية. فقد كانت دعوته قائمة على إشاعة طهارة النفس والمحافظة على العفة، ومقاومة التيارات النفسية الخبيثة. فإذا نفذوا إلى شيء مما يريدون استطاعوا أن يشككوا العرب في دعوته حتى ينفضُّوا عنه. وكان من المألوف آنذاك الانحراف الخلقي، ومع ذلك فلم يقف أعداؤه على حادثة واحدة يجرحونه بها. وإذا أضفنا إلى ذلك ما يقوله علماء النفس من أن فترة الشباب فترة خطيرة تثور فيها الغرائز الجنسية[1] استطعنا أن نفهم قوة إرادة محمدﷺ في ضبط نفسه في شبابه وتحكمه في ميوله الجنسية تحكماً جعله مثالاً للطهارة والعفة. وطهارة النفس وخلوُّها من الشهوات المحرمة والنزوات لمن أهم العوامل التي تجعل الفرد قميناً بلطف الله وعنايته وجديراً بأن يكون هادياً للناس أجمعين. يقول (السير وليم موبر): «إن النبي محمداً في شبابه طبع بالهدوء والدعة والطهر والابتعاد عن المعاصي التي كانت قريش تعرف بها». فمن

---

(١) لذلك يستحب التبكير في الزواج. وفي الحديث: «من تزوج أحرز نصف دينه فليتق الله في النصف الآخر». وفي آخر: «ما بني بناء أحب إلى الله تعالى من التزويج». ويكره أن تحيض البنت في بيت أبيها. ويستحب لمن أراد التزويج أن يصلي ركعتين ويقول بعد الانتهاء: «اللهم إني أريد أن أتزوج، فقدر لي من النساء أعفهن فرجاً وأحفظهن لي في نفسها ومالي وأوسعهن رزقاً وأعظمهن بركة وقدر لي ولداً طيباً تجعله خلف صالحاً في حياتي وبعد موتي».

كان في شبابه مثالاً لطهارة النفس والعفة إلى حد بعيد، يستحيل أن يجري وراء الشهوة واللذة بعد بلوغه سن الاكتمال والرزانة. وهو يخوض معارك طاحنة مستمرة. فقد اكتفى بخديجة ﵂ وهي أكبر منه ١٥ سنة إلى أن بلغ ٥٤ من عمره. ثم تزوج بسودة ثم بعائشة تلبية لرجاء أبي بكر حيث شاهد الرسول ﷺ مغموماً على فراق خديجة ﵂، ثم تزوج بالعجائز والأرامل اللاتي فاتهن سن الشباب وقد أصبحن بلا عائل لأنه قد استشهد أزواجهن في الغزوات ولقد تنبه بعض كتّاب المسيحية المنصفين فقالوا: «إنه لا يمكن أن يكون الدافع لمحمد على الإكثار من زوجاته في هذا الوقت إلا الرحمة والشفقة. ومن البعيد جداً أن يكون قد قصد من هذا اللذة والمتعة، لأن من تزوج منهن كنَّ متقدمات في السن وأرامل فقيرات».

لاسيما وأن الرسول قد أمر بالتهجد وإحياء بعض الليل بالصلاة. وتلاوة القرآن ومناجاة ربه، وما أعظمها، وذلك لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ[1] ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾ [المُزمل: الآيات ١/ ٤]. ثم يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ [المُزمّل: الآية ٢٠]. وقد ثبت من حياته ﷺ أنه كان يقرأ القرآن وهو قائم في صلاته حتى تتورم قدماه. فأين الوقت الذي يبقى بعد ذلك حتى يبلغ فيه مراده من اللذائذ مع ما هنالك من غزوات وحروب؟

وكان في استطاعة الرسول ﷺ أن يمتلك الجواري والعبيد ويعيش في قصور وتكون له أبهة كسرى وعظمة هرقل، لكن رضي ببساطة المسكن والملبس، وكان يشد على بطنه حجر المجاعة. ولما رأت زوجاته أن نساء المسلمين قد تغيرت أحوالهن وأصبحن تتقلبن في النعيم شكون إليه، وكنَّ يعتقدن أنهن صاحبات حق في التمتع بما يتمتع به غيرهن، بسبب الرخاء الذي أصاب الدولة الإسلامية. فنزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ

(١) المزّمل: أي المتزمل. أدغم التاء في الزاء. من تزمّل: أي تلفف ثيابه. خوطب به ﷺ لأنه ارتعد بدء مجيء جبرئيل. فقال: زماوني او من: تزمل الزمل أي تحمل الحمل، أي المتحمل لأعباء النبوة.

وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: الآيتان ٢٨/٢٩].

* * *

وقد قلنا أن من أهم الصفات التي تجعل الفرد قريباً إلى الله تعالى وموضع لطفه ورفده إنما هو (الشكر). ذلك لأن الكمال الإنساني إنما يتجلى بأدائه واجب الشكر تجاه المنعم، لذلك يقول الله تعالى وهو الحق: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ٥٣] .

إن المشركين أخذوا يزدرون الذين آمنوا، يعترضون على إيمانهم، لأن هؤلاء المؤمنين ما كانوا يملكون من المال والجاه شيئاً وذلك بقولهم: إزدراءاً، ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ﴾ [الأنعام: الآية ٥٣] . وقد فاتهم أن الإيمان روحي، يتوجه إلى النفس الإنسانية مباشرة، ولا علاقة له بالمال والجاه. والإيمان يحلُّ في النفوس الشاكرة. فكلما كانت النفس شاكرة أكثر كان إيمانها أقوى وأمتن، حتى ينتهي إلى الوصاية والنبوة. والنفس الشاكرة ليس لها إمارات خارجية وعلامات فارقة مادية كالثياب الفاخرة وأعوان وأنصار ومنصب وجاه. وقد تجد هذه النفس الشاكرة في رقاع ولا تجدها في قارون.

نعم، إن هؤلاء المتكبرين كانوا يقولون: «لو كان خيراً ما سبقونا إليه». أي لو كان ما أتى به محمد خيراً ما سبقنا إليه، هؤلاء الفقراء المهينون ونحن أرفع منهم. كأن الخير يتبع المال والمنال والجاه والمنصب. حين أن هذه الأمور عوائق تعوق النفس الإنساني من أن تتوجه نحو الحق والواقع لو لم تستعمل في ما أمر الله به، ولم تؤدَّ حقوقها وواجباتها، وقل من يقوى عليها إلا من رحم الله.

روي أن أبا جهل قال: «زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبي يوحى إليه، والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ

يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعَام: الآية ١٢٤] [(١)]. فإن هؤلاء المعترضين كانوا مع إجرامهم وآثامهم وفسوقهم يريدون أن يكونوا أنبياء. حين أنهم يستحقون الصغار والهوان والعذاب والخزي بما كسبت أيديهم. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٢]. فالبشر كلهم في نظر الله على حد سواء. من أطاع منهم بلغ مراتب عالية حتى تنتهي إلى النبوة أو ما يقارب النبوة، وقد جاء في الحديث القدسي، أن الله تعالى يقول: «عبدي أطعني أجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون». أرأفة أعظم من هذه؟ يعطي الله عبده إذا أطاعه صفة الخالقية والإيجاد بإذنه تعالى: يقول للشيء كن، فيكون. وهذه هي المعاجز التي ظهرت على أيدي الأنبياء والأوصياء ﷺ بإذن الله تعالى وقدرته جلَّ وعلا.

ثم يجب أن تكون نفس النبي نفساً متعلقة بالحق لا تفتر عن التوجه إلى الله ومناجاته تعالى وذكره جلَّ وعلا طرفة عين أبداً. لا ترى شيئاً إلا وترى الله معه وقبله وبعده.

إن النبي ﷺ كان لا يقوم بعمل إلا ويذكر الله تعالى. يراقب الله في جميع الأمور ويخشاه. فإذا جاءه أمر يحبه، قال: «الحمد لله الذي بنعمته تنمو الصالحات». وإذا أتاه أمر يكرهه، قال: «الحمد لله على كل حال». وإن قصد فعل شيء، قال: «اللهم خرلي واختر لي». وإن أراد سفراً، قال: «اللهم بك أصول وبك أجول». وإذا أراد نوماً، قال: «اللهم باسمك وضعتُ جنبي وباسمك أرفعه». وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور». وإن لبس ثوباً جديداً، قال: «الحمد لله الذي رزقني ما أتجمَّل به في حياتي». وإن أكل، قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين». وإن شرب، قال: «الحمد لله الذي جعل الماء عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا». وإذا أفطر، قال: «الحمد لله الذي أعانني فصمت ورزقني فأفطرت». وإذا رفع بصره إلى السماء، قال: «يا مصرّف (مقلّب) القلوب ثبت قلبي على طاعتك». وإذا أصابه همٌّ، قال: «حسبي الخالق من المخلوقين، حسبي الرازق من المرزوقين، حسبي الذي هو حسبي، حسبي الله ونعم الوكيل».

فهذه الصفات هي بعض ما يجب أن يتوفر في من يناط به تكميل الناس أجمعين.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٨، ص٢٣٥، باب ١.

ثم إن قدسية النفوس لتؤثر في سيماء الأبدان فتضفي عليها نوراً وبهاءاً، من شاهدها ابتهج وسكن إليها وآمن بها، يعلم ذلك من خالط الأتقياء والصالحين من عباد الله. فكان وجه رسول الله يتلألأ تلألؤ القمر ليلة البدر. ولذلك كان يأتيه الأعراب، فيقولون حين وقوع أبصارهم على محيَّاه: والله ما هذا الوجه بوجه كذاب.

ولامراء، إن الصدق يصاحب الخير والبر، والكذب يساير الفجور والشر؛ وعلى ذلك كانت خديجة سلام الله عليها، تعلم من النبي ﷺ أنه الصادق البار. تقول للنبي ﷺ حين جاءه الوحي «والله لا يخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتُقري الضيف وتكسب المعدم وتعين على نوائب الحق»[1].

قال ابن سعد في الطبقات: «كان محمد ﷺ قبل النبوة، أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جواراً وأعظمهم حلماً وأمانة وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم عن الفحش والأذى وما رؤى ملاحياً[2] ولا ممارياً[3] أحداً حتى سماه قومه الأمين»[4].

وكان رسول الله وهو الذي بُعث رحمة للعالمين، يجلس على الأرض تواضعاً وينام عليها ويخصف النعل ويرقع الثوب ويفتح الباب ويحلب الشاة ويعقل البعير ويطحن مع الخادم إذا أعيى، ويضع طهوره بالليل بيده ولا يجلس متكئاً، ويخدم في مهنة أهله، ويقطع اللحم ولا يثبت بصره في وجه أحد، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع ويلبس الغليظ من القطن والكتان ويشيِّع الجنائز ويعود المرضى في أقصى المدينة ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويناولهم بيده ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشر بالبر إليهم، يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على غيرهم إلا بما أمر الله، يقبل معذرة المعتذر إليه. وكان أكثر الناس تبسماً ما لم ينزل عليه قرآن، لا يرتفع على عبيده وإمائه في مأكل ولا في ملبس، يأكل مع الخادم ويحمل بضاعته من السوق، لا يأتيه أحد حر أو عبد أو أمَة إلا قام معه في حاجته، ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يغفر ويصفح، ويبدأ من لقيه بالسلام، وإذا

---

(١) العدد القوية: ص٣٤٠.
(٢) منازعاً، وفي المثل من قد لاحاك فقد عاداك.
(٣) مجادلاً.
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد: ج٦، ص٢١٨.

لقي مسلماً بدأه بالمصافحة. وكان لا يجلس إليه أحد إلا خفف صلاته وأقبل عليه وقال: «ألك حاجة»؟. وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك. وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة. وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط له ثوبه. ويؤثر الداخل بالوسادة التي تحته. وكان في الرضا والغضب لا يقول إلا حقاً، وإذا لقيه الرجل فصافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها. وإذا لقيه أحد فقام معه أو جالسه أحد لم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف.

كان صلوات الله عليه أشجع الناس قلباً وأشدهم بأساً وأكثرهم حياءً. لا أعلم أن رجلاً يقوى على أن يثابر على صفة واحدة من هذه الصفات السامية طيلة حياته مهما عظمت نفسه وتكاملت روحه، إلا إذا كان نبياً أو وصي نبي أو بالأحرى من كان جزاؤه النبوّة أو الوصاية. نعم، إن صفات الكمال لا تصدر إلا عن نفس قدسية وروح ملكوتية قد تخلصت من قيود الأهواء وتحررت من عبودية الشّهوة، وحبِّ الصيت واستمدَّت من النور الإلهي والهداية الصمدانية.

يجب أن تكون نفس النبي بالغة من القدسية درجة يتحمل معها الوحي ويقوى على الاتصال بالمبدأ الأعلى. وكان نبينا صلوات الله عليه مع تلك القدسية البالغة يرجف ويعرق حين نزول الوحي عليه ويقول: «زمِّلوني».

فكان يغطى إلى أن يذهب عنه الروع. لذلك خاطبه الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ [المُزمل: الآيتان ١/ ٢].

ولما قدم (جارود) على النبيﷺ، قال: «إن كنت نبياً فأخبرني عما أضمرت». فخفق الرسول خفقة كأنها سِنة، ثم رفع رأسه والعرق يتحدر عنه. فقال: «إنك أضمرت أن تسألني عن دماء الجاهلية وعن حلف الجاهلية وعن المنيحة في الإسلام. ألا وإن دم الجاهلية موضوع، وحلفها مردود. ولا حلف في الإسلام، ألا وإن أفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر الدابة ولبن شاة»[1].

* * *

(١) مناقب آل أبي طالب: ج١، ص١١٣، بتفاوت.

وقد تأثر بعض علماء المسلمين بروح الغرب المادية، ففسّروا القرآن متأثرين بالمادية العصرية وأنكروا نزول الوحي بواسطة جبرئيل عليه السلام. وأنكروا وجود الجن. وقالوا إن روح محمد قد بلغت مرتبة من السموّ حتى صارت تتجلّى لها الحقائق، وخالفوا صريح القرآن والسنة المتواترة والعقل. وقاسوا الأمور الروحية وما هو وراء الطبيعة بمقاييس مادية طبيعية ولم يحتملوا أنه سيأتي يوم، يعترف فيه فلاسفة عظام بما وراء المادة. ذلك لأن الروح الإنسانية مهما تعرفت على حقائق المادة، ليس لها إذا أرادت التكامل في عوالم النفس إلا أن تستفيض من ما وراء الطبيعة. ولابد لها أن تستقي من المبدأ الأعلى الفياض بواسطة سفراء بين الله وعباده وهم الأنبياء عليهم السلام: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: الآية ٥١].

* * *

إن النفس القدسية التي لا تجاريها النفوس المتعارفة أو ما هي فوق المتعارفة لا تسيل إلى الدنيا وزخارفها وتتوجه إلى الله تعالى بكلها. فنبينا محمد صلى الله عليه وآله أعرض عن زخرف الدنيا وحضارتها ولم يستمتع بحلاوتها وقد ملك من أقصى الحجاز إلى عذار[١] الفرات ومن أقصى اليمن إلى شَحر[٢] عمان وهو أزهد الناس في ما يُقتنى ويدخر، وأعرضهم عما يستفاد ويعتكر. أتى يوماً إلى داره، فرأى ستاراً قد علق على الباب، فقال: «ارفعوه، إنه ليذكرني الدنيا»..

ويقول فيه السير (وليم موير): «إمتاز محمد صلى الله عليه وآله بوضوح كلامه ويُسر دينه، وأنه أتمَّ من الأعمال ما يدهش الألباب. فلم يشهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق ورفع شأن الإنسانية في زمن قصير كما فعل محمد صلى الله عليه وآله».

نعم، يجب أن يكون النبي محقِّراً للدنيا، متوجهاً إلى العالم الأعلى، نفسه في اللاهوت وبدنه في الناسوت. فالدنيا، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «إن الدنيا دار مجاز

---

(١) العذار من النصل: شفرتاه. أو جانب اللحية أو الشعر الذي يحاذي الأذن.

(٢) شحر عمان: ساحل البحر بين عُمان وعدن.

والآخرة دار قرار، فطوبى لمن أخذ من ممره لمقره»[١].

أنظروا كيف يصف عليٌّ عليه السلام نبينا محمداً صلى الله عليه وآله، إنه يقول: «قد حقَّر الدنيا وصغَّرها وأهون بها وهوَّنها وعلم أن الله زواها عنه اختياراً وبسطها لغيره احتقاراً. فأعرض عنها بقلبه وأمات ذكرها عن نفسه وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشاً أو يرجو فيها مقاماً. بلَّغ عن ربه مُعذراً، ونصح لأمته منذراً، ودعا إلى الجنة مبشراً. وخوف من النار محذراً نحن شجرة النبوة ومحطُّ الرسالة ومُختلَف الملائكة ومعادن العلم وينابيع الحكم. ناصرنا ومحبنا ينتظر الرحمة، وعدونا ومبغضنا ينتظر السطوة»[٢].

لقد دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله بعض الأعراب فارتاع من هيبته. فقال: «خفِّض عليك، فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة»، وكان صلوات الله عليه يمتزج بأصحابه وجلسائه، فلا يتميز عنهم إلا بإطراقه وحيائه وجليل سَمته ورِوائه.

وكان صلوات الله عليه جالساً ذات يوم في بعض أسفاره تحت شجرة، فاخترط أعرابي سيفه عليه، فأرعدت يده وسقط منها السيف ومع ذلك عفا عنه. فرجع الأعرابي إلى قومه قائلاً: «جئتكم من عند خير الناس».

ومن صفاته الخارقة: أنه صلوات الله عليه كلما رجع إلى بيته ألقى يهودي من أعلى بيته على رأسه الشريف طبقاً من رماد، فافتقده رسول الله صلى الله عليه وآله بعد أيام، إذ رأى أنه لا يقوم بعادته! فقيل إنه مريض. فعاده في مرضه، فذاب هو وزوجته حياءاً وخجلاً وأسلما.

فمن أراد الكمال وأراد أن يتخلص من براثن المادة وظلماتها التي تجعل الإنسان كالبهيمة أو أحط منها، فليتمسَّك ببعض هذه الصفات الجليلة، ليرى كيف يتسامى عن حضيض المادة وكيف يزداد معرفة بالله تعالى.

لابد لهذا الإنسان من أن يسير سيره التكاملي، ولا تكامل إلا بجعل سيرة النبي محمد صلى الله عليه وآله مثالاً رفيعاً يقتدى به. فالإنسان إن لم يكن محمدياً في صفاته وأعماله فهو غير متكامل نفسياً لا محالة. ولامراء أن الإنسان إنسان بنفسه لا بماله وبدنه وما حوله من أجهزة وآلات وما يسكنه من بيوت وقصور. إذ التكامل أمر نفسي. فطوبى لمن لم

---

(١) نهج البلاغة: ص٣٢٠، خ٢٠٣ بتفاوت. (٢) نهج البلاغة: ص١٦٢، خ١٠٩.

تغرُّه المادة وتشويهات الماديين الذين إذا استعمروا النفس فقد استعبدوا الإنسان استعباداً ما بعده استعباد.

* * *

قد سبق في علم الله أنه سوف لا يأتي بعد محمد ﷺ شخص يطيعه إطاعة تامة كإطاعة محمد ﷺ ويقوم بواجب الشكر كما يقوم به محمد ﷺ. وتجمع نفسه من الكمالات والفضائل ما جمعته نفس محمد ﷺ. لذلك يخاطبه الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم: الآية ٤] . فيختم به النبوة والرسالة، ويرسل معه قوانين خالدة ما بعدها دستور، أحكام وتعاليم تؤدي إلى سعادة الدارين: «حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة». وذلك بقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾ [الأحزاب: الآية ٤٠] .

وحاشا لله أن يصدَّ سائر الناس عن البلوغ إلى هذه المرتبة من الكمال (أي النبوة) بعد محمد ﷺ. ولكنه تعالى علم بما سيكون. وأن العلم بما سيكون من لوازم كمال الله تعالى. والعلم بما سيكون لا يوجب أن يكون شخص مطيعاً وآخر عاصياً. إذ العلم بالشيء غير الجبر في تحقيقه. فإن العلم لا ينافي الاختيار. ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ۝٣٠﴾ [الصَّافات: الآية ٣٠] . وهذا رد على المجبرة القائلين بالجبر. فالله لطيف بعباده، يهديهم سواء السبيل، ولكنهم لعدم إطاعتهم يبتعدون عن ساحة الله القدسية ويقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ١٤٨] (١). ولكن من اتبع سنة محمد وآله الأطهار سلام الله عليهم أجمعين يبلغ مرتبة من الكمال حتى يكون كأحد أنبياء بني إسرائيل. كما في الحديث: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل».

* * *

يقول علماء الاجتماع: إن النبوغ نتيجة تكامل اجتماعي؛ أي إن العظيم يأتي

---

(١) تخرصون: أي تكذبون.

متأثراً بعوامل البيئة وظروف الوسط الاجتماعي. إنهم يقولون، إذا ظهرت في بيئة ما مشكلة من المشاكل العقلية مثلاً وأخذت تشغل الأذهان واشتد الجدل حولها بين الناس واضطربت الأفكار، ظهر الفيلسوف الحكيم! لحلِّ غوامض هذه المشكلة وبيان وجه الصواب. وإذا طغت موجة من موجات الفتح في بيئة ما ظهر القائد الذي يقود الجيوش ليستولي على البلاد. وهكذا في كل ضرب من ضروب النشاط الإنساني. ويقولون إن العظيم إنما يبرز في ناحية واحدة.

فكيف إذن، ظهر محمد ﷺ في بيئة تصفها فاطمة الزهراء سلام الله عليها بقولها: «وكنتم على شفا حفرة من النار. مذقة[1] الشارب ونُهزة[2] الطامع وقُبسَة العجلان[3] وموطئ الأقدام[4]، تشربون الطرق[5] وتقتاتون القِد[6]، أذلة خاسئين. تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمد بعد اللتيا والتي[7]»[8]، وبرز صلوات الله عليه في نواح متعددة خلافاً لما يقوله علماء الاجتماع.. ذلك أمر رباني ومعجزة إلهية.

إن قوانين علم الاجتماع لا تنطبق على ما هو خارج عن نطاق البشر العادي أو فوق العادي بقليل. وأن الله تعالى إتماماً للحجة يبعث النبي الكامل في وسط فاقد الكمال، كي لا يقال: أن التدرج الاجتماعي أو التكامل الاجتماعي هو الذي أدى إلى إيجاد نابغة من النوابغ أو جهبذة من الجهابذة. على أن التكامل الاجتماعي الذي يقول به علماء الاجتماع تكامل في عالم المادة والعلوم المادية أكثر منه في عالم تكامل

---

(١) أي شربته.

(٢) لنهزة، بالضم أي الفرصة.

(٣) القبسة، بالضم: شعلة من نار تقتبس من معظمها والإضافة إلى العجلان لبيان القلة والحقارة.

(٤) مثل يضرب للمغاوية والذلة.

(٥) الطرق، بالفتح: ماء السماء الذي تبول فيه الإبل وتبعر.

(٦) سير بقد من جلد غير مدبوغ. أو لشيء المقدود. قدد اللحم: جعله قطعاً وجففه.

(٧) كناية عن الداهية الصغيرة والكبيرة. واللتيا تصغير (التي).

(٨) الاحتجاج للطبرسي: ج١، ص١٠٠، احتجاج فاطمة ؈.

النفس، كما نشاهد ذلك في الغرب. بل يكاد أن لا تكون علاقة بينه وبين التكامل الروحي والأخلاقي.

ثم يجب أن لا يعزب عن البال إنه لا نسبة بين النوابغ والأنبياء عليهم السلام. إذ النبوغ على ما يعرفه علماء الاجتماع: نبوغ فكري في خواص المادة والوقوف على بعض ما أودع الله فيها من خواص وذلك تفضلاً منه. ولا يخرج هذا النبوغ عن التفكير في خواص المادة والأوضاع البشرية من النواحي المادية. حين أن النبوّة سموٌ روحاني وتقرب إلى الله تعالى إلى درجة تؤدي بلطف الله ومشيئته وإذنه إلى خوارق يعجز عنها النوابغ كلهم أجمعون.

النبوغ كما يصفه (بوفون) دقة متناهية، فهي لا تخرج عن حدود المادة أي استعمال الحياة العقلية (أعني الفكرية) بدقة فائقة في الأمور المادية. فكم رأينا من النوابغ هم من أحط الناس في عالم تكامل النفس. إذ لا علاقة بين النبوغ والتفكير الفائق في خواص الأشياء وربط بعضها ببعض. وبين الكمال النفسي. إلا إذا كان هذا النبوغ في عوالم تزكية النفس وتحليتها بالفضائل. وإن المشاهدات الآتية تبرهن لنا صحة ما أقول مع أن القضية ثابتة بطريق عقلي.

نقل لي أحد طلاب دار المعلمين العالية في إحدى العواصم أنه رأى ذات ليلة أستاذه الدكتور في الفلسفة والتربية ملقى على قارعة الطريق بحالة يرثى لها، ثملاً فاقد الشعور، قال: فلم استطع أن أرى أستاذي في هذه الحالة المخزية، فحملته في سيارة إلى فندق كان يسكنه وأخذت أُعالجه حتى صحا. فقلت ما هذا يا دكتور!؟ ووصفت له ما كان به، فقال: «أقتل مرارة الحياة بمرارة الخمرة»!. وقال أيضاً: رأيت دكتوراً آخر في الآداب كان يرتاد محلات البغاء والفجور بصورة علنية ولا يبالي كأنه جاء بأمر معتاد. وكان في إحدى الجامعات أستاذ بلغ في الرياضيات العالية مرتبة النبوغ، ذا مؤلفات مهمة عميقة، وقد قام بتأليف كتاب يشتمل على ٤ مجلدات، يحقق فيه ما قام به المسلمون في العهد العباسي من خدمات جمة في عالم الرياضيات. وقد طلبت إليه وزارة المعارف في أمريكا أن يمنحها رخصة الترجمة بإزاء مبلغ جسيم، فأذن بذلك وقبض الدراهم وأصبح

لا يرى مدة شهرين. فعُلم بعد ذلك أنه خلا بالعاهرات والبغايا فأصيب بسبب ذلك بمرض زهري مميت (سيفيليس) فأدى به إلى الجنون ومات في دار المجانين.

نستنتج مما ذُكر أن النبوغ والشهادات العالية لا تعمل في كبح الشهوات وتقوية الإرادة بصورة موجبة، تلك الإرادة التي تراقب الله وتستعمل في ترك محارم الله وتقاوم رغبات النفس الأمارة بالسوء وتضادُّها. فإن النفس الإنسانية أينما وجهتها تتقوى في تلك الجهة. فإن وجهتها نحو الرياضات الروحية والتخلق بالأخلاق الفاضلة قويت في هذه الناحية وإن وجهتها نحو تتبّعات علمية مادية وأهملت أمر تكامل النفس وتزكيتها وتحليتها بالملكات الفاضلة نبغت في الناحية العلمية المادية مع نفس قد تكون أحط من نفس البهائم. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمَّد: الآية ١٢].

فلا علاقة بين النبوغ من الناحية العلمية للتطلع على خواص المادة أو على طباع المجتمع (نفسيات المجتمع) ومظاهر الفرد، وبين سمو النفس وتكاملها. وقد التبس الأمر في ذلك على كثيرين لاسيما الشبيبة المثقفة بثقافة العصر. يرى الشاب أن أستاذه الغربي يقول (مثلاً) مجموع زوايا مثلث يساوي زاويتين قائمتين، أو أن ضغط كتلة معينة من الغاز يتغير تغيراً عكسياً مع حجمه عندما تبقى درجة الحرارة ثابتة أو أن الشعاع الحامل الذي يوصل الشمس إلى إحدى السيارات يرسم ويقطع في أزمنة متساوية سطوحاً متساوية؛ ويستدل له على ذلك كله ببراهين صحيحة. فيزعم أو يوقن الشاب المتعلم أن كل ما يقوله أستاذه الغربي في عالم تكامل النفس وعوالم الروح والدين صحيح، مع علمه أن هذا ليس من اختصاصه. فينقاد إلى رأي أستاذه في ما لم يختص فيه ويتابعه في عقائده ونفسياته المادية. ومن هنا أوتي الشرق وأصيب بما أصيب به من تبلبل في العقائد والأخلاق والآداب الإسلامية المثالية.

نعم، قد بُهت الشرقي عندما رأى الحياة الصناعية في أوروبا وأمريكا يسندها قوانين رياضية وتجارب علمية دقيقة وحياة قد توفرت فيها أسباب الراحة بصورة ظاهرية لاسيما إذا نظر إليها من الخارج، فظنَّ بل أيقن أن كل ما يقوله الغربي في الدين والأخلاق والفلسفة صحيح، فاستقى من فلسفته المادية الزائفة أكثر من أن يأخذ من

رياضياته وطبيعياته وصنايعه، بل أخذ من أخلاقه واستهتاره بالمقدسات وخلاعته ومراقصه ومجونه وطيشه، ترفه قبل أن يأخذ من مخترعاته ويتعب ذهنه في حل غوامضها، ذلك لأن النفس ميالة إلى التسافل والتدنس. وفي اقتباس الاختراعات أو القيام بشيء من الاكتشافات من الصعوبات التي لا تلائم النفس الميالة إلى الشهوات أو الراحة. والنفس الأمارة بالسوء ميالة إلى التجرد من القيود. وليست وسائل تكميل النفس إلا قيوداً! والنفس تستسيغ الخلاعة والاستهتار والانغماس في الخمور والفجور قبل النظريات العلمية. فتلبسها لباس المدنية والحضارة ويكون هذا الاسم المغري مبرراً لشهواتها ونزواتها. لذلك كله دبَّ في الشرق التبلبل وتشتت الأفكار والآراء: بين مغال يريد قلب البلاد الإسلامية إلى بلدة غربية بجميع مظاهرها وبين محافظ على الطرق الصناعية القديمة البائدة في الحياة المادية. فأخذ المتطرف من المسلمين يشك في النبوات والقضايا الروحية ويقيسها بمقياس مادي مقتضب، فقد قال لي من أكمل دراسته العالية في باريس لماذا ظهر الأنبياء كلهم من الشرق ولم يظهر نبي في الغرب؟ وإن ما أسلفناه من الشروط والشروح كاف لمن توخّى الحقيقة.

ولا ريب أن شروط النبوة ليست بشروط صناعية ميكانيكية حتى توجد في أوروبا وأمريكا وإنما هي روحية بحتة. «ثم إن أوروبا كانت مادياً منذ زمن الرومانيين وقبلهم[١] وإن الاتجاه الديني مبني دائماً على العقيدة بأن هنالك قانوناً أدبياً مطلقاً شاملاً وأننا نحن البشر مجبرون على إتباعه ولكن المدنية الغربية لا تقر الحاجة إلى خضوع ما، إلا لمقتضيات اقتصادية أو اجتماعية أو قومية. إن معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني، ولكنه الرفاهية (Confort) وأن هذا موروث عن المدنية القديمة. وليس هناك وجه شبه بين الإمبراطورية الإسلامية والإمبراطورية الرومانية، وإن عدل الرومانيين كان عدلاً لأنفسهم وحدهم وكان الاتجاه مبنياً على اتجاه مادي خالص للحياة والحضارة. إدراك مادي هذبه ذوق فكري. ولكنه على كل حال بعيد عن القيم الروحية. إن الرومانيين لم يعرفوا الدين وإن آلهتهم الحقيقية لم تكن سوى خرافات يونانية وبعيدة من أن تمنح

---

(١) من كتاب «الإسلام على مفترق الطرق» تأليف (ليوبولدفايس) الذي قد تشرف باعتناق دين الإسلام.

البشر شرائع خلقية. تلك كانت التربية التي نمت فيها المدنية الغربية الحديثة. والحقيقة الثابتة أن كل ما هو اليوم حقيقي في الاستشراف[١] الغربي للحياة والأخلاق يرجع إلى المدنية الرومانية. وكما أن الجو الفكري والاجتماعي في رومية القديمة كان نفعياً غير ديني، فكذلك هو الجو في الغرب الحديث. ولم يؤثر المسيحية في أوروبا ولم تلطف شيئاً من جوها المادي، إن الأسس الفكرية الحقيقية في الغرب يجب أن تطلب في فهم الرومانيين القدماء للحياة على أنها قضية منفعة خالية من كل استشراف مطلق وكأن الغربي يقول: بما أننا لا نعرف شيئاً من طريق الاختبار العلمي والتقدير في الحساب، لا عن أصل الحياة الإنسانية ولا عن مصيرها بعد موت الجسد، فإن من الخير لنا أن نحصر قوانا في وجوه إمكاننا المادي والفكري من غير أن نسمح لأنفسنا بأن نتقيد بالأخلاق المطلقة والقضايا الأدبية المبنية على دعاوى تتحدى الأدلة العلمية»!.

فأخطأ الغربي في التطبيق والقياس لظلمات في النفس وقاس الأمور الروحية البحتة بمقاييس تستعمل في المختبرات كمتشاعر كان يزن شعره بالسانتيمترات! نعم، أراد الغربي أن يجد قوانين الكمال الروحي ومعالم الدين تحت المجاهر والمخابر. وقلده الشرقي فانجرف نحو المادة الصماء وترك روحياته الفواحة التي بها يسمى الإنسان إنساناً.

فكيف ـ مع ما قدمنا من مقدمات ـ ينتظر أن يظهر نبي من أوروبا أو أمريكا.

الشرق مهد الثقافات الدينية ومعهد تكامل النفوس الإنسانية ومهبط الوحي. نبغ فيه بنتيجة تربية الأنبياء ﷺ أناس أفذاذ تطهروا من الدنس والرجس يباهي بهم الله وملائكة السماء..

* * *

والوصي، وهو الذي يقوم بعد النبي بأعمال النبي (عدا تلقي الوحي) وليس بنبي، مستجمعٌ لصفات النبي وكمالاته، فهو معصوم، يأتمر بأوامر الله وينتهي بمناهيه، ذلك

---

(١) استشرف: رفع بصره لينظر إليه باسطاً كفه فوق حاجبه.

لأن من يرتكب المعاصي حتى صغائرها تسقط منزلته من النفوس، فلا يكون رادعاً لها. فالعصمة في الأوصياء أمر طبيعي لا يشك في وجوبها من له إلمام بروحيات المجتمع والجماعات. وقد دلت الأخبار القطعية أن الأئمة من لدن أمير المؤمنين عليه السلام إلى الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه كانوا في غاية الكمال منزّهين عن كل عيب خَلقي أو خُلقي، معصومين عن كل ذنب، «كانوا مصابيح الدجى[1] وأعلام التقى وذوي النهى وأُولي الحجى[2] وكهف الورى وورثة الأنبياء والمثل الأعلى والدعوة الحسنى وحجج الله على أهل الدنيا؛ والأدلاء على مرضات الله والتامِّين في محبة الله والمخلصين في توحيد الله والمظهرين لأمر الله ونهيه وعباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون؛ قد اصطفاهم الله بعلمه وارتضاهم لغيبه واختارهم لسره واجتباهم بقدرته وخصهم ببرهانه، كانوا خزنة لعلمه ومستودعاً لحكمته وتراجمة لوحية ومناراً في بلاده وأدلاء على صراطه»[3] يقول الإمام علي عليه السلام: «إنه ليس على الإمام إلا ما حُمِّل من أمر ربه، إلا البلاغ في الموعظة والاجتهاد في النصيحة والإحياء للسنَّة وإقامة الحقوق على مستحقيها وإصدار السهمان[4] على أهلها»[5]. ويقول الإمام علي عليه السلام في موضع آخر عن آل البيت عليهم السلام: (هم) موضع سره ولجأ أمره وعيبة[6] علمه وموئل حكمه وكهوف كتبه وحبال دينه، بهم أقام انحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائصه، إلى أن قال عليه السلام: «لا يقاس بآل محمدٍ صلى الله عليه وآله في هذه الأمة أحد ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً. هم أساس الدين وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي[7] وبهم

---

(١) مقتبس من الزيارة الجامعة عن الإمام الهادي عليه السلام.

(٢) النهى أو الحجى: العقل.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٦٠٩.

(٤) جمع سهم بمعنى الحظ والنصيب وإصدار السهمان إعادتها إلى أهلها المستحقين لها لا ينقصهم منها شيئاً.

(٥) نهج البلاغة: ص١٥٢، وفيه: إقامة الحدود.

(٦) الوعاء.

(٧) يريد أن المغالي يرجع إليهم ليعتدل. فإن النجاة بالرجوع إليهم.

يلحق التالي. ولهم خصائص حق الولاية. وفيهم الوصية والوراثة. الآن إذ رجع الحق إلى أهله، ونقل إلى منتقله»[١].

وقد قال علي ﷺ أيضاً[٢]: «أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا. أن رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرمهم. وأدخلنا وأخرجهم. بنا يُستعطى الهدى ويُستجلى العمى. إن الأئمة من قريش، غرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على سواهم. ولا تصلح الولاة من غيرهم».

وقد قال ﷺ أيضاً: «وإنما الأئمة قوام الله على خلقه وعرفاؤه على عباده، لا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه»[٣].

وقال ﷺ: «نحن الشعار[٤] والأصحاب والخزنة والأبواب ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها. فمن أتاها من غير أبوابها سمي سارقاً فيهم (يعني آل النبي) كرائم[٥] القرآن وهم كنوز الرحمن، إن انطقوا صدقوا وإن صمتوا لم يسبقوا»[٦].

وقال ﷺ يصف فيها آل محمد ﷺ: «هم عيش العلم وموت الجهل. يخبركم حلمهم عن عملهم (وظاهرهم عن باطنهم) وصمتهم عن حِكَم منطقهم. لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه هم دعائم الإسلام وولائج[٧] الاعتصام. بهم عاد الحق في نصابه وانزاح الباطل عن مقامه. وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقلَ وعاية ورعاية، لا عقل سماع ورواية، فإن رواة العلم كثير ورُعاته قليل»[٨].

وهكذا تعمل سنة الكمال بأمره تعالى في ختم النبوة بمحمد ﷺ وختم الوصاية

---

(١) نهج البلاغة: ص٤٧.

(٢) من نهج البلاغة: ص٢٠٢.

(٣) نهج البلاغة: ص٢١٢.

(٤) ما يلي البدن من الثياب والمراد بطانة النبي ﷺ.

(٥) جمع كريمة والمراد أنه قد نزلت في مدحهم آيات كريمات والقرآن كريم كله وهذه كرائم.

(٦) نهج البلاغة: ص٢١٥.

(٧) ولائج جمع وليجة وهي ما يدخل فيه السائر اعتصاماً من مطر أو برد أو توقياً من مفترس.

(٨) نهج البلاغة: ص٣٥٧، خ٢٣٩.

بالأئمة عليهم السلام من بعده. فرسول الله محمد ﷺ أكمل الأنبياء وخاتم النبيين. وأوصياؤه، وهم اثنا عشر إماماً، أكمل الأوصياء وخاتمة الوصيين.

وكان من لوازم سنة الكمال أن يكون الأوصياء من ذرية محمد ﷺ. لأنه من أعطى صفة الكمال يجب أن يكون كاملاً في جميع النواحي وبه يختتم الكمال البشري. إن الكمال سلسلة متصلة الحلقات بين نبينا محمد ﷺ وأولاده المعصومين عليهم السلام. وقد نص عليهم رسول الله في مواضع عدة. فطوبى لنفوس اهتدت بهداهم واستقت من معين علومهم واستفادت من ينبوع كمالهم وعملت بما أمروا به وانتهت عما نهوا عنه، فسلكت مسالكهم وتابعت خطاهم. وقد روى أحمد والترمذي قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين: أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي. وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا بِمَ تخلفوني فيهما». وقال ابن حجر في صواعقه: قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم أمرين لن تضلوا إن تبعتموهما، وهما كتاب الله وعترتي أهل بيتي» وزاد الطبراني: «إني سألت ذلك لهما، فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم». وفي حديث آخر: «إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح. من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك»[1].

فلا كمال لهذا البشر إلا بانتهاج مناهجهم والسير وفق تعاليمهم ولا تكامل للنفس إلا بولائهم ومودتهم: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: الآية ٢٣].

دروس النبي ﷺ في ساعاته الأخيرة[2]

في مثل هذا اليوم يفارق خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ هذه الدنيا الفانية، ويلقي على أُمته درساً هو من أهم الدروس في توجيه الأمة نحو السعادة الأبدية. وقد علم رسول الله ﷺ بدنوِّ أجله بإمارات كانت تشير إلى ذلك. منها أن جبرائيل، كما

---

(١) رواه أحمد بن حنبل في مسنده وغيره بطرق عدة.

(٢) ألقيت هذه الكلمة في ٢٨ صفر ١٣٦٧هـ.

روى ابن سعد في الطبقات، كان يعرض عليه القرآن في كل سنة مرة. فلما كان العام الذي قبض فيه عرضه عليه مرتين. ومنها نزول آية: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٠]، فقد قال بعدها ليتني أعلم متى يكون ذلك، فنزلت سورة النصر: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾. فكان يسكت بين التكبير والقراءة بعد نزولها، فيقول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. فقيل له في ذلك. فقال: أما إن نفسي نعيت إلي ثم بكى بكاءاً شديداً. فقيل له يا رسول الله أوَتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. قال: فأين هول المطّلع؟ وأين ضيقة القبر وظلمة اللحد؟ وأين القيامة والأهوال؟.. لذلك اعتكف[1] صلوات الله عليه في السنة التي قبض فيها عشرين يوماً حين أنه كان يعتكف كل سنة في شهر رمضان: العشر الأواخر.

وروى أبو إسحاق الثعلبي أن رسول الله ﷺ لما مرض قال لابنته فاطمة عليها السلام: أدني مني. فأكبَّت عليه، فناجاها، فرفعت رأسها وعيناها تهملان، فقال لها أدني مني فدنت فأكبت عليه. فناجاها، فرفعت رأسها وهي تضحك، فعجبنا لما رأينا، فسألناها، فأخبرتنا أنه نعى إليها نفسه، فبكت، فقال يا بنيَّة، لا تحزني. فإني سألت ربي أن يجعلك أولَ أهل بيتي لحاقاً بي. فأخبرني أنه استجاب لي، فضحكت.

ثم دعا رسول الله ﷺ الحسن والحسين، فجاءا يصيحان ويبكيان، فوقعا عليه. فقبلهما وشمهما وجعل يترشفهما وعيناه تهملان، ثم أغمي عليه، فأراد علي عليه السلام أن ينحِّيهما عنه، فأفاق. وقال يا علي، دعني أشمهما ويشماني وأتزود منهما ويتزودا مني، أما أنهما سيُظلمان بعدي ويُقتلان[2].

وأمر صلوات الله عليه بلالاً وهو على فراش المرض بأن يجمع الناس، فاجتمعوا، فخرج معصباً بعمامته متوكئاً على قوسه حتى صعد المنبر، فحمد الله،

---

(١) الاعتكاف: هو اللبث في المسجد بقصد العبادة. وهو مستحب مؤكد. له شروط مشروحة في الرسائل العملية والكتب الفقهية الاستدلالية.

(٢) بحار الأنوار: ج٢٢، ص٥٣٢، باب ٢.

وأثنى عليه، ثم قال: معاشر أصحابي، أي نبي كنت لكم، ألم أجاهد بين أظهركم، ألم تكسر رباعيتي، ألم يعفَّر جبيني، ألم تسل الدماء على حر وجهي حتى لثقت[١] لحيتي، ألم أكابد الشدة والجهد مع جهال قومي، ألم أربط حجر المجاعة على بطني، قالوا بلى يا رسول الله، لقد كنت على بلاء الله صابراً وعن المنكر ناهياً. فجزاك الله عنا أفضل الجزاء. قال: وأنتم فجزاكم الله، ثم قال: إن ربي عزَّ وجلَّ حكم وأقسم أن لا يجوزه ظلم ظالم، فناشدتكم بالله، أي رجل منكم كانت له قبل محمد مظلمة إلا قام فليقتصَّ منه في دار الدنيا، فهو أحب إلي من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأنبياء. فقام إليه رجل من أقصى القوم، يقال له سوادة بن قيس، فقال له: فداك أبي وأمي، يا رسول الله، إنك لما أقبلت من الطائف استقبلتك وأنت على ناقتك العضباء وبيدك القضيب الممشوق[٢]، فرفعته وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني، ولا أدري عمداً أو خطأً، فقال معاذ الله أن أكون تعمدت. ثم أرسل بلالاً إلى بيت فاطمةعليها السلام. فأتى بالقضيب وناوله رسول اللهﷺ. فقال رسول اللهﷺ: أين الشيخ، فقال ها أنا ذا يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، قال: فاقتص مني حتى ترضى، فقال الشيخ فاكشف لي عن بطنك يا رسول الله، فكشف عن بطنه. فقال الشيخ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك؟ فأذن له، فقال أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله من النار يوم النار، فقال رسول الله يا سوادة: أتعفو أم تقتص. فقال: بل أعفو يا رسول الله، فقال ﷺ: اللهم أعف عن سوادة بن قيس كما عفا عن نبيك محمد[٣].

وقد ألقى النبيﷺ درساً بليغاً حين خرج إلى المسجد، كما يخبرنا المفيد عليه الرحمة، معصوب الرأس معتمداً على أمير المؤمنين بيمنى يديه وعلى الفضل بن العباس باليد الأخرى، حتى صعد المنبر، فقال: «معاشر الناس، قد حان منّي خفوق من بين أظهركم، فمن كان له عندي عِدة فليأتني أعطه إياها. ومن كان له عليَّ دين

(١) لثقت: نديت.
(٢) الممشوق: الطويل الدقيق.
(٣) أمالي الصدوق: ص٦٣٣، مجلس ٩٢.

فليخبرني به، معاشر الناس، ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً أو يصرف عنه به شراً إلا العمل، أيها الناس لا يدَّعِ مُدَّعٍ ولا يتمنّ، متمنّ، والذي بعثني بالحق نبياً، لا ينجي إلا عمل مع رحمة ولو عصيتُ لهويت»[1].

وإن رسول الله ﷺ بعد تحققه من دنو أجله، جعل يقوم مقاماً بعد مقام في المسلمين، يحذرهم الفتنة بعده والخلاف عليه، ويوصيهم بالتمسك بسنته والاجتماع عليها ويحثهم على الاقتداء بعترته والطاعة لهم. روى ابن سعد بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «إني أوشك أن أُدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي. وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما». وقال في مقام آخر على ما جاءت به الرواية على اتفاق وإجماع: «يا أيها الناس، إني فسر لكم. وأنتم واردون علي الحوض، إلاّ أني سائلكم عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يلقياني. وسألت ربي ذلك فأعطانيه. ألا وإني قد تركتهما فيكم، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لا تسبقوهم فتفرقوا ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم»[2]. ثم إن رسول الله قام بأمور مهمة أخرى حالة مرضه، لتوجيه المؤمنين بل العالم أجمع إلى طريق الحق والسعادة الأبدية، لا مجال لذكرها.

وأخذ يثقل حال رسول الله في مرضه، فقال ادعوا لي علياً، على ما يرويه الطبري، فدُعي، فلما دنا منه، أومأ إليه فأكبَّ عليه، فناجاه طويلاً، ثم قام فجلس ناحية، حتى أغفى رسول الله ﷺ. فلما أغفى خرج، فقال له الناس: ما الذي أوعز إليك يا أبا الحسن، قال علمني ألف باب من العلم ينفتح لي من كل باب ألف باب. ولا يمكن تحقيق هذا النوع من الإلقاء بمقاييس عادية متعارفة، لأن قياسات أمور هي مما وراء الطبيعة تختلف عن قياساتنا العادية، وليس لنا أن نقيس عوالم الروح بمقاييس

---

(١)،(٢) بحار الأنوار: ج٢٢، ص٤٦٦، باب ١، نقلاً عن الإرشاد للمفيد.

مادية متعارفة، لاسيما إذا كنا ممن لم يقطع في عالم تكامل النفس أشواطاً ولم يبلغ مرتبة في عوالم التزكية والتحلية.

ثم حضر رسول الله ﷺ الموت وعليّ عنده، فلما قرب خروج نفسه قال له: ضع يا علي رأسي في حجرك، فقد جاء أمر الله، فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك وامسح بها وجهك وتولَّ أمري وصلِّ عليَّ أول الناس ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي، واستعن بالله[1].

وكانت وفاته صلوات الله عليه يوم الاثنين عند الزوال لليلتين بقيتا من صفر، وأخذت فاطمة تقول: وا أبتاه من ربه ما أدناه، وا أبتاه جنان الخلد مأواه، وا أبتاه ربه يكرمه إذا أتاه. ثم أخذت من تراب القبر الشريف ووضعته على عينيها وأنشأت تقول:

ماذا على من شمَّ تربة أحمد ... أن لا يشمَّ مدى الزمان غواليا
صبَّت عليَّ مصائب لو أنها ... صبَّت على الأيام صِرن لياليا[2]

سيدة النساء عليها السلام

كثيراً ما يعرض علينا الكتّاب مثلاً عُليا عن رجال نبغوا في عالم التقوى وتكميل النفس وعالم العلم والفن، وقلّما نجد مثلاً عُليا عن السيدات. فهذه فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ هي إحدى النساء الكاملات الأربع اللواتي بلغن أقصى مراتب الكمال الإنساني. فقد روى كل من البخاري ومسلم والترمذي عن النبي ﷺ: قال: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد». وفي الاستيعاب عن ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ سيدة نساء أهل الجنة مريم ثم فاطمة بنت محمد ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون». وروى مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده في حديث مسارة النبي ﷺ فاطمة عليها السلام أنه قال: «ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين أو سيدة نساء هذه

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٢، ص٥٢١، باب ٢.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٩، ص١٠٦، باب ١٦.

الأمة». وفي الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي من المسند للإمام أحمد بن حنبل عن حذيفة بن اليمان وذكر حديثاً إلى أن قال: «قال رسول الله ﷺ: هذا ملك من الملائكة لم يهبط إلى الأرض قط قبل هذه الليلة، استأذن ربه في أن يسلم علي ويبشرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأن فاطمة سيدة نساء العالمين»[1].

ولم تزل فاطمة عليها السلام بعد أبيها رسول الله ﷺ بادية الحزن، معصبة الرأس، ناحلة الجسم، لم تُرَ ضاحكة ولا مبتسمة، فلم تعش بعد أبيها إلا خمسة وسبعين يوماً. وهي تفارق هذه الدنيا الدنية في مثل هذه الأيام. وتقام تخليداً لذكراها وإظهاراً لفضائلها ومناقبها مجالس واحتفالات. فيجدر بنا أن نذكر طرفاً من مكارمها وعلو منزلتها كي تتأسّى بذلك المؤمنات في أنحاء العالم. فإن الناس إلى تكميل نفوسهم أحوج من إملاء بطونهم. وإن المدنية الحاضرة لا تعمل إلا لأجل إصلاح الظاهر وإملاء البطون. بل قد تأخذ بالناس باسم الحرية والانطلاق إلى الجاهلية الجهلاء وعبادة المادة الصماء. قد روى الحاكم في المستدرك بسنده عن أبي ثعلبة الخشني كان رسول الله ﷺ إذا رجع من غزاة أتى المسجد فصلى فيه ركعتين، ثم ثنَّى بفاطمة، ثم يأتي أزواجه. وبسنده عن ابن عمر أن النبي ﷺ: كان إذا سافر كان آخر الناس عهداً به فاطمة وإذا قدم من سفر كان أول الناس به عهداً فاطمة. وفي الاستيعاب بسنده: سُئلت عائشة أي النساء كان أحب إلى رسول الله ﷺ قالت: فاطمة، قلت فمن الرجال؟ قالت: زوجها، إن كان ما علمته صواماً قواماً»[2].

وروى الحاكم في المستدرك بسنده عن عائشة: ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً برسول الله ﷺ من فاطمة. وكانت إذا دخلت عليه قام إليها فقبَّلها ورحَّب بها وأخذ بيدها فأجلسها في مجلسه، وكانت هي إذا دخل عليها قامت إليه مستقبلة وقبلت يده.

وقد أخرج الطبراني عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر ويقول: «الصلاة، يا أهل البيت، الصلاة، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس».

وقال الحسن عليه السلام رأيت (أمي) فاطمة عليها السلام قامت في محرابها ليلة جُمعتها، فلم

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٧، ص٧٩، باب ٥٠.
(٢) بحار الأنوار: ج٤٣، ص٥٣، باب ٣.

تزل راكعة ساجدة حتى اتضح عمود الصبح وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسمِّيهم وتكثر الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء. فقلت لها ألا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك، فقالت: يا بني، الجار ثم الدار[١].

وروى البخاري في صحيحه بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني[٢]. وعن كنز الدقائق: «إن الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها». ومن كرامتها على الله كما روى الحاكم في المستدرك أنه إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من وراء الحجب: يا أهل الجمع، غُضُّوا أبصاركم عن فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله حتى تمرّ. كيف لا يكون كذلك وأن فاطمة عليها السلام، كما روى الصدوق في العلل عن الإمام علي عليه السلام، قد استقت بالقربة حتى أثرت في صدرها وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها، وكسحت البيت حتى اغبرَّت ثيابها، وأوقدت النار تحت القدر حتى دكنت ثيابها (أي اسودت)، فأصابها من ذلك ضرر شديد، فقال لها علي عليه السلام لو أتيتِ أباكِ فسألته خادماً[٣] فجاءت فوجدت عنده جماعة فاستحيت وانصرفت. فعلم النبي أنها جاءت لحاجة فغدا علينا ونحن في لفاعنا، فأردنا أن نقوم، فقال مكانكما، فجلس عند رؤوسنا، فقال يا فاطمة، ما كانت حاجتك أمس؟ فأخبره علي عليه السلام، فقال: أفلا أعلمكما ما هو خير لكما من الخادم، إذا أخذتما منامكما، فسبحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وكبرا أربعاً وثلاثين، فأخرجت فاطمة رأسها وقالت: (رضيت عن الله ورسوله) ثلاث مرات[٤]. وروى ابن حجر في الإصابة نحوه، ثم قال: قال علي فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن، فقال له ابن الكواء ولا ليلة صفين فقال: قاتلكم الله ولا ليلة صفين.

وفي المناقب عن الحسن البصري أنه قال: ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة،

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٣، ص٨١، باب ٤.

(٢) صحيح البخاري: باب فضائل فاطمة عليها السلام.

(٣) الخادم يطلق على المذكر والمؤنث والمراد هنا: المؤنث.

(٤) علل الشرائع: ج٢، ص٣٦٦، باب ٨٨.

كانت تقوم حتى تورَّمت قدماها. وعن أبي جعفر عليه السلام قال: ما عُبد الله بشيء من التحميد أفضل من تسبيح فاطمة ولو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام[1]. وقد روى أحمد بن حنبل أن رسول الله صلى الله عليه وآله رأى ذات يوم مسحاً (وهو كساء معروف)على باب دار فاطمة ورأى على الحسن والحسين عليهما السلام قلبين (أي سوارين) من فضة، فرجع ولم يدخل عليها. فظنت أنه من أجل ما رأى، فهتكت الستر ونزعت القلبين عن الصبيين فقطعتهما، فبكى الصبيان فقسمته بينهما، فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهما يبكيان، فأخذه رسول الله منهما وقال: «يا ثوبان، اذهب بهذا إلى بني فلان، واشترِ لفاطمة قلادة من عصب (هو سن دابة بحرية) وسوارين من عاج، فإن هؤلاء أهل بيتي ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا»[2].

وروى الصدوق في الأمالي، قال: كان النبي صلى الله عليه وآله إذا قدم من سفر بدأ بفاطمة، فدخل عليها، وأطال عندها المكث، فخرج مرة في سفرة. فصنعت فاطمة مسكتين من ورق (أي فضة) وقلادة وقرطين وستراً للباب، لقدوم أبيها وزوجها، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله دخل عليها، فوقف أصحابه على الباب، فخرج عليهم وقد عرف الغضب في وجهه، حتى جلس عند المنبر، فظنت، فاطمة أنه إنما فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والقرطين والستر، فنزعت ذلك وبعثت به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وقالت للرسول: قل له: «تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول اجعل هذا في سبيل الله» فلما أتاه، قال: (فعلت فداها أبوها)، ثلاث مرات، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء». ثم قام فدخل عليها[3].

وعن جابر الأنصاري رضي الله عنه: أنه رأى النبي صلى الله عليه وآله فاطمة وعليها كساء من أجلال الإبل وهي تطحن بيديها وترضع ولدها، فدمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة»، فقالت يا رسول الله، الحمد لله على نعمائه

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٣، ص٦٤، باب ٣.

(٢) بحار الأنوار: ج٤٣، ص٨٩، باب ٤.

(٣) أمالي الصدوق: ص٢٣٤، مجلس ٤١.

والشكر على آلائه. فأنزل الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: الآية ٥][(١)].

وقال لها النبي ﷺ ذات يوم أي شيء خير للمرأة؟ قالت: أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل، فضمها إليه وقال: ذرية بعضها من بعض[(٢)]، ولا يعلم حقيقة هذا الدستور وفلسفة هذا النظام إلا من سار في مدارج الكمال النفسي وتقرب بأعماله الصالحة وطاعاته دون عجب ورياء إلى الله تقرباً يجعله أن يرى الحق حقاً والباطل باطلاً.

وكانت صلوات الله عليها كأبيها فصيحة بليغة غزيرة العلم. فإذا خطبت أتت بالدر المنثور. ومن قولها سلام الله عليها: «الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم من عموم نعم ابتدأها وسبوغ آلاء أسداها، وتمام نعم والاها، جمٌّ عن الإحصاء عددها ونأى عن الجزاء أمدها وتفاوت عن الإدراك أبدها. (إلى أن قالت): الممتنع عن الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته ومن الأوهام كيفيته، ابتدع الأشياء لا من شيء قبلها وأنشأها بلا احتذاء أمثلة إمتثلها، كوَّنها بقدرته وذرأها بمشيئته، من غير حاجة منه إلى تكوينها ولا فائدة له في تصويرها. إلا تثبيتاً لحكمته وتنبيهاً على طاعته وإظهاراً لقدرته وتعبداً لبريته وإعزازاً لدعوته، ثم جعل الثواب على طاعته ووضع العقاب على معصيته، زيادة لعباده عن نقمته وحياشة لهم إلى جنته»، (إلى أن قالت): «كتاب الله الناطق والقرآن الصادق والنور الساطع والضياء اللامع، بينة بصائره، منكشفة سرائره، متجلية ظواهره، مغتبطة به أشياعه، قائد إلى الرضوان أتباعه. ومؤدٍّ إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة وعزائمه المفسرة ومحارمه المحذرة وبيناته الجالية وبراهينه الكافية وفضائله المندوبة ورخصه الموهوبة وشرائعه المكتوبة، فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس ونماءً في الرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص والحج تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة وإمامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزاً للإسلام وذلاً لأهل الكفر والنفاق، والصبر معونة على استيجاب الأحد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامة وبر الوالدين وقاية من السخط وصلة الأرحام منسأة في

---

(١)،(٢) مناقب ابن شهرآشوب: ج٣، ص٣٤٢.

العمر، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة وترك السرقة إيجاباً للعفة»[1].

فإلى التأسي بهذه المكارم والأخلاق الملكوتية أدعو إخواني وأخواتي المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، ففي إتباعها الكمال النفسي المرجو، ذلك الكمال الذي لابد للإنسان من أن يقطع مراحله وأن يسمو بنفسه إلى حيث أراد الله تعالى. فإن الله لم يخلق هذا الإنسان إلا ليتكامل نفسياً. ولذلك أرسل أنبياء عليهم السلام وعيَّن أوصياء عليهم السلام. وأن فاطمة الزهراء عليها السلام المعصومة من كل رجس وزلل خير مثال «لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد». وللإسلام فلسفته الخاصة. قد لا تروق لمن بهرته زبارج الغرب وزخارفه، فلسفة ترمي إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة. وللإسلام تعاليمه الأخلاقية ونظمه الاقتصادية، قد جاءت من وراء المادة، ليسير على ضوئها البشر لينال سعادة الدارين. والإسلام يعارض كل نظام أو عمل يفسد الحياة الأخروية التي هي الحياة الحقيقية السرمدية: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٦٤]. أي أن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية.

فطوبى لمن أيقن أن النظام الآتي من وراء المادة لإصلاح وتكميل ما هو من وراء المادة أيضاً وأعني به النفس الإنسانية ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٢]. وليس للبشر أن يأتي من تلقاء نفسه بهذا النظام مهما تسامى. وأن النظم البشرية ناقصة لا تؤدي إلى الكمال المنشود، لأنها صادرة عن بشر ناقص مفتقر إلى الكمال...

المأثور عن رياضيات الإمام عليّ عليه السلام

قد أجمع المسلمون من الصدر الأول إلى اليوم أن علياً عليه السلام أعلم الصحابة وأعلاهم

---

(١) أن هذه الخطبة طويلة للتفصيل. يراجع كتاب بحار الأنوار: ج٢٦، ص٢٢٠.

كعباً وأكثرهم زهداً. فقد قال عليه السلام: «علّمني رسول الله ألف باب من العلم ينفتح لي من كل باب ألف باب». إن هذا النوع من التعليم لا يتوصل إليه إلا من زاول تزكية النفس وتطهيرها. ولا يعلم كيفية: انفتاح ألف باب من العلم من كل باب، إلا من أيقن أن العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء. وذلك بتطهير نفسه من الدنس والرجس وما أصعب ذلك. ولا يقوى عليه إلا الأفذاذ الأقلون. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سَبَإ: الآية ١٣]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: الآية ٤٠]. وجاء في حديث: «المؤمن ينظر بنور الله» فعلمُ علي علم يسطع من نور أودعه الله فيه. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه وإلى نوح في عبادته وإلى إبراهيم في خلته وإلى موسى في هيبته وإلى عيسى في زهده وإلى يحيى في ورعه، فلينظر إلى علي ابن أبي طالب، فإن فيه سبعين خصلة من خصال الأنبياء»[١].

وقال علي عليه السلام بحضرة المهاجرين والأنصار: «إن هاهنا علماً جماً لو أصبت له حملة». وقال عليه السلام: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً». وقال عليه السلام: «سلوني قبل أن تفقدوني، هذا سفط العلم. هذا لعاب رسول الله، هذا ما زقني رسول الله زقاً». وقال أيضاً: «سلوني، فإن عندي علم الأولين والآخرين. أما والله لو ثنيت لي الوسادة، وجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل الزبور بزبورهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم حتى ينادي كل كتاب بأن علياً حكم فيَّ بحكم الله ويقول: يا رب، إن علياً قضى بقضائك» إلى آخر ما قال عليه السلام[٢].

وقد روى الشيخ سليمان الحنفي أنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما صرت بين يدي ربي كلمني وناجاني. فما علمت شيئاً إلا علمته علياً، فهو باب علمي». وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب»[٣].

وقد قال علي عليه السلام ذات يوم وهو على المنبر: «سلوني قبل أن تفقدوني فوالله، لا تسألوني عن فئة تضل مائة وتهدي مائة إلا أخبرتكم بناعقها وسائقها». قام إليه رجل،

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٩، ص٣٩، باب ٧٣.
(٢) بحار الأنوار: ج١٠، ص١١٧، باب ٨.
(٣) ينابيع المودة: ج٢، ص١٨٣.

فقال: أخبرني بما في رأسي ولحيتي من طاقة شعر. فقال عليه السلام: «والله لقد حدثني خليلي أن على كل طاقة شعر من رأسك ملكاً يلعنك، وأن على كل طاقة شعر من لحيتك شيطاناً يغويك، وأن في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله. وكان ابنه قاتل الحسين عليه السلام يومئذ طفلاً يحبو وهو سنان بن أنس النخعي[1].

فعلم علي عليه السلام من علم رسول الله. وهو علم ينتقل من نبي إلى وصي أو من ولي إلى ولي. بطريق لا يعرفه أو لن يعرفه علماء العصر الحاضر ما داموا في حضيض المادة. إن هذا النوع من العلم نور إلهي، لا يعلم حقيقته علماء النفس أو بالأحرى علماء آثار النفس (Psychologues) في الوقت الحاضر. إنه مجهول كجهل علماء الذرة حقائق الذرة وأسرارها مهما بلغوا من العلم وكجهلهم حقيقة الأشعة الكونية. ذلك لأنهم يحومون حول الظواهر وهم في معزل عن الواقع والحقيقة، إنه علم يترشح من إذابة المادية والترفع عن حضيض المادة والعروج إلى أوج الملكوت. إنه علم لدني لا يحتاج إلى وضع معادلات أو حك وإصلاح فلا يتدخله سهو أو شك. إنه علم ارتجالي دون تروٍّ أو تفكر. ذلك لأن النبي أو الإمام يجب أن يكون أفضل أهل زمانه في كل فن وفي كل علم. وما ينقل عن البعض خلاف ذلك بشأن النبي صلى الله عليه وآله مردود بحكم العقل. ذلك لأن الله تعالى لو لم يجهز النبي بجميع الكمالات لسقطت منزلته ولما أثر في النفوس ذلك التأثير الذي يجعل الأفراد منقادين إليه مطيعين.

فلا تثبت الإمامة إلا بامتحانات عدة في عوالم النفس وفي شتى العلوم وفي إتيان الخوارق والمعجزات، تلك التي يعجز أهل ذلك الزمان من الإتيان بها مع الشروط العادية والعلوم البشرية المكتسبة.

ولقد امتحن المسلمون جعفراً (أخا الإمام الحسن العسكري عليه السلام)، حين ادعى الإمامة في مسائل عدة فأخفق في الجواب. وقد طلبوا منه أيضاً أن يذكر أسماء

---

(١) بحار الأنوار: ج١٠، ص١٢٥، باب ٨.

أصحاب الكتب وعن مقدار المال الذي كانوا قد حملوه إلى الإمام عليه السلام، أي إلى خليفة الحسن العسكري (الإمام الحادي عشر من أئمة الهُدى) المهدي عليه السلام، فقام جعفر ينفض أثوابه قائلاً: «يريدون منا أن نعلم الغيب»، فعلموا أنه ليس بإمام[1].

وها نحن نذكر بعض ما أثر عن علي أفضل الصلاة والسلام في حل بعض المسائل الرياضية:

(١) يسأل علي عليه السلام، عن عدد يقبل القسمة على ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠ وهو راكب فرساً له، فيقول مرتجلاً: «اضرب أيام سنتك في أيام أسبوعك». ثم يهمز فرسه وينصرف[2].

ذلك لأنا لو ضربنا ٣٦٠ (عدد أيام السنة على ما كان معروفاً في ذلك الوقت) في ٧ عدد (أيام الأسبوع)، لكان العدد: ٣٦٠ × ٧ = ٢٥٢٠. فالعدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٢ لأنه عدد زوجي له نصف كامل.

* * *

ويقبل العدد ٢٥٢٠ القسمة على ٣، ذلك لأنه مجموع أرقامه (القيمة المطلقة) = ٩ = مضاعفات ٣.

توضيح ذلك:

١٠ = ٩ + ١ = مضاعفات ٣ + ١

١٠٠ = ٩٩ + ١ = مضاعفات ٣ + ١

١٠٠٠ = ٩٩٩ + ١ = مضاعفات ٣ + ١

ويما أن العدد ٢٥٢٠ مؤلف من ٢٠ + ٥٠٠ + ٢٠٠٠

إذن:

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٠، ص٣٣٢، باب ٥.

(٢) لم يحتج علي عليه السلام إلى إيجاد المضاعف المشترك البسيط للأعداد المذكورة. فإن علمه بالأشياء يختلف عن علمنا. إنه علم الإمامة، وهو أعلم الناس أجمعين. وهكذا كل إمام من أئمة الهدى عليهم السلام.

٢٠ = ٢ × ١٠ = ٢ (مضاعفات ٣ + ١) = مضاعفات ٣ + ٢

٥٠٠ = ٥ × ١٠٠ = ٥ (مضاعفات ٣ + ١) = مضاعفات ٣ + ٥

٢٠٠٠ = ٢ × ١٠٠٠ = ٢ (مضاعفات ٣ + ١) = مضاعفات ٣ + ٢

٢٥٢٠ = مضاعفات ٣ + ٢ + ٥ + ٢ = مضاعفات ٣ + ٩

٢٥٢٠ = مضاعفات ٣

إذن: ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٣

* * *

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٤، ذلك لأن ٢٠ وهو العدد الذي يتألف من رقمي العشرات والآحاد يقبل القسمة على ٤.

ومعلوم أن: ٢٠ = مضاعفات ٤.

وأن العدد ٢٥٢٠ = ٢٠ + ٢٥٠٠

= ٢٠ + ٢٥ × ١٠٠ = ٢٠ + ٢٥ × مضاعفات ٤

= ٢٠ + مضاعفات ٤

= مضاعفات ٤

∴ العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٤

* * *

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٥ لأن العدد منته بالصفر (أي إن رقم الآحاد، تجوزاً، صفر) ذلك لأن العدد المنتهي بالصفر يساوي: ٢٥٢٠ = ٢٥٢ × ١٠

وبما أن ١٠ = مضاعفات ٥

إذن: ٢٥٢٠ = ٢٥٢ × مضاعفات ٥

فالعدد يقبل القسمة ٥.

* * *

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٦، ذلك لأن ٦ = ٢ × ٣، (حاصل ضرب عددين أولين). وقد علمنا أن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على كل من ٢، ٣

إذن: $\frac{٢٥٢٠}{٢ \times ٣}$ ، يختصر مع ٢ أولاً، ثم مع ٣. فلا يبقى باق.

* * *

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٧، لأنه من مضاعفات ٧، ذلك لأنا ضربنا ٣٦٠ في ٧ فكان ٢٥٢٠.

وإن العدد: ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٨ أي العدد ينتهي بثلاثة أرقام تؤلف العدد: (٥٢٠) وهو يقبل القسمة على ٨ أي $\frac{٥٢٠}{٨}$ = ٦٥

والدليل على ذلك كما يلي:

٢٥٢٠ = ٥٢٠ + ٢٠٠٠

= مضاعفات ٨ + ٢ × ١٠٠٠

= مضاعفات ٨ + ٢ مضاعفات ٨

= مضاعفات ٨

∴ ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٨

* * *

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٩ لأن قيمته المطلقة أي ٢ + ٥ + ٢ = ٩، أو (مضاعفات ٩).

برهان ذلك:

الآحاد = ٠ (تجوزاً)

العشرات = ٢٠ = ٢ × ١٠ = ٢ (٩ + ١) = ٢ × ٩ + ٢

= المضاعفات ٩ + ٢

المئات = ٥٠٠ = ٥ × ١٠٠ = ٥ (٩٩ + ١) = ٥ × ٩٩ + ٥

= مضاعفات ٩ + ٥

آحاد الألوف = ٢٠٠٠ = ٢ × ١٠٠٠ = ٢ (٩٩٩ + ١)

= ٢ × ٩٩٩ + ٢ = مضاعفات ٩ + ٢

∴ العدد

٢٥٢٠ = مضاعفات ٩ + ٢ + ٥ + ٢

٢٥٢٠ = مضاعفات ٩ + ٩ = مضاعفات ٩ + مضاعفات ٩

٢٥٢٠ = مضاعفات ٩

فالعدد يقبل القسمة على ٩

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ١٠ لأن رقم آحاده (تجوزاً) = ٠

∴ ٢٥٢٠ = ٢٥٢ × ١٠

٢٥٢٠ = مضاعفات ١٠

فثبت أن العدد (٢٥٢٠) يقبل القسمة على كل من الأرقام الطبيعية وعلى ١٠.

* * *

(٢) رجلان: أ، ب. كان لأحدهما: (أ) خمسة أقراص من الخبز وللآخر (ب) ٣ أقراص، فجاءهم رجل ثالث وأخذ يأكل معهم. فلم يبقَ شيء. ودفع إليهم بعد الانتهاء ٨ دراهم.

فقال (أ) لـ (ب): خذ أنت ٣ دراهم وأعطني ٥. فأجابه (ب): لا، أبيتُ إلا العدل ومر الحق. خذ ٤ وأعطني ٤ دراهم. فأجابه (أ) قائلاً: كان لي ٥ أقراص وكان لك ٣. فكيف تأخذ نصف المبلغ؟ فأجابه (ب): لنتحاكم عند علي عليه السلام.

فجاءا علياً عليه السلام وعرضا عليه القضية. فخاطب علي عليه السلام الرجل (ب). وهو الذي كان معه ثلاثة أقراص قائلاً: إقنع بما منحك صاحبك (أ). واقبل منه ٣ دراهم. فقال (ب): لا والله، لا رضيت منه إلا بمرِّ الحق، فقال عليه السلام: «ليس لك في مرِّ الحق إلا درهم واحد وله سبعة». فقال (ب): سبحان الله يا أمير المؤمنين، هو (أي أ) يعرض عليَّ ٣ دراهم فلم أرضَ. وأشرتَ عليَّ بأخذها فلم أرض وتقول لي الآن: لا يجب لي في مر الحق إلا درهماً واحداً.

إن علياً عليه السلام لم يفكر كما يفكر الرياضيون في حل المسألة وإنما ارتجل ارتجالاً بعلم لا يُشبه علم البشر العادي.

وإن الرياضي يحل المسألة المذكورة بعد التفكير كما يلي:

أكل الرجال الثلاثة ٨ أقراص. إذن أكل كل واحد منهم $\frac{٨}{٣} = ٢\frac{٢}{٣}$ من الأقراص وبما أن (أ) كان له ٥ أقراص وقد أكل منها $٢\frac{٢}{٣}$ إذن بقي من أقراصه:

$٥ - ٢\frac{٢}{٣} = ٢\frac{١}{٣}$ وهذا ما أكله الرجل الثالث من أقراص (أ)

وأن (ب) كان له ٣ أقراص وقد أكل هو $٢\frac{٢}{٣}$ (قرصين وثلثي القرص) إذن بقى مما كان عنده: $٣ - ٢\frac{٢}{٣} = \frac{١}{٣}$ من القرص وهذا ما أكله الرجل الثالث من أقراص (ب) فيجب أن تقسم ٨ دراهم بنسبة: $٢\frac{١}{٣}$، $\frac{١}{٣}$ أي بنسبة $\frac{٧}{٣}$، $\frac{١}{٣}$

وبما أن المخرجين متحدان، إذن تقسم ٨ دراهم بنسبة الصور (البسوط) أي بنسبة ٧، ١.

∴ مجموع الحصص ٧ + ١ = ٨

فحسب قواعد التقسيم المتناسب:

$\frac{\text{٨ دراهم}}{\text{٨ حصص}} = $ ١ درهماً (الحصة الواحدة)

وبما أن لـ (أ)، أي الرجل الذي كان لديه خمسة أقراص، ٧ حصص

٧ × ١ = ٧ دراهم، نصيب الرجل (أ)

وبما أن لـ (ب)، حصة واحدة.

١ × ١ = ١: درهم واحد وهو نصيب الرجل (ب).

* * *

(٣) جاء إلى علي عليه السلام ٣ رجال ومعهم ١٧ جملاً، فقالوا قسم بيننا هذه الجمال بنسبة: النصف، والثلث، والتسع.

فأجاب عليه السلام: أضيفوا إلى ١٧ واحداً، ثم أعطوا نصف ذلك إلى (أ) فيكون نصيبه ٩ جمال. وأعطوا ثلث ذلك إلى (ب) فيكون نصيبه ٦ جمال، وأعطوا تسع ذلك إلى (جـ) فيكون نصيبه جملين.

وهكذا قسم عليﷺ ١٧ جملاً بين الأشخاص الثلاثة مع حفظ النسبة في ما كان لكل منهم ٩ + ٦ + ٢ = ١٧ .

توضيح ذلك:

من المعلوم: أنه لو أريد تقسيم عدد بنسبة كسور اعتيادية، يجب أولاً: توحيد المخارج (المقامات)، وذلك بإيجاد المضاعف المشترك البسيط المخارج: (٩,٣٥٢) وهو ١٨ وأن ١٨ يربو على ١٧ بواحد:

١٧ (عدد الجمال) + ١ = ١٨ (على سبيل الصدفة)، أي أن هاهنا حالة خاصة كما يعبر عنه الرياضيون. فتكون الكسور الأصلية حسب المخرج المشترك الجديد: (١٨) كما يلي:

حصة أ $= \frac{١}{٢} = \frac{١ \times ٩}{٢ \times ٩} = \frac{٩}{١٨}$

حصة ب $= \frac{١}{٣} = \frac{١ \times ٦}{٣ \times ٦} = \frac{٦}{١٨}$

حصة جـ $= \frac{١}{٩} = \frac{١ \times ٢}{٩ \times ٢} = \frac{٢}{١٨}$

فحسب قواعد التقسيم المتناسب مع الكسور، يجب تقسيم المقدار: (١٧ جملاً) حسب الصور أو البسوط وهي ٩، ٦ ، ٢، لأنها مأخوذة من نفس المخرج. (أي من نفس الأساس). ومعنى ذلك أن الحصص التي يستحقها الأشخاص الثلاثة تكون البسوط أو الصور الجديدة، ومجموعها: ٩ + ٦ + ٢ = ١٧ حصة.

وذلك لأن:

$$\frac{ا}{ب} = \frac{٩}{١٨} \div \frac{٦}{١٨} = \frac{٩}{١٨} \times \frac{١٨}{٦} = \frac{٩}{٦} = \frac{٣}{٢}$$ في النسب الجديدة

و: $$\frac{ا}{ب} = \frac{١}{٢} \div \frac{١}{٣} = \frac{١}{٢} \times \frac{٣}{١} = \frac{٣}{٢}$$ في النسب الأصلية

و: $\frac{ب}{جـ} = \frac{٦}{١٨} \div \frac{٢}{١٨} = \frac{٦}{١٨} \times \frac{١٨}{٢} = \frac{٦}{٢} = ٣$ في النسب الجديدة

وأيضاً $\frac{ب}{جـ} = \frac{١}{٣} \div \frac{١}{٩} = \frac{١}{٣} \times \frac{٩}{١} = \frac{٩}{٣} = ٣$ في النسب الأصلية

وهكذا يمكن الاستدلال على أن $\frac{أ}{جـ}$ في النسب الجديدة والأصلية واحدة. فتكون البسوط (الصور) الجديدة متناسبة بنسبة الكسور الأصلية، $\frac{١}{٢}$ ، $\frac{١}{٣}$ ، $\frac{١}{٩}$ ، فلو قسمنا ١٧ جملاً بنسبة البسوط فقد حفظنا النسبة بين ما للأشخاص الثلاثة من جمال.

∴ $\frac{١٧ \text{ جملاً}}{١٧ \text{ حصة}} = ١$ الحصة الواحدة

وبما أن لـ (أ) ٩ حصص ٩٠٠ × ١ = ٩ جمال لـ (أ).

وبما أن لـ (ب) ٦ حصص ٦٠٠ × ١ = ٦ جمال لـ (ب).

وبما أن لـ (جـ) ٢ حصتان ٢٠٠ × ١ = ٢: جملان لـ (جـ).

فالمجموع = ١٧ جملاً.

ويجوز ضرب المقادير المتناسبة $\frac{١}{٢}$ ، $\frac{١}{٣}$ ، $\frac{١}{٩}$ في عدد واحد (١٨) وهو المضاعف المشترك البسيط للمقامات، فإن النسبة لا تختل، فيكون الناتج، ٩، ٦ ، ٢ ، فينقسم عدد الجمال بنسبة الأعداد الصحيحة وهنا حالة خاصة إذ أن المضاعف يزيد على عدد الجمال بواحد، وإن عدد الجمال = مجموع الأعداد المتناسبة.

(٤) جيء إلى علي عليه السلام برجل قد حلف أن يزن الفيل فقال عليه السلام: لِمَ تحلفون على ما لا تطيقون، فقال الرجل: قد ابتليت. فأمر عليه السلام بقرفور (أي سفينة طويلة) فيه قصب. فأخرج منه قصب كثير، ثم علم صبغ الماء، بعد ما عرف صبغ الماء قبل إخراجِ القصب، ثم صيَّر فيها الفيل حتى رجع إلى مقداره الذي كان انتهى إليه صبغ الماء أولاً. ثم أمر بوزن القصب الذي أخرج، فلما وزنه، قال هذا وزن الفيل[1].

توضيح الحل: معلوم في الفيزياء: أنه لو غمر جسم في سائل فإنه ينقص من وزنه

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٣، ص٢٨٤، باب ٤٦.

مقدار يعادل وزن سائل بحجم ذلك الجسم المغمور. ذلك لأن الجسم المغمور يكون تحت ضغطين متعامدين من ذلك السائل. أحدهما من الأسفل إلى الأعلى يعادل عموداً من ذلك السائل طوله من سطح السائل إلى نهاية الجسم المغمور، والآخر من الأعلى إلى الأسفل، يعادل عموداً من السائل طوله من سطح السائل إلى سطح الجسم المغمور. فلو طرح الضغط الثاني (قوة الدفع من الأعلى إلى الأسفل) من الضغط الأول (قوة الدفع من الأسفل إلى الأعلى) لحصلنا على مقدار من القوة الدافعة من الأسفل إلى الأعلى يعادل مقداراً من السائل بحجم الجسم المغمور.

فلو فرضنا وزن الجسم المغمور = و، ووزن السائل الذي بحجمه = وَ. لظهر هاهنا حالات ثلاث:

(١) و > وَ أي يكون وزن الجسم أكبر من وزن سائل بحجمه. أي و ـ وَ > ٠ فينزل الجسم إلى قعر السائل ويستقر في القعر.

(٢) و = وَ أي أن وزن الجسم يكون أقل من الوزن سائل بحجمه فالجسم ينغمر في السائل ويكون سابحاً في وسطه ولا يستقر في القعر.

(٣) و < وَ أي أن و ـ وَ < ٠ أي أن وزن الجسم يكون أقل من وزن سائل بحجمه عند ذاك يطفو الجسم على السائل (أو الماء) ولا ينغمر كله في السائل بل يزيح هذا الجسم من ذلك السائل مقداراً يعادل وزنه. أي أن مقدار الماء المزاح (أو السائل) يعادل وزن الجسم الطافي.

إذن، إن السفينة التي وردت في السؤال (٤) تزيح من الماء بقدر وزنها (بما فيها من القصب). وقد وضعوا علامة على صفحة السفينة حيث بلغ الماء (وهذا ما يسمى بصبغ الماء).

لنفرض أن وزن السفينة في الابتداء = و، فوزن الماء المزاح = و، أيضاً ولنفرض أنا قد أخرجنا منها أولاً مقداراً من القصب = وَ

فقد أصبح الوزن الجديد للسفينة: و ـ وَ

ووزن الماء المزاح حديثاً = و - وَ أيضاً.

فإن نزلت السفينة في هذه المرة في الماء أقل من المرة الأولى ثم نضع الفيل في السفينة فتثقل السفينة وتنزل مقداراً في الماء ويُفرض أن وزن الفيل = س إذن يكون وزن السفينة   و ـ وَ + س.

ثم نضع مقداراً من القصب في السفينة حتى تنزل في الماء إلى العلامة الأولى ونرمز عن هذا المقدار من القصب بحرف: ب، فيكون وزن السفينة و ـ وَ + س + ب.

وبما أنه قد نزلت السفينة إلى حد العلامة الأولى فوزنها يساوي وزنها الأصلي = و

∴   و ـ وَ + س + ب = و

وبعد حذف (و) من طرفي المعادلة، ونقل وَ إلى الطرف الآخر

وَ = س + ب

أو   س = وَ ـ ب.

أي أن وزن الفيل (س) يساوي وزن ما أخرج من القصب أولاً ناقصاً منه ما وُضع في السفينة من القصب ثانياً.

ويظهر مما ورد في السؤال أنهم لم يخرجوا ابتداءً كثيراً من القصب، بل بعد أن أخرجوا قليلاً من القصب، وضعوا الفيل في السفينة فثقلت السفينة ونزلت أكثر مما نزلت ابتداءً ثم أخرجوا مقداراً آخر من القصب حتى ترتفع وتصل إلى العلامة الأولى، عند ذاك وزنوا القصب فكان وزنه يعادل وزن الفيل.

ولو فرضنا ما أخرج من القصب أولاً وثانياً = وَ

ووزن الفيل = س

∴ و ـ و + س = و

أو وَ = س وهو المطلوب.

(٥) وقال علي عليه السلام في رجل مقيد حلف أن لا يقوم من مكانه حتى يعرف وزن قيده: أن توضع رجله في إجانة فيها ماء حتى إذا عرف مقداره (أي مقدار ارتفاع الماء) مع وضع رجله فيه، يرفع القيد إلى ركبته، ثم يعرف مقدار صبغه (أي مقدار ارتفاع الماء). ثم أمر عليه السلام: فأُلقي في الماء الأوزان حتى ارتفع الماء إلى ذلك الصبغ (الحد)

الذي كان سابقاً والقيد في الماء. فنظر: كم وزن الذي أُلقي في الماء من الأوزان. فلما وزنه، قال: هذا وزن قيدك[١].

توضيح الحل: معلوم أن القيد كان يزيح من الماء بقدر حجمه. فعند وضع رجله مع القيد في الماء ارتفع الماء. فوضع علامة إلى حيث ارتفع. وعند رفع القيد نزل الماء قليلاً. ثم ألقى في الماء من الأوزان التي وزنها النوعي (أو الكثافة) عين الوزن النوعي[٢] للقيد، حتى ارتفع الماء إلى حيث كان أولاً. ذلك لأن حجم هذه الأوزان كان بحجم القيد وكثافتها عين كثافة الذي كان قد صنع منه القيد. وطبيعي أن الماء يرتفع إذ ذاك إلى نفس العلامة لاتحاد الحجم.

فإذا عين مقدار الأوزان الملقاة في الماء كان وزن القيد.

* * *

(٦) وسأل ابن الكوَّاء علياً عليه السلام: «كم بين السماء والأرض»؟.

فأجاب عليه السلام قائلاً: دعوة مستجابة[٣].

توضيح ذلك:

أن في الفلسفة القديمة بحث يقول بتناهي الأبعاد. ويستدل على ذلك ببرهان يدعي برهان السلَّم. وذلك أنا لو أخذنا نقطة مثل (م) على الأرض ومددنا منها خطين مستقيمين تتشكل زاوية بينهما. ثم إن وصلنا بين نقطتين: أ، ب. مأخوذتين على ذينك المستقيمين (ضلعي الزاوية) بمستقيم، فإن المستقيم أ ب، يبقى محصوراً بين المستقيمين م أ، م ب. ومهما مددنا المستقيمين م أ، م ب. فإن المستقيم أ ب، يبقى محصوراً أيضاً بين ضلعي الزاوية. إذن: الأبعاد تتناهى والفضاء محدود!!.

---

(١) التهذيب: ج٨، ص٣١٨، باب النذور.

(٢) يراد بالكثافة وزن وحدة الحجم من معدن ما. أي وزن سانتيمتر مكعب من ذلك المعدن مثلاً. ولو فرض وزن مقدار من معدن ما = و. ووزن ماء بحجم ذلك المعدن = وَ. فالوزن النوعي لذلك المعدن = و ÷ وَ. وهو عدد مجرد. ويرينا أن ذلك المعدن كم مرة أثقل من الماء مثلاً.

(٣) بحار الأنوار: ج١٠، ص٨٤، باب ٦.

إن هذا البرهان أوهن من بيت العنكبوت. إذ لا يمكن أن يقاس ما يقع في عوالم اللانهاية بما يقع في مسافات محدودة. لو مددنا الضلعين م أ، م ب، إلى ما لا نهاية له لا نعلم ماذا سيحدث بالمستقيم أ ب. ومن درس حسابات اللانهاية يعلم صدق هذا المقال. مثال ذلك:

نفرض أن ح > ب، أي (حـ) أعظم من (ب)

أي ح لا تساوي ب ، حـ ∓ ب

لنضرب طرفي هذه المتباينة في ∞ ، نرى أن:

(١) .... حـ × ∞ = ب × ∞ (لأنّ ∞ = ∞)

وبعد تقسيم طرفي المعادلة (١) على ∞ يخيل إلينا أن: حـ = ب وليس كذلك.

فلا تبقى المباينة على ما كانت عليه لعدم إمكان تفسيرنا التقسيم على ∞ في الكميات المحدودة، حين أنه في الكميات المحدودة تبقى المتباينة على ما كانت عليه.

مثال ذلك: ١٠ > ٧

لنضرب طرفي هذه المتباينة في ٥

٥ × ١٠ > ٥ × ٧

أي ٥٠ > ٣٥

فيعلم من هنا أن النتائج التي تترتب على الكميات المحدودة لا تترتب على الكميات غير المحدودة.

مثال آخر:

٢٠ > ١٥

لنقسم طرفي هذه المتباينة على ∞ (اللانهاية).

$\frac{٢٠}{\infty} = \frac{١٥}{\infty}$

لأن $\frac{٢٠}{\infty} = ٠$ (صفر)

و $\frac{١٥}{\infty} = ٠$ (صفر)

∴ ٠ = ٠ ، فيجب إذن أن يكون ٢٠ = ١٥ وليس كذلك.

مثال آخر:

من المعلوم في الهندسة التحليلية أن مقدار الانحناء لمنحن ما هو (ر، نصف قطر الانحناء). فمثلاً لو كان نصف قطر دائرة ٢ سم، فإن مقدار الانحناء = $\frac{١}{٢}$ ولو كان نصف القطر ١٠٠ سم، فإن مقدار الانحناء = أي أقل من الحالة الأولى بمقدار كثير.

فلو فرض ر = ∞

فيكون مقدار الانحناء: $\frac{١}{ر} \frac{١}{\infty} = ٠$ (صفر)

عند ذاك لا يوجد انحناء. أي لو فرض مثلاً نصف قطر الكرة مقداراً غير محدود، فإن سطح الكرة يكون سطحاً مستوياً، فلا كروية ولا انحناء (استدارة).

ومعلوم في الهندسة التحليلية أن خطين مستقيمين:

أ س + ب ع +حـ = ٠

أَ س + بَ ع + حـَ = ٠

فالمستقيمان يلتقيان لو كان $\frac{أ}{أَ} \mp \frac{ب}{بَ} \pm \frac{حـ}{حـَ}$ (يراد بـ ∓ عدم التساوي)

مع العلم أن أ، أَ، ب، بَ، حـ، حـَ مقادير غير مبهمة.

وأن المستقيمين المذكورين يتوازيان، لو كان:

$$\frac{أ}{أَ} = \frac{ب}{بَ} \text{ فقط}$$

وأن المستقيمين المذكورين ينطبقان أي أنهما مستقيم واحد لو كان:

$$\frac{أ}{أَ} = \frac{ب}{بَ} = \frac{حـ}{حـَ}$$

هذا إذا كانت المعاملات (Coefficicnts) والمقدار المعلوماتي مقادير محدودة غير مبهمة. ولكن، لو كانت، أ، أَ... الخ. مقادير مبهمة فيها العامل ٧ ـ ١: وهو (المقدار المبهم) نرى أن الحالة تختلف وتعطي حالات غريبة جداً لا توافق ما رأيناه في الكميات المحدودة.

وهكذا هو حال المادي حين ما يقيس ما يتعلق بما وراء الطبيعة بمقاييس مادية طبيعية.

إنه يظن الروح ويظن الخالق جلَّ جلاله من نوع المادة. فلما لم يَرَه في مجهره أو ميكروسكوبه أو مكبرته أنكر ذلك. حين انه لا يزال لا يعلم لماذا يرى وكيف يرى. فإذا سئل أجاب بجواب سوفسطائي قائلاً: إن الرؤية هي ردّ فعل أو عمل انعكاسي للمادة أو العين عندما تتأثر بالأشعة الواردة عليها من جسم ما! وأما الرؤية الحقيقية أو الإحساس والشعور فلا جواب له عليه. وقد يجيب بنفس الجواب السوفسطائي قائلاً أنه ردّ فعل أيضاً! يقف عقل هذا المادي، المحجوب عن رؤية الحق لظلمات في نفسه وذنوب لا تحصى قد رانت على قلبه، عند هذا الحد. فلا يتجاوزه. فلا يسأل نفسه عن معنى رد الفعل أو العمل الانعكاسي وحقيقته وكيف يحدث وما علاقة ردّ الفعل بالرؤية والعقل والنفس. وهل حقيقة الرؤية والتحسس أمر مادي بحت. أو المادة عامل مساعد للتحسس كآلة الراديو.

فلولا الأمواج الهرتزية والقوة الكهربائية لما سمعنا شيئاً من هذه الآلات، وإن بعد التشبيه.

وما قيمة الحواس تجاه العقل أو ليس العقل هو المصحح لأخطاء الحواس الخمس. هل القمر بهذا الكِبر. وكم تخطى الشامّة والباصرة!!. فيصححها العقل بتجاربه واختباراته ومحاكماته، استقرائه واستنتاجه. ما هذا الاستقراء ومن هو الذي ركز في الإنسان قوة الاستنتاج. وقد حرم منه القرد. مع ما في تنظيمات أعضائه من دقة متناهية.

إن المادي مادي بذنوبه وآثامه وهو عندما يرى أن الوقت يستلزم التكلم بأسلوب علمي يتطفل على العلم ويعزو هذيانه وتخيلاته الباطلة إلى العلم والعلم من كل ذلك براء. ثم تزداد طفولته غباوة عندما يسمى هذره وهذيه فلسفة!

نستنتج مما سبق أنه ليس في استطاعتنا تحديد العالم والقول بأنه متناه. نحن نتصور غير المتناهي ولكن ليس لنا أن نحيط به. فلا يعلم مدى ما خلق الله من أبعاد وأجواء. وإن الله تعالى لا يخلو منه مكان. وهو القائل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: الآية ١٦]. وفي آية أخرى: ﴿مَا يَكُونُ مِن

نَجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجَادلة: الآية ٧] .

يقول الإمام علي عليه السلام: «مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة»(١).
هذا: (لاكرانز) الذي يعرِّفه (نابليون بونابرت) بقوله: هو الهرم الشامخ للعلوم الرياضية يقول: «لا أعرف» معترفاً بالجهل. . .

وقد حاول (أينشتاين) أن يعين وزن جميع ما في الكون من كرات وسيارات وكواكب وأجرام مادية. ولكنه عدل، عندما شاهد أن هناك كرات جديدة تتشكل، لا يعلم مداها إلا الله. وقد قال (أينشتاين): بنظريات أخرى ثم عدل عنها، ليس هنا محل ذكرها. وكم من العلماء قالوا بأشياء وعدلوا عنها معترفين بجهلهم.

فظهر مما سبق أنه لا يمكن أن يجاب على سؤال ابن الكوَّاء إلا بما قاله علي عليه السلام: «دعوة مستجابة»(٢).

ذلك لأن هذه الدعوة تسير في هذه المسافات التي لا تتناهى والتي لا يخلو منها ربُّنا تعالى. فقد قال الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعَارج: الآية ٤] .

ومعلوم أن سرعة الضوء في الثانية = ٣٠٠٠٠٠ كيلومتراً وأن الروح أسرع من الضوء ولا يعلم درجة سرعته إلا الله تعالى. لاسيما أرواح الملائكة وروح جبرئيل عليه السلام. فإذا كانت الملائكة تصعد أو تعرج إليه في يوم مقداره خمسون ألف سنة، فكم تكون هذه الأبعاد. ذلك لأن خمسين ألف سنة = ١,٥٥٥ ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ثانية أو = ١٥٥٥٢ × ١٠^٨ ثانية. فلو تصورنا أن الضوء سار في هذه المدة مع قلة سرعته بالنسبة إلى سرعة الملائكة، فإنه يقطع:

٣٠٠,٠٠٠ × ١٠^٨ = ٤٦٦,٥٦٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ = ٤٦٦٥٦ × ١٠^١٣ كم.

فكيف بالملائكة؟ . . إذن ليس لأحد أن يحدَّ ما خلق الله من أجواء وأبعاد وفضاء.

---

(١) بحار الأنوار: ج٤، ص٢٤٧، باب ٤، والمزايلة: المفارقة والمباينة.
(٢) بحار الأنوار: ج١٠، ص٨٤، باب ٦.

وإن قول علي عليه السلام: «دعوة مستجابة» دليل على عدم إمكان تعريف المسافة بين السماء والأرض بشكل يفهمه السائل. ذلك لأن كوكبنا الأرضي ليس إلا كحبة رمل صغيرة بالنسبة إلى المجموعة التي تشمل الشمس والكواكب والأقمار وهذه المجموعة لا تعدُّ شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى الفراغ الهائل الخارج عن نطاقها وفيه تتناثر ملايين النجوم. وليست النجوم إلا كتلاً متأججة من النيران المتلاطمة. ولكنا لا نحس حرارتها التي قد تكون أشد كثيراً من حرارة الشمس نظراً لبعد النجوم الشاسع الذي يعجز عن تصوره العقل البشري. ولو أن أسرع طائراتنا وهي الطائرة النفاثة سارت بغير توقف قاصدة أقرب هذه النجوم لما بلغته إلا بعد ستة ملايين من السنين ويقول (أينشتاين): «لقد وجدت بعد التجربة الطويلة أن أرضنا بتاريخها في عمرها الجيولوجي (Geologique) وعمر إنسانيها المديد أقرب شيء من ذرة رمل من رمال (ريورا) الكثيفة».

وقد سئل علي عليه السلام عن المسافة ما بين المشرق والمغرب. فقال عليه السلام: مسيرة يوم للشمس[1].

وقد ثبت أخيراً أن الشمس تتحرك في الفضاء بمجموعتها على شكل لولبي بسرعة ٢٠كم/ في الثانية متجهة نحو نجمة تدعى بالنسر الواقع.

وقد سئل عليه السلام: ما أخوان ولدا في يوم واحد وماتا في يوم واحد وعمّر أحدهما مائة وخمسون سنة وعمّر الآخر خمسون سنة؟ فقال عليه السلام: هو عزيز وعزير. لأن عزيراً أماته الله مائة عام ثم بعثه[2].

وقد قال لي أحد المتتبعين أنه سئل علي عليه السلام عن مقدار قطر الشمس. فأجاب مرتجلاً: تسعمائة في تسعمائة ميل. ومعلوم أن الميل في صدر الإسلام كان يساوي أربعة آلاف ذراع بذراع اليد الذي هو من المرفق إلى رؤوس الأصابع. فلو قسنا ذراع رجل متوسط القامة بالإينشات (Inch) فحولنا (٤٠٠٠) ذراع إلى إينشات فياردات فأميال لوجدنا أن ما أخبر به علي عليه السلام: ٩٠٠ × ٩٠٠ = ٨١٠٠٠٠ ميل وأعني: (الميل

---

(١) بحار الأنوار: ج١٠، ص٨٤، باب ٦.

(٢) بحار الأنوار: ج١٠، ص٨٤، باب ٦، وفيه: عزير وعزرة.

الذي كان معروفاً في صدر الإسلام) تساوي ما عليه اليوم علماء الفلك من أن قطر الشمس = ٨٦٥٣٨٠ ميلاً وأعني: الميل الذي = ١٧٦٠ ياردا.

حقاً، إن الإنسان ليزداد تحيراً عندما يرى: كيف أن تزكية النفوس تؤدي إلى علم لدني منبعه نور يقذفه الله في قلوب أوليائه وصالحي عباده، وقد حقق الله ذلك حين استجاب دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: الآية ١٢٩].

وفي الختام نسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا إلى تكميل نفوسنا وتزكيتها بإتباع القرآن والعترة الطاهرة عليهم السلام. فلا تكاملَ إلا بالتمسك بهما ولا نجاة إلا بإتباعهما والعمل بما أمرا به والانتهاء عما نهيا عنه.

(انتهى الجزء الثاني وسيليه الجزء الثالث إن شاء الله تعالى).

التكامل في الإسلام

بقلم

أحمد أمين

خرج مصادره وصححه

علاء الدين الأعلمي

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي عن شبه المخلوقين[1]، الغالب لمقال الواصفين، الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين. والباطن بجلال عزته عن فكر المتوهّمين، العالم بلا اكتساب ولا ازدياد، ولا علم مستفاد. المقدر لجميع الأمور بلا روِّية ولا ضمير، الذي لا تغشاه الظلم ولا يستضيء بالأنوار ولا يرهقه[2] ليل ولا يجري عليه نهار. ليس إدراكه بالإبصار، ولا علمه بالأخبار.

(١) من كلام لعلي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام.

(٢) يرهقه: يغشاه.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى أن منَّ عليَّ بتقديم الجزء الثالث من هذا الكتاب: (التكامل في الإسلام)، وعلى هذا الإقبال الذي ألفيته من القراء الكرام والتشجيع الذي لمسته منهم مع مزيد الاعتزاز بهم وبتأييدهم.

وقد قرظ الكتاب، نظماً ونثراً، لفيف من المؤمنين الأفاضل الذين كنت عند حسن ظنهم، فإني إذ أقدم جزيل شكري لهم، أعتذر عن تدوين ما تفضلوا عليَّ بما لا أستحقُّه، دفعاً لتزكية النفس واعترافاً بالواقع وما أنا فيه من قصور وتقصير.

إن الله تبارك وتعالى قد أودع في هذا الإنسان غريزة بها يتوجه العبد بصورة فطرية إلى ربه، متفكراً في ملكوت السماوات والأرض، فيعزو بصورة طبيعية هذا النظام الرائع: النظام الكوني الدقيق إلى الله العلي القدير. وهو القائل: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البَلَد: الآية ١٠] أي: طريقي الخير والشر. وفي آية أخرى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠][1]، فطرة الله التي فطر الناس عليها، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠] ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ[2] فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمران: الآية ١٩١]. وفي

---

(١) حنيفاً: أي مائلاً عن العقائد الزائفة.

(٢) سبحانك: أي تنزيهاً لك، سبح الله أي نزّهه وقدّسه..

الحديث: «لولا أن الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض»[(١)].

إلا أن الإنسان يلوث نفسه بنفسه، فيخمد بيده هذه الغريزة الثمينة، غريزة التوجُّه إلى الخالق المتعال، وتقديسه وتعظيمه، حتى تنحجر النفس من جرَّاء شتّى المعاصي والآثام، فتسود وتحجب عن رؤية الحق[(٢)] والواقع، فتتوارد عليه شكوك وأفكار مادية حالكة، واتجاهات سلبية، فيتراءى له: أنه قد بلغ شأواً قاصياً من الثقافة، وأنه كان خرافياً، فأمسى متحرراً عما يشين العقل البشري أو يعوقه عن سيره التقدمي، فيعد نفسه تقدمياً وغيره رجعياً.

لقد أجمع علماء النفس أن التدين أمر فطري عند البشر، وأن المفاهيم البشرية كالمادية وغيرها من نزعات، قد تعيش برهة من الزمن نتيجة لطغيان هذه النفس الطائشة الأمارة بالسوء، إلا أنها سرعان ما تموت وترجع الفطرة إلى فعاليتها الطبيعية وتدين بما وراء الطبيعة بدرجة تكاملها وقطعها مراحل في عوالم تطهير النفس وتزكيتها. فإنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس: الآية ٦]. فلا بد من تقوى واجتناب للمحرمات حتى يعتبر الإنسان بما أودع الله من عظيم الصنع في هذا الكون الرحيب!

فالظلم والاعتداء هما اللذان يحجبان الفرد عن رؤية الحق وهو غافل عما ينتهي إليه من جراء بغيه وطيشه على حد قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: الآية ٧٤]. وفي آية أخرى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٩].

فلا ينبغي أن يقنط المؤمن إذا ما رأى أمواجاً وقتية تناهض الدين وتقاومه، فإنها أمواج ترشحت من نفوس معدودة استولى عليها شيطانها نتيجة لآثامها، فضغطت على حريات غيرها من نفوس كثيرة جداً لا توافقها في الرأي وهي تؤمن في أعماق نفوسها بخالق أزلي أبدي، منظم هذا الكون أبدع تنظيم.

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٦، ص١٦٣، باب ٢٣.

(٢) عن النبي ﷺ: «شر العمى عمى القلب».

وقد أملى بعض هذه النفوس على الآخرين أفكاراً لا توافق الواقع في شيء. منها: أن هناك تنافياً بين الدين ومعطيات العلم الحديث التي تسندها التجارب، وتحددها المعادلات، فلا ينبغي الالتفات إلى ما يملي علينا الدين!.

إن صح هذا بالنسبة إلى بعض الأديان السماوية التي مستها اليد البشرية المحرفة. فلا يصح بالنسبة إلى الدين الإسلامي، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحِجر: الآية ٩].

ففي هذا الجزء يجد القارئ آيات كثيرة مما جاء في كتاب ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٤٢] سبقت العلم الحديث في إعطائها عصارة ما توصل إليه العلم المادي، حيث لا تلسكوب ولا ميكرسكوب: (مرقب ومجهر).

فلا تكاد تجد في الإسلام ما كان في عوالم الكنيسة في القرون الوسطى. فقد سلمت الكنيسة (جوردانو برونو) إلى غرفة التعذيب وأذيق أمر أنواع العذاب ثم أوثق إلى قاعدة خشبية وأحرق حياً عام ١٦١٠م لتصريحاته العلمية.

ونشر (مجمع الكرادلة المقدس) قرار الجرم لمن يقول بدوران الأرض واعتبار القائل كافراً زنديقاً.

وإن غاليليو[١] قد وعد الكاردينال بالطاعة المطلقة، مسلماً بأن ما قاله عن دوران الأرض باطل، كما أقسم بالأناجيل المقدسة سنة ١٦٣٣م: أن الأرض لا تدور حول الشمس!

قد جعل الإسلام (المنطق) حاكماً عند عرض تعاليمه من واجبات ومستحبات ومحرمات ومكروهات ومباحات بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [مُحَمَّد: الآية ٢٤]. وبقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرّعد: الآية ٣]، ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يُونس: الآية ٢٤]، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٧٦]. وبقوله: ﴿إِنَّمَ

(١) هو ابن أحد نبلاء (فلورنسا) وأحد رواد العلم العظماء. وهو الذي وفق إلى إعداد مرقب الرصد الذي أرانا به عوالم السماوات، وقد كان يسر في تطبيق التحليل الرياضي على المعضلات الطبيعية، وهو في عمله على نواميس الحركة قد عبد الطريق لـ(نيوتن).

فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾.

دين الإسلام يخاطب العقول، تلك العقول التي لم تحجب عن رؤية الحق والواقع بالآثام والفسوق، إنه يدعو إلى المنطق الصحيح ولا يفرض شيئاً دون أن يرافقه برهان ودليل وذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٧٩] [(١)].

فما من فرد إلا وأودع الله فيه عقلاً يعرف به أصول المعارف الإلهية، «العقل ما عبد به الرحمان واكتسب به الجنان»[(٢)]، لكن الإنسان لسوء اختياره وفسوقه وفجوره يسدل ستاراً على ذلك العقل الفطري. فيكون إذ ذاك كمن لا عقل له، فلا يعمل بالنصوص الدينية، فيكون كمن لا دين له، فيكون مصداق هذا الحديث: «لا دين لمن لا عقل له» على حد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المَائدة: الآية ٥٨] . فالعقل نبيٌّ باطني لمن لم تبلغه الرسالة. فيحاسب حسبما يملي عليه عقله الفطري غير الملوث بالذنوب والآثام. فمن كان في (آلاسكا) مثلاً ولم تبلغه الرسالة، محاسب يوم القيامة وفق ما أودع الله في عقله من معارف أولية. فإن ظهور آثار الدين في المرء إنما هو ظهور آثار العقل فيه.

إذن. فلا يعتبر بآيات الله إلا من صلح عمله وطابت سريرته وطهرت إلى حد ما نفسه. إن نفساً كهذه تنجذب إلى آيات الله وإلى ما وراء الطبيعة بصورة فطرية، وتزداد فرحاً وسروراً عند قراءة ما يؤيد عظمة الله تعالى في هذا العالم الواسع الأرجاء: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[(٣)] [السَّجدة: الآيتان ١٥/١٦].

---

(١) ذرأنا: خلقنا.

(٢) نهج البلاغة: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٣) خروا: سقطوا. سبحوا: أي نزهوا ربهم عن النقص حامدين له نعمه. تتجافى جنوبهم: ترتفع وتتنحى. المضاجع: الفرش ومواضع الاضطجاع.

فلا تكفي لتكامل هذه النفس العبادة والتهجد فحسب ما لم ينفق الفرد مما رزقه الله تعالى.

فالإسلام دين يحقق للناس سعادة الدارين وفي الوقت الذي يأمر بالتسبيح والعبادة يأمر في الوقت نفسه بأن يعطي الغنيّ من فضول ماله لتزكو نفسه، ولئلا يبقى على وجه البسيطة فقير.

فقد قال الإمام الصادق سلام الله عليه: «إن الله فرض في أموال الأغنياء ما يسعهم، ولو علم أن ذلك لا يسعهم لزادهم».

وفي البحار عن الصادق عليه السلام: «المال مال الله جعله وديعة عند خلقه، وأمرهم أن يأكلوا منه قصدا[١]، ويلبسوا منه قصدا، وينكحوا منه قصدا، ويركبوا منه قصدا، ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المسلمين. فمن تعدى ذلك كان أكله حراماً، وما لبس منه حراماً، وما نكح منه حراماً، وما ركب منه حراماً، يتقلب في حرام»[٢]. وبئس العبد عبد يعيش فيما حرم الله عليه، يصبح ويمسي والرب ساخط عليه. هذا حاله في الدنيا. وأما آخرته: يخرج من قبره ويكون من الذين يأتيهم النداء من الله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٠].

إنه تعالى يقول: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة: الآية ٩٣].

ويقول الصادق عليه السلام أيضاً: «ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً ولاستغنى بما فرضه الله له، وإن الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء»[٣].

---

(١) قصدا: في حدود الاعتدال، قصد يقصد قصدا: أي استقام واعتدل. ومنه الاقتصاد أي الاعتدال والتوسط.

(٢) بحار الأنوار: ج١٠٠، ص١٦، باب ١، ح٧٤.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٧، ح١٥٧٩.

فلو كان المسلمون مؤمنين حقاً مطبقين أحكام الإسلام دونما تبعيض وتفريق لما رأيت من يشكو الفقر والمرض والجهل. ولرأيت الأرض جنة عدن. ذلك لأن الإسلام لم يدع أمراً فيه حياة الناس وسعادتهم إلا وقد أمر به، ولم يدع أمراً فيه هلاك الناس وانحطاطهم وتسافلهم إلا وقد نهى عنه.

فدين الإسلام دين الكمال الإنساني. وما جاء فيه من قوانين أخلاقية وعبادية وقضائية وإدارية وإقتصادية واجتماعية كلها ترمي إلى تكميل النفس الإنسانية وإبلاغها أسمى مراتب الكمال.

فما علينا الآن إلا أن نقوم بتطبيق قواعد الإسلام وتعاليمه الرفيعة على أنفسنا أولاً ثم نعمل مجاهدين مخلصين لأجل نشر هذه التعاليم في أرجاء الأرض وإفهام الناس حقائق الإسلام: دين الفطرة، بأساليب عصرية لا تخالف روح الإسلام ودساتيره المشروعة في شيء.

فالله تعالى يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٩٤].

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النّساء: الآية ١٠٠].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٨].

وقد قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصالحين فريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتأمن المذاهب وتحلُّ المكاسب وتردُّ المظالم وتعمر الأرض وينتصف من الأعداء ويستقيم أمر الناس»[1].

العلم والإيمان

قال علي عليه السلام: «بالعلم يُعرف الله ويوحّد»[2]. فالعلم خير وسيلة لمعرفة الخالق

---

(١) تهذيب الأحكام: ج٦، ص١٨٠، باب ٨٠. (٢) تحف العقول: ص٢٨.

جلَّ جلاله والتعرُّف على ما أودع الله تعالى من دقائق الصنع وخواص مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً لإيجاد عوالم من الجماد والنبات والحيوان ولتسيير هذه الأفلاك بهذا النظام الرائع البديع. نظام يجعل عيني الفلكي الذي لم يقسُ قلبه بالموبقات، تفيضان بالدموع خشوعاً وتقديساً لله تعالى لما يرى هنالك من دقيق المعادلات وبديع القوانين. نظام يجعل هانري بركسون: (Henri Bergson) مؤمناً بوحدانيَّة الله تعالى معظماً إياه حين يتتبع نظام الذرَّة وما فيها من معادلات وقوانين تبهر العقول. هذه الذرَّة التي قد بلغت من الصغر بحيث لو وضعت (١٠,٠٠٠,٠٠٠) منها، على شرط الكرويّة، بعضها جنب بعض لكان طولها مليمتراً واحداً. نظام يجعل الطبيب الذي لم يلوّث باطنه بسكر أو فسق يركع أمام عظمته تعالى حين يرى أنه تعالى قد رتَّب في المخ البشري (٢٠,٠٠٠,٠٠٠) عصب موضوعة بعضها جنب بعض بحساب دقيق بحيث لو جُس أحد هذه الأعصاب لحدثت عوارض تخص هذا العصب المجسوس دون غيره.

نظام يخشع تجاهه العالم بالميكانيك السماوي والفيزياء، حين يرى: كيف رتب الله تعالى الأبعاد بين الأجرام السماوية ومنها بُعد أرضنا عن الشمس وبعد القمر عن الأرض وهو القائل: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: الآيتان ٧٥/ ٧٦].

فلو كان بُعد الأرض عن الشمس ضعف ما عليه الآن لنقصت الحرارة التي تأتينا من الشمس إلى (ربع) ما عليه الآن[١] ولقلت سرعة حركة الأرض حول مدارها إلى النصف[٢] ولطال فصل الشتاء إلى ضعف ما عليه الآن ولانجمد نتيجة لذلك جميع ما على الأرض من كائنات حية ولاستحالت الحياة عليها.

ولو كان بُعد الأرض عن الشمس نصف ما عليه الآن لأصبحت حرارة الأرض

---

(١) حسب قانون فيزياوي: شدة الحرارة على سطح ما تتناسب تناسباً عكسياً مع مربع المسافة عن مصدر الحرارة.

(٢) ذلك لأنه يتناسب محيط الدائرة تناسباً طردياً مع نصف القطر: م = ٢ نق ط.
وإن حاصل ضرب السرعة الزاوية في المسافة عن المركز مقدار ثابت: لا × نق = ث.

أربعة أمثال ما عليه الآن بنفس السبب ولتضاعفت سرعة الحركة حول المدار ولنقص طول مدة كل فصل من الفصول الأربعة: (الربيع، الصيف، الخريف، الشتاء) إلى النصف[١]، ولتبخر ما على الأرض من مياه ولما أمكن السكنى عليها من شدَّة الحرارة وذلك لقربها من الشمس.

ولولا أن الله تعالى قد أحاط أرضنا بغلاف غازي (جوي) ثخنه (٨٠٠) كم لحفظها مما تتوجه نحوها من أحجار سماوية: (٢٠,٠٠٠,٠٠٠) حجارة في كل ثانية، بسرعة ٥٠كم/ ثانية[٢] لما عاش على سطحها كائن حي ولاستحالت الحياة على وجه البسيطة. على أن لهذا الغلاف الغازي أو الدرع الحصينة أثراً هاماً في إيصال حرارة الشمس إلى الأرض بدرجة من الإعتدال والتناسب كي يمكن أن تعيش على سطحها النباتات والحيوانات والإنسان. وكذلك في نقل المياه وبخار الماء من المحيطات (البحر المحيط) إلى القارات. فلولا هذا الغلاف الجوي لتحولت القارات إلى أرض قاحلة.

ولو كانت الأرض بقدر القمر وكان قطرها ربع ما عليه الآن، لما كانت قوة الجذب عليها (أي سطح الأرض) تكفي لجذب المياه والهواء، ولما استقر الماء على سطحها. لأن قوة الجذب تكون إذ ذاك سدس قوة جاذبية الأرض اليوم[٣]. ولارتفعت درجة الحرارة إلى حد يؤدي إلى إبادة الحياة عليها.

ولو كان قطر الأرض ضعف ما عليه الآن، لكان سطح الأرض أربعة أمثال ما عليه الآن[٤] وكانت قوة الجذب ضعف قوة جذب الأرض الحالية، ولقل ارتفاع الجو إلى حد مخطر ولارتفع الضغط الجوي من كيلوغرامٍ واحد على كل

---

(١) إن كان بالإمكان حصول تغيير فصلي إذ ذاك.

(٢) أي تقطع هذه الأحجار السماوية مسافة قدرها خمسون كيلومتراً في الثانية، أي أن سرعتها في الساعة (١٨٠٠٠٠) كيلومتر.

وقد دلت دراسة المعلومات التي ترسلها الأقمار والصواريخ على أن حوالي عشرة آلاف طن من مواد الشهب والنيازك تتساقط نحو الأرض كل يوم.

(٣) قوة الجذب: ق = ى × $\frac{\text{ك ك}'}{\text{م}^{٢}}$ ، ولا بد من ملاحظة نصف القطر.

(٤) إن سطح الكرة يتناسب طردياً مع مربع نصف القطر: سطح الكرة = ٤ ط نق٢.

سنتيمتر مربع إلى كيلو غرامين ولأشكلت الحياة على وجه الأرض.

ولو كانت الأرض من حيث الكبر بقدر الشمس لأمست قوة الجذب عليها (١٥٠) مرة أكثر مما عليه الآن حسب قانون (نيوتون) ولنقص ارتفاع الجو حوالي (١٠) كيلومترات ولما أمكن تبخر المياه ولكان الضغط الجوي على كل سنتيمتر مربع من السطح أي على (١ سم٢) = ١٥٠ كيلو غراماً. أي لكان وزن حيوان يزن الآن كيلو غراماً واحداً = ١٥٠ كيلو غراماً، ولكان طول الإنسان بطول السنجاب (في الوقت الحاضر) ولاستحالت الحياة العقلية لمثل هذه الموجودات.

وهكذا نرى أن الله تعالى قد جعل أرضنا هذه من حيث الكبر والبعد عن الشمس والقمر وسائر الأنجم ومن حيث الكتلة وقوة الجذب بدرجة تتيسر معها الحياة على سطحها، فإن زلَّ أحد هذه الأشياء أو غيرها مما نعلمه أو لا نعلمه لاستحالت الحياة عليها.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾﴾ [فَاطِر: الآية ٤١][1].

* * *

البروتين (Protéine) جزء هام من مادة البروتوبلازم (Protoplasme)[2]، وهي المادة التي منها تتكون جميع الخلايا وكل الأحياء. فالبروتين هو المادة الابتدائية الأولى التي تشكل، مع الجزء الأصلي، الخلايا الحية. وهذه مؤلفة من عناصر خمسة: الكاربون والإيدروجين والنيتروجين والأكسجين والكبريت. وعلم أنه يوجد في الجزيء[3] الثقيل منها: ٤٠٠٠٠ ذرَّة (Atome).

فإن ادَّعى مدَّعٍ أن في الطبيعة ٩٨ عنصراً قد وزِّعت أو وجدت دونما نظام وترتيب، بل وجدت ورتبت بالصدفة، فللعلوم الرياضية أن تحقق إمكان حدوث هذه

---

(١) إن أمسكهما: أي: ما أمسكهما.

(٢) كان يعرف: البروتوبلازم: أنه المادة الزلالية الحية التي تتكون منها خلية الأجسام النباتية والحيوانية فهو مصدر كل حياة.

(٣) Molécule.

الصدفة! وأن تحسب مرتبة الاحتمال أو درجة الصدفة التي يمكن أن تحدث لإمكان انضمام عناصر خمسة (الكاربون والإيدروجين والنيتروجين والأوكسجين والكبريت)(١) لإيجاد ذرّات المادة الأولى: البروتين (Protéine) وأن تحسب مقدار المادة التي يجب أن تكون موجودة قبلاً وفي حالة خلط ومزج دائم، وأن تحسب المدة التي يجب أن تنقضي لحصول هذا التركيب أي لاجتماع هذه العناصر الخمسة.

فالعالم السويسري: (شارل أوثرن گوي) تمكن من حساب مرتبة الاحتمال لحدوث ما في البروتين (Protéine) من تركيب.

فقال: إن مرتبة الاحتمال لحدوث هذا التركيب للعناصر الخمسة فقط هي:
$\frac{١}{١٠^{١٦}}$ أي في كل عشرة ميليون مليار حادثة تركيب يحتمل أن يحصل تركيب يشبه تركيب المادة الأولى: البروتين.

وإذا قلنا أنه يوجد في الكون مثل هذا التركيب وأعقد منه تراكيب لا تتناهى، وذلك لحصول هذا النظام البديع في عوالم الجماد والنبات والحيوان، لأصبحت إذن مرتبة الاحتمال $\frac{١}{\infty}$ (أي: واحداً منسوباً إلى اللا نهاية) ومآل ذلك: الصفر. إذن فلا صدفة وانتفى كل احتمال.

* * *

وقد حسب أيضاً العالم السويسري (شارل) أن المقادير اللازمة من المواد المذكورة التي يجب أن تقع بالصدفة بعضها جنب بعض لتشكيل (البروتين)، وذلك بعد تبدلات وتحولات كثيرة جداً، هي ملايين مرة أكثر من جميع ما في هذا الكون المادي من مواد.

كما علم أنه لا بد وأن ينقضي $١٠^{٢٤٣}$ [عشرة مرفوعة إلى قوة ٢٤٣، أو ١٠ متبوعة بـ٢٤٣ صفراً] من السنين لحدوث ترتيب البروتين المؤلف من عناصر خمسة فقط، فكيف بالمدة اللازمة لحدوث عناصر أخرى، لا تعد ولا تحصى.

---

(١) على أن للإنسان أن يسأل: كيف وجدت هذه العناصر الخمسة ابتداءاً وما هو الأساس وهل للمادة العمياء أن ترتب وتنظم وتنظر إلى المستقبل؟

إن البروتينات مكونة من مواد متسلسلة تسمى بالحوامض الأمينية Amino acides ويحار الإنسان إذا ما رام أن يستقصي هذه المواد المتسلسلة وكيف ترتبت وتسلسلت ذرَّات هذه المواد. فإن الذرَّات، لو كانت قد اتصلت وانضمت بعضها ببعض بصورة خاطئة لشكَّلت مواد سامة مهلكة.

وقد حسب البروفسور (ج. ب. ليج) أنه: تتشكَّل سلسلة بروتين بسيط بـ (10^{48}) شكلاً مختلفاً. ويقول أنه لا يمكن أن ينتظم جزيء من البروتين الحالي بالصدفة مع ضآلة هذا الاحتمال.

على أن البروتين (Protéine) مادة كيمياوية فاقدة الحياة. وأن الحياة أو الحيوية أمر هام خطير جداً تأتيها من الخارج وأن الله تعالى هو الذي نفخ فيها الروح وجعلها حية بعد أن كانت مادة ميتة لا حياة فيها ولا حيوية، لا سيّما مع تلك الدرجات العالية من الحرارة حين تشكل الأرض، عندما كانت سديماً[1]، على ما ثبت في علم طبقات الأرض: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[فُصّلَت: الآية ١١].

فما أعظم قول الله بالنسبة إلى ولوج الحياة في الخلية الميتة (cellule) حين يقول:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحَجّ: الآية ٧٣].

* * *

إن العلم بأحوال الكون يجعل الفرد المؤمن يركع لله تعالى خشوعاً، ويسجد له تواضعاً وخنوعاً وتفيض عيناه بالدموع حباً وتسبيحاً وخضوعاً، لو كان قد بلغ مرتبة من اليقين لأعمال كان يقوم بها صالحة مع تهجد وتزكية وتحلية وتطهير وهو القائل: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذّاريات: الآيتان ٢٠/٢١]. حقاً، لا

(١) السديم: الضباب، ويراد به هنا غاز عالق به مواد صلبة.

يستفيد في مجالات تكامل النفس العالمون ببعض ما أودع الله من دساتير وخواص ودقائق الصنع في هذا الكون إلا الموقنين منهم. ولا يقين إلا بعد تزكية وتطهير وترك للموبقات والإجرام، عند ذلك يوقن من وفق إلى التزكية بهذه الآية المنيفة حين يقول تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨٣].

وقد أتم الله الحجة على عباده بقوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥١].

نفي الصدفة بتوضيح آخر:

لو أرادت الصدفة (دون مدبّر عاقل) أن ترتب حروف هاتين الكلمتين: (إنسان يقظان) المؤلفتين من ١٠ حروف وكان عدد العلب (أو الخانات) الجاهزة في المطبعة لهذا العمل ١٠٠ علبة[1]، فدرجة الاحتمال لظهور حرف (أ)

(١) (أولاً) من بين ١٠٠ علبة تكون: $\frac{١}{١٠٠}$ (واحداً من مائة).

ولأجل أن يظهر حرف (ن) من كلمة إنسان، بعد حرف (أ) مباشرة. تكون درجة الاحتمال لهذا الظهور= $\frac{١}{١٠٠٠٠}$ (واحداً من عشرة آلاف).

ذلك لأنا مع كل سحبة من السحبة الأولى لظهور حرف: أ (أولاً)، يحتمل أن نسحب ١٠٠ مرة كي يظهر حرف (ن) بعد (أ) مباشرة. وبما أنه يحتمل أن نسحب ١٠٠ مرة لظهور حرف (أ) أولاً ومع كل سحبة يحتمل أن نسحب أيضاً ١٠٠ سحبة لظهور حرف (ن)، إذن درجة احتمال ظهور حرف (ن) بعد (أ) مباشرة تكون واحداً من عشرة آلاف، أي واحداً من ١٠٠ × ١٠٠ $\frac{١}{١٠٠٠٠} = \frac{١}{١٠^{٤}}$.

ولأجل ظهور أو مجيء حرف (س) بعد حرف (ن) مباشرة (من لفظ: إنسان) تكون درجة الاحتمال واحداً من مليون أي:

$$\frac{١}{١٠٠ \times ١٠٠ \times ١٠٠} \qquad \frac{١}{١٠^{٦}}$$

(١) باعتبار الحرف الأول والحرف الوسط والحرف الأخير والحرف المفرد.

ودرجة الاحتمال لأجل ظهور أو مجيء حرف (أ) بعد حرف (س) من لفظ إنسان، مباشرة، تكون: $\frac{١}{١٠^{٨}}$.

ودرجة الاحتمال لأجل ظهور حرف (ن) بعد (أ) من كلمة (إنسان) مباشرة، تكون: $\frac{١}{١٠^{١٠}}$.

ودرجة الاحتمال لترتب حروف: (إنسان يقظان) بالصدفة (دون أن يكون للعقل أو الحافظة دخل في الموضوع) تكون واحداً من مائة مليون مليون مليون، = $\frac{١}{١٠^{٢٠}}$ أي نحتاج إلى مائة مليار مليار سحبة.

وإذا كان عدد حروف صفحة من كتاب رتبت حروفها بالصدفة العمياء ٢٠٠٠ حرف، فتكون درجة الاحتمال: $\frac{١}{٢٠٠٠ \times ١٠^{٢}} = \frac{١}{١٠^{٤٠٠٠}}$.

وإذا فرضنا أن كتاباً عدد صفحاته ٤٠٠ وأن الصدفة العمياء هي التي نظمت ورتبت حروف هذا الكتاب. فتكون درجة احتمال وقوع هذه الصدفة = $\frac{١}{١٠^{١٦٠٠٠٠٠}}$ وبما أن المقام صار يقترب من اللا نهاية ∞، فإن درجة احتمال ترتب حروف مكتبة تضم مائة ألف مجلد أو أكثر تساوي واحداً منسوباً إلى اللانهاية: أي:

$$\frac{١}{١٠^{ن١}} = \frac{١}{\infty} = ٠ \text{ (صفر)}$$

ثم، ألا ينبغي للقائل بالصدفة أن يسأل نفسه: كيف وجدت هذه الحروف: (الحرف الأول بشكله الخاص والحرف الوسط بشكله الخاص . . . الخ) بهذا النحت الجميل عن تدبير وهندسة خاصة في بادئ الأمر حتى يأتي دور الصدفة وترتب اللفظين: (إنسان يقظان) بالصدفة العمياء دون إرادة وعلم!

فالتنظيم ضارب أطنابه ابتداءاً واستمراراً وأبداً في هذا الكون، فلا بد من موجد ومنظم ابتداءاً واستمراراً وأبداً وهو الله جلت عظمته، ووسعت رحمته.

فلنأت بعد ذلك إلى هذا الكون الرحيب وما فيه من ذرّات وجزيئات وعناصر ومركبات لا تتناهى في السماوات وفي الأرضين، سواء في عالم الجماد أو النبات أو الحيوان وفي عوالم أخرى لا يعلمها إلا الله تعالى، لنرى انعدام الاحتمال بطريقة

الصدفة لحدوث هذا النظام الرائع في ما لا يتناهى من أجزاء مترتبة بعضها بعضها أثر بعض عن حكمة وتدبير. فدرجة الاحتمال في هذه الحالة: $\frac{1}{\infty} = 0$ (صفر)، تساوي الصفر لا محالة ودون أي ريب.

فلا بدّ إذن من مدير منظم حكيم عارف بقوانين الميكانيك والتفاعلات الكيمياوية والرياضيات العالية والطبيعيات إلى ما هنالك، وهو الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: الآية ١٤].

على أن للسائل أن يسأل: كيف وجدت هذه الأجزاء ابتداءاً، وكيف تسلسلت متكاملة بعضها عن بعض ثم استمرت وهي متكاملة، ومن الموجد لها أولاً قبل أن تترتب؟ وما هو أساس الوجود المادي؟ وما هو أساس الوجود الروحي؟ وكيف جاءت هذه الحيوية وما حقيقتها؟

فلا مناص من الاعتراف بمن هو واجب وجوده من الأزل لإيجاد هذا الكون الرحيب بهذا الترتيب البديع وهو الله تعالى واجب الوجود.

﴿سَبِّحِ[1] اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى[2] ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً[3] أَحْوَى[4] ﴿٥﴾﴾ [الأعلى: الآيات ١/٥].

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: الآية ١٢٥].

* * *

جاء في حديث عن رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً به وإنه يستغفر لطالب

(١) سبح: أي قدس ونزه ربك عن النقائص.

(٢) قدر فهدى: أي قدر كل ما خلقه تقديراً مناسباً للحكمة ومؤدياً للأغراض التي خلقه من أجلها على أحسن حال.

(٣) غثاء: ما يلقيه السيل من ورق بال وزبد.

(٤) أحوى: ما به حوة، والحوة سواد إلى خضرة.

العلم من في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في البحر. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر. وإن العلماء ورثة الأنبياء»[١].

ما هو هذا العلم الذي تضع الملائكة أجنحتها لطالبه رضاً به؟ هل هو هذا العلم المادي الذي يقطع العالم به علاقته بواضعه وموجده وخالقه؟ هل هو العلم بأحوال الكون وقوانينه دون عزو ذلك إلى مرتبها وواضعها، بل صار يكفر العالم بها بمن أوجدها ونظمها غاية التنظيم؟ هل هو هذا العلم الذي يعتبره المنحرفون والمنجرفون معبوداً جديداً وإلهاً قهاراً، حلاّلاً للمشكلات، يدفع المعضلات ويقهر كل شيء ويسير العالم حسب أهواء الضالين المضلّين؟ فلا حاكم ولا قاهر خارج حدود هذا العالم إلا العلم؟! ولا مسيطر ولا مدبّر في الكون كله دونه! (أي دون العلم؟!).. أهذا هو ذلك العلم الذي يقول عنه الإمام علي عليه السلام: «أيها الناس إعلموا، أن كمال الدين طلب العلم والعمل به»[٢]. فأي كمال رأينا في نفوس بعض العلماء الماديين وبعض الفلاسفة الماركسيين! فهم أعداء الله في أرضه ولا غنى لهم عن رزقه. فلو سلّط الله تعالى على مخ أحدهم جرثومة ضئيلة لا ترى بالعين المجردة لأمسوا مجانين ولعلموا ما هم عليه من فلسفة زائفة ضالة هدامة!

على أن هذا العلم لا يستطيع أبداً أن يكون بديلاً عن الإيمان بالله في حياة الإنسان، يملي على الإنسان سنن الكمال. ذلك لأن هذا العلم إنما خرج من نفوس لم تزكَّ ولم تتطهر. فلا يزال عليه طابعها: ذلك الطابع المادي الحالك. ولأن هذا العلم متغير ومتطور من لحظة إلى أخرى وأن نتائجه التي تؤكّد اليوم من قبل العلماء تنقض غداً بفعل الاختبارات والتجارب في كثير من ميادين العلم. وهكذا سيظل (العلم) له خاصية التغير والتبدل ويخضع لعامل التطور، إلا ما كان مجرداً بحتاً كالرياضيات البحتة وذلك في حدود معينة محدودة.

أهذا العلم الذي يقول به المادي دون أن يتجاوز بفكره حدود الأرض والجسد،

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص٣٤، باب ثواب العالم، ح١.

(٢) أص[illegible] ص٣٠، باب فرض العلم، ح٤.

هو ذلك العلم الذي يقول عنه رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ألا إن الله يحب بغاة العلم»[١]. أترى أن الله يحب العلماء المفسدين في الأرض، وهو القائل: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: الآية ٢٨].

انظروا إلى هذا الحديث، لتعلموا ماذا يراد بالعلم في لسان الشرع وماذا يراد بالفضل؟

فعن أبي الحسن موسى عليه السلام: قال دخل رسول الله ﷺ المسجد فإذا جماعة قد أطافوا برجل فقال ما هذا؟ فقيل علّامة... فقال: ما العلامة؟ فقالوا له: أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية والأشعار العربية. قال: فقال النبي ﷺ: «ذاك علم لا يضر من جهله ولا ينفع من علمه». ثم قال النبي ﷺ: «إنما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سُنة قائمة وما خلاهن فهو فضل»[٢].

فترون أن المراد في لسان الشرع من (العلم) هو ذلك العلم الذي يوحد به الله تعالى في أرضه وسمائه فيعبد ويقدس. هو ذلك العلم الذي يأخذ بالنفس الإنسانية إلى ساحات القدس بعد تزكيتها وتطهيرها من الدنس والرجس بما يقدِّم للبشر من تعاليم إلهية ودساتير ربانية، وكذلك العلوم الطبيعية والفيزيائية والكيميائية والفلكية، وكل علم مظهر لعظمة الله في أرضه وسمائه، إذا كان هذا العلم لا ينفك عن عزو جميع المكتشفات إلى الله المبدع العظيم.

لذلك يقول (إسحاق نيوتن) وهو أعظم علماء القرن الثامن عشر وله الفضل الأكبر في تقدم العلوم المادية في القرن العشرين إلى هذه المرتبة، أنه يقول: «لا شك في الخالق. فإن هذا التنوع في الكائنات وما فيها من ترتيب أجزائها ومقوماتها وتناسبها مع غيرها ومع الأزمنة والأمكنة لا يعقل أن تصدر إلا من حكيم عليم»..

وهو القائل أيضاً: «لا أدري كيف ينظر إلى العالم ولكن أتراءى لنفسي كما لو كنت

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص٣٠، باب فرض العلم، ح١.
(٢) أصول الكافي: ج١، ص٣٢، باب صفة العلم، ح١.

غلاماً يلهو على شاطئ البحر وأسلي نفسي بين الحين والآخر بالعثور على حصاة أكثر ملاسة، أو صدفة أجمل من المعتاد. بينما محيط الحقيقة العظيم يمتد أمامي دون كشف» . .

ويقول أيضاً في محل آخر: «ما من شك أن خالق العالم هو محيط بأسرار علم الميكانيك إحاطة تامّة كاملة».

(باستور) كان ينكر إله الكنيسة. إلا أنه كان مؤمناً بالخالق المعبود، إله العالمين، خالق الجراثيم. . . على حد تعبيره.

* * *

في القرآن الكريم (٧٥٠) آية كونيّة تشرح بإيجاز: عصارة ما أودع الله تعالى من كمال في العالم المادي من سماء وأرض وفي عالم النبات والحيوان، وآيات أخرى تذكر شيئاً عن عوالم النفوس والأرواح. كل ذلك، ليوقن هذا الإنسان، لو نال قسطاً من طهارة النفس، أن هذه القوانين النظم التي لم يتوصل الإنسان إلا إلى جزء ضئيل منها، إنما هي خير دليل على وجود صانعها ومبدعها العلي القدير وخير مرشد إلى مدبر ومسير أوحى جميعها بقدرته، بقاؤها بإرادته، زوالها بأمره. فليس (للعلم)، هذا العلم الذي يعتز به المادي وهو من صنع الله، أن يدير العالم، لو تخلف هذا العالم عن إرادة الله تعالى ومشيئته طرفة عين. «إن الله يُمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده»[١].

لذلك يقول أبو جعفر عليه السلام: «الكمال كل الكمال، التفقه في الدين والصبر على النائبة وتقدير المعيشة»[٢].

وفي حديث آخر: «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين»[٣].

وفي حديث آخر: «عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد»[٤].

وعن أبي عبدالله عليه السلام: «يغدو الناس ثلاثة أصناف: عالم ومتعلّم وغثاء، فنحن العلماء وشيعتنا المتعلمون وسائر الناس غثاء»[٥].

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤) أصول الكافي: ج١، ص٣٢، باب صفة العلم، ح٤ و٣ و٨.

(٥) أصول الكافي: ج١، ص٣٤، باب أصناف الناس، ح٤؛ والغثاء: الزبد والبالي من ورق الشجر.

وقال أبو عبدالله عليه السلام: «من تعلم العلم وعمل به وعلّم لله دعي في ملكوت السماوات عظيماً. فقيل: تعلّم لله وعمل لله وعلّم لله»(١).

وقد جاء في تفسير ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: الآية ٢٨] من صدّق فعله قوله. ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم(٢).

فالمادي الذي قد تعلم شيئاً من قوانين الطبيعة وخواصها، أو وفقه الله تعالى إلى كشفها ولم يتأثر بما أودع الله من دساتير رياضيَّة لا تحصى في هذا الكون ومن دقيق الصنع ولم يخشع قلبه ولم يخش الله في حركاته وسكناته، ولم يكن لنفسه نصيب من الخضوع لله «الذي خلقه، فسوَّاه فعدّله. في أي صورة ما شاء ركّبه»، ليس ذلك العالم الذي عناه الله في الآية المتقدمة.

فقد قال أبو عبدالله عليه السلام: «أطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار وتواضعوا لمن تعلمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم»(٣).

ما أعظم هذا الدستور أنه أدب التعليم الرفيع. لو عُمل به لما بقى على وجه البسيطة من يشك في وجود الله جل جلاله، أو ينحرف عن الصراط السوي.

وقال عيسى عليه السلام: «بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبر»(٤). . وقد قال الحواريون لعيسى عليه السلام، على ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا روح الله، من نجالس؟. قال: من يذكركم الله رؤيته ويزيد في علمكم منطقه ويرغبكم في الآخرة علمه»(٥).

وإن قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجَادلة: الآية ١١] يدل دلالة صريحة أن الذي أوتي قسطاً من العلم ولم يكن مؤمناً لا ترفع له درجة بل بنص هذه الآية هو من الخاسرين: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص٣٥، باب ثواب العالم، ح٦.
(٢) أصول الكافي: ج١، ص٣٦، باب صفة العلماء، ح٢.
(٣)،(٤) أصول الكافي: ج١، ص٣٦، باب صفة العلماء، ح١ و٦.
(٥) أصول الكافي: ج١، ص٣٩، باب مجالسة العلماء، ح٣.

ﭐلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِـمـرَان: الآيـة ٨٥] . ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩] .

وإن قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨] يدل دلالة واضحة على أن أولي العلم في هذه الشهادة العظيمة إنما هم من العلماء الذين بلغ بهم علمهم وتقواهم معاً إلى توحيد الله والاعتراف بعدالته.

وما أعظم هذا الحديث القدسي وما أجل معناه: «يا موسى عظم الحكمة فإني لا أجعل الحكمة في قلب إلا وأردت أن أغفر له، فتعلمها ثم اعمل بها ثم أبذلها، كي تنال بذلك كرامتي في الدنيا والآخرة»[1] .

فلا يستفيد العالم بأحوال الكون ودساتيره من علمه ما لم يكن قد جعل التقوى لنفسه شعاراً والأخلاق الفاضلة دثاراً. لذلك جاء في الحديث عن الرسول ﷺ: «قطع ظهري رجلان: عالم متهتك. يصد الناس عن علمه بفسقه، وجاهل متنسك يدعو الناس إلى جهله بنسكه»[2] . وقال علي عليه السلام: «قصم ظهري رجلان: عالم متهتك وجاهل متنسك»[3] .

وقد جاء في حديث آخر: «كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم. ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع»[4] .

ومن جملة صفات العلماء على ما ورد في أصول الكافي: «لا حقود ولا حسود ولا وثاب ولا سباب ولا عيّاب ولا مغتاب، يكره الرفعة ويشنأ السمعة، سهل الخليقة، لين العريكة، هشاش بشاش، لا بعباس ولا بجساس، كظام، بسام»[5] .

فطوبى لأولئك العلماء الذين يدعون إلى الله بعمل صالح ويرفعون لواء الإسلام

---

(١) منية المريد: ص١٢٠، الفصل ٥.

(٢) عوالي اللآلي: ج٤، ص٧٧.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج٢٠، ص٢٨٤، حكمة رقم ٢٤٨.

(٤) أصول الكافي: ج٢، ص١٠٥، باب الصدق، ح١٠.

(٥) أصول الكافي: ج٢، ص٢٢٦، باب المؤمن وعلاماته، ح١.

عالياً بجهادهم المتواصل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فُصِّلَت: الآية ٣٣] .

* * *

إن الله تبارك وتعالى أكد في آيات جمة أن نتتبع الكون وما أودع فيه من نظم وقوانين تربط أجزاء الكون بعضها ببعض، كي نزداد معرفة به تعالى. فنخشع له وذلك بتقديسه وتسبيحه والعمل بما أمر به، فنزداد بصيرة وذلك غاية الغايات. فقد جاء في الحديث: «أعلمكم بالله أخوفكم له»(١) شريطة أن لا يتجرد هذا العلم (أي العلم بأحوال الكون) عن طاعة الله تعالى، وأن لا يكون آلة هدم وتخريب. فقد قال علي عليه السلام: «كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب».

إنه تعالى يقول: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يُونس: الآية ١٠١] . فإنه تعالى يصرح: أن التعرف على ما أودع الله من قوانين ومعادلات في الكون المادي(٢) وما أودع فيها من قوى وطاقات، وما يربط هذه الطاقات أو المواد بعضها ببعض من قوانين وخواص لا تفيد الذين تخلّوا عن طاعة الله ولا تؤثر في تكميل نفوسهم، هؤلاء الذين لازموا الشهوات والنزوات وحضروا المراقص والملاهي ومجالس الفسق والفجور وأفسدوا في الأرض بأنواع البغي وضروب الظلم. وهذا ما نشاهده اليوم. ويشهد لنا التاريخ في الأمم الغابرة. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٨] (٣) .

نرى اليوم من ينكر وجود الخالق جل جلاله أو يستهزئ برسالة الأنبياء عليهم السلام وقد درس شيئاً من قوانين الفيزياء أو الكيمياء، أو درس شيئاً من علم الحيوان والنبات إلى ما هنالك، مع اعترافه ببعض ما أودع الله من خواص ودساتير في هذا الكون. وإن

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٧، ص٣٤٤، باب ٥٩ .

(٢) يوجد في الكون مثل شمسنا مائة ألف مليون شمس. وإن كلاً من هذه الشموس المضيئة لا بدَّ وأن تجمع حولها كواكب أخرى ذات أقمار تضيء ساعة وتظلم أخرى.

(٣) خلوا: مضوا.

البعض من هؤلاء مع جهلهم المرير بالعلوم الحقيقية كالرياضيات العالية والفيزياء الرياضية العالية وحقائق الكيمياء وما ثبت هناك من دساتير، يتبنون فلسفة مادية، فلسفة تجعل المادة الصماء كل شيء في هذا الكون. وتعتبر الاقتصاد محوراً أساسياً لكل الفضائل والمكرمات والمعتقدات والمثل العليا، حين أن الفلسفة لا تبنى على جهل. ففلسفة تبنى على جهل بحقائق الكون، فلسفة فاشلة، واهية مضلة. إنها فلسفة الشهوات، والتفكك من قيود يتحقق بها شرف الإنسان وكماله. إنها فلسفة إباحية همجية ترجع بهذا الإنسان المسكين إلى جاهلية جهلاء، إنها فلسفة هدم وتخريب!. ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القَصَص: الآية ٥٠] .

يقول (پوانكارة) وهو من أعلام الرياضيين: «نحن الرياضيين إنما نعمل للفيزياء والفلسفة». ومعنى ذلك أن الفلسفة يجب أن تبنى على آخر ما توصل إليه العلم الحديث، لا على مفتريات وأكاذيب لا تدعمها المكتشفات الحديثة وما ثبت من أحوال الأمم الماضية.

فالتجربة ليست كل شيء في نمو الإنسان الرياضي، خلافاً لما يقوله الماديون. ففي الإنسان ملكة التعليل والتسبيب، وملكة التعميم والتجريد، دون أن يكون للتجربة دخل فيها. لذلك يقول (البرت آينشتاين): «كيف أمكن للرياضيات أن تكون أداة مناسبة بشكل يستحق الإعجاب لواقع الأشياء مع أنها ثمار التفكير الإنساني مستقلاً عن التجربة».

وقول (فيثاغورس): «العدد يحكم العالم» دليل على وجود خلق مبدع ربط أجزاء هذا العالم بحكمة فائقة تحت حساب دقيق يمكن أن يعبر عنها بمعادلات وأعداد وقوانين:

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النَّمل: الآية ٨٨] ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطَّلَاق: الآية ٣] .

* * *

إن الله تعالى يقول: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطّارق: الآية ٥] . وهو يحثنا على تعلم علم الأحياء (Biologie) وعلم الحيوان (Zoologie) وعلم وظائف الأعضاء

(Physiologie). ففي جسم الإنسان أكثر من ٢٠٠ عظم ولكل واحد منها شكل خاص، ولولا هذا الشكل الخاص لم تمكن الإنسان من الحركة. وفي جسم الإنسان ٥٠٠ عضلة: كل منها، تتغذى بمئات الأوردة والعروق، تديرها أعصاب كثيرة. والقلب، وهو بين هذه العضلات، ينبض في السنة (٣٠) مليون مرة.

وأما طبقات العين، فهي الطبقة القرنية والعدسية، ثم طبقة مائية زجاجية تنتهي في الشبكية. وإن الطبقة الشبكية لا تزيد عن ثخن الورقة، وهي تتألف من تسع طبقات، أبعدها تتألف من (٣) ملايين أسطوانة و(٣) ملايين مخروط.

وقد حسب أحد علماء الفسلجة أنه توجد في المادة السنجابية التي هي في تلافيف الدماغ: ستة ملايين خلية وأن كل خلية تتألف من ألوف الدقائق الظاهرة وأن كل دقيقة تتألف من ملايين الجواهر. أنه تعالى يقول: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٢٠] ثم يذكرنا الله بالآخرة لنستعد لها لأنها هي الحياة الحقيقية التي تستحق أن يطلق عليها: كلمة الحياة، وذلك بقوله في بقية الآية: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العَنكبوت: الآية ٢٠].

لقد سبق القرآن العلم الحديث في التكلم عن بداية الخلق وهي (الخلية الحية). فهي جوهر الحياة. وذلك لأن كل مشكلة تتعلق بالحياة تبحث في النهاية في الخلية وأن كل كائن حي ما هو إلا خلية.

يقول الدكتور (كلارنس كوك لنيل): «إننا قد نفهم النشاط العظيم المتنوع في مدينة كبيرة، ولكننا قد لا نصدق أنه من الممكن أن تقوم أجسامنا بعملية أكثر تعقيداً وأشد غرابة في هدوء ودأب لا يعرف الكلل، عملية فيها صناعة تخزين وإصلاح ومواصلات ونقل وأعمال پوليسية وتخلص من نفايات وإدارة إنتاج للغذاء وضبط للحرارة. وإن هذا هو ما يحدث حقاً في الخلية الواحدة». فما أعظم ما أودع الله بحكمة فائقة من أعمال شتى متنوعة في غاية الدقة. أعمال ميكانيكية مختلفة، في هذه الخلية التي تبلغ من الصغر ما لا يمكن للعين المجردة مشاهدتها.

يقول (راتكليف): «في اللحظة التي يتم فيها الإخصاب، تقرر الخلية الصغيرة بدقة

تامة نوع المخلوق البشري الذي يجري إنتاجه، حتى لون عينيه وتموُّجات شعره، وإن العلم ما زال قاصراً عن إدراك الأسباب والدوافع التي تدفع بالبويضة إلى أن تتخلص من نصف مادتها بعد أن تبلغ درجة النضج وتصل إلى الرحم. وأن يتخلص الحيوان المنوي كذلك من نصف ما به، حتى إذا اتحد النصفان كوَّنا خليَّة واحدة صغيرة بالغة من الصغر حداً كبيراً. إذ يبلغ وزنها ١٥ جزءاً من عشرة ملايين جزء من الغرام. وتصل يوم الميلاد إلى حوالي ثلاثة كيلو غرامات وذلك بانقسام هذه الخلية الواحدة إلى عدد من الخلايا تبلغ حوالي (٢٠٠) مليون خلية».

فالخليَّة على الرغم من صغرها كيان عضوي معقَّد أشد التعقيد. ففي الخليَّة خصائص ظاهرة وخصائص خفية كثيرة وكثيرة جداً، لم يظفر بها العلم الحديث، تعمل في التغييرات الطبيعية الكيميائية في الوسط الإنساني لتواجه الحالات الجديدة الطارئة في حالات الصحة والمرض تبعاً لما تستلزمه حالة الجسم.

يقول الدكتور (روسكوسبنسر): «ليس في الطبيعة شيء أعجب من الحكمة التي تقسم بها الخلية نفسها إلى جماعات شتى، لكل جماعة وظيفة تؤديها، وكل جماعة منها تختلف لهذا العرض عن الأخرى قواماً وتركيباً، ولكنها كلها أصلها واحد وإن الله تعالى قد زوَّد الخلايا بقوى عجيبة وبخصائص مدهشة كل ذلك لتشييد الكيان العضوي الحـي». ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: الآية ٦٠]. (أي يميلون عنه).

* * *

وقد أمر الله تعالى بدراسة النبات كي يعتبر الإنسان بهذه الحيوية التي أوجدها الله في خلايا النبات وهذا النمو الذي نشاهده فيه، إنه (أي النمو) لأمر عجيب، إنه نمو بأمر الله ومشيئته، إذ العطالة أو القصور الذاتي: (Inertie) شيء لا ينفك عن أي جسم أو أية مادة في هذا العالم المادي على ما ثبت في علم الفيزياء. فلا بد من يد غيبية تعمل بحكمة في ترتيب هذا النمو تحت آلاف بل ملايين من عوامل وخواص وتأثيرات

مترتبة بعضها إثر بعض بحكمة فائقة وبشكل بديع وجمال رائع، إنه تعالى يوضح لنا ذلك بقوله جل من قائل: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا(١) ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا(٢) ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا(٣) ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عَبَس: الأيات ٢٤/ ٣٢].

إنه تعالى يقول في سورة أخرى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [التّكوير: الآية ٢٦]. إلى أين يذهب هذا الإنسان وهو تحت هيمنته تعالى وبين يدي جبروته سبحانه:

فمن الغفلة أن لا يطيع الإنسان ربه ولا يؤمن برسالة رسلهﷺ، حسب التسلسل، وأن يبقى جاحداً لرسالة خاتمهم نبي الرحمة محمدﷺ وإمامة الأوصياء من بعدهﷺ. حقاً إن الآية المتقدمة ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ ﴿لِذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: الآية ٣٧].

فإلى أين يفر وإلى أين يتوجه هذا المخلوق الضعيف بين يدي ربه، المغرور بما منَّ عليه خالقه من علوم ومعارف، فلا ملجأ إلا إليه. على حد قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الذّاريَات: الآية ٥٠]، فطوبى لمن أقلع عن طيشه وغروره وفكر في عقباه ومصيره، فشمّر عن ساعد الجد لإصلاح نفسه والمثول بين يدي ربه واستعد ليوم ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: الآية ١٩]. ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطّففين: الأيتان ٥/ ٦].

* * *

إن الله تعالى قد حث على تعلم علم الفلك بقوله جل من قائل: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقِعة: الأيتان ٧٥/ ٧٦]. فما أعظمها من آية. إنه تعالى يعظم مواقع النجوم والأبعاد المقدرة بينها بحكمته، فإنها من الدقة بمكان، بحيث لو تغير بعضها عن مواضعها شيئاً يسيراً بالنسبة إلى الفضاء اللا نهائي،

---

(١) قضباً: كل شجرة طالت واسترسلت أغصانها.

(٢) حدائق غلباً: بساتين ذات أشجار غليظة.

(٣) أباً: تبناً، أو العشب رطبه ويابسه، مرعى.

لاختل نظام السماء لما هنالك من تجاذب من جميع الجهات حسب الدستور الآتي:

$$\text{ق} = \text{ى} \times \frac{\text{ك ك}'}{\text{م}^{2}}$$

أي تتجاذب الكتلتان في الفضاء بنسبة حاصل ضرب الكتلتين: (ك، كَ) مقسوماً على مربع المسافة بينهما (م) بعد ضرب الناتج في نسبة ثابتة معلومة = $\frac{1}{15,000,000,000}$ من ثقل الغرام[1].

اكتشف (ليڤرييه Leverier) استناداً إلى القانون المذكور وقوانين الحركة الكوكب المسمى بـ(نپتون Neptune) وعين موضعه قبل أن يراه، فحرر الراصدون تلسكوباتهم إلى هذا الموضع المزعوم، فرأوه رأي العين بعد أن كان (ليڤرييه) رآه رأي الفكر ورأي العلم والحساب، ثم رأى الفلكيون أيضاً أن هناك أيضاً اختلافاً يسيراً في مدار الكوكب (أورانوس). زعموا من أجله أن كوكباً أبعد من (نپتون) ما زال مختبئاً في السماء فاكتشفوه وأسموه (پلوتو) سنة ١٦٣٠ ميلادية. وهكذا يتنبَّأ العلم والدساتير عن أشياء لا ترى بالعين، فتكشف لتبرهن مرة أخرى على ما أودع الله من نظام رياضي متقن في سير الكواكب والأنجم: مداراتها وحركاتها.

* * *

حقاً إن في مثل جزيرة العرب التي لا تربط حواضرها بعضها ببعض إلا أراضٍ واسعة جرداء غير ذات زرع، ما كان ليمكن أن ينمو العلم وأن تكون فيها حياة علمية. فللإسلام فضل كبير في إيجاد وسائل الحضارة في البلاد العربية، ومن ثم وجود علماء في شتى العلوم والفنون ومكتشفات جمة كانت أساساً للمكتشفات الحديثة.

لم يكن للعرب في الجاهلية أي أثر للعلوم ولم يكن هناك أي مظهر من مظاهر الحياة العقلية. ومنذ بزوغ فجر الإسلام لم يكن في قريش إلا (١٧) رجلاً يكتبون ويقرأون. ولذلك كان يلقب من يجيد الكتابة والرمي بـ (الكامل!).

---

(١) ى = ٦,٦٧ × 10^{-8} من ثقل الغرام = $\frac{1}{15,000,000}$ من الداين.

فالقرآن هو أول كتاب دعا الأعراب إلى التفكر في أحوال السماوات والأرض والجماد والحيوان والنبات بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: الآيات ١٧/ ٢٠].

إن العلم الحديث كان يجهل حقيقة قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: الآية ٣٨] إلى قبل ٥٠ سنة تقريباً. حتى تقدم الميكانيك الرياضي وأسست مراصد كبيرة واخترعت مراقب جسيمة، فعلم أن ما كان يعتقده الفلكيون من ثبوت الشمس في محلها خطأ فاحش وأن للقرآن القول الفصل في شرح حقائق السماء والميكانيك السماوي كعصارة للعلوم. كما ثبت أخيراً أن لكل كوكب أو نجمة فلكاً خاصاً لا يتعداه، وأن الجاذبية التي أودعها الله بين الكرات لا تدع مجالاً ليزلَّ بعضها عن مكانها وما رسم لها من أفلاك ومدارات وحركات قيد شعرة. ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: الآية ٤٠].

دعا رسول الله ﷺ، المسلمين إلى تعلم الكتابة والقراءة وأمرهم بكتابة القرآن وتعلمه ونشره. حتى أنه جعل، في غزوة بدر، فداء بعض الأسرى: أن يعلموا صبيان المدينة القراءة والكتابة، على أن يعلم كل واحد من الأسرى عشرة من المسلمين.

كما أنه أمر رسول الله ﷺ بعض المسلمين بتعلم لغات أُخرى. فقد أمر زيد بن ثابت أن يتعلم السريانية. وهكذا أمر بعضهم بتعلم لغات أجنبية، وذلك لبث الدعوة في الأقطار النائية وإرسال كتب إلى بعض الملوك.

ويا حبَّذا لو أسِّست جامعة دينيَّة كبرى، تدرس فيها شتى العلوم الدينيَّة مع شيء من العلوم الحديثة، لا سيما الرياضيَّات والطبيعيَّات والفلسفة الحديثة على ضوء الفلسفة الإسلاميَّة الحقة وردِّ نواحي الضعف فيها (وما أكثرها!) بالحجج الدامغة المنطقية على ضوء العلم الحديث. وتدرس فيها لغات شتى. يتعلم كل عشرين طالباً مثلاً حسب رغباتهم لغة أجنبية خاصة بصورة متقنة، حتى يتمكَّنوا من الكتابة والخطابة فيها. ثم يوفدون ويوزَّعون على بعض مدن العالم لبث الدعوة الإسلاميَّة الحقَّة وذلك

بعد أخذهم شهادة عالية، شهادة التخرُّج من هذه الجامعة الدينيَّة الكبرى. فينيروا الأرض بجهودهم المشكورة عند الله تعالى كما فعل آباؤهم من قبل.

وقد حث الرسول ﷺ على التعلم والتزوُّد من العلوم الموجودة في كل وقت حتى قال: «اطلبوا العلم ولو في الصين». فهو أول من دعا، بقوله هذا، إلى الهجرة إلى البلاد النائية طلباً للعلم وأول من أسَّس مشروع البعثات. ولكن هذا النوع من البعثة لا يشبه ما نحن فيه من البعثات في الحال الحاضرة بحال. لأن المسلم عندما كان يهاجر من بلده إلى الخارج لتحصيل بعض العلوم، إنما كان يهاجر وهو مملوء إيماناً بالله وتقوىً وورعاً وخوفاً من الله تعالى. لا يدفعه ولا يزيغه عن طريقته الحاد الملحدين وتشكيك الضالين ودسائس المستعمرين باسم الثقافة والتقدم! بل كان مجهزاً بعقيدة راسخة عن براهين قطعية وتعاليم إسلاميَّة رائعة. حافظاً للقرآن، عاملاً به، مؤتمراً بما أمر الله من صلاة وصوم وزكاة وواجبات أخرى. متناهياً عما نهى الله عنه من رقص وسكر وفجور!

ولكن شبابنا اليوم بعيد عن روح الإسلام وحقيقته وتعاليمه، فالبعض منهم يمقت الإسلام ويظنه ضرباً من الرجعية والخرافة نتيجة سموم بثها المستعمرون وأعداء الإسلام.

وقد يصلي بعض هؤلاء الشبان خوفاً من أوليائهم أو إرضاءً لآبائهم وأمهاتهم إن كانوا مصلين يحثون أولادهم على أداء الصلاة. إنهم يصلون ما داموا مراقبين، ولكنهم يتركونها عند رفع هذه المراقبة. يفرح الأب عندما يرى أن ولده يطيعه فيصلي، لأنه يعلم علم اليقين إن مآل ولده النار إن ترك صلاته. وقد فاته أن السموم المبثوثة هاهنا وها هناك قد أثرت فيه. وعلى رأسها ما يقوم به ولده من أعمال غير مشروعة. فصار لا يأنس بمناجاة ربه والمثول بين يديه خاشعاً تائباً من ذنوبه.

وقد حثَّ رسول الله ﷺ المسلمين على الحضور في مجالس علماء الدين بصورة خاصة ليتعلموا معالم دينهم ويتأدبوا بآدابهم. وكانت المساجد محلاً للعبادة والدراسة معاً حتى القرن الرابع الهجري. فأسِّست دور خاصة بالتدريس في فاس. يقول (دلفان): إن جامعة (القروين) هي أول جامعة في الدنيا، وقد تخرج في هذه الجامعة

عشرات من الطلاب الأجانب من غير المسلمين ومنهم الراهب (جربرت) الذي أدخل الأعداد العربية إلى أوروبا. وقد ترجم كل ما دوَّنه المسلمون من علوم.

وقد تعلّم (سبتاي بن إبراهام) اليهودي الذي قد أسر من قبل المسلمين في النصف الأول من القرن العاشر اللغة العربية في بغداد وبقى فيها يدرس الطب، ثم عاد إلى أوروبا وقاد هناك حركة علمية مرموقة.

وهكذا (قسطنطين) الذي كان يعيش في (قرطاجة) أتقن اللغة العربية وذهب إلى إيطاليا حيث ترجم كثيراً من كتب المسلمين في علوم شتى.

وإن المسلمين هم الذين أنشأوا أول كليَّة طبيَّة في (ساليدن) في إيطاليا، وأسَّسوا أول مرصد فلكي في (أشبيلية). وهكذا كان للمسلمين اليد الطولى في الهندسة المعمارية والنحت والزخرفة. وإن (كنيسة نوتردام دوپاري) إنما بنيت من قبل مهندسين مسلمين.

وكذلك المسلمون هم الذين اخترعوا طريقة الكتابة بالحروف البارزة لتعليم العميان القراءة.

لذلك يقول: (أرنست رنان): «إن الآثار والأسفار المحتوية على شتى العلوم والفنون التي أضفاها علماء الإسلام على الكون ونقلتها الحملات الصليبية إلى جميع بلاد الغرب وما سبق ذلك من احتكاك بين المغرب وأوروبا عن طريق الأندلس، أدى كل ذلك إلى افعام المكتبات الأوروبيَّة الخاوية الفقيرة بكنوز لا تفنى من العلم الذي أنتجته قرائح العرب. وكان من نتائجه انتشار الثقافة والترعرع العلمي في البيئة الأوروبيَّة بأسرها، كما رفع مستوى شعوبها إلى أفق التمدن الذي نشاهده عليها اليوم».

ويقول (هـ. ج. ويلز): «قد سبق العالم الإسلامي الغرب بقرن أو ما يقاربه. فقد أسَّست في البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وقرطبة سلسلة من الجامعات العظيمة، فأضاء نور هاته الجامعات خارج العالم الإسلامي إلى مسافات بعيدة واجتذب إليها الطلاب من الشرق والغرب».

ويقول (نهرو) رئيس وزراء الهند الراحل وهو هندوسي العقيدة: «كان محمد واثقاً بنفسه ورسالته. وقد هيأ بهذه الثقة وهذا الإيمان لأمته أسباب القوة والعزة والمنعة...

إلى أن يقول: إن قصَّة انتشار العرب في آسيا وأوروبا وأفريقيا والحضارة الراقية والمدنية الزاهرة التي قدموها للعالم هي أعجوبة من أعجوبات التاريخ. لقد امتازوا بالروح العلميَّة الاستطلاعيَّة مما يجعلهم يدعون بجدارة آباء العلم الحديث».

فهل يحق لأحد بعد قراءة هذه الفقرات أن يقول: إن الدين أساطير وتقاليد تقف في سبيل الحياة!

فالإسلام يناصر العقل والعلم ويرحب بالأفكار والنظريات العلمية الصحيحة والمكتشفات العلمية التي تخدم البشريَّة في مجالات تكميل النفوس البشريَّة ويحارب الجهل والخرافة وكل ما يخالف العقل.

فالمسلمون بتمسكهم بدينهم أصبحوا مكتشفين ومنقذين قسماً من العالم من الجهل والخرافة بعكس أوروبا التي لم تظهر الحضارة الحاضرة فيها إلا بعد أن تغلب العلم الحديث على الكنيسة ورجال الدين فيها!

* * *

يقول المستشرق الإيطالي: (ليبرتيني) في كتابه: (الإسلام في أمجاده)[1]: «إنني أكاد أعتبر أقطاب الأندلس وجزيرة العرب ـ عندما أضاء سناء الحضارة العربيَّة بفضل جهادهم والعلم المنتشر في ربوعهم ـ أكبر أعداء العالم. لأنهم لم يكتفوا بإفناء بعضهم بعضاً، بل تعدَّوا ذلك إلى وأد ألمع حضارة أوجدها إنسان على وجه الأرض. وكانت لم تزل تترعرع في أحضان النهضة الإسلامية الخارقة. فلو أتاح لها أربابها والعاملون على إشعال قبسها الوضاء الباهر أن تمشي في سبيلها إلى التكامل لما بقي على وجه الأرض إلا كل عربي أو مستعرب. ولما كان غير الإسلام ديناً للمجموعة البشرية. فاكتفى الناس شر الفتن والحروب والانقسام إلى دول ونحل وملل لا يحصيها قلم أو تجمعها جامعة مهما سمت بجبروتها ومتين انسجامها».

يقول (نيتزه Nitza): «إن القسيسين عوضاً من أن يفتحوا أبواب أوروبا للمسلمين والمبشرين بالدين الإسلامي وأن يخضعوا وينحنوا لهم تعظيماً وإجلالاً شهروا سيوفهم

---

(١) المسلمون والعلم الحديث: للأستاذ عبدالرزاق نوفل.

في وجوههم، فأمسى الدين في عرفهم عبارة عن مجموعة خرافات فحسب».

وقد بدأت ترجمة معظم كتب المسلمين في الفلسفة والطب والفلك والرياضيات إلى اللغة اللاتينية منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر، وفي مقدمة هؤلاء (رايموند Raymond) رئيس أساقفة (توليدو) وحاكم مدينة (كاستيل): (١١٣٠ ـ ١١٥٠م) الذي شكَّل هيأة من المترجمين تولّى رئاستها وأسماها: (Dominican Gondeslavi).

وأمّا المسيحيون فقد جهلوا طوال العصور الوسطى محمداً ﷺ نبيَّ الرحمة، وظلُّوا قروناً يعتقدون أن محمداً هو (إله) المسلمين. فكانوا يقولون بوجود وثن ذهبي يسمّى محمداً Mohom وأنه يمثل رسول الله. وإن كتاب العصور الوسطى قد نعتوا محمداً ﷺ بنعوت كاذبة عجيبة، فقالوا: «ليس محمد نبياً كاذباً وشاباً ماجناً فحسب بل رجل مخادع مخرب، قاد نفوساً ضعيفة بعيداً عن جادة الصواب، بعد أن نهاهم بكثير من المتع، معظمها متع شهوانية»!؟

وإن معظم هذه الاتهامات ترجع إلى البيزنطيِّين الذين هوجموا من قبل المسلمين، فعمدوا إلى تشويه سمعة الإسلام باتهامات ما أنزل الله بها من سلطان.

ومما يثير الدهشة أن قساً إسبانيا يُدعى (Euloguis of Cordova) رغم وجوده مدة طويلة بين المسلمين وتعرفه على كثير من حقائق الإسلام، يذكر فيما كتب: «إن محمداً قد أخبر أن الملائكة ترفعه إلى السماء بعد وفاته بأيام ثلاثة ورغم ذلك فقد التهمت الكلاب جثمانه العفن!»[١].

إن هذه الاتهامات قد شوَّهت سمعة الإسلام في الغرب، فأحدثت انطباعات سيِّئة أبعدت الغربيِّين عن الميل إلى الإسلام واستقصاء ما فيه إلا من ساقه حب البحث والاطلاع كـ(كارليل) و(تولستوي) و(كوستاولوبون) و(برناردشو) وغيرهم. فكتبوا شهادات حقيقية عن الإسلام وبعض حقائقه.

---

(١) الحضارة الإسلاميّة: تأليف: خدابخش، المؤرِّخ الهندي، وترجمة الدكتور علي حسني الخربوطلي مدرِّس التاريخ الإسلامي بجامعة عين شمس.

فالواعظ (نيكلدوس) الذي عاش في أواخر القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر طلب من إخوانه المسيحيِّين أن يتَّخذوا من الإسلام وصفات المسلمين مثلاً عليا لهم وكان معجباً بدراسة القرآن في مدارس بغداد وأثنى كثيراً على نظام الزكاة والوقف لأغراض الخير، وشفقة المسلمين على الطيور والحيوانات وفكرة التوحيد الناصع في الإسلام وكتابة المسلمين (بسم الله الرَّحمان الرَّحيم) في أعلى الرسائل وخلعهم الأحذية قبل دخول المساجد وكرمهم وحُسن ضيافتهم.

ولا ننسى كتاب (الإسلام على حقيقته) تأليف (شارل فوستر) سنة ١٨٢٩ وما كتبه (كوسان) و(ويل) و(ڤون كريمر) و(وليام ميور) وغيرهم مما أزاح كثيراً من الاتهامات.

ولنذكر دليلاً على عدالة المسلمين هاتين الشهادتين:

نقل (توماس ارنولد) طرفاً مما روته كتب الفتح في كتابه الدعوة إلى الإسلام:

(١) إنّه لما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن وعسكر أبو عبيدة في (فحل) كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون: «يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكفَّ عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا».

ومن ذلك أيضاً:

(٢) إن أهل حمص أغلقوا أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين: أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسُّفهم وإن كانوا على دينهم.

ولولا الكتب التي نشرت في أوروبا في القرن الحادي عشر للميلاد، وهي مليئة بالاتهامات والشتائم وافتراءات غريبة وما قام به القوالون في الطرق والشوارع، لكانت نظرة أوروبا إلى الإسلام غير ما نراه اليوم.

فواجب الشباب المسلم اليوم واجب خطير جداً. عليه أن يقوم بإزاحة ما ترسب من أكاذيب ومفتريات عن الإسلام في الغرب وعرض الإسلام كما هو ببيان واضح وبلغات مختلفة وبذل النفس والنفيس في هذا المضمار. فلا شيء يقرب العبد إلى الله كهداية عباد الله وإنقاذهم من الضلال.

ومما يبشِّر بمستقبل زاهر أنه قد تأسس في (جنيف Généve) مركز إسلامي: (Islamic centre 333) لنشر حقائق الإسلام في الغرب وكذلك تأسَّست جمعيات إسلاميَّة في (اليابان): تدعو الناس إلى الإسلام.

* * *

ومما هو دليل على تقدُّم المسلمين في الهندسة إلى حد بعيد هو: أن أعظم جسر أقيم على نهر (التيمس) كان من صنع مهندسي العرب. وأن قباب معظم الكنائس الشهيرة في (باڤاريا) كانت من صنع العرب. وأن الأسطول البحري الهولندي الذي قهر الأساطيل الإنكليزية في معركة (ليشبونة) عام ١٥١٢م كان من صنع العرب. وإن الورق العبادي الذي كانت تستخدمه البلاد الأوروبيَّة لتأليف الكتب ونسخ[١] المناشير الرسميَّة كان من صنع العرب. وإن علم الجبر والفلك والجغرافيَّة والمثلثات والتشريح والكيمياء كانت من وضع المسلمين. وإن أول خريطة وضعت للكرة الأرضية كانت من صنع الإدريسي العربي الأندلسي، كل ذلك: استجابة لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾[٢] [قَ: الأيات ٦/٨]. واستجابة لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يُونس: الآية ١٠١]. واستجابة لقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩١].

ويقول العلاَّمة (دوسن): «إن المدنية الأوروبية بل المدنية الغربية كلها مدنية للمسلمين. ومن المدهش أن يصبحوا ـ وكانوا أوَّل أمرهم على الفطرة ـ عنصراً فاتحاً، ويعتبروا سادة لنصف العالم في مائة عام. ومن أشد العجب حماستهم العظيمة وسرعتهم البالغة في تحصيل العلوم وتكوين الثقافة اللازمة لعظمتهم. حتى وصلوا إلى مستوى عالٍ في مائة سنة. بينما نرى الجرمانيين، لما فتحوا الإمبراطورية الرومانيَّة.

---

(١) استنساخ.

(٢) منيب: أي راجع إلى ربه.

قضوا ألف عام قبل أن يقضوا على التوحُّش وينهضوا لإِحياء العلوم».

وفي مكتبات أوروبا اليوم آلاف الكتب التي ألفها المسلمون في شتى العلوم. مما يدل على أن الإسلام دين يرافق العلم ويحث على العلم ولا تنافي بينه وبين العلم أبداً.

فالمسلمون قد نبغوا في شتى العلوم. فهم الذين قد أبدعوا في علم الكيمياء والطب وأوجدوا القوانين والدساتير التي هي أساس العلم الحديث. وبثوا المراصد واكتشفوا قواعد علم الفلك ونظموا الخرائط الجغرافيَّة. وكان الأدب والشعر يلعب دوراً هاماً في التعبير عن المكتشفات. فهم كانوا يعبرون أحياناً عن دستور رياضي أو قاعدة نحوية أو قانون هندسي إلى غير ذلك بالنظم، عدا النثر. وقد قرأت قبل أكثر من ثلاثين سنة قطعة شعرية، هي دستور لحل المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية في كتاب ألَّفه أستاذ الفيزياء الرياضيَّة بجامعة استانبول: صالح زكي في أربعة مجلَّدات أسماه: (الآثار الباقية).

والمسلمون هم الذين أوجدوا (علم الجبر). ولا يزال يعبر عن هذا العلم في الغرب بنفس ما اصطلح عليه المسلمون: (Algèbre Algebra). كما أن أسماء كثير من النجوم في علم الفلك لا تزال باقية في كتب الإفرنج على ما اصطلح عليه المسلمون. والمسلمون هم أول من عرفوا أصول الرسم على سطح الكرة الأرضيَّة وقالوا بدوران الأرض على محورها وضبطوا حركة أوج الشمس وتداخل أفلاكها في أفلاك أخرى. وهم أول من عملوا الأسطرلابات وبنوا مراصد كثيرة. ولهم اكتشافات هامَّة في المساحات والحجوم وتقسيم الزاوية. وهم واضعو الهندسة التحليليَّة. وقد أدخلوا تحسينات جمَّة على حساب المثلَّثات الكرويَّة وأضافوا عليها وألفوا في البصريات وحسبوا زاوية الخسوف. وكانوا قد تعرفوا إلى استعمال التخدير في العمليات الجراحيَّة. حين أن الكنيسة كانت تحرم إذ ذاك ممارسة الطب انتظاراً منها لإتمام الشفاء على يد المناسك الدينيَّة التي يقوم بها القساوسة تاركين ما خلق الله من أنواع العقاقير والأدوية لدفع ما يصيب الإنسان من أمراض. وقد صنعوا الورق وأبدعوا في صناعة المنسوجات وصنعوا السكر من القصب ونبغوا في طرق الري والزراعة العلميَّة.

يحدِّثنا العلاَّمة: (هولميارد) أستاذ الكيمياء بكليَّة (ايتون) والذي يُعتبر أعظم الأساتذة في الكيمياء في أوائل القرن التاسع عشر فيقول:

إن سبب نبوغه في الكيمياء هو تعلُّمه اللغة العربيَّة وتضلُّعه منها ودراسته ما اخترعه المسلمون في علم الكيمياء.

* * *

وهذا: (جابر بن حيان) أملى عليه الإمام الصادق (جعفر بن محمدعليه السلام)، خمسمائة رسالة في ألف ورقة عن الخواص الكيمياويَّة والطبيعيَّة وكان الكيمياويُّون من قبله كخالد المتوفى سنة ٨٥هـ يروون عن الإمام عليعليه السلام موازين الصناعة.

إنَّ جابر بن حيان يُعد من أساطين علم الكيمياء وحجة فيه بلا نزاع؛ وقد نبغ في علوم أخرى أيضاً كالطب والفلسفة وقد ألف (٢٠٠) كتاب، (٨٠) منها في علم الكيمياء. وقد جاء بنظريَّات هامَّة في علم الكيمياء تحققت صحتها من قبل علماء الغرب عندما بدأوا في توسيع علم الكيمياء. وقد علمه الإمام الصادقعليه السلام طريقة تحضير (مداد مضيء)، يستخدم في كتابة المخطوطات الثمينة، لإمكان قراءتها في الظلام. وعلّمه أيضاً طريقة صنع صنف من الورق غير قابل للاحتراق.

وهكذا (عز الدين الجلدكي) قد جاء بقوانين هامَّة في علم الكيمياء: منها قانون النسب الثابتة في الاتحاد الكيميائي ومن كتبه: (نهاية الطلب)، (التقريب في أسرار التركيب)، ويبلغ كل منهما نحواً من ألف صفحة.

وهكذا قاد (أبو القاسم المجريطي) أكبر حركة كيميائيَّة في الأندلس. فهل كان كل ذلك، لأن الدين يعارض العلم ولا يوافقه في شيء؟!.. تلك هي سلعة غربية، جاءت من معارضة الكنيسة للعلم وإعدامها كثيراً من العلماء فسرّت إلى الشرق وإلى شبابنا المثقَّف، فتأثَّروا بها وتغيَّرت وجهة نظرهم إلى دينهم القويم، دون أن يتحمَّلوا أعباء البحث والتنقيب!

* * *

وقد نبغ المسلمون في علم الطب، حتى ترى أن (وليم أوسلر) يقول في كتابه:

(تطور الطب): «إن المسلمين أشعلوا سراجهم من القناديل اليونانيَّة. وبلغت مهنة الطب عندهم أثناء القرن الثامن إلى الحادي عشر للميلاد من المكانة والأهميَّة ما لا تكاد تجد له مثيلاً في التاريخ».

ولا بأس بذكر ما جاء في التاريخ العام للأفيس ورامبو:

«إن انكلترا، كانت في القرن السابع الميلادي إلى ما بعد العاشر فقيرة في أرضها، منقطعة الصلات بغيرها، تعترض الأمراض والأوبئة المتكرِّرة المواشي والسائمة. وكانت أوروبا غاصة بالغابات الكثيفة. وتنبعث من المستنقعات الكثيرة في المدن روائح قتالة، لم يعرف أهلها النظافة». ويقول (درابر): «وكان من أثر ذلك أن عمت الجهالة أوروبا وساورتها الأوهام. فانحصر التداوي في زيارة الأماكن المقدَّسة[1] ومات الطب وحييت أحابيل الدجَّالين. وكلما دهم البلاد وباء فزع رجال

---

(١) إن لشفاعة أنبياء الله عليهم السلام والأئمة عليهم السلام والصلحاء من عباد الله رضي الله عنهم وفي التوسُّل بهم إلى الله تعالى أثراً بالغاً في دفع المكروه وقضاء الحوائج. مع العلم أنهم ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٨]. إنهم أبواب الله والوسيلة إليه بإذنه تعالى.. إنهم: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٢٦/٢٧].

وقد كتبت الجرائد معجزة للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قبل سنين: وذلك أن امرأة أصيبت بداء السرطان، وقد أثبت ذلك معهد الأشعة السينية (X. R.) ويئس الأطباء من شفائها وقالوا أنها تموت قريباً لا محالة، فنذرت لله وتوسَّلت إلى الله تعالى بالإمام الرِّضا عليه السلام. فرأت ذات ليلة في ما يرى النائم: يقال لها: قد شفيت وما بك من داء. قامت من فراشها فرحة مستبشرة، وعرضت نفسها على الأشعَّة والأطبَّاء، فلم يروا أثراً للسرطان، فتعجَّبوا من ذلك وقالوا: «إن ما حدث ليس بحادث طبيعي وليس للطب العادي أن يفسِّر ذلك».

ليس المراد من الاستشفاء أو التوسل إلى الله تعالى بالأنبياء والأوصياء عليهم السلام، أن تترك ما خلق الله من أدوية للأمراض تفضُّلاً منه وما علم البشر من عمليات جراحيَّة. فقد جعل الله تعالى لكل شيء سبباً. والشفاعة أو التوسُّل عند تعسُّر الأمور وغلق الأبواب العادية سبب من الأسباب، إن أذن الله بذلك. والحديث القائل: داووا مرضاكم بالدعاء والصدقات، ليس معناه أن نترك الطرق العادية التي هيأها الله لنا وألهمها ثلة من عباده، ولكن ندعو ونتصدَّق مع المعالجة من طرقها والالتزام بالنظافة والتعقيم إلى حد بعيد، كي لا يحدث خطأ في المعالجة ولا يحدث اشتباه في تشخيص المرض ومقدار الدواء وتسمُّم حين إجراء عمليَّة جراحيَّة واشتباه غير منتظر إلى ما =

الدين إلى الصلاة وأغفلوا أمر النظافة، وكانت الأوبئة تفتك بهم فتكاً ذريعاً».

المسلمون هم أول من مارسوا العمليات الجراحيَّة. مع العلم، أن أوروبا كانت ترى، في القرن الثاني عشر الميلادي، أنه لا يجوز للإنسان أن يغيِّر ما خلق الله وأن يتصدَّى إلى عمليَّة جراحيَّة! حين أن المسلمين قاموا في ذلك الحين بتأليفات جمَّة في علم الجراحة وشرحوا الآلات التي كانوا يستعملونها في كتبهم وهي تزيد على مائتي آلة عدا تأسيسهم مستشفيات، بعضها للرجال وبعضها للنساء، مقسِّمين المستشفى إلى أقسام متعدِّدة حسب نوع المرض، وأقاموا معازل لعزل المرضى المصابين بأمراض مُعدية.

والمسلمون هم أول من أسَّسوا المستشفى السيار. فكان ينتقل هذا المستشفى من بلد إلى بلد، مجهَّزاً بالأدوات والأدويَّة والأطعمة والأشربة وملابس وصيدليَّة كاملة مع أطباء، لا سيَّما حين حدوث وباء أو مرض معدٍ. والمسلمون هم أول من اكتشفوا وسائل التخدير واستعملوها في العمليَّات الجراحيَّة.

* * *

وإن أجمل بناء من أبنية جامعة (برنستون) الأمريكيَّة يحمل اسم طبيب مسلم هو: محمد بن زكريا الرازي. وإنه أوَّل من أسَّس الطب التجريبي، وذلك بإجراء تجاربه الطبيَّة العلاجيَّة على الحيوان قبل تجربتها على الإنسان. وقد وضع (٢٢٩) كتاباً في الطب ترجمت إلى معظم اللغات العالميَّة، وتقرَّر تدريسها في كلِّيَّات الطب، كما أنه اشتغل في الكيمياء وألَّف فيها كتباً عدَّة.

كان الرازي رجلاً متديِّناً، يعالج الفقراء مجاناً ويشتري لهم الدواء من ماله. ولذا مات فقيراً رغم شهرته الواسعة.

نعم، إن رجال العلم في الإسلام ما كانوا لينفكُّوا عن دينهم، بل كان تعلُّقهم بدينهم تعلُّقاً شديداً. يتعبَّدون في أوقات معيَّنة ويستعينون بالله في حلِّ مشاكلهم

= هنالك، فالدعاء والتصدُّق والتوسُّل والمعالجة والتعقيم والنظافة كلُّها أسباب هيَّأها الله تعالى لقضاء الحوائج والشفاء تفضُّلاً منه ورحمة.. إنه تعالى يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: الآيتان ٤٥/٤٦].

العلميَّة، بصلاة يصلونها، أو دعاء أو صدقات.

* * *

وهكذا ابن سينا[١]، كان كلما أشكلت عليه مسألة، توجَّه إلى القبلة، صلَّى ركعتين ودعا الله تعالى، متضرِّعاً، فيلهمه الله تعالى ما يزيل مشكلته. كان قلبه متعلِّقاً بالمسجد، وقد يعتكف فيه إذا أعيته مشكلة أو عسرت عليه مسألة.

وابن سينا هو أول من قال: إن الاضطرابات النفسيَّة تسبِّب اضطرابات معديَّة، وقد تسبِّب قرحة المعدة. وهو الذي اكتشف الدورة الدمويَّة في الإنسان قبل (وليم هارفي) بـ(٦٠٠) سنة. وقال في معالجة السرطان ما توصَّل إليه العلم الحديث. وكتابه: القانون، هو من أكبر الموسوعات الطبيَّة. وكان يدرِّس في مختلف كلِّيَّات الطب. وكان أهم مرجع طبِّي لكل من أراد التخصُّص في علم الطب.

وضع ابن سينا نظريَّات في تكوين الصخور والجبال، اتَّخذت أساساً لعلم طبقات الأرض (Géologie) في الوقت الحاضر.

ويقال عنه، إنه قال عند دنوِّ أجله: «إن الذي كان يمدني بقوة. قد أمسك عني». فاغتسل غسل التوبة وأنفق ما كان لديه واعتق مواليه وعبيده وصار يختم القرآن في كل ثلاثة أيام، حتى وافته منيته.

* * *

إن المسلمين اشتغلوا في العلوم الطبيعيَّة وتمكَّنوا من حساب الوزن النوعي للعناصر. ووجدوا أن الوزن النوعي للرصاص ١١,٣٣ ويقرر العلم الحديث أنه ١١,٣٥ فالاختلاف يسير جداً.

كما أنهم اخترعوا بندول الساعة والآلات الدقيقة. واستعملوا (البوصلة)، ووضعوا قوانين الصوت والضوء، ونظريَّات في كلا الموضوعين لا زالت تدرس حتى الآن. ويقال أن الغربيين اندهشوا عندما شاهدوا (ساعة) أهديت إلى (شارلمان) ملك فرنسا. وقالوا: إن فيها جنياً يحركها.

---

(١) هو: أبو علي، حسين بن عبدالله بن سينا المعروف بالرئيس.

وقد ألّف ابن الهيثم (٤٧) كتاباً في الرياضيَّات والطبيعيات و(٥٨) كتاباً في الهندسة وكتباً أخرى في مواضيع شتَّى وهي مما مهد الطريق للمكتشفات الحديثة.

* * *

وإن كمال الدين الفارسي الذي عاش في أواخر القرن السادس الهجري يعتبر حجة في علم الضوء بلا منازع.

وقد وضع أبو الريحان البيروني في كتابه: (الآثار الباقية) والذي يبحث عن (الإيدروستاتيكا) مثل صعود مياه الفوارات والعيون إلى الأعلى وعن تجمع مياه الآبار بالرشح الجانبي إلى غير ذلك. ولا مجال لذكر ما وضع من كتب في مباحث علم الفيزياء.

وقد نبغ المسلمون في الزراعة وعلم النبات وأعمال الري وتربية الدواجن، ووضعوا فيها كتباً مفيدة. ومن أساطين هذا العلم: عبداللطيف البغدادي، وضياء الدين البيطار، ورشيد الدين الصوري.

والمسلمون عند دخولهم إلى بلد جديد كانوا يهتمون بأمرين في وقت واحد: (١) تنظيم الحدائق، (٢) بناء المساجد.

* * *

ولا مِراء أنَّ: محمد بن موسى الخوارزمي، يُعد واضع علم الجبر وقد ترجم كتابه في الجبر إلى لغات عدة.

والمهم أن العلماء المسلمين ما كانوا لينفكُّوا عن ذكر الله تعالى في عملهم العلمي وتجاربهم العلميَّة. سواء حين التدريس أو الكتابة أو العمل في المختبر. لذلك يقول الخوارزمي في أول صفحة من كتابه: «يقول الخوارزمي بعد حمد الله: هادينا وحامينا». ويقول في مقام آخر: «وبالله توفيقي في هذه وغيره، عليه توكّلت وهو رب العرش العظيم».

وأما خواجه نصير الدين الطوسي. فهو معروف في أوساط الغرب. إنه نابغة من نوابغ الرياضيات. يعتبر الطوسي كما قال بعض العلماء متفوّقاً في الهندسة لا على معاصريه فحسب، بل وعلى علماء الهندسة في العصر الحاضر.

وأما (ثابت بن قرة) فقد أخذ يستعمل الهندسة في حل المعادلات من الدرجة الثالثة. وقد أخذ العالم الإيطالي (چيرو لاموركاردان) في القرن السادس عشر عن (ثابت) طريقته هذه في حل المعادلات من الدرجة الثالثة.

و(ثابت بن قرَّة) هو أوَّل من وضع حساب التكامل والتفاضل وأوجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محوره.

ولعمر الخيام حلول قيمة في الهندسة ترجمت إلى لغات أجنبية.

والمسلمون هم واضعو علم الفلك بأسلوب علمي صحيح مستعملين في ذلك الهندسة والجبر وحساب المثلثات. وقد أسَّسوا مراصد عدَّة وكان في (مراغة) مرصد كبير، اشتهر بآلاته الدقيقة وأجهزته المتعدِّدة.

وأما التاريخ والجغرافيا، فقد نبغ المسلمون ودوَّنوا فيهما كتباً مفصَّلة وموسوعات مشهورة وهم واضعوا علم الاجتماع.

يقول المؤرِّخ (گوتيه) عن الشريف الإدريسي: «إن الشريف الإدريسي الجغرافي كان أستاذ الجغرافيا وهو الذي علم أوروبا هذا العلم وبقي معلَّماً لها ثلاثة قرون. ولم يكن لأوروبا مصوِّر للعالم إلا ما رسمه الإدريسي».

ولو أردنا أن نستقصي علماء الجغرافيا والتاريخ من المسلمين وما ألَّفوا من مؤلفات وما قاموا به من اكتشافات لاحتجنا إلى وضع كتب متعدِّدة في هذا المقام وأبو عبدالله القزويني اشتهر بأنَّه من علماء العلوم الطبيعية ومع ذلك فهو يعد من أساطين علمي التاريخ والجغرافيا وله مؤلَّفات في الفلك والعلوم الرياضيَّة مما يجعله في القمَّة.

كان أبو عبدالله القزويني رجلاً متديِّناً، وهو القائل: «ليس المراد من النظر تقليب الحدقة، فإن الحيوان يشارك الإنسان في ذلك. ومَن لم يرَ من السماء إلا زرقتها ومن الأرض إلا غبرتها فهو مشارك الحيوان. وأدنى حالاً وأشد غفلة، بل المراد من النظر التفكير في المعقولات والنظر في المحسوسات والبحث عن حكمتها وتصاريفها لتظهر حقائقها».

وكم من رجال العلم قاموا برحلات موفقة واستكشافات ناجحة وضحّوا بحياتهم بغية العثور على ما في الأرض من بقاع مجهولة.

ومما يدل أن للمسلمين كفاءة مرموقة في الاختراع والاكتشاف حتى في العصر الحاضر نبوغ بعض علماء المسلمين في بعض المواضيع الحديثة. ومنهم المرحوم الدكتور علي مصطفى مشرفة المصري. فقد وضع رسالة علميَّة أثبت فيها خطأً وقع فيه (أينشتين) وصحَّح فيها خطأه. ولذلك، قد اختاره (أينشتين) ليساعده في أبحاثه. وهو الوحيد الذي زامل هذا العالِم في أبحاث المادة والذرَّة[1].

كان الدكتور علي مصطفى مشرفة على جانب عظيم من التقوى وحب الله تعالى وتقديسه. وهو القائل: «إن المجد لا يبنى على القوة، حتى، ولا على العلم، إنما يبنى على شيء آخر، وهو ذلك القبس المقدَّس الذي نشعر جميعاً بأنه يميِّز الإنسان على سائر الحيوان، تلك القوة الروحيَّة التي تحرك فينا حب الحق وحب الخير وحب الجمال. وعلى قدر استجابة البشر لذلك الداعي تأتي عظمتهم ورفعة شأنهم. وعندي إن ما وصل إليه الإنسان من العلم وما ترتَّب على ذلك من قدرة واختراع إنما جاء على قدر طلبه للحقيقة وشغفه بالحق كما إن حب الحق وحب الخير إنما يتفرعَّان من حب الجمال. فالحق والخير جميلان. ولذلك من أحب الجمال أحبهما جميعاً. ووددتُ لو استطعتُ أن أصوِّر للقارئ فيض ذلك الجمال الذي يدركه طالب الحقيقة العلميَّة: ذلك التناسق البديع بين أجزاء الكون!».

وهو القائل: «اليوم، وقد امتزج العالم بحياة الأمم والأفراد صار لزاماً على رجال العلم أن يبتعدوا عن الفلسفة الماديَّة في جميع صورها وأشكالها. كما صار لزاماً على الشعوب أن يتقبلوا رسالة العلم وأن يستعينوا بها على محاربة الشر، وقد بيَّنت أن الأرض لا تزال رحبة تتسع للناس جميعاً وأن القوى الموجودة على سطحها قوى عظيمة، فإذا استعان بها الناس على قضاء حوائجهم وسخَّروها لخيرهم ورفاهيَّتهم مستعينين بالعلم والروح العلمية، كان لنا أن ننتظر للبشر مستقبلاً يكفل طمأنينتهم وسعادتهم وسموهم».

اسمعوا ماذا يقول (أينشتاين) نابغة القرن العشرين في الفيزياء وعلم الذرَّة عن

---

(١) المسلمون والعلم الحديث: الأستاذ عبدالرازق نوفل.

التوجُّه الديني وأثره في الاكتشافات. إنه يقول: «إن بصيرتنا الدينيَّة هي المنبع وهي الموجِّهة لبصيرتنا العلميَّة». لذلك كان كلما حاضر محاضرة في النظريَّة النسبيَّة يطلب إلى المسؤولين أن يكون الناس أحراراً في القيام بطقوسهم الدينيَّة وتطبيقها.

* * *

يكفي في تأييد الإسلام النواحي العلميَّة أن قد ورد في القرآن الكريم لفظ العلم في أكثر من (٥٥٠) موضعاً مما يدل على الحفاوة البالغة في الدين الإسلامي بمفهوم العلم ومشتقَّات لفظ العلم. ولكن القرآن لا يدع مفهوم العلم مفهوماً مجرداً من التعليل والتوصُّل إلى النتيجة العقليَّة الحتميَّة التي يجب أن تؤخذ من العلم بأسرار هذا الكون: ألا وهو الوصول إلى (واضع العلم) وخالقه ومبدعه وهو الله جلت قدرته. أي يريد القرآن أن لا ينظر الفرد نظرة مادية إلى ما أودع الله من دقيق الصنع والقوانين في هذا الكون دون إرجاع هذا الصنع إلى صانع حكيم قدير.

إن أوَّل آية نزلت من القرآن الكريم هي: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العَلَق: الآيات ١/٥]. فالله تعالى هو الذي علم الإنسان بما أعطاه من مواهب وقابليات أن يكتب بالقلم وأن يتعرف إلى أشياء كثيرة من قوانين أودعها الله في هذا الكون الواسع الأرجاء.

لذلك يقول (رينورت): «يجب أن نعترف أن العلوم الطبيعيّة والفلك والفلسفة والرياضيات التي أنعشت أوروبا في القرن العاشر مقتبسة من القرآن».

* * *

ومما يؤيد اهتمام الإسلام بالعلم إلى حد بعيد، حلُّ الإمام علي سلام الله عليه كثيراً من المسائل الرياضيَّة والفيزيائيَّة، ذكرنا البعض منها في نهاية الجزء الثاني من هذا الكتاب، ووضع أسس علم النحو. وقوله لكميل رضي الله عنه: «يا كميل، لو شئت أن أصير من هذا الماء نوراً لفعلت». يقول الإمام علي عليه السلام هذا القول في وقت لم تعرف الكهربائية وكيفيَّة استخدام الشلالات في تحريك (الدينامو) وإيجاد التيار الكهربائي ومن ثم تأسيس المصابيح الكهربائية. ولم تعلم القوى النوويَّة وتحطيم الذرَّة وتحرُّر

طاقات هائلة: حسب دستور أوجده (أينشتاين): ط = ك × س[٢] أي أن الطاقة المتحرِّرة من تحطيم ذرَّةٍ ما تساوي مربع سرعة الضوء مضروباً في الكتلة.

لذلك يخاطب رسول الله علياً عليه السلام قائلا: «ليهنَّك العلم يا أبا الحسن، لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً».

وقول علي عليه السلام: «لو شئت أوقرت سبعين بعيراً في سورة الفاتحة»[١]. دليل على أن الإسلام يرافق العلم ويعظِّمه.

* * *

وقد كان للمسلمين الفضل الأكبر في إيجاد الطريق التجريبي في الاكتشاف العلمي لذلك يقول: (گوستاو لوبون) أحد فلاسفة أوروبا: «إن القاعدة عند العرب هي: جرِّب وشاهد ولاحظ تكن عارفاً» حين أن القاعدة كانت عند الأوروبي إلى ما بعد القرن العاشر المسيحي. إقرأ في الكتب وكرِّر ما يقوله الأساتذة تكن عالماً!».

ويقول (گوستاو لوبون) في كتابه حضارة العرب: «إن العرب لم يظلوا طويلاً معتمدين على كتب اليونان التي نقلت لهم. فقد أدركوا بعد حين أن التجربة والترصُّد والمشاهدة خير من أفضل الكتب. ولذلك سبقوا أوروبا إلى هذه الحقيقة التي تُعزى إلى (بيكون)[٢] أنه أول من أقام التجربة والاختبار اللذين هما ركنا المناهج العلمية الحديثة. فالمسلمون هم أسبق إلى نظام التجربة في العلوم».

لذلك يقول (گوستاو لوبون): «إن المسلمين العرب وحدهم كانوا أساتذة الأمم المسيحية عدة قرون. ونحن الغربيين لم يتح لنا الاطلاع على التراث اليوناني والروماني إلا بفضل العرب ولم يستغن التعليم في جامعاتنا عما نقل إلى لغاتنا من كتب العرب إلا في أزمان متأخِّرة».

والحق أن ما يعرف اليوم باسم الطريقة (البيكونية) التي قوامها كما يقول

---

(١) الصراط المستقيم: للنباطي، ج١، ص٢١٩، فصل١٩.

(٢) باكون (Bacon): راهب فرنسيسكاني إنكليزي، من كبار علماء القرون الوسطى، ومطبقي الطريقة الاختبارية (التجريبية).

(بيكون): «إننا لا نستطيع أن نخضع الأشياء ما لم نخضع لها أولاً» أي لا نتمكن من الاستفادة منها ما لم نكتشف قوانينها، ترجع أصولها إلى المسلمين المكتشفين الطريقة التجريبيَّة. فتأثر بها (بيكون) وغير (بيكون). لذلك يقول (سيديو): الفرنسي في كتابه عن تاريخ العرب: «إن ما يميز مدرسة بغداد هو الروح العلميَّة الحقَّة التي تسيطر على أعمالها. فالمضي من المعلوم إلى المجهول، وملاحظة الظواهر ملاحظة دقيقة من أجل الصعود بعد ذلك من النتائج إلى الأسباب، ورفض كل شيء لم يؤيَّد بتجربة. تلك هي المبادئ التي سادت والتي أشاعها كبار معلمي تلك المدرسة».

ويقول (جيب) في كتابه عن: (الاتجاهات الحديثة في الإسلام): «إن انصراف الفكر إلى الحوادث الجزئيَّة، هيأ للعلماء العرب أن يذهبوا بالطريقة التجريبيَّة إلى أبعد بكثير مما فعله سابقوهم من يونان ورومان، وإنهم الأصل في دخول الطريقة التجريبيَّة إلى أوروبا». ويقول (همبولت: Humbolt) «من الواجب أن يعد العرب المؤسِّسين الحقيقيِّين للعلوم الفيزيائيَّة».

يقول المؤرِّخ (جيبون): إن ولاة الأقاليم والوزراء (يعني في البلاد الإسلامية). كانوا ينافسون الخلفاء في إعلاء مقام العلم والعلماء وبسط اليد في الإنفاق على إقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلب العلم. وكانت نتيجة ذلك: أن ذوق العلم ووجدان اللذَّة في تحصيله قد انتشر في نفوس الناس من (سمرقند) و(بخارا) إلى (فاس) و(قرطبة). فقد أنفق وزير واحد لأحد السلاطين ـ هو نظام الملك ـ مائتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد. وجعل لها من الريع ليصرف في شؤونها ما يعادل: خمسة عشر ألف دينار في السنة. وكان عدد الذين يغذَّون بالمعارف فيها (٦٠٠٠) تلميذاً. فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الناس فيها. غير أن الفقير يُنفق عليه من الريع المخصَّص للمدرسة. وابن الغني يكتفى بمال أبيه. وكان المعلمون ينقدون رواتب وافرة».

وأن الفيلسوف الأمريكي (درابر) يعجب من وجود آراء علميَّة في كتب العرب كان الغربيُّون يعتقدون أنها لم تولد إلا في عصرنا الحديث.

وإن علماء أوروبا يقدِّرون ما للمسلمين من خدمات جمَّة في الفلسفة، لذلك يقول (رينان): «إن (آلبرت الكبير) مدين لـ(ابن سينا) في كل شيء وإن (سان توما الأكويني) مدين في فلسفته لـ(ابن رشد)[1]. وفي الوقت الذي نرى أن المسلمين يعملون في توسعة العلم الإنساني نرى بمزيد الأسف أن (الكاردينال: أكزيمنيس) يأمر بإحراق ثمانين ألف مخطوطة عربية في الأماكن العامة بغرناطة».

وها هو المستشرق النمساوي المسلم (ليوبولد ڤايس) يقول: ـ وما أصدقه ـ: «إن أوروبا لتعرف هذه الحقيقة حق المعرفة: أن ثقافتها مدينة للإسلام بتلك النهضة على الأقل بعد قرون من الظلام الدامس، ولم يقف الإسلام يوماً ما سدّاً في وجه التقدُّم العلمي. إنه يقدر الجهود الفكرية في الإنسان إلى درجة يرفعه فيها فوق الملائكة. وما من دين ذهب أبعد من الإسلام في تأكيد غلبة العقل وبالتالي غلبة العلم على جميع مظاهر الحياة».

* * *

يظهر من كل ما ذكر بشأن علماء المسلمين ومكتشفاتهم وما كانوا عليه من تمسك بالدين وتعبد وتهجد: أن العلم لا يعارض الدين في شيء. بل، إن الدين وتعلق الفرد بربه واستمداده من علم الله الذي لا يتناهى، وطلب المعونة منه تعالى لكشف بعض أسرار الكون، يفتح على المتتبع أبواب المعرفة. ثم إن الله تعالى يهيئ له بلطفه مصادفاتٍ واتفاقات غير منتظرة، وعجيبة جداً، يظفر بسببها العالم المتتبِّع بحقائق جديدة وخواص مجهولة قبلاً، لم تكن بالحسبان. كل ذلك لتوجهه إلى الله تعالى ومكافأة له إزاء تعبه وتضحيته.

وأي تنافٍ بين دستور يجده المتتبع في ربط العناصر بعضها ببعض أو ربط أجزاء العالم بعضها ببعض وبين عبادة الله في أرضه والقيام بتزكية النفس وما أمر الله به من صلاة وصوم وزكاة وحج وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وإنفاق وأعمال صالحة وما أكثرها... الخ.

---

(١) على أنا لا نوافق (ابن رشد) في نظرياته الفلسفيَّة كلها. ففيها نقاط ضعف لا توافق النصوص القرآنية وفلسفة الإسلام الحقَّة في شيء، لا مجال إلى ذكرها وردها هنا.

بل هناك علاقة متينة بين ما يجده العالم من دساتير وبين واضع هذه الدساتير في هذا الكون الرحيب. ثم الخشوع والخضوع، بصلاة وتسبيح تجاه عظمة مَن وضع هذه الدساتير بهذا الإتقان المحير للعقول وهو الله جلت عظمته. إذ أن إرجاع المعلول إلى العلَّة أمر فطري في البشر ما لم تتلوَّث هذه الفطرة بخمور وفجور وبغي وظلم. أي ما لم تتلوث هذه النفس التي هي أعز الأنفس علينا بما يبعدها عن ساحات القدس. فقد جاء في الحديث: «إذا أذنب العبد كانت نكتة سوداء على قلبه. فإن هو تاب وأقلع واستغفر صفا قلبه. وإن هو لم يتب ولم يستغفر كان الذنب على الذنب والسواد على السواد حتى يغمر القلب»[1].

فما على هذا الإنسان إلا أن يقلع عن ذنبه حالاً، كي لا تتراكم ذنوبه، فيسودَّ قلبه، فلا يبصر الواقع والحق وتتغلَّب إذ ذاك عليه المادية الحالكة، فيتمسك ـ لا سمح الله ـ بالمادية العمياء، وهو لا يعلم عن حقيقة المادة شيئاً! لذلك يستحب أن يستغفر العبد ربه، عندما يأخذ مضجعه ليلاً قائلاً ثلاث مرّات: «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه». كما يستحب له أن يستغفر الله بصوت خافت بعد التسبيحات الأربع في الركعة الثالثة والرابعة من صلاة الظهر والعصر والعشاء.

* * *

وهكذا الفلسفة التي يتبناها الفيلسوف وغير الفيلسوف هي رشحات نفسه، فإن كانت نفسه طاهرة زكيَّة بعيدة عن الفسوق والعصيان مؤمنة بالله والبعث كانت فلسفتها فلسفة تناسب نفسه، فلسفة قريبة إلى الواقع وإن كانت نفسه نفساً لئيمة، خبيثة، مكّارة، غدّارة، قاسية، متحجِّرة، ففلسفتها تكون فلسفة هدَّامة، سفّاكة، مخربة، لا ينبض فيها شيء من محاسن الأخلاق، شيء من العطف والحنان، ففلسفة كل إنسان مرآة نفسه.

وقد أخطأ (تنمان Tenne mann) في قوله «إن جملة عوائق وقفت تقدم المسلمين في الفلسفة، وهذه العوائق ترجع إلى كتابهم المقدس الذي يتعارض مع نظر العقل الحر». وذلك لأن القرآن الكريم يدعو الناس إلى التفكير الحر وينهى عن التقليد

---

(١) رشاد القلوب: ص٤٦، باب ١١.

الأعمى بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمَّد: الآية ٢٤]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وبقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرّعد: الآيتان ٣/ ٤]. و﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٦٤]. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٩٠]. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القَصص: الآية ٦٠]، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٤٣]. ويقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٦].

وقد ذمَّ الله تبارك وتعالى أولئك الذين لا يعقلون بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البَقَرة: الآية ١٧٠]. ويقوله: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٢٢]. ويقوله: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البَقَرة: الآية ٢٦٩].

الإسلام يريد منا أن لا نتقبل شيئاً دون تمحيص وتمييز وذلك بقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمر: الآيتان ١٧/ ١٨].

وقد عظم أمر العقل والتفكير إلى حد بعيد بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩١].

وقد جاء في حديث: «إنما يُداق الله العبادَ في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا»[1].

وإذا أردت أن تعرف مَن هو ذلك العاقل الذي يتبنى فلسفة حقة لا تزيغ به الأهواء، فيميل إلى هاهنا وهاهناك من مسالك ضالة مضلة. فانظر إلى ما يقوله الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حين يعرّفنا (العاقل) أنه يقول مخاطباً هشاماً أحد أصحابه: «يا هشام، إن العاقل هو الذي لا يشغل الحلالُ شكره ولا يغلب الحرامُ صبرَه»[2]. فمن

(١)،(٢) أصول الكافي: ج١، ص١١، باب العقل والجهل.

كان مصداق هذا الحديث فإنه يزيِّف كل فلسفة بشريَّة، ولا ترتاح نفسه إلا إلى فلسفة الإسلام الحقة.

وإن كانت التجربة سند العلم الحاضر، فليجرب من كان يشك في صحة هذا المقال، ليرى كيف يخرجه الله تعالى من الظلمات إلى النور بمنه. ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٧].

القرآن وما فيه من فلسفة حقة لم يدع مجالاً لظهور فلاسفة في الشرق بالمعنى الذي يريده (تنمان)، إلا إذا انحرف هذا الفيلسوف عن النصوص القرآنية وجاء بنظريات هوجاء تعبر عن هوى نفسه! ذلك، لأن حقيقة الوجود وما أودع الله فيه من كمال ووظيفة الإنسان وما سخَّر له من عوالم شتَّى من جماد ونبات وحيوان وربط العوالم المختلفة بعضها ببعض كل ذلك مسطور في كتاب الله الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فُصِّلَت: الآية ٤٢] ـ بتعبير واضح. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النّحل: الآية ٨٩]. ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [الأنعام: الآية ٣٨].

إلا أن هذه الفلسفة الحقيقية التي يضمها القرآن الكريم، هذه الفلسفة الإلهيَّة التي منَّ الله بها على عباده من عالم الغيب أي من عالم غابت عنا حقيقته وليس لنا أن نصل إلى كنهه، لا يصل إلى تفهم عمقها وأثرها في تكامل البشر فيلسوف لم يخرج بعد عن ماديته الضيقة وهو ينظر إلى الوجود نظراً سخيفاً متأثراً ببيئته، فيلسوف ظن أن الاصطلاحات والظنون والمزاعم الباطلة، أو تلفيق وجهات نظر فلاسفة متعددين (أو متفلسفين) تؤلف فلسفة حديثة أو تقدم معطيات جديدة في عالم الفلسفة والعلم.

إن فلسفة هؤلاء، هذه الفلسفة التي طابعها المادية، هي وليدة نفوس متحجِّرة، بعيدة كل البعد عن فلسفة الإسلام الحقة، وإن هذا البعد نفسه يجعل الفيلسوف الغربي ومنهم (تنمان) يزعم أن ليس في القرآن فلسفة أو أن القرآن يتعارض مع نظر العقل الحر، إنه يريد اصطلاحات وتلفيقات ليس من ورائها الوصول إلى صلب الحقيقة

والواقع وإنما هي ظنون وأهواء!! . . ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النّجم: الآية ٢٣] .

* * *

إذا كان موضوع الفلسفة، البحث عمَّا وراء الطبيعة وكان ما هو وراء المادة أو الطبيعة مجهولاً لهذا الإنسان لعدم وجود مقياس مشترك بين هذين العالمين، فمن العبث أن يزعم أو يوقن هذا الإنسان أن ما تمليه عليه نفسه (هذه النفس التي تتحول معطياتها من وقت إلى وقت) هو الواقع الصحيح. أما الفكر البشري، فيعمل لأجل البحث عن خواص المادة والقوانين التي تتحكَّم فيها وليس له أن يقيس ما وراء الطبيعة على ما هو في الطبيعة، فيعمِّم ما يجده من قوانين ومعادلات في الطبيعة على ما وراء الطبيعة، وإن قول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٥] هو غاية ما يمكن أن يقال عن الروح مع ما نحن فيه من جهل مرير.

فما تقوَّله الفلاسفة عن الوجود، وعن الله تعالى، وعما وراء الطبيعة لا يخلو عن مقترحات تنمُّ عن مرتبة نفوس أصحابها في ساحات الكمال أو أودية التسافل وهو ليس من الواقع الحقيقي في شيء. ذلك لأن العقل الفطري ينحجب عن فعاليَّته وإعطاء الحكم الصحيح عند تلوُّث النفس. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: الآية ٥٧] . ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الحِجر: الآية ١٢] ، لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين. فهناك رابطة وثيقة بين معطيات العقل عن الفلسفة الحقة ودرجة تكامل النفس وتسافلها.

وأما فلسفة القرآن أو الحقائق التي أوحاها الله تعالى إلى نبيِّه ﷺ، فهي الحق الصريح الذي لا غبار عليه ولا ريب فيه، بعد إثبات نبوَّة محمَّد خاتم النبيِّين بالعقل والمنطق. ذلك لأن هذه الحقائق إنما جاءت من منبع صافٍ فياض. جاءت بوحي منه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: الآية ١٤] . ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ [النَّمل: الآية ٧٥] .

* * *

وقد أضرَّت فلسفة اليونان وفلسفات أخرى بالإسلام ضرراً بالغاً على أنه قد نبغ في المسلمين من تفهُّم الفلسفة اليونانيَّة وصحَّحها على ضوء فلسفة الإسلام الحقَّة، ومع ذلك كلِّه لم ينجُ هؤلاء الفلاسفة من الزلل في القول والابتعاد عن صريح القرآن. فالإسلام في غنى عن استجداء فلسفة بشريَّة حالكة. فقد جاء في (أصول الكافي)، عن الصادق عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ القرآن هدى من الضلالة وتبيان من العمى، واستقالة من العثرة ونور من الظلمة وضياء من الأحداث وعصمة من الهلكة ورشد من الغواية وبيان من الفتن وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة. وفيه كمال دينكم. وما عدل أحد عن القرآن إلا إلى النار»[1].

ولا يعلم صحَّة ما قاله رسول الله ﷺ إلا من سلك مسالك الصلحاء ونهج مناهج الأتقياء، عند ذلك يعلم أن لا فلسفة تطابق الواقع والمنطق إلا فلسفة القرآن الحقة.

* * *

وكم للمنصفين من الغربيين من شهادات تنص على عظمة القرآن وأنه كتاب الله المنزل ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٤٢].

فقد قال: «ادموند يورك» الخطيب السياسي الانكليزي: «القانون المحمدي: (القرآن) قانون ضابط للجميع من الملك إلى أقل رعاياه، وهو قانون نُسج بأحكم نظام قضائي وأعظم قضاء علمي، تشريع لامع ما وجد قط مثله في هذا العالم من قبل».

وقد قال الكاتب (مراشي): «من يتأمل آي القرآن يجد أن أساس الإسلام التوحيد وقطبيه التآخي وتحسين شؤون العالم تدريجياً بواسطة العلم. فهذه هي الأسباب الحقيقية لظهور الإسلام».

وقال (المستر بيكتول): «القرآن هو الذي دفع العرب إلى فتح العالم ومكَّنهم من إنشاء إمبراطوريَّة فاقت إمبراطوريَّات اسكندر الكبير، والإمبراطوريَّة الرومانيَّة، سعة وقوَّة وعمراناً وحضارة ودواما».

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص١٠٠، كتاب فضل القرآن، ح٨.

وقال (گوستاو لوبون): «إن القرآن لم ينشر إلا بالإقناع لا بالقوَّة، فاستطاع بذلك أن يجذب إليه الشعوب وتدين به تلك الشعوب».

وقال (ريتونبورث): «يجب أن نعترف أن العلوم الطبيعيَّة والفلك والفلسفة مقتبسة من القرآن، فجميع العلماء مدينون له».

ويقول أحد الغربيِّين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي: «هل يأتي لجميع فلاسفة العالم أن يثبتوا غلطة واحدة في القرآن، ولو ارتكنوا على كل ما في أيديهم من العلوم العصريَّة، لا يتأتى لهم ذلك. ولو وجدوا فيه خطأ صغيراً ما كانوا إلا مظهريه. ولكن أنى لهم ذلك!؟ والعلوم كل يوم في تبدُّل وتغيُّر. وفي كل لحظة تظهر معانٍ باهرة لآيات قرآنيَّة، ما كنَّا لنفهم معناها إلا بعد تقدم العلوم».

«لأضرب لكم مثلاً: كان الفلكيون يدعون أولاً أن الأرض ثابتة والشمس متحرِّكة[1]، ثم قالوا: بل الأرض متحرِّكة والشمس ثابتة، ثم جاءوا اليوم يقولون: علمنا الآن أن كلاً في فلك يسبحون، وأن الشمس تجري لمستقر لها. فمن هنا علمنا أن العلوم تتغيَّر وتترقَّى والقرآن ثابت لا يتغيَّر بالحوادث».

«فإن وجد في الكتاب الحكيم شيء لا نفهمه، وجب علينا أن ننتظر رقي العلوم، ولا نشك لحظة في صحَّة القرآن».

ثم يقول: «قصدت في سياحاتي مدينة (بو تارليه) لمقابلة الدكتور (جرينه) المسلم الفرنسي الشهير، الذي كان عضواً في مجلس النوَّاب، للسؤال عن سبب دخوله في الإسلام»، فعند الوصول والسؤال منه، قال لي: «تتبعت كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبيعيَّة والصحيَّة والطبيَّة التي درستها من صغري وفهمتها جيِّداً فوجدتها منطبقة كل الانطباق مع معارفنا الحديثة، فأسلمت، لأني تيقنت أن محمداً ﷺ أتى بالحق الصراح، من قبل ألف سنة، من غير أن يكون له مدرِّس من

---

(١) لقد قال فيثاغورث قبل الميلاد: أن الأرض تدور حول الشمس، أي أن الشمس ثابتة والأرض متحرِّكة. وقد فات الكاتب أن يضيف ذلك... وقد بينا حركة الشمس في الجزء الأول مع شيء من التفصيل.

البشر. ولو أن صاحب كل فن من الفنون أو علم من العلوم، قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما يعلمه جيداً، كما قارنت أنا، لاسلم. دون ريب، إن كان عاقلاً، خالياً من الأغراض»[1].

* * *

يقول المؤرِّخ الكبير: (لوثرب ستودارد) في كتابه (حاضر العالم الإسلامي):

«قد سارت الممالك الإسلاميَّة في القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ ـ ١٠٠٠م) أحسن سير. فكانت أكثر أصقاع العالم حضارة ورقياً وتقدماً وعمراناً، مرصَّعة بجواهر المدن الزاهرة والحواضر العامرة والمساجد الفخمة والجامعات العلميَّة المنظَّمة، وفيها مجموع حكمة القدماء ومخزن علومهم يشعَّان إشعاعاً باهراً، وما انفكَّ الشرق الإسلامي خلال هذه القرون الثلاثة يرسل إلى الغرب نوراً».

ويقول: (گولدزيهر) تحت عنوان (الدين والمروءة): «إن الإسلام رسم للحياة مثلاً أعلى غير المثل الأعلى للحياة في الجاهليَّة. وهذان المثلان لا يتشابهان وكثيراً ما يتناقضان، فالشجاعة الشخصيَّة والشهامة التي لا حدَّ لها والكرم إلى حد الإسراف، والإخلاص التام للقبيلة، والقسوة في الانتقام، والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل، هذه هي أصول الفضائل عند العرب الوثنيِّين في الجاهلية، أما في الإسلام: فالخضوع لله والانقياد لأمره، والصبر وإخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين، والقناعة، وعدم التفاخر، وتجنُّب الكبر والعظمة هي المثل الأعلى للإنسان في الحياة».

ويقول: (ليودوروش): «إن الإسلام دين إنساني طبيعي اقتصادي أدبي، ولم أذكر شيئاً من قوانيننا الوضعيَّة إلا وجدته مشروعاً فيه، بل إني عدتُ إلى الشريعة التي يسميها (جود سيمون): (الشريعة الطبيعية)، فوجدتها كلها أخذت عن الإسلام، ثم بحثت عن تأثير هذا الدين في نفوس المسلمين، فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالاً وكرماً، بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة من

---

(١) من مقال للأستاذ السيد أحمد الحسيني في مجلة «صوت المبلغين» التي تصدر بكربلاء.

حب الخير والرحمة والمعروف في عالم لا يعرف الشر واللهو والكذب».

ويقول (ماسينيون): «يمتاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد الشعب بالعشر من موارد الجماعة، والإسلام ينبذ التبادل غير المقيد، كما يناوئ الأموال المصرفيَّة في حين أنه شديد التمسُّك بحقوق الولد والزوجة والملكيَّة ورؤوس الأموال التجاريَّة. فهو بذلك يقف موقفاً وسطاً بين البورجوازية الرأسماليَّة والشيوعيَّة البلشفيَّة. وللإسلام ماضٍ بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للإسلام ماضٍ كله التوفيق في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات، ولقد برهنت الطوائف الإسلاميَّة الكبرى في إفريقيا والهند والهند الشرقيَّة والجماعات الصغيرة. منهم في الصين واليابان على أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها».

* * *

ولكي نعرِّف الإسلام أنه دين الفطرة والتسامح، لا بأس بذكر شهادة (سيرت. و. ارنولد) في كتابه: (الدعوة إلى الإسلام): «ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفاً عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيِّين في القرن الأوَّل من الهجرة، واستمرَّ في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحيَّة التي اعتنقت الإسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرَّة. وإن العرب المسيحيِّين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح».

حقَّق الله على أيدي العاملين المجاهدين: أن يدين العالم أجمع بدين الفطرة: دين الإسلام، دين العقل والمنطق، فيقول كل فرد من أبناء العالم:

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩٣] .

* * *

وهكذا نرى (الإسلام) دين العلم والعمل الصالح، قد حقَّق على أيدي المسلمين

كثيراً من المكتشفات في شتّى الحقول حتى غُدوا مؤسسي النهضة العلميَّة الحديثة في أوروبا، ولم يكتف الإسلام بالحث على العلم فحسب، بل أراد للبشر الاستمرار في البحث والاستزادة من العلم دوماً وذلك بقوله تعالى لرسوله الكريمﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٤] .

غاية ما هنالك: يريد (الإسلامُ) أن يرافق الورع والتقوى العلم والمكتشفات، كي يترشَّح منهما[١] اليقين بالله وكتبه ورسله وبعوالم القدس وحياة لا ظلم فيها ولا فساد. وذلك بقوله جلَّ من قائل:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٩][٢] .

من حقائق القرآن
﴿والسماءَ بنيناها بأيدٍ وإنا لموسِعون﴾

في القرآن الكريم (٧٥٠) آية كونية، هي عصارة ما توصل إليه العلم الحديث، لا سيَّما في القرن الأخير. وإنَّها معجزة خالدة ما بعدها معجزة. كل ذلك، لكي يعتبر هذا الإنسان بهذا الكتاب السماوي ويعلم أنه منزل من ربه لهدايته، ويعلم أنه لم يُخلق عبثاً وإنما خُلق لغاية سلمية تتناسب وعظمة خالقه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدّخان: الآيتان ٣٨/ ٣٩].

إنه تعالى يقول نحن بنينا السماء بقوَّتنا وقدرتنا ونحن نوسِّع السماء ونوسِّعها حيث لا يعلم مدى هذا التوسع والامتداد إلا الله تعالى.

كان (أينشتاين) يريد أن يحسب وزن العالم: (الكتلة) أي وزن ما في الكون من كواكب وأنجم وأجرام، ثم عدل عن هذا الرأي لما رأى أن نجوماً تتشكَّل حديثاً

---

(١) التقوى والعلم.

(٢) قانت: طائع، مواظب على الطاعة.

ونجوماً أخذت تقطع مراحل الكهولة وقد أوشكت أن تبيد.

وقد ثبت أخيراً أن الأجزاء النائية من الكون تندفع في الفضاء بسرعة مخيفة، وأن الكون آخذ بالتوسُّع بسرعة فائقة.

يقول علماء الفلك: إن مجموعتنا النجميَّة تشمل مائة بليون من النجوم أو أكثر. وإن ما بين النجوم ممتلئ بالغازات ومواد مختلفة، خلاف ما كان يتصوَّره بعض الناس قبل ذلك. وإن التحليل الطيفي للنجوم البعيدة جداً قد دلَّ بصورة قطعية على وجود الغاز الكوني بين النجوم والمجرَّات بحالة تخلخل شديد جداً، إذ قدرت كثافته بنحو ميليغرام واحد في كل مليون ميل مكعب من الفضاء. وهذا الغاز مكوَّن كله تقريباً من غازي الإيدروجين والهليوم ومن دقائق ترابية.

قد ثبت أن النجوم كلها متحرِّكة ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرّعد: الآية ٢] وأن مواضعها بالنسبة لبعضها البعض قد تغيَّرت. ولكن لكونها بعيدة عنا جداً أي بعيدة عنا ملايين السنين من السنين الضوئيَّة لا نشعر بحركتها، فلا تتبدل خارطة السماء إلا في بضع مئات من آلاف السنين. وأما السنة الضوئيَّة فهي ما يقطعه الضوء بسرعته الكبيرة خلال سنة واحدة من أميال أو كيلومترات. وبما أن الضوء يقطع في الثانية (١٨٦٠٠٠) ميلاً أو (٣٠٠٠٠٠) كيلومتراً تقريباً. وأن السنة تعادل (٣١٥٣٦٠٠٠) ثانية. إذن؛ ٦٠ × ٦٠ × ٢٤ × ٣٦٥ × ١٨٦٠٠٠ ميل = ٥٨٦٥٦٩٦٠٠٠٠٠٠ ميل وهو ما يقطعه الضوء من أميال خلال سنة واحدة. أي ٦ مليون مليون من الأميال على وجه التقريب. أو ١٠ مليون مليون كيلو متر تقريباً.

وقد علم أن متوسط سرعة النجوم في حركتها إلى جهات شتَّى هو (٢٠) كيلو متراً في الثانية. فالشمس مع سياراتها (عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل، أورانُس، نبتون، پلوتو) وتوابعها من أقمار تتحرك بسرعة تبلغ (١٩,٥) كيلو متراً في الثانية الواحدة بالنسبة للنجوم القريبة حولها أي أن الشمس مع سياراتها وتوابعها تتحرك بهذه السرعة الهائلة: (سبعين ألف كيلو متر في الساعة تقريباً) على شكل لولبي نحو نجمة في السماء تسمَّى بالنسر الواقع. وتتحرَّك بسرعة أخرى في فلك حول مركز المجرَّة.

والمجرَّة هي منطقة طويلة من النجوم تمتد فوق رؤوسنا كالقوس ويمتد من أفق إلى أفق وقد تركَّزت فيها النجوم أكثر تركُّز وتكثَّفت فيها بعضها فوق بعض أكبر تكثُّف، أو هي كالطريق في السماء ازدحم بسالكيه ازدحاماً وما سالكوه إلا النجوم. على أن في السماء مثل هذه المجرَّة التي فوق رؤوسنا مجرَّات متعدِّدة لا تعد ولا تحصى.

وقد دلَّت الأبحاث على أن نجوم كل مجموعة في المجرَّة فضلاً عن دورانها في أفلاكٍ بعضها حول بعض، فإنها جميعاً تتحرَّك بحركة مشتركة حول المحور الأصلي العمودي على الدائرة الاستوائية للمجرَّة.

فالأجرام تدور في مجموعتها في أفلاك ثابتة بالنسبة لبعضها البعض وفي الوقت ذاته تدور كل مجموعة بأجرامها المتلازمة حول المحور الأصلي للمجرَّة في فلك خاص.

وقد دلَّت البحوث الدقيقة من التحليل الطيفي للمجرَّات الخارجيَّة على أنها تتباعد عنا، أي يتباعد بعضها عن بعض باستمرار وسرعات عظيمة جداً تقدَّر بآلاف الأميال في الثانية الواحدة. فعلم أن الفضاء يتمدَّد بين المجرَّات ويتَّسع باستمرار. وإن هذا التمدُّد يقدَّر بمائة وخمسة أميال في الثانية الواحدة لكل بعد قدره مليون سنة ضوئيَّة. وعُلم أن حجم الفضاء العالمي الآن يبلغ نحو عشرة أمثال حجمه منذ بداية تمدُّده. أي أن كل بعد من أبعاده الثلاثة قد زاد قليلاً على ضعف ما كان عليه أولاً. وعُلم أيضاً أن هناك من النجوم حجومها ملايين المرات قدر حجم الشمس.

ولقد أمكن باستعمال أجهزة خاصة التعرُّف إلى نجوم قد أرسلت ضوءها منذ ملايين السنين ولكنَّه لم يصل إلينا لحد الآن. فعلينا أن نتصور سعة الكون الذي خلقه الله تعالى وهو يتَّسع يوماً بعد يوم بأمره تعالى كما اتَّسع بأمره حتى بلغ ما عليه اليوم.

وعُلم أيضاً بعد مشاهدات دقيقة أن هناك ملايين من مجرَّات خارجيَّة منتشرة في الفضاء كما بيَّنَّا وأن كل مجرَّة مؤلَّفة من بلايين النجوم.

يقول (سير جينز): إن أكثر هذه المجرَّات منتشرة انتشاراً منظَّماً في طبقات متتالية يبلغ متوسط البعد بين بعضها والبعض الآخر نحو مليون ونصف من السنين الضوئيَّة مع العلم أن الضوء يقطع ٦ مليون مليون من الأميال (تقريباً) في سنة واحدة.

يقول الأستاذ (كامو): إن (هبَل) مدير مرصد (مونت ولسن) الذي له أبحاث هامَّة عن المجرَّات الخارجيَّة: قد سبر أغوار الفضاء بمرقب مرصده الكبير وتوغَّل فيها فتمكَّن من النظر إلى مسافات سحيقة تقدر نحو خمسمائة مليون سنة ضوئيَّة. وقد أحصى من المجرَّات الخارجيَّة نحو مائة مليون مجرَّة وإنه يحتمل وجود مجرَّات أخرى على مسافات أعظم من هذه التي شاهدها (هَبل).

ويقول: إن أبعاد هذه المجرَّات الخارجيَّة تتضاءل بجانبها أبعاد النجوم في مجرَّتنا التي يبلغ قطرها نحو مائة ألف سنة ضوئيَّة وسمكها نحو عشرة آلاف سنة ضوئيَّة.

وقد دلَّ الحساب الرياضي من المشاهدات الدقيقة: على أن أبعاد المجرات الخارجيَّة عن مجرَّتنا مذهلة. إذ وجدوا أن أقربها منّا، ويدعى سديم: (أندرو ميدا العظيم) يبعد بنحو ستمائة وثمانين ألف سنة ضوئيَّة. ثم تزيد أبعاد المجرَّات بعد ذلك إلى ملايين، ثم عشرات الملايين، ومئات الملايين من السنين الضوئيَّة. فما أوسع فضاء هذا الكون وما أعظم ما خلق الله العلي القدير.

إذا كانت شمسنا هذه تبعد عن أقرب نجمة إليها ٢٦ مليون مليون ميل، فإن الصاروخ يجب أن يسير بسرعة الضوء أي بسرعة (١٨٦٠٠٠) ميل في الثانية، مدة أربع سنوات وأربعة أشهر تقريباً كي يصل إلى أقرب نجمة إلينا. وأنى للصاروخ أن يسير بهذه السرعة العظيمة وأن يقطع في الثانية الواحدة (١٨٦٠٠٠) ميلاً أو (٣٠٠٠٠٠) كيلومتراً. مع العلم أن أسرع ما وجد من الأجسام المادية السريعة (عدا الأرواح طبعاً) هو الضوء. وكل ما كان أكثف من الضوء كانت سرعته أقل. ويقال إن سرعة الأمواج الهرتزية هي بقدر سرعة الضوء تقريباً وهي طاقة كهربائيَّة. فلا يمكن أن توجد واسطة ماديَّة سرعتها بقدر سرعة الضوء على ما ثبت في الفيزياء. وعلى فرض الإمكان فنحتاج من العمر مئات الملايين من السنين كي نصل إلى بعض النجوم التي نشاهدها بآلاتنا الحاضرة، شريطة أن نسير بسرعة الضوء. ومما لا شك فيه أنه مع تقدُّم العلم سوف يمكن (بإذن الله) كشف آلات أدق وأمتن، فيرى إذ ذاك من النجوم والمجموعات النجميَّة والمجرَّات ما لا يمكن رؤيته في الوقت الحاضر.

إن الله تعالى يقول: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعَارج: الآية ٤]، فيصعد الملك أو جبرائيل في ما خلق الله من أكوان في يوم مقداره خمسون ألف سنة، وبما أنه لا يمكن قطع ما خلق الله تعالى من مسافات شاسعة وأكوان متعدِّدة بسرعة الضوء وإن استمرَّ السير ملايين ملايين من السنين، إذن وجب أن نقول أن سرعة سير الملك أضعاف أضعاف سرعة سير الضوء.

وقد عُلم أخيراً أن في الفضاء منظومات شمسيَّة تعد بالملايين تشبه نظامنا الشمسي، أي أن كلاً منها له سيارات فُتقت منه وتدور حوله وتوابع أقمار فتقت من سياراتها وتلفُّ حولها وإنه بسبب أبعاد النجوم الساحقة وضآلة الضوء المنعكس من السيارات وضعف قوة المراقب (Telescopes) الحالية لا يمكن إثبات وجود هذه الأنظمة (المنظومات الشمسيَّة) بالمشاهدة الفعليَّة.

فانظر كيف تتحقَّق الآية الكريمة: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذّاريَات: الآية ٤٧] وقد نزلت في وقت لم تكن هناك مراقب (تلسكوبات)، ولم يكن يعلم أحد أن هذه السماء تتوسَّع يوماً بعد يوم بنظام خاص أودعه الله فيها وطاقات هائلة جهَّزها الله بها. فقد حدث انفجار في الشمس سنة ١٩٥٦م قُدرت الطاقة المتحرِّرة، فكانت تعادل طاقة ١٠٠ مليون قنبلة هيدروجينيَّة مع العلم أن طاقة قنبلة هيدروجينيَّة تعادل طاقة ألف قنبلة ذريَّة. والقنبلة الذريَّة لا تبقي ولا تذر! فسبحان الذي خلق هذه الطاقات الهائلة بإرادته وشكلها كما يشاء بحكمته، وأودع فيها من النظم والقوانين والمعادلات كما أراد بتدبيره. وهو القائل: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: الآية ٥١].

إن الإنسان ليندهش حين يرى أن علياً عليه السلام يجيب عندما يسأل عن المسافة بين السماء والأرض. بقوله: «دعاء مستجاب». ذلك لأنه ليس هناك عدد يمكن أن يُعبر به عن هذه المسافة التي لا يعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى. إلا أن يقال: «دعاء مستجاب». فإن الله تعالى لا يخلو منه مكان وهو القائل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: الآية ١٦]... ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ

وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجَادلة: الآية ٧] .

فهل يجدر بهذا الإنسان أن يركبه الغرور، فيترك عبادة ربه، هذه العبادة التي تأخذ بمجامع قلبه وتجعله سائراً في عوالم الملكوت، سائراً في ساحات القدس، حيث لا دنس ولا رجس. سائراً في عوالم من الاطمئنان والحبور ما لا يمكن أن يقاس بأفراح هذا العالم المادي وما يترشَّح من المادة الصمَّاء، منغمراً في موسيقى العالم اللا نهائي تاركاً العالم المادي الضيِّق الحالك وراء ظهره.

فطوبى لنفوس عرفت لماذا خُلقت، فازدادت معرفة بالله تعالى وحقَّقت الغاية الرفيعة التي خلقت لأجلها. وهو القائل كما جاء في حديث قدسي مخاطباً ابن آدم: «خلقتُ الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي». ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: الآيات ٥٦/٥٨].

أيجدر بهذا الإنسان أن يعثو فساداً في الأرض والله تعالى يقول: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البَقَرة: الآية ٦٠] . كل ذلك: لأنه جاء بصاروخ أدواته من خلق الله، وتركيبه بعقل أوجده الله. مع علمه أن هذا الصاروخ مركب من (٣٠٠٠٠٠) قطعة مرتبة ترتيباً هندسياً دقيقاً لو تخلفت إحدى القطع عن الترتيب الهندسي لفشل الصاروخ ووقف عن الانطلاق فكيف لا يعظم ولا يقدِّس خالقه الذي جهَّز مُخَّه بـ(٢٠٠٠٠٠٠٠) عصب لكل واحد منها وظيفته، فلو جسَّ أحدها حدثت عوارض تختلف عمَّا لو جس غيره. ولو حسبنا بحساب رياضي (حساب الاحتمالات) نرى أن ليس هناك أية صدفة تجعل عشرين مليون عصب تترتَّب بهذا الترتيب الدقيق حتى تتوارد عليها الإحساسات فتشعر الروح بواسطتها بما حدث. فهي دونما تشبيه كآلة الراديو. فكما أن الراديو ليس هو الصوت والمتكلم هكذا هذه الأعصاب الكثيرة في المخ الإنساني ليست هي الروح والإنسان وإنما واسطة لتحسس الروح أو النفس. وحسب ما هو مقرر في حساب الاحتمالات: إن الاحتمال الذي يجعل عشرين مليون

عصب تترتَّب ترتيباً هندسياً فيؤدي إلى إنتاج مطلوب هو واحد من ١٠ متبوعة بعشرين مليون صفر إلا صفراً واحداً، أي: واحد من ١٠ مرفوعة إلى قوَّة عشرين مليون. ومعلوم أن من نسبة $\frac{١}{٢٠,٠٠٠,٠٠٠}$ أو: $\frac{١}{٢ \times ١٠^{٧}}$ هو الصفر.

ولما كان ما خلق الله من عوالم مختلفة من جماد ونبات وحيوان وما رتَّب لكل منها ترتيباً دقيقاً لا يُعد ولا يحصى إذن تصبح النسبة:

$\frac{١}{\infty} = \frac{١}{\infty} = ٠$ (صفر) فلا صدفة أبداً.

على أن للمفكِّر أن يقول: ومن أين جاءت هذه الأجزاء التي كل منها مشكل من جزيئات أخرى بصورة دقيقة وهندسيَّة وهكذا دواليك حتى ينتهي بنا إلى جهل الواقع.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦].

كيف لا يفكِّر هذا الإنسان أن من يأتي بتركيب هذا الإنسان العجيب لا يخلق عبثاً ولا يوجد لاهياً، وأن وراء هذا الخلق غاية رفيعة سامية، ألا وهي معرفة الله تعالى وهو القائل كما جاء في حديث قدسي: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف، فخلقت الخلق لكي أُعرف»[١]. فلا بدَّ من أنبياء ولا بدَّ من دساتير تقرب النفوس إلى الله تعالى. وهو القائل: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١٧].

ولكنَّها الذنوب والفجور والخمور، تراكمت دون توبة واستغفار على قلب هذا الإنسان فحجبته عن رؤية الحق والواقع وأعمَّته: «إن أعمى العمى عمى القلب» فصار لا يؤمن إلا بالمادة العمياء، وسوّل له شيطانه مزاعمه وصار يتشدَّق ويعزو كل شيء حتى الأخلاق إلى المادة والوضع الاقتصادي وكأنه جاء بفلسفة! وفهم سر الحياة متهماً غيره بالرجعيَّة والخرافة! ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف: الآيات ٣٦/ ٣٨].

ما أعظم هذا الحديث، حيث يشرح تأثير الذنوب في النفس: «إذا أذنب العبد كانت نكتة سوداء على قلبه، فإن هو تاب وأقلع واستغفر صفا قلبه. وإن هو لم يتب

---

(١) بحار الأنوار: ج٨٤، ص٣٤٤، باب ١٣.

ولم يستغفر كان الذنب على الذنب والسواد على السواد حتى يغمر القلب»[1]. لذلك يستحب أن يستغفر كل منا عندما يأخذ مضجعه ليلاً قائلاً: ثلاث مرات: «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوبُ إليه». كي لا تتراكم ذنوبه بعضها على بعض فيسودَّ قلبه، فيأتي دور الإنكار والجحود: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العَنكبوت: الآية ٤٩].

﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ [الكهف: الآية ٥٦].

ولكن مهما يكن من شيء فإن الغلبة للمؤمنين في هذا العالم على قلّتهم ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحِجر: الآية ٩].

فلا بدَّ من تضحية ولا بدَّ من جهاد. وهو القائل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٩].

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لا تُبْصِرُونَ﴾

ـ ١ ـ

إن الله جلَّ وعلا يُقسم بما نراه وبما لا نراه مما خلق من عوالم شتى: عالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان وعالم الإنسان وعالم الأرواح وعالم الجن وما في السماء من عوالم لا تُرى حتى بأدق الآلات.

والقسم بما خلق قسم بعظمته تعالى وبالدقة المتناهية التي أودعها في مخلوقاته، وارتباط هذه المخلوقات بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً يحيِّر الألباب: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [المُلك: الآيتان ٣/ ٤]. ذلك لأن الإنسان كلما تقدَّم في تحقيقاته وتجاربه، كلما ظفر بدساتير جديدة كانت تخفى عليه، وخواص عجيبة وسعة لا تتناهى ودقة لا

---

(١) إرشاد القلوب: ص٤٦، باب ١١.

تستقصى، أودعها الله في أرجاء هذا الكون الرحيب.

فيحق لله تعالى أن يقسم بعظمته التي لا تتناهى، هذه العظمة التي تتجلّى في ما نبصره وما لا نبصره.

إن قابلية الإنسان في الإبصار قابليَّة محدودة، لذلك يستعين بآلات شتى (المجهر: Microscope) كي يُبصر الدقيق من الأشياء، كالميكروبات والجراثيم التي يجب أن تكبر آلاف المرات بل عشرات الآلاف، كي يمكن رؤيتها، أو يستعين بالمرقب: (Telescope) ليرى في مسافات شاسعة ما خلق الله من كواكب وأنجم وشموس ومجرَّات وما أودع الله في الفضاء من مادة غازية قليلة الكثافة جداً.

قد بلغ ببعض الأفراد في أوروبا التسافل في النفس حتى صاروا يجحدون الروح والنفس والملائكة، يجحدون الخالق جلَّ جلاله وكل ما لا يرى بالعين ويؤمنون بكل ما يرى بالعين.

حين أن العين ذات قابلية محدودة. فهناك كثير من الأشياء كان ينكرها المادي سابقاً لعدم وجود آلات يبصرها بها، ثم اعترف بها بعد اكتشاف آلات تساعد على الرؤية. وكذلك اليوم، هناك كثير من الأشياء لا ترى حتى بأدق الآلات ولكنها سوف ترى في مستقبل قريب عندما تكتشف آلات جديدة ودقيقة جداً.

لذلك تنقسم الموجودات إلى: منظور وغير منظور. فكل ما يراه الإنسان بعينه المجرَّدة أو بالمجاهر أو بالمراقب أو الأجهزة المقربة وكل ما في السماء وما تحت الأرض وما في قاع المحيطات وما في السحبُ كل ذلك من العالم المنظور. وأما العالم غير المنظور فهو ما لا يمكن رؤيته بالآلات أو بالعين المجرَّدة ولكنَّه موجود، يحكم العقل بوجوده أكثر مما يحكم بوجود المنظور كالخشبة.

فهناك أشعَّة لا ترى بالعين ولا بالآلةُ أشعة غير منظورة. أي أن هناك أشعة مرئية وأشعة غير مرئيَّة. وإن الأشعَّة المرئيَّة هي جزء صغير من الصورة الكليَّة للضوء. والأشعَّة غير المرئيَّة أكثر تفرعاً وتأثيراً من الأشعَّة المرئيَّة. لذلك أخذ يقول علماء الضوء: إن كلمة (ضوء) أو (حزمة ضوئيَّة) أو (إشعاع) قد لا تدل على حقيقة الضوء،

والأولى أن يقال: (الطاقة المشعَّة)، لتدل على جميع أنواع الإشعاع: المرئي منها وغير المرئي.

على أن العلم الحديث لم يصل إلى حقيقة الضوء كما لم يصل إلى حقيقة القوى أو كل شيء قواني (منسوب إلى القوة)، لم يصل إلى حقيقة القوة الجاذبة وحقيقة الكهرباء. إنما تُفرض فروض فيفسر بها بعض الظواهر، ثم تخمد تلك الفروض بعد برهة من الزمن ويُعوِّض عنها بفروض أو فرضيات (Hypothèses) أخرى يمكن تفسير الظواهر القديمة والجديدة بها معاً وهكذا دواليك..

فالعلم الحديث لا يتيسَّر له الولوج إلى أعماق الأشياء والوصول إلى حقائقها التي لا حقيقة بعدها. وهو يعمل دوماً للوقوف على أسرار الأشياء وإذا به يقف أمام أودية جديدة من المجاهيل تدهش الألباب.

فمن تلك الأشعَّة غير المرئيَّة: الأشعَّة السينيَّة (X- Rays)، أو أشعَّة (روتنكن). هذه الأشعَّة تخترق الأجسام التي لا يمكن أن يخترقها الضوء العادي! وقد اكتشفت بالصدفة. إنها قويَّة جداً ذات موجة قصيرة. فإن طول موجتها (١٠٠٠٠) مرَّة أقصر من طول موجة (الضوء المنظور).

ومن الأشعَّة التي لا ترى بالعين (ولو بالآلة) الأشعَّة الجيمية (أشعَّة گاما). وهي ذات موجة قصيرة أيضاً، أقصر من طول موجة الأشعَّة السينيَّة.

ومن الأشعَّة التي لا ترى: الأشعَّة (فوق البنفسجيَّة Ultra - Violet) فإن طول موجتها أطول من طول موجة الأشعَّة السينيَّة وأقصر من طول موجة الضوء المرئي.

ومن الأشعَّة غير المرئيَّة. الأشعَّة (دون الحمراء) في شعاع الشمس. وهي موجات حراريَّة نحسّ بها ولا نراها وهي تصل إلى الأعصاب والعضلات، ولا يحس فيها الفيلم العادي للتصوير.

وقد استخدم الإنسان الأنواع المذكورة من الأشعَّة في الكشف عن أمراضه ومعالجة كثير منها وقد استخدمها أيضاً في الغذاء والدواء.

وقد علم أن الأشعَّة فوق البنفسجيَّة التي هي في شعاع الشمس، تقتل كثيراً من

الجراثيم المضرَّة. وقد جاء في الشرع المحمَّدي ﷺ: أن أحد المطهَّرات هو الشمس. فتطهِّر الأرض النجسة أو الأبواب أو الجدران أو الأشجار أو الثمار التي عليها (من غير المنقول) والحصران والبواري (من المنقول) بعد زوال العين: بإشراق الشمس عليها حتى تجف، وإن كان ما ذكر جافاً فيصب عليه الماء حتى تجفِّفه الشمس بالإشراق عليه.

وهكذا موجات الراديو، وموجات الرادار الذي يكتشف وجود الأشياء في الفضاء ويحدِّد مكانها بالضبط من النوع غير المنظور.

* * *

وقد تكون بعض الأجسام الماديَّة، في وقت، من نوع غير المنظور، لعدم وجود آلات تكشف عنها. وبعد اكتشاف آلات جديدة ودقيقة وتقدم الفيزياء والرياضيات العالية، تصبح من النوع المنظور.

مثال ذلك: ما كان يعلم قبل (١٠٠) سنة أن في كل مجرَّة عدداً كبيراً جداً من النجوم تكاد تعد بالملايين تسودها أنظمة كالنظام الشمسي. أي أن كلاً منها شمس في حد ذاتها وقد فتقت منها سيارات وفتقت من السيارات هذه توابع وأقمار تدور حول الأم وتدور في الوقت نفسه حول نفسها. فإذا تقدَّمت الآلات الفلكيَّة، سيأتي اليوم الذي يُتلافى فيه ضآلة الضوء المنعكس من الأنجم التي تقع في مسافات لا نهائيَّة وسوف نشاهد أنجماً وعوالم كانت سابقاً من نوع غير المنظور.

لذلك يقسم الله تعظيماً لشأن ما خلق من عوالم لا تتناهى، عوالم لا ترى بالعين المجرَّدة ولا بالآلات بقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحَاقة: الآيتان ٣٨/ ٣٩].

كما أنه كان يعد سابقاً الغاز الموجود في الفضاء بين النجوم والذي اكتشفه أخيراً العلم الحديث من غير المنظور، وقد أمسى منظوراً أو ملموساً محسوساً. ذلك لأن كثافة هذا الغاز تساوي ميليغراماً واحداً في كل مليون ميل مكعَّب من الفضاء.

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لا تُبْصِرُونَ﴾

ـ ٢ ـ

وممَّا لا يمكن إبصاره: الذرَّة، فإنها من الصغر بحيث لا يمكن للإنسان أن يبصرها حتى بأدق الآلات. وقد أصبح اليوم التعرف إلى (الذرَّة) وما أودع الله فيها من تركيب وقوانين ومعادلات من أهم العلوم الحديثة وأدقِّها وأصعبها. وأصبح علم الذرَّة علماً هامًّا يتخصَّص فيه بعد دراسة الفيزياء العالية على ضوء الرياضيَّات العالية. لذلك يجدر بنا أن نتكلَّم عن الذرَّة ـ وهي من النوع (غير المنظور) ممَّا خلق الله تعالى ـ بشيء من التفصيل.

كان يقول ديموقراطيس (Démocrite) الفيلسوف اليوناني منذ زمن بعيد[1]: إنه لو قسمت قطعة من الحديد مثلاً إلى جزئين، ثم قسِّم أحد الجزئين إلى جزئين آخرين أيضاً وكرِّرت هذه العمليَّة مرَّات متعدِّدة جدًّا، فإنَّنا سنصل إلى مرحلة لا تتمكَّن فيها تقسيم الجزء الأخير إلى جزئين آخرين مع الاحتفاظ بخواص الحديد، أي أنَّه لو قسم الجزء الأخير أيضاً لا نحصل على الحديد بل يكون شيئاً غير الحديد، فصار يسمَّى الجزء الأخير الذي لا يمكن تجزئته بـ(جزء لا يتجزَّأ). وهذا ما يسمَّى اليوم بالذرَّة: (آتوم: Atome) ومعناها في اليونانيَّة غير المنظور.

إنِ البحوث الأخيرة في علم الفيزياء أيَّدت هذه النظريَّة وبرهنت على صحَّتها. وذلك أن كل عنصر كالحديد أو الذهب يمكن تجزئته إلى أجزاء متعدِّدة إلى مرحلة يقف إمكان التجزئة فيها مع الاحتفاظ بخاصيَّة ذلك العنصر، حتى نبلغ إلى جزء لا يتجزَّأ أي جزء لا يمكن تقسيمه وتجزئته مع الاحتفاظ بخاصيَّة ذلك العنصر، أي لا يكون بعد ذلك جزيء الحديد حديداً أو جزيء الذهب ذهباً. والذرَّة هي هذا الجزيء الذي لا يتجزَّأ.

إن العالم المادي مكوَّن من عناصر مختلفة: كالحديد والذهب والفضَّة والكاربون

---

(١) قبل الميلاد بخمسة قرون.

وغاز الهيدروجين (أو الإيدروجين) وغاز الأوكسجين. إلخ. وأصبح عدد هذه العناصر التي اكتشفها العلم الحديث: (١٠٠) عنصراً لحد اليوم.

وقد أعلن في عام ١٨٩٧ (السير تمسون) وغيره أنهم تمكّنوا من أن يفصلوا من جميع أنواع الذرّات التي هي في حالة تعادل جسيمات متساوية في الوزن وذات شحنات كهربائيّة سالبة متساوية، أطلقوا عليها اسم (الألكترونات) بالنسبة لشحنتها السالبة، وأن ذلك يدل على أن (الذرّة) المتعادلة، لا بدّ أن تكون مكوّنة من جزيئين أحدهما: موجب التكهرب والآخر: سالب التكهرب، ومن شحنتين كل منهما مساوية ومضادة للأخرى. وكان ذلك أول اكتشاف علمي عن إمكان تجزئة الذرّة. ولكن وقفت الاكتشافات العلميّة في هذه الناحية مدّة من الزمن حتى كشفت المواد المشعّة ودرست أحوال انحلالها الذاتي.

ويقال عن (مدام كوري) مدرسة الفيزياء في جامعة (صوربون) إنها قد وضعت في جيب ثوبها بالقرب من الصدر قطعة من الراديوم قد نسيتها وبعد مدّة شعرت بخدشة في صدرها وكانت تعلم وزن تلك القطعة قبلاً، فلما فتّشت عن سبب تلك الخدشة علمت أن الراديوم هو الذي أثر في صدرها بإشعاعاته ووزنت القطعة من جديد، فوجدت نقصاً فيها وعلمت أن قسماً من المادة قد تحوّلت إلى طاقة: (إشعاعات).

كما أن (بيكريل) العالم الفرنسي كشف في آخر القرن التاسع عشر بمحض الصدفة! ودون ترتيب سابق إشعاعاً غريباً غير مرئي ينبعث من أحد مركبات عنصر (اليورانيوم) ـ أثقل العناصر المعروفة ـ، ورأى أن هذا الإشعاع الغريب يؤثّر في مادة اللوح الفوتوغرافي كأشعّة الشمس، بالإضافة إلى ذلك: ينفذ هذا الإشعاع خلال الأجسام غير الشفّافة.

فعلم بعد هذا الاكتشاف أن كل ما في الكون من مظاهر ماديّة وجميع ما هنالك من عناصر: (كالحديد والراديوم) وجدت من شيء واحد هو الطاقة: (Energie)، وإن هذه الطاقة هي القوّة الكهربائيّة السالبة التي تتجلّى في الإلكترونات (Electrons) وفي القوّة الكهربائيّة الموجبة التي تتجلّى في (البروتونات) (Protons) وكهربائيّة متعادلة:

موجبة وسالبة وتتجلّى في النيوترونات (Neutrons)، وعلم أن العالم المادي هو قوَّة كهربائيَّة: موجبة وسالبة أو طاقات هائلة تكدَّست فكانت ذرَّات وأجساماً، فليس هناك مادَّة بالمعنى الذي يفهمه المادي. وإنما هي قوى وطاقات خلقها الله بقدرته وإرادته، ورتَّبها ترتيباً بديعاً، خاضعاً لمشيئته تعالى، فكانت هذه الذرَّات وهذه العناصر وهذه الأجسام والمواد.

وخلاصة ما قلنا: إن الذرَّة مكوَّنة من:

١ ـ پروتونات موجبة.

٢ ـ الكترونات سالبة، شحنتها مساوية ومضادَّة لشحنة الپروتونات.

٣ ـ ومن نيوترونات، كل منها مكوَّن من اتحاد پروتون موجب والكترون سالب.

فتكون الذرَّة في مجموعها مكوَّنة من جزئين، أحدهما موجب التكهرب: (كهربائيَّة موجبة) والآخر: سالب التكهرب: (كهربائيَّة سالبة). وشحنتاهما متساويتان ومتضادتان.

وهذا مما يجعلنا أن نتصور العالم مكوَّناً من جسيمات مكهربة. لذلك كان يقول (أينشتاين): إن العالم مجموع قوى كهربائية ومغناطيسيَّة أو (كهرطيسية). فأين المادة التي تشدق بها المادي. ضارباً يده على منضدته قائلاً: هذه هي المادة!.

تصوروا دائرة كبيرة (أو بالأحرى كرة كبيرة) نصف قطرها طويل جداً فهذه هي الذرَّة. توجد في مركز هذه الذرَّة دقائق صغيرة متجمِّعة تسمَّى بنواة الذرَّة وفيها الپروتونات وهي الكهربائيَّة الموجبة أي شحنتها موجبة، وإن وزن الذرَّة أو وزن المادَّة هو وزن هذه النواة أي الپروتونات (أو الكهربائيَّة الموجبة) تقريباً.

إن عدد الپروتونات في ذرَّة كل عنصر يختلف عن الآخر. فمثلاً عدد الپروتونات في نواة ذرَّة الحديد لا يساوي عدد الپروتونات في نواة ذرَّة الأورانيوم (يورانيوم). ففي نواة كل ذرَّة من كل عنصر عدد معين من الپروتونات.

وفي محيط الدائرة (أو الكرة التي تصوَّرناها) عدد معيَّن من الإلكترونات (كهربائية سالبة) مجموع شحناتها مساوٍ لشحنة النواة وفي حالة تعادل معها وتتحرَّك بسرعة عظيمة

حول النواة تبلغ مئات الأميال في الثانية لكي تمنع سقوطها عليها تحت تأثير التجاذب بينهما. وإن كتلة النواة تبلغ بضعة آلاف المرَّات قدر كتلة مجموع (الإلكترونات). ويفصل بينهما أي بين النواة والإلكترونات الدائرة حولها فراغ هائل. وإن حجم كل منهما ضئيل جداً بالنسبة لحجم الذرَّة الذي كلُّه فراغ تقريباً. وقد صوَّر (رذر فورد) تكوين الذرَّة بصورة المجموعة الشمسيَّة وقد أدخل عليها بعض التعديلات. وهذا دليل على عدم تناهي ما أودع الله من خواص وقوانين في دقائق هذا الكون!!..

قلنا إن الإلكترونات وهي عديمة الوزن تقريباً تدور بسرعة هائلة حول مركز الذرَّة (البروتونات) وهي تقع عن المركز بفواصل معيَّنة كما في النظام الشمسي. وإن الأبعاد بين الإلكترونات الدائرة ونواة الذرَّة هي تقريباً تساوي الأبعاد بين الشمس والكواكب السيَّارة حولها مع حفظ النسبة فإذن كل ذرَّة هي مجموعة شمسيَّة.

وقد ذكر الفيلسوف العربي: فريد الدين العطَّار: أنَّ ذرَّات العالم في عمل مستمر وإنه توجد في كل ذرَّة شمس ظاهرة وروح باطنة.

وقال الشاعر هاتف الأصفهاني الذي توفي سنة ١١٩٨ الهجريَّة:

دل هر ذره را كه بشكافى آفتابش در ميان بينى

أي إذا كشفت عن باطن كل ذرَّة لألفيت شمساً في وسطها.

فهو قد توصَّل إلى كشف هذه الحقيقة بإلهام ربَّاني ونور قذفه الله تعالى في قلبه. فقد جاء في الحديث وما أعظمه: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء»[(١)].

وكم قذف الله من أنوار في قلوب المخترعين والمكتشفين وكم هيّأ لهم صدفاً تمكَّنوا بها من العثور على حقائق جديدة. وكم كان شكرهم وخضوعهم قليلاً! تجاه نعم الله التي لا تعد ولا تحصى...

وكذلك، فالإلكترونات وهي شحنات كهربائية سالبة يختلف عددها في كل ذرَّة باختلاف العناصر. كالحديد والفضَّة والذهب مثلاً. وعدد هذه الإلكترونات التي تدور

---

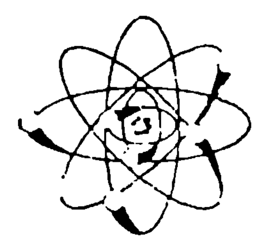
(١) مصباح الشريعة: ص١٦، باب ٦.

بسرعة هائلة في محيط الذرَّة يساوي دائماً عدد البروتونات التي هي وسط الذرَّة. وإن لحركات الإلكترونات وسيرها في أفلاكها الخاصَّة بسرعة فائقة آثارها العجيبة لا مجال إلى ذكرها. وإن حركة الإلكترونات هي من الانتظام والدقَّة مما يجعل أن يعترف الفيلسوف الفرنسي (هانري بركسون): (Henri Bergson) بخالقه وأن يقول:

«إن يداً غيبية تعمل في تنظيم هذه الحركات المنظمة لإيجاد أو حدوث تيَّار كهربائي وأمواج كهربائيَّة مختلفة وتفاعلات كيميائيَّة إلى غير ذلك مما سيكشفه العلم الحديث».

تصوَّروا الذرَّة عادة على أنها كرة غلافها الخارجي سحابة زغبية من الإلكترونات تكوِّن معظم حجم الكرة تقريباً، وبالرغم من ذلك فإنها لا تكاد تكون شيئاً من وزن الذرَّة. ويحدِّد عدد الإلكترونات في هذه السحابة خواص الذرَّة الطبيعيَّة والكيماويَّة.

شكل (١) الذرة:



الذرَّة: هي أصغر جزء من المادة وتتركَّب من نواة بها پروتونات ونيوترونات ويحيط بها الكترونات.

* * *

قلنا إن الذرَّة تبلغ من الصغر بحيث لا يمكن رؤيتها بأدق الآلات وهي من «ما لا تبصرون»، أي من نوع غير المنظور. ذلك، لأنه لو وضعت عشرة ملايين ذرَّة بعضها جنب بعض على شرط الكرويَّة يكون طول ذلك كله ميليمتراً واحداً. ومعنى ذلك أن معدَّل قطر الذرَّة هو $\frac{1}{10,000,000}$ من الميلمتر. وأن قطر (نواة الذرَّة) يساوي واحداً من مائة ألف جزء من الذرَّة أي يساوي $\frac{1}{100,000}$ من الذرَّة. إذن قطر نواة الذرَّة يساوي $\frac{1}{1,000,000,000,000}$ أي واحداً من تريليون جزء من الميليمتر أو $\frac{1}{10^{12}}$ مم. وإذا جمعنا من نوى الذرَّة مليارد نواة فلا يمكن رؤيتها مع أقوى المجاهر

(Microscope)، ومع ذلك فقد عبأ الله تعالى في هذه النواة طاقة (قوة) عجيبة خارقة تدعى: (بطاقة النواة). وإن الطاقات (القوى) المدمِّرة عند انفلاق القنبلة الذريَّة إنما هي نتيجة تحرُّر هذه القوى الخارقة من نواة الذرَّة الضئيلة. فإن كيلو غراماً واحداً من الأورانيوم: ٢٣٥ يطلق حين تحطيمه طاقة بقدر ما يطلق ٢٥٠٠٠٠٠ كيلو غرام من الفحم!

فسبحان الذي أودع هذه القوَّة الخارقة في نواة (الذرَّة) وأجرى الإلكترونات التي لا يمكن أن ترى بأيَّة آلة حولها، وهذا ممَّا يقسم الله تعالى به بقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحَاقة: الآيتان ٣٨/ ٣٩]. هنالك من عظمة خارقة وإتقان في الخلق ما بعده اتقان.

* * *

قلنا إن نواة الذرَّة مؤلَّفة أو مكوَّنة من نوعين من الدقائق:

١ ـ الپروتونات وفيها شحنة كهربائيَّة موجبة. والپروتون جسيم صغير ثقيل نسبياً، يبلغ وزنه ١,٦٧٣ × ١٠$^{-٢٤}$ من الغرام (وهو محمل بشحنة كهربائيَّة موجبة).

٢ ـ نيوترونات. وهي متعادلة من حيث الكهربائيَّة أي تتعادل فيها الشحنة الموجبة مع الشحنة السالبة. ووزن النيوترون + ١,٦٧٤ × ١٠$^{-٢٤}$ من الغرام.

وأما الإلكترونات فتدور حول النواة بسرعة هائلة تبلغ (٣٦٠٠٠٠) ميل في الساعة وهي ذات شحنة سالبة ووزن الإلكترون = ٩ × ١٠$^{-٢٨}$ من الغرام.

وهناك فضاء واسع أو فراغ رحيب بين النواة (نواة الذرَّة) وبين الإلكترونات التي تدور حولها.

يختلف عدد الپروتونات في نُوى ذرَّات العناصر المختلفة وكذا عدد الإلكترونات التي تدور حول النواة، مع العلم أن عدد الإلكترونات في ذرَّة كل عنصر يساوي دائماً عدد الپروتونات في ذرَّة نفس العنصر. فيعتبر عدد الپروتونات الموجودة في نواة كل ذرَّة عدداً دالاً على عددها الذري أو رقم ترتيبها في الجدول الدوري. أي أن العدد الذري يساوي عدد الپروتونات الموجودة بها.

وفي مركز الذرة، كما قلنا، توجد الپروتونات والنيوترونات مكدَّسة بعضها مع

بعض في وسط الذرَّة، إذ أن حجمها عبارة عن جزء من ٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من حجم الذرَّة كلِّها . فإذا كان حجم الذرَّة في حجم منزل كان حجم هذه المجموعة لا يتجاوز حجم رأس دبوس. ولبيان مدى تكدُّس هذه الجسيمات، فإن حجماً منها يزن ٤٨٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مرَّة قدر وزن نفس الحجم من الماء.

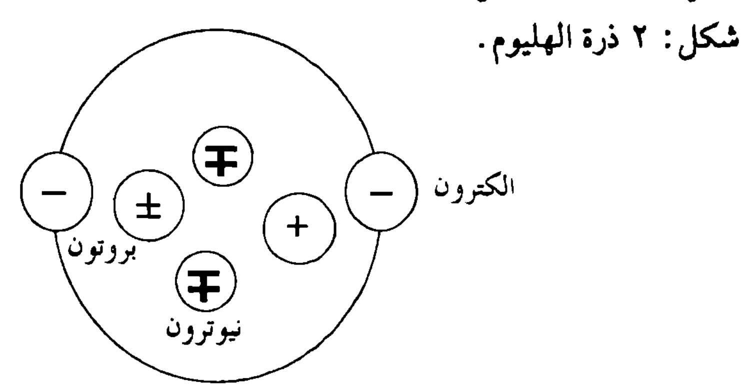
تصوَّروا دائرة كبيرة ضعوا پروتوناً واحداً في مركزها، وضعوا: الكتروناً واحداً على محيط الدائرة، فهذه تمثِّل لنا ذرَّة الإيدروجين (وهو غاز فيه قابليَّة الاحتراق) وأحد عنصري الماء.

ففي ذرَّة الإيدروجين وهو أخف العناصر يوجد: پروتون واحد في الوسط والكترون واحد في المحيط يدور حول الپروتون بسرعة هائلة وبينهما فضاء أو فراغ واسع رحيب.

ويليه من حيث الوزن: (الهليوم) وهو غاز غير محترق يُملأ به المناطيد (بالون).

ففي ذرَّة (الهليوم) يوجد (پروتونان) في الوسط و(نيوترونان) في الوسط أيضاً ويوجد في مدارها الخارجي الكترونان.

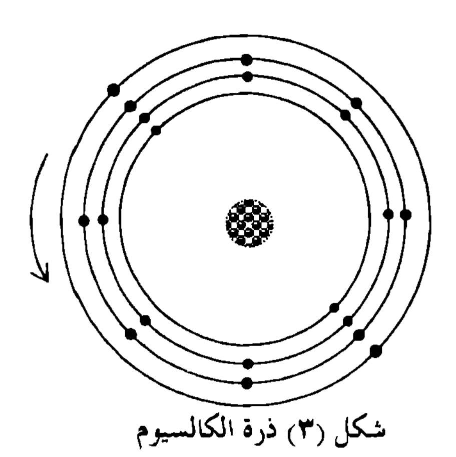
شكل: ٢ ذرة الهليوم.



الكترونان يدوران حول پروتونين وفي النواة أيضاً يوجد نيوترونان.

وأما العنصر الثالث من حيث الترتيب فهو: (ليثيوم). يوجد في نواة ذرَّة الليثيوم ٣ پروتونات ومعها ٤ نيوترونات، وتدور في الأطراف حول النواة ٣ الكترونات: الكترون واحد على المحيط تماماً واثنان منها على محيط دائرة أخرى من الداخل بالقرب من المحيط الأصلي.

وهناك عنصر آخر يسمَّى بـ(نئون). فإن في ذرَّتها (١٠) الكترونات، يدور إثنان منها على محيط دائرة قريبة من المحيط الأصلي وتدور (٨) الكترونات على المحيط الأصلي تماماً. وإن الدائرتين متقاربتان. ومتحدتا المركز.



شكل (٣) ذرة الكالسيوم

شكل مبسط لذرة الكالسيوم، (٢٠) الكتروناً

تدور في دوائر مختلفة بنظام خاص حول النواة (المركز)

وإذا أردتم أن تتصوَّروا ذرَّة الكالسيوم فارسموا أربع دوائر متَّحدة المركز. وضعوا: إلكترونين في نقطتين متقابلتين على الدائرة الأولى من الداخل وضعوا على كل من الدائرتين الثانية والثالثة (من الداخل إلى الخارج) ٨ الكترونات في نقاط متقابلة أي (طرفي القطر)، وضعوا في الدائرة الرابعة (وهي محيط الذرَّة الخارجي) إلكترونين في نقطتين متقابلتين، وهذه الألكترونات تدور حول الپروتونات بسرعة هائلة ونظام بديع كما أمرها الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤].

وأما ذرَّة: (الأورانيوم) أو (يورانيوم) فيوجد في نواتها: (٩٢) پروتوناً ومن (١٣٦) إلى (١٤٧) نيوتروناً تصاحب الپروتونات فيها. ويوجد (ذرياً): ١٢ نوعاً من الأورانيوم يُشبه بعضُها البعض، ولها تقريباً نفس الخاصيَّة. وفي نواة كل من هذه الأنواع (وهي ١٢ نوعاً) يوجد ٩٢ پروتوناً ولكنها تختلف من حيث عدد النيوترونات. وتسمَّى هذه الأنواع من العناصر المتشابهة: (النظائر Isotope) أو (المماكِنات).

والنظائر هي العناصر التي تتساوى ذرَّاتها من حيث عدد الپروتونات وعدد

الالكترونات ولكنها تختلف قليلاً في عدد النيوترونات التي في نواها. وفي الحقيقة هي عنصر واحد. وهذا الاختلاف في عدد النيوترونات لعنصر واحد يودِّي إلى اختلاف في أوزانها الذريَّة.

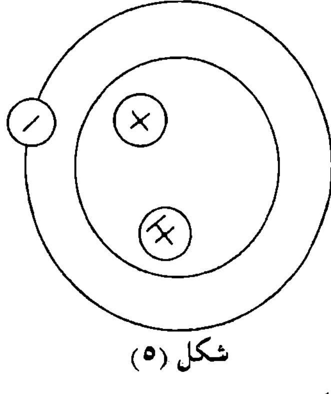
وإذا جمعنا عدد النيوترونات مع الپروتونات فالمجموع يعطينا العدد الكتلي (Mass Number) أو الوزن الذرِّي. كما أن الفرق بين الوزن الذرِّي والعدد الذرِّي يساوي عدد النيوترونات.

وأن النظائر أو التوائم أو المتشابهات الخاصة بعنصر معيَّن لها جميعاً نفس التفاعلات والخواص الكيميائيَّة. وبما أنه ما يحدد هذه الخواص الكيميائيَّة هو عدد الالكترونات الخارجيَّة وبالتالي عدد الپروتونات التي في النواة، وعلى ذلك، فالنظائر الخاصة بعنصرٍ ما لها عدد ذري واحد، وإنما تختلف في أوزانها الذريَّة أي تختلف باختلاف عدد النيوترونات فيها. والوزن الذرِّي = عدد الپروتونات + عدد النيوترونات. . إذن فالنظائر لعنصر ما كالأيدروجين مثلاً هي ذرَّات نفس العنصر تختلف بعضها عن بعض بسبب اختلاف عدد النيوترونات الداخلة في نواة كل ذرَّة أو توأم أو نظير من النظائر المختلفة الخاصة بذلك العنصر.

وقد علم أنه يوجد ٣ نظائر للأيدروجين و ٣ نظائر للفوسفور و٥ نظائر للكبريت و٦ نظائر للكالسيوم ويمكن توضيح النظائر الثلاثة الخاصة بالإيدروجين بالأشكال (٤، ٥، ٦):

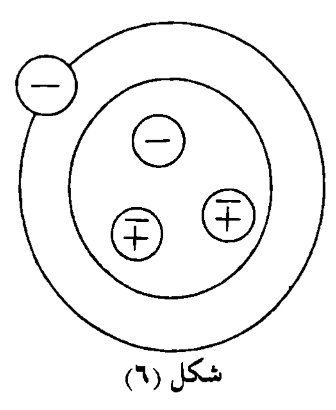
شكل (٤)

الأيدروجين **Hydrogen**



شكل (٥)

الأيدروجين الثقيل **Deuterium**



شكل (٦)

الأيدروجين الثلاثي Tritium

إن هذه النظائر الثلاثة تشترك جميعاً في شيء واحد وهو: أن فيها جميعاً إلكتروناً واحداً في مدارها الخارجي، وكذا پروتوناً واحداً في نواتها، أي أنها جميعاً لها عدد ذرى واحد. بينما نرى أنها تحتوي على عدد مختلف من النيوترونات في النواة.

فالإيدروجين العادي لا يحتوي على نيوترونات إطلاقاً؛ بينما يحتوي الإيدروجين الثقيل (Deuterium) على نيوترون واحد إلى جانب البروتون. ويحتوي الإيدروجين الثلاثي (Tritium) على نيوترونين. وهكذا نرى أن هذه النظائر الثلاثة لها عدد ذرِّي واحد هو الواحد الصحيح. بينما نرى أن لها ثلاثة أوزان ذريَّة مختلفة. فالإيدروجين العادي وزنه الذرِّي = ١ والإيدروجين الثقيل وزنه الذرِّي = ٢، وعند اتحاد الإيدروجين الثقيل بالأوكسجين نحصل على ما يعرف الآن باسم الماء الثقيل.

وعند اكتشاف الإيدروجين الثلاثي (Tritium) وجد أنه أثقل فعلاً من كل من الإيدروجين العادي والثقيل لأن وزنه الذرِّي = ٣ تلك هي النظائر العادية.

وأما النظائر المشعّة هي تلك النظائر الخاصَّة بالعنصر الواحد، والتي لها نشاط إشعاعي، وهنا نسأل ما هو النشاط الإشعاعي؟

يعرف النشاط الإشعاعي بأنه نشاط ينتج عن اضطراب نواة الذرَّة نتيجة اختلاف نسبة ما فيها من (النيوترونات) إلى (البروتونات) عن (النسبة اللازمة) لاستقرار نواة الذرَّة. وذلك كأن تواجه النواة بإدخال بعض البروتونات أو النيوترونات إليها. وبديهي

أن مثل هذا العمل يؤدِّي إلى اختلاف (نسبة النيوترونات إلى الپروتونات) عن الحد اللازم لاستقرار النواة، ولهذا السبب تضطّر النواة إلى محاولة إصدار نوع أو آخر من الإشعاعات المختلفة حتى تصل إلى حالة الاستقرار.

وقد وجد في الهواء الجوِّي أن غاز (النتروجين) مكوَّن معظمه من ذرَّات وزنها الذرِّي ١٤ مخلوطة بقدر ٣ في الألف من ذرَّات وزنها الذري ١٥. والأوكسجين في الجو كذلك معظمه مكوَّن من ذرَّات وزنها ١٦ مخلوطة بذرَّات بقدر ٣ في كل ١٠٠٠٠ منها وزنها الذرِّي ١٧.

وإن الجدول الآتي يوضِّح لنا تركيب ذرَّات بعض العناصر:

تتركَّب ذرَّة الهليوم من:

(٢ پروتون موجبة + ٢ نيوترون متعادلة) + ٢ إلكترون سالبة.

تتركَّب ذرَّة الليثيوم من:

(٣ پروتون موجبة + ٣ نيوترون متعادلة) + ٣ إلكترون سالبة.

تتركَّب ذرَّة الكاربون من:

(٦ پروتون موجبة + ٦ نيوترون متعادلة) + ٦ إلكترون سالبة.

تتركَّب ذرَّة التروجين من:

(٧ پروتون موجبة + ٧ نيوترون متعادلة) + ٧ إلكترون سالبة.

تتركَّب ذرَّة الأكسيجين من:

(٨ پروتون موجبة + ٨ نيوترون متعادلة) + ٨ إلكترون سالبة.

تتركَّب ذرَّة اليورانيوم من:

(٩٢ پروتون موجبة + ١٤٦ نيوترون متعادلة) + ٩٢ إلكترون سالبة.

وقد دلَّت التقديرات العمليَّة على أن وزن الذرَّة يساوي تقريباً وزن نواتها[١].

وإن القنبلة الذريَّة هي نتيجة انفجار نواة نوع واحد من ذرَّة (اليورانيوم) تدعى: (يورانيوم ٢٣٥). ففي نواتها يوجد: ٩٢ پروتوناً و١٤٣ نيوتروناً. فلا تصنع من بقيَّة

---

(١) في نهاية الكتاب جدول يبيِّن أسماء العناصر المكتشفة مع أوزانها الذريَّة.

أنواع اليورانيوم القنبلة الذريَّة. فيكون الوزن الذرِّي: ٩٢ + ١٤٣ = ٢٣٥.

فتحطيم الذرَّة (أو التفاعلات النوويَّة) هو عبارة عن تفاعلات بين جسيمات نواها، وتغيير في أوضاع الإلكترونات حولها تنشأ عنها نوى ذات عناصر جديدة يحيط بكل منها العدد اللازم من الإلكترونات.

ومن الواضح أن التفاعلات العاديَّة بين العناصر كالأكسيجين والإيدروجين في تكوين الماء مثلاً تحدث بين ذرَّات كاملة من الأكسيجين وذرَّات كاملة من الإيدروجين (مثلاً) في حالة تعادل دون حدوث تغيير في نواها. أي لا يحدث حين تكون الماء من الغازين (الأكسيجين والإيدروجين) أي تغيير في نواة ذرَّة الأكسيجين وذرَّة الإيدروجين. ذلك لأن تفاعل ذرَّات الأكسيجين والإيدروجين المتعادلة لتكوين الماء عبارة عن اتحاد ذرَّة كاملة من الأول بذرَّتين كاملتين من الثاني. ويعزون مثل هذه التفاعلات إلى حدوث انتقال بعض الإلكترونات في المحيط الخارجي لذرَّات العناصر المتفاعلة من بعضها إلى بعض، فيُصبح بهذا الانتقال بعضها موجب التكهرب وبعضها سالب التكهرب فيحدث الاتحاد بينهما تحت تأثير التجاذب الكهربائي. وإن الطاقة التي تنتج من مثل هذه التفاعلات العادية تكون غالباً على صورة حرارة: تكافئ الفرق بين طاقة تماسك الإلكترونات بالنوى في الذرَّات قبل التفاعل وبعد التفاعل.

إلا أن التفاعلات النوويَّة في الانحلال الذاتي أو بين نوى الذرَّات في أعمال التحطيم (وهو موضوعنا الذي نبحث عنه)، فيحدث عنها تغيير في (تكوين النوى) من الجسيمات التي تتركَّب منها وهي: (البروتونات والنيوترونات) إضافة إلى التغيُّر في توزيع أوضاع الإلكترونات المحيطة بها. ولذلك تكون الطاقة المنبعثة من (التفاعلات النوويَّة) أعظم بكثير من التفاعلات العاديَّة عند تركيب العناصر في الكيمياء وتبلغ مئات الألوف من المرَّات قدر الطاقة التي تنبعث من التفاعلات العادية بين الذرَّات والجزيئات الكاملة. ويصدر معظم هذه الطاقة من باطن الذرَّات على صورة إشعاع وطاقة حركيَّة وتكون جزءً من الطاقة المختزنة فيها والتي تربط جسيماتها بعضها ببعض.

وقد قال (أينشتاين): «إن في الذرَّة طاقة كبيرة يمكن تسخيرها والإفادة منها. وإن

المادة صورة من صور الطاقة. وإن الغرام الواحد من المادة يتحول إلى ألف مليون مليون مليون وحدة من وحدات الطاقة: (ارگ: Erg) أو إلى ٢٥ مليون كيلو وات ساعة، أي ما ثمنه نحو ٥٥٠ ألف دينار».

* * *

كانت أُمنية أهل القرون الوسطى تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة كالفضة والذهب بطريق كيماوي. لكنهم أخفقوا في ذلك ولم يوفقوا رغم ما بذلوا من مساع جمَّة. فاستحال عليهم تحقيق ما أرادوا. فنبذوا الفكرة في القرن الثامن عشر واستبدلوا بها بفكرة ثانية في القرن التاسع عشر وهي: عدم إمكان تحويل العناصر بعضها إلى بعض.

ولكن قد حدث في عام ١٩١٩ تحطيم ذرَّات (النيتروجين) وتحويلها إلى ذرَّات الأُكسيجين والإيدروجين. وهكذا توالت بعد ذلك تجارب تفتيت الذرَّة باستخدام قذائف من جسيمات (آلفا) أي نوى الهليوم ومن جسيمات أخف ولكن أكبر أثراً منها. وهي (الپروتونات) أي (نوى الإيدروجين) بعد إعطائها سرعة عظيمة. فتمكَّنوا بذلك من تحطيم وتحويل ذرَّات عدد من العناصر بعضها إلى بعض: مثل تحويل عنصر (الإيدروجين) إلى عنصر (هليوم) وتحويل (الصوديوم) إلى (مغنسيوم) و(الليثيوم) و(البورون) إلى (هليوم). فتحقَّق فعلاً أمر تحويل العناصر بعضها إلى بعض.

وممَّا لا ريب فيه أن البشر لا يخلق شيئاً، فلا يتمكَّن من خلق ذرَّة جديدة غير موجودة في الطبيعة. أي غير مخلوقة بيد الله تعالى (وأعني بقدرته تعالى). والبشر لا يقوى على إيجاد پروتون أو نيوترون من العدم دون أن يستعير من عناصر بسيطة أخرى (أي من ذرَّاتها).

وإن أبسط الأفكار ليعترف أن العناصر وما في ذرَّاتها من ترتيب دقيق وتوزيع الپروتونات والنيوترونات وحركة الإلكترونات الدقيقة الهائلة حولها لم توجد من تلقاء نفسها، ذلك لأنه بيان شامخ قد روعي فيه تمام الحكمة وكمال التدبير[1].

---

(١) قد علم أخيراً أن سرعة الإلكترونات في ذرَّة الهيدروجين قد بلغت الفي كيلو متر في الثانية. =

كما أن العلم ليعترف أن الحيويَّة في الكائنات الحيَّة لم تكن نتيجة ترتيب مادي بين المواد وإنما جاءتها من الخارج بأمر من الله تعالى.

فليس للبشر أن يخلق پروتوناً أو إلكتروناً، إلا أنه يستعيرهما من بعض العناصر ويدخلهما في عنصر آخر لتحويل بعض العناصر إلى عناصر أخرى موجودة قبلاً في الطبيعة (الكون). وهذا ما يسمُّونه بتحويل العناصر: (Transmutation).

وزيادة في التوضيح نقول إذا رمزنا بعدد من الپروتونات في نواة ذرَّة الرصاص مثلاً بـ(پ) ورمزنا بعدد من النيوترونات في تلك الذرَّة أي ذرَّة ذلك العنصر بحرف (ن)، فسيكون دستور النواة:

پ + ن

فإذا أردنا أن نزيد في عدد الپروتونات من (پ) إلى (پ + ١)، شريطة أن يبقى عدد الإلكترونات ثابتاً، لزم أن ندخل نواة الإيدروجين في نواة الرصاص. ولتحقيق هذه الغاية يجب أن نوجِّه پروتونات سريعة السير جداً نحو نواة الرصاص كي يدخل پروتون واحد (بطريق الصدفة) في نواة الرصاص، وعند ذلك يكون عدد پروتونات ذرَّة الرصاص (پ + ١).

وبهذه الطريقة نتمكَّن من أن نصنع من الرصاص ذهباً. وأن نصنع من الزئبق ذهباً. ذلك لأن هذين العنصرين: (الرصاص والزئبق) قريبان من عنصر الذهب من حيث عدد الپروتونات. ولكن يجب أن لا ننسى أن علينا أن نصرف ١٠٠٠ غرام من الرصاص للحصول على غرام واحد من الذهب بطريقة تحويل العناصر. وهذا ما لا يجوزه الاقتصاد.

فعلم مما سبق أن الذرَّة ليست بجزء لا يتجزَّأ على ما كان يعتقده البعض، لأنها تتحلَّل إلى قُسيمات أخرى فقوى وهي عالم برأسها لها قوانينها وخواصُّها، وهي ليست بمادة كما يزعم المادي. وبذلك قد فندت نظريَّة (دالتون). وكم من نظريات ماديَّة سخيفة فُندت بعد كشف بعض حقائق الذرَّة. إلا أن المادي (الشيوعي) مع الأسف

= وهذا في ما يعرفه العلم والعلماء أقصى سرعة أمكن أو يمكن معرفتها على وجه الأرض.

يتحكّم على العلم والعلماء بدكتاتوريَّته. فيقتل العلماء ويبيدهم إن لم يوافقوه في هذيانه في عصر حرّيَّة الأفكار وفي عصر الانطلاق الفكري.

وكذلك فُنِّدت نظريَّة (تومسون: Thomson) التي كانت تقول: إن الذرَّة مملوءة مصمتة وإن الإلكترونات موضوعة على البروتونات ملتصقة بها كذباب على ظهر فيل، فعُلم أخيراً أنَّ الذرَّة خالية فارغة وفيها فضاء واسع رحيب.

وعلم أن أصل الموجودات على وجه الأرض شيء واحد. إنما هو البروتونات التي تشكِّل نواة الذرَّة. والبروتونات هذه هي عينها من حيث الخواص والماهيَّة في ذرَّات جميع العناصر، وليس هناك أي اختلاف بين پروتون ذرَّة عنصر وپروتون ذرَّة عنصر آخر. خلافاً لما يتقوَّله الماديُّون من نظريَّة التبدُّل والتغيُّر.

وإن عمليَّة تبديل العناصر وتحويل بعضها إلى بعض (Transmutation) تثبت لنا هذه الحقيقة. كما أنه لا فرق بين إلكترون ذرَّة راديوم وإلكترون ذرَّة الحديد منذ ملايين السنين ولم يحدث أي تغيُّر وأي تبدُّل خلافاً لما يهذيه المادي الخيالي البعيد عن العلم الصحيح. وهل هناك وئام بين الديكتاتوريَّة والعلم؟!.

فلو كان هذا (التغيُّر) الذي يقول به المادي صحيحاً لوجب أن تتبدَّل ذرَّات الإيدروجين كلِّها إلى (هليوم) وأن تتبدَّل ذرَّات (الهليوم) إلى (ليثيوم) وهكذا حتى يصل الدور إلى (اليورانيوم)، فلا نرى في عالمنا اليوم عنصراً عدا عنصر (اليورانيوم) مثلاً! ولكنَّا نرى أن العناصر كلها موجودة إلى يومنا هذا. وهي من الانتظام والدقَّة والترتيب بحيث يتمكَّن العلم من إيجاد عناصر مجهولة استناداً إلى النظام الذي أودعه الله في سلسلة العناصر، كما أنَّ الأميبا (الكائن الحي ذا الخليَّة الواحدة) لا يزال موجوداً على وجه الأرض مع وجود حشرات وحيوانات وإنسان لها من الأعضاء والتشكيلات الداخليَّة وقوانين دقيقة ومعادلات ما لم يصل إليه العلم الحديث إلا قليلاً: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: الآية ٢٧].

قلنا إن النظام الذي أودعه الله في تسلسل ذرَّات العناصر المختلفة كان سبباً

لكشف عناصر مجهولة، كما أن دستور (نيوتن) في الجاذبيَّة بين الأجسام كان سبباً لكشف كوكبين مجهولين (نپتون) و(پلوتو). ذلك لأنّا نتمكّن من أن نحسب حسب هذا الدستور: ق = ط × $\frac{\text{ك ك}َ}{\text{م}^2}$

قوةَ الجذب بين الأجرام ومواضع هذه الأجرام ومداراتها، ولا بأس بتوضيح هذا الدستور:

ك تشير إلى مقدار كتلة نجمة في الفضاء (غرام ـ كتلة)

كَ تشير إلى مقدار كتلة نجمة أخرى في الفضاء (غرام ـ كتلة)

م تشير إلى المسافة بين النجمتين (بالسانتيمترات)

ط النسبة الثابتة وهي = $\frac{١}{١٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠}$ من ثقل الغرام تقريباً.

إذن، قوّة الجذب بين نجمتين في الفضاء أو كتلتين، تساوي حاصل ضرب كتلتيهما في النسبة الثابتة مقسوماً على مربع المسافة بينهما.

* * *

واضح أن دقائق النواة في الذرّة (أي الپروتونات) التي شحنتها موجبة يجب أن تتباعد بعضها عن بعض لاتحاد نوع الكهربائية، ذلك لأن شحنتها موجبة، مع ذلك، فإن الله تعالى قد جهّزها بطاقة فائقة تتغلّب على الخاصيّة الكهربائيّة المودّعة في الطبيعة بإذن الله: وهي (تباعد كهربائيّتين من نوع واحد بعضها عن بعض). وإن هذه الطاقة التي جُهزت بها نواة الذرّة لا يمكن أن تعزى إلى الطبيعة، لأن من شأن الطبيعة أن تُباعِد بين كهربائيّتين من نوع واحد، أي بين الپروتونات لأن شحناتها موجبة. فالله هو الذي قد أودع في النواة هذه الطاقة الهائلة لتقريب الپروتونات وجعلها كتلة واحدة، وهي إذا تحرّرت بوسائل شتّى (بتحطيم الذرّة) هدّمت ما حواليها فلا تبقى ولا تذر.

قد وفق «آينشتاين» لحساب هذه الطاقة الهائلة في بُنية النواة في الذرّة وعلم أنها تساوي: مربع سرعة الضوء مضروباً في كتلة المادة. فإذا فرضنا الطاقة = ط، وكتلة اليورانيوم مثلاً = ك، وسرعة الضوء = س.

فالطاقة المتحرّرة أو المودعة في كتلة ك تساوي

ط = ك × س^٢.

إذن في نواة الذرَّة يدٌ غيبيَّة تعاكس متطلَّبات الطبيعة وتفند ما يتخيَّله المادي الجاهل من نظريَّة (التغيُّر المستمر)، حيث (على ما يعتقد) لا نظامَ ولا ترتيب.

* * *

ومن جملة ما لا يرى بالعين من (ما لا تبصرون) المارد الذرِّي الذي كان يرهب العلماء منذ ٢٥ سنة، فقد أعلنت الجهات العلميَّة في ٢٠ تشرين الأول ١٩٥٥، أن الدكتور (ايرنست لورنس) قد توصَّل إلى اكتشاف المارد الذرِّي، هذا المارد الذي كانوا يشعرون بوجوده ولا يرونه، وهو جزيْء ذرِّي يسمَّى (الپروتون السالب). ويستطيع إفناء المادة من جميع أشكالها افناءاً تاماً. خلافاً لما كان يقوله (لاو وازيه): إن المادة لا تفنى! وكم من نظريَّات كان يُنظر إليها كحقائق ثابتة لا تقبل النقاش ولا التبدُّل، فذهبت أدراج الرياح. فهل بعد هذا يجوز أن يجعل العلم معبوداً يُعبد ويستغنى الفرد في سيره التكاملي عن رسالة السماء؟.. ليست القضيَّة قضيَّة علم ونظريَّات. إنها قضيَّة نفوس. فإن النفوس لو تردَّت وتسافلت ومرضت لا تذعن إلا بما تحقِّق شهواتها فتبرِّر موقفها متذرِّعة بالعلم! هذا العلم الذي تفند معطياته من وقت إلى وقت ويعوِّض عنها بمعطيات ونظريَّات أخرى وهكذا دواليك!

نعم، لقد وقف العلم الحديث على إ فناء المادة افناءاً تامّاً بالپروتون السالب. وهو موجود في طبقات الجو العليا. وإن عمره لقصير جداً، فلا يزيد على $\frac{١}{١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠}$ من الثانية[١].

فتسليط الپروتون السالب على الذرَّة يفني الپروتون الموجب وإن هذه العملية (عمليَّة الإفناء) تحرر $\frac{٩٩٠}{١٠٠٠}$ من الطاقة الموجودة في الذرَّة.

وقد علم أن (الپروتون السالب). منطلق في الفضاء حول الكرة الأرضيَّة، ومن شأنه إفناء جميع أنواع المادَّة التي تصطدم بها. ومن الصعوبة السيطرة على هذا الپروتون السالب. فإذا تمكَّن العلم من ذلك، فيكون إذ ذاك بالإمكان: توليد طاقة من رطل واحد

---

(١) واحد من ألف مليون جزء من الثانية.

من أيَّة مادة ذريَّة باصطدامها بالپروتون السالب تساوي الطاقة المتولِّدة من مليون ونصف مليون طن من الفحم. فيمكن إذ ذاك إفناء العالم بقنبلة زنتها عشرة أرطال فقط.

فالله تبارك وتعالى حفظ الكرة الأرضيَّة من أن تصطدم بالمارد الذرِّي (الپروتون السالب) المنتشر فوقنا في الفضاء، وذلك بجعله: «السماء سقفاً محفوظاً» بقدرته. وهو القائل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٣٢]. ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: الآية ١٠٥].

* * *

إنِ (الپروتون السالب) أو المارد الذرِّي هو (الپروتون) المضاد للپروتون الذي نعرفه في أرضنا هذه والتي تتكوَّن منها الذرَّات، فالعناصر، فالأجسام. كما أنه اكتشف أخيراً (الإلكترون الموجب) وهو الإلكترون المضاد للإلكترون الذي نعرفه وقد تكلَّمنا عنه في بحث الذرَّة. ففي الوجود نوعان مختلفان من المادَّة تبنى منهما النجوم والشموس والكواكب وسائر الأجسام. وإذا حدث أن التقى نوع منهما بالآخر أو تصادم معه تحدث عمليات إفناء ذريَّة تختفي معها معالم المادة من الوجود، بينما تنطلق طاقات هائلة منها: تلك التي استخدمت في الأصل في ربط جسيمات: نويات وذرَّات تلك المواد[1].

ولنرمز للنوع الأول من المادة ذات الپروتونات الموجبة والإلكترونات السالبة بالحرف (م) مثلاً، ولنرمز للنوع الثاني من المادَّة المضادَّة للأولى. أي ذات الپروتونات السالبة والإلكترونات الموجبة بالحرف (س). فعندما يتصادم (پروتون موجب) مع (پروتون سالب)، أو عندما يتصادم (إلكترون سالب) مع (إلكترون موجب) يعدم أحدهما الآخر من عالم الوجود، بينما تنطلق الطاقة الكليَّة حسب الدستور الآتي:

الطاقة المنطلقة = الكتلة الماديَّة المختفية × مربع سرعة الضوء.

وهكذا نرى أنه عندما تدخل ذرَّة من نوع المادة (م) إلى عالم المادة (س) أو بالعكس تفني الإلكترونات أولاً، ثم تفني الپروتونات.

---

(١) يؤدِّي تحطيم بعض الذرَّات إلى تحرير نيوترونات ذات سرعة كبيرة وإن النيوترونات المتحرِّرة حين التحطيم النووي تستطيع تحطيم ذرَّات أخرى. فينتج من هذا تفاعل متسلسل مستمر.

ويظهر مما ذكر أن الزوجيَّة متأصِّلة بأمر الله تعالى في أصغر موجود في هذا الكون وهو الذرَّة، ففيها إلكترون (كهربائيَّة سالبة) وپروتون (كهربائيَّة موجبة). حتى أنَّ المادة نفسها على نوعين أي أن الزوجيَّة متأصِّلة فيها: فالبعض منها إلكترونها سالب وپروتونها موجب، كما في العناصر المكتشفة لحد الآن وعددها: (١٠٢)، تبدأ بالإيدروجين وتنتهي بـ(نوبليوم). والبعض الآخر إلكترونها موجب، وپروتونها سالب.

ثمَّ إن الزوجيَّة متأصِّلة في النبات، (ففي الزهرة عضو التأنيث وعضو التذكير)، ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: الآية ٢٢]. وتشاهد الزوجيَّة في الحيوان وفي الإنسان، حتى في النجوم! فإن بعضها تدور حول البعض الآخر بعلقة الجاذبيَّة، كانجذاب الذكر للأنثى أو بالعكس. وهكذا نرى أن الآية: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريَات: الآية ٤٩] تتجلَّى بعد ١٤ قرناً تقريباً، وكذلك قوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: الآية ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الرُّوم: الآية ٢١].

حتى أنَّه تعالى جعل عدد تردد صوت المرأة (٢٢٠) في الثانية وعدد تردُّد صوت الرجل (١١٠) في الثانية، ليكون صوت المرأة أرفع وأجمل من صوت الرجل حصولاً للانجذاب الزوجي، وتحقيقاً للزوجيَّة في هذا الكون، لتكون الوحدانيَّة له تعالى لا يشاركه فيها شيء من مخلوقاته حتى الجماد: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ[1] فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١].

وها نحن نسأل المادِّي، هل وُجد (الإلكترون) قبلاً ثم خلق لنفسه پروتوناً أم بالعكس. وأين انعقد مؤتمر تنظيم العناصر والقانون الدوري والمعادلات التي تربط جسيمات الذرَّة بعضها ببعض وتتحكَّم فيها؟

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحجّ: الآية ٤٦].

* * *

---

(١) يذرأكم: أي يكثركم.

ويُرى أن العالم، مع هذا التقدم العلمي في عوالم المادَّة والذرَّة والطاقة ومطابقة ذلك مع ما جاء في كلام الله المجيد قبل أربعة عشر قرناً، يتقرَّب يوماً بعد يوم من الإسلام. ويأتي قريباً ذلك اليوم الذي يسود فيه الإسلام في العالم كله كما تنبَّأ (برناردشو) قبل بضع سنين، لو تخلَّى عن بغيه وطيشه ومجونه، رغم جهود عناصر الغي والضلال في الشرق والغرب لا سيَّما الصهيونيَّة الكافرة!. ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: الآية ١٠٤] . لذلك يقول: (تشارلس ستانيمتز) وهو من أعظم العلماء، حين يُسأل عن نوع البحث الذي سيحظى بأعظم تقدُّم في النهاية: إنه يقول: «سيحدث أعظم الاكتشافات في النواحي الروحية. فسوف يأتي اليوم الذي يعلم فيه الناس أن الأشياء الماديَّة لا تجلب السعادة وإنها قليلة النفع في جعل الرجال والنساء أقوياء قادرين على الإبداع. وعندئذٍ سوف يحول علماء الدنيا معاملهم إلى دراسة الله والصلاة. وعندما يأتي هذا اليوم يشاهد العالم في جيل واحد من التقدُّم أكثر مما شاهده في الأجيال الأربعة السابقة».

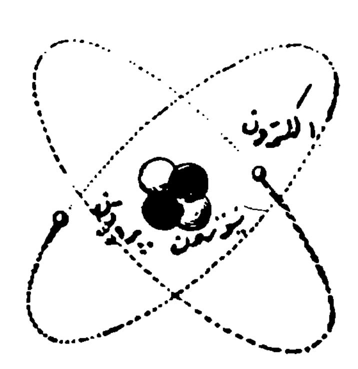
انظروا ماذا يقول الكاتب (هراس ليف) عن الإسلام. إنه يقول: «ما كان شيء في العالم ليقنعني بأن أي دين من الأديان يدعو إلى المساواة بين الناس، ولو أن بعضها يتظاهر بهذه الدعوة. فقد زرت كثيراً من الكنائس والمعابد، فرأيت التفريق بين الطبقات داخل المعابد كما هو خارجها. وكان اعتقادي بالطبع أن الأمر لابدَّ كذلك داخل المساجد الإسلاميَّة. ولكن ما كان أشد دهشتي حينما رأيت الشعور بالمساواة على أتمِّه بين المسلمين في عيد الفطر في مسجد (ووكنج) بلندن. وجدت أجناساً مختلطين على اختلافهم في المراتب اختلاطاً لك أن تسميه بحقٍ أخوياً. ولم أكن شاهدت مثل ذلك. ترى في المسجد (نوبياً) من بلاد (ممباسا) يصافح عظيماً من رجال الأعمال في مصر أو سياسياً من بلاد العرب، وقد ارتفعت الكلفة بين الجميع. فلا يأنف أحدهم مهما عظم قدره من أن يجاوره في الصلاة أقل الناس شأناً. وإنك لا تجد أقل محاولة لتخطي الصفوف إلى مكان ممتاز بالمسجد. لأنه ليس هناك أي مكان ممتاز. فالكل عند الله سواء. لا فضلَ لأحد على سواه. وعندما صرَّح لي إمام

المسجد بأنَّ المسلمين يعتقدون رسالة جميع الأنبياء ويؤمنون بما أنزل إليهم كدت لا أصدِّق أُذني. وكان هذا جديداً استفدته عن الإسلام. لذلك لم أعد أشك في أن هذا الدين يصلح لأن يكون ديناً عالمياً».

فلابدَّ للمسلمين من تضحية مخلصة ولابدَّ للدعاة من التجهُّز بأسلحة القرن العشرين من أساليب الدعوة والإرشاد ومن معطيات العلم الحديث والتزوُّد بالتقوى إلى أبعد حد. والتجرُّد عن كل نزعة عدا الإسلام. فإن فاقد الشيء لا يعطيه، إنه تعالى يقول:

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقَرَة: الآية ١٩٧] .

* * *



شكل: ٧. أحدث شكل لذرَّة الهليوم، إلكترونان في الأطراف يدوران حول النواة وفيها پروتونان ونيوترونان.

قلنا إن من جملة ما لا يمكن إبصاره حتى بالآلات الدقيقة هو (الذرَّة)[1]. ومع ذلك كله، فإن العلم الحديث قد استخدم ما كان يعرفه من: قوانين الكتلة والطاقة في استنباط صفاتها وتركيبها وخواصِّها مع كونها غير منظورة. ولقد أيَّدت القنبلة الذريَّة الأولى ما كشفت من قوانين ونظريَّات حول تركيب الذرَّة غير المنظورة ووظائفها.

إن العلم الحديث قد استدلَّ على تلك الظواهر التي تتعلَّق بالذرَّة بآثارها وهي من ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحَاقَّة: الآية ٣٩] معتمداً في ذلك على الاستدلال المنطقي الصرف

---

(١) حجم الذرَّة بالنسبة إلى تفاحة كحجم التفاحة بالنسبة إلى الأرض. وحجم كل من الپروتون أو النيوترون أو الإلكترون بالنسبة إلى الذرَّة كلها كحجم حبة من العدس بالنسبة إلى الهرم الكبير.

وعلى ما كان معلوماً من حقائق أوَّليَّة بسيطة تتعلَّق بهذه الظواهر والأشياء.

فحري بالمادي الذي يعترف بالذرَّة ويستخدمها في حقول شتى ويستدل بالآثار على وجودها ووجود الإلكترونات فيها وهو لم يرَ شيئاً منها حتى بالآلات، أن يتبع نفس الطريقة في الاستدلال على وجود الله تبارك وتعالى وأن لا يقول: لا سبيل إلى الاعتقاد بغير المنظور... مع العلم أن غير المنظور في هذا الكون المادي أشد تأثيراً وفعاليَّة من المنظور: كالكهرباء والمغناطيسيَّة وأمواج (هرتز) إلى ما هنالك. فالعالم المادي كله قوى كهربائيَّة ومغناطيسيَّة وجاذبيَّة، وكل أولئك من النوع غير المنظور.

وما أعظم قول الله تعالى حين يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦].

ويقول تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: الآيتان ٢٠/ ٢١]. فلا يستفيد من هذه الآيات التي أودعها الله أرضه وسماءه إلا من كان له شيء من الإيمان. فإن حب الله ومعرفة الله أعلى وأسمى من أن يحل نفوساً مدلهمة، ظلماء بذنوبها وآثامها ومجونها وبغيها.

وهكذا يقول جلَّ من قائل: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: الآية ١٠١]. فلابدَّ من إيمان (ولو كان هذا الإيمان ضعيفاً جداً)، كي يعتبر الفرد بما أودع الله من نظم وقوانين في أرضه وسمائه. ولكن المادي، لظلمات في نفسه، لا يؤمن إلا بما تمليه عليه نفسه المتسافلة المريضة، ومهما سمي ذلك فلسفة! أو نظريَّة علميَّة ديالكتيكيَّة فهو مرض ولوث ورجس، بعد تفنيد العلم الصحيح كل ذلك. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: الآية ١٢٥].

فلا دينَ على وجه الأرض منذ خلق الله تعالى الأحياء عليها، إلا الإسلام. بحكم العقل وبحكم العلم الصحيح وبنصوص من الكتاب. لا الظنون والأهواء ونظريات تجرح بعد زمن يسير. لذلك يقول تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ

يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨٣] . ومن معاني الإسلام هنا: أن ليس ما في السماوات والأرض شيء غير محتاج في وجوده وبقائه وفنائه إلى قدرة الله وإلى قول الله تعالى: (كن) وإلى مشيئة الله وإرادة الله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٤٤] .

فما من شيء في الكون إلا وهو ينادي، لما فيه من نظام وجمال وكمال، بعظمة الله تعالى، يسبِّحه ويقدِّسه. أليست هذه القوة: قوة الجذب بين الكرات. هذه القوَّة التي يجهل حقيقتها العلم الحديث، تدل على أن الكون يسير بإرادة الله تبارك وتعالى مشيئته؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فَاطِر: الآية ٤١][١] .

وما أعظم ما جاء في دعاء علّمه أمير المؤمنين علي عليه السلام كميلاً حين يقول: «اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء» . . . (إلى أن يقول) «وبعظمتك التي ملأت كل شيء، وبسلطانك الذي علا كل شيء، وبوجهك الباقي بعد فناء كل شيء، وبأسمائك التي ملأت أركان كل شيء، وبعلمك الذي أحاط بكل شيء، وبنور وجهك الذي أضاء له كل شيء، يا نور، يا قدوس، يا أوَّل الأوَّلين ويا آخر الآخرين»[٢] .

حقاً: إن من يتتبَّع العلوم الحاضرة وما اكتشف من حقائق وعوالم ونظم ودساتير وخواص لا تعدُّ، يعلم أن ما جاء في الدعاء المتقدِّم يفسِّر تماماً حالة الأجسام اعتباراً من الذرَّة إلى السماوات العلى، فكل شيء (لو حُلِّل تحليلاً نهائياً) يضيء بنور الله ويقدِّس الله تعالى وينزهه من كل نقص، وينادي بصوت رفيع: أن لا إله إلا الله العلي القدير: خالق الطاقات ومرتبها ترتيباً حكيماً حتى كانت هذه الذرَّات وتلك العناصر بهذا النظام الخارق الدقيق: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرَّعد: الآيتان ٨/٩]، وهكذا السماوات، فالمجرَّات، فالأرضون، فالنباتات، فالحيوانات، فالإنسان. وأمَّا كيفيَّة خلق الله تعالى الملائكة والإنسان

---

(١) إن أمسكهما: أي ما امسكهما.

(٢) راجع كتاب مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

والسماء والأرض، فذلك ما نجهله. إذ يبدو التطلُّع على ذلك مستحيلاً على حد قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: الآية ٥١].

تدبروا هذا الدعاء وهو دعاء لطلب العافية، علّمه النبي ﷺ علياً عليه السلام، لتروا كيف أنَّ كل ما في الكون يسبِّح الله وينزِّهه عن كل نقص:

«اللهم إني أسألك بأنك سبوح، قدُّوس، يسبِّحك سوادُ الليل وضوء النهار وشعاعُ الشمس ودويُّ الماء وحفيف الشجر ونجوم السماء وثرى الأرض وأمواج البحار وصخور الجبال ودوابُّ البحر.

أسألك يا ربِ، يا أحد يا فرد يا صمد. في السماء ميعادك وفي الأرض قضاؤك وعلى العرش استواؤك، وفي الجنة رحمتك وفي النار عذابك، والملائكة جنودك، يسبِّحونك ويقدِّسونك ويهلِّلونك الليلَ والنهارَ لا يفترون. لا إله إلا أنت الملك الجبَّار الحنَّان المنَّان الديَّان الرحمان، بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام.

أسألك بأسمائك الحسنى وأمثالك العليا وبرهانك العظيم وحجَّتك البالغة أن تصرف عني شر ما أجد من الداء وشر ما أخاف وأحذر»[١].

* * *

بعد أن عرفنا شيئاً عن تركيب الذرَّة (Atome)، هذا التركيب الذي يحيِّر العقول وهو أساس لجميع ما في هذا الكون الماذِّي من عناصر ومركبات، يجدر بنا أن نتساءل حامل الفكرة الماديَّة الديالكتيكية (الماديَّة العلميَّة النظريَّة)! كيف يوفِّق بين حقائق الذرَّة وبين نظريَّته الهوجاء.

يقول (ستالين)، وهو الذي لم يدرِّس شيئاً عن علم الذرَّة وحقائقها وإنَّ ذكاءه المحدود كان أقل من أن يمكنه من أن يتخصَّص في الفيزياء الرياضيَّة العالية أو الميكانيك الرياضي أو الميكانيك السماوي (Mécanique Céleste) إنه يقول[٢]: «إن الديالكتيك معناه دراسة التضاد في ماهيَّة الأشياء. وإن النمو إنما هو نتيجة صراع بين الأضداد»؟!.

---

(١) هذا دعاء مقتطع من أدعية وداع شهر رمضان.

(٢) نقلاً عن مذكَّرات لينين الفلسفيَّة!.

ما هو هذا التضاد الذي نشاهده في الذرَّة وما هو هذا الصراع؟. إنما نحن نرى أن هناك التياماً وتآلفاً وتوافقاً و(تفاهماً؟!) بين الإلكترونات والپروتونات، تحت نظام بديع وإن الإلكترونات تدور حول الپروتونات بنظام وهي مجذوبة إليها كما في المنظومة الشمسيَّة[١]، لا اختيار لها ولا إرادة. وإن إرادة خارجية وهي إرادة الله، جلَّت عظمته، جعلت هذه الإلكترونات تدور حول النواة وأن تتوزَّع على مدارات معيَّنة بفواصل معيَّنة، تحت حكمة فائقة، بحيث لو اختلَّ النظام المودَّع فيها، لما كانت في الوجود: ذرَّة (هليوم) أو (ليثيوم) أو حديد أو (كالسيوم)... إلى ما هنالك.

حقاً إن (لينين) و(ستالين) لو كانا من حيث الدراسة في مستوى عالٍ، (وكيف يكون السفاك محققاً وعالماً؟) لما جاءا بهذه النظريَّات التافهة الواهية رغبة في القضاء على من لم ينتم إلى مذهبهم الرجعي، المذهب الجنوني. هذا المذهب الذي لا يقرُّه ولا يعترف به (لو كان حراً) من له أدنى إلمام بالعلوم الحاضرة، إلا إذا كان ممَّن تلوَّثت نفسه بما كسبت يداه من جرائم وآثام.

لذلك يقول (لورد كيلڤن) وهو الفيزيائي البارع: «إذا فكرت تفكيراً عميقاً، فإن العلوم سوف تضطرُّك إلى الاعتقاد بوجود الله»[٢].

فأنت لا ترى في حركة الإلكترونات حول الپروتونات حركة عشوائية أو سلوكاً جنونياً (كسلوك المادي) دون قصد وغاية.

وقد وجد (مانداليف)[٣] بلطف من الله تعالى منذ ١٠٠ سنة قانوناً في ترتب العناصر، وذلك أن العناصر الكيمياويَّة (كالإيدروجين والحديد والراديوم... الخ) قد رتَّبها الله تعالى تبعاً لتزايد أوزانها الذريَّة ترتيباً دورياً. وإن العناصر التي تقع في قسم

---

(١) ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [المُلك: الآية ٣].

(٢) وهو القائل: «إن كل حادثة فيزيائيَّة لا يمكن أن يعبَّر عنها بدستور رياضي ليست بحادثة معروفة فيزيائياً». وهذا خير دليل على وجود الله تعالى وعظمته سبحانه.

(٣) وقد أعلن سنة ١٩٥٥م كشف العنصر ١٠١ (أي الرقم الذرِّي: ١٠١) وسمّي تقديراً لـ(مانداليف): واضع أسس التصنيف الدوري للعناصر: ماندالويوم (Mendelvium Mv 101) أي أن في هذا العنصر ١٠١ پروتون و١٥٥ نيوترونا فيكون الوزن الذرِّي ١٠١ + ١٥٥ = ٢٥٦.

واحد تؤلِّف فصيلة واحدة وتكون لها خواص متشابهة. ولذلك تمكن العلماء بفضل هذا الترتيب أن يتنبأوا بوجود عناصر لم يكن قد عُلم بها قبلاً. حتى أن العلم قد تنبأ بفضل هذا الترتيب بخواص هذه العناصر المجهولة وجاءت صفاتها مطابقة تماماً للصفات التي توقعوها مستفيدين من القانون الذي وجدوه. وهل يمكن أن يسمَّى ما اكتشفه (مانداليف) بالمصادفة الدوريَّة؟ أو يحق لنا أن نسميه بـ(القانون الدوري).

وكم من قوانين ومعادلات وما أجري عليها من أعمال رياضيَّة قد أنبأت عن حقائق جديدة وسبَّبت مكتشفات حديثة، يعلم ذلك من درس الفيزياء الرياضيَّة العالية، وما يستعمل هنالك من معادلات تفاضليَّة دقيقة. فهل للطبيعة العمياء، أن تسنَّ آلاف القوانين وأن تنظمها تنظيماً يحيِّر الألباب، حتى يكون هذا العالم الذي نشاهده ونراه.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ[1] ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النَّمل: الآيتان ٦٠/ ٦١].

إذا كان كما يقول: (كارل ماركس): إن الأشياء إنما وجدت نتيجة التكامل في الأضداد! فليوضح لنا كيف أن الشيء أوجد ضدَّه، وكيف أنّ الرجل أوجد لنفسه أنثى. لذلك يقول (مونتني) وهو أحد فلاسفة فرنسا: «مهما يكن من شيء، فليس للرجل أن يخلق لنفسه امرأة لها عضو التناسل إبقاءً للجنس البشري. فالله تعالى هو الذي خلق المرأة كما خلق الرجل وهكذا بقيَّة الحيوانات والحشرات والنباتات».

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الرُّوم: الآية ٢١].

أنى للكهربائية السالبة: (الإلكترون) أن توجد لنفسها كهربائيَّة موجبة، ثم تترتَّب ترتيباً بديعاً لا تحيد عنه ولا تتغيَّر، منذ خلق الله الذرَّة، خلافاً لما يقوله المادي من (نظريَّة التغير) التي لا يحقِّقها العلم الحاضر. إن هي إلاَّ نظريَّة عشوائية كواضعها

---

(١) يعدلون بالله غيره، أو يعدلون عن الحق.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1] [الزُّخرف: الآيتان ٣٦/ ٣٧].

نحن لا نرى أي تضاد في الذرَّة، فهل المرأة ضد الرجل، بل نرى في الذرَّة وفي كل زوجين خلقهما الله تعالى تكاملاً وتوافقاً. فلا تتم الحياة ولا تستقر ولا تستمر إلا بذكر وأنثى. ولا تتم الذرَّة ولا تتحقَّق إلا بالإلكترون والپروتون. فهذه هي الزوجيَّة التي أودعها الله تعالى في جميع ما خلق حتى في الجمادات لتبقى الوحدانيَّة له تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريَات: الآية ٤٩]. ولذلك يقول الدكتور (جورج إيرل دافيز) رئيس البحوث الذريَّة: «إن كل ذرَّة من ذرَّات هذا الكون تشهد بوجود الله. وإنها تدل على وجود الله حتى دون حاجة إلى الاستدلال: بأن الأشياء الماديَّة تعجز عن خلق نفسها».

وقد علمنا أن ذرَّة (الإيدروجين) مركبة من إلكترون واحد يدور حول پروتون واحد. فكيف يفسِّر لنا المادي حدوث الهليوم: المشتمل على إلكترونين يدوران حول (پروتونين) من ذرَّة الإيدروجين حسب قانون التغيُّر! أو نظريَّة التضاد!؟. فكان يجب إذن أن تتحوَّل جميع ما في الكون من إيدروجين إلى هليوم وأن لا نرى في العالم في وقت من الأوقات إلا (الهليوم). فلا يبقى على وجه الأرض (إيدروجين) فتجف البحار وتيبس الأشجار. لأن جميعها مركَّبة من إيدروجين وعناصر أخرى. ثم أين التحول الذي يقول به المادي وهو: «إن التغيرات الكميَّة تتحوَّل إلى تغيرات كيفيَّة!». وهل للمادة الصمَّاء أن تغيِّر نفسها حتى يحدث نتيجة لذلك عالم كله نظام وانتظام وقوانين ثابتة ومعادلات لا يصل إلى كنهها العقل البشري مهما أوتي من قوة وكمال.

ليس العلم بهذه الدرجة من الضعة حتى يتغيَّر حسب أهواء الفلاسفة الماديِّين المتطفِّلين على العلم. وليس العلم مجرَّد مقترحات تكشف عن نفس متسافلة، رائدها الهدم والتخريب!

ألا يفكِّر هذا المادي أنه حسب نظريَّته الماديَّة الديالكتيكية السخيفة يجب أن لا

---

(١) يعش: يتعامى، نقيِّض: نهيئ.

يكون اليوم في الكون إلا عنصراً واحداً وهو (أورانيوم) مثلاً، ذلك لأن حسب (هواه) قد تكاملت العناصر كلها وفق قانون الأضداد والتغيُّر الذي يقول به وتحوَّلت إلى عناصر أخرى. فإذن يجب أن لا يبقى إلا عنصر واحد وهو (الأورانيوم)!

وهكذا القول في الأحياء، حسب هذه النظريَّة السخيفة، يجب أن لا يبقى في الكون إلا الإنسان الذي قد تكامل من (آميبا): وهو الكائن الحي ذو الخليَّة الواحدة. وأن لا يكون في الوجود من الكائنات الحيَّة غيره..

ثم كيف يفسِّر لنا المادي نظريَّة التضاد في تركيب الماء (H_2O)، ما هو هذا التضاد الذي نشاهده بين الأوكسيجين والإيدروجين وما العداوة التي نشاهدها بين (الكلور) و(السوديوم) ClNa في ملح الطعام وبين الكلور والإيدروجين في (آسيد كلوريديك): HCl. بل هناك تركيب علمي وتقارب وتوافق أودعها الله تعالى في جزيئات هذه الأجسام لحدوث هذا العالم.

* * *

ثم إن المادي الديالكتيكي لا يرتضي للإنسان هذا المنطق العظيم الذي وهبه الله إيَّاه، فكان السبب بإذنه تعالى لكل ما اكتشف من علوم تدل على عظمة الخالق، هذا المنطق الذي بُنيت عليه القضايا الهندسيَّة والرياضيَّات العالية والفيزياء العالية وعلم الفلك العالي والكيمياء ومكتشفات الذرَّة، فيسمَّى هذا المنطق مع الأسف: المنطق الشكلي، ثمَّ يأتي بمنطق في غاية السخافة (منطق الهدم والردم). منطق المتناقضات ويسمِّيه بالمنطق الديالكتيكي.

أسفاً على ما بلغ إليه العلم في القرن العشرين، علم يتحكَّم فيه جبابرة طغاة بنظريَّات سخيفة تبريراً لموقفهم التخريبي في العقائد والنفوس.

يقول هذا المنطق السخيف: المنطق الديالكتيكي، إن الشيء يكون صحيحاً وغلطاً في نفس الوقت، ويمثِّلون لذلك (فرضيَّة دالتون) في تركيب العناصر. وإن هذه النظريَّة فنِّدت لثبوت ما فيها من أخطاء وقام مقامها نظريَّة (روتفورد) بشأن الذرَّة. فالمنطق الديالكتيكي! يقول إن فرضيَّة (دالتون) كانت صحيحة ومغلوطة في نفس الوقت. وهذا

مما يضحك الثكلى، فالدستور لا يكون صحيحاً وخطأ في نفس الوقت، ذلك لأنه لو كان خطأ كانت النتائج التي تؤخذ بتطبيق ذلك الدستور خطأ لا محالة. إن المنطق الديالكتيكي يقول إن دستور نيوتون في الجذب العام بين الكرات والأنجم: $ق = ى \times \frac{ك كَ}{م^{٢}}$

كان صحيحاً وخطأ في نفس الوقت. وفاتهم أن (أينشتين) رأى أنَّ هذا الدستور لا يعطي النتائج الصحيحة لو طبق في مسافات بعيدة، فأدخل البعد الرابع وهو الزمان في دستور وضعه، ذلك لأنه رأى أنَّ سرعة الأجسام دخيلة في حساب مقدار الكتلة، والسرعة يدخل فيها مفهوم الزمان. فلذلك صحَّح دستوراً وضعه (نيوتون) وجاء بدساتير أُخرى دقيقة لا مجال إلى ذكرها. فكيف إذن يكون الشيء صحيحاً وغلطاً في نفس الوقت؟!.

إنما يعترف المادي بهذا المنطق الديالكتيكي السخيف، كي يثير العمَّال والنَّاس فيحرِّك عواطفهم ويخلق منهم أعداءاً يفتك بعضهم ببعض. إن رائده الفتك والبطش. إنه يعترف بهذا المنطق الواهي: إن ما يوجد من دساتير وقوانين صحيحة وخاطئة في نفس الوقت، كي يبرِّر موقفه في وضع قوانين اجتماعيَّة مغلوطة تخالف ما طبع عليه الإنسان، تخالف ما ثبت في علم النفس من غرائز وخصال، وحمل الناس جبراً على تقبُّلها، كل ذلك تبريراً لديكتاتوريَّة فئة قليلة تريد أن تحقِّق لنفسها شهوة الحكم والسيطرة باسم إنقاذ العمَّال والفلاَّحين! وهم ومع الأسف في أسوأ حال، بعيدون عن الحكم كل البعد. فئةٍ تريد سيطرة اليهود على العالم بعد سحق الفضائل والمقدَّسات والدين.

يقول المادي: إن النظام الرأسمالي صحيح وخطأ في نفس الوقت، إنه يحفر قبره داخل كيانه حتى يزول فتأتي الشيوعيَّة وهي التي تسود العالم في النهاية وتلك نهاية العالم، فلا نظام بعد ذلك. فلماذا يتوقَّف هذا المنطق الفاسد: (صحيح وخطأ في نفس الوقت) عند هذا الحد؟ فلماذا لا تحفر الشيوعيَّة قبرها بيدها داخل كيانها؟ فتزول ويسود في الأرض، بإذن الله، نظام عادل، لا رأسمالية ولا شيوعيَّة، نظام ارتضاه الله لعباده في أرضه: وهو نظام الإسلام.

* * *

نعم، إن ما رتبه المادي من قوانين وإن سماها، لإغواء الناس، علميَّة، نظريَّة! ولكنها تخريبيَّة، صهيونيَّة حقاً، يريد من ورائها سحق الفضائل والمقدَّسات والأخذ بهذا الإنسان إلى جاهليَّة جهلاء وإلى أسفل السافلين.

أجل، لو تسافلت الإنسانيَّة في بعض بلدان العالم حتى جعل الأولاد والبنات بضاعة ماديَّة يتصرَّف فيها الديكتاتوريون باسم المجتمع والپروليتاريا[١] كيفما شاؤوا وأخمدت الحريَّات باسم التقدُّم! وأمسى الفرد آلة صمَّاء لا حرمة له ولا إرادة، وكان رائد المجتمع وبالأحرى رائد الديكتاتوريِّين مادياً بحتاً لا ينبض فيه شيء من المعنويَّات، والمقدَّسات، فعلى مثل هذا المجتمع السلام!.

فلا نجاة لهذا العالم إلا باتباع الإسلام وتطبيق تعاليمه الخالدة خلود الدهر.

* * *

وإن الروح من غير المنظور، وكل منَّا يعترف بالروح ولا يقوى على مشاهدتها كما يشاهد الخشبة. إلا أن وجودها أثبت وأوضح من وجود الخشبة. لتعلُّقها بنا تعلُّقاً لا يقبل الانفكاك.

فالمخ والجهاز العصبي كآلات الراديو. فكما أنَّ آلات الراديو ليست من حقيقة الصوت الإنساني في شيء، كذلك الأقسام المادية في المخ الإنساني والجهاز العصبي، فهي ليست من الروح المجرَّدة في شيء. فالروح التي لا ترى بعيوننا تقوم بما تقوم به من أعمال مستعينة بالمخ والمخيخ... إلخ. كما يستعين الشخص بالراديو لإيصال صوته إلى حيث يريد. فإذا أصيبت آلة الراديو بعطب لا تقوى على التقاط الصوت وكذلك المخ، وليس المخ من الروح في شيء، كما أنَّ النفس غير المخ، فإن النفس لا تفنى بعطب يصيب بعض أجزاء المخ، كالنسيان (مثلاً).

وقد قال الفلاسفة، وكذلك الإلهيُّون: إن الروح جوهر مجرَّد عن المادة وعوارض المادة وإن اتصال الروح بالبدن هي اتصال تدبير وتصرُّف، أي أنَّ الروح أو النفس تتصرَّف بالبدن وتقوم بتدبيره وعندما يموت الإنسان ينقطع هذا الاتصال بين الروح والبدن.

---

(١) الپروليتاريا Prolétariat: طبقة العمال.

وقالوا: إن نفس الإنسان جوهر روحاني مجرَّد قائم بذاته، ذلك لأنَّ نفس الإنسان تعرف وتعرف أنها تعرف أيضاً وهكذا . . . وإنَّ المعرفة ليست من خواص الجسم. فإذن وجب أن تكون النفس شيئاً مجرداً عن المادة. ثم قالوا: إن المادة لو انتقشت عليها صورة تبقى هذه الصورة منقوشة عليها إلى أن تنقش عليها صورة أُخرى. فيحصل اضطراب من انتقاش الصورتين فيكون شكلاً غريباً، حين أن النفس ليست كذلك. تنتقش فيها أنواع المعارف والمعلومات دون أن يؤدِّي إلى شكل غريب أو ارتباك أو يؤدِّي إلى محو الصورة الأولى. فهي إذن ليست من نوع المادة، ومعلوم أن الإنسان يزداد فهماً كلما ازداد علماً.

وقد قال الماديُّون: إن المخ إذا أصيب بعطب تأثرت العقليات بل الأخلاق وغيرها. وجعلوا ذلك دليلاً على أن المادة هي كل شيء، ونفوا وجود الروح وهي من أوضح الواضحات. وقد فات هؤلاء أن المادة ضروريَّة لإظهار شيء خفي عنَّا. ومثلها مثل عدَّة (التليفون). فإنها ضروريَّة لسماع صوت مَن يتكلَّم، وإذا أصيب التليفون بعطب اختلَّ الكلام ووقف. ولكن التليفون وأعني الآلة أو (المسرة) ليس منشأ الكلام مطلقاً.

ثم ألا يرى الإنسان نفسه، في حلمه (في عالم الطيف)، في أماكن بعيدة أو في بلاد أخرى نائية، وهو ملقى على فراشه، نائم في غرفته. فمن هذا الذي سافر إلى بلاد أخرى وهو مضطجع في فراشه؟ هذه هي روحه التي بين جنبيه[1]، روحه التي يُسأل عما قريب عن أفعالها وأعمالها، عن كل صغيرة وكبيرة جاءت بها في ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعراء: الآيتان ٨٨/ ٨٩].

إنِ الفسق والظلم يسدان على النفس الإنسانيَّة أبواب الرحمة وهذا بدوره يؤدِّي إلى اتباع هوى النفس وما يُملي عليها شيطانها على حد قوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٩]. وليس هناك جامع بين الفسق والإيمان: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السَّجدَة: الآية ١٨].

---

(١) ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزُّمر: الآية ٤٢].

فلنفس المؤمن المتقي رشحات. كما أن النفس الفاجر المفسد رشحات أيضاً. إن الله تعالى يقول: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: الآية ٢٨] فرشحات نفس المؤمن: الإيمان بما غاب عنه عن تعليل صحيح ومنطق واضح جلي يتجلّى لعقل الإنسان الفطري غير الملوَّث بالآثام. ورشحات نفس الآثم الفاجر الفاسق: الركون إلى المادة العمياء والإخلاد إلى الأرض ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ[1] وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٦] والاعتقاد بالمحيط والبيئة وعوامل أخرى ماديَّة وأفكار ما وراء المادة أو الطبيعة.

وليس المنطق والدليل في هذا المقام بعد ادلهمام النفس وظلماتها بالشيء الذي يزيح المادي عن غيه وطيشه. فهو مأنوس بما وصلت إليه نفسه البهيمية البعيدة عن رحمة ربها من انحراف وميول سلبيَّة ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٥٣]. فالضال لا يعي ما هو عليه من ضلال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحِجر: الآية ٧٢][2].

وهكذا يوضِّح الله تعالى حال أولئك الذين نسوا تذكير الله إياهم وفرحهم واغترارهم بالنعم التي تغدق عليهم أي بهذا الاستدراج الإلهي (ونستجير بالله من ذلك) وذلك بقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: الآية ٤٤][3].

إنه تعالى يقول: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: الآية ٢٨][4]. فإن قلباً كهذا بعيد عن تلقي كل ما يهدي إلى الصواب إلا إذا تاب وأناب وتخلّى عن طيشه وغروره وأعقب أعماله السيِّئة بحسنات: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هُود: الآية ١١٤].

هذه هي فلسفة الهداية والضلال الحقة بشكل واضح لا تعقيد فيه. إنه تعالى

---

(١) أخلد إلى الأرض: أي مال إليها ودام فيها واتبع ميله الشهواني.

(٢) يعمهون: يتحيَّرون، عمه: تحيَّر وضل

(٣) مبلسون: أي متحيِّرون، آيسون.

(٤) فرطاً: إسرافاً، خارجاً عن طريق الحق.

يقول: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: الآية ١٠٨]. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٨]. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٤]. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: الآية ٥٢]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: الآية ٢٨]. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٦٣].

وإن الله تعالى لا يضرُّه كفر الكافرين وجحد الجاحدين. ذلك أنه تعالى يقول: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ[1] عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾[2] [الإسرَاء: الآية ١٨]. ثم يقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ[3] بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ[4] عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ[5] ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا[6] وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا[7] وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزّخرف: الآيات ٣٣/ ٣٥].

* * *

إن دين الإسلام دين تطهير ودين تزكية النفوس. فما لم تأخذ هذه النفس في التدرج في مراحل التطهير، لا تفتح لها أبواب الهداية. وكل ما جاء في الدين الإسلامي من أوامر ونواه ومستحبات ومكروهات: كلّها ترمي إلى تطهير هذه النفوس مما علّق بها من أدران وأوساخ معنويّة. وبمقدار طهارتها يحصل لها يقين بالمقدّسات وبما غاب عنها من عوالم، فيراها حقائق ناصعة لا غبار عليها. فتكون البراهين مؤيّدة لما يترشّح من نفسه الطاهرة.

---

(١) أي الحياة العاجلة وهي الدنيا.
(٢) مدحوراً: مطروداً.
(٣) أي لولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكفار في سعة.
(٤) معارج: مصاعد جمع معرج.
(٥) يظهرون: يعلون إلى فوق.
(٦) زخرفاً: زينة.
(٧) ولكن كل ذلك تمتع قليل في الحياة الدنيا.

إنه تعالى يقول: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: الآية ٦]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٢]. ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: الآية ١٠٨].

فدين الإسلام دين تطهير النفوس لو عمل به وطبق تطبيقاً تاماً.

وإن أعداء الإسلام يعملون لأجل إشاعة الفواحش بأنواع الوسائل: بالصحف والمجلاَّت بما فيها من تصاوير خلاعيَّة وكتب غراميَّة وأفلام سينمائيَّة وتمثيليَّات شهوانيَّة ثم بتهيئة حانات الخمور وإيجاد محلات الزنا والفجور، كي تتلوث النفوس. فإذا تلوَّثت لم يكن في النفس عندئذ محل يحل فيه حب الله تعالى وذكره، تحل فيه المقدَّسات والفضائل. ومن ثم يأتي دور الإنكار والجحود! فترسخ أقدام المادية في النفوس وتكون المادة معبودة لها، كما كان فريق من الناس يعبدون الأصنام من ذي قبل ولحد اليوم.

* * *

وقد قرأت ما كتبه شاب في إحدى المجلاَّت وقد بلغ من العمر ١٩ سنة: «إن أكثرية الشباب الساحقة منصرفون إلى أعمال منكرة، أعمال تقشعر منها الجلود بإفراط لا مزيد عليه وبصورة غير مشروعة. إن هذا الانهماك في الفسوق لا يدع مجالاً للشاب كي يفكِّر في مصيره وتكميل نفسه والتوجُّه نحو المقدَّسات. فإن اختلاط الجنسين في شتَّى المجالات وغيره من عوامل شتَّى قد فسحا مجالاً واسعاً للإشباع الجنسي بشكل فظيع. وهذا بدوره يجعل الشاب غير ميال بالقيم الأخلاقيَّة والفضائل والمقدَّسات وبالدين بعد تلويث نفسه بيده. فلابدَّ من معالجة جذريَّة تبعد الشاب عن هذه المزالق لو أريد بالشاب الهداية والكمال الخلقي وتقديس المقدَّسات. فإن النصيحة وحدها لا تكفي لردع الشاب عن غوايته!».

ومن هنا يعلم قيمة ما وضعه الإسلام من قوانين صارمة تمنع اختلاط الجنسين وما يؤدِّي إلى التفسخ الخلقي ومن ثم إلى تلويث النفوس واستهزائها بالمقدَّسات! ﴿ثُمَّ

كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا السُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الرُّوم: الآية ١٠] .

* * *

نعم، قد أخذ الماديُّون في أوروبا، هؤلاء الذين قد تحجَّرت عقولهم بعد أن تلوَّثت نفوسهم، ينكرون كل ما لا يقع تحت أبصارهم أو حواسِّهم الخمس. مع العلم أن هذه الحواس ناقصة إلى حد بعيد في قابلياتها وإمكانياتها. وهي تعمل على قدر ما أودع الله فيها من كفاءات. لذلك يستعان بآلات أخرى تزيداً لقابليَّة بعض الحواس من إبصار وسماع... إلى ما هنالك. وكلما زادت حساسيَّة هذه الآلات كلما تعرف الإنسان إلى أشياء كان يعتقد أنها غير موجودة من ذي قبل. حتى استعمل (ميكروسكوب إلكترونيك) حيث تكبر الجرثومة بواسطتها (٧٠٠٠٠) مرة. ولعلَّ الله تعالى يوفِّق في المستقبل بعض المتتبِّعين إلى تكبير بعض الميكروبات الصغيرة جداً إلى مليون مرَّة أو أكثر. وهكذا تتجلَّى للإنسان بما يلهم الله تعالى بعض المشتغلين في الفيزياء وعلم الأحياء عوالمُ عجيبة كانت تعد إلى زمن قريب من (غير المنظور).

ويجب أن لا يعزب عن البال أنَّ الحواس الخمس إنما هي آلات يستعان بها (على ضوء ما تعطي من معطيات) على ربط الحوادث بعضها ببعض، ثم الاستقراء فالاستنتاج... إلخ. والمهم هو هذا العقل الإنساني الفعَّال: هذا الذي يضع دساتير العلوم ويربط بين معطيات الحواس (بقدر ما توصَّل إليه العلم المادي) بالفطرة دون اللجوء إلى تجربة سابقة. ولا ريب أن هذا العامل المهم في الربط وأعني به العقل، هو من (غير المنظور). لذلك يقسم الله بغير المنظور بقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحَاقة: الآيتان ٣٨/ ٣٩]. كما أن قوة الجاذبية من (غير المنظور).

والنفس الإنسانيَّة هذه التي يعبِّر عنها بـ(أنا) من النوع غير المنظور. فـ(أنا) هو غير هذه العظام التي تؤلف الهيكل العظمي (اسكلت) والجهاز العصبي والدورة الدمويَّة... إلخ. ذلك لأنَّك عندما تقول (أنا) تغفل تماماً عن كل ما في بدنك من دم وعظم وعصب. فـ(أنا) ليس من المادة في شيء، وهو من غير المنظور.

* * *

وها نحن نذكر بعض ما حدث من الوقائع التي أيَّدت لعلماء الغرب وجود الروح. ولا يخفى أن هذا البحث لمن أهم المباحث لشبابنا المعاصر المحاط بظروف ماديَّة حالكة، وتشكيلات محرفة مضلِّلة:

ذكرت دائرة معارف بريطانيا أن امرأة في لندن شاهدت ذات يوم عند الصباح زوجها الذي كان قد اشترك في حرب (ترانسوال) بباب الغرفة. فتعجَّبت، وتقرَّبت منه، فلاحظت أنَّ ليس له جسم كأجسام البشر. وهو لا يتكلَّم بشيء. فأخبرت بعض الجهات المختصَّة وتمكَّنوا من تصويره! وإذا به ضابط قد قتل في تلك الساعة في حرب (ترانسوال) في جنوب أفريقيا وجاءت روحه تزور الزوجة: رفيقة الحياة.

يقول الدكتور الطبيب (أوين فردريك باورز) أستاذ الأمراض العصبيَّة في جامعات أمريكا أنه قد أمضى أكثر من عشرين سنة وهو يبحث ويدقِّق ويرى اللوحات السالبة لصور الأرواح الفوتوغرافية!

وقد بلغ العلم الحديث مرتبة تمكِّنه من تصوير سيارة في المكان الذي كانت فيه بعد أن غادرته. ذلك لأن الاهتزازات الخاصَّة بها (بالسيارة) لا تزال موجودة في المكان الذي كانت فيه، إلا أنها غير مرئيَّة. فباستخدام آلة خاصة للتصوير أمكن تصويرها!

وإن القرآن الكريم يوضح لنا أرواح الملائكة التي ليست من المادة والجسم في شيء بقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هُود: الآية ٧٠] وهو قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هُود: الآيتان ٦٩/ ٧٠] [أوجس: أي أضمر منهم خوفاً].

ويقول الله تعالى بالنسبة إلى سرعة الملائكة التي ليست من الأجسام البشريَّة في شيء، سرعة لا تقاس بسرعة ما يحصل عليه بأعمال ماديَّة بواسطة الأمواج الكهربائيَّة، بل هي سرعة فائقة لا يعلم مداها إلا الله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعَارج: الآية ٤] . ولا شك أنَّ سرعة الملائكة أعظم من سرعة

الضوء: أي (٣٠٠٠٠٠كم/ ثانية) أضعافاً مضاعفة لعدم تناهي الأبعاد! فما أبعدها من مسافات شاسعة تقطعها الملائكة في خمسين ألف سنة بتلك السرعة الهائلة!

* * *

تغلغلت المادية في أوروبا في القرن الماضي من جراء تلوُّث النفوس بأنواع المعاصي والآثام وضروب الفساد والظلم[1]. فصاروا يعزون كل شيء إلى المادة وهم لا يعلمون عن حقيقة المادة شيئاً، وجهلهم بالمادة أكثر من جهلهم بأنفسهم. حتى صار يُعرِّف بعضهم المادة: بضرب يده بقوة على المنضدة: قائلاً مع خيلاء تلازمه: «هذه هي المادة». وهو لا يعلم عن حقيقة المادة شيئاً.

حقاً، إن هؤلاء المتطفِّلين على العلم الحديث ذوي الأدمغة المتحجِّرة والنفوس الضالَّة أصبحوا عالَّة على العلم والبشريَّة جمعاء فضَّلوا وأضلُّوا. حتى صاروا يضغطون على علماء الذرَّة والأحياء أن يعدلوا نظريَّاتهم التي تبرهن بجلاء وجود الصانع جلَّ جلاله، وجعلها مؤيِّدة للماديَّة الهوجاء.

أنى للنفس المتحجِّرة أن تذعن للدليل ودونها حجاب يصدُّها عن رؤية الحق والواقع! ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٩].

إن ما أذكره من حوادث قد لطف الجو المادي المدلهم في أوروبا في القرن التاسع عشر وبعده. فصار يعتقد ثلة من العلماء الذين لم تتلوَّث نفوسهم بلوث الماديَّة العمياء. أنَّ وراء هذا العالم المادِّي: (والعالم المنظور)، عالماً آخر غير منظور.

منها: أن قائداً لفرقة موسيقيَّة في پاريس قد سمع ذات يوم بصورة جليَّة واضحة، وهو في بناية خاصَّة بالفرقة المذكورة، أن شخصاً غير منظور يقول له بوضوح: إن هذه البناية ستنهدم بكاملها يوم الاثنين المقبل في الساعة التاسعة صباحاً. يبحث القائد عن صاحب هذا الصوت، فلا يجد أحداً. يرجع إلى مكانه. وإذا بنفس الصوت يؤكِّد ما

---

(١) ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: الآية ٢١].

قال أولاً. فلا يرى أحداً. فيبقى متحيراً! من هذا الهاتف، يا ترى؟

حتى كان اليوم الموعود. يخرج القائد قبل الساعة التاسعة مع من كان في البناية على سبيل الاحتياط. وإذا بها تنهدم عن بكرة أبيها.

* * *

يذكر لنا أحد علماء الغرب في بعض مؤلفاته: أن رجلين هاجرا وطنهما وذهبا إلى (أستراليا) بغية الاشتغال في رعي الغنم والمتاجرة بها. فازدهرت تجارتهما في مدَّة وجيزة وأصبحا ثريَّين. إلا أن أحدهما فقد شريكه فجأة بعد مدَّة. وصار يفتِّش ويبحث عنه بشتَّى الوسائل، فلم يعثر على أثره.

وفي يوم بينما كان هذا الرجل يعود إلى بيته جاعلاً طريقه على ضفاف بركة عميقة في شارع ضيِّق، شاهد شريكه المفقود جالساً على ضفَّة البركة جلسة القرفصاء يرمق ببصره الماء.

همَّ الرجل أن يبدي سروره وفرحه، لأنه قد ظفر بضالته بعد مدَّة مديدة وتعب شديد، لكنَّه رأى أن كآبة تعلو وجه صديقه المفقود، وهو يتضاءل كلما همَّ أن يدنو منه حتى انمحى ولم يبقَ منه أثر.

يقول الرجل: فوقفت في محلي ولم أقترب وإذا بصديقي المفقود يبدو من جديد مشيراً بيده إلى محل في البركة ثم يغيب. فعلمت أنَّ لا بدَّ في البركة من شيء يجب إخراجه. ففتَّشنا المحل الذي قد أشار إليه الصديق المفقود وإذا بجثَّته ملقاة في قعر البركة، مغطَّاة بأوراق الشجر وقد قتل بفأس وجدوها في قعر البركة أيضاً. دفنوا الجثَّة وظفروا بالقاتل، فأعدم بعد الإقرار. وهكذا استدلوا على بقاء الروح بعد الموت.

* * *

كان قد دعي پروفسور (يواهم) أستاذ الرياضيات إلى طعام ليلاً في بلدة (ماربوگ). فبينا هو جالس مع رفاقه يتجاذبون أطراف الحديث، وإذا به يرى نفسه تدفعه حثيثاً ليذهب إلى بيته ويعتريه من جراء ذلك قلق شديد لا يدعه يستقر في مكانه. يذهب الأستاذ إلى بيته، يفحص زوايا البيت، فلا يجد شيئاً يقلقه، ولكنَّه يرى شخصه

ما زال قلقاً حتى ينتهي إلى غرفة المنام. يغير مكان نومه مستعيناً بخادمه فيضع سريره في الجانب الآخر من الغرفة ويعود إلى بيت صديقه لتناول طعام العشاء. وبعد تناول الطعام يرجع الأستاذ إلى بيته وينام في غرفته. وإذا به يرى بعد منتصف الليل أن السقف ينهدم من ذلك الموضع الذي كان ينام تحته كل ليلة. فلو لم يكن قد لبَّى القلق النفسي أو الإلهام الغيبي (الهاتف) لأصيب بضرر بالغ ولعلَّه كان يقضي عليه.

ومن هنا استدلُّوا على أن وراء المادة عالماً آخر، وأنَّ الله تبارك وتعالى يتصرَّف في العوالم كلِّها حسبما يشاء وكيفما يشاء. فينجي من الهلكة من يشاء، «كل يوم هو في شأن».

* * *

يكتب لنا (مسيو كومرا) أحد الصيادلة المشهورين أن دخله اليومي ما كان ليتجاوز (٤٠ ـ ٤٥) فرنكاً في صيدليَّة كان قد فتحها في (تولوز).

ولكنَّه رأى ذات ليلة في ما يرى النائم: أنه مكتوب في نهاية الصفحة أنَّ مجموع دخله اليومي (٧٦) فرنكاً وثلاثين سانتيماً. وقد انتقش المبلغ في ذهنه. حتى كان اليوم الثاني وذهب إلى الصيدليَّة وقصَّ قصَّته على معاونه. فقال له معاونه: لعلَّ ما رأيته في منامك هو دخلنا ليومين.

يقول (مسيو كومرا) مضى النهار على العادة حتى جنَّ الليل ففوجئنا بزبائن جدد اشتروا كميَّات من الأدوية وعندما خرج آخر زبون من المحل كانت الساعة العاشرة والنصف. بادرنا بغلق المحل وإذا بنا نجد الدخل اليومي ٧٦ فرنكاً و٣٠ سانتيماً كما أخبرت في عالم النوم!

لا أعلم كيف يفسِّر المادي هذا الإخبار بالغيب، أليس هناك عالم آخر قد يفيض على هذا الإنسان بأخبار عن عالم الغيب ليزداد ثقة بما وراء الطبيعة. ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ[1] مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فُصّلت: الآيتان ٥٣/ ٥٤].

* * *

---

(١) مرية: شك.

الروح باقية بعد الموت

ذكرت إحدى مجلاَّت إيطاليا أنه كان يدور حديث (بقاء الروح بعد الموت) منذ زمن غير بعيد بين (كنت گالاترى) و(موسيو ديرژيني) أحد الضبَّاط في الجيش الإيطالي. فتعاهد كل منهما لمع الآخر أن يخبر صديقه بعد موته إن كانت روحه حيَّة، بأن يأتي إلى صديقه الحي فيحك أسفل قدمه. وقد مضت على هذه المعاهدة خمس سنوات حتى أوفد (ديرژيني) في جيش إلى إفريقيا، فودّع (ديرژيني) صديقه وسافر. .

وبعد مضي ٨ أشهر على هذه الموادعة، صارت تشعر (زوجة گالاتري) في الليل بحك شديد في رجلها وهي نائمة بجنب زوجها. فصارت تقول لزوجها (گالاتري): لماذا المزاح، ولمَ تؤذيني؟

فأجابها زوجها: وهل أنت تحلمين؟ إني لم أصنع شيئاً من هذا القبيل.

ولكنَّها كانت تشعر أنَّ هناك من يحك أسفل قدمها بصورة متكرِّرة.

ثم أسرجا السراج، وفتَّشا فلم يعثرا على شيء. عند ذلك قالت زوجته: «أما ترى هذا الضابط، واقفاً تحت رجلي وهو يرتدي قبعة جميلة مع أوسمة. إنه طويل القامة، ها هو ينظر إليك مبتسماً، وقد أصيب في صدره بجرح خطير وكذلك في ركبته. إنه يحيِّيك تحيَّة عسكريَّة، ألا تراه. ولكنَّه الآن غاب عن بصري».

فلم تمضِ الأيَّام حتى أخبرت جرائد إيطاليا أن الضابط (ديرزيني) أصيب في حرب مع الأحباش في صدره وركبته ومات في اليوم الذي جاء إلى صديقه: (كنت گالاترى) يخبره أنه حي بعد الموت وأن الروح لا تفنى بموت البدن وذلك وفاءاً بالوعد.

* * *

تقع كثير من هذه الحوادث عندنا في الشرق ولكنَّا قلَّ ما ندوّن، لاعتقادنا بما غاب عنَّا وبالإلهام الربَّاني وبما وراء الطبيعة.

منها: أنَّ امرأة مات زوجها. فكانت تريد أن تتصدَّق عنه، فصارت تصنع طعاماً ليلة الجمعة وترسل به مع ولدها اليتيم إلى فقير في أحد الأكواخ القريبة.

إن الولد كان يأخذ الطعام الذي هيَّأته أمه إلى ذلك الكوخ وهو يشعر في الوقت نفسه بجوع شديد. يرجع الولد إلى بيته جائعاً، فينام وهو جوعان!

وهكذا صنعت الأم مرة ثانية (ليلة الجمعة) طعاماً وأرسلت به مع ولدها إلى نفس ذلك الفقير. قدم الولد الطعام إلى الفقير ورجع إلى البيت وهو يكابد ألم الجوع، نام وهو جوعان!.

وفي المرَّة الثالثة صنعت الأم ليلة الجمعة أيضاً طعاماً تقدمه صدقة عن زوجها المتوفَّى وأرسلت به مع ولدها إلى نفس الفقير. أخذ الولد الطعام وصار يتقدَّم نحو الكوخ. إلا أنَّ الجوع كان قد أضرَّ به ضرراً بالغاً. فلم يستطع الصبر. فأكل ما كان في الإناء ورجع إلى البيت، نام وهو شبعان.

رأت الأم زوجها في المنام، يقول لها: «لم يصل إليَّ الطعام إلا في هذه الليلة».

انتبهت الأم من نومها قبل طلوع الشمس، متعجِّبة، فأخذت تسأل ولدها: ولدي، إلى من كنت تأخذ الطعام ليلة الجمعة الماضية وقبلها؟ فقد رأيت والدك في المنام، يقول لي: لم يصل إليه الطعام إلا في الليلة الماضية. فقال الولد: قد قدمت الطعام إلى الفقير مرَّتين مع ما كنت أشعر به من شدَّة الجوع. ونمت جائعاً. إلا أني في الليلة الماضية لم أطق أن أتحمَّل ألم الجوع، وكان قد أضرَّ بي كثيراً. لذلك أكلت ما في الإناء ونمت وأنا شبعان.

فعلمت الأم أنَّ ولدها اليتيم كان أولى بأكل هذه الصدقة من ذلك الفقير في كوخه. فقد جاء في الحديث: «لا صدقة وذو رحم محتاج»[1].

وفي آية أخرى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ[2] الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ[3] ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ[4] ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ[5] ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ[6]﴾ [البلد: الآيات ١١/١٦].

* * *

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٦٨، ح١٧٤٠.

(٢) الاقتحام: هو الدخول في أمر شديد. العقبة: الطريق في الجبل.

(٣) أي تحرير رقبة: رق، أو أسير. وبهذا وأمثاله قضى الإسلام على الرق.

(٤) أي ذي مجاعة.

(٥) يتيماً ذا قرابة.

(٦) ذا متربة: أي ذا فقر. يقال: ترب أي: افتقر.

ولا بأس بذكر هذه الواقعة أيضاً، لتروا كيف أن الله تعالى يريد أن يقوي رابطة الإنسان بما غاب عنه من عوالم، ليزداد يقيناً به تعالى وبعوالم غيبيَّة، فيخشع قلبه، ﴿أَلَمْ يَأْنِ[١] لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾. ثم لا يركبه الغرور، فيقسو قلبه: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: الآية ١٦].

فقد جاء في الحديث: «ما ضُرب ابن آدم بعقوبة أعظم من قسوة قلب» وفي حديث آخر: «شر العمى عمى القلب» وفي آخر: «أعمى العمى الضلالة بعد الهدى» وكم لهذا الحديث الأخير من مصاديق في يومنا هذا، مع الأسف الشديد.

ثمَّ أنَّ الله تعالى يمدح الذين يؤمنون بالغيب ويخصُّهم بالهداية دون غيرهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: الآية ٣].

قد ذكر لي من أثق به: «أنه كان قد غادر مدينة طهران مستخدمان بالبريد يريدان زيارة الحسين عليه السلام. وبما أنَّ حكومة الوقت كانت قد منعت السفر إلى العتبات المقدَّسة، لذلك سلكا طريقاً غير معبد. فأصبحا في أرض قفراء سبخة وقد أضرَّ بهما العطش ضرراً بالغاً، حتى هلك أحدهما في تلك الصحراء وتمكَّن الآخر بإذن الله بعد توسُّل وابتهال من أن يرجع إلى أهله سالماً تفضلاً منه تعالى. وبعد مدَّة رأى صديقه في منامه وهو في بستان في وضع مريح، فسأله عن حاله. فأجاب: إني بحمد الله في تمام الراحة، إلا أن عقرباً تأتيني كل يوم فتلسعني في إبهامي هذا (وأشار إلى رجله)، فأشعر إذ ذاك بألم تكاد تخرج روحي بسببه[٢] وقد أخبرت أن ذلك: لأني كنت قد سرقت سكينة جميلة صغيرة من بيت صديقي (فلان)، في يوم كنَّا نأكل الخس معاً في بيته (وقد ذكر اسمه). وإنِّي قد

---

(١) ألم يحن.

(٢) إن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: الآية ٨]، وفي آية أخرى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: الآية ١٦]. وفي الحديث: «إنما أعمالكم ترد عليكم». فإذا استغفر العبد وتاب وأناب وأرجع إلى الناس حقوقهم من زكاة وخمس وصلة رحم إلى ما هنالك، أمن من العذاب وذهب من هذه الدنيا ولا ذنب عليه ولا حساب يؤاخذ به. فطوبى لمن ظهرت نفسه في هذه الدنيا قبل أن يطهر بعد الموت بعذاب لا يطاق.

أخفيت السكينة في بيتي في الرف الفلاني في الزاوية اليسرى. فأرجوك أن تذهب إلى بيتي وتقرأ زوجتي منّي السلام وتقول لها: إن زوجك قد قال لي في عالم الرؤيا أن تعطيني السكينة التي وضعتها في الرف الفلاني في الزاوية اليسرى كي أرجعها إلى صاحبها القصاب وأطلب منه أن يغفر لزوجك زلته، لعلَّ الله يمنَّ عليه بالعفو والغفران. يقول هذا المستخدم. ففعلت كما أخبرت بالمنام، فكان كما أخبرت.

يقول: ورأيت صديقي مرة أُخرى في عالم المنام. وإذا به يشكرني وهو في تمام الدعة والطمأنينة.

وهكذا هناك من الأطياف ما لا يعد، تنبئ عن مغيَّبات تدل بصراحة أنَّ وراء هذا العالم المنظور عوالم غير منظورة لها من الخطورة والأهميَّة ما لا يوصف».

* * *

ومما قيل في الاعتقاد ببقاء الروح بعد الموت، تفنيد آراء شتَّى قيلت في سبب النوم وانتصار الرأي الأخير القائل: «إن هناك روحاً آدمية في الإنسان قائمة بذاتها تنسحب كثيراً أو قليلاً من الجسم خلال ساعات النوم». لذلك صار يعد العلماء: (اعتبار النوم طرحاً روحياً مؤقَّتاً) نصراً عظيماً، لأنه بذلك أمكن تفسير الأحلام التي يراها الإنسان في نومه والتي تتحقَّق بعد يقظته عاجلاً أو آجلاً. كما أمكن تعليل رؤية النائم لأمكنة غريبة أو أشخاص غرباء لم يكن قد رآهم قبلاً ثم مشاهدته في عالم الشهود واليقظة بعد سنين أو مدة يسيرة نفس الأمكنة وعين الأشخاص دون أي اختلاف. وهذا تطابق بين حالة الرؤيا في النوم والمشاهدة في اليقظة.

وهكذا تؤيِّد مكتشفات العلم الحديث ما جاء في القرآن الكريم قبل ١٤ قرناً أن النوم طرح روحي مؤقت. تعمَّقوا في معنى هذه الآية لتروا صحَّة ما أقول. إنه تعالى يقول:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٤٢].

ومعنى ذلك أنَّ الله تعالى يقبض أرواح عباده إذا حان حينهم وجاء أجلهم وهكذا يقبض أرواح عباده الذين لم يموتوا في منامهم: يقبضها بقطع علاقة تلك الأرواح بالأبدان. فالعبد الذي جاء أجله وهو نائم أي (من قضى عليها الموت) لا ترد روحه إلى بدنه. بل

يمسكها الله تعالى ويرسل روح العبد الذي لم يأتِ أجله إلى بدنه، وذلك إلى أجل مسمًّى (معيَّن). لا يعلمه إلا الله. حقاً، إنَّ في ذلك لآيات على قدرته تعالى لكل من تفكَّر في هذا الوجود الإنساني المؤلَّف من روح وبدن.

يقول الدكتور (جورج لندسى جونسون)، أنه أجرى عمليَّة جراحيَّة في عيني فتاة وهي في التاسعة عشرة من عمرها. ولم تكن قد رأت شيئاً قبل ذلك، لأنها كانت لا تبصر شيئاً. ولكنَّها صارت تتبيَّن كل فرد في الغرفة وتميِّز بين الألوان المختلفة بعد العمليَّة الجراحيَّة وتماثلها للشفاء. وهذا ما يؤكِّد أنَّ روح الفتاة كانت تنطلق في منامها فترى أشياء ما كانت تستطيع أن تراها بعينيها قبل العمليَّة.

وأما الرياضي المعروف: (پوانكاره)، فقد رأى في منامه معادلات رياضيَّة أدَّت إلى استكشافه قوانين رياضيَّة هامَّة. وكان مؤمناً بالإلهام والحدس ووجود الروح.

وكم من أناس ضاعوا في الصحراء ولم يجدوا ملجأ إلاَّ إلى الله تعالى، فابتهلوا إلى الله مخبتين، فنجَّاهم الله بأن أراهم الطريق في منامهم أو أرسل الله لهم مَن ينقذهم من الهلاك. ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: الآية ٥٨]. ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾. فهو جلَّ جلاله يرحم حتى غير الشاكرين من عباده لعلَّهم يهتدون، وما أقلَّهم!

إنه تعالى يراقب أعمالنا ويسمع نداءنا وتضرُّعنا في البحار والقفار، فينقذنا من الهلكة إذا انقطعنا إليه خاشعين. فلكل واحد منَّا شواهد من حياته على ما أنعم عليه حين التضرُّع من عظيم النعم وهو القائل: «وقليل من عبادي الشكور».

إنه تعالى يقول: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: الآيتان ٦٠/ ٦١].

حرمة إحضار الأرواح

إن الدين الإسلامي قد حرَّم (إحضار الأرواح)، و(إحضار الجن) وعدَّهما من

الكبائر، لما في ذلك من تدليس وتمويه وكذب وافتراء. وإن بعض المسلمين صاروا يعتقدون بما يقام به في الغرب من إحضار بعض الأرواح! في الظلام باستعمال الخباء وأنواع الخداع والوسيط الكذاب وباستعمال كوب صغير أو فنجان يتنقل بين حروف قد رسمت فوق منضدة، فتكون إجابات الأرواح مستحضرة من مجموع الحروف بحسب ترتيب تنقله بينها! أو بمؤشّر كمؤشّر الساعة يدور حول محور وسط نضد دائري رسمت الحروف الأبجديَّة على محيطه، وباستعمال طريقة السلَّة. . . إلخ.

ومن النتائج الكاذبة في إحدى الجلسات: «أن جبريل معنا» ومحاولة البعض من التقاط صورة لجبريل عليه السلام، وأكاذيب على الرسل عليهم السلام وغيرهم إلى ما هنالك! . .

وقد علم أخيراً أن أيدٍ هدَّامة (صهيونيَّة) تريد أن تجعل هذه الروحيَّة الكاذبة (Spiritualism) ديناً جديداً يهدم أسس المجتمع وينشر فيه الفوضى بالتشكيك في كل المقرَّرات الدينيَّة والخلقيَّة، لتسود الصهيونيَّة بالأخير في العالم. وهذا لا يختلف عمَّا في (پروتوكولات حكماء صهيون) وما قصده (فرويد) و(كارل ماركس) وغيرهما من اليهود.

ولا نريد أن نبرهن على فساد ما يذهبون إليه من إحضار الأرواح وكيف أنَّ عوامل مختلفة تؤثّر في الموضوع، فيخيَّل إلى حاضر الجلسة أن روحاً حضرت وأنها تتكلَّم إلى آخر ما هنالك من خداع في الظلام وتحت الخباء ووسائل ووسائط للتمويه. ولا أشك أن لشياطين الجن دوراً هاماً في تلفيق الأكاذيب أو الإخبار بما غاب عن الأنظار كما سنبيِّن ذلك في البحث عن الجن.

ويكفي أن نقول أنه قد جاء في دعاواهم العريضة أن أحد المشتغلين بالأمراض العصبيَّة في جامعة من جامعات أمريكا قد استطاع أن يجسِّد روح أمِّه وأن يقص خصلة من شعرها، ثم يفحص بعلائِذِ الشعر فحصاً هستولوجياً ميكرسكوبياً!

ومن جملة ذلك: ما هو مكذوب على لسان القس (سنتون موزى) ما تلقى عن عالم الأرواح:

«نحن مرسلون من عند الله كما أرسل المرسلون قبلنا، غير أن تعاليمنا أرقى من تعاليمهم. فإلهنا هو إلههم، إلا أن إلهنا أظهر من إلههم وأقل صفات بشريَّة وأكثر صفات

إلهيَّة. لا تخضع لأيَّة عقيدة مذهبيَّة ولا تقبل بلا بصر ولا رويَّة تعاليم لا تستند إلى العقل، ولا تأخذ بلا تحفُّظ وحياً جاء لأحوال خاصَّة في عصر من العصور! وليس هو بامتياز لأمَّة دون أمَّة ولا لشخص دون شخص، والله يكشف نفسه للإنسان شيئاً فشيئاً!».

ومن جملة كلمات المشتغلين بشعوذة إحضار الأرواح (Spiritisme) قولهم: «إن الروحيَّة ستكون أقدر من غيرها على تأسيس دين جديد واسع للعالم كله».

ومن أقوالهم: «إن لب الدين هو بذل الخير لخلق الله، ولا حرج على الناس فيما وراء ذلك. وإنَّ طقوس الأديان على اختلاف صورها ليست إلا أساليب لبلوغ هذه الغاية. وإن الناس على اختلاف أديانهم بعد سواء:

مسلميهم ومسيحيهم ويهوديهم وبوذيهم، كلُّهم يعيشون إخواناً فيما وراء الموت، وإن باب التوبة مفتوح أمام الكافر والفاسق والمخطئ بعد الموت. وإن فرصة الترقي متاحة له دائماً. وإنَّ الجنَّة والنار حالة عقليَّة أو حالة نفسيَّة أو هما واقع يجسمه الفكر ويصنعه الخيال الذي يعكس باطن صاحبهما وحالته النفسيَّة».

وهذا ما يسمع كل يوم في أوكارهم ومنظَّماتهم ومجلاَّتهم: يوهمون للناس أن الناطق بكل ذلك روح كبير[1]!

ومثل ذلك قولهم في وصف الإنسان: «إنه عامل ومساعد وشريك لرب العلا وأقوى من الحكام الذين يحكمون بالعصا. أنت في الرب ومع الرب ولأجل الرب الأمثل»!!..

وهنالك من المسلمين من استساغ هذه الأوهام والشرك الصريح وأراد تطبيقها على النصوص القرآنيَّة مع الأسف الشديد!.

وبالختام نرى أنَّ مجلَّة روحيَّة تمجد الشيوعيَّة، وهذا مما يدل أن هنالك ارتباطاً وثيقاً بين الروحيَّة (الكاذبة) والشيوعيَّة الهدَّامة! وليدة الصهيونيَّة. ولا مجال لأسرد كل ما جاء من كفر وإلحاد على لسان الروحيِّين ووسطائهم. ويكفي أن نقول: إن الصهيونيَّة تبنت هذه الحركة وصارت تغذِّيها لأغراضها الهدَّامة.

---

(١) الروحيَّة الحديثة، حقيقتها وأهدافها: للدكتور محمد محمد حسين، أستاذ الأدب العربي الحديث، بجامعة الإسكندريَّة الطبعة الأولى: ١٣٨٠هـ.

ومن المعروف أنَّ الصهيونيَّة الهدَّامة تكمن وراء كل الحركات السياسيَّة والاجتماعيَّة الكبيرة في القرن الأخير بل منذ الثورة الفرنسيَّة. وهي التي تخترع هذه الأباطيل وتنسبها للأرواح هدماً للأديان.

فحري بالمسلمين أن لا ينخدعوا بأباطيل هؤلاء وأن يطبّقوا أمر الشارع الأعظم في حرمة إحضار الأرواح.

* * *

ومن جملة ما هو غير منظور هو «الجن». فقد أنكر بعض المثقَّفين بثقافة العصر من رجال الغرب وجود الجن، لعدم إمكان رؤيته بالباصرة أو لمسه باليد وذلك لتغلب مفهوم المادية على النفوس. وقد تأثَّر الشرق بمادية الغرب عن طريق الصحافة وغيرها، حتى أن أحد علماء المسلمين صار يفسِّر الجن في القرآن الكريم، بالميكروبات التي لا ترى بالعين. ورأيت أن البعض منهم يرى الجن وجوداً خيالياً تخيَّله البشر، وليس شيئاً إلا الخيال ولا وجود له في الخارج.

بيد أن أوساط أوروبا قد تأثَّرت في ابتداء القرن الحالي بإحضار الأرواح على ما فيه من التمويه والتنويم المغناطيسي، فصارت تعترف بالجن وأنه كائن حي، لا يشبه الإنسان في كيانه وقد دُوِّنت في الغرب كتب عدة في هذا الموضوع.

وإن القرآن ليصرِّح بوجود الجن وأنَّ منهم المؤمن ومنهم الكافر الجاحد.

إنه تعالى يقول: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ[1] مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا[2] ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجنّ: الآيتان ١/٢]. فالجن يستمعون القرآن ويؤمنون به كما نؤمن وليس الجن بجراثيم صغيرة تخفى على العين، كما قال بعضهم.

ثم يقول الله تعالى عن لسان الجن: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا[3] مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجنّ: الآية ٣] أي أنَّ الجن يعترفون بوحدانيَّة الله تعالى وأنَّه ما اتَّخذ لنفسه زوجة ولا ولدا.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ[4] بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝﴾

---

(١) نفر: جماعة من الجن. و(نفر) من ١ إلى ١٠.
(٢) عجباً: بديعاً.
(٣) تعالى جد ربنا: أي تعالت عظمته.
(٤) يعوذون: يستجيرون.

[الجنّ: الآية ٦] . . . إلخ. ومعنى ذلك: أنَّ رجالاً من الإنس كانوا يلجأون إلى رجال من الجن طلباً لاستخدامهم في حاجاتهم فزادوهم ضلالاً وغيّا. فيعبِّر الله تعالى عن الجن برجال، كما عبَّر عن الإنس أيضاً. فعلم أنَّ الجن عالم قائم بنفسه كالإنس. إلا أن النظريَّة الماديَّة: «كل ما لا يرى بالعين فهو غير موجود» قد أثَّرت في بعض النفوس التي ضعف إيمانها لتساهلها في تطبيق تعاليم الإسلام تطبيقاً شاملاً، فصارت تنكر الجن تأسياً بالماديين أو فراراً من وصمة الرجعية والخرافة أو تشهياً لِلقب: (العصري)، أو (المثقَّف)!. . لئلاً يُعد متأخراً عن ركب المدنية الحاضرة بما فيها من علل وويلات!. . أو صار يظن أن الجن ميكروبات أو بهائم أو حشرات دونما تحقيق ودون إرجاع الموضوع إلى صريح الآيات القرآنية والأحاديث المستفيضة والمشهورة.

ثمَّ قال تعالى عن لسان الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجنّ: الآية ١١] [1]. فيقول الله: إن من الجن رجالاً صالحين أبراراً وإن منهم مقتصدين أي أقل من أولئك رتبة وهم طرائق متفرِّقون. كما يقول جلَّ من قائل في آية أخرى عن الـجـن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجنّ: الآيتان ١٤/ ١٥] [2]، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا[3]، وأما القاسطون، فكانوا لجهنَّم حطبا. فمن الجن من هو كالإنس مسلم، ومنهم من هو ظالم لنفسه مبين، ومأواه جهنم وبئس المصير. فلا فرق بين الجن والإنس من هذه الناحية فيحرق الظالم والكافر من الجن بالنار، إن لم يتوبا، كما أن الإنس كذلك يحرق الظالم والكافر منهم بالنار دون توبة وتطهير النفس من أوساخ الذنوب والمظالم والرذائل.

إنه تعالى يقول: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هُود: الآية ١١٩].

ويقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الصَّافات: الآية ١٥٨]، ومعنى ذلك: أنَّ المشركين جعلوا

---

(١) قددا: أي متفرقة، مختلفة.

(٢) القاسطون: الظالمون.

(٣) تحروا رشدا: أي توخوا رشداً.

بين الله وبين الجنة نسباً (ويراد بالجنة هنا الملائكة). ولقد علمت الملائكة أنَّ المشركين أو الكفرة لمحضرون أي مقودون إلى العذاب المهين، وفي تفسير آخر: أنَّ المراد بالجنَّة هو الجن، ذلك لأنَّ المشركين قالوا: إن الله صاهر الجن فخرجت الملائكة، فالله تعالى يقول: إن الجن علموا أنهم لمحضرون للعذاب إلاَّ عباد الله المخلصين[1] منهم (أي من الجن).

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السَّجدَة: الآية ١٣].

* * *

ثمَّ إنَّ الله تعالى يخبرنا في مكان آخر من كتابه الحكيم بقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: الآيات ٢٩/ ٣٢].

وهؤلاء، على ما جاء في التفسير، هم جن (نصيبين) باليمن أو جن (نينوى) وكان رسول الله ﷺ ببطن نخلة، يصلي بأصحابه الفجر، فصاروا ينصتون إلى القرآن حتى إذا فرغ من قراءته، رجعوا إلى قومهم ينذرونهم ويخوِّفونهم العذاب إن لم يؤمنوا وقد كان هؤلاء الجن يهوداً فأسلموا.

فظهر ممَّا سبق أنَّ الجن على نوعين: مسلم ومؤمن بنبوَّة محمد ﷺ وكافر بها، وأنَّ الإنس قد يعوذون بالجن لأغراض سيِّئة فيؤدِّي بهم إلى خسران وسوء العاقبة.

ثمَّ أنَّ الله تعالى يقول في سورة (الرحمن): ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا[2] مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٣٣].

---

(١) وذلك لقوله تعالى في الآية ١٦٠: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الصَّافات: الآية ٤٠].

(٢) أن تنفذوا: أن تخرجوا.

ويبيِّن لنا سبحانه وتعالى ممّ خلق الجن بقوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ١٥] وهو لهبها الخالص من الدخان.

ثمَّ إنَّ الله تعالى يتحدَّى الجن كما يتحدَّى الإنس بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٨].

وإن الجن مدعوون إلى عبادة الله تعالى كالإنس على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: الآيات ٥٦/٥٨].

* * *

إنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: الآية ٢٧] ولا نعلم شيئاً عن حقيقة هذه النار. فإنها طاقات. وقد علم أنَّ الذرَّة في الأصل طاقات كهربائيَّة تكدَّست بإذن الله بترتيب بديع تحت نظام رائع حتى كانت هذه الذرَّة ثمَّ تشكَّلت بأشكال شتَّى، حسب اختلاف عدد الإلكترونات (شحنة كهربائيَّة سالبة) والپروتونات (شحنة كهربائيَّة موجبة) حتى كانت هذه العناصر المختلفة: الإيدروجين، الكالسيوم، الحديد، الرصاص إلخ..

فالعالم كله قوى كهربائيَّة ومغناطيسيَّة وجاذبيَّة وطاقات أخرى نجهلها كجهلنا كثيراً من الأشياء، أشياء لا تتناهى. وهكذا الجن مخلوق من نار السموم أو من (مارج من نار) والمارج: لهب النار الخالص من الدخان. فهذه طاقات خلق الله منها الجن لا نعلم حقيقتها كما لا نعلم في الوقت الحاضر حقيقة أيَّة طاقة من الطاقات. بل العلم الحديث إنما يعمل في كشف الآثار والاستفادة منها في الحياة الاجتماعيَّة.

فالجان ليس من هذه الأجسام المتعارفة التي نبصرها بأعيننا وإنما هو من طاقة أخرى لا نتمكَّن من مشاهدتها لعدم وجود قابليَّة فينا لرؤيتها. يقول تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: الآية ٢٧] فالإنسان لم يُعط ملكة يقوى بها على رؤية الجن ولكن الأنبياء والأولياءﷺ قد يتمكَّنون من رؤية الجن بفضله تعالى، لما أعطاهم من ملكة خاصَّة نجهلها.

وهكذا ليس في استطاعة الإنسان أن يرى الملك بقابلياته الحاضرة وملكاته الطبيعيَّة التي

وهبها الله إيَّاه، لذلك يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: الآيتان ٨/ ٩].

توضيح ذلك: يقول الله تعالى في الآية المتقدِّمة، إنا لو جعلنا الرسول ملكاً لاضطررنا لقلبه رجلاً ليتمكَّنوا من رؤيته.

وكان الجن يعملون بين يدي سليمان عليه السلام: فقد قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ[1] مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سَبَإ: الآية ١٢]. ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ[2] وَتَمَاثِيلَ[3] وَجِفَانٍ[4] كَالْجَوَابِ[5] وَقُدُورٍ[6] رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ[7] فَلَمَّا خَرَّ[8] تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ[9] أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ[10] ﴿١٤﴾﴾ [سَبأ: الآيتان ١٣/ ١٤].

وقد سمعت أحدهم يقول: «إن الجن هي الحيوانات أو الحشرات» وكان يقول: «إن نفيي للجن لا يحتاج إلى دليل ولكن على المثبت أن يأتي بالدليل». فقلت له: على من يؤمن بالقرآن أن يعترف بالجن كمخلوق مكلَّف بتكاليف عبادية كالإنس، حسب الآيات المتقدِّمة. ثم كيف توفق بين ما تعتقده وقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النَّمل: الآية ٣٩]. فهل للبهيمة أو الحشرة أو الميكروب أن تقوم بهذا العمل الجبار؟!

* * *

(١) يزغ: يعدل.

(٢) محاريب: أبنية مرتفعة يصعد إليها بدرج.

(٣) جمع تمثال أي صور من نحاس وزجاج ورخام ولم يكن اتخاذ الصور حراماً في شريعته.

(٤) جفان: جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة.

(٥) الجوابي: جمع جابية وهي حوض كبير، فكان يجتمع على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون منها.

(٦) قدور راسيات: القدور: جمع قدر، وقدور راسيات أي قدور ثابتات لها قوائم لا تتحرك عن أماكنها.

(٧) منسأته: في عصاه، المنسأة: هي العصا.

(٨) خر: سقط ميتاً.

(٩) تبينت الجن: انكشف لهم.

(١٠) في العذاب المهين: العمل الشاق المهين لهم.

قلنا إن الجن قد يشاهدون من قبل الأنبياء والأوصياء عليهم السلام. وهم يتطوَّرون ويتشكَّلون في صور الإنس وغير الإنس على ما أعطاهم الله من ملكات وإمكانيَّات. كل ذلك في دائرة محدودة وبأمر من الله. وقد يتجسَّم الجن على شكل أو صورة بني آدم. وفي إمكان الجن أن يدخلوا الغرف والأبواب مغلقة. وذلك من شقوق الأبواب والمنافذ، كأمواج الراديو.

وقد سمعت محاضرة لأحد علماء مصر، كان ينكر وجود الجن، ثم سافر إلى المغرب واتَّصل ببعض من كان يحضر الجن وشاهد ما يصدر على أيدي الجن من أعمال شتى تحير العقول. وقد رفع قبلاً كل ما من شأنه الخداع والتلبيس. فآمن بالجن بعد أن كان منكراً أشد الإنكار.

وقد جاء في تفسير الآية الآتية: أنَّ الشيطان أتى قريشاً في صورة (سراقة بن مالك ابن جشعم الكناني) لما أرادوا الخروج إلى بدر. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] . كما أنَّه روى أنَّ الشيطان تشكَّل في صورة شيخ نجدي لمَّا اجتمعوا بدار الندوة للتشاور في أمر الرسول صلى الله عليه وآله: هل يقتلونه أو يحبسونه أو يخرجونه كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] .

* * *

وقد رُوي أنَّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان ذات يوم يخطب على منبر الكوفة، إذ ظهر ثعبان من جانب المنبر وجعل يرقى حتى دنا من أمير المؤمنين عليه السلام فارتاع الناس لذلك وهموا بدفعه، فأومأ إليهم بالكف عنه، فلمَّا صار على المرقاة التي عليها أمير المؤمنين، انحنى أمير المؤمنين إلى الثعبان وتطاول الثعبان إليه حتى التقم أذنه، وسكت الناس وتحيَّروا، فنق نقيقاً سمعه كثير منهم، ثم زال عن مكانه وأمير المؤمنين يحرك شفتيه والثعبان كالمصغي إليه، وانساب وكأن الأرض ابتلعته، وعاد أمير

المؤمنين إلى خطبته فأتمَّها، فسألوه عنه. فقال: إنه حاكم من حكّام الجن التبست عليه قضيَّة، فصار إليَّ يستفهمني عنها، فأفهمته إيَّاها ودعا لي بخير وانصرف[1].

وينبغي أن لا يُستبعد وقوع ما ذكر لعليٍّ عليه السلام، فقد جاء في القرآن الكريم: أنَّ سليمان بن داود على نبينا وآله وعليهما السلام لما أرسل إلى بلقيس قال لأصحابه: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾ [النَّمل: الآيتان ٣٨/ ٣٩]. أي من مجلسك الذي تجلس فيه كل يوم للقضاء، وكان يجلس فيه إلى الظهر. فالله تعالى قد أعطى العفريت من الجن قوة يستطيع بها أن يحضر عرش بلقيس من بلاد نائية. فالعفريت ليس بأعز على الله من الإمام علي عليه أفضل الصلاة والسلام وقد قام الإسلام بسيفه وتضحياته التي لا تعد ولا تحصى!

وقد جاء في الأخبار أنَّ علياً عليه السلام حارب أعداء الرسول صلى الله عليه وآله من الجن وانتصر عليهم، والقضيَّة مشهورة في كتب الفريقين. لم ينكرها أحد.

ثمَّ أن الجن يحشرون ويحاسبون يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعَام: الآية ١٢٨]. وفي آية أُخرى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعَام: الآية ١٣٠].

وفي أخرى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعرَاف: الآية ٣٨].

وفي أخرى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فُصّلَت: الآية ٢٩].

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٩، ص١٧٨، باب ٨٣.

السلوك الرحماني والسلوك الشيطاني

ذكر لي أحدهم أنَّ هنالك طريقين في السلوك، سلوك رحماني وسلوك شيطاني؛ فالسلوك الرحماني هو سلوك حسب ما أمر الله تعالى به وما أملاه علينا الرسول ﷺ والأئمة من بعده ﷺ، من صلاة وصوم وزكاة وخمس وحج وإنفاق وأعمال صالحات والقيام بحوائج الناس وأعمال عباديَّة مستحبَّة بصورة مستمرَّة وبكثرة دونما فتور من صلاة جوف الليل وأوراد وتضرُّع وتسبيح بين الطلوعين وقبل الغروب وتطهير المأكل والمشرب وذكر الله تعالى على كل حال والصمت إلا في ما يرضي الله. فعند ذلك تتجلى له كثير من الحقائق وتخدمه قسم من مؤمني الجن إن شاء الله تعالى.

وهذه الطريقة وأعني بها السلوك الرحماني من الصعوبة بمكان، لا يقوى عليها إلا الأوحدي.

وهناك سلوك شيطاني يتلخَّص في إطاعة الشيطان الغاوي أو بالأحرى إطاعة إبليس عليه اللعنة في كل ما يريد من ترك الصلاة والصوم والحج، بل وعبادة الشيطان نفسه ومخالفة أمر الله تعالى حيث يقول: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا[1] كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: الآيات ٦٠/ ٦٢] والإهانة بالمقدَّسات بل وتلويثها.

وقد علم من أحد السالكين السلوك الشيطاني أنه كتب إلى صديق له (درويش) يقطن في شعب من شعاب جبال (همدان) بصورة سرِّيَّة: «أنه قد بلغ به الأمر حيث يلعن علياً ﷺ ليلة الجمعة على تل في النجف الأشرف مئة مرة. فكانت نتيجة ذلك أن خدمته أبالسة الجن فائتمرت بأمره وأطاعته في ما يريد. وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية ٣٣]».

وقد سمعت ممن يوثق بكلامه: أنَّ شاباً كان قد صاحب درويشاً سلك مسلكاً شيطانياً وتعلَّق به تعلُّقاً وثيقاً، لما كان يرى من خوارق ظاهريَّة تجري على يديه.

---

(١) جبلاً: خلقاً.

يقول هذا الشاب: خرجت مع هذا الدرويش ذات يوم قبيل الظهر من مدينة (تبريز)، حتى إذا ابتعدنا عن البلدة مسافة يعتد بها، قال لي الدرويش: ما أجمل المكان وما أطيبه! لو كانت لنا هنا غرشة (نارجيلة) فقلت له: سيدي قد ابتعدنا كثيراً عن البلدة، ولا يوجد بالقرب منَّا مقهى... فقال الدرويش مغضباً: أوَ ضعف إيمانك بي؟! ونادى بصوت رفيع. غرشة! وإذا بغرشة جاهزة توضع بين يديه، فصار يشرب. حتى إذا فرغ، استأنفنا الطريق. فبعدنا عن البلدة مسافة لا يستهان بها، فبلغنا مكاناً في غاية الجمال... وقف الدرويش عن السير. وقال: ما أجمل هذه المناظر! لو تناولنا غداءنا في هذا المكان.

فقلت له: ومن أين نجد طعاماً في هذا المكان النائي؟

فقال: وهل ضعف يقينك بي؟ فنادى بصوت عالٍ: غداء! وإذا بمائدة جاهزة توضع بين يديه، وفيها من الطعام ما لذَّ وطاب.

فصرتُ أنظر إليها وأنا متعجِّب، حائر، وألعن الشيطان!.. وإذا بالرجل، يلطمني على وجهي بكل ما أوتي من قوة...

فقلت: ولماذا؟ ما الذي صنعت حتى أغاظك؟ إنما ألعن الشيطان، لعنه الله! فلطمني ثانياً، قائلاً: أتلعن من هو ولي نعمتي، المتفضِّل عليَّ بعظيم النعم، إنه هو معبودي ومقصودي ولولاه لما كانت هذه المكرمات، ومن جملتها هذه المائدة. فتقديسي لإبليس وعبادتي إياه وإطاعتي له جعلتني موضع عنايته، فيهيئ لي ما أريد وما أشتهي، يقول الشاب: علمت إذ ذاك أنَّ الدرويش كافر مشرك، فتركته وسافرت إلى العتبات المقدَّسة تائباً مما كان مني أثناء غفلتي...

فشياطين الجن يقومون بتحقيق رغبات من يوافقهم في كفرهم وجحودهم ويخدمونهم حتى يوردوهم جهنم وبئس المصير. إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فَاطِر: الآية ٦] .

فمن الناس من يعبد الجن ويحقر المقدَّسات ويقوم بإهانتها ليتميَّز عن الآخرين بما سيهيِّئ له إبليس ما يدهش الألباب من أعمال يعجز عنها الإنسان حسب ملكاته الخاصَّة

به. إنه تعالى يقول عندما يصف أحوال يوم القيامة: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ: الآيتان ٤٠/٤١].

* * *

وقد نقل أحد كبار العلماء أنه قد كان في أصفهان رجل تصدر منه الخوارق ويخبِّر عن أشياء خفيَّة لا يعلمها إلا أصحابها.

فإذا كان موسم الحج. سافر من أصفهان في السابع من ذي الحجة، فيُرى في مكَّة وهو يصافح الحجاج ويرجع قبلهم مع عدم وجود طائرة في ذلك الوقت.

إنَّ الرجل كان معززاً مكرَّماً حتى وافته منيته.

وبعد مضي مدة على وفاته رأى ولده ذات يوم في موسم الحج أي في السابع من ذي الحجة وهو جالس في بيته، إذ دخل عليه رجل قائلاً له، إني كنت آتي أباك كل سنة في مثل هذا اليوم، لآخذه إلى مكَّة، وكان قد أحضر دابة، فقال لي: اركب. فركبت، وبعد مدَّة وجيزة جداً صرنا في البر، فنزل ونزلت، فقال: أنا الشيطان! . أسجد لي كما سجد لي أبوك من قبل..

يقول الولد، فقلت له: لست بساجد لأحد غير الله تعالى، إنما أسجد لله وحده لا شريك له. فطفق يلح ويلحف، حتى أعيى، فلم ألب طلبه، فتركني في الصحراء وانصرف. ثم إني صرت أدعو الله جلَّ شأنه لينجِّيني فما ألمَّ بي ويوصلني إلى بلدتي. فمنَّ الله عليَّ بالنجاة وذلك بإلهامي الطريق المؤدِّي إلى بلدتي.

فكان الولد بعد هذه الحادثة يلعن أباه، لأنه كان من عُبّاد الشيطان.

* * *

وإنما نهى الشارع عن إحضار الجن والأرواح وعدَّ ذلك كبيرة لما يؤدِّي ذلك إلى إطاعة الشيطان وعبادته وسوء العاقبة، أعاذنا الله منها.

وأنَّ مثل هذه الواقعة التي ذكرناها وقائع كثيرة، فمن طاوع الشيطان في كفره وإلحاده وتوهينه المقدَّسات وسبّه أولياء الله والولوج في شتَّى المعاصي وأطاعه، كان

الشيطان عوناً له في الإِخبار عما خفي عن الناس وتهيئة ما يريد من أشياء ووسائل.

وقد سمعت ممن اتَّصل بامرأة كانت تحضر الجن، أنَّه أراد أن يقوم بإحضار الجن بطريق غير شيطاني. فعلمته الإمرأة (واسمها صغرى) أن ينزل إلى السرداب ويرسم دائرة ويجلس في وسطها ويقرأ الأوراد المعيّنة. يقول الرجل: «امتثلت ما قالت الإمرأة وصرت أقرأ الأوراد، فظهر أمامي أنواع الحيوانات المخيفة، بأشكال شتَّى، ثم ظهر أمامي بحر خضم فيه تمساح كبير أراد أن يلتقمني. ففزعت وصحت: صغرى، صغرى، أدركيني، فقالت أخرج إلى سطح الدار، يا ضعيف النفس!».

فخرجت إلى سطح الدار ولم أنجح في تطبيق ما أمرتني به..

قد يستغرب مما أقول من تطبُّع على التجارب الفيزيائيَّة أو الكيميائيَّة، ولكن لا ينبغي لعالم مفكِّر دقيق أن ينكر ما لم يدرسه ولم يجرِّبه ولم يتتبَّع فيه. بل المفكِّر الحقيقي هو ذلك الذي يجعل كلَّ ما طرق سمعه في دائرة الاحتمال، فيسأل ويتتبَّع ويعقب ويجرِّب ويطبِّق ليصل إلى واقع الأمر والحقيقة، من وجود أو عدم وجود ما ينكره، حتى يكون حكمه مبنياً على الاستقصاء والتتبُّع والمداقة.

وما أكثر أحكام المتطفِّلين على العلم الحديث وأوهنها وأضعفها وأبعدها عن الحقيقة. إنها هوى النفس، وكبرها وطيشها ومروقها. إنها مظهر من مظاهر النفس البهيميَّة ورشحات من نزواتها ومجونها تلبست بلباس العلم، والعلم منها براء.

***

إِن ما يشاهد ويحدث من حوادث غريبة في الهند وغير الهند يجعل غير المعتقد بما وراء الطبيعة في حيرة من أمره، لا يعلم كيف يجيب وكيف يحلِّل الموضوع.

أنقل لكم ما حدث أخيراً عن امرأة هنديَّة، تجيب على أصعب العمليَّات الحسابيَّة بسرعة عجيبة؛ فقد سئلت عن جذر عدد كبير أصم، ووضع السؤال أيضاً في آلة معدَّة لحساب جذور الأعداد. فأجابت الإمرأة ارتجالاً أسرع من الآلة. فلم يطابق جوابها ما استخرج من الآلة من جواب. فأعادوا عليها السؤال فأجابت نفس الجواب، فعلم أن الخطأ إنما كان في ما استنتج من الآلة، وهي محقَّة في جوابها.

فهناك في الهند مرتاضون يأتون بالأعاجيب وأظنّهم لا يعلمون كيف تحدث على أيديهم هذه الأعاجيب والخوارق.

فقد ذكر لي أحد أرحامي وكان يتاجر في الهند، أنَّ رجلاً هندياً كان يأتي بالغرائب، فيلتقط من الفضاء موزاً وكل ما يراد منه، وذات يوم كان راكباً في قطار، فطولب ببطاقة، فقال: ليس لي بطاقة فأريد منه النزول، فقال انزل ولكن القطار سوف لا يتحرَّك. وكان كما قال: فلم يتحرَّك القطار حتى ركبا.

وذكر لي أحدهم، أنه كان يريد حمل مقدار من الأفيون دون مراجعة دائرة «الجمارك» إلى خارج إيران.

وسمع أنَّ في إحدى قرى طهران رجلاً يخبِّر عمَّا سيقع. فذهب إليه لعلَّه يعلم بما سيحدث من أمر الأفيون حين نقله خارج الحدود. فما أن دخل عليه، حتى رأى الرجل المرتاض! يخاطبه قائلاً، لا تحمل الأفيون من الطريق الفلاني، واحمله من طريق آخر (وذكر الطريق)، فأنت تفوز بمرادك.

يقول الرجل، أخذني العجب الشديد من هذا التنبأ، فقلت في نفسي، أبقى هذه الليلة في هذه القرية بالقرب من الرجل. لأراقب حاله وما عليه من رياضات.

يقول: «ذهبت إليه ما بين الطلوعين وصرت بالقرب منه، وهو تحت شجرة، فأومأ إليَّ، فدنوت منه، فلم أجده ممن يصلي أو يقوم بذكر وأوراد بل ألفيته وسخاً ذا أظافر طويلة، لا ترتاح لرؤيته النفس».

فقلت له: كيف تخبر عمَّا سيكون. فقال: أنا أيضاً لا أعلم، كيف يحدث ذلك. وإنما تجري على لساني ألفاظ، فأرى الناس يرونها مطابقة لما يدور في خلدهم ويتحقَّق كل ما يُقال على لساني. ولست إلاَّ آلة صمَّاء، لا أعلم لماذا يتحرَّك لساني وماذا سيجري عليه.

يقول. ثمَّ رأيته: أخرج قنينة صغيرة، فقال هذا سم، أتناول قليلاً منه. ثمَّ أخرج ثعباناً صار يلدغه، حتى أغمي عليه، ثم صحا، وأخذ يشرب في إناء وسخ مقداراً كثيفاً من الشاي مع السكر (النبات: على ما هو المصطلح). قال، هذه رياضتي، وهذا قوتي، وبعملي هذا بلغت ما بلغت ولا أعلم كيفيَّة ذلك.

فهل للعلم الحديث أن يحلِّل هذه القضيَّة على ضوء ما توصَّل إليه العلم المادِّي، إنهما من عالمين مختلفين، عالم الطبيعة وعالم ما وراء الطبيعة، فلا يمكن أن تحلِّل قضايا غير ماديَّة، قضايا ممَّا وراء الطبيعة على ضوء مكتشفات ماديَّة طبيعيَّة، لأنَّهما من واديين مختلفين.

إنَّ الرجل الذي تقدَّم ذكره، قد سلك طريقاً شيطانياً غير مرضي عند الله تعالى، وآذى نفسه، فجوزي بأمر من الله في دنياه بهذه الميزة التي لا يعلم كيف تتجلَّى له على حد قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هـود: الآيتان ١٥/ ١٦].

ولكن، هناك سلوك رحماني وهو سلوك الأنبياء عليهم السلام والصالحين من عباد الله، سلوك يطابق المنطق ويوافق العقل. فكم من آيات في القرآن تدل على إخبار بالغيب بإلهام من الله وعظيم لطفه. وممَّا قاله يوسف عليه السلام وهو في السجن: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يُوسف: الآيتان ٣٧/ ٣٨].

وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٤٩].

وقد جاء في الأخبار أن رجلاً مرتاضاً هندياً أتى الإمام الصادق عليه السلام وأظهر أنه يعلم كل ما يخفي الصادق سلام الله عليه في يده، وكان كما ادَّعى. ثمَّ سأله الصادق عليه السلام بعد أن أخفى في يده أشياء عدَّة، سأله ماذا في يدي؟ فقال قد تناولت من أقصى الهند بيضة كانت قد باضتها حمامة في أعلى الشجرة الفلانيَّة. وتعجَّب مما قام به الإمام الصادق عليه السلام.

فسأله الإمام عليه السلام: بِمَ وصلت إلى ما وصلتَ إليه فقال: بمخالفة النفس!.. ثمَّ عرض عليه الصادق عليه السلام الإسلامَ. فأبى، فقال له الإمام الصادق عليه السلام: أنت أخذت

على نفسك أن تخالف هواك. فخالِف هواك كما عاهدت نفسك. فقبل الرجل وأسلم.

ثمَّ أنَّ الصادق سلام الله عليه، أخفى في يده شيئاً وأراد من الرجل أن يتنبأ، فلم يستطع. وقال، ضاع عني ما كنت عليه ولا ألهم بشيء.

فقال له الإمام الصادق عليه السلام، ما مؤدّاه: إنك كنت ضالاً ومتبعاً خطواتِ الشيطان، فجازاك الله لمخالفتك هوى نفسك بهذا الإلهام وميَّزك عن غيرك بهذه الميزة في دنياك، وكنت في الآخرة من أصحاب النار. ولكن الآن، بعد أن تشرفت بالإسلام عاملاً بنصوصه، ذهب عنك ما توصَّلت إليه بطريق شيطاني مضل. وقد هيَّأ الله تعالى لك آخرة سعيدة وحياة أبديَّة هنيئة.

وكم قرأنا في المجلَّات أنَّ أُناساً أُعطوا من الإلهام بحيث يجيبون على عملية ضرب في الحساب: عشرة أرقام في عشرة أرقام بسرعة عجيبة، دون أن يشعروا كيف يجري ذلك على لسانهم.

إن عوالم ما وراء الطبيعة عوالم عميقة تستدعي التحقيق والتفكير وهي ليست من عوالم المادة، (سانتيمتر، غرام، ثانية) في شيء، فلا معنى لتحليل ما هو غير مادي بمقاييس مادية مقتضبة. وإنَّ الله تعالى، وله الحجَّة البالغة، يهيِّئ لهذا الإنسان بين الفينة والفينة حوادث لتذكيره، أنَّ وراء هذا العالم المادِّي عالماً آخر لا يُشبه العالم المادِّي في شيء، وليس هناك مقياس مشترك بينهما كما في الحوادث الماديَّة (الفيزيائيَّة أو الكيميائيَّة) كي يزداد هذا الإنسان إيماناً بربِّه وخالقه، وقدرته التي لا تحد، وعظمته التي لا تتناهى؛ مع العلم أنَّ ليس للإنسان المحدود في جميع قابلياته أن يحيط بالله الذي لا يحدُّه شيء. وأنى للمحدود أن يدرك غير المحدود إدراكاً تاماً وأن يحيط به، إنما يؤمن ويوقن بوجوده وهيمنته بقدر ما في نفسه من طهارة وصفاء.

* * *

إن العلم الحديث ليعترف بالأشعَّة الكونيَّة وهي لا تُرى ولها آثارها العجيبة ويعترف بالبث الإلكتروني وبأمواج الراديو واللاسلكي والتلفزيون وكل أولئك قوى وطاقات لا ترى بالعين وموجودة في الفضاء ولها آثارها. فلا يصعب على العلم

الحديث وحاملي لوائه الاعتراف بموجود هو من نوع طاقات خاصَّة، قد مَنَّ الله عليه بعقل وإرادة وكلَّفه بتكاليف وهو مسؤول أمام الله تعالى (وأعني بذلك الجن)، وهو القائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: الآية ٥٦] .

* * *

قلنا آنفاً إن الماديَّة قد تغلغلت في أوساط أوروبا وسرت إلى أصقاع أخرى، كل ذلك لتوفر وسائل الترف والفساد والإفساد وهتك الأعراض والحرمات وشيوع الربا والخمور وأنواع الظلم والفجور، فأظلمت النفوس، وتحجَّرت العقول، حتَّى صارت لا تبصر الحق والواقع، فقد جاء في الحديث: «إذا أذنب العبد كانت نكتة سوداء على قلبه، فإن هو تاب وأقلع واستغفر، صفا قلبه منها، وإن هو لم يتب ولم يستغفر كان الذنب على الذنب والسوداء على السوداء حتى يغمر القلب».

ولو تتبَّعت نفوس هؤلاء الماديِّين المنحرفين، لوجدتهم أبعد الناس عن العطف والحنان والأخلاق الفاضلة وأقرب الناس إلى الشهوات والملذَّات والإفساد والبغي والظلم، تشهد بذلك حياة (كارل ماركس) في صغره وشبابه ومع والديه وأخواته. فقد كان ينقطع عن الجامعة ويذهب إلى السكر والدعارة، يترك (بون) مقر الجامعة ويذهب إلى (كولون) في جوارها ويبتغي فيها ملاهي السمر. سيق إلى الشرطة لإفراطه في السكر والعربدة! وقد استخدم الأسلحة الناريَّة. كان فيه شهوة الهدم والتخريب، كان أنانياً يختلق التهم، حسوداً، مغروراً. كان يعامل من يخالفه معاملة ملءها التحقير والازدراء. ويقول لكل من يخالفه في الرأي: (بورجوازي). كان مغروراً بآرائه ويقول: آرائي وأفكاري . . . ولا يقبل أي نقاش. كان مسلوب العاطفة. فلم يذهب إلى بلده حين مات أبوه وبقي في برلين وهو رب الأسرة بعد والده. واسترسل في الطلب حتى نفد نصيبه من الميراث، فمال إلى نصيب أمه وإخوته. وكان قبلاً قد أرهق أباه في طلب المال؛ وقد انتحرت بنتاه: (لورا وأُختها). عقد مقاولة مع الجرائد وأخذ مبلغاً ولم يفِ بمنطوق العقد. وعقد اتفاقيَّة مع (ألكسي) على كتابة نظريَّاته الاقتصاديَّة (هذه التي لم تنل نصيباً من التطبيق لكونها بعيدة عن واقع الحياة)، وقبض ألفاً وخمسمائة فرنكاً وعقد في نفس الموضوع اتفاقيَّة أخرى مع شخص آخر ولم يفِ بكلتيهما!

نعم، إن رجلاً هذا ديدنه وتلك صفاته حقيق أن تترشَّح منه هذه الأباطيل. بأن يقول: «إن الديانات والعقائد جميعاً إنما هي انعكاسات الضرورات الاقتصاديَّة». إن لم يكن قد قصد وراء ذلك الانتصار للصهيونيَّة عن طريق الهدم والإفساد، وسحق المقدَّسات! ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [المَائدة: الآية ٤١].

إنه تعالى يقول: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ٩٩﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٩]. وفي آية أخرى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦]. فقد أغلق الله تعالى على الفساق أبواب الهداية حتى يؤوبوا ويتوبوا. هذه هي سنة الله في أرضه وسمائه. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزَاب: الآية ٦٢].

حقاً لو تعمَّقنا في ما سنَّه الله تعالى وأقرَّه لألفينا في ذلك كل المنطق وتمام العدل. وذلك لأنَّه بالتقوى والورع يعمَّر القلب وتتكامل النفس، فتصبح قمينة للفيوضات الرحمانيَّة والألطاف الربَّانيَّة، وبالفسق والفجور يتحجَّر القلب وتظلم النفس، فلا تجد لمعرفة الله تعالى طريقاً ولا لرفده سبيلاً. ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التّوبَة: الآية ٦٧] والإنسان الظالم لنفسه، هو الذي قد سد على نفسه أبواب المراحم الإلهيَّة والنفحات القدسيَّة الصمدانيَّة: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [النّحل: الآية ١١٨]. وفي آية أخرى: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٥].

* * *

إن أوروبا لا تزال منهمكة في فجورها وخمورها وما دامت كذلك، فلا تجد لهداية الله سبيلاً، إلا أفراداً قلائل ممن لم تغرَّهم المادَّة الصمَّاء، فتابوا وأنابوا واستضاؤوا بنور الإسلام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾ [الأحزاب: الآيتان ٤٥/٤٦].

فقد ذكر لي أحد الأصدقاء أنه ذهب إلى ألمانيا في الصيف الماضي، وقد زار أخاه في إحدى المدن وكان أخوه قد سافر قبلاً لتكميل تحصيله وأخذ درجة الدكتوراه. فرأى أخاه على غير ما كان عليه من قدسية مرموقة، وصلاة مع الجماعة ودعاء وابتهال

ليالي الجمعة في الحرم الشريف. رآه قد انغمر في ما حرَّم الله وأخذ الإيمان يتضاءل في نفسه، والجحود يأخذ طريقه إلى خَلده. وكان يتحدَّث له أخوه: أنَّ في الغرب، يرحِّب الأخ بمن يتَّصل بأخته بطريق غير مشروع ويراه أمراً طبيعياً لا غرابة فيه! . .

فصار يصف لي عوالم الليل، قائلاً: إن أكثر مدن ألمانيا مليئة بالحدائق العامَّة الكبيرة وتكاد تكون بعض المدن مجموعة من الحدائق. فإذا جنَّ الليل، لا تجد في هذه الحدائق إلا بصيصاً من الضوء، بقدر ما يميِّز الشخص طريقه. والناس من رجال ونساء، ينزو بعضهم على بعض حتى الصباح.

قارن. أيها القارئ الكريم، بين هذه الحياة البهيمية وحياة قدسية أخرى في بعض المدن الإسلاميَّة ترى المؤمن يقوم قبيل الفجر بساعة أو أكثر من فراشه قائلاً: (كما كان يقول رسول الله ﷺ)، «الحمد لله الذي أحياناً بعدما أماتنا وإليه النشور»[(١)]، فيتوضأ متوجهاً بكله إلى الحق المتعال. قائلاً بخشوع: «بسم الله وبالله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين»[(٢)]، فيأخذ طريقه إلى الحرم الشريف أو إلى مسجد قريب «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد... الحديث»[(٣)]، فيستقبل القبلة، متهجداً[(٤)]، بخضوع لا مزيد عليه، فيصلي لربه ركعات، ثم يستغفر الله تعالى مائة مرَّة في قنوت ركعة الوتر[(٥)]. فإذا انتهى من صلاته بكى[(٦)] نادماً على ما اجترحت يداه من ذنوب، وناجى ربه بخشوع، محاسباً نفسه على كل صغيرة وكبيرة، فقد جاء في

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٣، ص٢١٨، باب٤٤، ح٢٥.

(٢) الكافي: ج٣، ص٤٤٥، باب صلاة النوافل.

(٣) تهذيب الأحكام: ج١، ص٩٢، باب٤، ح٩٣.

(٤) ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: الآية ٧٩].

(٥) ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: الآيات ١٥/١٧].

(٦) روى أبو حمزة عن أبي جعفر عليه السلام: «ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع في سواد الليل مخافة من الله، لا يراد بها غيره».

الحديث: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزِنوها قبل أن توزنوا»[١]، حتى إذا أعلن المؤذِّن دخول وقت صلاة الصبح، قام فصلَّى ركعتي النافلة، ثم يبدأ بصلاة الصبح مع الجماعة إن وُجدت، وإلا فيصلي فرادى، ثم، يقوم بالتعقيبات الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام. فيخرج من المسجد، وهو مملوء فرحاً وسروراً لهذا الاتصال المعنوي القدسي، فهو تقرب إلى الله جلَّت عظمته، وإن هذا التقرب المعنوي هو غاية الغايات في الحياة الدنيا[٢]. فالإنسان يعد فائزاً في دنياه بقدر ما ينال من هذا التقرب القدسي من نصيب. وبعد ذلك يستقبل الحياة متوكِّلاً على الله تعالى بتقوى لا مزيد عليها ونفس زكيَّة تتجنَّب الغش والخديعة، بل جلَّ غايتها خدمة الغير. وإرضاء ربها. «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم... الحديث».

فأي الفريقين أقرب إلى الله؟ وأيهما أولى بولوج الفكرة المادية في نفسه.

إنها الذنوب ومن ورائها الشيطان يزيِّن لهذا الإنسان الطائش فكرته المادية وما يقوم به من إفساد في الأرض، بل يجعله أن يقول بالتأكيد أن العقائد والشرائع كلها خرافات وأوهام، وأفكار بورجوازيَّة! (Bourgeoisie). فلا حقيقة في الكون إلا المادة. هذه المادة التي لا يقوى المادي على تعريفها وبيان حقيقتها وكشف أسرارها وقوانينها إلا اليسير منها جداً، وهل للمادة أن تضع لنفسها قوانين فتطيعها ولا تتخلف عنها. لعل هذا المادي قد أحاط بالكون، فسافر إلى مسافات تبعد عنا ملايين ملايين ملايين... ملايين من الأميال بسرعة تفوق سرعة الضوء بمقدار لا يتناهى ووقف هناك على ما تقوم به (المادة) من خوارق ومعاجز وما تنظمه من قوانين ومعادلات في تنظيم هذا الكون المادي! بعقل جبار!

* * *

فطوبى لنفوس توجَّهت إلى الحق بنفس لم تتلوَّث بآثامها ومظالمها، فآمنت بكل

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٩٩، باب٩٦.

(٢) وقد جاء في ما أوحى الله إلى موسى بن عمران عليه السلام: «يا ابن عمران، هب لي من عينك الدموع ومن قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع، ثم ادعني في ظلم الليالي تجدني قريباً مجيباً».

ما أنزل الله من آيات بينات وبمن أرسل من رسل وأنبياء مبشِّرين ومنذرين وآمنت بوحي من نفسها وعقل لم يدنسه شيطانها ولم تُزحه إجرامها بما غاب عنها: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣] وصارت تعمل على ضوء تعاليم محمد والأئمَّة من بعده عليهم الصلاة والسلام للسير في مدارج الكمال البشري حتى تكون قمينة للخلود في جنة ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣] . وقد جاء في الحديث: «الدنيا ساعة، فلا تجعلها إلا طاعة».

حقاً: إن الوعظ والإرشاد لا يؤثِّران إلا في نفوس تخشى الله في خلواتها، نفوس تراقب الله في السر كما تراقبه في العلن، تعمل وفق ما تمليه عليه الفطرة! ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠] . إن نفوساً كهذه قمينة بأن تسير في معارج الكمال فتقطع مراحل التزكية وما ألذَّها! إنه تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فَاطِر: الآية ١٨] .

ونختم هذا المقال بقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحَديد: الآيتان ٢٠/ ٢١] .

فالله تبارك وتعالى قد هيأ لصالحي عباده جنة عرضها كعرض أرضنا وما يتلوها من سماء أي من أنجم وكرات وما بينها من مسافات شاسعة وذلك في فضاء لا يتناهى خارج هذا الفضاء الذي هو سماؤنا، أو بشكل آخر. فعلم الفلك الحديث يخبرنا أنه قد اكتشفت مجموعة من مجموعات الكواكب تبعد عن الأرض $١٠^{٢١}$ × ٦ميل. وإن شعاعه لا يصل إلينا إلا بعد (ألف مليون سنة ضوئيّة) ومعلوم أن الضوء يقطع في الثانية (١٨٦٠٠٠) ميل. فيجب أن يسير الضوء أو الشعاع الصادر من تلك المجموعة بسرعة ١٨٦٠٠٠ميل/ ثانية خلال ألف مليون سنة حتى يصل إلى كرتنا الأرضية.

فالله الذي قد عبأ في الشمس طاقة هائلة حتى كان الانفجار الذي قد حدث فيها قبل بضع سنين قد قدِّرت طاقته (الطاقة الناجمة نتيجة ذلك الانفجار) بقدر طاقة مائة

مليون قنبلة هيدروجينيَّة دفعة واحدة، قادر أن يخلق جنة عرضها كعرض السماء والأرض في ما لا يتناهى من مسافات وأبعاد خلقها بقدرته ودبرها بتدبيره.

فليس لهذا الإنسان المحدود في تفكيره وملكاته ومحاكاته أن يقيس العوالم اللانهائيَّة بمقياسه المقتضب المحدود، فمن درس أبحاث اللانهاية في الرياضيات العالية، يعلم أن من الخطأ الفاحش قياس العوالم اللانهائيَّة بمقياس عالمنا المحدود بجميع ما فيه من مواضيع. وإن فلسفة تبنى على مقاييسنا المحدودة، فلسفة واهية ليس لها من الواقع نصيب.

* * *

وهكذا تجعلنا العلوم الحاضرة أن نعتقد بما غاب عنا مما لا يُدرك بالحواس الخمس أو لا يرى بالعين. وكلما تقدمت هذه العلوم مماشية طهارة النفس والتقوى تحقَّق لهذا البشر أنَّ الماديَّة ليست إلا نزعة شيطانيَّة جاءت من جراء تلوث النفوس ولا حقيقة لها في عالم العلم والمكتشفات، وإن إنسانية الإنسان لا تتحقَّق إلا بالتجرُّد عن هذه الماديَّة في العقيدة والسلوك والتمسُّك بالمقدَّسات والإيمان بالغيب واتباع سُنَّة الرسول الأمين وأهل بيته المعصومين سلام الله عليهم أجمعين.

* * *

فلسفة المعاد(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: الآية ١١٥].

هكذا يخاطبنا الله تعالى في محكم كتابه فمن شاهد هذه القوانين المحكمة الرصينة في عالم الوجود: عالم الذرَّة، وعالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان وعالم

---

(١) نشر هذا البحث «فلسفة المعاد» في رسالة مستقلَّة من قبل «مكتب منابع الثقافة الإسلاميَّة» بكربلاء. وقد رأيت، مع تقديري وشكري للمكتب المذكور، أن أضيف شيئاً إلى البحث وأجعله من مواضيع الجزء الثالث لكتاب «التكامل في الإسلام».

الإنسان، في الفيزياء والكيمياء والفلك العالي، وفي علم الأحياء والمستحاثات (المتحجِّرات)، يقطع بأن الذي رتَّبها ونظَّمها لا يلهو ولا يلعب. وهو القائل: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١٧]. وفي آية أخرى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدّخان: الآيتان ٣٨/ ٣٩].

فإذا تتبَّع الإنسان حياته النفسيَّة في هذه الدنيا وما عليه نفسه من مساوئ أخلاقيَّة: حسد وبغضاء وحقد، ونميمة وغيبة، ظلم وبغي وبطش بغير حق، ثم ما يراه من حيف وظلم وقسوة وجفاء وبهتان وغيرها من آخرين، وما يرى من تشاجر وتطاحن لأمور ماديَّة سخيفة أو لجشع بين الأمم، وما يرى من ظلم واستعمار وغمط للحقوق بين الدول، وما يشاهد من حروب لا تبقي ولا تذر، يقطع بأن الله الذي خلق هذا العالم المادي من سماء وأرض، وما خلق فيه من جماد وحيوان، وما أودع فيه من كمال، ما بعده كمال، لا يريد بهذا الإنسان إلا (الكمال)...

ذلك لأنه يقطع بأن الكامل على الإطلاق وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال، ويقطع بأن البشر غير كامل في هذه الدنيا من النواحي النفسيَّة والأخلاقيَّة والاجتماعيَّة. وهو في هذه الحالة ـ إلا من شذَّ فصار يتكامل على ما رسمه رسول الله ﷺ ـ أشبه بالحيوانات الضارية، يضر بعضه البعض، إن وجد إلى ذلك سبيلاً. يقطع بأن الله الذي أكمل كلَّ شيء من مخلوقاته سوف يجعل لهذا الإنسان عالماً آخر كله اطمئنان وخلود وكله حبور وسرور، عالماً فيه ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية ٧١]، عالماً لا تطاحنَ فيه ولا تشاجر ولا تجاوز ولا اعتداء، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ٤٣]، عالماً يقول عنه تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحِجر: الآية ٤٧].

عالماً ليس فيه ما يلوِّث النفس الإنسانيَّة من ميسر (قمار) ولحم خنزير وفسق وفجور

وخمرة تذهب بالعقل بل ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ[(١)] ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ[(٢)] وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ[(٣)] ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ[(٤)] عِينٌ[(٥)] ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصَّافات: الآيات ٤٥/ ٤٩].

عالماً فيه حياة اجتماعية رفيعة، لا تشبه ما نحن فيه من هذه الحياة الملوَّثة بالآثام والإجرام والإحن والبغضاء والتطاحن والتشاجر.

عالماً يقول فيه الفائزون ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ[(٦)] وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ[(٧)] ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: الآيتان ٣٤/ ٣٥].

فلا حزن ولا تعب ولا نصب ولا لغوب في ذلك العالم، بل كله طمأنينة وصفاء وراحة لا تقاس بالراحة التي ينالها الفرد بصورة مؤقَّتة وغير كاملة في الحياة الدنيا. وهذه من صفات ذلك العالم القدسي، المنزه من كل ما يشين النفس أو يزعجها أو ينغص راحتها، ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: الآية ١٠].

هل ترى في هذه الدنيا فرداً راضياً من حياته الدنيوية؟.. لا من حيث ما منَّ الله عليه من نعم، فهي أعظم مما يستحقه هذا الإنسان بمراتب لا تعد ودرجات لا تُحصى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: الآية ١٨]، وهي بمقدار من الوفور والكثرة بحيث لا يقوى الإنسان على أن يؤدي تجاهها ما يجب عليه من شكر مهما بلغ من مراتب الكمال. ولكن من حيث ما يشعر به من حياة ملؤها المشاكل: مشاكل اجتماعية، مشاكل خلقية، مشاكل عائليَّة، مشاكل مرضية، وما هناك من نوائب وكوارث... فهو يشكو طوال حياته مشاكل كثيرة سيعود أو كانت هنالك

---

(١) أي من شراب معين أو نهر معين أي ظاهر للعيون أو نابع من العيون.

(٢) فساد كما في خمر الدنيا، أي ليس فيها غائلة تغتال العقل، واغتاله في أخذه غيلة أو خلسة وهو غافل.

(٣) يسكرون من أنزف الشارب أي ذهب عقله.

(٤) أي قصرن نظرهن على أزواجهن، فهن قاصرات العيون.

(٥) عين: أي واسعات العيون.

(٦) نصب: تعب.

(٧) لغوب: أعياء من التعب أو كلال.

حياة أخرى خالية عن هذه المشاكل وهذه النواقص وهذه النوائب وهذه التأثرات!..

نعم، كان حتماً في استطاعة الله تبارك وتعالى أن يجعل الحياة الدنيا، هذه التي نعيشها، حياة كاملة لا كدرَ فيها ولا أحزان. لا تطاحنَ فيها ولا نقصان؛ إلا أن الله تبارك وتعالى أراد بهذا الإنسان أن يتكامل في هذه الدنيا نفسياً، وأن يميِّز الخبيث من الطيب (مع علمه بهما قبلاً) إتماماً للحجة، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢]، ليذهب هذا الإنسان بعد هذه التصفية الحقيقية، (بجهود يبذلها وبجدارة واقعية) إلى عالم الخلود، حيث الصفاء والسرور.

«فالناس مجزيون بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»، ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: الآية ٧]. إنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: الآيتان ١٥/١٦].

* * *

ثم إن المفكِّر في مخلوقات الله تعالى وما صدر عن الله من خوارق، وأعني بها هذه القوانين الفيزيائيَّة التي تبهر العقول، يقطع بأن الكامل على الإطلاق وهو الله تعالى جلَّ أن يلهو؛ يخلق هذا الإنسان، بهذه الكثرة المتكاثرة، ليفسد في الأرض ويلوِّثها ويكتفي بهذا وليس وراء ذلك هدف ولا غاية. وهو القائل، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: الآيـة ٢٨]. ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٥٦].

يقطع بأن هذا لهو ولعب وجلَّ أن يلهو ربنا سبحانه مع قوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: الآية ٧٠].

يقطع من تفهم سنَّة الكمال وشاهدها بصورة جليَّة واضحة في كل زاوية من زوايا هذا الكون: أن هذه الدنيا دار اختبار وامتحان: «الدنيا دار عمل ولا حساب، والآخرة دار حساب ولا عمل».

يقطع بأنَّ الدنيا مدرسة يتكامل فيها حسب دساتير الأنبياء والأوصياء من بعدهم عليهم السلام.

يقطع أن سنة الكمال توجب أن تكون هناك، بعد هذه الحياة الملوَّثة! حياةِ التهيؤ والتزوُّد، «الدنيا مزرعة الآخرة» حياة خالدة، لا كدر فيها ولا اختبار ولا ابتلاء. حياة فيها «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر!».

يقطع هذا الإنسان الذي يرى كمال الله تعالى متجلياً في كل ما خلق من مخلوقات، أن وراء هذه الحياة الدنيا المضطربة، حياة البغي والجور ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحَديد: الآية ٢١]، جنة يصفها علي عليه الصلاة والسلام، بقوله: «فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها لعزفت[١] نفسك من بدائع ما أخرج إلى الدنيا من شهواتها ولذّاتها وزخارف مناظرها، ولذهلت بالفكر في اصطفاق أشجار[٢] غُيبت عروقها في كثبان[٣] المسك على سواحل أنهارها. وفي تعليق كبائس اللؤلؤ الرطب في عساليجها[٤]، وأفنانها[٥]، وطلوع تلك الثمار مختلفة في أغلف أكمامها[٦]، تجنى من غير تكلف، فتأتي على مُنية مُجتنيها، ويطاف على نزالها في أفنية قصورها بالأعسال المصفقة[٧] والخمور المروقة[٨]، قوم لم تزل الكرامة تتمادى بهم حتى حلوا دار القرار وأمنوا نقلة الأسفار».

«فلو شغلت قلبك أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة[٩] لزهقت[١٠] نفسك شوقاً إليها، ولتحملت من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها. جعلنا الله وإياكم ممن سعى (بقلبه) إلى منازل الأبرار برحمته».

* * *

إن الله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [البَلَد: الآية ٤]. والكبد معناه التعب والشدَّة، إذ يكابد الإنسان الشدائد منذ احتباسه في ضيق الرحم إلى الموت وما

---

(١) عزفت: زهدت.

(٢) تضارب أوراقها بالنسيم بحيث يسمع لها صوت.

(٣) جمع كثيب وهو التل.

(٤) جمع عسلاج وعسلوج وهو ما أخضر ولان من قضبان الشجر.

(٥) جمع فنن وهو الغصن.

(٦) أكمام جمع كم (بكسر الكاف) وهو وعاء الطلع وغطاء النور.

(٧) المصفقة: المصفاة.

(٨) المروقة: المصفاة.

(٩) المونقة: المعجبة.

(١٠) زهقت: خرجت.

بعده، إن لم يُطهر ولم يكمل في دنياه، عالَمِ التكامل والتزوُّد بالتقوى فلا بد لهذا الإنسان أن يجهد نفسه وأن يتغلَّب على شهواته وأن يخالف هوى نفسه، كي ينال السعادة الأبديَّة، ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: الآيتان ٥٤/ ٥٥].

وهو القائل أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق: الآية ٦]. والكدح معناه بذل أقصى مراتب الجهد. فالدنيا دار جهد وعناء وعمل متواصل لنيل درجات رفيعة والبلوغ إلى راحة أبديَّة سرمديَّة: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝٤٨﴾ [الحِجر: الآية ٤٨].

هذه هي فلسفة الحياة الحقة على وجه العموم. فلا تبديل لسنة الله وما شرّع وقرر: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: الآية ٦٢]. وإنَّ ما قرَّره الله تعالى حق تعلوه رحمته، «وسعت رحمته كل شي» يعترف بذلك العقلُ المتكامل والنفس غير الملوَّثة.

نعم، لم يخلق هذا الإنسان عبثاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: الآيات ٢٧/ ٢٩].

فعدم القيام بما أمر الله تعالى من واجبات الشكر، من إنفاق وبذل واهتمام بإطعام المساكين ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨﴾ [الفجر: الآية ١٨]، وبر الوالدين وصلة الأرحام وتواضع للفقراء والبؤساء والقيام بحوائجهم وحوائج سائر الناس، وصلاة وصوم وزكاة وخمس وحج والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وإرشاد الناس إلى معالم الدين، كل ذلك نتيجته الكفر والجحود. فإذا حلَّ الكفر اضطربت المحاكمات المنطقيَّة الصحيحة بشأن فلسفة الحياة وانسحب نتيجة لذلك العقل الذي يُعبد به الرحمان ويكتسب به الجنان. وصار يقول هذا الفرد المتردي: ليست هنالك غاية من خلق هذا الكون. ويتَّهم من لا يوافقه في الرأي بالرجعيَّة، أو تكون هذه الكلمة (الرجعيَّة) أقوى دليل! لهرائه، دون أن يجعل للمنطق مجالاً للتحليل والتحقيق.

حتى إني سمعت ممن كوَّنته المدنية المادية الحاضرة، قبل حوالي ٣٢ عاماً وهو

على فراش المرض، سمعته يقول: ما هذا النظام الأهوج في هذا الكون؟ ما هذا التبلبل، وما هذا التسيب؟ وكان يصم العالم بالانحلال والتبعثر وعدم وجود حكمة تربط ما في الكون بعضه ببعض، أو نظام تنتظم بموجبه أجزاء الكون بعضها مع بعض.

إنها رشحات نفسه الجاحدة لأنعم الله الكثيرة، المارقة عمَّا حدَّد الله وسنه في جميع مجالات الحياة...

إنه لا يجرؤ باتهام نفسه البهيميَّة ولا يعتبر بما أصابه من مرض وأوجاع كي يرجع عن طيشه وعيه، لكنه لذنوب كثيرة تلوثت بها نفسه أمسى جرثومة لا يفيد معها أي منبِّه أو إرشاد أو إصلاح: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفِّفين: الآية ١٤]. ونستجير بالله من هذه المرحلة التي مآلها النار، لا محالة.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: الآية ٢٠].

إنه يسلي نفسه المتسافلة بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: الآية ٣٧]. وبقوله: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: الآية ٢٤]. حقاً، إنهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الرُّوم: الآية ٧].

وأظنُّك قد فكَّرت كثيراً: لماذا هذه الأمراض في هذه الدنيا؟ ولِمَ هذا الفقر في بعض الأوساط أو لبعض الأشخاص بصورة مؤقتة أو دائميَّة؟.. ولماذا هذه الابتلاءات والنوائب؟ لماذا هذه الحروب التي لا تبقي ولا تذر؟ لماذا هذه الحرارة في الجو إلى درجة لا يستريح معها الفقير لعدم وجود وسائط لديه، ولماذا هذه البرودة في الشتاء إلى درجة يعجز عن مقاومتها البائس المسكين؟ أليس الله بقادر أن يجعل هذه الأرض فردوساً يتنعم فيه الإنسان فيرتع فيه ويمرح بهناء؟

فإنك بأسئلتك هذه قد شعرت أنه لابدَّ بعد هذه الدنيا الملوَّثة عالم آخر كله صفاء وكمال. ولعلك تصل إلى هذه النتيجة أن ليس في هذه الحياة الدنيا من نقص من جانب الله تعالى، وإنما سخر لهذا الإنسان كل شيء على حد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ

لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمَان: الآية ٢٠] . وما يراه هذا الإنسان نقصاً إنما هي مواد امتحانيَّة من صميم النفس يريد الله أن يختبر بها عباده في النوائب والكوارث. يختبر صبرهم في النوائب[1] فيطهرهم بها، ويختبر كذلك درجة شكرهم تجاه النعم من إنفاق وإيثار كي ينال كل فرد في الآخرة درجة تتناسب مع عمله: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٣] . على أن هناك مسرات وأفراحاً مشروعة لا تعد ولا تحصى. لا يقوى الإنسان على أن يقوم بأداء شكر جزء ضئيل منها، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سَبَإ: الآية ١٣] .

فإذا كنت أنت مع ما فيك من نقائص كثيرة، ترى ضرورة حياة كاملة مستكملة للشرائط، متوفِّرة فيها وسائل الراحة، يكافأ بها المؤمن تجاه صبره وشكره واجتيازه المواد الإمتحانيَّة بطاعة واختيار، فكيف بالله ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الإنفطار: الآيتان ٧/٨].

إنَّ الله قد جعل تلك الحياة السعيدة وأعني بها الحياة الآخرة المستكملة لشرائط الراحة جزاءاً موفوراً لصالحي عباده، أولئك الذين نجحوا في امتحاناتهم الدنيويَّة وجاهدوا في تزكية نفوسهم وتطهيرها من الدنس وسعوا للتكفير عن ذنوبهم لتسير نفوسهم نحو أوج الكمال.

إنه تعالى يقول: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [المُلك: الآيتان ١/٢]. فيعرفنا الله تبارك وتعالى أن الغاية من إيجادنا بعد أن لم نكن شيئاً ومكَّننا في الحياة الدنيا إنما هي للامتحان والاختبار ومعرفته تعالى ولكي ينال كل منَّا بعد الموت درجة يستحقُّها نتيجة عمله. وهو القائل: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٧] وفي آية أخرى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ

---

(١) ولا بأس بذكر هذا الحديث: «من صبر على خلق امرأة سيئة الخلق واحتسب في ذلك الأجر، أعطاه الله ثواب الشاكرين».

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحَديد: الآية ٢١] .

فقد جاء في الحديث: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»[(١)] .

وفي حديث آخر: «لا يزال الهم والغم بالمؤمن حتى ما يدع له ذنباً»[(٢)] .

وفي حديث عن أبي عبدالله عليه السلام: «كلما ازداد العبد إيماناً ازداد ضيقاً في معيشته»[(٣)] ، وكذلك عن أبي جعفر عليه السلام: «إنما يبتلى المؤمن في الدنيا على قدر دينه»[(٤)] . وكذلك عن أبي عبدالله عليه السلام: «المؤمن لا يمضي عليه أربعون ليلة إلا وعرض له أمر يحزنه يُذكّر به»[(٥)] .

وفي حديث آخر: «إن المؤمن لو كان في جحر ضب لسلط الله عليه من يؤذيه». وفي حديث آخر: «إن الله ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الطبيبُ المريض بالدواء»[(٦)] . وفي حديث آخر: «إنَّ الله إذا أحبَّ عبداً ابتلاه ليسمع تضرُّعه»[(٧)] . كل ذلك ليطهر الله تعالى عبده الآثم ممَّا علق به من دنس ورجس كي يذهب من هذه الدنيا طاهراً نقياً لا إثم عليه. ونذكر تأييداً لهذه الحقيقة هذين الحديثين:

فعن الإمام الصادق عليه السلام. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله تعالى يقول: وعزَّتي وجلالي لا أُخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه حتى أستوفي منه كل خطيئة عملها، إما بسقم في جسده، أو بضيق في رزقه وإما بخوف في دنياه، فإن بقيت عليه بقية شددت عليه عند الموت، حتى يأتي ولا ذنب عليه فأدخله الجنة»[(٨)] .

وعن الصادق عليه السلام أيضاً: قال النبي صلى الله عليه وآله: قال الله تعالى: «وعزَّتي وجلالي لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أُريد أن أُعذّبه حتى أُوفيه كل حسنة عملها، إما بسعة في رزقه أو بصحة في جسمه وإما بأمن في دنياه، فإن بقيت له بقية هونت عليه الموت حتى يأتي

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٧٢، باب٦٢.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٤٤٥، باب تعجيل العقوبة.

(٣)، (٤)، (٥)، (٦)، (٧) أصول الكافي: ج٢، ص٢٦١، باب فضل فقراء المسلمين، ح٤.

(٨) أصول الكافي: ج٢، ص٤٤٤، باب تعجيل عقوبة الذنب، ح٣.

ولا حسنة له عندي، فأدخله النار»[١].

وهذا مصير من أتم الله عليه الحجة مرات، وأغلق عليه من النعم ما لا يُحصى فلم يُفده كل ذلك وتمادى في طيشه وغيه وظلمه وبغيه، فأمسى جرثومة فساد لا تصلحه ولا تزكّيه إلا النار!

وفي حديث آخر: «إذا أراد الله بعبد خيراً، فأذنب ذنباً أتبعه بنقمة ويذكره الاستغفار، وإذا أراد بعبد شراً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار»[٢]. وقد بيَّنّا سبب ذلك. يقول الله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المُزمّل: الآية ١١].

وقد روى علي بن إبراهيم عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً لأصحابه: «ملعون كل مال لا يُزكى، ملعون كل جسد لا يُزكى ولو في كل أربعين يوماً مرة، فقيل: يا رسول الله: أما زكاة المال فقد عرفناها، فما زكاة الأجساد؟ فقال لهم: أن تصاب بآفة» قال: فتغيرت وجوه الذين سمعوا ذلك منه، فلما رآهم قد تغيرت ألوانهم، قال لهم: أتدرون ما عنيت بقولي؟ قالوا لا، يا رسول الله، قال: بلى، الرجل يخدش الخدشة وينكب النكبة ويقد القدة ويمرض المرضة ويشاك الشوكة وما أشبه هذا، حتى ذكر في حديثه اختلاج العين[٣].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «في كتاب علي عليه السلام: إن أشد الناس بلاءً، النبيُّون ثمَّ الوصيُّون، ثم الأمثل فالأمثل، وإنما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة، فمن صحَّ دينه وحسن عمله اشتدَّ بلاؤه، وذلك أنَّ الله عز وجل لم يجعل الدنيا ثواباً لمؤمن ولا عقوبة لكافر. ومن سخف دينه وضعف عمله قلَّ بلاؤه، وأن البلاء أسرع إلى المؤمن التقي من المطر إلى قرار الأرض»[٤].

وفي حديث آخر: «أيُّ مَن صفَت له دنياه فاتّهمه في دينه»[٥]. كل ذلك يدل أن

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٤٤٥، باب تعجيل عقوبة الذنب، ح١٠.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٤٥٢، باب الاستدراج، ح١.

(٣)،(٤) أصول الكافي: ج٢، ص٢٥٨، باب شدّة ابتلاء المؤمن، ح٢٦ و٢٩.

(٥) وسائل الشيعة: ج٢، ص٢٦٦، باب٧٧.

لابدَّ من ابتلاء ولابدَّ من اجتياز مراحل هذا الاختبار الإلهي العام، وهذا لا يتمّ إلا بنقص في العيش والصحّة والهناء والأولاد والأنفس والثمرات إلى ما هنالك. فإنه تعالى يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: الآيات ١٥٥/ ١٥٧]. ولا يكون إكمال هذا النقص الامتحاني إلّا بآخرة سعيدة ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣].

وهكذا يعتبر القرآن الدنيا متاع الغرور بقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٥]. وبقوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: الآيتان ١٦/ ١٧]. وفي الحديث: «الدنيا والآخرة ضرتان».

ولا بأس بذكر الأحاديث الآتية لنزداد إيماناً ويقيناً بالآخرة؛ ففي حديث: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». وفي آخر: «مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، حلاوة الدنيا مرارة الآخرة»[1]. ويراد بهذه المرارة تلك التي تطهرك من ذنوبك وتكفر به عن سيِّئاتك. ويراد بالحلاوة تلك التي تأتيك من مورد غير مشروع وبشكل غير شرعي. إنه تعالى يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعرَاف: الآية ٣٢].

فالدنيا دار التصفية، ولا تصفية إلا باختبار ولا اختبار لهذه النفس الإنسانية إلا بالابتلاء، على حد قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محَمَّد: الآية ٣١].

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تقص علينا ما كان من اختبار الماضين وامتحانهم من جانب الله تعالى، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المَائدة: الآية ٩٤].

ومعنى ذلك أن الله يمتحن عباده بأن يهيئ لهم ما يتمكّنون من اصطياده في وقت

---

(١) روضة الواعظين: ص٤٤١، مجلس في ذكر الدنيا.

يحرم عليهم الصيد، أي في حالة الإحرام. ذلك لأنَّ الصيد حرام مع الإحرام. فالله تعالى يريد أن يعلم (وهو العالم بما سيكون)، بل يريد أن يعلم الإنسان شخصه درجة نجاحه في هذا الاختبار الدنيوي أو الاختبار العالمي العام، كي يوقن بدرجة فضل الله عليه عندما يُغدق عليه من عميم نعمه وعظيم رفده فيوفقه إلى توبة خالصة، ليدخله بها الجنة برحمته، فسبحانه من رحمان رحيم ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر: الآية ٣] .

وعن السجاد زين العابدين عليه السلام: «بكل ذلك يصلح شأنهم ويبلو أخبارهم وينظر كيف هم في أوقات طاعته ومنازل فروضه ومواقع أحكامه ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النَّجم: الآية ٣١]»(١) .

وقد يبلغ ضعف النفس في بعض الأفراد مرتبة يهرب بسببها عن مواجهة مشاكله الحياتية بكأس من الخمرة، ظناً منه أنه يستريح بذلك من مشاكل الحياة وما يكابده من عناء، فتتسافل نفسه ويقع في مهالك لا تقاس بمشاكله من قبل، ويمسي بهيمة من البهائم، بعيداً عن رحمة ربه، آثماً، ملوثة نفسه بلوث الطيش والغرور.

وقد فاته أن الإسلام يكره الهروب من الواقع. إنه دين مواجهة وجَلادة، دين غلبة وجَلد وجهاد. وأعظم الجهاد هو جهاد هذه النفس الأمَّارة بالسوء. إنه تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المَائدة: الآية ٩١] . ويقول الرسول صلى الله عليه وآله: «اجتنبوا الخمر، فهي أم الكبائر». وفي حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وآله: «والذي بعثني بالحق نبياً إن شارب الخمر يموت عطشاناً وينادي واعطشاه ألف سنة، فيؤتى بماءٍ كالمهل يشوي الوجوه، بئس الشراب، فينضج به وجهه وتتناثر أسنانه وعيناه في ذلك الماء»(٢) .

وقد يفرُّ هذا الإنسان من ضعف إيمانه بالله تعالى (وإنَّ رحمته وسعت كل شيء) فيعمد عند تراكم المصائب عليه إلى الانتحار. والمؤمن لا ينتحر، معتقداً أن ما يصيبه من كوارث إنما هو لتزكيته وتطهيره. إنه يقول كلما أصيب بمصيبة: «إنا لله وإنا إليه

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٤، ص١٩٩، باب٩. (٢) مستدرك الوسائل: ج١٧، ص٤٥، باب٥.

راجعون»، ويعلم أن مآله ومآل كل أمر إلى الله تعالى. ولا يعبأ براحة هذه الدنيا المؤقتة إن سلبت منه برهة من الزمن بغية الاختبار والتطهير. ولذلك يقع في كل سنة في أوساط الغرب (من شرقية وغربية) حوادث الانتحار. بعشرات الآلاف، رغم ما يتشدق به الغربي من تربية الإرادة: (Volonté) ودراسات عميقة في التربية. تحدث في أمريكا في كل دقيقتين حادثة انتحار ويبتلى في كل ٣٠ ثانية شخص بمرض عقلي، ولا تسل عن عدد الجرائم التي تحدث في كل ثانية. والمجرمون جلّهم من حملة الشهادات!؟ كل ذلك، لضعف الإيمان بالله وعدم الاعتقاد بنعيم الآخرة بعد تحمُّل شدائد الدنيا. كل ذلك لاخفاق هذا التوجيه المادي في التربية. تربية لا تعمل لربط الفرد بعوالم الآخرة.

لقد خُلقنا للاختبار والامتحان، ولابدَّ من اجتياز هذه المراحل الامتحانيَّة بصبر وأناة، وليس لأحد أن يفر من هذا الامتحان الإلهي وهو القائل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المُلك: الآية ٢].

فالإنسان لم يخلق سُدى، يُفسد في الأرض فلا حساب ولا كتاب، بل لابدَّ له من أن يقطع مراحل التكامل النفسي، كما تقطع بقية الموجودات مراحلها التكامليَّة، كل بحسبه، وعلى ما أقرَّه الله تعالى تفضُّلاً منه ورحمة. وهو القائل: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: الآيات ٣٦/ ٤٠].

يقول الإمام علي عليه السلام: «واعلموا أنه ما من طاعة الله شيء إلاّ ويأتي في كره، وما من معصية الله شيء إلاّ ويأتي في شهوة، فرحم الله رجلاً نزع شهوته، وقمع هوى نفسه. لأنَّ هذه النفس أبعد شيء منزعاً. لا تزال تنزع إلى معصية في هوى، واعلموا أنَّ المؤمن لا يُمسي ولا يصبح إلا ونفسه ظنون عنده، لا يزال زارياً عليها ومستزيداً بها، فكونوا كالسابقين أمامكم والماضين من قبلكم، قوضوا الدنيا تقويض الراحل وطووها طي المنازل»[١].

---

(١) نهج البلاغة: ص٢٥١، في عظة الناس.

وهكذا يؤدُّ بنا الإمام الرابع علي بن الحسين عليه السلام، بقوله في دعاء له: «إلهي لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيتك جاحد. ولا بأمرك مستخف، ولا لعقوبتك متعرض، ولا لوعيدك متهاون، ولكن خطيئة عرضت وسوَّلت لي نفسي وغلبني هواي، وأعانني عليها شقوتي. فالآن من عذابكَ من يستنقذني، وبحبل مَن أتصل إن أنت قطعت حبلك عني. ولولا ما أرجو من كرمك وسعة رحمتك ومنعك إياي عن القنوط لقنطت، فهب لي من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب. فوعزتك لو انتهرتني ما برحت من بابك ولا كففت عن تملقك. إلى مَن يذهب العبد إلاّ إلى مولاه، وإلى من يلتجئ المخلوق إلا إلى خالقه»[1].

* * *

أوَ ترى أنَّ الله، وهو أرحم الراحمين، وهو الغفور الودود، أو ترى أن الله القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٣] والقائل: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾ [الأنعَام: الآية ١٢] . لا يريد لهذا الإنسان حياة سعيدة وادعة تجاه مجاهدته في الدنيا؟ فإن عظيم رحمته وكمال لطفه يوجبان أن يوجِد عالماً آخر، عالماً سرمدياً أبدياً في غاية الكمال. يخلد فيه هذا الإنسان جزاءً لصبره وشكره وأعماله الصالحة، وعبادته لربِّه في هذه الدنيا ولو بعد عقوبة وتطهير. ويظهر من الآية المتقدمة أنَّ الله تعالى بقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ﴾ [الأنعَام: الآية ١٢] قد أوجب على نفسه إيجاد عالم آخر كله هناء ودعة وخلود ما بعده موت: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزّخرف: الآيات ٦٨/ ٧١].

* * *

إن الإنسان ليعتقد بصورة فطرية «إن كان ممن لم يلوِّث نفسه بالموبقات

---

(١) راجع كتب الأدعية: دعاء أبي حمزة الثمالي.

والمدنسات، أنّ وراء هذا العالم الدنيوي عالماً آخر، يقتص الله تعالى فيه من الظالمين، ويثيب الصالحين»، لذلك يقول سُقراط لتلاميذه حين يقدم إليه السمّ: «إنّي ذاهب حيث يوجّهني الله، وإني ذاهب إلى عالم سرمدي آخر، لا تحزنوا عليَّ». فيتناول السم بكل ارتياح لشدة يقينه. كيف لا يكون كذلك؟ وهو الذي كان يقول بوحدانيَّة الله تعالى وعظيم لطفه. كان يقول: «إن الله أزلي أبدي غير متناه، سميع، رقيب، بصير، مدبر حكيم».

ولكن إن تلوَّثت هذه النفس الإنسانيَّة وأظلمت أمسى الفرد قليل الاعتقاد بالمعاد وما سيكون بعد الموت من سؤال وجواب وثواب وعقاب. فبمقدار ظلمات النفس يزول هذا الاعتقاد وقد ينعدم، فيعزو هذا المتسافل الاعتقاد بالمعاد والإيمان بالعوالم التي ستكون بعد الموت لا محالة، إلى ضعف النفس وعدم تمكنها من المكافحة والمقاومة، وقد يصف ذلك بـ(أفيون الشعوب)، ويعتبر ذلك تسلية للعاجز المسكين، هذا ما يسوله له شيطانه، حتى يجعله لا يفكّر في آخرته، فيرتكب ما شاء كيفما شاء: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: الآيتان ٣٦/ ٣٧].

وقد تقوى هذه النظريَّة الخاطئة: أي عدم الاعتقاد بما بعد الموت، عند الماديين العوام[1] إلى درجة أنهم يسندونها إلى العلم والعلم كله منه براء.

كيف ومتى تمكن العلم، هذا العلم المادي الذي يدرس في جامعات العالم أن يتوصَّل إلى ما وراء الطبيعة وعوالم لا تُبصر بالآلات والأدوات ولا تُستقصى بمعادلات وقوانين حتى يحق له أن يقول: بأزليَّة المادة ونفي الخالق جلَّ وعلا؟!.

فالإنسان الذي قد انفتحت بصائره لصفاء نفسه ولأعمال صالحة قد قام بها وعلى

---

(١) إنما قلت: الماديين العوام، ذلك لأن المادي (في عقيدته!) إن لم يكن قد درس الرياضيَّات العالية والفيزياء العالية، ولم يربط عصارات العلوم الحاضرة بعضها ببعض ربطاً فلسفياً فهو مادي عامي، لا يستند في هذيانه إلى ركن وثيق أو إلى برهان عميق. ولكن، لو تضالع هذا المادي (في العقيدة) في شتّى العلوم ونبغ فيها وترك شيئاً من خموره وفجوره فهو موحد لا محالة، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: الآية ١١٧].

رأسها: البر بالوالدين وصلة الرحم، حتى من حملة شهادة الدكتوراه، ليوقن أنَّ الله الذي أودع الكمال في كل جزء من أجزاء هذا العالم، من الذرَّة إلى الملائكة، في عالم المادة وفي عالم القوى والأرواح وقد ربط بعضها ببعض ربطاً دقيقاً متقناً بخواص ودساتير متقنة وقوانين رياضيَّة رصينة، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [المُلك: الآية ٣]. سوف يكمل هذه الحياة الدنيويَّة الناقصة من جهات شتى، نقصان في الكمال النفسي نقصان في النواحي الأخلاقيَّة، (من حيث التطبيق)، نقصان في النواحي الاقتصاديَّة، (من حيث التطبيق أيضاً)، نقصان في النواحي السياسيَّة (ذلك لأنَّ الإسلام دين ودولة)، نقصان في العلاقات الدوليَّة والإنسانيَّة، ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٦]، نقصان في النواحي الصحيَّة، نقصان في الطمأنينة والراحة الفكريَّة، (حتى بين بعض المتديِّنين)، نقصان في النواحي العلميَّة لجهل الإنسان كثيراً من حقائق الكون، وفوق كل ذلك قلق في نواحٍ شتى، سوف يكمل هذه الحياة الناقصة بحياة سعيدة أخرى، كاملة من جميع الجهات، ألا وهي الحياة الآخرة، حياة ملؤها رفاهيَّة وسرور وحبور، حياة كلها كمال، ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الطُّور: الآيتان ٢٢/ ٢٣]. وفي مكان آخر: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الطُّور: الآيتان ١٩/ ٢٠]. كمال في النفس وتكامل للتطلع والوقوف على حقائق وأسرار الأكوان والعوالم المتنوِّعة بصورة سرمديَّة، كمال في الصحة، كمال في الحياة الفرديَّة، كمال في الحياة الاجتماعيَّة، كمال في الحياة الاقتصاديَّة (إن قلنا بحياة اقتصاديَّة هناك)، وفوق كل ذلك خلود ما بعده فناء ولا زوال. ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هُود: الآية ١٠٨] (١).

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التَّحريم: الآية ٨].

---

(١) غير مجذوذ: غير مقطوع.

فإتمام النور للمؤمنين، هو الكمال الموعود، ذلك الكمال الذي به تزول نواقص هذا العالم الفاني، عالم العمل والاختبار. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: الآية ٤٠].

فالكامل وهو الله تعالى حاشا أن يخلق شيئاً ناقصاً إلاَّ ويريد لهذا الناقص (بسنن قد سنَّها) الكمالَ. وقد سنَّ طرق الكمال وسنن التكامل لهذا الإنسان على لسان أنبيائه عليهم السلام، فما أوحى الله تعالى إلى أنبيائه كله سنن ودساتير تؤدِّي بصورة تدريجيَّة إلى تكميل النفس الإنسانيَّة، كي تكون قمينة للانتقال إلى عالم آخر كله كمال.

ولا مراءَ أنَّ الله إنما أرسل الأنبياء عليهم السلام لتكميل البشر، لعلمه تعالى بما هنالك من نقائص شتى في هذا العالم الدنيوي وفي النفس الإنسانيَّة والحياة الاجتماعيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة إلى ما هنالك. ذلك لأنَّ هذه الحياة حياة تهيؤ واستعداد، وما فيها من نقائص هي، في الحقيقة، مواد امتحانيَّة يجتازها الإنسان لبلوغ الكمال والانتقال إلى عالم آخر، عالم سرمدي خالد كله كمال في كمال. فما نسميه في هذه الحياة الدنيا نقائص هي ليست، في الحقيقة، نقائص، رغم تسميتنا إياها، نقائص، وإنما هي مراحل يتقدَّم فيها الإنسان كما يتقدَّم الطالب في مدرسة ما من صف إلى صف.

فالإنسان مريض في هذه الدنيا بأمراض معنويَّة، لنقائص كثيرة في نفسه، ولذلك يقول الإمام علي عليه السلام: «إن الله أرسل إليكم رسولاً ليزيح به علَّتكم»[(١)].

وعن الإمام الرضا عليه السلام: خاطب رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً أصحابه، قائلاً: «ألا أخبركم بداءكم من دوائكم، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: داؤكم الذنوب ودواؤكم الاستغفار!»[(٢)].

فالأنبياء عليهم السلام هم معدِّلو هذه النقائص بصورة تدريجيَّة، لو أطيعوا، فطبُّقت دساتيرهم واتبعت تعاليمهم.

وأما المواد الامتحانيَّة التي تظهر للإنسان أنها نواقص أو نقائص فتبقى ثابتة تميز بين الفرد الصالح والفرد الطالح. ومن لم يتبع دساتير الأنبياء عليهم السلام ومن بعدهم الأوصياء عليهم السلام يذهب من هذه الدنيا وهو متسافل النفس، أعمى... ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: الآية ٧٢].

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٤، ص٢٩٧، باب ١٤. (٢) جامع الأخبار: ص٥٧، الفصل ٢٦.

ولما كان الكامل على الإطلاق وهو الله تعالى لا يصدر منه إلاَّ الكمال، وجب أن يكون، بعد الموت، عالم آخر كله كمال، خاص بعباد الله الصالحين، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً[1] يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: الآية ٣٢].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: الآية ٣٦].

وأنَّ الله يجازي الكافرين بعد أن أتم عليهم الحجة بعقل فطري: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ [الشمس: الآيتان ٧/٨]، وبإرساله الرسل: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: الآية ١٦٥]، وذلك بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ۝٣٧﴾ [فاطر: الآيتان ٣٦/ ٣٧].

فطوبى لنفوس تطهَّرت في هذه الفترة القصيرة الامتحانيَّة وتكاملت في هذا العالم الدنيوي، فذهبت إلى روح وريحان بنفس مطمئنَّة، ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۝٢٨ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝٢٩ وَادْخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ [الفجر: الآيات ٢٧/ ٣٠].

فما علينا إلا أن نستجيب لربنا[2] ونعمل، كي لا نكون مصداق هذه الآية: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۝١٠٥﴾ [الكهف: الآيات ١٠٣/ ١٠٥]. ولنتذكر هذه الآية دوماً ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ۝٤٧﴾ [الشورى: الآية ٤٧].

---

(١) خالصة: أي خالصة للمؤمنين يوم القيامة، فلا يشاركهم فيها أحد. لا كما في الدنيا حيث يشارك المؤمنين غيرهم من غير المؤمنين.

(٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٢٤].

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: الآية ٤٤].

* * *

فليجرب المجرِّبون وليختبر المختبرون ليروا صحَّة ما أقول. فكلَّما كان الإنسان أقرب إلى التقوى والأعمال الصالحة، نقيَّ الثوب، طاهر الضمير، كان اعتقاده بما بعد الموت وبالمعاد أقوى وأمتن. حتى وإن لم يكن قد بلغته دعوة الإسلام. وكلمَّا تردَّى وتسافل كان اعتقاده بالمعاد أوهى وأضعف. ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ[1] مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم: الآيات ١٠/ ١٥].

لذلك يبكي رسول الله ﷺ، بعد نزول سورة النصر، فيقال له: يا رسول الله، أَوَ تبكي، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر. فيقول: «أين هولُ المطَّلع وأين ضيقة القبر، وظلمة اللحد وأين القيامة والأهوال». وهو القائل: «معاشرَ الناس: إنه ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً أو يصرف عنه به شراً إلاَّ العمل. أيها الناس لا يدع مدع ولا يَتمنَّ مُتمنٍّ، والذي بعثني بالحق نبياً، لا ينجي إلا عمل صالح مع رحمة، ولو عصيتُ لهويتُ».

فقضية إيمان الفرد بما بعد الموت من عوالم الآخرة والإيمان بسؤال الملكين: (منكر ونكير) في القبر عن ربه وعن دينه ونبيه وإمامه وصلاته و. . . إلخ. وكذلك الإيمان بالصراط[2] والميزان[3] وتكلم الجوارح[4]،

---

(١) همَّاز أي كثير الطعن. عُتلّ: جافٌّ غليظ. زنيم: دَعِيٌّ، منسوب لغير قومه ـ أساطير: ما سطروه من خرافاتهم

(٢) الصراط: هو جسر جهنم، يمر عليه جميع الخلائق، فالمطيع يجوزه إلى الجنة، والعاصي يهوى به في النار.

(٣) الميزان هو ما يقابل فيه بين الحسنات والسيِّئات، وليس هو بميزان مجسم. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ٨/٩].

(٤) تكلم الجوارح: أي أن أعضاء الإنسان تتكلم يوم القيامة بأمر الله وإذنه، وتشهد على صاحبها بما=

وتطاير الكتب[(١)] والحساب يوم البعث[(٢)] والجنة والنار والشفاعة والحوض[(٣)] وهكذا الإيمان بكتابة الأعمال[(٤)] إنما هي قضية طهارة النفس وتزكيتها. فكلما كانت النفس طاهرة، زكيَّة صالحة نقيَّة، زاد اعتقادها بالآخرة وعوالمها وتمنَّت الموت. وكلما كانت النفس ظالمة حالكة مظلمة، كانت جاحدة عوالم الآخرة، فلا تتمنى الموت. ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الجُمُعَة: الآية ٧] ومنهم من ينسب جحودَه هذا إلى العلم الحديث تبريراً لموقفه. والعلم قديمه وحديثه من كل ذلك براء.

نعم آفة العلم الحديث أنه لا يرافق التقوى والإيمان بالله. وإنما تلقى مواضيعه

= فعله في الدنيا من الذنوب، وهو على كل شيء قدير، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: الآية ٦٥].

(١) ومعنى تطاير الكتب: هو أن الله تعالى بعد أن يحاسب العباد يوم القيامة يخرج لكل واحد منهم كتاباً يلقاه منشوراً. فيطير كل كتاب إلى صاحبه، فيجد فيه كل ما عمل في دار الدنيا، ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: الآية ٤٩]. فيقال له: اقرأ كتابك، ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: الآية ١٤].
﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾. (والثبور معناه: الهلاك، أي يدعو الله أن ينزل عليه الثبور).

(٢) معناه: أنَّ الله تعالى يحاسب العباد بعد بعثهم من قبورهم وإحيائهم بعد موتهم على أعمالهم التي عملوها في دار الدنيا. ثم يجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

(٣) هو حوض النبي ﷺ يوم القيامة. عرضه ما بين ايلة (بلد بين مصر والشام وصنعاء). فيه من الأباريق عدد نجوم السماء. والساقي عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

(٤) ومعنى ذلك: إن الله تعالى وكّل بكل مكلف من عباده ملكين بالنهار وملكين بالليل، أحدهما على اليمين، يكتب الحسنات، والآخر على الشمال، يكتب السيئات، فيكتبان جميع أعمال العبد. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾. ومن هم بحسنة كتبت له حسنة، فإذا فعلها كتبت له عشر حسنات. ومن هم بسيئة لم تكتب عليه، فإن فعلها أمهل سبع ساعات، فإن تاب منها لم تكتب عليه، وإن لم يتب منها كتبت عليه سيئة واحدة. قال الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٦٠].

على الطلاب مع نزعة إلحادية مجردة عن عزو ذلك إلى قدرة الله تعالى وجليل صنعه. عدا ما هنالك من مجالات وحريات! تفسد الشاب وتذهب بحيائه الطبيعي، فإذا ذهب الحياء ذهب الإيمان معه، وقد جاء في الحديث: «لا إيمان لمن لا حياء له».

* * *

أرأيت رجلاً عليه سيماء الخشوع والخضوع، ترتاح نفسك عند النظر إليه، يُلهمك التقوى ويجعلك تفكر في مصيرك وعاقبتك، ويذكّرك الله وتطمئن إليه نفسك. أرأيت كيف يأخذ بمجامع قلبك، فلا يختلج في صدرك عند النظر إليه ما يفسد القلب ويلوّث النفس!

أرأيت رجلاً يخشع قلبه عند سماع ذكر الله تعالى وتدمع عيناه، أرأيت رجلاً غزير الدمعة جوف الليل من خوفه تعالى كيف يؤمن بالآخرة ويراها واضحة لا غبار عليها. إنه أحد أولئك الذين يصفهم الإمام علي عليه السلام بقوله: «فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعَّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذَّبون»[1]. لذلك ورد في دعاء يقرأ بعد نافلة المغرب: « اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تقنع وبطن لا تشبع وعين لا تدمع وقلب لا يخشع وصلاة لا تُرفع وعمل لا ينفع ودعاء لا يُسمع... إلخ»[2].

كان يأتي بعض الأعراب محمداً صلى الله عليه وآله وسلم. فيقولون حين وقوع أبصارهم على محيَّاه: «والله ما هذا الوجه بوجه كذاب». ولقد جربت ذلك في بعض من مَنَّ الله عليهم بتوفيق الهداية. فبعد أن كان وجه أحدهم مكفهراً ذا تقاطيع خاصة لا ترتاح إليها النفوس أصبح بعد التوبة والإنابة وضاءً يستلهم الناظر منه الخير والطمأنينة.

ولكن نفساً يتطاير منها الشر والشرر والطيش والجور والبغي، نفساً متكبِّرة متحجِّرة، تشمئز منها نفسك، إن كانت قد بلغت مرتبة من التقوى. فلو نظرت إلى وجه هذا الشخص لألفيته وجهاً مكفهراً، حالكاً لا ترتاح النفوس عند النظر إليه. إن نفساً كهذه لا تؤمن بالآخرة ولا تصدق بالبعث، بل ديدنها الاستهزاء بالمقدَّسات وشعارها التكذيب بآيات الله تعالى.

---

(١) نهج البلاغة: ص٣٠٣، خ١٩٣.

(٢) المصباح للكفعمي: ص٣٣، الفصل٨.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ۝٢٣﴾ [النّحل: الآيتان ٢٢/ ٢٣].

وهكذا لا تؤمن بالآخرة نفوس دَيدَنها الخديعة والمكر والغدر.

نفوس تنتهز الفرص لإيقاع الآخرين في المهالك. إن نفوساً كهذه لتفرح عندما تنجح في مكرها وخداعها وتظن أنها قد فتحت جبهة من الجبهات أو جاءت بأمر خطير. وقد فاتها أنها خانت نفسها وأبعدتها عن ساحة القدس. وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من ماكر مسلماً»[1]. وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لولا أن المكر والخديعة في النار لكنت أمكر الناس»[2].

أوَ ترى نفساً هذا دَيدنها تؤمن بالحساب والجزاء وتوقن باليوم الآخر. ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففين: الآية ١٤]. ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ[3] ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ[4] سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ[5] ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾ [الذّاريات: الآيات ١٠/ ١٤].

فقضية التصديق بالبعث ليست قضية عقل ومنطق فحسب، وإنما العقل يحجب بالذنوب، فتنكر النفس الملوثة كل ما كان التصديق به أمراً طبيعياً فطرياً. ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ۝١٠﴾ [الرُّوم: الآية ١٠].

ومنطق هذا الإنسان إن كان قد لوَّث نفسه بالذنوب قد يصدق بالله واليوم الآخر ويعترف بالمقدَّسات برهة ضئيلة من الزمن عندما تُملى عليه البراهين. إلا أنه سرعان ما يغلب على النفس المتسافلة شيطانها فيأتي دور الإنكار والجحود بقوة وشدة لا مزيد عليها، ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٥].

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النَّمل: الآية١٤].

---

(١)،(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٣٣٧، باب المكر..، ح٣ و١.

(٣) الكذابون.

(٤) غمرة: جهل يغمرهم.

(٥) يفتنون: يعذبون.

فقضيَّة التصديق بالبعث هي قضيَّة تقوى ونفس زكيَّة قبل كل شيء على حد قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: الآيات ١/ ٣].

وقد أخذ بعض علماء النفس المحدثين يعترف للنفس الإنسانيَّة ببعد رابع وهو الاعتقاد بالله واليوم الآخر بصورة فطرية. وهذا يشبه (الزمان) الذي جعله (آينشتاين) بعداً رابعاً لقياس المسافات الشاسعة ومقدار الكتلة والحجوم في تلك المسافات النائية، عدا الأبعاد الثلاثة. وإن العلم الحديث أخذ يقترب مما أملاه الأنبياء عليهم السلام على البشر وما أخبرونا به عمَّا وراء الطبيعة.

* * *

وإني لأتذكر جيداً، أني قرأت ذات يوم خطاب رسول الله ﷺ حين دعا عشيرته الأقربين:

«إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم، ولو غررت الناس ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو، إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتنَّ كما تنامون. ولتُبعَثنَّ كما تستيقظون. ولتُحاسُبنَّ بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً»[1]. علي مدرس في إحدى الثانويات، فوضع إصبعه على هذا السطر: (ولتبعثن كما تستيقظون) قائلاً: «إن في قلبي شيئاً من صحَّة هذا الكلام»! وأظهر أنه غير موقن بالمعاد. فسألت عن عمله، فعلمت أنه اندمج أخيراً في زمرة مَن بعَّدهم الله عن رحمته. ولكنَّ الله تعالى شاء له أن يموت على الإيمان. فضاقت أموره وتردَّت صحَّته، فرجع شيئاً فشيئاً عن غيِّه وطيشه، فصار يؤمن بالبعث: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٨].

وكم في النكبات من فوائد وعبر ورجوع إلى إصلاح النفس ومعالجتها وأوبها إلى التوبة والإنابة. فعن الرسول ﷺ: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل همٍّ فرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب»[2].

---

(١) بحار الأنوار: ج١٨، ص١٩٧، باب ١.
(٢) أعلام الدين، للديلمي: ص٢٩٤.

وفي حديث آخر: «من تاب قبل أن يغرغر[١] بها تاب الله عليه»[٢]. وهذا خير دليل على عظيم لطفه تعالى وفتحه باب التوبة إلى آخر لحظة من حياة الفرد. إلا أن الفرد سوف لا يوفق إلى التوبة إن رانت الذنوب على قلبه وغلبت وطبعت عليه. ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: الآية ٨٧]. والرين أو الدنس إن استولى على القلب فلا يدع مجالاً لرؤية الحق والواقع ومعالجة النقص المتأصِّل في النفس. فيرى الفرد إذ ذاك الحقائق أساطير وخرافات على حد قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: الآيتان ١٣/ ١٤].

وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: الآيات ٨١/ ٨٧].

فبالتقوى يعمر القلب ويزول عنه الصدأ ويرتفع حجاب الظلمات، فلا يعتبر بآيات الله وما أنزل على رسله إلا المتقون، ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: الآية ٣٣]. وهو القائل: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس: الآيتان ١٠/ ١١].

ولا بأس بذكر هذا الحديث لأهميته، يستفيد منه من مَنَّ الله عليه بتوفيق الطاعة، فأدرك فلسفة الدين، فلسفة قد لا تتفق في جوهرها مع ما عليه كثير من الناس اليومَ، من معاني الدين. ولكنها تفسير لما ذكر الله تعالى في كتابه المنزل:

قال أبو عبدالله عليه السلام: «كان في ما وعظ به لقمان ابنه: يا بُني، إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم، فلم يبق ما جمعوا، ولم يبقَ من جمعوا له. وإنما أنت عبد مستأجر. قد أمرت بعمل ووعدت عليه أجراً. فأوفِ عملك واستوفِ أجرك. ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر، فأكلت حتى سمنت، فكان حتفها[٣] عند

(١) غرغر: جاد بنفسه عند الموت.
(٢) بحار الأنوار: ج٦، ص١٦، باب ٢٠.
(٣) حتفها: هلاكها.

سمنها. ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جُزتَ عليها وتركتها ولم ترجع إليها آخر الدهر. إخربها ولا تعمرها، فإنك لم تؤمر بعمارتها، واعلم أنكَ ستسأل غداً إذا وقفت بين يدي الله عزَّ وجلَّ عن أربع: شبابك فيمَ أبليته[١] وعمرك فيمَ أفنيته، ومالك مِمَّ اكتسبته وفيمَ أنفقته، فتأهَّب لذلك وأعدَّ له جواباً. ولا تأس على ما فاتك من الدنيا، فإن قليل الدنيا لا يدوم بقاؤه. وكثيرها لا يؤمن بلاؤه. فخذ حذرك وجدَّ في أمرك، واكشف الغطاء عن وجهك، وتعرّض لمعروف ربك، وجدد التوبة في قلبك، واكمش[٢] في فراغك، قبل أن يقصد قصدك[٣] ويُقضى قضاؤك ويُحال بينك وبين ما تريده»[٤].

ولقد عرفت شخصاً ذرَّف على الستين، كان في ريب من وجود الإمام الثاني عشر، الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه، وإنه حيٌّ يُرزق، وسيظهر حين يأمره الله تعالى، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. وكان يخالجه شك عندما يفكر في كيفيَّة المعاد. وعندما رجعت إلى ما أعلمه من معاملاته السابقة، علمت أن ضعف عقيدته ناتج عمَّا قام به من أعمال غير مرضيَّة عند الله تعالى. إلا أنه، والحمد لله، قام بإصلاح نفسه أخيراً للتكفير عما اجترحت يداه من ذنوب بعزم رصين. ويوشك أن يرجع إلى ما كان عليه في صغره من عقيدة راسخة بحياة الحجة عجل الله تعالى فرجه، وبالمعاد. وذلك بعد تطهير نفسه وجعلها غير مشوبة بالذنوب، فقد جاء في الحديث: «التائب عن الذنب كمن لا ذنبَ له».

* * *

يرى هذا الإنسان من الكمال الذي أودعه الله تعالى في خلقه: أنَّ جعل تردُّد[٥] صوت الرجل (١١٠) في الثانية وتردد صوت المرأة: (٢٢٠) في الثانية، ليكون صوت

---

(١) الثوب البالي هو الذي استعمل حتى أشرف على الاندراس. أبلى الثوب: صيره بالياً.

(٢) الكمش: السعي، أي أسرع وعجل.

(٣) قصدك: نحوك، كناية عن توجه ملك الموت إليه ليقبض روحه أو توجه أمراض وبلايا من الله إليه.

(٤) أصول الكافي: ج٢، ص١٣٤، باب ذم الدنيا، ح٢٠.

(٥) التردد في الثانية: هو عدد اهتزازات الجسم الصائت أو (المهتز)، أو عدد ذبذباته الكاملة في ثانية واحدة. كما نشاهد ذلك في الشوكة الرنانة.

المرأة أجمل وألطف من صوت الرجل. فينجذب الرجل إليها وتكون بينهما مودَّة ورحمة، فيسكن إليها وتسكن إليه[١]. فلا يتصدَّى الرجل إلى ما حرم الله ودنَّسه من فسوق وفجور وشذوذ جنسي يدل على ضعة النفس وتدنسها وتلوثها وبُعدها عن الكمال كل البعد فيتسافل إلى أسفلِ السافلين وبئس المصير. فكل ما حرم الله تعالى إنما هو في ذاته ملوّث، دنس يضاد الكمال وطهارة النفس، فقد جاء في الحديث: «من قبَّل غلاماً من شهوة ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»[٢]. ولذلك يقول الله تعالى لردع الناس عن الشذوذ ومنعهم عمَّا يضاد طهارة النفس ويؤدِّي إلى التسافل وإلى شذوذ جنسي:

﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾. فمنع الله تعالى بكلمة (المتطهِّرين) عن كل شذوذ وكل ما يخالف الذوق السليم الطاهر ويخالف سنة الكمال الذي يريده الله لعباده ولجميع ما خلق. وأيَّد ذلك تحقيقاً للكمال الإنساني وتوضيحاً لقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٢] بقوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾. فنهى الله بقوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ عن كل شذوذ يخالف تحقيق مفهوم (الحرث)، وحذر الأزواج عن هذا الشذوذ المقيت، المحرم مع نسائهم بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ﴾. وبقوله: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٣] كي لا يتسافل هذا الإنسان بتدنيس نفسه وتلويث فراشه، فيتعدى حدود التكامل الذي أراده الله لعباده في هذه الدنيا. وكذا الحال في كل ما نهى عنه الله تعالى في محكم كتابه الكريم. فروح الإسلام هي التكامل والكمال في جميع مرافق الحياة، من اجتماعيَّة وفرديَّة وغيرهما. هذا ما نلاحظه في كتابنا المقدس، القرآن العظيم الذي «فيه تبيان لكل شيء» وهو القائل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا[٣] فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [الأنعام: الآية ٣٨].

---

(١) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرّوم: الآية ٢١].

(٢) الكافي: ج٥، ص٥٤٨، باب اللواط، ح١٠.

(٣) ما فرطنا: ما تركنا من شيء.

إنِ التكامل غاية الغايات في هذا الكون[١]. فمن أيقن به علم أنه لابدَّ وأن تكون وراء هذه الحياة القلقة (المضطربة) حياة طمأنينة ودِعة وهدوء وسرور، وأنَّ وراء هذه الحياة الناقصة حياة كاملة، بكل ما في الكمال من معنى، ليس لهذا الإنسان أن يتصوَّر مداه ما دام في هذه الدنيا.

لذلك يخبرنا الله تعالى عن حتميَّة يوم البعث في هذه الآية التي تدل على ما أودع الله من تكامل تدريجي عجيب في كل جزء من أجزاء هذا الكون، لا سيَّما تشكلات الجنين الذي هو معجزة الله في أرضه من معاجز لا تتناهى.

إنه تعالى يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: الآيات ٥/ ٧].

فطوبى لنفوس تُدرك الكمالَ المودع في هذا الكون وكيف أن الله أحاط الجنين بظلمات ثلاث، أي بثلاثة أغشية صماء لا ينفذ منها الماء والضوء والحرارة[٢] وذلك بقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ۚ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦]. إن نفوسنا كهذه تنزه الله تعالى عن كل نقص وتسبِّحه ليلَ نهار، لا سيَّما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [قَ: الآيتان ٣٩/ ٤٠]. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: الآية ١٣٠].

---

(١) قال رسول الله ﷺ مخاطباً علياً عليه السلام: يا علي، أربع من يكن فيه فقد كمل إسلامه: الصدق والشكر والحياء وحسن الخلق.

(٢) وهذا ما توصَّل إليه أخيراً العلم الحديث: وتسمى الأغشية المذكورة باسم: المنبارية والأمنيونية والخوربونية.

وذلك لأنَّ التسبيح يوحي أنَّ الله تعالى منزه عن كل نقص وعن كل عيب وأنه في غاية الكمال وما يصدر عنه أيضاً في غاية الكمال، فمعنى (سبحان الله) أي أنَّ الله منزه عن كل نقص وعيب وهو في غاية الكمال، وما يصدر عنه كامل لا نقص فيه. فتكامل هذه الحياة الدنيويَّة بالحياة الأخرويَّة الدائمة السعيدة. ولذلك كانت التسبيحات الأربعة: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر) في الركعتين الأخيرتين من صلاتي الظهر والعصر وصلاة العشاء أفضل من تلاوة سورة الفاتحة.

* * *

ثم إن البعض يستبعدون إمكان البعث، بعد أن تبلى الأجساد من الناحية الماديَّة. حين أنَّ الله تعالى قد خلق في هذا الكون مقادير هائلة من الإيدروجين والأوكسيجين والكاربون والكلس والحديد إلى ما هنالك من عناصر لتكوين القسم المادي من البدن الإنساني وخلق طاقات بمقادير لا تحد. فباستطاعة الله تعالى أن يُرجع لكل إنسان بدنه المكوَّن من نفس العناصر فلا فرق بين عنصر وعنصر وبين إيدروجين وإيدروجين آخر. وبين حديد وحديد آخر. فيكوِّن الله تعالى ممَّا خلق أو ما يريد خلقه بمقدار لا يتناهى من حديد وإيدروجين وعناصر أخرى، الأجسامَ أو الأبدان التي كانت الأرواح تحل فيها وتسيطر عليها لمحاسبتها يوم البعث. ولا يُحاسب إلا الروح. أما البدن فيعذَّب إن كانت الروح التي تحل فيه عاصية لله. فتشعر الروح بهذا العذاب. ومما لا مراء فيه أنَّ عمليات الهدم والبناء في الكيان العضوي لا تدع مجالاً لبقاء عضو محافظاً على نفس الخلايا والأنسجة، ذلك لأنَّ الخلايا والأنسجة تتجدَّد وتتبدَّل من حين إلى آخر فلا يبقى البدن الإنساني على ما هو عليه من حيث العناصر أو الخلايا والأنسجة. أي أنَّ الخلايا والأنسجة بما فيها من عناصر تتبدَّل من حين إلى آخر.

يقول الله تعالى في سورة المؤمنون، الآية١٢: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾. أي من خلاصة سُلَّت من بين الكدر ومن خلاصة أخذت من الطين. ومعنى ذلك أنَّ الإنسان إنما خلق من مجموعة عناصر شتَّى: (كاربون، أوكسيجين، إيدروجين، فوسفور، كبريت، آزوت، كالسيوم، پوتاسيوم، صوديوم، كلور،

مغنيسيوم، حديد، مانغانيز (منگانز)، نحاس، يود (ايود)، فلورين، كوبالت، التوتيا (zinc)، سلكون، ألمنيوم. وإنَّ هذه العناصر هي العناصر المكوِّنة للتراب.

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية ١٤]. والصلصال هو الطين اليابس. والطين هو التراب الذي أضيف إليه الماء وفي آية أخرى: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحِجر: الآية ٢٦].

ولا شك أنَّ اتِّحاد الحيوان المنوي، الذي يفرزه الذكر، بالبويضة، التي تفرزه الأنثى، هو الذي يكوِّن نطفة الإنسان. أي أنَّ نُطفة الإنسان تنشأ من اتحاد الحيوان المنوي (من الذكر) بالبويضة (من الأنثى). والحيوان المنوي والبويضة كلاهما يتولَّدان من الدم، والدم يتولَّد من الغذاء الذي يتناوله الإنسان، وهذا الغذاء إما نبات أو حيوان أو ماء. وكلُّها متكوِّنة من عناصر التراب. أي من (إيدروجين، فوسفور، كبريت، سلكون... إلخ). إذن قد خُلق الإنسان من تراب. ذلك لأنَّ ما في بدن الإنسان من عناصر شتَّى (تلك التي ذكرناها) كلها موجودة في التراب. وهكذا أثبت العلم الحديث أنَّ الإنسان مخلوق من تراب على ما جاء في كتاب ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٢] وهذه إحدى معجزات القرآن الكريم.

وهو القائل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرُّوم: الآية ٢٠]. وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٩]. وليس للعلم الحديث أن يتوصَّل إلى أنَّ قول الله تعالى (كن) كيف يؤدِّي إلى وجود موجودات شتَّى وكيف قوله: (كُن) أوجد التراب بعد مراحل شتى، أرادها الله تعالى عند قوله (كن)، أي أراد الله تعالى أن تتحقَّق كل هذه المراحل فيتكوَّن إذ ذاك هذا التراب. ثمَّ كيف قول الله تعالى للتراب أو للطِّين: (كُن)، أوجد هذا الإنسان بروحه وعقله الجبَّار، ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾[1] [الكهف: الآية ٥١].

ذلك لأنَّ العلم الحديث، لا يتجاوز حدود المحسوسات، وأنَّى له أن يتعرَّف إلى ما وراء الطبيعة وإلى حقيقة الروح وكيفيَّة خلقها من جانب الله تعالى وكذلك العقل. وما

معنى التحليل العلمي في أمور تتعلَّق بما وراء المادة والطبيعة، ذلك لأنَّ العلم الذي يُستند إليه في التحليلات العلميَّة إنما هو علم مادي ناقص، فلا يمكن تحليل القضايا غير الماديَّة على ضوء العلم المادي الناقص! كما أنَّ ما وصل إليه العلم الحديث في بعض الأمور النفسيَّة إنما هو مظاهر وآثار لا ربط لها بحقيقة النفس وعوالم الأرواح وما وراء الطبيعة، وهو مع ذلك في آخر درجة من النقص! فلا معنى إذن لاستعمال كلمة (التحليل العلمي) بالنسبة إلى ما هو ممَّا وراء الطبيعة، إن كان يراد بهذا العلم، العلم المادي، أو العلم بظواهر المادة وظواهر الحوادث الماديَّة من فيزيائيَّة وكيميائيَّة.

وزيادة في التوضيح نقول: إن العلم الحديث لا يزال عاجزاً عن التعرُّف إلى حقيقة الجاذبيَّة وهي ظاهرة يعترف بها وبقوانينها ودساتيرها، (دستور إسحاق نيوتن، دساتير آينشتاين المعدَّلة لدستور نيوتون... إلخ).. وهكذا نرى ليس للعلم الحديث أن يمد يداً إلى ما وراء الطبيعة ويعطي رأياً صحيحاً عنه، وهو يعترف بالعجز عن التعرف إلى ما هو غير مادي وحتى إلى حقيقة المادة أو حقيقة العناصر، كالآزوت والإيدروجين و...

فالحديد مثلاً مؤلَّف من ذرَّات وكل ذرَّة مكوَّنة من الكترونات وپروتونات ونيوترونات، والعلم الحديث يعترف بعجزه عن بيان حقيقة الإلكترون وماهيَّته وكذا عن حقيقة الپروتون وحقيقة النيوترون وكلُّها قوى وليست من المادة في شيء.

فإذن: العلم الحديث عاجز من أن يُبدي رأياً صحيحاً عن حقيقة المادة!؟ فالماديُّون يتمسَّكون بشيء هم عاجزون عن التعرُّف إليه وتفهُّم حقيقته: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: الآية ٢٣].

* * *

ثم إنَّ الله تعالى يُنطق يومَ القيامة هذه الأعضاء من لسان ويد ورجل! وهي هي دونما فرق. لأنَّ الكاربون الذي يشكل البدن هو نفس الكاربون الذي كان يشكِّل بدن هذا الإنسان وهو في عالم الدنيا. وهكذا بالنسبة إلى بقيَّة العناصر التي كان يتكوَّن منها البدن الإنساني: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النُّور: الآية ٢٤].

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ

وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فُصّلت: الآيات ١٩/٢١].

والدليل على عدم بقاء نفس هذه العناصر المؤلّفة للبدن الإنساني قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النّساء: الآية ٥٦].

ويقول الله تعالى ردّاً على أولئك الفلاسفة! الجهلاء الذين كانوا يرون إعادة الأبدان مستحيلاً يومَ البعث بعد البلى والاندثار: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: الآية ١٥] [١].

* * *

وأرى من المناسب أن أذكر هنا فضيلة صلاة علّمها رسول الله ﷺ جعفراً الطيار رضي الله عنه. فهي صلاة لها تأثيراتها العجيبة في النفوس من حيث الاعتقاد بالمعاد وبكل ما يؤدّي إلى تكامل هذا الإنسان. وأوصي كل من يشك في عوالم الآخرة، من سؤال منكر ونكير والبعث وتطاير الكتب والميزان والصراط... إلخ أن يواظب عليها، لا سيّما يومَ الجمعة قبل الزوال. فإنها العلاج الوحيد لقمع الشكوك والأوهام أو بالأحرى لطرد الشيطان ووساوسه وشَركه وحبائله، ولحصول اليقين بيوم الجزاء وبكل ما جاء به النبيّ محمَّد ﷺ.

فليجرب من شاء. فإنَّ التجربة سند العلوم الحديثة والأساس الذي تبتني عليه المكتشفات. فليجرب من شاء وليُعلن نتيجة تجربته كي يقتفي به الآخرون، فيكونوا من الناجين [٢]، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُعراء: الآيتان

---

(١) أي: عجزنا من أن نخلق الأشياء من العدم، ذلك لأنَّ المخلوقات كلها إنما خلقت من جانب الله تعالى لا من شيء سابق بل من العدم وبقوله تعالى: كن. وقد قال علي عليه السلام عند وصفه كيفيّة خلق الله الخلق: «الذي ابتدع الخلق على غير مثال امتثله ولا مقدار احتذى عليه». وقال أيضاً: «أنشأ الخلق إنشاء وابتدأه ابتداء بلا رويَّة أجالها ولا تجربة استفادها». وقال عليه السلام في صفة خلق آدم عليه السلام: «ثم جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها وعذبها وسبخها تربة سنها بالماء حتى خلصت... إلخ» [نهج البلاغة].

(٢) وسائل الشيعة: ج٩، ص٤٠، في ما أوصى النبي ﷺ علياً عليه السلام: «يا علي، ثلاث موبقات، =

٨٨/ ٨٩]. يــــــوم ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ[١] ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ[٢] مُقْنِعِي[٣] رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ[٤] وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: الآيتان ٤٢/ ٤٣].

تسمى صلاة جعفر الطيار ﷺ بصلاة التسبيح. وهي من المستحبات المؤكَّدة. فعن أبي بصير، عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: قال رسول الله ﷺ لجعفر: ألا أمنحك، ألا أعطيك، ألا أحبوك. فقال جعفر: بلى، يا رسول الله. قال: فظنَّ الناس أنَّه يعطيه ذهباً أو فضَّة. فتشوَّق الناس لذلك. فقال له: إني أعطيك شيئاً إن أنت صنعته كل يوم كان خيراً لك من الدنيا وما فيها. فإن صنعته بين يومين غفر لك ما بينهما أو كل جمعة أو كل شهر أو كل ستَّة أشهر غفر لك ما بينهما»[٥].

وهي أربع ركعاتٍ بتسليمتين. أي كأنَّه يصلِّي صلاة الصبح مرَّتين، كل ركعتين بسلام.

ينوي قائلاً في خلده: أصلي ركعتين قربة إلى الله تعالى. يقرء في الركعة الأولى سورة الفاتحة: (الحمد) وسورة أخرى والأفضل أن يقرأ في الركعة الأولى بعد الحمد، سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾، وبعد الانتهاء من السورة يقول خمسة عشر مرة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر».

ثم يركع ويقول هذه التسبيحات: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» عشر مرَّات.

ثمَّ يرفع رأسه من الركوع ويقول نفس التسبيحات وهو واقف عشر مرات.

ثم يسجد السجدة الأولى ويقولها عشر مرات.

= وثلاث منجيات. فأمَّا الموبقات: فهوى متبع وشحٌّ مطاع وإعجاب المرء بنفسه. وأمَّا المنجيات: فالعدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر وخوف الله في السر والعلانيَّة كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». (القصد: نقيض الإفراط: أي الاعتدال).

(١) لهول ما ترى. يقال: شخص بصر فلان، أي فتحه فلم يغمضه.

(٢) مهطعين: مسرعين.

(٣) مقنعي: أي رافعي.

(٤) طرفهم: بصرهم.

(٥) الكافي: ج٣، ص٤٦٥، باب صلاة التسبيح، ح١.

ثم يجلس بين السجدتين ويقول التسبيحات نفسها عشر مرات.

ثم يسجد للسجدة الثانية ويقولها عشر مرات.

ثم يرفع رأسه من السجدة الثانية ويقولها وهو جالس عشر مرّات.

فيكون مجموع التسبيحات في الركعة الأولى ٧٥ مرّة وهكذا في الركعة الثانية، وهكذا في الركعة الأولى من الصلاة الثانية، وهكذا في الركعة الثانية من الصلاة الثانية. فيكون مجموع التسبيحات في الركعات الأربع: ٤ × ٧٥ = ٣٠٠ تسبيحة.

ويفضل أن يقرأ في الركعة الثانية (من الصلاة الأولى) بعد الحمد سورة (العاديات).

وبعد الانتهاء من الصلاة الأولى يقوم وينوي كما نوى أولاً للصلاة الثانية (أُصلّي ركعتين قربة إلى الله تعالى). ويعمل كما عمل في الصلاة الأولى. إلا أن هاهنا يفضل أن يقرأ في الركعة الأولى، بعد الحمد، سورة النصر ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾. وفي الركعة الثانية، بعد الحمد، سورة الإخلاص ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

ويستحب أن يقول في السجدة الأخيرة (أي في السجدة الثانية من الركعة الأخيرة في الركعة الرابعة:

«سبحان مَن لبس العزَّ والوقار، سبحان من تعطَّف بالمجد وتكرَّم به، سبحانَ من لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان مَن أحصى كل شيء علمه. سبحانَ ذي المنِّ والنعم، سبحان ذي القدرة والكرم. اللهمَّ إنِّي أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم وكلماتك التامة التي تمَّت صدقاً وعدلاً أن تصلِّي على محمد وأهل بيته وأن تفعل بي كذا وكذا... ويذكر حاجاته»[1]. فإذا انتهى من صلاته يستحب أن يقرأ هذا الدعاء:

«اللهمَّ إني أسألك توفيقَ أهل الهدى، وأعمالَ أهل التقى، ومناصحة أهل التوبة، وعزمَ أهل الصبر، وحذرَ أهل الخشية، وطلبَ أهل الرغبة وعرفانَ أهل العلم، وفقه أهل الورع، حتى أخافك اللهمَّ مخافةً تحجزني عن معاصيك، وحتى أعمل بطاعتك

---

(١) الكافي: ج٣، ص٤٦٧، باب صلاة التسبيح، ح٦.

عملاً أستحق به كرامتك، وحتى أناصحك في التوبة خوفاً منك، وحتى أخلص لك في النصيحة حباً لك، وحتى أتوكَّل عليك في الأمور كلها بحسن ظنِّي بك. سبحان خالق النور. سبحان الله وبحمده».

«اللهمَّ صلِّ على محمَّد وأهله وتفضَّل عليَّ في أموري كلِّها بما لا يملكه غيرك ولا يقف عليه سواك. واسمع ندائي وأجب دعائي واجعله من شأنك. فإنه عليك يسير وهو عندي عظيم، يا أرحم الراحمين»[١].

وروى لنا مفضل بن عمر أنه رأى ذات يوم الإمام الصادقعليه السلام يصلي هذه الصلاة، فبعد أن أتمَّ صلاته رفع يديه فقال: (يا ربِّ، يا رب) حتى انقطع نفسه. ثمَّ قال: (يا ربَّاه، يا ربَّاه) حتى انقطع نفسه. وهكذا: (ربِّ، ربِّ)، (يا الله، يا الله)، (يا حيُّ، يا حي) (يا رحيم، يا رحيم) حتى انقطع نفسه، ثمَّ قال: (يا رحمان) سبع مرَّات، ثمَّ قال (يا أرحم الراحمين) سبع مرات. ثمَّ قال: «الهم إنِّي أفتتح القول بحمدك، وانطق بالثناء عليك وأمجدك ولا غاية لمدحك. واثني عليك، ومَن يبلغ غاية ثنائك وأمد مجدك، وأنى لخليقتك كنه معرفة مجدك، وأي زمن لم تكن ممدوحاً بفضلك، موصوفاً بمجدك، عواداً على المؤمنين بحلمك. تخلَّف سكان أرضك عن طاعتك، فكنت عليهم عطوفاً بجودك، جواداً بفضلك، عوَّاداً بكرمك، يا لا إله إلا أنت المنان، ذو الجلال والإكرام»[٢].

يروي لنا المفضل: أنَّ الإمام الصادقعليه السلام بعد أن انتهى من الدعاء، قال لي يا مفضل، إن كانت لك حاجة، صلِّ صلاة جعفر وادعُ الله بهذا الدعاء وسَل منه قضاء حاجتك، فإنَّها تُقضى إن شاء الله.

ويجوز الفصل بين الصلاتين إذا أعسرته حاجة، فإنه يصلي ركعتين ويقضي حاجته، ثمَّ يصلِّي ركعتين أخريين.

ويجوز تأخير التسبيحات إلى ما بعد الصلاة مع الاستعجال. أي يصلِّي الأربع ركعات ثم يسبِّح.

---

(١) جمال الأسبوع: ص٢٩٣.
(٢) مستدرك الوسائل: ج٦، ٢٣٢، باب٨.

ولو سَها عن بعض التسبيحات أو كلها ولم يأتِ بها في محلها أتى بها في محل آخر مضافاً إلى وظيفته، وإن ذكر بعد الصلاة قضاها بعدها.

* * *

إن الأنبياء عليهم السلام كلهم أخبرونا عن الله تعالى: أنَّ هناك عالماً آخر بعد الموت. وأنَّ الناس يحشرون جميعاً يوم القيامة، فيؤخذ بالمحسن إلى الجنة وبالمسيء إلى النار. وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكِّد ذلك. منها: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٧]. ومنها: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: الآية ٨١].

ومنها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الرُّوم: الآية ٢٧].

فإذا ثبتت نبوَّة الأنبياء بمعاجزهم وصحَّة دساتيرهم وتعاليمهم ومطابقتها مع العقل السليم. ثبتت صحَّة ما أخبرونا به ومنه المعاد.

* * *

وفي الآيات ما يدل دلالة واضحة على وقوع المعاد الجسماني، أي أنَّ الناس يُحشرون بأجسادهم وبأرواحهم. منها قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة: الآيتان ٣/ ٤]. وإنما خص البنان دون سائر الأعضاء لدقةٍ هناك ولاختلاف ما على البنان من خطوط ونقوش على عدد الناس: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يُونس: الآية ١٨].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فُصِّلَت: الآية ٢١]. ومنها: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النّساء: الآية ٥٦].

وأما ما قاله بعض القدماء من الفلاسفة من أن المعاد لا يقع جسمانياً وإنما هو روحاني بحت، فذلك لمحدودية ما كان لديهم من معلومات عن الكون المادي والقوى المسيطرة بإذن الله على هذا الكون، وقياس الأمور على ما كانوا يرونه في حياتهم من ممكنات. ولو كانوا أحياءً في مثل هذا العصر، عصر الذرَّة والمعادلات التفاضليَّة،

عصر النظريَّة النسبيَّة والنظائر المشعَّة، لعلموا أنَّ آفاق العلم لا تحد وما يراه الإنسان في عالم الممكنات مستحيلاً في وقت، يراه ممكناً بعد تقدم البشر في التعرف إلى بعض مظاهر الكون وما أودع الله فيه من نظم وخواص وقوانين تبهر العقول.

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾ [الرّعد: الآية ٥].

* * *

ثم إنَّ الإنسان ليرى أنَّ هناك ثلة من الناس بالغوا في الظلم والطغيان حتى أنهم أنكروا وجود الله جلَّ جلاله، وأنَّ الله لم ينتقم منهم في دنياهم ولم يقتصَّ للمظلوم من الظالم، فيحكم، لعلمه بعدالة الله تعالى أنَّ هناك عالماً آخر يُكافأ فيه المحسن ويُعاقب فيه الظالم.

* * *

إن للكبر أثراً عجيباً في ردع الإنسان عن الاعتقاد بالبعث واليوم الآخر. إن الله تعالى يقول: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النّحل: الآيات٢٢/ ٢٥][1].

فالنفس المتحجِّرة المتكبِّرة لا تخشع ولا تخاف عقاب الله تعالى، فتعصى الله تبارك وتعالى في أرضه. فيقسو القلب نتيجة ذلك الإنكار والاستهزاء بما أنزل الله من آيات فتتصوَّرها أسطورة وخرافة: ﴿قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النّحل: الآية ٢٤].

وإن هؤلاء بفعالياتهم السلبيَّة يضلون كثيراً من الناس دون سند علمي: «بغير علم» فيحملون أوزارهم وأوزار الذين يضلُّونهم.

لذلك يسأل أبو عبدالله عليه السلام عن أدنى الإلحاد؟ فيجيب عليه السلام «إن الكبر أدناه».

وعنه سلام الله عليه: «إن المتكبِّرين يجعلون في صور الذرَّ، يتوطأهم الناس حتى

---

(١) الوزر: الإثم، الحمل الثقيل. يزرون: يحملون.

يفرغ الله من الحساب»[١].

إن المتكبِّر يعزو جميع المواهب والقابليّات إلى نفسه، وهكذا كلَّ ما يتفضَّل الله عليه من نعم لا تعد ولا تحصى. وهذا جحود وكفر. والكافر مطرود عن ساحة القدس. مُبعَّد إلى حيث يستحق من الدرك الأسفل من النار.

إن الظلم وما يتبعه من كبرياء يسدَّان على البشر أبواب الهداية على حد قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: الآية ١٠].

وهكذا أثر الغش في إبعاد البشر عن الإيمان بيوم المعاد. ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: الآية ٢٠].

إن هؤلاء المتكبِّرين[٢] يصمون مُعطيَات العقل السليم بالخرافة. والمنطق بالقدم. ويزعمُون أنَّ المنطق البشري قابل للتغيير، فالشيء يكون صحيحاً وخطأ في وقت واحد، ويجتمع الضدَّان في وقت واحد وفي صُقع واحد إلى ما هنالك من خرافات بل جنون ما أنزل الله بها من سلطان. ويعدُّون هذا منطقاً جديداً! وأمَّا المنطق الفطري، هذا المنطق الذي كان هو الأساس في ما اكتشفه البشر من مكتشفات منذ تدوينه علوماً شتَّى، أي منذ ألفين وخمس مائة سنة حتى اليوم، فهو في نظرهم منطق شكلي! يا لها من مغالطة خادعة! تخدع السُذَّج والقلوب المريضة وذوي العاهات. إنهم يخدعون السُذَّج بكلمة: جديد!... تقدم!.. وكلمة: قديم!.. بالٍ، خرافة، رجعية!.. تأخر..

ولولا ما دوَّنه اليونانيون ومن بعدهم المسلمون من رياضيَّات وطبيعيَّات وطب وعلوم أُخرى، استناداً على المنطق الطبيعي. (هذا المنطق الذي يموِّه فيه الشيوعي الواقع والحق فيسمِّيه منطقاً شكلياً)، لما وجد هذا الصاروخ الذي يتشدَّق به خطيب من خطبائهم حُرم موهبة التفكير الرياضي والتحقيق العلمي، لما في نفسه من كبر وغرور.

وقال موسى عليه السلام: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٣١١، باب الكبر، ح١١.

(٢) وأعني بهم: الشيوعيِّين.

[غافر: الآية ٢٧] . وفي آية أخرى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ .

أسفاً لنفوس تلوَّثت بشتى الجرائم. فوجدت الشيوعيَّة وَكراً تستتر تحتها ممَّا حلَّ بها من نقص وضعة في النفس. أسفاً لنفوسٍ أمست محجوبة عن رؤية الحق والواقع ومطرودة عن مقامات القدس لما اجترحت من موبقات ومنكرات، فصارت تتشدَّق مستكبرة، مترنِّمة بكلمة تقدم، ثقافة. كأنَّ من لوازم الثقافة والتقدُّم، الانحلال الخلقي، والتسافل، والتفكُّك عن كل مقياس وإنكار الفضائل وبالتالي، إنكار المعاد!

لم تفد هؤلاء ما مَنَّ الله عليهم من سمع وبصر وقلب، لأنَّها أمست لجرائم لا تعدُّ محجوبة عن التطلُّع إلى ما وراء المادَّة الصمَّاء. فهم ومع الأسف مصداق هذه الآية المباركة: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: الآية ٢٦] .

إنَّ الله تعالى جلَّ أن يظلم أحداً. وإنَّما يصل الفرد إلى نتيجة عمله، إن خيراً فخير وإنَّ شراً فشر. وفي الحديث: «إنما أعمالكم ترد عليكم».

وقد قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥] .

وقد جاء في الحديث أيضاً: «من لقي الناس بوجهين ولسانين جاء يوم القيامة وله لسان من قفاه وآخر من قدامه يلتهبان ناراً»[١] . وفي حديث آخر: «من خاف الناسُ لسانه فهو من أهل النار»[٢] . وفي آخر أيضاً: «إن في الجنة غرفاً يسكنها من أطاب الكلام وأطعم الطعام وأفشى السلام»[٣] .

إذن، فطريق الجنة، العمل الصالح مع عبادة مقبولة. وطريق النار هو الفسق والكذب والنميمة والغيبة وترك العبادة وما إلى ذلك.

* * *

---

(١) ثواب الأعمال، للصدوق: ص٢٦٩.

(٢) جامع الأخبار: ص٩٣، الفصل٥٢.

(٣) بحار الأنوار: ج٩٤، ص٩٩، باب ٥٩، ح٢١.

إن العوالم القدسيَّة ثابتة منذ الأزل، ولا تتبدَّل حسب الأهواء، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: الآية ٧١] . ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: الآية ١١٦] . ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٧] . نعم جلُّ ما عند هؤلاء، كلمات فارغة لا يستطيعون تحديدها تحديداً علمياً، لا شائبة فيه: الرجعيَّة، أساطير، خرافة، قديم، بالٍ، أفيون الشعوب، إلى ما هنالك من كلمات مسبليّة!

فالصدق عند هؤلاء أسطورة. والفضيلة خرافة والاعتقاد بما وراء الطبيعة رجعيَّة، والصلاة تناقض الماديَّة! إلى ما هنالك ممَّا يخالف المنطق السليم الذي نجده في قلب سليم. نجده في نفس فيها شيء من الحياء والتواضع والإذعان للحق وفيها شيء من الفضيلة ومرتبة من السمو. إنه تعالى يقول: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعراء: الآيتان ٨٨/ ٨٩] .

ولقد تتبعت هؤلاء المهوّسين، الذين لا يركنون في أهوائهم إلى ركن ركين، تتبَّعتهم فألفيتهم منفلتين عن الفضائل، منغمرين في أنواع الرذائل، فأمسوا لا يرون ما هم عليه من كثرة النقائص والمفاسد، فهم حقاً من ذوي العاهات! ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحَشر: الآية ١٩] .

إنهم عما قريب مصداق هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النّحل: الآية ٢٦] .

فلكل نفس رشحات تتناسب مع درجة كمالها، ومرتبة تسافلها، فتكون فلسفتها في الحياة وفيما بعد الممات تابعة لهذه الدرجة وتلك المرتبة: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٧٢] . هذه حقيقة الحقائق، حقيقة ما بعدها حقيقة، تنكرها النفس المتسافلة وتسلِّم بها النفس المتكاملة.

فالذي كان دأبه الإفك والإثم وسوء الخلق وجرح الخواطر وإيذاء الناس والكذب، تكون عاقبة أمره، إنكار آيات الله تعالى والاستهزاء بما أمر الله، على حد

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ[1] أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: الآيات ٧/ ١٠].

* * *

إن الشيطان ليعقب أولئك الذين لم يطهروا أنفسهم تطهيراً كاملاً قبل نفاد عمرهم إلى آخر ساعة من حياتهم فهو لهم بالمرصاد. فقد قال أبو عبدالله عليه السلام: «ما من أحد يحضره الموت إلاَّ وكّل به إبليسُ من شياطينه مَن يأمره بالكفر ويشكّكه في دينه حتى تخرج نفسه. فمن كان مؤمناً لا يقدر عليه. فإذا حضرتم موتاكم فلقنوهم، شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، حتى يموتوا»[2].

وممَّا يؤثِّر كثيراً في أن يوفق الشخص للإقرار بالشهادتين، المواظبة على الصلوات الخمس بإخلاص عند مواقيتها كما جاء في مفاد الحديث، فـ«الناس هَلكى إلاَّ العالمين، والعالمون هلكى إلاَّ العاملين، والعاملون هلكى إلا المخلَصين، والمخلَصون على خطر عظيم... الحديث»[3].

قد ذكر لي أحدهم: أنه كان عند صديق له عندما حضرته الوفاة، وكان صديقه هذا ممَّن يصلِّي ويصوم ويؤدِّي ما في ماله من حقوق، ويتَّقي الله في أموره، وكان عنده ساعة موته أصدقاؤه الآخرون. فيُلقن شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله وأنَّ علياً ولي الله؛ فلم ينطق بها وأبى، وأخذ يبصق. ولكنَّ الله تعالى لم يشأ أن يموت الرجل على هذه الحالة، فعادت، بإذن الله، إليه روحه، فصحتُه. وسئل بعد ذلك عن عدم إقراره بالشهادة، فأجاب: «إني كنت أسمع ما ألقَّن به من شهادة... ولكنِّي أمسيتُ في تلك الآونة عطشاناً إلى حدٍّ لا يُطاق. فقرَّب إليَّ شخص قدحاً مملوءاً ماءاً،

---

(١) (أفَّاك = كذاب).

(٢) الكافي: ج٣، ص١٢٣، باب تلقين الميت، ح٦.

(٣) جاء في تنبيه الخواطر للأمير ورام هكذا: «العلماء كلهم هلكى إلا العاملون والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر».

وأخذ يقول لي: لا تقرَّ بالشهادة، كي أرويك من هذا الماء. فصرتُ أبصق في القدح كي لا أستسيغه. وأشكر الله على إنجائه إيَّاي من ذلك الموقف الحرج».

وهكذا حدث لرجل آخر حينما حضرته الوفاة. فأبى الإقرار بالشهادتين وصار يرمق ببصره إلى رف في فرقته فيه إناء مرصَّع. ثمَّ رُدَّت بإذن الله إليه روحه، وسئل عن عدم إقراره بالشهادتين، فقال: «إني كنت شديد العلاقة بالإناء المرصَّع، ورأيت شخصاً[1] رافعاً الإناء وهو يقول لي: إياك أن تقر بالشهادتين. فإني سأرمي به على الأرض إن أنت أقررت بهما. ولذلك تردَّدتُ في الإقرار رغبةً في ذلك الإناء المرصَّع، وأشكر الله على إنقاذه إياي».

وفي الحديث: «حب الدنيا رأس كل خطيئة». فطوبى لنفوس تهيأت ليوم ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ۝١٨﴾ [المُزّمل: الآيتان ١٧/١٨]، فلم يقوَ الشيطان على إغوائها حين خروج الروحِ.

وقد جاء في أخبار آل محمَّد ﷺ: «كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاث أعين، عين غضَّت عن محارم الله وعين سهرت في طاعة الله وعين بكت في جوف الليل من خشية الله»[2]. وفي خبر آخر، في ما أوصى به النبي ﷺ علياً ؑ: يا علي، كل عين باكية يوم القيامة، إلا ثلاث أعين عين سهرت في سبيل الله، وعين غضَّت عن محارم الله، وعين فاضت من خشية الله»[3].

وفي الكافي: «إذا قبضت الروح فهي مُظلَّة على الجسد».

* * *

ولا بأس بذكر هذه الحادثة، فهي مفاد الحديث المتقدِّم. يقال: إنَّ أحد العظماء صاحب المؤلَّفات العظيمة[4] والخدمات المشكورة تعاهد مع أحد أصدقائه أن يأتي كل من مات قبلاً إلى حلم (طيف) صديقه، ليخبره عمَّا شاهده حين موته وبعد الموت.

---

(١) إنه الشيطان، يرافق الإنسان إلى آخر لحظة من حياته.

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٤٨٢، باب البكاء، ح٤.

(٣) أصول الكافي: ج٢، ص٨٠، باب اجتناب المحارم، ح٢.

(٤) وهو العلّامة السيد محمد باقر المجلسي صاحب بحار الأنوار.

وقد مات هذا العالم الكبير قبلاً، فلم يَرَه صديقه في منامه حتَّى مضت سنة كاملة. عند ذلك رآه في حلمه. فعاتبه على تأخره هذه المدَّة. فأجاب قائلاً: «علامَ تعاتبني يا أخي، كنت مشغولاً بالحساب، أحاسب حساباً دقيقاً عسيراً». فأجابه صديقه.

«أوَ تحاسب أنت، مع ما لك من خدمات جمة». فأجاب قائلاً: «كلها لم تفدني».

ثم قال: «عندما حضرتني الوفاة، جاءني ملك الموت، فمسح على رجليَّ فذهب ما بهما من وجع، وهكذا بقيَّة أعضاء بدني، فخرجت روحي وصارت تُشرف وتُطل على البدن. وأهلي يبكون. فصرت أقول لهم. ما لكم تبكون، وقد ذهب عنِّي ما كان بي من ألم. ثمَّ أمرت بتعقيب البدن، فصرت أتبع بدني حتى واروني في رمسي. فبدأ السؤال، وصار الملكان يستنطقانني. فأجبت بلطفه تعالى عمَّا سألا. ثمَّ بدأ الحساب، وأيَّ حساب!.

فصرتُ أشرح ما قمت به من أعمال، قلت: ألَّفت كتاباً ضخماً، وموسوعة إسلاميَّة. فقيل لي: إنك فرحتَ وسُرِرْتَ عندما مدَحوك لأجل ذلك المؤلَّف الضخم ومؤلفاتك الأخرى، فذاك جزاؤك... إلى ما هنالك. فأوشكت أن أقنط. فقيل لي، قد ادَّخرنا لك عملين كانا لوجه الله تعالى لا شائبة فيهما:

إنك عندما ذهبت لمقابلة الملك، استقبلك رجال الملك، وأخذت الشرطة تنحي الناس بعُنف، فقلت: إذ ذاك، إن كان هذا لي، فإنِّي لا أرضى بذلك، ورفضت الاستقبال.

ثمَّ إنَّ الملك قدم لك تفاحة في غير موسمها. خرجت من عند الملك، فبينما أنت سائر في طريقك وإذا بولد يتيم صار ينظر إلى تلك التفاحة، فدفعتها إليه لوجه الله»[1].

«فهذان عملان لك، لم تقم بهما إلا لوجه الله، قد ادَّخرناهما لك، تدخل بهما الجنة».

* * *

يقول عدد من الفيزيائيين المحدِّثين: «إن هنالك عالماً آخر وراء العالم الذي تنحصر فيه الفيزياء، إنَّ العالم الآخر وحدة روحيَّة أو عقليَّة وما المادَّة سوى مظهر من مظاهرها، إنَّ العقل وحده هو الشيء الحقيقي، وإنَّ المادَّة هي من مخلوقات

---

(١) ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [المُزمل: الآيات ١٩/ ٢١].

العقل!؟». وصاروا يعلنون هذا الرأي بنفس القوّة التي أعلن فيها أسلافهم الماديُّون قبل خمسين سنة، وذلك: «أنَّ المادة وحدَها هي الشيء الحقيقي، وإنَّ العقل ما هو إلاَّ انبعاث طفيف من انبعاثات المادَّة!!».

ويظهر بعد هذا الاعتراف من علماء الفيزياء مع ما فيه من جوانب ضعيفة وخاطئة، أنَّهم سوف يؤمنون يوماً ما بالبعث والمعاد، كما اعترف الكثير منهم بخلود الروح وأنَّها لا تفنى بعد تفسخ المادة. ولقد أصبحت دراسة الروح والنفس موضوعاً هاماً مرموقاً في جامعات العالم. وأخذ العالم يلفظ رويداً رويداً الفكرة الماديَّة الخاطئة معترفاً بالروح وخلودها، وأنَّ المادَّة مسخَّرة من قبل النفس والنفس تستخدمها لأغراضها.

لقد ثبت في الفيزياء أنَّ المادَّة تتحوَّل إلى قوى وطاقات بنتيجة الإشعاع. أي أنَّ المادَّة تشع فتتحوَّل إلى طاقات. كما أنَّ الطاقات (القوى) تتكدَّس بإذن الله تعالى فتكون مادة (عنصراً من العناصر) أو جسماً من الأجسام. وهكذا النفس الإنسانيَّة هي من أجل مظاهر الطاقة. طاقة تختلف عن الطاقات الناشئة عن إشعاع المادة وتحوُّلها إلى قوى. فإن النفس تبقى خالدة إلى ما شاء الله، ولا تتلاشى بتلاشي الجسد. لأنَّها ليست مادَّة حتى تتحوَّل إلى طاقات بالإشعاع، ولأنَّها هي التي تدير الجسد وتؤثِّر فيه.

ولا تناسبَ بين الروح والجسد تناسباً يؤدِّي إلى اختلاف كمال النفس باختلاف الجسد من حيث قوة العضلات وجسامة الأعضاء. والنفس في غنىً عن الجسد في حالات شتى تبرهن ذلك الأحلام (الأطياف) وحوادث جمَّة.

* * *

وقد ذكر لي صديق لي وهو ممن يوثق بكلامه، أنه كان لأحد أرحامه خادمة من أسرة فقيرة عمرها إحدى عشر سنة، اسمها: أنور، كانت تصدر منها الأعاجيب، كانت تأخذ من الفضاء ما يطلب منها من فواكه نادرة في غير موسمها، وتأخذ من الفضاء دراهم كثيرة بصورة سريعة دون أن يكون مما تأخذ من الفضاء أثر في البيت. وهكذا تلبِّي طلب من يطلب إليها إحضار شيء من الخارج بصورة سريعة جداً إلى حد يدهش الألباب.

وفي يوم من الأيام حبسها سيِّدها في الغرفة كي لا تقوم بما تقوم به من العجب والعجاب، وإذا بها تُرى وسط البيت، فتسأل عن كيفيَّة خروجها من الغرفة والباب مغلق، فتجيب قائلة أنها قد خرجت من بين شقوق الباب!

كان يصدر من (أنور) أنواع الأعاجيب والخوارق، حتى إذا تزوَّجت وأصبحت امرأة كغيرها من النساء ذهبت عنها هذه الميزة والملكة الموهوبة وتلك الخوارق العجيبة.

هل للعلم الحديث أن يفسِّر لنا ما كانت عليه هذه الخادمة من ملكات محيرة للعقول وما كانت تأتي به من أعمال خارقة. وكم من حوادث كهذه الحادثة وأعجب منها تحدث من نساء ورجال في الهند وفي غير الهند وليس للعلم الحديث أن يتكلَّم فيها بكلمة واحدة.

نحن نعيش في أودية من المجاهيل لا سيَّما في عوالم النفس وممَّا يتعلَّق بما وراء الطبيعة، ولكن الغرور لا يدع مجالاً لهؤلاء الماديِّين للاعتراف بالله خالق الأشياء ومرتِّبها ومنظِّمها إلى أقصى حد من التنظيم، تنظيماً يحيِّر الألباب، وللاعتراف بالآخرة وعوالم ما بعد الموت. . .

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصِّلَت: الآية ٥٣].

* * *

إنِ العلم الحديث يوضح لنا بقدر ما اطلع على العالم المادي (وهو ضئيل وضئيل جداً بالنسبة إلى ما أودع الله من حقائق وقوانين لا تتناهى في هذا الكون)[1] ما سيقع قبل يوم المعاد، ويفسِّر لنا إلى حدٍ ما قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ [التكوير: الآية ١].

ذلك، لأنَّ الذرَّة على ما هو معروف مؤلَّفة من نواة في الوسط (وهي مجموعة نيوترونات وپروتونات) وإلكترونات في المحيط أو الأطراف، تدور حول النواة.

ومعدل قطر الذرة= $\frac{١}{١٠,٠٠٠,٠٠٠}$ من المليمتر، أي = $\frac{١}{١٠^{٧}}$ مم

---

(١) ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: الآية ٢٧].

ومعنى ذلك: لو وضعت عشرة ملايين ذرَّة بعضها جنب بعض (شريطة أن تكون كرويَّة كلها) كان طول هذه الذرَّات الموضوعة بهذا الشكل ميليمتراً واحداً.

وإنَّ قطر نواة الذرَّة (أي مجموعة الپروتونات والنيوترونات)=

$\frac{١}{١٠٠,٠٠٠}$ من قطر الذرة. ومعنى ذلك أن:

قطر النواة = $\frac{١}{١٠^{١٢}}$ مم (من الميليمتر)

ولا يمكن أن ترى الذرَّة وهذه النواة مع أقوى الميكروسكوبات الحديثة.

وقد عبَّأ الله تعالى قوَّة هائلة في جوف النواة، تعرف بالطاقة النوويَّة. فإذا حُرِّرت هذه الطاقة بوسيلة ما، هدمت ما حواليها، فلا تبقي ولا تذر.

إنَّ الذرَّة الـ(أورانيوم) مثلاً تنشق، فتتفرَّق أجزاؤها، فتنتج مع هذا الإنشقاق الحرارة والطاقة الهائلة، أمَّا الأجزاء التي انقسمت إليها الذرَّة فهي عناصر دون الأورانيوم وزناً، وإذا فرضنا أنَّنا جمعنا هذه الأجزاء ووزنَّاها لكانت أقل ممَّا استخدم من الـ(أورانيوم) وزناً. فأين ذهب الشيء الناقص؟ إنّه تحول إلى (طاقة)، إلى (حرارة) وإلى (نور) إلى (إشعاعات أخرى). أي أنَّ المادَّة تحوَّلت إلى طاقة وقوى. إذ الغرام الواحد من المادَّة يتحوَّل إلى طاقة، فينتج منها ما يعادل ٢٢ مليون مليون سعرة[١] من السعرات الحراريَّة.

فذرَّة (الأورانيوم) تعطي من مادتها، فتنتج الطاقة بالتقسيم والتجزُّؤ والتفرُّق. وذرَّة (الإيدروجين) تعطي من مادَّتها لا بالتشقُّق والتفرُّق، ولكن بالتجمُّع، وهكذا تتحوَّل بعض المادة أو كلَّها (مع تقدُّم العلم الحديث) إلى طاقات هائلة جداً.

وقد ثبت أنَّ المادة إنما وجدت من تكدُّس طاقات هائلة أوجدها الله تعالى بقوله: (كُن). فترتَّبت بأمره عناصر تحت نظام بديع وقانون ثابت، وإن هذه العناصر تختلف بعضها عن بعض من حيث عدد الپروتونات والالكترونات. أي تختلف من حيث بنية

---

(١) السعرة: مقدار الحرارة اللازم لرفع درجة حرارة (غرام واحد من الماء) درجة واحدة مئويَّة، أي من درجة ١٤ مئويَّة مثلاً إلى درجة ١٥ مئويَّة.

النواة وما يدور حولها من الكترونات. فكانت، بإذن الله وأمره، هذه العناصر المختلفة كالإيدروجين والأكسيجين والحديد والراديوم والأورانيوم إلى ما هنالك، فقد عبّأ الله تعالى في ملعقة واحدة من الزئبق، طاقة تكفي لتسيير قطار كبير حول الكرة الأرضيَّة سبع مرَّات.

وقد جعل الله فضاءً واسعاً بين النواة والالكترونات التي تدور حولها. ومعنى ذلك أن الالكترونات في الذرَّة تبعد عن النواة مسافة شاسعة (مع حفظ النسبة بين صغر الالكترون والنواة والمسافة التي بينهما وقطر الذرَّة). هذه المسافة (مع مراعاة النسبة) بين النواة والالكترونات هي كالمسافة بين الشمس وبين أبعد كوكب سيار يدور حولها.

فإذا انفصلت الالكترونات في يوم من الأيام عن الذرَّات في الكرة الأرضيَّة، وذلك بأمر الله تعالى، واندمجت البروتونات بعضها ببعض، ستصبح أرضنا هذه كبرتقالة ثقيلة جداً، وزنها بقدر وزن أرضنا هذه التي نعيش عليها ولكن حجمها بحجم البرتقالة.

وإن علماء الفلك المحدثين يخبروننا أنَّ الشمس سيكون مصيرها التلاشي وذلك باندماج نواة ذرَّاتها بعضها ببعض. فيتحقَّق قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ[1] ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ[2] ۝ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: الآيات ١/ ٣]. وذلك من مقدمات يوم المعاد. ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٨].

وإنَّ قوانين (ديناميكا الحراريَّة)، أو علم الحرارة الحركيَّة من أبحاث الفيزياء تدل على أن مكوِّنات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً، وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق! ويومئذٍ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة. وهكذا تدلُّ الشمس المستعرة والنجوم المتوهِّجة على أنَّ لها بداية.. وقد أثبت العلم فوق ذلك أنَّ لهذا الكون بداية وأنَّه بدأ دفعة واحدة منذ نحو خمسة بلايين سنة.

* * *

---

(١) ومعنى كورت هنا أي رفعت.

(٢) انكدرت: أظلمت. سيرت: أي ذهبت.

وهكذا سيكون مصير (القمر)، على ما استنبط ذلك بعض علماء العصر الحاضر. فإنهم يقولون: يأتي يوم فيتجزَّأ القمر بالتأكيد، فيصبح قمرين فأكثر. ثم تنفجر هذه الأجزاء انفجاراً هائلاً وتستحيل إلى ألف شظيَّة أو أكثر، فإذا قربت هذه الشظايا من الأرض تستحيل إلى آلاف من الشهب الصغيرة. وقد قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القَمَر: الآية ١]. فتبدأ في الأرض سلسلة من الزلازل ويشتد نشاط البراكين وتقذف ما فيها إلى الخارج وتعمل الهزَّات في القشرة الأرضيَّة عملها، فتسوى أعالي الجبال وقممها إلى سويَّة قاع البحار. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: الآيات ١٠٥/ ١٠٩].

* * *

ولقد توصَّل ثمانية من العلماء، من رجال الفلك بمرصد: (مولارد) نتيجة بحث استغرق ٨ سنوات: أنَّ هذه الأرض إنما هي شظيَّة من إحدى الشظايا التي تطايرت نتيجة لانفجار هائل حدث قبل عشرة آلاف مليون سنة على حد قوله تعالى في (سورة الأنبياء، الآية: ٣٠)، ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾[١] ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠][٢].

وقد استعمل هؤلاء في استكشاف الفضاء عدة أجهزة جبَّارة من بينها تلسكوب (مِرقب) وجهاز التقاط للإشارات، وحكموا أنَّ الكون سوف ينتهي في يوم من الأيام. ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٨].

واعترفوا أنَّ في الكون مسافات هائلة يعجز الذهن عن تخيُّلها: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات: الآية ٤٧].

---

(١) أي كانتا مرتوقتين: مضمومتين ملتحمتين، أي انَّ السماوات والأرض كانتا جميعاً كتلة واحدة.

(٢) أي ففصَّلنا بعضها عن بعض وجعلناها شموساً وكواكب ونجوماً وأقماراً «توابع للنجوم» ومجرَّات إلى ما هنالك.

كما أثبتوا أنَّ هناك أجساماً شمسيَّة ميِّتة فوق حافَّة الكون، وهذا ما يؤكِّد أنَّ الكون يقترب من نهايته. وهذا هو عين ما درسته عندما كنت طالباً في الجامعة في فرع (الفيزياء الرياضيَّة العالية) من أن الشمس آخذة بالأفول والتضاؤل والاندثار.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: الآية ٣٤].

وإنَّ هؤلاء العلماء الثمانية توصَّلوا أيضاً إلى أنَّ كل الأجسام الموجودة في الكون من كواكب ونجوم وشموس وغير ذلك تنطلق في الفضاء بسرعة خياليَّة تاركة ثغرة في الوسط.

وإنه قد كانت لهذا الكون بداية قطعاً، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: الآيتان ١٩/ ٢٠]. وإن الكون لن يدوم إلى الأبد وإنَّه يتغيَّر مع الزمن حتى تقترب النهاية، لشروع عالم آخر تتحقَّق فيه عوالمُ يوم القيامة.

وهكذا ذهب هؤلاء العلماء يعتقدون أنَّ الانفجار الهائل الذي وقع منذ آلاف الملايين من السنين في عدَّة كتل من المادة أسفر عن انتشار شظايا ماديَّة في مختلف الاتجاهات، ثمَّ تطوَّرت هذه الشظايا إلى الكواكب والنجوم التي نراها اليوم.

فنرى أنَّ العلم الحديث يقترب من الاعتراف بما جاء في القرآن الكريم عن البداية والنهاية كلما أتيح له من آلات دقيقة ومعلومات رياضيَّة عميقة. وإنَّ مُعطياتِ العلم لم تكن لتخالف ما جاء في كتاب الله المجيد إلاَّ لضآلة ما وصل إليه العلم وعجز الآلات المكتشفة عن الاستقصاء.

* * *

يعترف العلم الحديث: أنَّ الذرَّات قد استحدثت منذ زمان لا يتجاوز جملة قليلة من بلايين السنين، وأنَّ عمر أكثر النجوم ٣ بلايين من السنين، كما أنَّ عمر المحيطات عدد قليل من بلايين السنين وأنَّ النظام النجمي كان موجوداً قبل زمن يتراوح بين بليونين وخمسة بلايين من السنين وأنَّ عمر الصخور المختلفة ـ ونعني بذلك الزمان الذي انقضى

منذ أن تصلَّبت بعد أن كانت مائعة ـ (١٩٨٠) مليون سنة. وقد قدَّر ذلك بكل دقَّة بواسطة «الطريقة الزمنيَّة للنشاط الإشعاعي» (Radioactve - Clock method).

كما عُلم بنفس الطريقة أنَّ عمر قشرة الأرض لا يقل عن بليونين من السنين. ومن هنا نرى أنَّ البحث عن عمر أية ناحية من نواحي الكون ينتهي إلى جواب تقريبي واحد: هو بضعة بلايين من السنين قدماً.

وقد رفض العلم الحديث «فرضيَّة الكون الثابت غير المتغيِّر»، ويعتقد اليوم جازماً أنَّ الكون لم يكن فكان، وأخذ يتطوَّر تحت نظام وحساب دقيق وتدبير عميق منذ بضعة بلايين من السنين، وأنَّ الكون كان في الماضي السحيق أقل تعقُّداً ممَّا هو الآن. كما يعترف العلم أنَّ صورة مجموع الفضاء الكوني وما يأهل به من بلايين (المجرَّات) هو في حالة انتشار سريع وأنَّ كلَّ أعضائه يبتعد بعضها عن بعض بسرعة مرهقة. ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذّاريات: الآية ٤٧].

كما أنَّ العلم الحديث يقدّر أنه عند بلوغ سنة ٤٧,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ بعد الميلاد سوف تتلقَّى شمسنا وثيقة إعدامها.

ومن الأمور المعروفة عند علماء الطبيعة والفلك أنَّ مادة الكون الصلدة آخذة في الانحلال والتلاشي أثناء تحوُّلها إلى إشعاع. وأنَّ وزن الشمس يقل كل يوم ٣٦٠ ألف مليون طن. أي أنَّ هذا القدر من مادتها يتلاشى لكي تشع كل ما تشعه يومياً. وهذه الأشعَّة التي تنطلق منها تسير في الكون، وستظل سائرة فيه إلى نهاية الدنيا. وتحوّل المادة إلى إشعاع عمل جارٍ الآن في كل النجوم. وأنَّ الأرض تخسر من وزنها يومياً بالإشعاع تسعين رطلاً!

والله تعالى يقول: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٤١﴾ [الرّعد: الآية ٤١].

وفي آية أخرى: ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝٤٤﴾ [الأنبياء: الآية ٤٤] فتشير الآيتان الكريمتان أنَّ الأرض منذ أن خلقها الله تتناقص من أطرافها وهي ظاهرة كونية لم يلتفت

إليها العلماء إلاَّ في السنوات الأخيرة إذ أثبتت الأبحاث العلميَّة عن شكل الأرض أن قطرها الواصل بين القطبين يتناقص بكميَّة ضئيلة جداً، إلا أنَّ عمليَّة التناقص هذه مستمرَّة منذ أن خلق الله الأرض، حتى أنَّ شكلها تطوَّر بمرور الزمن من الشكل الكروي إلى الشكل البيضاوي تطوراً مستمراً لا انقطاع فيه.

وقد علم أنه ليس لهذا التحوُّل الذي ذكرناه ما يقابله من تحوُّل الإشعاع إلى مادة حسب قواعد الفيزياء. أي ليس ما تفقده الأرض والشمس والنجوم في ناحية من نواحي الكون يعوَّض في ناحية أخرى: بتحوُّل الإشعاع (الطاقة) إلى مادة. أي ليست القضيَّة كتحوُّل المياه إلى بخار ثم تحوُّل البخار إلى مياه وهكذا دواليك. ذلك لأنَّ المادة حين الإشعاع تتحوَّل من قوة ذات موجة قصيرة إلى قوة أخرى ذات موجة أطول منها. ويتعذَّر تحوُّل قوة ذات موجة أطول إلى قوة ذات موجة قصيرة حسب قواعد الفيزياء. وإنَّ هذا الانحطاط ـ أو التحوُّل ـ في القوة لا يمكن أن يمضي كذلك إلى الأبد، إذ لابدَّ أن يجيء وقت تتحوَّل فيه آخر وحدة من القوة الصالحة للعمل إلى قوة غير صالحة للعمل وعندئذ تجيء نهاية الكون ويخبرنا الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣﴾ [الإنفطار: الآيات ١/ ٣]. وبقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢﴾ [الإنشقاق: الآيتان ١/ ٢].

ويعترف العلم الحديث أنَّ الطاقات (الإشعاعات) التي حدثت نتيجة تحوُّل المادة (كل ما في الكون) إلى طاقات لا يمكن أن ترجع إلى مادة من جديد إلا بقوة خارجة عن الكون. ذلك لأنَّ الكون، حسب قواعد علم الفيزياء، خاسر يوماً ما كل القوة الصالحة للاستعمال التي كانت فيه والكون الذي لا توجد فيه قوة صالحة للاستعمال، كون ميت. فنهاية الكون تحين متى انحل كل جوهر من جواهر المادة وانطلق في الفضاء إشعاعاً قوياً قصر الأمواج. ولا بدَّ من قوة خارجية وهي: إرادة الله تعالى لإرجاع هذه الطاقات إلى عوالم أخرى من جَنات عدن ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣] وغيرها من عوالم لا يعلمها إلا الله ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ۝٤٨﴾ [إبراهيم: الآية ٤٨]. ويقول الله تعالى في سورة التكوير ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١﴾ [التكوير: الآية ١١] أي أزيلت.

فكل شيء آئل إلى زوال وفناء، حتى يبدأ بعد ذلك بإذن الله وإرادته عالم من جديد، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرّحمن: الآيتان ١٦/ ١٧].

* * *

إن الله تعالى يقول: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾ [الدّخان: الآية ١٠]، وفي هذه الآية إشارة إلى يوم القيامة، وتخبرنا بعلامة من علاماتها. فالمعروف علمياً أنَّ كلَّ نجم أو شمس كشمسنا لابدَّ وأن تطرأ عليه حالة يتمدد فيها سطحه قبل أن يصل إلى حالة الاستقرار. وشمسنا بالذات لم تمرَّ بعد بهذا الدور وهي لا تزال في مقتبل عمرها. وعندما تمدد يصل لهبها وغازات جوها المستعرَّة إلى الأرض حسب قوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: الآيات ٩/ ١٢].

﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدّثر: الآيتان ٩/ ١٠].

إن الله يصف حالة هؤلاء الكافرين بعد أن أدخلوا نار جهنَّم، يصفهم بقوله ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فيجيبهم الله تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: الآية ٣٧]. نستجير بالله من سوء العاقبة! من ﴿لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: الآيات ١٥/ ١٨]: جمع الأموال، فلم ينفقها في سبيل الله.

* * *

إن الله يصف حالة الأرض بعد أن يبلغ أهلها ذروة الطيش والغرور وكيف أنها تكون هباءً منثوراً في طرفة عين بقوله جلَّ من قائل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

العلم الحديث يخبرنا بالمارد الذرِّي السابح في الفضاء وهو (البروتون Proton) السالب الذي إذا اصطدم بشيء من الأشياء أرجعه في طرفة عين إلى إشعاعات وطاقات! بل جعله نسياً منسياً. وقالوا إن هذا المارد يفني ما يصطدم به من مادة،

فيتحقَّق «إفناء المادة»[(١)] بهذا الاصطدام، فلا يبقي شيئاً.

ثم إن الله تعالى بقوله في الآية المتقدمة: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾. يشير على حركة الأرض حول نفسها، وذلك: لأنَّ الليل والنهار يكونان على الكرة الأرضيَّة في وقت واحد. والله تعالى لا يتردَّد في علمه ولا يتردَّد في وقت يريد فيه إفناء الأرض، هل يكون ذلك ليلاً أم نهاراً؟ وهو خالق كل شيء والعالم بما سيكون. فيشير قوله تعالى: ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يُونس: الآية ٢٤] إلى أن قسماً من الأرض يتلقى أمر الإفناء من جانب الله تعالى، ليلاً، والقسم الآخر في نفس اللحظة، يتلقى هذا الأمر نهاراً. وهذا لا يتمُّ إلاً بحركة الأرض حول نفسها وحدوث الليل والنهار في نفس الوقت نتيجة هذا الدوران!..

* * *

إن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: الآيتان ١ / ٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ [التّكوير: الآية ٦]، وقد ثبت أنه عندما تنطلق ذرَّة الإيدروجين المتحدة مع الأوكسجين نتيجة للانفجار الذرِّي يجعل كافَّة البحار ناراً في أقل من لمح البصر.

وإذا انضمَّت ذرَّتان من ذرَّات الإيدروجين نتج عنهما (الهليوم) ونتج عن ذلك أتون مشتعل يشمل الكون وما فيه، فتصبح السماء ناراً: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٣٧][(٢)].

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُۚ﴾ [النّحل: الآية ٧٧]. وقد أخبرنا الفلكيون أنَّ نجمة (سيريوس) التي تشاهد كل ليلة باستخدام للتلسكوب قد استحالت في طرفة عين أو أقل إلى نجمة صغيرة جداً مظلمة وأنَّ نواة ذرَّاتها قد اندكَّت بعضها ببعض.

---

(١) Annihilatian de la Matiére.

(٢) أي أنَّ السماء صارت حمراء مذابة كالدهن.

وهكذا سيكون مصير منظومتنا الشمسيَّة ويتحقَّق كل ما أخبرنا الله تعالى في كتابه الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فُصِّلَت: الآية ٤٢]. ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٤].

* * *

وهكذا يخبرنا الله تعالى في (سورة الزمر، الآية: ٦٧):

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٧]. ومعنى ذلك أنه إذا كان يوم القيامة تكون الأرض جميعاً مقبوض عليها في يده تعالى (أي تكون تحت قدرته وطوع إرادته)، ذلك. لأنَّ الله ليس بجسم حتى تكون له يد، وتكون السماوات على أبعادها غير المتناهية مطويات بيمينه، فسبحانه أي فتنزيهاً له عمَّا يشركون. وهذا يدل أنَّ هناك تبديلاً هائلاً في الكون عند حلول يوم القيامة؛ يخبر عنه ربُّنا جلَّ جلاله في آيات عدة، كي تتزوَّد بالتقوى، وتتهيأ في دنيانا هذه لجنة ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣].

إنَّ الله تبارك وتعالى يبيِّن لنا أيضاً بوضوح ما سيقع في الأرض أولاً ثم ما سيقع ثانياً حين تتبدَّل هذه الأرض بأرض أخرى وكذا السماء بسماء أخرى أيضاً وذلك بقوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾[1] [الزُّمَر: الآيات ٦٨/ ٧٠]. ومعنى ذلك أنَّ (إسرافيل) ينفخ في بوق يوم القيامة، فيموت كل حيٍّ، ثم ينفخ مرة أخرى، فيقومون للبعث. وإنَّ النفخ في البوق لا يشبه ما نفهمه نحن اليوم من كلمتي النفخ والبوق، وإنما علم ذلك عند الله. وهذا إيذان بمجيء يوم القيامة ثم إيذان بالبعث.

---

(١) صعق، أي خرَّ ميتاً أو مغشياً عليه.

فلا سبيل للإنسان إذا أراد تصحيح معتقداته إلا التمسك بالعمل الصالح[١] وبر الوالدين[٢] وصلة الرحم[٣] وصدقات، وإحسان وقضاء حوائج الناس[٤] والتفاني (إن أمكن) في هذا المضمار. وتطهير المأكل والمشرب مما حرم الله، وإرجاع حقوق الناس إليهم، وتجنب الحسد والبخل والكبر وهي أصول الكفر كما جاء في الحديث. وتجنُّب الغيبة[٥] والنميمة والخداع والكذب وكل ما يلوث هذه النفس من خمر وميسر (قمار) وفسق وفجور وغمط حقوق الناس واعتباره مكسباً. والقيام بصلاة[٦] فيها خشوع وخضوع، ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: الآيتان ١/ ٢]. وصوم لوجه الله (لا إرضاء للوالدين أو حياءاً من الناس) وحج أداءً للواجب الديني[٧] وأداء خمس

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «إن على كل مسلم في كل يوم صدقة، قالوا ومن يطيق هذا؟ قال ﷺ: إماطتك الأذى عن الطريق صدقة، وإرشادك الضال إلى الطريق صدقة، وعيادتك المريض صدقة، واتباعك الجنازة صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وردك السلام صدقة». (الأذى في الطريق كالشوك والحجارة) [مستدرك الوسائل: ج٧، ص٢٤٢].

(٢) وعن النبي ﷺ: «وأبويك فبرهما وأطعمهما حيين وميتين فإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل، فإن ذلك من الإيمان» [أصول الكافي: ج٢، ص١٥٨، باب البر بالوالدين].

(٣) في الحديث: «صلة الأرحام تطيل الأعمار وتعمر الديار وإن كانوا كفاراً» [بحار الأنوار: ج٤٧، ص٢١١].

وفي خبر: «اتقوا الحالقة، فإنها تميت الرجال، قيل وما الحالقة يا ابن رسول الله؟ قال: قطيعة الرحم» [أصول الكافي: ج٢، ص٣٤٦]. وفي حديث آخر: «لا صدقة وذو رحم محتاج» [من لا يحضره الفقيه: ج٢، ح١٧٤٠]. وفي حديث آخر: «إن الله خلق الجنة وطيبها وطيب ريحها ولا يجد ريحها عاق أو قاطع رحم» [بحار الأنوار].

(٤) عن أبي عبدالله ؑ: «لقضاء حاجة امرء مؤمن أحب إلى الله من عشرين حجة كل حجة ينفق فيها صاحبها مائة ألف» [أصول الكافي: ج٢، ص١٩٣].

(٥) قال رسول الله ﷺ: اجتنبوا الغيبة، فإنها إدام كلاب النهار. وقد سئل النبي ﷺ: ما كفارة الاغتياب؟ فقال: «تستغفر الله لمن اغتبته كلما ذكرته» [أصول الكافي: ج٢، ص٣٥٧].

(٦) عن النبي ﷺ: «من ترك الصلاة متعمِّداً فقد برئت منه ملة الإسلام» [الكافي: ج٣، ص٤٨٨].

(٧) عن النبي ﷺ: «من وجد إلى الحج سبيلاً، فلم يحج، فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً» [تهذيب الأحكام].

الأرباح[١] وأداء الزكاة الواجبة[٢] والزكاة الباطنة ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذّاريَات: الآية ١٩] ، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٣] إلى ما هنالك من واجبات ومستحبات أخرى، كي يرى كيف تذهب عنه الشكوك رويداً رويداً وتتقشّع عن نفسه الشبهات شيئاً فشيئاً، بل يدخل في عوالم القدس، حيث اليقين والطمأنينة، ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرّعد: الآية ٢٨] ، فيكون إذ ذاك مصداق هذه الآية المباركة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ [الفَجر: الآيات ٢٧/ ٣٠].

وهذا غاية التكامل لهذا الإنسان.

* * *

ولكن إذا تمادى الشخص في طيشه وإجرامه ومكره وظلمه[٤] ونكرانه ما عليه من حقوق الناس وواجب الشكر تجاه خالقه، وارتدى رداءَ الكبرياء وثابر على فسوقه وفجوره، كان من المبطلين الذين خسروا أنفسهم على حد قوله تعالى: حيث يقول: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٢٧ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗ[٥]﴾ [الجَاثية: الآيتان ٢٧/ ٢٨]، ﴿كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ

---

(١) عن النبي ﷺ: «إن مانع الخمس يحشر مع الظالمين لآل محمد حقَّهم».

(٢) عن النبي ﷺ: «من منع قيراطا من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً» [الكافي: ج٣، ص٥٠٥].

(٣) قال رسول الله ﷺ: إن الله ليبغض المؤمن الضعيف، قيل يا رسول الله، من المؤمن الضعيف؟. قال: الذي لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر. وفي حديث آخر: «ويل لقوم لا يدينون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» [الكافي: ج٥، ص٥٩].

(٤) قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا دعوة المظلوم ولو كان كافراً. فإنه ليس دونها حجاب» وفي حديث آخر: «من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم، فقد خرج من الإسلام» وفي حديث آخر أيضاً «من أعان ظالماً ليدحض بباطله حقاً فقد برئت منه ذمّة الله وذمّة رسوله». وفي حديث آخر: «من أرضى سلطاناً بما أسخط الله خرج من دين الإسلام» [وسائل الشيعة: ج١٦، ص١٥٤].

(٥) جاثية: باركة على ركبها.

﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الجَاثية: الآيات ٢٨/ ٣٣]. «وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين»[(١)].

* * *

نسأل الله تعالى تطهير نفوسنا وتكفير ذنوبنا، لنخرج من الظلمات إلى النور بإذنه، فتتذكر يوم المعاد: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطفّفين: الآية ٦] عند كل عمل نقوم به، فلا يصدر منَّا إلاَّ ما يُرضي الله تعالى، كي نذهب من هذه الدنيا، طاهرين، مطهَّرين، أزكياء نقيِّين، إلى رَوح ورَيحان وخلود في جنان، دونما قلق واضطراب وذلك هو الفوز المبين.

﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ[(٢)] ﴿٤٧﴾﴾ [الشّورى: الآية ٤٧].

من آثار الإيمان باليوم الآخر

للإيمان باليوم الآخر آثار ثمينة جداً؛ منها:

١ ـ أن الإنسان يراقب نفسه في كل عمل يقوم به خوفاً من العقاب الأخروي، فلا

---

(١) لا بأس بذكر هذين الحديثين عن رسول الله ﷺ لأهمِّيتهما، لا سيّما في مثل هذه الظروف. فإن عاقبة الإنسان منوطة بعمله ودرجة تطهير نفسه. قال رسول الله ﷺ: «من زوج كريمته بفاسق نزل عليه كل يوم ألف لعنة ولا يصعد له عمل إلى السماء ولا يستجاب له دعاء ولا يقبل منه صرف ولا عدل» [مستدرك الوسائل: ج٥، ص٢٧٩].

وقال ﷺ: «أي امرأة رضيت بتزويج فاسق فهي منافقة وحبست في النار. وإذا ماتت فتح في قبرها سبعون باباً من العذاب. وإن قالت: لا إله إلا الله، لعنها كل ملك بين السماء والأرض وغضب الله عليها في الدنيا والآخرة وكتب الله عليها في كل يوم وليلة سبعين خطيئة» [إرشاد القلوب: ص١٧٤، باب ٥١].

(٢) نكير: أي ما تستطيعون من إنكار لما اقترفتموه من الذنوب.

يتصدَّى إلى ما حرَّم الله من ظلم وفسق وإجحاف بحقوق الآخرين. وإن أغواه الشيطان يوماً، فهو يتوب حالاً ويعالج بصورة فعلية وعملية ما كان منه من إجحاف بحقوق الغير أو جرح الخواطر إلى ما هنالك.

٢ ـ أنه يرى أنَّ الحياة ليست بالشيء الذي ينقطع مع الموت، بل هي خالدة مستمرَّة إلى ما بعد الموت بصورة دائمة، وأن «الدنيا مزرعة الآخرة»، كما جاء في الحديث، فيقوم في هذه الدنيا بأعمال صالحة وما يقربه إلى الله من عبادات كي يجني ثمرها، الجني في الحياة الآخرة، إنَّ هذه العقيدة نفسها خير مؤدِّب للفرد وعامل قوي لإيجاد حياة اجتماعية سعيدة يعلوها الهدوء والاطمئنان. فمن تجرد عن عقيدة المعاد لا يردعه شيء عن ارتكاب ما تهواه نفسه الطائشة إلا هذه القوانين الوضعيَّة. وإنَّ هذه القوانين البشريَّة! لا أثر لها في تعديل الأخلاق الشخصيَّة الفرديَّة والأخلاق العائليَّة والاجتماعيَّة، لأنَّها أبعد من أن تستوعب كل ذلك. فالعقيدة بالمعاد خير حافز لإصلاح النفس الإنسانيَّة وقطعها مراحل الكمال الإنساني.

٣ ـ إن المعتقد بالمعاد يقوم بما أوجب عليه الإسلام بالنسبة إلى الوالدين والأرحام والأصدقاء وبقيَّة المؤمنين من برٍّ وإحسان وخدمات اجتماعيَّة «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم» وهذا ممَّا يؤدِّي إلى تساند اجتماعي وتكوين مجتمع متكافل هو مصداق هذا الحديث: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو واحد تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى».

* * *

وقد قال بعضهم، إن الاعتقاد بالآخرة يعوِّق الفرد عن السير في أمور الدنيا قُدماً بجدٍّ ونشاط. ولكنَّا نرى أنَّ المسلمين الأوائل قد قاموا بأعمال جبارة في حقول شتَّى من تجارية وصناعية وزراعيَّة وعمرانيَّة وإن أكثر من ربع المعمورة كانت للمسلمين، وما كان ليُعيقهم الاعتقاد بالآخرة للعمل في عمارة الدنيا بشكل لا يؤدِّي إلى فساد في الأرض وتسافل النفوس ونسيان الآخرة. فقد قال رسول الله لأصحابه: «إن أخوف ما أخافه عليكم اثنان: اتباع الهوى وطول الأمل. فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة»..

على أنَّ الإنسان بطبيعته ميّال إلى الدنيا، يحرص على عمرانها والتزوُّد منها كلما وجد إلى ذلك سبيلاً. لذلك يحث الدين الإسلامي الإنسان على التفكير في حياة أخرويَّة خالدة والتهيؤ لها كي لا تميل النفس إلى المادَّة فحسب، فتتسافل. وفي الخبر: «تذكروا هادمَ اللذات».

وإنَّ للاعتقاد بالمعاد أثراً بالغاً في تهدئة النفوس إذا ما حُرموا (لحكمةٍ ما) من بعض زخارف الدنيا أو أصيبوا ببعض النكبات. فالله تبارك وتعالى سوف يعوِّضهم عن ذلك جزاءً موفوراً في نعيم خالد لا يُقاس بنعيم الدنيا بحال. يقدر ذلك علماء النفس.

وصفوةُ القول هي أنّ الاعتقاد بالمعاد خير رقيب لهذا الإنسان يصدُّه عمَّا يؤدِّي إلى فساد أو إفساد. ويحثه على ما هو خير وصلاح. فتكون الحياة الاجتماعيَّة قد بلغت شأواً قاصياً من تحابب وتوادٍ وتراحم... ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٠].

فما على المسلمين في أرجاء البسيطة إلا أن يقوموا بتطبيق تعاليم الإسلام لتحقيق حياة اجتماعيَّة سعيدة على وجه الأرض وجعل الإسلام ديناً عالمياً خالداً كما تنبأ بذلك كثير من العلماء.

* * *

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ(١) قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران: الآيتان ٨/ ٩].

(انتهى الجزء الثالث، والحمد لله، ويليه الجزء الرابع إن شاء الله تعالى).

---

(١) الزيغ: العدول عن الحق.

جدول بأسماء العناصر المستكشفة لحد الآن

مع العلم أنَّ كل ما عرفناه من مواد يتكوّن من واحد أو أكثر من العناصر الآتية:

العنصر	العدد الذرّي	الوزن الذرّي المتوسط
أيدروجين	١	١,٠٠٨
ليثيوم	٣	٦,٩٤٠
بورون	٥	١٠,٨٢
نيتروجين	٧	١٤,٠٠٨
فلور	٩	١٩,٠٠
صوديوم	١١	٢٢,٩٩٧
ألومنيوم	١٣	٢٦,٩٧
فوسفور	١٥	٣٠,٩٨
كلور	١٧	٣٥,٤٥٧
پوتاسيوم	١٩	٣٩,٠٩٦
سكانديوم	٢١	٤٥,١٠
فاناديوم	٢٣	٥٠,٩٦
منجنيز	٢٥	٥٤,٩٣
كوبلت	٢٧	٥٨,٩٤
نحاس	٢٩	٣٦,٥٧
جاليوم	٣١	٦٩,٧٢
زرنيخ	٣٣	٧٤,٩٦
هيليوم	٢	٤,٠٠
بيريليوم	٤	٩,٠٢
كربون	٦	١٢,٠١
أوكسيجين	٨	١٦,٠٠٠
نيون	١٠	٢٠,١٨

ماغنيسيوم	١٢	٣٤,٣٢
سليكون	١٤	٢٨,٠٦
كبريت	١٦	٣٢,٠٦٤
أرجون	١٨	٣٩,٩١
كالسيوم	٢٠	٤٠,٠٧
تيتانيوم	٢٢	٤٧,٩٠
كروم	٢٤	٥٢,٠١
حديد	٢٦	٥٥,٨٤
نيكل	٢٨	٦٨,٦٩
خارصين	٣٠	٦٥,٣٨
جرمانيوم	٣٢	٧٢,٦٠
سيلينيوم	٣٤	٧٨,٩٦
بروم	٣٥	٧٩,٩١٦
روبيديوم	٣٧	٨٥,٤٤
بتريوم	٣٩	٨٨,٩٢
نيوبيوم	٤١	٩٢,٩١
تكنيتيوم	٤٣	٩٩,٠٠
روديوم	٤٥	١٠١,٩١
فضة	٤٧	١٠٧,٨٨٠
إنديوم	٤٩	١١٤,٨
أنتيمون	٥١	١٢١,٧٧
يود	٥٣	١٢٦,٩٣
سينريوم	٥٥	١٣٢,٩١
لاتنانوم	٥٧	١٣٨,٩٠
براسيوديميوم	٥٩	١٤٠,٩٢
ألينيوم	٦١	١٤٦,٠
أوربيوم	٦٣	١٥٢,٠

تيربيوم	٦٥	١٥٩,٢
هولميوم	٦٧	١٦٤,٩٤
ثوليوم	٦٩	١٦٩,٤
لوتيسيوم	٧١	١٧٥,٠
تاتنالوم	٧٣	١٨٠,٨٨
رينيوم	٧٥	١٨٦,٣١
كربيتون	٣٦	٨٣,٨
سترنشيوم	٣٨	٨٧,٦٣
زركونيوم	٤٠	٩١,٢٢٠
مولبدنوم	٤٢	٩٥,٩٥
روتينيوم	٤٤	١٠١,٧
بلاديوم	٤٦	١٠٦,٧
كدميوم	٤٨	١١٢,٤١
قصدير	٥٠	١١٨,٧٠
تليريوم	٥٢	١٢٧,٥٩
زينون	٥٤	١٣١,٣
باريوم	٥٦	١٣٧,٣٧
سيريوم	٥٨	١٤٠,٢٥
نيوديميوم	٦٠	١٤٤,٢٧
سماريوم	٦٢	١٥٠,٤٣
جادولينيوم	٦٤	١٥٧,٢
ديسبروزيوم	٦٦	١٦٢,٥
أربيوم	٦٨	١٦٧,٧
يتربيوم	٧٠	١٧٣,٦
هفنيوم	٧٢	١٧٨,٦
تنجستون	٧٤	١٨٣,٩٢
أوزميوم	٧٦	١٩٠,٢

إِبريديوم	٧٧	١٩٣,١
ذهب	٧٩	١٩٧,٢
ثاليوم	٨١	٢٠٤,٣٩
بزموت	٨٣	٢٠٩,٠٠
استاتين	٨٥	٢١٨,٠٠
فرانسيوم	٨٧	٢٢٣,٠٠
اكتينيوم	٨٩	٢٢٧,٠٠
بروتاكتينيوم	٩١	٢٣١,٠٠
نيبتونيوم	٩٣	٢٣٧,٠٠
أمرسيوم	٩٥	٢٤١,٠٠
بركليوم	٩٧	٢٤٣,٠٠
أينشتنيوم	٩٩	٢٥٣,٠٠
مندلفيوم	١٠١	٢٥٦,٠٠
بلاتين	٧٨	١٩٥,٢٣
زئبق	٨٠	٢٠٠,٦١
رصاص	٨٢	٢٠٧,٢١
بولونيوم	٨٤	٢١٠,٠٠
رادون	٨٦	٢٢٢,٠٠
راديوم	٨٨	٢٢٦,٠٥
ثوريوم	٩٠	٢٢٣,١٢
يورانيوم	٩٢	٢٣٨,٠٧
بلوتونيوم	٩٤	٢٣٩,٠٠
كيوريوم	٩٦	٢٤٢,٠٠
كالفرنيوم	٩٨	٢٤٤,٠٠
فرميوم	١٠٠	٢٥٤,٠٠
نوبليوم	١٠٢	٢٥٧,٠٠

فهرس الجزء الأول

فهرس الجزء الثاني

فهرس الجزء الثالث